

تاريخ إسبانيا الإسلامية

من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية
(٧١١-١٠٣١)



ليفى بروفنسال

له إلى الإسبانية:
جارتيا جومث

له إلى العربية:
عبد الرعوف البمبي
برهيم المنوفى
عبد الظاهر عبد الله

ترجمة: صلاح فضل

المشروع القومي للترجمة

تاريخ أسبانيا الإسلامية

من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية

(٧١١ - ١٠٣١ م)

بقلم

ليفي بروغنسال

ترجمه إلى الإسبانية

إميليو جارتيا جومث

ترجمه إلى اللغة العربية

على عبد الرؤوف البمبي على إبراهيم منوفى

السيد عبد الظاهر عبد الله

مراجعة

صلاح فضل



٢٠٠٠

هذه هي الترجمة الكاملة لمجلد

تاريخ أسبانيا الإسلامية
من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية
(٧١١ - ١٠٣١)

ESPASA CALPE, S. A.

Madrid, 1967

(الطبعة الثالثة)

تنويه

ترجم أ.د. على عبد الرؤوف البمبى المقدمة والفصلين الأول والثانى مع حواشييهما،
وترجم د. على إبراهيم منوفى الفصل الثالث والسادس والسابع مع حواشيهم،
وترجم د. السيد عبد الظاهر عبد الله الفصلين الرابع والخامس مع حواشييهما،

وقام أ.د. صلاح فضل بمراجعة الكتاب كله.

تاريخ أسبانيا الإسلامية

مقدمة

الأمويون وحضارة قرطبة

إميليو جارتيا جومث

عندما كلفني أستاذنا «رامون مينندث بيدال» - بصفتي مترجم هذا المجلد - بالمهمة الشاقة المتمثلة في كتابة تقديم له، قمت - كما يقتضى الحال - بمراجعة المجلدات السابقة ومقدماتها، وبعد مقارنة محتواها بمحتوى هذا المجلد انتابني إحساس كبير «بالدهشة»، ولاغرو في هذا إن علمنا أنه لا يوجد على مدار تاريخ أسبانيا المضطرب تحول أشد حدة ولا أعرق تأثيرا من الفتح العربى .. ولازلت أذكر أنني في شبابه قلت لنفسى ذات مرة بأسلوبى المضحك - وقتها - بالصور البيانية : «لقد ظلت تزجى أوقات فراغك بحياكة أخبار العالم القديم - من المغرب إلى الهند - بمخايط من مآذن حتى علقت أسبانيا صدفه بإحدى عراها».

وقبل العودة للحديث عن «مفاجأة» الفتح هذه، يجدر بى أن أجتلى الطريق بالتعريج الموجز على أخريات تنتظر القارئ ولا تندرج فقط تحت غرابة أسماء وأشكال ودين وعادات الممثلين الجدد الذين جاء دورهم ليعتلوا خشبة المسرح التاريخى لوطننا ويشغلوا مساحة كبيرة منها.

ومن تلك «المفاجآت» التى أقصدها أن أكون المعنى بكتابة هذه الصفحات وليس الأستاذ رامون مينندث بيدال نفسه [وهذا أمر مقبول فى النهاية نظرا للمسئوليات الباهظة التى تستولى على الوقت الثمين لأستاذنا المسن، ولأنها - أى الصفحات - تتعلق بموضوع وإن لم يكن غريبا على اهتماماته فإنه بعيد بعض الشئ عنها]؛ وأن تكون المادة العلمية التاريخية لكاتب أجنبى مرموق (ترجمت كل أعماله إلى الأسبانية) وليس لكاتب من أبناء جلدتنا حتى الآن. ولذا أعتقد أن من المناسب التوقف - ولو قليلا - عند هذه النقطة الأخيرة.

إنه لمن دواعى الأسف فعلا أن يكون معظم المهتمين حاليا - إن لم نقل كلهم - بحقل الدراسات التاريخية الأسبانية فى العصر الوسيط يجهلون (أجانب وأسبان، سواء بسواء) اللغة العربية بالرغم من علو كعب الكثيرين منهم وتميز البعض وريادته.. ومن هنا فليس بمقدورهم التعامل المباشر مع المصادر العربية، وهى كثيرة ومستفيضة وفريدة فى بابها فيما يخص التعرف على ماكان يجرى هناك داخل أسبانيا المسلمة أو

على حدودها أو مع جيرانها؛ وحتى لو أسقطنا - فى بعض الأحيان - صفة التفرد عن هذه المصادر العربية القديمة فإنها مع هذا تظل الأكثر تفصيلا مقارنة بمثيلاتها المسيحية.

ولهذا يمكن القول أنه بدون المعرفة المقبولة - على الأقل - للغة العربية سيظل جزء من تاريخ عصرنا الوسيط مطموراً وسيبقى ماضى مظهر منه مشوهاً. ومن العجيب أن هؤلاء المؤرخين يبدون وكأنهم لا يعيرون هذه الحقيقة التفاتاً [هل لأنها واضحة كالشمس؟]، وإذا انتبهوا إليها فإنهم يسارعون بإلقاء التبعة على كاهل الآخرين، مرددين فيما بينهم : «لقد اكتفى المستشرقون الأسباب بتسليّة أنفسهم بتوافه المسائل الفلسفية واللاهوتية والتشريعية أو الشعرية وتناسوا التاريخ، ولو ترجموا لنا تلك الحوايات التى نحن فى أمس الحاجة إليها لشيدنا صرحاً علمياً شامخاً». ومن غير المفيد إبراز غرابة هذا الادعاء. فالمستشرق لا يجب أن يكون بالضرورة مؤرخاً ولا ماهو أدنى من ذلك : أى مجرد مورد لترجمات تحتاجها أعمال الآخرين. والمستشرقون الأسباب لديهم أقسام اللغة العربية مفتوحة على مصراعيها أمام من يريد، ومن يدرس فيها بإمكانه التخصص فى الدراسات التى تهمة - سواء كانت فلسفية أو أدبية أو تاريخية. أما خارج هذه الأقسام فلاساتذتها - كما هو الحال بالنسبة للغويين الذين لا يفرض عليهم أحد التزاماً بعينه - حرية اختيار المواد العلمية التى تناسب ميولهم وقدراتهم. لقد انطوت منذ أمد بعيد سيرة مدرسة مترجمى طليطلة، وبالتالى فإن مؤرخى العصور الوسطى لو كانوا يحتاجون فى عملهم للغة العربية فعليهم أن يتعلموها دون انتظار لمساعدة غيرهم. وسيأتى يوم يتحقق فيه هذا، لكن من الآن وحتى ذلك اليوم الموعود لن يستطع مؤرخو العصور الوسطى المتخصصون كتابة تاريخ إسبانيا الإسلامية وسيظل المستشرقون وحدهم القادرين على القيام بهذه المهمة بالرغم من عدم تخصصهم فى التاريخ.

وبعد هذا التنويه ندلف إلى شق آخر من القضية يتعلق بقلة عدد المستشرقين وعزلتهم عن الاهتمام العام بسبب غرابة الموضوعات التى يعالجونها. ولشدة وعى المستشرقين بهذه المشكلة فقد سعوا إلى التواصل مع المهتمين خارج حدودهم بالإنسانيات الأوربية والتكاتف معهم من خلال تكوين جمعية صداقة عالمية توزع فيها الأدوار. ولحسن الحظ فقد استمرت هذه الشراكة فى تأدية دورها بالرغم من مكدرات الأيام.. وهكذا، فقد انتقلت - على سبيل المثال - الريادة فى مجال تاريخ الغرب الإسلامى من الأسباني «كوندى» إلى الهولندى «دوزى» (إمام المستشرقين الأوربيين)

ثم إلى الأسباني «كوديرا» الذي استطاع أن يخلّد ذكره بالأعمال الكثيرة التي خلفها وبالمدرسة العلمية التي وفّق في تأسيسها وبشفافيته التي أنارت قفارا وإن لم يستطع سبر أغوارها .. أما بالنسبة لرسو هذه الزعامة اليوم على الفرنسي ليقي بروقنسال - مؤلف هذا المجلد - فهذا مما لا يستطيع أحد المزايدة عليه. فأستاذ السوربون الأمد هو الخليفة الحقيقي لدوزي العظيم، وهو الذي ينفذ المشروعات التي حلم بها «كوديرا»، كما أن حياته العلمية الشديدة الخصوصية مخصصة كلها تقريبا لدراسة الغرب الإسلامي، ومن بين الأمور التي أهّلته لتولى زعامة الدراسات الأسبانية - العربية دون منازع، نذكر : اكتشافاته المدهشة التي قادها إليها حسن الطالع؛ حيازته للعديد من الوثائق الجديدة والتمينة؛ والكمّ الهائل من الطبقات والترجمات والدراسات القصيرة والطويلة التي توشى ببراعة وثقة لانظير لهما. ويستحق مجلده الأول من «تاريخ أسبانيا الإسلامية» (الذي يعتبر تنويعا لنشاط علمي غير عادي) الحفاوة الحارة التي قوبل بها في أوساط النقد العالمية. فلقد استطاع فيه - ولم يكن هذا بالأمر الهين - التفوق على «دوزي»، نظرا لسوقه الكثير من النصوص والملاحظات التي لم ترد من قبل، ولتصحيحه الأخطاء القديمة، وتحديثه للقضايا المطروحة وعرض أخريات جديدة، ولأسلوبه الفعال الحاسم الذي لم يضعف أمام المغريات والزخارف الأدبية .. وعلى هذا فقد أصبح العصر الأول لأسبانيا الإسلامية يتمتع من الآن - بعد فترة الركود التي ألمّت به بعد المشكور «دوزي» - بقاعدة جديدة ستظل لسنوات مديدة أساسا للانطلاقات العلمية المستمرة وهدفا للمداخلات الدائمة.

وبعد كتابة ليقي بروقنسال للعديد من المؤلفات عن تاريخنا وظهر هذا المجلد مؤخرا حدثتني نفسي قائلة : ماذا سيفعل المستشرقون الأسبان وليس بينهم اليوم مؤرخون متخصصون؟ هل سيتجهون لإعداد تاريخ جديد، علما بأنه موجود بالفعل، يلجأون فيه لإضافة بعض الملاحظات الهامشية بالرغم من عدم امتلاكهم للنصوص الهامة التي يقبض العالم الفرنسي على ناصيتها وحده؟ هل بإمكانهم تجاوز هذا العمل بآخر يحتوى على بعض المستحدثات؟

وللإجابة على هذه الطروحات لامفر من الاعتراف بأنها غير منطقية لسببين : لأن الوقت الذي سيستغرقه مثل هذا المشروع من الأفضل توجيهه إلى أعمال أخرى، هذا بالإضافة إلى الوعي المهني بعدم جدوى هذه المهمة. ولذلك فالحل الأمثل هو الذي اخترته : أي ترجمة هذا العمل خاصة وأن مؤلفه صديق عظيم لأسبانيا وقد وجه كل جهده للتنقيب في ماضيها الإسلامي ولم يكتب سطرا واحدا يجرح شعورنا، هذا

بالإضافة إلى أنه قد أجاز لنا تغيير مآلعتقده مناسبا. ومن هذا المنطلق شرعت فى ترجمة هذا العمل إلى الأسبانية ولم أضف إليه سوى بعض التتقيحات الطفيفة.

والآن، وبعد الإفصاح الواجب عن تلك الخواطر يأتى دور التعرّيج على «المفاجأة» التى يمثلها الغزو العربى بالنسبة لتاريخنا. إذا كانت الغارة الجرمانية لم تستطع قبل عدة قرون سوى مداعبة هدفها بعد مشوار طويل من الجهد والعنت وتمخضت عن فتّ عضد المنتصرين وذويانهم فى شخصية المهزومين بفضل الصلات الوثيقة بينهم فإن الغزو العربى خرّ على الشعوب المحتلة فى لمح البصر قادما من بلاد لا يعرفون عنها سوى القليل (حتى لانقول أنها كانت مجهولة تماما لهم) لدرجة أنه - وليس الغزو الجرمانى، طبقا لنظرية «هنرى بيرن» الصائبة - أصبح يمثل الحد الفاصل والحقيقى بين العصر القديم والعصر الوسيط. ومن نواعى العجب أنه كلما كثرت الدراسات حول مايمكن تسميته «بالمعجزة العربية» كلما زادت الحيرة. ونحن لانعلم الآن مقدار ماكان يعرفه أو يفكر فيه بلاط طليطلة بالنسبة للتوسع الإسلامى فى شمال أفريقيا. لكن بإمكاننا - فى المقابل - أن نعترف بأن الأمر كان بمثابة مفاجأة غير عادية، وبأن تلك المفاجأة قد أحدثت نوعا غريبا من البُهت، ولأن علامة البُهت تتمثل فى الصمت يمكننا القول أنه لا يكاد يوجد فى التاريخ الإنسانى صمت أكثر اتساعا وأشد رجفة من الصمت الذى يغلف دخول المسلمين أسبانيا. وكل مانعرفه الآن عن الاحتلال وعن المراحل الزمنية المتقدمة للوضع الجديد يرجع لمصادر متأخرة بعض الشئ تحاول إلقاء الضوء - دون حيدة أو نزاهة تامة - على فترة مطبقة الظلام، ولذا فإنها حافلة بتلك الأساطير التى تنبت عادة - مثل زهرة شيطانية - فى تلافيف التاريخ المعتمدة.. ومع هذا فإن تلك المصادر المتأخرة تحدثنا فقط ويشكل غامض عن الإعداد للغزو وعن الجيش الغازى المكون من العرب والبربر وعن احتلال المدن (الذى يصل لحد الخيال، كما هو الحال بالنسبة لقرطبة، نظرا لأهميتها اللاحقة) وعن المعارك التى جرت والنظام الذى خضعت له الأراضى الشاسعة الواقعة تحت نير الاحتلال، وكلها موضوعات يحكمها جدل واسع بين المؤرخين الذين يعتمدون عادة - ولا فرق بينهم فى هذا وبين المصادر المشار إليها - على مجرد التكهن والتخمين. وفى المقابل، لا يوجد أمامنا سوى ثلّمة مرعبة نطل من خلالها للتعرف على حقيقة ماحدث وعلى ردّ «فعل المسيحيين الذين غرقوا فى طوفان لم يشاهدوه من قبل». ولانجد ومضات من الضوء إلا حين يصرخ بعض المسيحيين المحتمين بالجبّال الشمالية أثناء مطاردة العرب لهم بغاراتهم المدوية، أو حينما ينقلب العرب على بعضهم لإطفاء جذوة ثاراتهم الجاهلية؛ لكن القسط الأعظم

من التاريخ قد تطاير دون ضجيج وغرق فى صمت كثيف تحت بحر متلاطم لا يكاد يرى منه بعد ذلك سوى جزر صغيرة لمستعمرات أو رهبان مستعربين.

فى الحوليات العربية يصمت المسيحيون ويتحدث الغزاة، وإن كنت أعتقد أنه للمرة الأولى ومنذ عهد الرومانين يتجدد استماعنا - من خلال هذه الحوليات - لحوارات فوق أرض أسبانيا. ومن خلال سياحتى بصفحات «أخبار مجموعة» المركزة لفتت انتباهى شخصية الصميل (Sumayl) الغريبة : فهو رجل محارب، أديب وذكى، يتحرك مثل مكوك على ظهر بغلته من مكان لآخر، يبرم الموائيق، ينقض ما برم، يكيد، يعد ويخلف، مخلص وخائن فى آن واحد وكأنه أنموذج لذلك «الحلم» العربى الذى أخنى عليه الزمان، خليط من الصفات المتناقضة التى تشكل الملامح النفسية الخاصة بالشخصية العربية. ومن اللقاء الذى تم بين الصميل هذا وبين أرطباس (ARTOBAS) ابن غيطشة (WITIZA) وعرضه علينا ابن القوطية بشئ من الرضا، يتضح لنا أننا أمام شخصيتين متناقضتين تماما، إحداهما قُدت من معدن والثانية من معدن آخر ذى مكونات مبهمة ومتباينة.

ياترى ماذا كان سيحدث لجماعات الغزاة الرُّحل لو استمرت الخلافة الأموية فى الشرق : لهؤلاء العرب المغامرين الأشاوس (مثل حجارة قذف بها مقلع قصى وفى وثبتها الأخيرة) وللبربر المغاوير، قاطنى الجبال وأصحاب القطعان، المتحمسين للدين الجديد؟ ماذا كانوا سيصنعون ولما يأنلف بعد نسيجهم فى تلك الأراضى البعيدة الذاهلة، وهم بين شقى رحى امبراطورية متهاكة وقد قاسوا الجوع والجفاف، وحولتهم الإحن القبلية القديمة إلى شرائم يترصد بعضها بعضا فى مذابح دامية؟ السلطة العليا بعيدة ومشغولة؛ الرباط الواهن بشمال أفريقيا دائما فى خطر؛ الفوضى سائدة والحكام يتسلقون ويهرون فى إيقاع يثير الدوار؛ المقاومة المسيحية تستأسد فى الجبال وفى بلاط الشهداء يتوقف مد الرحلة الطويلة المدهشة. هل كان كل هذا سيصبح مجرد كابوس مخيف ألم بأسبانيا ولم يطل؟.. وهنا يتدخل الحظ من جديد وتعود المفاجأة لتطل برأسها : فبعد أن لفظت الخلافة الأموية أنفاسها فى دمشق، وأعمل السيف فى رقاب ذكور العائلة البدوية الكبيرة التى كانت تحكم، استطاع فرد واحد أن ينجو بنفسه من المذبحة وأن يتخطى آلاف العقبات والأخطار - فى مشاهد تفوق أكثر أفلام المغامرات إثارة - ليصل سليما معافى إلى شاطئ «المنكب» (ALMUÑECAR).

تسترعى انتباهنا فى مقدمة ابن خلدون - المؤسس الحقيقى لفلسفة التاريخ - ومضة عبقرية لنظرية الأجيال الحديثة، وطبقا لرأيه فإن المسيرة المحتومة

للامبراطوريات تمر بثلاثة أطوار أو أجيال : جيل التأسيس، جيل المحافظة ثم جيل الهدم. وإذا كان من غير الممكن تطبيق هذه النظرية (التي نبعت من دقة ملاحظة المفكر العبقري أو تفتقت عنها خبرته الطويلة) بحذافيرها الآن على التاريخ الحديث فإنها، في المقابل، ملائمة تماما لتفسير تاريخ أسبانيا الإسلامية بكامله، حيث نجد أن الأسر الحاكمة تتألف عادة من ثلاثة حكام أو سلسلة من المجموعات في كل منها حكام ثلاثة ينطبق عليهم نفس المعيار الذي حدده المؤرخ العربي. وأعتقد أن هذا التوالى الثلاثى لم يظهر فى أى حقبة تاريخية بأوضح مما ظهر عليه خلال حكم المسلمين لأسبانيا، فهو لم يتحقق فقط فى أغلب أسر الطوائف الحاكمة بل أيضا فى المرابطين والموحدين وفى الناصريين حكام غرناطة - بشكل أو بآخر -، وبالطبع فى الخلافة القرطبية. ففى خلافة قرطبة الأموية نستطيع التمييز بين مجموعات ثلاثة، تشتمل كل مجموعة منها على ثلاثة أجيال يأتى فى مقدمتها دائما حاكم يسمى عبد الرحمن يليه عاهل يعضد ويدعم بنيانه ثم يأتى ثالث تعاني الدولة على يديه من أزمت خطيرة. وتتألف المجموعة الأولى من العبقري عبد الرحمن الأول يليه السمع الوديع هشام الأول ثم الغضوب النزق الحكم الأول، وتتألف المجموعة الثانية كذلك من ثلاثة أجيال : عبد الرحمن الثانى، محمد الأول والأخوان المنذر وعبد الله، ونفس ماتقدم نجده فى المجموعة الثالثة (أى فترة الخلفاء السابقين لعهد الفتنة) : عبد الرحمن الثالث (الناصر)، الحكم الثانى (المستنصر)، هشام الثانى (المؤيد). ونلاحظ أيضا أن الأمراء المستبدين كانوا أيضا ثلاثة بالرغم من تواجد جيلين فقط منهم : المنصور، المظفر و«شنجول» (SANCHUELO)، ويعددهم تأتى الفترة المضطربة لسقوط الخلافة. ومن الغريب أن هذه العصور الأربعة التى يتألف كل منها من ثلاثية تتوازى مع الأربع مراحل لبناء المسجد الجامع بقرطبة، فالثلاثة الأولى منها (التي قام بها الأمويون) زادت من رونق المسجد وبهائه بينما كانت إضافة المنصور غير متناسقة وأقل عناية.

وإذا كانت الدولة الأموية قد قطعت منذ تأسيسها كل الصلات السياسية التى تربطها بالخلافة العباسية المتأججة، فإنها لم تستطع فعل نفس الشئ مع الروافد الثقافية، ولا يرجع هذا لقدرية آلية التاريخ فقط بل، أيضا، بدافع المنفعة الذاتية. فلقد كانت الأندلس آنذاك هى الأشد فقرا فى مجال الحضارة العربية والتى تعتمد فيها على أفريقيا أولا ثم على بغداد. واعتمادها عليهما لم يكن هينا، إنه يماثل اعتماد الشعوب الأوربية فى الأدب والرسم والتصوير على إيطاليا خلال عصر النهضة. أو يشبه إلى حد كبير تشبع دويلات العالم الجديد برحيق أسبانيا الثقافى. ولقد توافرت عدة عوامل أدت جميعها فى النهاية إلى تعزيز هذا التواصل الحضارى بشكل متفرد :

توحيد العقيدة الإسلامية لشعوبها بغض النظر عن السياسة (وهي وحدة تفوق بكثير نظيرتها بين الدول المسيحية قديما وحديثا)؛ عدم تشييت العربى - سليل آبائه الرحالة - بالبيئة الجغرافية التى يعيش فيها واعتزازه لدرجة التعصب بالروابط القبلية والدينية، وتعلق قلوب المسلمين بالأمكان المقدسة مما يحفزهم دائما على القيام بالرحلات الطويلة من أجل الحج المقترن بجلب المنافع التجارية والعلمية. ومع ذلك، فإن الفضل الأكبر لإمارة قرطبة الأموية يرجع إلى حسن اهتدائها لتوظيف هذه الرغبة العارمة فى الوقت المناسب. فمن أجل الحد من هذه الرغبة أو توظيفها لم تستخدم فقط وبمهارة الحاجز السياسى المناوئ لمنافسيها فى بغداد، بل استعانت أيضا بحليف ساقته العناية الإلهية لها : ونقصد به تطبيق مذهب إمام المدينة المنورة مالك بن أنس فى إسبانيا، والذي استتب فيها منذ أميرها الثانى الوديع التقي هشام الأول. فلقد استأثرت المالكية - التى يساندها البلاط الأموى - بنصيب الأسد من بين المدارس الفقهية الأخرى إلى أن أزاحتها فى النهاية، وسرعان ما انتصبت كقوة سياسية / دينية جبارة تحمى العقيدة السلفية التى تناوشتها الأهواء. وسيكون لدينا متسع من الوقت لإبراز قوة الفقهاء الأندلسيين والتى ترمز لها خلال عصور ملوك الطوائف الأولى شخصية أبو إسحاق الإلبيرى التى قمت بتحليلها بالتفصيل فى مكان آخر. وفى هذا المقام يكفى أن أشير - فى غير قليل من الدهشة - إلى أن هذه الخاصية الأساسية للدولة الأموية قد لازمت كل فترات التاريخ الأسباني المضطرب. فيمثل الحماسة والحمية التى كان على أسبان العصر الذهبى الاستعانة بهما للدفاع عن العقيدة الكاثوليكية ضد الهرطقات اللوثيرانية (نسبة إلى «لوتيرو») قام المسلمون الأيبيريون المتشبثون بالتراث بالدفاع عن عقيدتهم السلفية ضد البدع والزندقات التى تفشت فى أوصال الامبراطورية العباسية.

ومن مطالعة الصفحات المشرقة التى كتبها أستاذى «أسين پلاثيوس» عن ابن مسرة يتضح لنا وجود مارقين فطناء وحتى مؤثرين فى الأندلس، لكن تأثيرهم كان هامشيا ولم يחדش القاعدة الصلبة للدين المشترك ... وكما حدث فى إسبانيا المتأخرة فإن القوى الروحية عندما لم تتمكن من النيل علانية من استحكامات المالكية فقد آل بها الحال إما إلى التحلل فى مستنقعات التحرر الآسنة أو إلى التبخر فى سماء التصوف الرأقى.

ومن خلال المسام الضيقة لهاتين المصفتين - التراث الدمشقى والمالكية - كم وكم تسلفت من إضافات شرقية فى مختلف المجالات! ونظرة واحدة على تاريخ الأدب

العربي الأندلسي - وهو جدير بهذه التسمية - تدلنا على كيفية الامتلاء المطرد للإناء الفارغ : كتب، موسيقى، أخبار، عادات، معتقدات، أغان، سلوكيات، أفكار، تقليعات أدبية وكل ما يشكل لحمة الحضارة من عناصر متنوعة لانهائية كان يعبر الشباك الضيقة ليروي حينذاك ظمأ أرض أسبانيا الإسلامية الجرداء ويتفاعل معها.

بالرغم من جفاف مجموعات «السير الذاتية» التي لاتحصى، فإنها فى منتهى الدقة ويستطيع من يجوس خلالها أن يعد قائمة طويلة بالكثير من هذه الواردات الحضارية. ومن ألوان الأدب الأخرى نستطيع أن نتعرف على مدى التطور الذى حدث، ففى الشعر - على سبيل المثال - نعجب أشد العجب لذلك التلميذ الصغير الذى لم يكن قد تلقى إلا مبادئ الكتابة ويهبط عليه الإلهام فى يوم سعد فيترك أدوات لهوه ويتصدى لقرض الشعرو فى لحظات معينة تنفتح أمام أعيننا صناديق ضخمة محملة بالمفاجآت مثل تلك التى تخص وصول زرياب إلى أسبانيا حاملا معه الألحان، مجالات الأزياء الحديثة، طرق تصفيف الشعر، وصفات المأكولات وفن الإتيكيت. وقد قام خوليان ريبيرا برسم ملامح هذه الشخصية، والآن يستكملها ليثى بروقنسال فى ضوء الوثائق الجديدة ويجعلها علامة مميزة لبلاط عبد الرحمن الثانى والبداية التاريخية لتلون الدولة الأموية بالصبغة العراقية. نعم، لقد أوشك الإناء الفارغ على الامتلاء.

عندما زار أسبانيا - أيام الناصر - العالم المشرقى أبو على القالى كان يظن أنه ذاهب إلى بلد بربرى يحتاج لمنقذ، لكنه فوجئ بصبى شاعر يدعى «أبوثنيثا» (أو أبو الرّماد) (ABUCENIZA) يستقبله بقصيدة عصماء تضارع أروع ما فى الشرق من شعر. فى تلك الفترة كان ابن عبد ربه قد انتهى من تأليف كتابه الشهير «العقد الفريد» ولما لم ينل الحفاوة المستحقة اتخذ كمثال على عدم اهتمام الأسبان الأندلسيين بما يخصهم من درر (وهذا مادعى الصاحب بن عباد لأن يقول : هذه بضاعتنا ردت إلينا)، لكن هذا الكتاب قد تحول اليوم إلى مصدر لاغنى عنه للتعرف على حضارة وتاريخ مسلمى العصور الأولى.

ولنا الآن أن نتساءل : ماهو الانطباع الذى أحدثه هذا المد المتزايد للثقافة العربية بين أوساط المستعربين المسيحيين فى أسبانيا؟ .. إنه مزيج من التقدير والحسد والنفور. وهذه المشاعر الثلاثة تعكسها الشكوى المريرة والشهيرة التى أطلقها البارو القرطبى، المتحدث الرسمى باسم الأقلية المستعربة التى لم تفقد هويتها. فبعد إظهار إعجابه بهذه الحضارة الواقعة بيده ألمه للآثار المخيفة للسبب العربى فى الحياة الروحية والأخلاقية للطائفة المسيحية التى يكفى اسمها الجديد للتدليل على واقعها الأليم (حيث

أن كلمة مستعرب تعنى من يتحول عربيا أو يتعرب). وبالفعل، فإن جاذبية الثقافة الإسلامية وحياة المسلمين بعامّة - إضافة إلى الزيجات الحتمية التي جمعت المسيحيات بالعرب - قد جعلت المسيحيين يتبنون العادات الوافدة (فقد كان منهم من يختتنون) ويقلدون الأدب العربى (كان المسيحيون يتعلمون العربية ويؤلفون بها الأشعار بينما أخذت اللاتينية فى التلاشى حتى بين الرهبان أنفسهم، ولذا كان من الضرورى ترجمة الإنجيل والقوانين الكنسية إلى العربية)، لدرجة أنهم تبعوهم فى الهرطقة والمروق، وقد أدت هذه الظروف إلى تفجّر أزمة المستعربين التي اختلفت حولها الآراء وتناولها الكثيرون من منطلق العاطفة فتضخمت واحتلت مساحة بأكثّر مما تستحق، وقد أن الأوان لردّها إلى حجمها الحقيقى كما فعل الأستاذ ليقى بروقنسال (الذى يبدو أنه لم يطلع على كتاب «ت. و. أرنولد» «التبشير فى الإسلام - لندن ١٩٣٥، الطبعة الثالثة»، ولو فعل لاستفاد كثيرا).

وتتلخص أحداث تلك الأزمة فى الحكم - خلال الفترة من ٨٥٠ إلى ٨٥٩ - بمدينة قرطبة على أربعين مستعربا بالإعدام عقابا على سبهم رسول الإسلام علانية.

ألهذا يمكن الحديث عن اضطهاد؟.. كلا وألف كلا، لأن الدولة الإسلامية - وخاصة أثناء حكم الأمويين - كانت، على خلاف مايعتقد غير العارفين، فى منتهى التسامح مع المسيحيين واليهود؛ ولقد دان المستعربون للفاتحين نتيجة لهذا التعايش الإيجابى وهذا ما أثار حفيظة المشتغلين منهم بالسياسة. فعلاوة على إبراز الوثائق التاريخية الكثيرة التى خلفها المستعربون لهذا التسامح [يعترف «سان أولوخيو» نفسه بأنه «لايشعر بين المسلمين بالدونية أو المضايقة»، كما يشير آخر وهو «خوان دى جورز» إلى أن «المسيحى يمارس شعائره بحرية تامة فى عهد عبد الرحمن الثالث»] فلم يكن المسيحيون يرتدون لباسا خاصا ولا يحملون شارة مهيّنة تميزهم، وكانوا فى كثير من الأحيان يرتقون إلى أعلى المناصب المدنية أو العسكرية، وكان القساوسة يغشون الأماكن العامة بزيهم التقليدى، كما كان من الممكن فى بعض الأحيان تشييد كنائس جديدة.

واعتمادا على ماسبق ذكره نقول أنه لو وجدت حينذاك محاولة تبشيرية سلمية تهدف إلى تألف النسيج الاجتماعى فليس من حقنا تاريخيا أن ندينها. لكن لكل تسامح حدوده، ومن غير المعقول أن نطلب من المسلمين التساهل إلى الحد الذى يغضون فيه الطرف عن إهانة وسب المسيحيين لرسولهم علانية فى نفس الوقت الذى لايسمح فيه لأحد بالتعريض بالعقيدة المسيحية. والقانون القرآنى ينص على إنزال أقصى العقوبة

بمن يقترب هذا الجرم، وهذا ماتم تطبيقه بالفعل وبدون زيادة على الذين تناولوا علانية على شخص رسول المسلمين.. هل علينا إذن غض الطرف عن القضية؟ لو فعلنا نكون قد انتقصنا من هذه الحقيقة التاريخية الموجهة ولم نوفيها حقها من الاحترام. ولذا فمن واجبنا النظر إليها باعتبار أنها عمل بطولي ضحى فيه المستعربون بذواتهم من أجل قيمة سامية كان الإحساس بها يتعاضم كلما ازداد تهديد الحضارة الوافدة لها. وهذا ماوعاه الضمير المسيحي على مر العصور والدليل عليه تلك الحماسة التي دفعت رهبان أوربا للذهاب إلى الأندلس لحمل رفات شهداء قرطبة. وبالرغم من أهمية واقعة الشهداء، ومشكلة المستعربين بصفة عامة، وما أثير حولها من جدل جعلنا نتوقف عندها أكثر من اللازم، فإنها لا تمثل إلا نقطة يسيرة في أحمة تاريخ المجتمع الأندلسي الذي كان يتألف معظم نسيجه - بالإضافة إلى هذه الأقلية التي استمسكت بدين أجدادها - من مسيحيين قدماء ينتمون لجميع الطبقات استبدلوا عقيدتهم القديمة بدين الغزاة الجديد. ومن الصعب حساب عددهم الآن وإن كان من الممكن التكهن به في ضوء البيانات المتأخرة مثل التي أوردها «سيمونت» (SIMONET) في كتابه «المستعربون، ص ٧٨٨»، ومن إحداها ندرك أن قرطبة كان يعيش بها عام ١٣١١ حوالي ٢٠٠ ٠٠٠ مسلم من بينهم خمسمائة فقط ينحدرون من أصول عربية خالصة. وهذه العجينة الهائلة التي تضخمت دون هوادة بفعل التكاثر الطبيعي من خلال الزيجات التي شملت كل الطوائف والسلالات حتى العائلة المالكة نفسها؛ هذه الجموع الغفيرة من المسلمين الأنقياء [وغالبيتهم من أصل أسباني، ولذا يتمتعون بمكونات نفسية وغلرائية خاصة جعلتهم في كثير من الأحيان يختلفون مع الغزاة]؛ هذا الشعب المبهم الذي تشكل في تلافيف الصمت المتقدم ووعي أخيرا دوره، هو الوجه الحقيقي لأسبانيا المسلمة والذي علينا أن نكتشفه في مختبر أحد فروع العلم الحديثة المشوقة وتحت صبغة الإسلام الموحدة لكل الآفاق التاريخية التي أشرفت عليها.. ومع هذا توجد قسمات وملامح عميقة تجاوب الحظ في الإقصاح عنها. ولقد كان «خوليان ريبيرا» بعبقريته المعهودة، هو الذي أبرز - معتمدا على سوابق لقيمة لها - أشياء جديدة وأمورا «تعتبر استمرارا للروح الغربية داخل الأندلس» ومن أهمها الاستخدام المزدوج للغة. لقد ساق «ريبيرا» بعضا من الأملاح التي تبين أن كافة أفراد المجتمع الأندلسي - سواء العامة أو الأمراء أنفسهم - كانوا يستخدمون الرومانشية في حديثهم واستنتج من هذا أنها كانت اللغة الشائعة بين المسلمين الأسبان، ولم يكتف بهذا بل ساق فقرة هامة من «جمهرة» ابن حزم [ص ٤١٥ من طبعة ليقي بروقنسال الجديدة] تعتبر مايلي حالة شاذة واستثنائية : وهو أن العرب البلويين، المقيمين فيما يسمى الآن بـ «أجيلاس»

[بلای] و«مورون» [مُورور] «كانوا لايتحدثون اللغة اللاتينية (الرومانثية) بل العربية فقط».. ودراسة المفردات الرومانثية المستخدمة فى الأدب والأعلام الجغرافية تقدمت منذ «سيمونت» (SIMONET) - الذى كان يظن أن استخدامها حكر على المستعربين - واليوم أصبحت تحتل ركنا هاما من كتاب «أصول اللغة الأسبانية» للعالم الفذ «مينندث بيدال».

وفى هذا السياق نذكر - علاوة على ماتقدم - جهود «خوليان ريبييرا» ونظريته حول نسبة اختراع الموشحات والأزجال للأسبان (وهذا الفن الشعري منسوب لشاعر من قَبْرة - من أعمال قرطبة - كان يعيش فى أواخر عهد الإمارة القرطبية)، ومن حسن الحظ أن الاكتشاف الحديث والمدهش لخرجات رومانثية فى نهاية موشحات عربية وعبرية قد أماط اللثام - من جهة - عن وجود تراث أدبي أسباني متقدم فى الزمن على هذا الفن الشعري، وعزّز - من جهة أخرى - نبوءة «ريبييرا» بوجود «أدب أندلسي رومانثي».. وقد تمخضت دراسة هذه الخرجات الأعجمية - التى تعتبر الآن أقدم الوثائق الشعرية فى كل الآداب الرومانية - عن نتائج مدهشة. ونسوق فيما يلى أنموذجين، مختارين من طبعة «ستيرن» و«كنتيرا» كان يُتغنى بهما قبل ظهور «أغاني الصديق» الجاليقية / البرتغالية :

- ماذا سأفعل وماذا سيكون مصيرى ؟

ياحبيبي ،

لا تذهب وتتركنى وحيدة.

- أمأه، ما العمل؟

وحبيبي بالباب ينتظر.

يالها من أصوات شعرية رائعة، تلك التى تصلنا من الأندلس العتيقة المسلمة، فتبهز مشاعرنا الكامنة.

لقد حَبَرنا الكثير من الصفحات ولم نتحدث إلى الآن عن الممالك المسيحية فى شمال أسبانيا؛ وهذا الموضوع لايتصل حقيقة بمادة هذا المجلد المخصص بكامله لأسبانيا المسلمة، ولذا فمن الممكن فقط العناية بنقاط الاحتكاك بالدولة الإسلامية ولما كان «ليقى بروقنسال» قد أوفاهما حقها من الدراسة فلا داعى إذن لأن نكرر ما ذكره هنا. إن «حرب الاسترداد» (ولنا الحق بهذه المناسبة تكرار السؤال الذى طرحه «أورتيجا إى جاست» :

هل من الممكن إطلاق «حرب الاسترداد على شئٍ استمر ثمانية قرون؟) لم تكن قد اختمرت بعد في ذلك الحين، ولم يكن لها بالتالي أثر جليّ فعّال. لقد كان هناك حائل قوى وفاصل واضح المعالم بين الإمارة القرطبية والممالك المسيحية، يتواجهان أحياناً، وأحياناً أخرى يتعايشان كجيران طبيين لكن دون أن يدور بخلد الإمارة احتلال البلد بكامله أو يتجاسر المسيحيون على رد ماضع منهم بل فقط تعزيز ملكهم وترسيخه وتقليد حضارة الخصم مع مراقبة نقاط ضعفه للانقضاض عليه في الوقت المناسب، وهذا ما فعله بمهارة فائقة ألفونسو الثالث (الرائد الحقيقي لحرب الاسترداد الفعلية). وفي مناسبات عابرة ومتباعدة يشن كل منهما على الآخر غارة تنتهي بالاستيلاء على مدينة أو حرق حصون وقلاع أو أسر رجال ونهب ممتلكات ثم لا تلبث أن تعود إلى نقطة البداية. أما المواجهات الكبيرة والحاسمة فلم يكن قد آن أوانها بعد. فالملوك المسلمون لم يقرروا أبداً - على خلاف المنطق - وضع أيديهم على شبه الجزيرة بكاملها. وهذا لا يعنى أنهم لو حاولوا لظفروا ببغيتهم لأنهم كانوا على الدوام مشغولين بالقضاء على حركات التمرد والعصيان الداخلية. وهى حركات على كل لون وجنس، وتكرارها الرتيب كفيل بتشتيت ذهن القارئ غير المتخصص وإثارة ضجره: الصراعات الأبدية على السلطة نظراً لنظام توريث العرش وما يصحبه من تغيير النمط الطبيعي لتوالى الأجيال وإضعاف الروابط الأخوية؛ نزاعات بين العرب تشير جذوتها الإحن القبلية القديمة؛ حركات تمرد بربرية؛ مواجهات بين العرب الخُص والمولدين؛ عصيان المولدين؛ ثورات أهلية مثل ثورة الربض الشهيرة بقرطبة والتي أجبرت الكثيرين من الأسبان المسلمين على الرحيل إلى أراض بعيدة حيث ذهب بعضهم ليقطن «الشاطئ الأندلسي» في فاس بينما أسس آخرون مملكة في جزيرة كريت؛ وكل هذا دون أن نعد المصائب التي لم تكن في الحسبان - وكأنها هبطت من السماء - مثل إغارة النورمانديين على الأندلس وتخريبهم لمدينة أشبيلية.. كما أن الحركات الانفصالية هبت في غير هوادة مثل ربح السموم على شبه الجزيرة طوال عهد الإمارة القرطبية. فهذه هى الثغور الثلاثة الحدودية تتنصل على التوالى من السلطة المركزية مثل إقطاعيات مستقلة منبئة عما سيكون عليه الحال في عصر الطوائف القادم : فنغر «أرغن» (ARAGON) بقى فى أيدي سلاله «بنى قاسى (BANU QASI) ونصفه مسيحي والآخر مسلم؛ وثغر «ماردة» (MERIDA) حكمه ابن مروان ومن بعده ذريته؛ وطليلة

(TOLEDO) - المدينة المشنومة المتمردة على الأمويين دائما بالرغم من عمليات القمع القاسية - سارت على نفس الدرب. بل إن أشبيلية ذاتها تحولت إلى إمارة مستقلة، و«بجانة» (PECHINA) الصغيرة غدت تحكم نفسها تحت سيطرة فيدراليتها البحرية وأصبحت أنموذجا منظما لخلايا قرصانية عديدة تعمل لحسابها الخاص..

لاشك أننا نعرف أشياء كثيرة عن أسبانيا المسلمة، وأشياء أكثر عن ممالك الشمال المسيحية، لكن لازلنا بالرغم من هذا نتطلع لمعرفة الأحوال الاقتصادية لهذا المجتمع المتعدد الأجناس والطوائف واللوائح النفسية التي كانت تحرك هذه الكائنات المميزة.

يمكننا في نهاية المطاف أن نستوعب فكرة نزوع الأرض التي تحدها موانع طبيعية إلى العزلة والحكم الذاتي؛ لكن ماضيتنا بالفرد الذي يعلن عصيانه وتمرده هكذا دون سبب واضح لأيدولوجية أوقيمة معينة ولاحتى لإسقاط النظام الحاكم، ويكون كل همه الحفاظ على الحياة السيئة التي يحياها خائفا مطاردا ومحاصرا بين جدران أربعة لقصبة أو حصن ريفي!! لا أدري إذا كان يوجد في أى لغة أخرى الفعل الأسباني نوالضميرين «تحصن» الذي نستخدمه اليوم دون أن نعى تداعياته القديمة. لكن تلك الأراضي الخارجة على سلطة الدولة والتي يسيطر عليها هؤلاء «المتحصنون» كانت بمثابة خلايا سرطانية تفتك بصحة النسيج السلطوي! فقد كانت تقطع وسائل الاتصال وتعوق الإمدادات وتوقف تحصيل الخراج، إضافة إلى الفوضى التي كانت تسببها أو الأنموذج السيئ الذي تمثله. ومن جهة أخرى، فقد كان الاستيلاء عليها في غاية الصعوبة. ففي عصر متأخر وظروف مختلفة تماما يقص علينا ملك غرناطة «عبد الله» من خلال «مذكراته» خبرته الشخصية بالنسبة لحصن «بيليوس» (BELILLOS) : «لو قُدِّرَ لأمير مثلي الاستيلاء على حصن بحد السيف لاعتبر هذا شيئا عظيما بالتأكيد؛ لكن الذي يحدث أن محاولة اقتحامه لاتجدي نظرا للدفاعاته المضادة وللإستحكامات القوية بداخله؛ كما لايجدي أيضا العمل على تطويقه وحصاره حتى تنفذ مؤنه وذخائره ذلك لأن المساعدات تتسلل باستمرار إلى العدو مما يضطرنا في النهاية لرفع الحصار».

ومما لاجدال فيه أن زعيم هؤلاء «المتحصنين» هو الملك المولّد «عمر بن حفصون» الذي لايزال حصنه إلى اليوم في «ببشتر» (BOBASTRO) - بعد تنقيب علماء الآثار عنه - قلعة منيعة من الصعب الوصول إليها. وكما حدث آنفا بالنسبة للشهداء

المستعربين فقد تضاربت الآراء أيضا حول شخصية هذا الزعيم. فهل كان أنموذجا لقطاع الطرق الكرماء ورائدا فيما بعد لأمثالهم من الرومانسيين؟ أم أنه على خلاف هذا، أى كان تجسيدا لروح أسبانيا المسيحية المتمردة - منذ موقعة «أبييدو» (COVADONGA) - على الغزاة؟ من الصعب إثبات أحد الاحتمالين لأن المعلومات التاريخية التى أوجزها وصنّفها بإتقان «ليفى بروغنسال» تنم عن شخصية متناقضة غير محددة المعالم، انتهازية ودون مبادئ ثابتة، جذابة لكن متذبذبة : فإذا كان قد تحول إلى المسيحية واستشهدت إحدى بناته من أجلها، فإنه لم يتردد قبلها بقليل فى إعلان اتهامه لمعتقدات الفاطميين بالمروق عن تعاليم الإسلام الصحيحة.. لكن، يجب أن نعترف أن المعلومات الواردة عنه مصدرها أعداؤه. ويحق لنا، بالتالى، أن نتساءل : لماذا لانقر له بالبعد المزدوج الذى يتمتع به أبطال التاريخ الآخرون؟ وعلى هذا، فلتظل أسطوريته الجميلة باقية؛ لكن بشرط أن ندرك أن الحقائق التاريخية التى نحن بصدها تضطرننا لرسم أبعاد لشخصيته قد تبتعد كثيرا عن مواصفات الأسطورة.

فالفوضى الاجتماعية واقتطاع الثغور والخوف من «المتحصنين» - وعلى رأسهم الآن عمر بن حفصون - كانت كلها عوامل تقرض عظام إمارة قرطبة منذ تأسيسها حتى وصلت إلى ذروتها فى عهد الأمير عبد الله (آخر أمراء قرطبة). ولدينا أخبار مستفيضة عن هذا الأمير أوردها ابن حيان فى كتابه «المقتبس». وتبعنا لتلك الأخبار فإنه كان رجلا فى منتهى التعقيد وأنموذجا أصليا لكافة المتناقضات التى يتألف منها «الحلم» العربى : فهو دموى وبشوش، أب قاس مع أبنائه وجد حنون مع أحفاده، بخيل وديمقراطى، وفى كل الأحوال فطن وماهر. ومن أهم مآثره العظيمة إنقاذ قارب الإمارة الضعيف المتهاك من الفرق. لقد استطاع - من خلال مناورات لاتحصى - أن يصل لنهاية أيامه وهو محتفظ بقرطبة (التي بقت بأعجوبة فى أيدي الأمويين حتى تاريخه) : تلك المدينة، بوتقة الأجناس والسلالات والتي جمع الخشنى (JUSHANI) كثيرا من أخبارها فى كتابه «تاريخ قضاة قرطبة».

وبسرعة تنشق الأرض مرة أخرى عن المعجزة. ومثلما بزغت شمس أسبانيا الآمنة المتماسكة سريعا فى عهد الملكين الكاثوليكين من رحم فوضى وخراب زمن «إنريكي» الرابع، تلممت كذلك - طواعية - أشلاء أندلس عبد الله على يد حفيده الأثير لديه : العاهل الفذ عبد الرحمن الثالث. إنها أشياء لايفصح لنا عنها التاريخ بالكامل .. هل

يعود استرداد النظام لعاقبته للظروف المواتية، أم للعناية الإلهية، أم لحنكة الوريث الشاب وعبقريته الغير عادية؟ مانعرفه فقط هو أنه نجح فيما فشل فيه كبرأؤه؛ أن الصدمات كانت تتوارى مع طلعه، وأن أحدا - على خلاف العادة - لم ينازعه الملك : المتمردون يستسلمون الواحد بعد الآخر، والثغور العصبية تعود مختارة لترسف في الأغلال. لقد كانت الأندلس في مسيس الحاجة وقتها لهذا التجاوب لأنه، علاوة على الخطر المسيحي، كان شمال أفريقيا قد أفرز خصما جديدا، متمثلا في الخلافة الفاطمية، يتربص بها الدوائر. ولمواجهة هذا الخصم العنيد لجأ عبد الرحمن الثالث - بعد أن استتب له الأمر بالقضاء على الخصومات ودحر ابن حفصون - إلى تدبير حاسم : سيترك هو أيضا لقبه المتواضع [أمير، سليل الخلفاء] الذي قنع به أسلافه في أسبانيا وينفض الغبار عن الألقاب القديمة لأجداده في الشام، سيجعل من نفسه خليفة وأميرا للمؤمنين حتى لا يكون أقل من غريمه على الشاطئ الآخر. وفي عام ٩٢٩ يبدأ عصر الخلافة القرطبية ويتخذ العاهل لنفسه لقب «الناصر لدين الله».. ومرة أخرى، فإن اتخاذ العاهل المسلم لهذا اللقب يجعلنا نستحضر مافعله الملك الكاثوليكيان لأنه نسخة طبق الأصل منه.

الآن، بعد أن أصبح العاهل خليفة لم يعد باستطاعته الاختلاط برعاياه مثلما كان يفعل أسلافه، بل كان لزاما عليه التحول إلى كائن نصف مقدس، حاكم بأمره، ويحتجب عن أعين العامة. ومن مكانته الجديدة، الأعلى من كافة أتباعه وشيعته، تخلص من تبعة الإحساس بالولاء للأرستقراطية العربية، فلم تكن في نهاية المطاف سوى عنصر واحد من عناصر المجتمع الذي تتعايش في توازن صعب منذ الأيام الأولى للذرية الحاكمة : الآن يفتح عبد الرحمن الثالث الباب أمام المولدين واللاتينيين ليرتقوا سلم المناصب العليا في الدولة (مع الصمت المكفهر للسلالات القديمة، كما يتضح من عبارة وردت في «أخبار مجموعة») ويستكثر من الصقالبة [وهم عبيد أورييون - خصيان وغير خصيان - جلبوا من أماكن بعيدة] ويوزع بينهم الدرجات والمناصب الجمّة التي تمخض عنها النظام المعقد والجديد لشئون القصر والخلافة..

وتعاونت الشارة الامبراطورية مع السلام الداخلي في تحريك العاهل لإلقاء مراسيه في الأراضي المسيحية، حاصدا الانتصارات [التي لم تخل من هزيمة مدوية]، وللتدخل في الشاطئ الآخر من المضيق ليحتل سبتة (قاعدة العمليات الهامة) لتبدأ معها

السياسة الشائكة لشمال أفريقيا [وتأطيرها وتحليلها يعتبران من أهم المستجدات فى كتاب ليفى بروقنسال الحالى].

وتستدعى هذه المآثر القيصريّة الضخمة توسيع المقر الخلافي الذي لم يعد يناسبه قصر قرطبة القديم. وتبرز حينئذ، بين غابات السنديان تحت أقدام سلسلة جبال «الشّارات» مدينة الزهراء، المدينة الساحرة «مثل أنسة بيضاء رائعة الجمال بين ذراعى حبشى حالك السواد» .. وكانت إحدى محظيات الخليفة قد قامت بجمع أموال لافتداء أسرى المسلمين، ولما لم يُعثر عليهم خُصص المال المجموع للشروع فى تشييد المدينة التى حملت اسم محظية أخرى.

وحكاية المدينة تبدو وكأنها أسطورة شرقية لو لم تبرهن الأخبار الثابتة على صدق أدق تفصيلاتها ولو لم يعرض علينا علماء الآثار ماتبقى من كنوزها. وتكشف التنقيبات الجارية عن مدينة الزهراء - بالرغم من أنها لا تزال فى البداية وبالرغم من نهب أطلالها خلال فترة طويلة من الزمن - مدى عظمة وضخامة تلك المدينة (التي تضارع الإسكوريال أو فرساي) التى اعتمد بناؤها على الحجارة المشغولة، وكل ما فيها جدير بتزيين قاعات أى متحف : ألواح مرمرية كبيرة، تيجان أعمدة على شكل أعشاش الزنابير، زخارف كلسية، توريقات أنيقة، تماثيل لحيوانات صغيرة مصنوعة من البرونز... الخ.

وفى تلك اللوحة الرائعة احتجب الخليفة ليخفى ضجر أبهته المذهب، أو - على خلاف هذا - ليبهر به السفارات التى ترد إليه من ألمانيا وبيزنطة. ومع أن بداية العلاقات بالامبراطورية البيزنطية تعود لأيام عبد الرحمن الثانى إلا أنها تتوطد الآن وتزداد عمقا.. يقال أن تاريخ الأمويين القديم [ولنسجل هنا أن أول اتصال بين القسطنطينية والإسلام كان عن طريق دمشق] قد ساعد على صبغة قرطبة باللون البيزنطى، وفى هذا الاتجاه يعمل الباحثون بدأب لتتبع أشكال هذا التأثير فى شئون البروتوكول وفى النظام الإدارى والفنون (وعما قريب سيتأخى الموزايكو المتعدد الألوان مع الأقواس والعقود العربية فى المحراب الجديد والمدّش لمسجد قرطبة الكبير). وأبلغ دليل على هذا التأثير المخطوط الذى أهده امبراطور الشرق المسيحى لخليفة قرطبة والذى بمجرد أن ترجمه الراهب البيزنطى نيقولاى أصبح الأساس للازدهار التالى الرائع فى مجالى النبات والصيدلة الأندلسيين.

أسيكون عمر الخلافة مثل زهرة رقيقة قصيرة الأمد ؟

كان من الضروري انتظار نتيجة الاختبار، وقد أُجِريَ بنجاح مع الخليفة الثاني الحكم المستنصر الذي اعتلى العرش وهو في قمة نضجه لطول فترة حكم أبيه الرائعة والتي امتدت لنصف قرن. وخلال عهد المستنصر الذي استمر خمسة عشر عاما توطدت أركان الخلافة وعم الاستقرار والهدوء في الداخل. وتخيرنا باستفاضة «حولايات قصور الحكم الثاني» - التي كتبها عيسى الرأزي واحتفظ بها ابن حيّان في «المقتبس» [وأنا أضع الآن اللمسات الأخيرة لترجمة وطبع هذه الحولايات التي قد تُعدُّ أروع وأكمل وثيقة عن عصرنا الوسيط] (*) - بما كان عليه أمر الحياة اليومية في قرطبة خلال تلك السنوات الوداعة.

وطبقا لسنة التاريخ وديدنه فإن العاهل القيصري يخلفه عادة آخر مثقف : وعلى هذا فقد خلف الحكم عبد الرحمن مثلما خلف «ألفونسو العالم» «سان فرناندو» أو مثلما أتى فيليب الثاني بعد الإمبراطور كارلوس الخامس. والحكم يشبه فيليب الثاني إلى حد كبير : فهو مثله لا يذهب إلى المعارك بل يظل قابعا في قصوره، غيور على التقاليد الملكية، لا يترك شأنا من الشؤون دون دراسة، دقيق، إداري ويقضى أوقاتا طويلة بين الأوراق، خجول، شكّاك، متردد، بطيء في تكوين رأي؛ وكثيرا ما يغير رأيه، لكنه - وفي هذا أيضا يشبه فيليب الثاني - إذا اتخذ في النهاية قرارا فمن المستحيل عدوله عنه. وهو لم يتشبث بأمر مثل تشبثه باتباع سياسة والده المناوئة للفاطميين. ولم تؤثر الغارة النورماندية الجديدة في استتباب النظام الداخلي، كما لم يجرؤ المسيحيون على رفع هاماتهم وكانت وفودهم العالية المستوى تترى على مدينة الزهراء للإعراب عن التقدير والاحترام. لكنهم انتهزوا أخيرا - ولمرة واحدة - فرصة غياب معظم الجيش الإسلامي في شمال أفريقيا وغامروا بحصار «غُرْمَاج» (GORMAZ) ولم تفلح المغامرة لأن الخليفة قضى عليها سريعا.. لقد استطاع الخليفة، في نهاية المطاف، أن يصرف كل همه لحملاته الأفريقية، وتصميمه عليها وشعوره بالواجب نحوها يثيران الإعجاب والتقدير. وعندما نتمكن من الدراسة التفصيلية لما جاء «بالحولايات» عن الحملة الريفية الموجهة

(*) ترجم العلامة جارتيا جومث الجزء الخامس بالحكم المستنصر، ونشره في مدريد عام ١٩٧٢م تحت عنوان:

"Anales palatinos de Al-Hakam II"

ضد الإدريسيين المتمردين المتذبذبين عقائديا (وهي حملة تحرك في الوعي الأسباني
ذكريات ليست ببعيدة تعتبر شاهدا لامراء فيه على قدرية سنة التاريخ) سندرك إلى أى
مدى كان صبره على الكوارث، وإلى أى مدى وصلت إليه روحه المعنوية العالية التي
أشاعت الحماسة في السيف المتلجلج - أحيانا - لقائده غالب لكى ينتزع النصر في
النهاية.. وهنا نكاد نلمس بأيدينا مرة أخرى الأعماق الغائرة للروح الأيبيرية ونستحضر
شخصية فيليب الثاني. فبمثل الحمية التي دافع بها هذا عن الكاثوليكية ضد اللوتيريين
والأتراك انتصب الحكم الثاني- يؤيده شعبه - كحام للسلفية الإسلامية ضد الشيعة،
ويومها حلم الشعر السياسى لبلاطه (كما سبق وأشرت في مؤتمر الاستشراق الدولي
الحادي والعشرين) ببرامج لم تتحقق أبدا مثل التوسع العالمى وتوحيد شعوب العالم
الإسلامى تحت لواء العقيدة السلفية التي بُعثت من جديد:

شواهد تبقى بحمل لوائه

إلى بابل بعد المرور بيثربا

(ابن شخيص - عن «المقتبس» لابن حيان)

قد قدر الله أن تحوى كتابه

ملك العراق وملك الشام والحرم

(عبد القنوس بن عبد الوهاب-المرجع السابق)

لقد طلعت بالغرب شمس خلافة

أضاء لها في المشرقين شروق

ليجلو عنها ظلمة الكفر بالهدى

إمام على الدين الحنيف شفيق

(عبد العزيز بن حسين القروى-المصدر السابق)

ياناصر الدين إذا لم يكن

له على الدنيا ولى نصير

(يعلى بن أحمد بن يعلى - المصدر السابق)

علم الهدى ومنارة بها قاطن

فعلى ذراك لهديه أعلام

(أحمد بن سليمان - المصدر السابق)

لقد كانت الخلافة القرطبية بناءً هائلاً لم يولد صدفة لأنه أتى ليتوج فترة طويلة من التشكّل ومن السعى لتحقيق التوازن والتآلف بين السلالات والعناصر المختلفة للمجتمع. فقد قامت على هدف وغاية سامية وتشبعت بالتراث وكان لها فن مميز، وكانت - فى الأدب - على وشك أن تتحدث بلسانها الخاص. كان لديها نظم إدارية فعّالة وفى خدمتها عائلات متمرسّة لعدة أجيال على السياسة. واقتصادها - حسبما نعلم - كان ينعم بالازدهار والصحة، والدليل أن الحكم الثانى قام، قبل موته بقليل، بتخفيف الأعباء الضريبية عن رعاياه. لقد كانت - باختصار - دولة قوية ومتحضرة، لامنافس لها على الإطلاق فى عالم الغرب ويمكن مقارنتها فقط ببغداد وبيزنطة وإن كانت أقل خبرة من كليهما لحدّثة مولدها، لكنها السبب ذاته كانت مفعمة بآمال عريضة وأقلّ مشاكل. كانت تتمتع بهالة مزعجة من الحدّثة. وإليك نتفا قصيرة من بين حشايا «الحواليات» :

«ذهب الخليفة الحكم يوم السبت الموافق ٢٤نو الحجة من العام الجارى [٣٦١هـ = ٦ سبتمبر ٩٧٢م] إلى باب السّدة بقصد زيارته. ثم اضطرد الإذن بالوصول إلى من حضر من أّفناء الناس، فتقدمت فى أوائلهم رجالات قریش ثم الموالى ثم الحكام وقضاة الكور ثم الفقهاء وأهل الشورى وغيرهم والعدول ثم صنوف الحشود والوفود». يبدو أننا نقرأ خبراً قصيراً فى جريدة معاصرة. وشئ مماثل يمكن تأكيده بالنسبة للتقريظات المسهبة فى حفلات الاستقبال بالقصر الخلفى : إنها صورة طبق الأصل لحفل تشریفات یجرى حالياً فى «قصر الشرق» بمدرید. وبالرغم من كل هذا، فإن تلك الدولة القوية الزاهرة المؤهلة للاستمرار قروناً عديدة لم تدم أكثر من مائة سنة وماتت فجأة - دون شیخوخة - بعد احتضار سريع ومأساوى. أين يكمن الخلل؟ اعتاد المؤرخون على سوق الأحداث بدلاً من الأسباب. والسبب الرئيسى، من وجهة نظرى، يكمن فى ضعف القوة العسكرية للنظام الأموى.

لقد أبدى ابن حوقل (الجغرافى المشرقى الذى زار أسبانيا خلال عهد عبد الرحمن الثالث) دهشته، فى مواضع كثيرة من كتابه، من بقاء الأندلس فى يد عاھلها «بالرغم من افتقار أهلها للشجاعة ولروح الفروسية والبطولة اللازمة لمجابهة الخطوب ومقارعة الفرسان ... الخ». ويعتقد البعض (كأنراد) فى تحيز هذه الشهادة لأن ابن حوقل - وربما يكون هذا صحيحاً - كان جاسوساً فاطمياً ورأيه هذا «كان مُعداً سلفاً ويمثل

جانبا من الحرب النفسية الدعائية... وحتى لو ثبت أن ابن حوقل كان جاسوسا فلا يعنى هذا التشكيك فى شهادته لأن الجواسيس غالبا ما يذكرون الحقيقة التى تعتبر أساس عملهم. ومن جهة أخرى، فهناك كم كبير من الأحداث الصغيرة (يستحيل سردها هنا) يؤكد صدق ما كتبه الجغرافى المشرقى.

لقد أشرنا مرات عديدة إلى عدم وجود مشروعات عسكرية تهدف لاحتلال شبه جزيرة بالكامل، وإلى أن مواجهة المسيحيين اقتصررت على غارات تأديبية فى فترات متباعدة. لقد زعم البعض أن سر هذا يكمن فى كثرة الاضطرابات الداخلية وبوسعنا تنفيذ مذهبوا إليه قائلين أن الحكم الثانى - طبقا للحوليات - كان يتمنى دعم جيشه النظامى بمتطوعين وكثيرا ما استحث لهذا الغرض المتثاقلين والمتمارضين. نعم؛ كانت الأندلس عازفة عن القتال؛ وعليه فإن هناك أسطورة من الأساطير الكثيرة التى نسجت حول المسلمين يجب أن تُحال إلى التقاعد ألا وهى أنهم وفى كل الأحوال شجعان. لقد كان كذلك بالفعل العرب الرُّحل الذين غادروا الصحراء فى البداية، على الأقل بفعل قوة دفع الانطلاقة الأولى والسرعة الخاطفة؛ لكن المسلم الداجن أو الأهلى - وفى الإسلام الأسباني تفيض الأمثلة - كان يركن، كما هو منطقى، لحياة البذخ والدعة.

لقد دفعتنى للتدبر والتأمل كثيرا هذه الكلمات التى قرأتها لـ «ج. إي. قون جيرونيوم» والتى تبرز تدهور روح القتال لدى العرب الذين خلفوا آباءهم الفاتحين: «يركن الإسلام إلى التمرکز فى المدن حيث يستطيع التاجر ممارسة مهنته المفضلة. والتوطن فى المدن يجعل القلم مقدما على السيف، والعالم على الجندى، والتاجر على المزارع».

قبل أن يكتمل القرن على سقوط الخلافة يقول لنا عنها آخر الزيريين الذين حكموا غرناطة (عبد الله) فى الجزء الذى لم يطبع إلى الآن من «مذكراته» (وعما قريب سأقوم بالتعاون مع ليفى بروفنسال بنشرها بالكامل)(*) : «أعلن رعايا الأندلس عدم قدرتهم على الاشتراك فى الحملات الحربية ... متعللين بأنهم لم يتدربوا على فنون القتال وبأن اشتراكهم سيمنعهم من فلاحه الأرض. لم يكونوا، بالفعل، رجال حرب ... لقد كانت الأندلس، قديما وحديثا، بلد العلماء والفقهاء ورجال الدين ...». ثم يتحدث بعد ذلك عن

(*) انفرد المستشرق الفرنسى «ليفى بروفنال» بنشر هذه المذكرات فى «دار المعارف المصرية» عام ١٩٥٥م؛ وقام جارتيا جومث بترجمتها بعد ذلك إلى الإسبانية.

سكان «إلبيرة» (ELVIRA) فيقول: «لا يريدون الخضوع لأحد ولا تقبل أوامر حاكم؛ ومع ذلك فهم أجبن أناس على ظهر الأرض، لا يقدرّون على قتال مخلوق حتى ولو كان ذباباً إلا إذا وافقهم الكتائب الأجنبية كي تدافع عنهم وتحميهم».

وهنا تكمن المشكلة الأساسية بجميع أبعادها، فالدولة لكي تستقر وتستمر لابد لها من امتلاك المعدات العسكرية الكافية والوقوف على أحدث فنون القتال، وفي زمن الخلافة كان هذان الأمران يتمثلان في عدد الجنود ومهارتهم التكتيكية والتدريب الجيد على امتطاء الخيل واستخدام القوس والرمح والسيف، وتبرهن الشواهد على أن الخلافة الأموية كانت تعاني من نقص عدد المحاربين ومن سوء إعدادهم للحروب، والأغرب من هذا أن الدولة كانت كلما زادت نماءً وازدهاراً واشتدت حاجتها، بالتالي، إلى زيادة عدد المقاتلين، كان الكسل وعدم الفاعلية يشيعان أكبر بين صفوف الأندلسيين.

أكان عليهم، إذن، البحث في مكان آخر عما يدافعون عنهم؟ أين؟ أثمرت الحروب الأفريقية عن اكتشاف منجم من المحاربين البربر (أحفاد الفرسان القدامى قبل أن يتأسبنوا على أرضنا)، لم يوهنهم التحضر ويواجهون الخطوب ببأس عانت منه الأمريين كتائب جيش الخلافة الخاصة. وفي هذا الشأن يوجد نص ثمين لابن حيان (أمطت الثام عنه منذ فترة وجيزة) يوضح لنا مراحل الاستعانة بهؤلاء البربر الجدد.

لقد تدخل عبد الرحمن الثالث في أفريقيا تحدوه أطماع سياسية ودبلوماسية؛ لكنه كان يتحاشى البربر دائماً .. وفي البداية سار ابنه الحكم على نفس النهج لحد الصرامة، فقد وجد ذات يوم أحد غلمانه راكباً على سرج بربري، وعندها لم يكتف بتعنيفه بل وجه اللوم كذلك لكبير وزرائه وأمر بإحراق السرج الدخيل أمام الجميع في المعسكر.

بعد أن تقدمت السن بالخليفة وتوالت حملاته الأفريقية لابد وأن يكون قد رأى بعيني رأسه مانحسبه اليوم : الفرق بين جنوده الكرتون - أو عساكر الشيكولاته، طبقاً لتعليق «كانراد» على أخبار ابن حوقل - المغرمين بزي الاستعراضات الجميل وبين مقاتلي الجانب الآخر من العدو .. في يوم من أيام مرضه، صعد الخليفة إلى إحدى شرفات القصر ليشاهد عرضاً للجنود البربر الذين تجمعوا لاستلام رواتبهم: «انظروا - قال لمن كانوا يحيطون به - إلى انطباع هؤلاء القوم على خيولهم فكأنهم الذين عناهم الشاعر بقوله :

فكأنما ولدت قياما تحتهم

وكأنهم ولّوا على صهوتها(*)

ما أعجب انقيادها لهم، كأنها تفهم كلامهم!». ومن هذه التلمّة - يختتم ابن حيان كلامه - لابد وأن تمرق كل مصائب الأندلس (مثلما قضى الأتراك، فى ظروف مشابهة، على خلافة بغداد). لكن علينا ألا نسبق الأحداث.

بعد موت الحكم الثانى دخلت الخلافة جيلها الثالث الخطر، المتمثل الآن فى فتى تالف غض الإهاب جاء إلى الدنيا وقد تقدمت السن بأبيه ولم تعد قدراته الجنسية محل ثقة، إنه هشام الثانى أحد النماذج الأبلغ تعبيراً لما يسميهم التاريخ «بالمملوك الكسالى». وبالطبع فقد كان متوقعا أن تحيط به كل ألوان المكائد والدسائس التى تحيكها النساء والخصيان والوزراء والقادة العسكريون الطامعون فى السلطة. لكنها - أى الدسائس - لم تكد تجد وقتاً لتبدأ لأن رجلاً جسوراً شق لنفسه طريقاً بينهم ولم يتأخر فى إخضاعهم وإلغائهم والتنكيل بهم. من كان هذا الرجل؟ إنه عربى شريف الأصل والمحتد يدعى محمد بن أبى عامر، الفقيه المهنة والمحارب غير المحترف ودون جوان بلاط الخلفاء التى ساعدته حماية البشكنسية «صبيح» - محظية الحكم وأم هشام وصاحبة العلاقة العاطفية شبه المؤكدة به - على تسلق درج المجد بسرعة تفوق الوصف.

أىكون هو ذلك الرجل المسمى ابن أبى عامر الذى ورد ذكره فى «طوق الحمامة» ويقول عنه ابن حزم أن الناس كانت تصطف على الجانبين حينما يخرج إلى الشارع كى تتملى جماله الفتان، وأنه كان يشعر بالضجر من كل شئ حوله - حتى من اسمه - ويبدل الأصدقاء والعشيقات والملابس كما تبدل السحالى لونها؟ أتمنى لو كان هو، على أية حال، ما يهمنا أنه كان على تقيض هشام الثانى العاجز. لقد تحول فى لمح البصر إلى السيد المطلق لأسبانيا المسلمة وإلى مرعب المسيحية؛ تصرف على هواه فى موارد الدولة؛ شيد القصور التى تضارع قصور الخليفة الملقى، وأحاط نفسه بالحاشية والشعراء المادحين؛ جلب إلى مخدعه بنات أعدائه بما فيهن الأميرات المسيحيات، وذاع اسمه فى العالمين : المنصور. ومما لاشك فيه أن الأطماع اللامحدودة تحكمت فى زمام مشواره؛ لكن، أيمكننا تفريغ السياسة من الأطماع؟ وهل عمل على تحقيقها بوسائل مشروعة أو غير مشروعة؟ من كلا النوعين توجد أصناف متعددة.

(*) الشاعر هو المتنبى، والبيت من قصيدة يمدح بها أبا أيوب أحمد بن عمران الأنطاكي - [المراجع].

ويعد قليل انقلب من مساعد للعاهل على مهامه الثقّال إلى غاصب للملك ولكى يغطى تماما على اختطافه للشرعية استعان بوسائل شتى محمودة ومرزولة، ومما يؤخذ عليه تسليمه قسم الكتب العلمية فى مكتبة الحكم الثانى الكبرى للفقهاء الرجعيين لكى ينظروا فيه ويحرقوا منه ما أرادوا. ومما يحسب له المجد الحربى الذى بلغته دولته. وحسب علمنا، فلا يوجد مخدر (أفيون) لتسكين الوجع الشعبى أفضل من انتصارات صاعقة على المسيحيين اشتاق الناس كثيرا إليها، وقد فعلها المنصور بحملاته الخمسين التى لانعرف سوى القليل منها. ومع هذا، فنحن نعرف أنه طاف بكل شمال شبه الجزيرة، من برشلونة إلى «شنت ياقب» (SANTIAGO)، ولم يترك صومعة قائمة ولا معبدا دون تدنيس ولا مكانا مقدسا إلا وانتكح حرمة حتى مقام الحوارى يعقوب (سنتياجو) لم يسلم من العبث به.. لقد كان سوطا حقيقيا للرب. ولأجل هذا زاد الضرائب وأعاد تنظيم الجيش، مطعما إياه بأعداد لا تحصى من البربر الجدد جعلها - بحنكة ومهارة - تندمج فيه وتؤدى دورها باقتدار ..

لأنستطيع إنكار هذه النجاحات لكن علينا ألا ننخدع بها لأنها كانت - من جهة. أعمالا مظهرية تفتقر إلى التأثير العميق، فهى لم تكن إلا بمثابة تكثيف لما عرف من قبل بالغارات التأديبية ولم تنطلق من خطة استراتيجية واعية ولم يدخل حتى فى روعها تحقيق الحلم القديم باحتلال أسبانيا بالكامل. ومن وجهة أخرى، فإنها أذكت من جديد روح المقاومة لدى الممالك المسيحية، وخاصة مملكة قشتالة التى ولدت على مقاس الملحمة والمغامرة [عثر مينندث بيدال على الوثائق الخاصة بأسطورة أمراء «لارا» ويرجع تاريخها إلى ما قبل انتفاضة الممالك المسيحية بقليل : أى فى السنوات الأخيرة لعهد الحكم الثانى]. ونضيف، أخيرا، أن المسيحيين لم يصبهم الذعر تماما وأنهم فى «ثيربيرا» (CERVERA)، مثلا، ضيقوا الخناق على الدكتاتور المسلم الذى أنزل فيما بعد عقوبات صارمة مستحقة على جيشه لتذبذبه فى المعركة. ومن هنا ولدت بالتأكيد أسطورة هزيمة قلعة النسور، وهى وإن لم تكن صادقة تماما فإنها على الأقل رمزية وموحية.

ياله من شخصية مثيرة للشجن تلك التى تخص ذلك الأندلسى الدون جوانى، الذى تحول إلى شعاع لحرب التهمته فى النهاية، وأثناء احتضاره - فى القفار البعيدة عن قرطبة - يملأ وصيته على وقع خطوات النقالة المرتجفة التى تحمله ليدفن فى ثرى

مدينة الزهراء البارد! وعلى ضفاف نهر الوادى الكبير - تقول الأسطورة - كان يظهر كل ليلة شبح فى هيئة راعٍ، أو ربما الشيطان متكررا، ويختفى بمجرد اقتراب الناس منه لكى يعاود الظهور بعيدا وهو يردد بصوت حدادى بين نشيج وعويل مطلع الأغنية المشهور :

فى قلعة النصور

ضاع الطنبور

من المنصور.

عندما مات المنصور كان هشام الثانى لا يزال حيا لكنه لم يستطع إرث من حرمه الملك، وخلف المظفر أباه؛ صحيح أن الابن لم يكن يطاول الأب، لكنه كان جديرا بالانتساب إليه.. وأسكرت الانتصارات قرطبة وظنت أنها تعيش «شهر عسل» مع الدكتاتور الثانى، ولم يكن هذا غير وهم لأن المظفر مات قبل الأوان فى الثالثة والثلاثين. وتولى السلطة بعده الرقم الثالث المشنوم أو أخوه الغرّ «عبد الرحمن شنجول» (SANCHUELO) [و«سانشو أباركا»، ملك «بنبلونة»، هو جده من جهة أمه «عبد»] وعلى يديه انتهى كل شئ. عندما اقتترف حماقة حمل هشام الثانى على توليته وريثا للعرش - بغرض الانتساب للسلالة الملكية - تمرد عليه ضمير الشرعية وضحى به. وتبدأ الدوامة - التى صورها ليقى بروئنسال أبدع تصوير - أو مباراة الشطرنج الفوضوية المأساوية بين البربر (المجلوبين فى ساعة نحس) والحموديين وطلاب العائلة الملكية، إضافة إلى تدخل المسيحيين بدافع الانتقام والإثارة. (حاولت فى عمل مستقل جلاء بعض النقاط حول خراب قرطبة الأموية متتبعا انهيارها السريع المخيف). اليوم يمكننا ملاحظة تسلسل الأحداث وتطورها المؤسف من البداية إلى النهاية؛ لكن بالنسبة لمن عاصروها فى حينها، ألم يكونوا يأملون فى ظهور منقذ لما نراه الآن كارثة؟.. ألم يكونوا يتوقعون أن تمتد يد قيضتها العناية الإلهية لتعيد النظام من جديد لهذه الفوضى مثلما حدث فى مواقف تاريخية سابقة ؟

لكن القدر إذا كان يمد يده - مرات - لينتشل الغريق، فإنه فى مرات أخرى يمد نفس اليد لكن ليهوى به إلى الأعماق .. لقد حانت ساعة الخلافة قبل مواعدها، وأصبحت قرطبة تنزف وتتحلل وهى تنتقل بسرعة من سيد سيئ إلى آخر أسوأ، بينما تجتاز ريح المحلية العاصف من جذعها إقليما بعد آخر؛ إلى أن جاء يوم وجدت فيه

حاضرة الأمويين الكبرى نفسها وحيدة، دون أمل على الإطلاق، تلعب بها أمواج بحر عاصف.

عندما ماتت قرطبة كان يُشرق عليها - فى فترة السكون التى تشيع الامبراطوريات الزائلة - أدب شهى، طازج وبكر، لم يلبث أن تجمد فى شرنقته.

كان الحس المرهف للأندلسيين يرشح فى مصفاته المستجدات الثقافية التى ترد من الشرق - والمتمثلة الآن فى شعر «المحدثين» - لينتقى منها مايتواءم معه. لم يكن الرجل الأندلسى ميالا أبدا (وربما مثل الأسباني بعامة) للميتافيزيقا والأفكار العميقة، ولذا فمن المؤكد أنه لم يكن ليستسيغ طعم الشعر البدوى القديم التى تصرّ رمال الصحراء بين حصوات أبياته. وما أتى من بغداد مؤخرا يمكن هضمه. فهذا، من جهة، ديوان المتنبى الذى بعد أن قلب فيه الأسباب غضوا الطرف عن أعماقه المشاكسة المفزعة والمتشائمة لكى يتشبثوا بلحائه الموسيقى المعقد المثل بالزخارف اللفظية والصور الجريئة (وهذه الأشياء كان من الضرورى أن تلاقى الاستحسان فى وطن «جونجرا» القادم) والذى يجد صداه فى شعر ابن دراج القسطل.

ومن جهة أخرى، فقد وفدت كذلك من الشرق تقليعة القصيدة الخفيفة، القصيدة المجنحة، التى تتحدث بلغة رقيقة تتملق الأحاسيس والمشاعر واستعارات ومجازات متكلفة، عن الزهور والثمار ومشاهد الطبيعة أو دقائق الحياة اليومية. يبدو وكأن هذا النوع من القصائد المتأنقة، الوصفية الموجزة، قد اخترع من أجل الأندلسيين لأنه بالفعل لاقى رواجاً منقطع النظير فى دوائر المنصور الأدبية وتمخض عن «النوريات» التى احتفظت لنا بها كتب كثيرة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الشعر لم يكن حكرا على البلاط ورواده، بل كان أيضا - على الأقل منذ عهد الحكم الثانى (وتوجد شواهد معبرة عن ذلك لم يتيسر نشرها بعد) - غذاء الأوساط الشعبية فى قرطبة. فالشعر لا يقتصر الآن على أولئك المتدثرين بأبهى الحلل، موظفى القصور، الذين يلقون بعظاتهم المصمتة المقفاة فى الاحتفالات الرسمية، بل أصبح يوجد غيرهم من شذاذ الآفاق والملاعين والفُسّاق الذين يرتادون الحانات ويطلون - مدفوعين بحب الاستطلاع - على كنائس المستعربين.. أكان هذا بسبب عدوى الشعر الغنائى الرومانثى الذى نظن أنه بلغ مداه وقتها؟ من المحتمل جدا أن تكون تقليعة (موضحة) بغداد قد تكيّفت تماما مع الأنواق المحلية. وبالإمكان أن نرسم

لهذا النوع الجديد من الشعر بشخصية الرمادى (RAMADI) [الذى أفكر فى تأليف كتاب كامل عنه فى المستقبل القريب](*): فهو شاعر عظيم فى اللغتين (العربية والرومانشية)؛ لعان للخليفة الذى اضطر إلى سجنه؛ أرستقراطى فى بلاط المنصور؛ عندليب الشارع وبطل أروع قصة حب عربية أندلسية، ذواق نهم لمباهج الحياة فى قرطبة (المزدوجة اللغة وثلاثية الدين) وعلى أهبة الاستعداد دائما للمشاركة فى أى حفل «بقلوب فى الدين مختلفات»، وبعيدا عن البلاط وقريبا جدا من العامة أخذت تتشكل أيضا فى قرطبة أقلية من فتيان مرهفى الحس وشعراء يطاردون قبل الألوان أنموذج الحركة الإنسانية لعصر النهضة. ويمثل هؤلاء خير تمثيل ابن شهيد وابن رشد، وكلاهما ينتسب لعائلة من كبار موظفى الدولة.. أما ثقافتها فكانت من النوع الراقى، لكن أصالتهما تكمن فى أنهما بعد أن درسا طويلا فى الكتب عرفا كيف يفلقونها فى الوقت المناسب حتى يستطيعا التفكير بحرية. وكلاهما كان يعرف تمام المعرفة أدب المشرق لكنهما هذباه بما يتناسب مع زمانهما وظروفهما [وقد رفضا - على سبيل المثال - النثر المسجوع الذى انساق وراءه دون بصيرة أدباء الدولة المحترفون]، بل ورفعا راية العصيان ضده.

وندين لابن شهيد [الشاعر الرقيق مؤلف الهزليات التى تُعرض بالنحاة وأصحاب الأدب الماجن] بالخيال الجامح المتمثل فى تخيله - ربما لأول مرة فى تاريخ العالم - القيام برحلة إلى جنبات العالم الآخر يتحدث فيها مع الأطياف أو العباقر الملهمين للشعراء الكبار، مقارنا - فى اعتداد أسباني بالنفس - إنتاجهم الشعرى بإنتاج الأقدمين. ويمتاز موجز «الكوميديا الإلهية» هذا (المتقدم فى الزمن على أبى العلاء المعرى ودانتى - ولا أقول أنه كان مصدرا لهما -، والذى لم يُقدَّر لأستاذى «آسين پلاثيوس» التعرف عليه قبل الموت) بالدعابة والخيال اللذين يمرحان بين صفحاته، كما يمتاز بالدقة المتناهية فى رسم الصور الدقيقة لأشباح العالم الآخر.

أما بالنسبة لابن حزم فالكل يعرف أننا مدينون - على وجه الخصوص - لعمله الرائع «طوق الحمامة» (وهو الآن فى متناول كل الأوربيين) : إنه أول تنظير شعرى للحب الأفلاطونى ظهر فى أوروبا؛ أجمل باقة لحكايات الغرام فى العصور الوسطى؛ المرأة الصادقة لنظرية وممارسة العشق فى قرطبة الأرستقراطية، ولحياة عشاقها

الرقيقة ولحفلاتها داخل البيوتات والقصور أو للحفلات الموسيقية الراقصة فى البرارى خارج أسوار المدينة.

ومما لاشك فيه أن هذا الكتاب (الذى نضعه دون موارد فى مصاف أجمل ماكتب فى أوربا عن الحب - من «أفلاطون» حتى «ستندال»، ومرورا بأوقييد و«دانتي» و«بترارك» و«ليون إبيريو» وآخرين غيرهم) قد استلهم الكثير من «كتاب الزهرة» لابن داود الأصفهاني؛ وإن كان مؤلفه يقول لنا فى نهاية مقدمته مايلى :

«دعنى من أخبار العرب والمتقدمين، فسبيلهم غير سبيلنا، وقد كثرت الأخبار عنهم، ومأذهبى أن أنضى مطية سواى، ولا أتحدى بحلى مستعار».

كما نقرأ فى ثنايا كتابه هذا البيت المعبر :

وياجوهر الصين سحفا فقد غنيت بياقوتة الأندلس

شئ لا يصدق : بينما تغط أوربا فى سباتها العميق تفرخ أجواء قرطبة الثقافية (فى نهاية القرن العاشر وبداية الحادى عشر) أعمالا بهذا الشكل لثلة من الفتیان اتخذناهم كمجرد نماذج .. ومن الممكن أن ننسج من وحى الخيال صورة لهؤلاء الفتیان : يرتدون الملابس البيضاء، يتبادلون أطراف الحديث بين الأروقة البيضاء لمدينة الزهراء (وكانهم مغرمون بالأوز العراقى)، عاشقون للشقراوات وأتباع خلصاء لخلفاء معظمهم أيضا لونه أشقر.. ألا يبدو أننا نتحدث عن امبراطورية متخيلة؟ منفصلة عن مسيحى الشمال وصلة الدم تربط كثيرا منهم بها؛ غريبة فى ذات الوقت عن شعوب الشرق الذين تربطهم بها صلات الدم والثقافة والدين. تبدو أمام أعيننا مملكة الجنوب الكبيرة وكأنها جسر معلق فى الهواء أو نجم شارد يدور فلكه بطريقة عكسية.

لا توجد كلمات تعبر عن روح أسبانيا المسلمة وتعكس القدر الحزين لشعبها أبلغ مما قاله ابن حزم - فى كبرياء ومرارة - عن نفسه :

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة ولكن عيى أن مطلقى الغرب

بالرغم من أن قرطبة الأموية [التي اغتيلت ولم تمت من الشيخوخة] عاشت ثلاثة قرون قصيرة إلا أن عصارتها هى التى غذت القرون الخمسة المتبقية للأندلس. يروى لنا ابن حيان فى فقرة شهيرة احتفظت بها «الذخيرة» كيف أن رجلا ضئيل الحجم، زرى الهيئة، يدعى ابن باشا (أو ابن باسو) - من العاملين بقصور الخلافة - كان يبيع (فى زمن ابن السَّقا) ماتبقى من حاجياته لأحد المزايدى المعروفين «وهو يتشبه بتلك

الحاجيات تشبث النار بالهشيم». ويتعجب المؤرخ من «تبيد الرجل لما كان في حوزته - رخام نفيس، أعمدة غالية، نحاس خالص، أخشاب قيّمة، حديد ورصاص من أنقى العينات - من أجل الحصول على المال».

لقد كانت بالفعل تيجان أعمدة الزهراء المنقوشة متناثرة، مثل بقية الأشياء، هنا وهناك. ومعظم ماجرى ثقافيا بعد ذلك في أسبانيا الإسلامية كان من آثار الخلافة ومن إنتاج مصنعها وثمره للبتور التي كانت كامنة فيها. لقد نُسخَت أنظمتها وقُلِّدَ بروتوكولها ولم تستمر الحياة إلا بما يتفق فيها من دمائها. ولو أحصينا ماتنين به الممالك المسيحية نفسها للخلافة القرطبية لهلنا مدى خضوع الأولى لهيمنة الثانية. ولقد أوعز «ليشى بروقنسال» - ورأيه، من وجهة نظري، جدير بالاعتبار - بأن استخدام المسيحيين المتأخر للقب الاميراطور جاء متأثرا باللقب الأعظم الذي اتخذته الأمويون ابتداء من عبد الرحمن الناصر. وستستمر الواردات الثقافية من الشرق - لكن دون ترشيح ونخل مثلما كان يحدث في عهد الأمويين - إلى أن ينشق العالم الإسلامي إلى نصفين. وسيستمر، لبعض الوقت، تعايش الأجناس والسلالات المختلفة (أحد أمجاد قرطبة الأموية) إلى أن يطمسه التعصب الأفريقي. بل وستظل آثار من قرطبة الأموية ماثلة في أدب مملكة غرناطة المتأخرة ونظامها الأرستقراطي .. لكن هناك أشياء ماتت إلى الأبد منذ اللحظة الأولى : الاميراطورية والاستقلال السياسي، والهيكل المحكم والدقيق لبنية مؤسساتها.

وبعد أن أصبحت الأندلس محافظة تابعة لأفريقيا ولم تعد تملك مصيرها، تدفق الشوق والحنين إلى قرطبة.. تلك المدينة المتشحة بالسواد حدادا على ملوكها الكبار، الساهرة على حراسة الأمجاد القديمة والأطراف المهيبة التي تجتاز إلى يومنا هذا قنطرتها الشامخة وظلال مسجدتها الجامع :

رومية ومسلمة، قرطبة الصامته.

كثيرا ما أثير الجدل، وسيظل يثار، عما إذا كان الوجود الإسلامي في أسبانيا قد أفاد تطورها القومي أو ألحق به الضرر، وعن الحالة التي كان من الممكن أن يكون عليها هذا التطور لو لم يتخلله الإسلام .. لكن إذا كان التاريخ الفعلي «لما كان» لا بد وأن يتأثر ببعدي الزمان والمكان اللتين يلفان راصده، فما بالنا إنن يكمل الشطحات التي ستصاحب التاريخ الخيالي «لما كان يمكن أن يكون»!! أهلا ومرحبا بألعاب

العبقرية التي يمكن أن تكون موحية أو حتى خصية؛ لكن على ألا يُطلب منا الاشتراك فيها اليوم أو الجلوس على مقاعد قاعات تُدرس فيها احتمالات تاريخ العالم منذ كليوباترا.

علينا أن نكتفي بما كان فعلا. ربما تكون الصدفة (لو كان التاريخ يؤمن بالمصادفات) هي التي جعلت الإسلام يدخل آسياتيا، أو - على الأصح - أن يدخل كثير من الأسباب في الإسلام الذي ربطت الأندلس بماغيبه السحيق (الشرق القديم) صلات طويلة وخصية (حملات هانيبال، مثلا).

وطبقا لما تعترف به كتب المستشرقين والدارسين اليعيديين عن مجال الاستشراق فإن الإسلام كان لجسد الأمة الآسياتية بمثابة غذاء ومطهر في آن واحد. (ومن هذه الكتب تذكر «آسياتيا في تاريخها» لـ «أميريكو كاسترو»، لأهميته وقرب العهد بصدوره). وهذه المؤلفات تعكس تباين وجهات النظر حول القضية المطروحة، وتشير إلى أنه عندما تخلى المستشرقون مؤقتا عن نظريات المقارنة بين الإسلام والمسيحية قام علماء أجلاء بحمل لوائها وإيرازها بعد أن كانوا عازقين عنها (حتى لانقول ضدها). وفي إيجاز شديد يمكن القول بأننا لاتضيف شيئا سواء اعتبرنا التدخل الإسلامي في تاريخ وحياة آسياتيا هبة إلهية، أو قدرا محتوما أو كارثة لأنه سيظل برغم الصفات التي نخلعها عليه «واقعا» أيديا. وهذا «الواقع» يمكن أن يكون قد حوى أثارا سلبية، لكن يجب الاعتراف بشجاعة يأنه اشتمل في ذات الوقت على أخرى إيجابية، فبفضل الخلافة الأموية تمكنت آسياتيا من إضافة صفحات مشرقة ناصعة لتاريخها الجامد الجاف؛ وأمكنها التعرف على ثقافة رقيقة لاتظير لها في عالم الغرب قبل عصر النهضة؛ كما أنها تحولت، بفضلها، إلى رباط يصل مابين الحضارتين الكبيرتين للعصور الوسطى، وإلى جسر عبر قوقه القسطنطين الأعظم من العوامل التي أهلت أوروبا لتولي زمام الحركة الإنسانية.

ومن جهة أخرى، (وبالرغم من أن هذا الحق لم يتنازعا فيه أحد)، لا يستطيع كائن من كان إنكار أحقية «هذا الواقع» بالدراسة والتأمل .. ولبدء الدراسة لاتوجد قاعدة في وقتنا الراهن أصلب من كتاب الأستاذ «ليفي يروفتسال» الذي ينتظر القارئ بفارغ الصبر خلف صفحات هذه المقدمة التي قد تكون غير مناسبة.

تمهيد المؤلف

ليقى بروقنسال

يتمتع كتاب المستشرق الهولندي «رينهارت دوزي»، الذي صدر في ليدن عام ١٨٦١ تحت عنوان «تاريخ مسلمي أسبانيا»، بأهمية مطلقة. ومن المعروف أن هذا المؤلف، الذي قمت بإعادة طبعه عام ١٩٣٢، يتوقف عند تاريخ وصول المرابطين في السنوات الأولى للقرن الثاني عشر. ومن ثم فإن القرون التالية حتى سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ (أو بالأحرى حتى طرد الموريسكيين نهائيا من شبه جزيرة أيبيريا) لا يوجد عنها سوى بعض الفصول المبعثرة هنا وهناك في أعمال «التاميرا» (ALTAMIRA) و«بايستيروس» (BALLESTEROS) وتفتقر، بالتالي، إلى دراسة شاملة تراعى فيها قواعد النقد الحديث.

أما بالنسبة لكتاب «خ. كوندى» فإنه غير مناسب ولم يعد أحد يفكر اليوم بالرجوع إليه - برغم التعديلات التي شهدتها - خاصة بعد الهجوم الذي شنه «دوزي» عليه .. أما ماكتبه «جوتثالث بالثيا» عن تاريخ أسبانيا المسلمة، وبرغم مصداقيته، فلا يعتبر سوى نظرة سريعة مكثفة لا تشفى غليل الدارس المتخصص. ومن جهة أخرى، فإن تاريخ «دوزي» - بالرغم من جدارته غير القابلة للنقاش وتماسك ومصداقية معلوماته - قد أصابته الشخوخة التي لامر منها لقدم العهد به؛ كما أن خطته غير منطقية تماما حيث أنه يتوسع في دراسة بعض الفترات الثانوية ويجهل - مع كثرة مآلديه من وثائق - فترات أخرى غاية في الأهمية. وبالإضافة إلى ما تقدم، فإنه غالبا ما يغالى في حشو عرضه التاريخي بالحوارات والنوادر والنصوص الشعرية.

ومع كل ما سبق فإن تاريخ «دوزي»، لو كان كاملا حتى نهاية القرن الخامس عشر، لظل لسنوات طويلة قادمة المرجع الأساسى لكل المهتمين بدراسة العصور الأوربية الوسيطة لو لم تمدنا الاكتشافات السعيدة - منذ خمس عشرة سنة - بفيض من الوثائق الجديدة عن الإسلام في الأندلس. ومن الوثائق العديدة التي أعاننى الحظ فى العثور عليها - خاصة فى المغرب - أذكر فقط أهمها : فصول جديدة من مجموعة أخبار ابن عذارى عن ملوك الطوائف والمرابطين؛ مذكرات ملك غرناطة (عبد الله) والموحدي «البندق» (زميل المهدي بن تومرت)؛ أجزاء لم تستثمر بعد من المختارات

التاريخية لابن بسام ومن تاريخ القرطبي ابن حيان؛ نصوص ترجمت بعضها ونشرته والبعض الآخر فى سبيله إلى ذلك مستقبلا.

وعندما قمت بمضاهاة هذه المواد المكتشفة حديثا بالمعروفة قديما - والتي استعان بها «دوزى» بشكل مستفيض - تمثلت لى ضرورة التقييم الشامل للموضوع ثانية، سواء بالنسبة لعصر الإمارة والخلافة القرطبية أو للعهد اللاحقة. ولما كنت معنيا بحصر النتائج التى يتمخض عنها هذا التقييم استبعدت فكرة اللجوء إلى المقالات المتفرقة وعمدت إلى كتابة «تاريخ أسبانيا المسلمة» من جديد ولقد شرعت - مستغلا فترة ابتعادي عن العمل الأكاديمي - فى كتابة المجلد الأول (الذى يغطى القرون الثلاثة الممتدة من دخول الإسلام شبه جزيرة أيبيريا إلى سقوط الحكم الأموي) فى خريف ١٩٤٠. لانتهى منه فى ١٩٤٢. وخلال مهمة رسمية لى بالقاهرة طلب منى صديقى «شارل كينتز» المخطوط كى يسلمه إلى المعهد الفرنسى لدراسة الآثار الشرقية، وقد قام المعهد بنشره مسبقا بتقديم لاغبار عليه عام ١٩٤٤. وهذه الطبعة - القليلة النسخ - مهداة إلى الجنرالين : «شارل جول»، «جورج كاتروكس».. وبعد ظهور هذه الطبعة بقليل طلب منى زميلى وصديقى العزيز «إميليو جارشيا جومث» التصريح له بترجمة المجلد وضمه إلى سلسلة «تاريخ أسبانيا» التى تصدرها فى مدريد دار نشر «إسپاسا كالپى» (ESPASA-CALPE) تحت إشراف الأستاذ : رامون ميندث بيدال.

ولم يسعنى إلا تلبية طلبه، شاكرا ممتنا، مع التصريح له بتعديل ما يراه مناسبا حتى يصبح كتابى فى متناول القراء، سواء فى دول العالم المتحدث بالأسبانية أو فى أسبانيا التى قضيت معظم حياتى فى دراسة حضارتها وتاريخها المجيد.

وفى الوقت الحالى أقوم بإعداد طبعة جديدة لهذا المجلد عن الأصل الفرنسى، وفى نيتى إلحاق مجلدين آخرين به : يتناول الأول منهما الخلافة القرطبية (مقوماتها التأسيسية، إضافة إلى الحياة الاجتماعية والدينية والثقافية والفنية) والممالك الأندلسية فى القرن الحادى عشر؛ بينما يحتوى الثانى على أسبانيا التابعة للمغرب تحت حكم المرابطين والموحدين، وعلى عرض موجز للمراحل الحاسمة فى حرب الاسترداد.

وعندما أنتهى من هذين المجلدين سيكون من دواعى سرورى كذلك العمل على إيصالهما دون إبطاء - بشكل أو بآخر - إلى يدي القارئ الأسباني.

الجزء الأول

فتح أسبانيا والإمارة الأموية

(٧١٠ - ٩١٢م)

الفصل الأول

فتح أسبانيا ودخولها الإسلام

(٧١٠ - ٧٥٦ م)

عناوين الفصل الأول :

١- أسبانيا القوطية قبل الفتح العربى :

انهيار الدولة القوطية فى نهاية القرن السابع الميلادى - غيطشة ولذريق.

٢- حملات طارق بن زياد وموسى بن نصير (٧١٠ - ٧١٦ م) :

فتح المغرب (موسى بن نصير) - الكونت يوليان - طريف، وحملة طارق - موقعة نهر برباط وفتح طليطلة - حملات موسى بن نصير فى أسبانيا - عبد العزيز بن موسى.

٣- حكام أسبانيا التابعون لخلفاء دمشق (٧١٦ - ٧٥٨ م) :

الخصومات العشائرية العربية فى الشرق وصداها فى أسبانيا - حكام أسبانيا العرب حتى ٧٣٢م - التمرد البربرى فى شمال أفريقيا وصداها فى أسبانيا - قدوم «بلج» و«الجند» السوريين - خلفاء بلج وهيمنة القيسيين - عهد يوسف الفهرى ونشاط الصميل.

٤- الحملات الإسلامية فى بلاد الغال، وبداية «حرب الاسترداد» الأسبانية :

المسلمون فى بلاد الغال حتى موقعة «بلاط الشهداء» - معركة بواتييه «بلاط الشهداء» - المقاومة المسيحية فى أشتوريش، بلايو، الصخرة - ألفونسو الأول وبداية «حرب الاسترداد».

٥- إسلام الأندلس، وسكانها العرب والبربر خلال القرن الثامن من الميلادى :

الأندلس - اعتناق سكان أسبانيا الإسلام - المجتمعات المسيحية واليهودية فى الأندلس - عرب أسبانيا : الداخلون - البربر فى أسبانيا.

٩- أسبانيا القوطية قبل الفتح العربى^(١)

نهيار الدولة القوطية فى نهاية القرن السابع الميلادى:

يتميز الفتح العربى لأسبانيا - من بين كل الفتوحات التى قام بها العرب فى نهاية القرن السابع الميلادى وأوائل الثامن بعيدا عن البحر الأحمر والخليج الفارسى - بالسرعة والجرأة والسهولة : فقد أتيح للمسلمين بموجبه الاستيلاء على أغنى أرض حلموا بها فى نهاية مشوارهم تجاه غرب البحر الأبيض المتوسط. كما أن اقتحامهم غير المتوقع لشبه جزيرة أيبيريا - من أعمدة هرقل حتى حائط جبال البرانس - قد أثار دهشة وفزع العالم المسيحى الغربى، وتحير مؤرخو العصور الوسطى فى تحديد الظروف التى هأت له.

وإلى يومنا هذا لازال بعض المتخصصين يعتبرون كارثة استيلاء الإسلام على جزء، لا ينتسب لأفريقيا أو آسيا، بل من القارة الأوربية ذاتها حدثا غريبا وظاهرة بعيدة عن المنطق الطبيعى للأشياء، ولذا يلجأون إلى وضعه تحت بند «المعجزة التاريخية»^(٢).

وبرغم كل هذا، لا يوجد مثال واحد فى التاريخ يخبرنا بأن دولة منظمة قد تركت فى استكانة أراضيها تُغتصب من قبل بعض فصائل الفرسان الشجاعة، لو كانت تنعم بالصحة وهيكلها سليم معافى ولحكامها الهيبة والطاعة. فالفتوحات الكبرى قد صادفت دائما تحلا سياسيا واجتماعيا للأمم التى هبطت فوقها .. وهذا ما حدث بالفعل لأسبانيا القوطية.

إذا كان الحظ قد حالف المسلمين فى عدم تكبدهم سوى القليل من المشقة وفى ضالة الأخطار إلى واجهوها من أجل الاستيلاء على شبه جزيرة أيبيريا، فمن قبيل المؤكد كذلك أن يسر مهمتهم يرجع لضعف الملكية القوطية ولرد الفعل الخجول لمجمل سكانها. كان من الممكن التفكير فى فشل محاولة العرب - أو على الأقل فى جعلها أكثر صعوبة - لو لم تكن بوادر الضعف قد أمسكت بتلابيب مملكة طليطلة حتى أنهكتها فى النهاية.

وبالرغم من الظلام التاريخى الذى يلف الثلاثين سنة الأخيرة من حكم القوط، إلا أنها تبدو فى غاية الاضطراب والغموض. فهذه الفترة القصيرة التى استهلها اعتزال الملك «وامبا» (WAMBA) عام ٦٨٠م مليئة بشتى ألوان الفوضى : صدامات دموية بين الطامعين فى العرش؛ تمرد المحافظات المختلفة؛ مؤامرات النبلاء ورجال

الإكليروس من أجل زيادة مكاسبهم السياسية. وكلها مؤشرات لألبس فيها على أن الأراضي الأيبيرية كانت في مطلع القرن الثامن فريسة سهلة لأي غاز سواء أتى من الشمال أو الجنوب .. وبما أن العرب - وكانهم على موعد - كانوا متواجدين هناك على الشاطئ الآخر من المضيق فقد استولوا عليها دون جهد بعد إجهازهم على حكم القوط بضرية واحدة.

توجد عدة تواريخ تعتبر بمثابة معالم بارزة في حياة هذه المملكة خلال القرن السابع : في عام ٥٨٠م استطاع الملك «ريكاريدو» (RECARDO) تحقيق وحدة أسبانيا الدينية بإحلال الكاثوليكية محل الكنيسة الآريوسية الملقاة. ومع هذا، فالقضاء على الازدواجية الدينية، الذي أثار وقتها كثيرا من الشغب، لم يشف الغليل لفترة طويلة لأنه أمدّ رجال الدين بالقوة وحوّلهم إلى مشاركين في ممارسة السلطة. لقد أصبحوا، بالإضافة إلى النبلاء، يملون وجهات نظرهم وقراراتهم على الأمراء الحاكمين، وأصبحت اجتماعات المجامع الكنسية - التي كانت تعقد بصفة دورية في طليطلة - تضارع المجالس الملكية.

كما توجد بؤرة أخرى للصراع لانتقل شؤما على حسن سير دفة الأمور في المملكة ألا وهي المتمثلة في الأخذ (عام ٦٣٣م) بمبدأ الاختيار لتعيين الملوك. لكن أغلبية هؤلاء كان يخرج على النظام المعمول به بعد أن يصل إلى السلطة ويحاول تعيين أحد أبنائه أو أقاربه خليفة له. وبالرغم من هذا فقد كانت هناك شخصيات عظيمة ومنها شخصية الملك «ريثيسينتو» (RECESVINTO) الذي بقى حاكما فترة طويلة (٦٥٣ - ٦٧٢م)، ومن أهم ما ينسب لعهد إعداد «مجموعة القوانين» التي ظلت سارية المفعول بين مسيحي أسبانيا من يوم وضعها حتى قرون طويلة لاحقة^(٣). ثم أتى بعده أمير شجاع وإداري ماهر هو «وامبا» (WAMBA) الذي استمر حكمه ثماني سنوات لكن الظروف أجبرته على التخلي عن العرش والاعتزال في أحد الأديرة. ويخلفه «إيربيخيو» (ERVIGIO) الذي أخفق في الحصول على النتائج المرجوة من الاجتماع الثالث عشر للمجلس الطليطي عام ٦٨٣م. وبعده تولى «إخيك» (EGICA) السلطة عام ٦٨٧م واحتفظ بها حتى مطلع القرن الثامن، وفي عهده اجتمع مجلس البلاط ثلاث مرات : في ٦٨٨، ٦٩٣، ٦٩٤. كان هدف الاجتماع الأول حل مشكلة الصراع على السلطة بين العاهل وورثة سلفه. وخصص الثاني لمحاكمة المطران الطليطي «سيسبرتو» (SISBERTO) لتواطؤه في مؤامرة مع الجيش. أما الثالث فكان لمحاكمة اليهود الأسبان الذين اتصلوا بأبناء عمومتهم في شمال أفريقيا، ومن يومها لم يكفوا عن حضّ العرب

على دخول شبه جزيرة أسبانيا. وفي تلك المحاكمة صدرت ضد اليهود عقوبات صارمة للغاية : حكم عليهم بالتحويل إلى الرق وبمصادرة ممتلكاتهم وابتزاز أولادهم منهم عند إكمالهم السبع سنوات. ولم يستثن من هذه الأحكام سوى يهود «سبتمانيا» (SEPTIMANIA). ويجدر الإشارة - في هذا المقام - إلى أن الجاليات اليهودية في أسبانيا كانت مطاردة من النظام القوطي منذ آمد بعيد^(٤). ولما عودا للحديث عن الدور الذي لعبوه في الغزو الإسلامي وعن مساهمتهم للمحتلين الجدد.

غيطشة (WITIZA). أنريكو (RODRIGO) :

في عام ٦٩٣م أشرك «إخيكاز» ابنه «غيطشة» في الحكم معه، وبعد خمس سنوات أصبح «غيطشة» الحاكم الفعلي للبلاد حتى وفاة والده عام ٧٠٢م. وظل يحكم بعد هذا التاريخ دون أن يكلف نفسه عناء الخضوع لبدأ الاختيار الشرعي. وأثناء فترة حكمه عقد مجلسا للبلاد لكن محاضره ضاعت ولم تصل إلينا. ولما كان متقدما في السن فقد عمل جاهدا على توفير كافة الضمانات لانتقال السلطة بعده إلى ابنه المفضل «أخيلاز» (AKHELA) ومنها تعيينه واليا على كل من «طركوتة» (TARRAGONA) و«أربوتة» (NARBONA). وكما كان متوقعا فإن هذه التدابير أثارت سخط وجهاء القوط، وأدت إلى تآمر البعض لكن جميع المؤامرات اكتشفت وعوقب مديروها بشدة. وزادت موجة السخط بين التيلاء والطبقة العليا لرجال الكهنوت عندما عمل الملك بتصحيحة مستشاره «سيندريلو» (SINDEREDO) وخفف من صرامة القواعد التي تحكم حياة اليهود الأسبان.

وبهذا الشكل، تأزمت الأمور من جديد في شبه الجزيرة بعد موت غيطشة نهاية عام ٧٠٨ أو بداية ٧٠٩. فقد استمر ابنه «أخيلاز» في مقر حكمه بالشمال وضرب عملة تحمل اسمه في «طركوتة» و«أربوتة» ولم يدر يخلده - وهو الوريث المفترض لوالده - الذهاب إلى طليطلة ليجلس على عرشها. ومازاد الطين بلة أن والدته وأخويه «أولندو» (OLMONDO) و«أرداباستو» (ARDABASTO) وعمه المطران «أوباس» (OPPAS) وبقية إخوته تركوا العاصمة وقروا هارين إلى «جليقية» (GALICIA).

وبمرور بعض الوقت اجتمعت جبهة المعارضة في طليطلة وقررت اختيار الدوق «أنريكو» - الذي كان يقيم بقرطبة - لتولى شئون الحكم. وبعد أن تولى السلطة صيف ٧١٠م أرسل «أخيلاز» جيشا تحت قيادة معلمه «ركيسيتلو» (REQUESINDO) لمحاربة

ملك طليطلة الجديد، لكن الجيش هُزم وقتل قائده. ويقول البعض أن أبناء «غيطشة» بعد هزيمة قوات أخيهام فروا هارين إلى شمال أفريقيا، لكن الرواية الأكثر احتمالا تفيد بأنهم تصالحوا مع الملك الجديد وأصبحوا قوادا في جيشه.

وبالرغم من أن ماحوته الحوليات العربية عن فترة حكم «النريق» أقل وفاء من المصادر اللاتينية، إلا أن أخبار كليهما مشكوك فيها لأنها نوتت في فترة متأخرة جدا عن القرن الثامن. فالأسطورة قد تمكنت من «النريق» وحولته إلى شخص غارق حتى أنفيه في التزوات القرامية، ولا مفر من أخذ هذه النقطة في الاعتبار برغم ماكتنفها من شكوك، إذ لا يوجد بخان بلا نار : أى أن لها أساساً من الصحة. ويتحدث المصادر العربية عن فتح «النريق» لدار طليطلة المظقة وعن اغتصابه لابنة الكونت «يوليان»^(٥). مايهما الآن معرفة أن أسبابنا فقدت وحدتها السياسية خلال هذه القصير : فالقصائل المختلفة كانت في صراع دائم مع سهل - نون شك - مهمة العرب الفاتحين.

٢- حملات طارق بن زياد وموسى بن نصير (٧١٠ - ٧١٦م)^(٦)

فتح المغرب - موسى بن نصير :

في الوقت الذي خلف فيه «النريق» «غيطشة» كان العرب قد ثبتوا أقدامهم في شمال المغرب وانتهوا من احتلال منطقته الوسطى. ولم يقف حائلا في وجهة انطلاقهم الشرر والعنيد سوى المحيط الأطلنطي.. كان يوسعهم توجيه الدقة صوب الجنوب وتجاوز جبال الأطلس نون عوائق لاحتلال الصحراء والبلاد السوداء ومساحات صحراوية شاسعة ألفوا مثلها، لكن أنظارهم - على خلاف المتوقع - اتجهت إلى شبه جزيرة أيبيريا، وكأما استهوتهم الأراضي الخصبة وثرأ المدن العتيقة، ولذا كان من الضروري اتخاذ القرار بمهاجمة أسيانبا.

ومع هذا، فقرارهم لم يخل - بالتأكيد - من بعض التردد وربما التهور. فهناك عائق لم يعتابوا عليه قد جطهم يمعنون التفكير : الحاجز البحري، بالرغم من قصره، سيفصل بينهم وبين قواعد الانطلاق وسيجعل الاتصال بالمقر الرئيسي للاميراطورية العربية محقوفا أكثر بالمخاطر لاتساع هوة المسافة. لم تكن المهمة سهلة، ويغلب الظن بأن الملابس التي أحاطت اتخاذ القرار وقتها كانت : الخوف من المجهول والثقة الزائدة بالنفس، إضافة إلى تأكيدات من معسكر الخصم بحسن الاستقبال. ومن

المحتمل أيضا أن العرب لم يكن ليفكروا بهذه السرعة مهاجمة أسبانيا لو لم تحفزهم بعض الدعوات الداخلية ولو لم يؤازرهم البربر (رعاياهم الأفارقة الجدد الذين دخلوا الإسلام حديثا). فلم يكن قد استقر بعد احتلالهم الحديث للمغرب، ولم تسفر غاراتهم على بعض مراكز المغرب الأقصى عن نتائج حاسمة.

من الصعب تحديد تاريخ مؤكد للمحاولات الأولى لأسلمة المغرب نظرا لظاهرة المد والجزر التي صاحبت عمليات العرب العسكرية في شمال أفريقيا خلال الربع الأخير من القرن السابع ولرود أفعال البربر المستمرة. ومع هذا، يبدو أن عقبة بن نافع - في الفترة من ٦٨١ - ٦٨٢ - قد توغل حتى طنجة، وشن منها غارات شجاعة على قلب المغرب ذاته حملته إلى «ولبله» ثم إلى «وادي درعة» وتخوم الأطلس الكبير، وإلى السهول الواقعة بالقرب من الأطلنطي، لكن مرور عقبة الخاطف بتلك الأماكن لا يضمن ولاء الكتل البربرية من الوهلة الأولى ولا صدق تحولها إلى الإسلام. وكان على القواد العرب الذين أرسلهم بعد ذلك الخلفاء الأمويون إلى شمال أفريقيا قمع حركات التمرد البربرية والقضاء على زعمائها وخاصة «كسيلة» و«الكاهنة». بعد وفاة الخليفة عبد الملك بن مروان وتولية ابنه الوليد عام ٧٠٥م تجدد العزم على إتمام فتح المغرب، وأسندت المهمة إلى موسى بن نصير^(٨). ومثل معظم قادة العرب العسكريين في تلك الفترة، فإن موسى بن نصير هذا (الذي احتفظ له المجد مع طارق بن زياد بشرف فتح أسبانيا) كان قائدا حرييا من الطراز الأول وسياسيا بارعا (ولنذكر بأنه اشتغل بالسياسة - قبل تعيينه حاكما على شمال أفريقيا - في الشرق تحت إمرة والي مصر في البداية ثم خليفة دمشق بعد ذلك). وحققت حملة موسى إلى المغرب نجاحا منقطع النظير : فقد اتجه بجيشه أولا إلى «سيشيلماسا» (SICHILMASA)، ثم إلى ضفاف نهر «مولوية» (MULUYA)، بينما نجح أحد أبنائه في إخضاع بربر «المصمودة» في الأطلس الكبير. وأعاد موسى فتح «طنجة» لكنه أرجأ لبعض الوقت الاستيلاء على «سبتة» البيزنطية. ولكي يوطد فتوحاته أخذ رهائن من القبائل الخاضعة له بغرض تعليمهم الدين الجديد ولتحويلهم بعد ذلك إلى دعاة متحمسين للإسلام. وبعد أن تم له كل هذا، عاد إلى أفريقيا تاركا على المغرب نوابا عنه من العرب أو من البربر الذين يدينون له بالولاء. ومن هؤلاء طارق بن زياد الذي تولى حكم طنجة^(٩).

الكونت يوليان (EL CONDE JULIAN) :

سنتحدث تحت هذا العنوان عن التدخل الحاسم لشخصية مسيحية تجمع الحوليات العربية على إطلاق اسم «الكونت يوليان» عليها^(١٠).

ثارت أقاويل عديدة حول شخصية «يوليان» حاكم سبته الذي ارتبط مع عقبة بن نافع - منذ حملاته الأولى - بمعاهدة تنص على التبعية للقائد العربي مع الاستمرار أميرا مستقلا على مدينته.

حاول بعض المؤرخين المعاصرين إثبات أنه كان أحد وجهاء مملكة القوط، أو أنه كان زعيما بربريا مسيحيا ينتسب لقبيلة «غمارة» (GUMARA)، واسمه الأصلي يوليان (بالباء). لكن الأكثر احتمالا أنه كان واليا بيزنطيا تابعا لامبراطورية القسطنطينية ظل محتفظا لبضع سنوات بولايته على سبته كأخر معقل بيزنطى فى الأراضى الأفريقية^(١١). ولم يكن بوسع هذا الوالى البيزنطى التخلّى عن علاقة حسن الجوار أو تبادل المصالح ليس فقط مع شعوب البربر المحيطة به بل أيضا مع كبار رجال الدولة القوطية القريبة. ومن الطبيعى أيضا أن يكون قد تعاطف مع ابن غيطشة بعد أن سلبه لذريق ملكه، وأن يكون قد أوى إليه عددا غير قليل من الساخطين أو المغضوب عليهم فى شبه جزيرة أيبيريا.

ولمعرفة البواعث التى حدثت بـ «يوليان» التحالف مع المسلمين لامفر من الرجوع إلى الحكايات التى أوردتها المصادر العربية، علما بأن الأدب المسيحى المتأخر قد فند منحاها الأسطورى. ومع هذا، لانستطيع أن نمر مرور الكرام على تلك الأقاصيص برغم ما يكتنفها من شكوك.

وطبقا للمصادر العربية فإن الكونت يوليان كانت له ابنة (تدعى «إلكافا» أو «فلورندا») وأرسلها - تمشيا مع تقاليد ذلك العصر - إلى البلاط الطليطلى لكى تتربى تربية الأميرات. وذات يوم رآها الملك لذريق فأسره جمالها ولم يتورع عن سلب عفافها. ولما علم يوليان بالأمر ذهب على وجه السرعة إلى طليطلة، متجشما سوء الأحوال الجوية فى هذا الفصل من السنة، وأعاد ابنته إلى أفريقيا وأقسم برد الإهانة.

وعلى هذا، فإن مسئولية الأحداث الجسام التى هبطت على أسبانيا منذ اليوم الأول لسقوطها فى أيدي المسلمين لابد وأن تتحملها - إلى الأبد - تلك الفتاة المسكينة التى تحولت إلى مادة خصبة لكل الأجناس الأدبية : فأقاصيص العصور المتأخرة - حتى مجموعات «الرومانث» - لاتمل من الحديث عن تلك الفتاة التى شاهدها لذريق وهى تستحم فى نهر التاجة المار بطليطلة، ولاتردد فى وصفها بالعاهرة^(١٢).

ولم يكد يوليان يرجع إلى سبته حتى شد الرّحال من جديد مجتازا أفريقيا فى طريقه للقاء حاكمها موسى بن نصير، وفى اللقاء زين له الاستيلاء على شبه جزيرة

أيبيريا حيث أنه لن يكلف المسلمين سوى القليل وسيعود عليهم بالخير العميم. وقبل موسى عرض يوليان التعاون معه، وكلفه بمهمة تفقد واستطلاع الشاطئ الأسباني. بمجرد عودته إلى سبنة جهاز قوة بحرية صغيرة وأغار بها على خليج «الجزيرة لخصراء» (ALGECIRAS) فأصاب الكثير من الغنائم والأسرى وقفل عائداً إلى مدينته. وقعت هذه الغارة، التي بهرت مسلمي شمال المغرب، في أكتوبر أو نوفمبر عام ٧٠٩م (٩٠هـ).

يقول المؤرخون العرب أن سخونة الأحداث أقنعت موسى بن نصير بإمكانية إعداد حملة ضد أسبانيا، لكن كان عليه الحصول على موافقة الخليفة. في المرة الأولى لم يعط الوليد بن عبد الملك التصريح الذي طلب منه؛ وفي الثانية طلب من حاكمه على أفريقيا الاقتصار على الاستكشاف بفصائل من الفرسان لاختبار صمود القوط والتعرف على حقيقة الأوضاع السياسية للبلاد «حذار - أضاف الخليفة - من التفرير بالمسلمين في بحر شديد الأهوال» (١٢).

طريف، وحملة طارق:

في يوليو عام ٧١٠م (رمضان ٩١هـ) وطأت أقدام أربع مائة مقاتل مسلم، منهم مائة من الفرسان، تحت إمرة البربري طريف بن مالك (١٤) أرض شبه جزيرة أيبيريا. اجتازت القوة المضيق في أربعة سفن زودها بها الكونت يوليان، ونزلت في بقعة عرفت فيما بعد برأس طريف (نسبة إلى قائد الحملة). ومن هناك قام المسلمون بشن عدة غارات ناجحة على شاطئ مضيق جبل طارق وعابوا محملين بالأسلاب والغنائم، وخاصة بأسيرات أسبانيات فائقات الجمال.

وبعد أن تلقى موسى بن نصير في مقره بالقيروان حصته من الغنائم وبها جملة من الفاتنات المسيحيات أمر بإعداد الحملة.

لا يوجد - حقيقة - دليل قاطع على أن الأمور سارت على هذا النحو؛ ومع هذا فكل ماضى يحتمل التصديق حتى مع التسليم بما افترضه «سافدرا» (١٥) من أن الإبرار الأول للكونت يوليان لم يتم بناء على رغبة موسى بن نصير بل كان تلبية للنجدة التي طلبها الملك المظوع «أخيلا» (AKHILA) من الحاكم البيزنطي. ولم يكتف المؤرخ بهذا بل ذهب في افتراضه إلى ما هو أبعد حينما توّه بإمكانية أن يكون «أخيلا» والأمراء المشايعون له قد عقدوا اجتماعاً مع طارق بن زياد «حاكم طنجة» ليطالبوا منه العون؛ وهذا من قبيل تحميل النصوص ما لا تحتمل. لكن لا يوجد ما يمنعنا من الظن بأن

ممثلى السلطة العربية فى شمال المغرب قبل أن يحزموا أمرهم كانوا مرتبطين - بفضل المساعى الحميدة للكونت يوليان - باتفاقيات مع أنصار «أخيلا»؛ ويدون هذه الاتفاقيات لايمكن تفسير تواضع إمكانات الحملة ولا النجاح الساحق الذى حققته.

وتولى قيادة الحملة حاكم طنجة طارق بن زياد الذى لم يتفق المؤرخون على تحديد أصله : فبينما نسبته البعض إلى البربر تحدث آخرون عن أصله الفارسى. ومن المرجح قيام الكونت يوليان بمرافقة الحملة كمستشار سياسى للقائد المسلم. ومرة ثانية - بعد نقل طريف من قبل - سيقوم أسطول يوليان الصغير بسفنه الأربع بشق عباب المضيق بون هواة جيئة ونهايا فى نفس الوقت الذى شرع فيه ببناء معديات جديدة لنقل العون والمدد حينما تستدعى الضرورة. كانت الظروف مواتية لانشغال «لذريق» بصد هجوم معادٍ على إقليم «بنيبلونة» (PAMPLONA) فى شمال مملكته. وفى بداية فصل الربيع (شهر أبريل أو مايو ٧١١م، الموافق رجب أو شعبان ٩٢هـ) عبر طارق المضيق بصحبة طلائع الجيش المسلم وخندق فى سفح جبل «كالبى» (CALPE) - جبل طارق، فيما بعد - لانتظار عبور بقية جنوده.

لم تكن القوات التى جمعها طارق - عملا بتوجيهات موسى بن نصير - كثيرة العدد. وفى هذا الشأن يمكن أن تخامر الذهن فكرة تعتمد المؤرخين العرب خفض تعداد الحملة لإبراز نتائجها بصورة جلية، لكن يجب الأخذ فى الاعتبار بأن العرب فى ذلك الوقت لم يكونوا مؤهلين بدرجة كافية لنقل جيش ضخم عن طريق البحر. على أية حال، فقد كان جيش طارق مؤلفا من حوالى سبعة آلاف رجل معظمهم من البربر بالإضافة إلى عدد يسير من العرب الخالص. وبمجرد اكتمال الجيش توجه صوب مدينة «كارتيا» (CARTEYA)^(١٦)، الواقعة على خليج جبل طارق عند مصب جدول صغير يدعى «جوادار أنكى» (GUADARRANQUE). وانطلق بعد ذلك صوب الغرب، وفى مقابل جزيرة صغيرة أسس قاعدة حربية تحمى جيوشه فى حالة الاضطرار إلى الانسحاب أو التقهقر (وعلى نفس مكان القاعدة ستظهر فيما بعد مدينة جديدة تحمل اسم «الجزيرة الخضراء» (ALGECIRAS)، وتكفل الكونت يوليان بمهمة الإشراف على هذا الاستحكام العسكرى والدفاع عنه إذا لزم الأمر.

موقعة نهر برباط (BARBATE) وفتح طليطلة :

لم تتأخر الأخبار فى الوصول إلى لذريق فعاد سريعا إلى قرطبة حيث جمع مالىه من قوات نظامية. وعندما علم طارق بهذه التحركات ارتبك بعض الشئ. استبعد

- وقتها - فكرته السابقة بالسير قدما نحو العاصمة، وطلب تعزيزات من أفريقيا فأمدته بخمسة آلاف أخرى من البربر. بلغ مجموع قواته اثني عشر ألف محارب، دون حساب أتباع «أخيلا» الذين انضموا إليه. وبعد استشارة مجلسه العسكري - بما فيهم الكونت يوليان - قرر طارق البقاء في إقليم «الجزيرة الخضراء» وانتظار غريمه القوطي. وهكذا سار بحذر تجاه غرب «رأس طريف» حتى وصل إلى بحيرة ضحلة موازية للساحل تسمى «خاندا» (JANDA) يربطها بالبحر جدول صغير يدعى «نهر برباط». ظهر جيش لذريق في إقليم «شنونة» (MEDINA SIDONIA) بالقرب من الضفة اليمنى للجدول المذكور.

علم طارق - عن طريق جواسيسه - باقتراب لذريق على رأس جيش قوامه مائة ألف رجل (من الواضح أن هذا الرقم مبالغ فيه)، وفي ١٩ يوليو ٧١١م (٢٨ رمضان ٩٢هـ) التقى الجمعان.

وطبقا للمصادر العربية فإن جناحي الجيش القوطي كانا تحت إمرة مؤيدي «أخيلا» - وربما تحت إمرة إخوة هذا الأمير-، وبمجرد أن بدأت المعركة ولّى قادة الجناحين مع جنودهم الأدبار، وحاول لذريق الثبات بقلب جيشه، لكنه لم يجد في النهاية بداً من التقهقر أمام ضغط المسلمين الذين تعقبوه وأنزلوا به خسائر فادحة^(١٧).

لقد حدد هذا النصر المباغت للمسلمين على ضفاف نهر برباط^(١٨) (أو وادي لكة، طبقا لتسمية المؤرخين العرب) مصير أسبانيا. واستطاع لذريق الفرار بأعجوبة من مطارديه الذين استولوا على عتاد جيشه وعابوا محملين بالأسلاب والغنائم إلى معسكرهم.

أما عن تفاصيل الأحداث التي تلت المعركة فقد تضاربت فيها الأقوال حتى إن المصادر العربية لم تتفق فيها على رأى.

وبعد انتصار نهر برباط الكبير تفتحت أمام طارق بن زياد أبواب الأندلس على مصراعها. ولو انصاع للأوامر التي تلقاها قبل رحيله وعاد بموجبها إلى أفريقيا أو قبع في مكانه لإعلام أولى الأمر بما حدث وانتظار تعليماتهم الجديدة لكان قد ارتكب خطأ جسيما. لكن حماسه الحربى ونشوة النصر بددا شكوكه ومخاوفه وجعلاه - بالإضافة إلى تحميس كل من الكونت يوليان وأنصار ابن غيطشة - يتخذ القرار بالمشى قدما إلى الأمام. كان هدفه الأول قرطبة، على نهر الوادي الكبير؛ وللوصول إليها كان عليه عبور نهر «شنيل» (GENIL)، والاستيلاء بالقوة على مدينة إستجة

(ECIJA) التي اعتصمت بها فلول القوط الهاربة. وبالقرب من هذه المدينة حقق طارق نصرا جديداً، وانضم إليه جمع غفير من الساخطين على النظام القوطي وممن فضلوا التحالف مع المنتصر على نير العبودية. ومن جهة أخرى، فقد قدم له يهود جنوب أسبانيا ما يوسعهم من عون.

وعلى ضوء ما استجد من ظروف فضل طارق السير بغالبية الجيش نحو طليطلة، وترك لعدد من قواده القوات اللازمة لدحر أية محاولة قوطية لعرقلة تقدمه. وفي هذه الأثناء قام المولى «مغيث»^(١٩) بمهاجمة قرطبة والاستيلاء عليها في أكتوبر ٧١١م (مطلع عام ٩٣هـ).

وبالرغم مما يقوله بعض المحللين فإن فتح المسلمين للمدن الواقعة أقصى شرق الأندلس (مثل غرناطة ومالقة وإقليم مرسية) لم يتم إلا بعد هذا التاريخ بكثير.

أما بالنسبة لطليطلة - عاصمة الملك لذريق - فإنها لم تبذ أية مقاومة، ووجدتها الغزاة شبه خالية من السكان. فبينما كان طارق يقترب منها غادرها على عجل أسقف الكنيسة الأسبانية (سيندريدو) متجهاً إلى روما، وحذا حذوه في الفرار غالبية السكان. وفي الحاضرة القوطية - التي تعج بالكنائس والقصور - وضع طارق يده على ثروات لاحصر لها، وفي تقديرها ذهب خيال المؤرخين العرب كل مذهب^(٢٠).

ويبدو أن طارق لم يلبث طويلاً بطليطلة بل غادرها وواصل تقدمه في الاتجاه الشمالي الغربي حتى وصل إلى وادي الحجارة (GUADALAJARA) بعد اجتيازه لسلسلة جبلية لم يتحدد اسمها. لكن «سافدرا» يقول أنه لم يتجاوز «قلعة هنارس» (ALCALA DE HENARES) وعاد لتمضية الشتاء في طليطلة. وفي حملة ثانية وصل إلى «أمايا» (AMAYA) بمحافظة «برغش» (BURGOS).

حملات موسى بن نصير في أسبانيا :

يذكر المؤرخون أن موسى بن نصير بدلاً من ابتهاجه بالنجاح الساحق الذي أحرزه طارق، وتهنئته على ما قدمه للإسلام من فتوحات، تملكه الحقد واستبد به الغضب، ولم لا! وهو يرى خيانة الحظ له - وهو القائد الذي لا يشق له غبار - ومساعدته لمجرد معتوق مجهول الأصل من أتباعه ومع هذا، فليس من الإنصاف في شيء الاعتقاد بأن الحقد وحده هو الذي دفع موسى للذهاب بنفسه إلى أسبانيا. يمكن الظن بأن طارق خاف - أو على الأقل، انزعج - من اتساع وهشاشة فتوحاته السريعة، ومن ثم فقد طلب من رئيسه إرسال مدد لتعزيز قواته ولتأمين المدن التي

سقطت في يده. على أية حال، فقد وجد موسى بن نصير جيشا قوامه ١٨٠٠٠ رجل في انتظاره على الساحل الأفریقی المضيق جبل طارق. كان معظمهم هذه المرة من العرب : بينهم كثيرون من التابعين (ممثلي الأرستقراطية الجديدة) وزعماء قيسيون ويمثيون. اجتاز بهم موسى المضيق وألقى مراسيه في الجزيرة الخضراء في يونيو ٧١٢م (رمضان ٩٢هـ). وبدلاً من أن يتجه إلى طليطلة ليتحد هناك مع طارق فضل العمل لحسابه الخاص. استولى أولاً على شذونة (مدينة ابن السليم)، ثم اتجه نحو الشمال (جهة إشبيلية التي لم تكن قد فتحت بعد) ليحتل ثغرى «قرمونة» (CARMONA) و«قلعة جابر» (ALCALA DE GUADAIRA)، لينتفى الدور بعد ذلك على إشبيلية ذاتها. بالرغم من أن بعض المؤرخين يتحدث عن حصار لإشبيلية دام عدة أشهر إلا أن الأكثر احتمالاً أن المدينة لم تقاوم مقاومة شديدة لأن الحامية القوطية كانت قد تركتها وهربت صوب الشمال، في اتجاه «لبلة» (NIEBLA).

بعد سقوط إشبيلية قرر موسى الاستيلاء على «ماردة» (MERIDA) التي تجمع فيها حلفاء «الفریق» الأساسيون. فافت مقاومة هذه المدينة توقعات المسلمين. ظل الثغر محاصراً طيلة الشتاء التالي ولم يسقط إلا في ٢٠ يونيو عام ٧١٣ (١ شوال ٩٤هـ). غنم منه موسى ثروات لا تحصى^(٢١) ثم واصل تقدمه نحو طليطلة وأرسل إلى طارق ليكون في استقباله. وفي نفس الوقت أرسل ابنه عبد العزيز لإخماد التمرد الذي اندلع حديثاً بإشبيلية، والاستيلاء - أيضاً - على «لبلة»، باجة (BAJA) و«أكشونية» (OGSONOBA).

خرج طارق لاستقبال رئيسه والتقى به عند «طلييرة» (الثغر الأوسط) (TALAVERA). يذكر المؤرخون العرب أن اللقاء لم يكن ودياً ولا حميماً لأن موسى وبخه فيه وضره بالسوط.

وطبقاً «لسافدرا» فإن موسى اتجه - بعد لقائه بطارق في طلييرة - صوب جبل فرنسا (ومكانه الحالي محافظة شلمنقة SALAMANCA) لتعقب الملك المخلوع (الفریق) الذي احتمى به؛ وأسفرت المطاردة عن قتل آخر ملك قوطي في نهاية صيف ٧١٣م بالقرب من محلة «سيجويلا دي لوس كورنيخوس» (SIGOYUELA DE LOS CORNE) الواقعة شمال قرية «تاماس» (TAMAMES)^(٢٢).

وأغلب الظن أن موسى انطلق من طلييرة إلى طليطلة حيث سلمه طارق الكنوز الملكية ونفائس الكنائس التي غنمها، وطالب له المقام - في حالة ملك حقيقي - بحاضرة

القوط القديمة. واستخدم الحاكم العربي دار سك العملة التي كانت تابعة للووك القوط القدامى في سك عملة ذهبية تُقش على أحد وجهيها بحروف لاتينية «بسم الله، لا إله إلا الله»، وعلى الوجه الآخر تُقش «ضرب في أسبانيا عام ... (مع ذكر العام الهجري ومايقابله بالميلادي)» (٢٣).

ومن الأرجح أن موسى أمضى شتاء ٧١٢ - ٧١٤م في طليطلة، وأرسل خلاله كلا من علي بن رباح ومغيث (الذي فتح قرطبة) إلى خليفة المسلمين بدمشق ليطلعا على نتائج الغزو. وعندما تحسن الجو انطلق إلى سرقسطة ليفتحها عام ٧١٤م (لم يتمكن من تحديد اليوم والشهر)، وأبقى عليها التابعي «حنش الصنعاني» الذي أسس بها مسجدا كبيرا. ومن سرقسطة واصل موسى تقدمه نحو «لاردة» (الثغر الأعلى)، سالكا الطريق الروماني الذي يربط عاصمة «رغون» (ARAGON) بـيرشالونة ويمتد بعد ذلك إلى «أربونة» (سبتمانيا) بحذاء البحر الأبيض المتوسط. فهل كان يفكر في مد فتوحاته إلى الجانب الآخر من البرانس؟ على أية حال، فقد توقف المشروع لعودة رسوله مغيث حاملا الأوامر من الخليفة الوليد بن عبد الملك بضرورة مثول كل من موسى وطارق أمامه في دمشق ليطلعا بنفسيهما على نتائج الحملات المتتالية.

تمهل موسى في الرحيل إلى الشرق لأنه لم يرد ترك شبه جزيرة أيبيريا قبل توطيد فتحه لـ «كنتيريا» (CANTABRIA) والأقاليم المتاخمة لسلاسلها الجبلية (ومن بين هذه الأقاليم المنطقة التي ستسمى فيما بعد بقشتالة العتيقة). وهكذا، فبينما أعطى أوامره لطارق بمواصلة السير في الطريق الروماني الذي يمتد من سرقسطة باتجاه وادي نهر «إبره» (EBRO) ليتعطف بعد ذلك صوب «جليقية» (GALICIA)، قام هو بالاستيلاء على المنطقة الواقعة جنوب سلاسل «كنتيريا» الجبلية.

اتبع طارق خط سيره المحدد من قبل وخضع له «فرتون» (FORTUN) (٢٤)، زعيم «رغون» الذي تحول إلى الإسلام ليحتفظ بثرواته وأملاكه.

ثم واصل تقدمه إلى ثغر «أمايا» (AMAYA) فاستولى عليه، ومن بعده على «ليون» (LEON) و«أستورقة» (ASTORGA). وفي هذه الأثناء سار موسى بحذاء الضفة اليمنى لنهر «إبره» وغير اتجاهه إلى «سورية» (SORIA) والوادي الأعلى لنهر «الديرو» (EL DUERO)؛ وبعد ذلك اتحدت قوات بقوات طارق ليتجهوا نحو الشمال - المنطقة الممتدة من «أشتوريش» (ASTURIAS) إلى «أوبييدو» (OVIEDO) و«خيخون» (GIJON) - الذي انسحب سكانه إلى مرتفعات «قمة أوربا» ليختنقوا فيها.

وبعد هذه الإنجازات أحس موسى بأنه قد آن الأوان لتلبية نداء الخليفة فغادر أسبانيا في سبتمبر ٧١٤م (نهاية ٩٥هـ) بعد أن ترك عليها ابنه عبد العزيز. اتجه - ومعه طارق - إلى القيروان أولا ثم واصل السير برا إلى دمشق بصحبة كوكبة من الزعماء العرب والأسرى البربر والأسبان. وصل دمشق قبل موت الخليفة الوليد (٢٣ فبراير ٧١٥م) بقليل، ليكون هدفا بعد ذلك لأحقاد خليفته سليمان. مات موسى بن نصير في سورية عام ٧١٦ - ٧١٧م (٩٨هـ)، وماورد إلينا من أخبار عن الفترة الأخيرة من حياته به الكثير من الأساطير.. كما أمضى طارق - وفي غموض تام - بقية عمره في الشرق.

حكم عبد العزيز بن موسى بن نصير لأسبانيا (٧١٤ - ٧١٦م) :

لا يُعرف سوى القليل عن شخصية عبد العزيز، مقارنة بوالده. عندما رحل الأب لم تكن تركة الابن تتمثل فقط في استكمال فتح أسبانيا بل كان لزاما عليه أيضا توطيد التواجد العربى فى تلك الأقاليم التى خضعت للإسلام وبقيت فيها - بالرغم من سلبية غالبية السكان وخاصة فى المناطق الزراعية - جيوب للمقاومة تهدد سلامة الغزو، وقد ساهم بشكل مؤثر فى إنجاز هذه المهمة توافد مسلمين جدد قادمين من شمال أفريقيا للاستيطان فى شبه الجزيرة. لم يحكم عبد العزيز سوى فترة قصيرة لأنه اغتيل بعد سنتين من رحيل والده، وتعوزنا التفاصيل عن الحملة التى قادها عبد العزيز بنفسه، بعد توليه الحكم بقليل، فى اتجاه البرتغال (حاليا) واستولى بها على كل من «يابرة» (EVORA) و«شنترين» (SANTAREN) و«قلمرية» (COIMBRA).

ونعتقد أنه تم خلال فترة حكمه - وبناء على تعليمات موسى لقادته قبل رحيله إلى الشرق - الاستيلاء على الأقاليم الواقعة جنوب جبال البرانس، ومن أهمها : «بنبلونة» (PAMPLONA)، «طركونة»، برشلونة، «جيرة» (GERONA)، «أربونة» (٢٥) (NARBONA).

ويبدو أن عبد العزيز قد احتفظ لنفسه بمهمة فتح شرق الأندلس وشماله، حيث استولى بالترتيب على «مالقة» (MALAGA)، «إلبيرة» (ELVIRA) - علما بأن بعض المؤرخين ينسبون فتح هذين الثغرين لطارق بن زياد -، ومنهما اتجه عبد العزيز إلى «مرسية» (MURCIA) التى كانت - بالرغم من تبعيتها لمملكة طليطلة - إمارة شبه مستقلة، وكان يحكمها سيد قوطى يدعى «تيودومير» (TEODOMIRO) أو «تُدْمير» (طبقا للمراجع العربية).

عقد الحاكم المسلم صلحا مع هذا الأمير القوطى ينص على بقاءه على رأس إمارته مقابل اعترافه بالتبعية للدولة الإسلامية فى الأندلس وتسديده للجزية وتسليمه سبعة ثغور منيعة، واحتفظ لنا بعض المؤرخين بنص هذا الاتفاق المبرم بين الطرفين^(٢٦). ومصادقية النص فوق الشبهات إلا أن التاريخ المدون به محل نظر: فهو يرجع تاريخ الاتفاقية إلى شهر رجب ٩٤هـ (أبريل ٧١٣م)، وهذا يعنى أنها أبرمت قبل رحيل موسى بن نصير إلى الشرق مما يعد مخالفة للحقيقة. على أية حال، علينا أن نعتاد من الآن فصاعدا على شيوع الأخطاء فى تحديد التواريخ.

ونقدم فيما يلى النص الكامل لهذه الاتفاقية الهامة التى تعتبر أول وثيقة دبلوماسية مدونة فى تاريخ أسبانيا الإسلامى:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من عبد العزيز بن موسى لتدمير بن غنّدريس إذ نزل على الصلح أن له عهد الله وميثاقه وما بعث به أنبياءه ورسله، وأن له ذمة الله عز وجل وذمة محمدص الألى يقدم له وألا يؤخر لأحد من أصحابه بسوء، وأن لا يسبّون ولا يفرق بينهم وبين نسائهم وأولادهم، ولا يقتلون، ولا تحرق كنائسهم، ولا يكرهون على دينهم، وأن صلحهم على سبع مدائن : أوريولة، ومولة، ولورقة، وبلنّلة، ولقنت، وإيه، والش، وأنه لا يدع حفظ العهد، ولا يحل ما انعقد، ويصحح الذى فرضناه عليه والزمناه أمره، ولا يكتمنا خبرا علمه، وأن عليه وعلى أصحابه غرم الجزية، من ذلك على كل حر : دينار، وأربعة أمداء من قمح، وأربعة أمداء من شعير، وأربعة أقساط خل، وقسطا عسل، وقسط زيت، وعلى كل عبد نصف هذا.

شهد على ذلك : عثمان بن عبيدة القرشى وحبيب بن أبى عبيدة القرشى وسعدان بن عبد الله الربعى وسليمان بن قيس التجيبى ويحيى بن يعمر السهمى وبشر بن قيس اللخمى ويعيش بن عبد الله الأزدي وأبو عاصم الهذلى وكتب فى رجب سنة أربع وتسعين».

وطبقا لما أورده بعض المؤرخين فإن عبد العزيز تزوج بأرملة الملك لذريق، التى تطلق عليها المصادر العربية «أيلة» بينما يسميها الأسبان «إيخيلونا» (EGILONA)، وقد دخلت الإسلام بعد ذلك وكنيت بأى عاصم نسبة إلى الطفل (عاصم) الذى أنجبته من زوجها الجديد. وأقام معها عبد العزيز معظم فترة حكمه القصير فى أشبيلية. وفى نفس تلك المدينة (مطلع رجب عام ٩٧هـ، الموافق مارس ٧٢٦م) وبأمر من الخليفة سليمان (لاعتقاده بأن حاكمه على أسبانيا قد استقل بها) اغتال زياد بن عزة البلوى

بعد العزيز أثناء تأنيته للصلاة في كنيسة «سائتا روفينا» (SANTA RUFINA) التي حوت إلى مسجد. وقطعت رأس الحاكم وأُرسلت إلى دمشق.

وبعد مرور عدة أشهر غامضة اجتمع عرب أسبانيا واتفقوا على إسناد مهمة حكم لأيوب بن حبيب اللخمى (ابن عمه عيد العزيز) حين ورد أمر الخليفة الأموي تعيين من يراه خلفا لعبد العزيز المقتول.

– حكام أسبانيا التابعون لخلفاء دمشق (٧١٦ – ٧٥٨) (٢٧)

الخصومات العشائرية العربية في الشرق وصداها في أسبانيا :

تعتبر فترة الأربعين سنة – من مقتل عبد العزيز حتى تأسيس إمارة قرطبة أموية على يد عبد الرحمن الداخل – من أسوأ العهود في تاريخ أسبانيا المسلمة. قبل فك طلاسمة هذه الحقبة المظلمة، يتعين علينا إلقاء الضوء في إيجاز على حالة خلافة الأموية في دمشق وخاصة فيما يتعلق بتفوذ العشائر العربية المتنافسة على يادة الامبراطورية الجديدة وما اعترى هذا التفوذ خلال الفترات المتعاقبة لخلفاء بني مية، لأن صراع تلك العشائر في الشرق سيمتد أثره إلى شمال أفريقيا وستصطلي سبانيا بناره التي احتاجت لقرن كامل حتى تنطفئ جنوتها.

يحتل القرن الثامن الميلادي بمظاهر الخصومة بين ممثلي الطائفتين العربيتين كبيرتين : القيسيين والكلييين. ولم تكن الخصومة بينهما وليدة الساعة بل إنها تضرب جنورها في أعماق الماضي، وكانت موجودة في عهد الرسول وخلفائه الراشدين. تتصل طائفة القيسيين (قيس عيلان) بفرع المضربين الذي يتفرع بدوره لعدة قبائل مثل نبيان، كلاب، قصير.

في زمن الرسول (ص) كان القيسيون بدواً رُحلاً، يتنقلون بين شمال ووسط شبه جزيرة العربية، من شاطئ البحر الأحمر حتى تخوم العراق. وأتاحت الفتوحات إسلامية لمعظمهم (وقد شاركوا فيها بفاعلية) ترك بيارهم غير الصالحة للسكنى في شبه جزيرة العرب والاستيطان في كل أراضى الشام لدرجة أنهم أصبحوا يمثلون كثرة سكان المدن العربية في العراق مثل الكوفة والبصرة. وبعد انتقال مقر الخلافة إلى دمشق (إلى قلب البلاد الذي اختاروه طواعية للهجرة) تصاعد دورهم السياسي العسكري بشكل ملموس.

أما الكلييون فيتصلون بفرع قضاعة / قحطان، ويسمون باليمنيين بالرغم من أن هجرتهم من اليمن السعيد كان قد مضى عليها أمد بعيد.

ومن قديم الزمان والخصومة متأصلة في أفراد كل عشيرة ولا يمكن أن تتمحي بموجب أى التزام. وأسباب تلك الخصومة لا ترجع فقط إلى اختلاف أصول هاتين الطائفتين بل إلى الشعور - اللإرادي، لحد ما - بالسخط وعدم الارتياح الذى يحس به سكان المناطق الصحراوية القاحلة تجاه القادمين من الأراضى الخصبة. وهناك عامل آخر فى غاية الأهمية برغم تأخره ويتمثل فى الفضل الذى أنعم به الإسلام فى بدايته على القيسيين، مرجئاً بذلك الكليين إلى مرتبة تالية.

وفى كل الأحوال، فإن الخصومة القائمة بين القيسيين والكليين - أو بين المضريين واليمنيين، بوجه عام - كانت فى نمو مطرد خلال الفترة الأولى من تاريخ الخلافة الأموية. ولم يتورع الخلفاء الأمويون عن إنكاء نار الصراع بين الطائفتين بون التحيز لأى منهما.

كان الأمويون يميلون تارة إلى القيسيين وإلى الكليين تارة أخرى طبقاً لما تمليه روابط المصاهرة - من جهة نسائهم - بكلا الفريقين. فقد مال معاوية بن أبى سفيان وابنه يزيد إلى اليمنيين لأن أم يزيد كانت منهم. ولهذا السبب حاول القيسيون تفجير سلطة معاوية الثانى ومروان الأول عندما ساندوا عبد الله بن الزبير الذى تجرع - عام ٦٨٤ (٦٥هـ)، بالقرب من دمشق - كأس الهزيمة من القوات الكلبية الموالية لمروان الأول.

ومنذ تلك الواقعة تأججت نار الكراهية فى قلوب القيسيين، وأصبح كل فريق يتربص الدوائر بالآخر، فى تبادل مستمر للانتصارات والهزائم.

حاول الخليفة عبد الملك نزع فتيل الصراع باستمالة القيسيين إلى بلاطه وبإلزامهم، كما انتهج فى نفس الوقت - وبإيعاز من بعض أمراء بنى أمية - سياسة تخدم تطلعاتهم. لكن محاولاته ضاعت سدى لأن الوضع الجديد للقيسيين أثار غضب اليمنيين فدبروا قتل يزيد الثانى وفرضوا تنصيب يزيد الثالث خلفاً له. ولما جاء مروان الثانى (آخر خلفاء بنى أمية فى الشرق) حاول التقرب من القيسيين، ومضى فى تلك السياسة المخالفة لنهج سلفه حتى أطاح به العباسيون. ومع هذا، لم تضع النهاية المتساوية لخلافة دمشق الأموية حداً للصراع بين العشيرتين الكبيرتين، وسيظل المؤرخون العرب يتحدثون عن الصدامات الدامية بينهما حتى نهاية القرن التاسع

الميلادى^(٢٨). ذكرنا من قبل أن موسى بن نصير عندما قدم إلى أسبانيا - عام ٧١٢
(٩٣هـ) - كان بصحبته جمع غفير من المقاتلين العرب. ومالم نذكره هو أن هؤلاء كانوا
بين قيسيين ويمنيين، ومن البديهي أن تنتقل معهم ثاراتهم القديمة إلى أسبانيا مثلما
رافقتهم في الأمس القريب إلى شمال أفريقيا والمغرب. وهذا ماحدث بالفعل، إذ
استجاب كل فريق لداعى العصبية القديم دون اعتبار للأبعاد السياسية المترتبة على
الصراع. ومازاد الطين بلة على أرض أسبانيا نشوب صدام آخر بين العرب والبربر
المغاربية بسبب تعالى العرب عليهم. ولما كانت طبيعة البربرى لا تقبل الاستكانة والذل
فقد تحزّب البربر ضد العرب المتفطرسين.

إذا أخذنا في الحسبان هذا الوضع المتفجر سهل علينا فهم الصدمات الدامية
التي تفشت - بين القيسيين واليمنيين من جهة، وبين العرب والبربر من جهة أخرى -
طيلة فترة الحكام السابقين على تأسيس إمارة قرطبة وامتدت إلى بدايتها.

حكام أسبانيا العرب حتى ٧٣٢م :

بعد مقتل عبد العزيز بن موسى تعاقب الحكام العرب على إدارة أسبانيا بسرعة
تثير الدّوار. واحد منهم فقط استطاع أن يظل في موقعه مدة تزيد عن الخمس سنوات؛
بينما لم تتجاوز مدة حكم البعض - طبقا للتواريخ المتناقضة التي أوردها المؤرخون
العرب - الستة أشهر.

والآن هيا بنا نستعرض هؤلاء الحكام الذين لم يكونوا سوى مفوضين من قبل
والى القيروان الذى يتبع بدوره خليفة دمشق ويدير كل المحافظات الغربية للامبراطورية
العربية بما فيها شبه جزيرة أيبيريا. عند شغل كل واحد من هؤلاء الحكام لموقعه كان
يدرك تماما الخط السياسى الذى سينتهجه، والمتمثل فى توطيد الفتح وتثبيت دعائم
الاستقرار والسّلم. ونشاطه الحربى يكمن - لو أمهله القدر فى منصبه - فى بسط
الهيمنة على الأقاليم التى لم تخضع بعد للدولة الإسلامية، وفى إخماد ريح التمرد التى
يثيرها الأسبان المهزومون من حين لآخر، وأخيرا فى شن بعض الغارات فى عمق
الأراضى الفرنسية على الجانب الآخر من جبال البرانس. وستكون لنا وقفة فيما بعد
عند مبادرات هذه الحرب المقدسة فى ضوء المعلومات القليلة التى وصلت إلينا عنها؛
لكن قبل هذا علينا إمطة اللثام عن الصدمات التى جرت داخل أسبانيا بين حكامها
الأول وبين أبناء جلدتهم من العرب، أو بينهم وبين رعاياهم من البربر. ذكرنا أنفا أن
«أيوب بن حبيب اللخمى» قد تم اختياره داخليا لتولى السلطة بعد مقتل ابن عمته عبد

العزیز، وظل یمارس سلطاته من إشبیلیة زهاء ستة أشهر حتى أرسل والی القیروان «الحرّ بن عبد الرحمن الثقفی» برفقة أربعمئة من الشخصیات الأفريقية البارزة لکی یحل محله.

نقل الحرّ بن عبد الرحمن مقر الحكم إلى قرطبة لاعتقاده - دون شك - بأن إشبیلیة تبتعد عن مرکز أو قلب شبه الجزيرة.

واستمر الحرّ فی منصبه إلى أن أرسل الخلیفة عمر بن عبد العزیز (فی مارس/ أبريل ٧١٩م - رمضان ١٠٠هـ)^(٢٩) «السمح بن مالك الخولانی» لکی یخلفه. جاء الوالی الجدید (السمح) وهو یحمل تعلیمات محددة من العاهل الأموی بضرورة دراسة جغرافية شبه الجزيرة والتعرف على خطوط الملاحة البحرية الآمنة التي تربطها ببقية العالم الإسلامی. ویذكر المؤرخون العرب أن عمر بن عبد العزیز فكر فی الانسحاب من أسبانيا ولم یثته عن عزمه سوى الصعوبات والمشاكل التي ینطوی علیها تنفيذ المشروع.

رسم السمع - الذي كان یتلقى الأوامر من الخلیفة مباشرة - قنطرة قرطبة الرومانية على نهر الوادی الكبير، وبنى على الضفة الشمالية للنهر بالقرب من المدينة مقابر «الرّیض». واستشهد السمع خلال إحدى الحملات على أراضی غالیا (جنوب فرنسا) فی ١٠ یونیو ٧٢١م (٩ ذو الحجة ١٠٢هـ) لیخلفه الكلبي عنبسة بن سحیم الذي ترسم خطاه فی مواصلة الجهاد ومات میته فی ٧٢٦م (شعبان ١٠٦م).

شهدت الفترة القصيرة من ٧٢٦ إلى ٧٣٢ تعاقب ستة حکام، لم یتجاوز السنتین منهم سوى الأول والأخیر، وهم كما یلی على الترتیب :

یحیی بن مسلمة الكلبي (من ٧٢٦ إلى ٧٢٨م - ١٠٧/١١٠هـ)؛ حذیفة بن الأحوص القیسسی (٧٢٨م - ١١٠هـ)؛ عثمان الخثعمی (من ٧٢٨ إلى ٧٢٩م - ١١٠/١١١هـ)؛ الهیثم بن عفر الكنانی (من ٧٢٩ إلى ٧٣٠م - ١١١هـ)؛ محمد بن عبد الله الأشجعی (٧٣٠م - نهاية ١١١هـ ومطلع ١١٢هـ)؛ وأخیرا، عبد الرحمن بن عبد الله الغافقی (٣٠) الذي استشهد فی معركة «بلاط الشهداء» فی أكتوبر ٧٣٢م (رمضان ١١٤هـ).

وهذه المجموعة من الحکام لم تقدم أنشطة ذات قيمة على المستوى الداخلي لأسبانيا المسلمة.

وكما لاحظنا فإن اثنين منهم كليبان (عنيسة، يحيى بن سلامة)، كما يوجد قيسيان على الأقل (حذيفة، الهيثم)؛ ولقد نكل الهيثم باليمنيين في أسبانيا مما أدى إلى مقتل عدد كبير من العشيرة الكلبية، ونتيجة لذلك قام الخليفة هشام بعزله ومعاقبته عقاباً مهيناً.

التمرد البربري في شمال أفريقيا وصداه في أسبانيا (٧٥٠م) :

بعد موت عبد الرحمن الغافقي تولى «عبد الملك بن قطن الفهري» حكم أسبانيا حتى ٧٣٤م (١١٦هـ)، ثم حل محله «عقبة بن الحشاش السلولي» بتعيين من القيسي القوي «عبيد الله بن الحبحاب» (الحاكم العام على مصر وشمال أفريقيا).

كان ابن الحبحاب قد أعطى أوامره لعماله على طنجة و«سوس» بعدم التهاون في معاملة شعوب البربر وأخذهم بالشدة. وغالى عماله في تطبيق أوامره لدرجة أنهم فرضوا الجزية على جميع أفراد البربر ولم تكن تُحصّل في البداية إلا ممن لم يدخل منهم الإسلام، كما أجبروهم على تسليم فتيانهم وفتياتهم الجميلات لينضموا لحريم خليفة دمشق.

وكانت هذه السياسة بمثابة التفخ في جنوة تحت الرماد، فبمجرد أن ترك أحد عمال ابن الحبحاب موقعه للاشتراك في الحملة المتجهة إلى صقلية اندلع التمرد العام في المغرب الأقصى. أسلم البربر قياد حركتهم لواحد منهم يدعى «ميسرة»^(٣١)، وساروا معه للاستيلاء على طنجة عام ٧٤٠م (١٢٢هـ).

لم يكن عصيان «ميسرة» ومن معه استجابة للواقع سياسية بحتة، بل كان نتيجة للدعاية الإيجابية التي حظيت بها دعوة دينية قادمة من الشرق وجد فيها البربر ما يشبع غريزة الديمقراطية فيهم. إنها نوع من «البروتستنتية» الإسلامية التي تتشد المساواة وعدم التفرقة بين أحد من أتصارها، ويسمى أصحابها بالخوارج.

إن الخوارج لا يعترفون بحق على ونريته أو معاوية وسلالته في الإمامة، ولا يقرون بالتحكيم الذي جرى بعد موقعة «صفين» عام ٦٥٧م، ويرون أن من حق كل مسلم - مالم تشب دينه وخلقه شائبة - التطلع لرئاسة المجتمع الإسلامي. كما طالبوا بالمساواة بين جميع المسلمين في الدين بغض النظر عن معتقداتهم السابقة.

وصادفت دعوة الخوارج هوى في نفوس بربر شمال أفريقيا إذ وصلت إليهم في الوقت الذي تهادى فيه المحتلون في إساعة معاملتهم. لم يفكر البربر في التبرؤ من

عقيبتهم الإسلامية، لكن ساءهم تصرفات العرب باسم الدين والتي تتناقض مع روح ونصوص تعاليمه الأولى التي لقنها لهم الفاتحون عند وصولهم.

وبالرغم من النجاح الذي لاقته دعوة الخوارج بين مجتمع شمال أفريقيا البربري وعظيم أثرها الذي انعكس على قيام إمارات مستقلة ومزدهرة في هذا الركن من العالم الإسلامي إلا أنها لم تصادف نفس الحظ على أرض أسبانيا التي تعج بالبربر الذين توافدوا تباعا للاستقرار فيها.

عندما عرف حاكم أفريقيا بأمر استيلاء البربر المتمردين على طنجة طلب من واليه على أسبانيا (عقبة بن الحشاش) اجتياز المضيق بقوات من عنده لتخليص المدينة. أرسل عقبة فيلقا فهزمه البربر، وعندئذ اضطر للذهاب بنفسه وقتل منهم خلقا كثيرا لكنه لم يستطع اقتلاع جنود التمرد في القطاع الموكل إليه.

أما «ميسرة» - زعيم المتمردين - فقد اغتاله بعد ذلك مشايعوه واختاروا «خالد بن حامد الزناتى» ليحل محله. وفي المعركة المسماة «واقعة الأشراف» (٧٤٠م - ١٢٣هـ) أنزل الزناتى بالعرب هزيمة قاسية في «وادي الشليف». كان لهذه الأحداث (٣٢) وقع كبير على بربر أسبانيا بمجرد سريان أخبارها بينهم.

وفي تلك الأثناء كان عبد الملك بن قطن - الحاكم السابق لعقبة بن الحشاش - قد عاد ثانية لتقلد شئون الحكم في قرطبة. ولما كان حاكم أسبانيا الجديد (عبد الملك بن قطن) من الحزب المدنى الذى يمقت السوريين منذ واقعة «الحرّة» الشهيرة (٦٨٣م - ٦١٢هـ) التى قتل فيها الأمويون خلقا كثيرا من سكان مدينة الرسول (المدينة المنورة) فقد أدرك بجلاء مدى خطورة المصاعب التى تطوّق ممثلى الخلافة الدمشقية فى شمال أفريقيا، لكنه لم يكن يتخيل أن يصل شررها إلى عقر داره. وماحسبه بعيدا وقع بالفعل: فقد استقبل بربر أسبانيا - الذى قطن معظمهم المناطق الجبلية بعد تركهم السهول الخصبة للعرب - باهتمام وشفق أخبار إخوانهم فى المغرب، وراودتهم فكرة التحرر مثلهم من نير السلطة العريية. وعلى الفور اندلع تمردهم فى شمال غرب أسبانيا (جليقية) وفى المنحدر الجنوبي لسلاسل جبال «كتتيريا» وجبال «وادي الرملة» (GUADARRAMA). ثم تقدم البربر نحو الجنوب وأجبروا العرب الموجودين فى طريقهم على الفرار. فى ظل هذا التدهور السريع للأوضاع حاول عبد الملك بن قطن درء الخطر أمرا عرب معظم أقاليم الأندلس المتاخمة للبحر بالتجمع فى محافظة قرطبة؛ لكن هذا الجيش الذى تجمع على عجل لم يصمد فى أول لقاء مع البربر المتمردين. ومن جهة أخرى، فقد أثار تصاعد الأحداث الأفريقية قلق دمشق مما جعل الخليفة هشام يقسم

بإخماد التمرد مهما كلفه من جنود. وتحرك طابور طويل من ثلاثين ألف مقاتل، وانضمت إليه أعداد أخرى في مصر، ليصل بعد جهد جهيد إلى المغرب. لكن تلك القوات العربية - التي لم تكن، دون شك، تحت قيادة محنكة وتفتقر إلى كثير من الالتزام - تلقت (في أكتوبر/ نوفمبر ٧٤١م - ذو الحجة ١٢٣هـ) هزيمة منكرة على ضفاف نهر «سبو» (SEBU) شمال المغرب. واستدعى الأمر إرسال حملة جديدة تحت قيادة حاكم مصر الذي سحق البربر في موقعين متتاليتين وأخمد نار التمرد في النهاية.

قوم بلج و«الجند» السوريين لأسبانيا (٧٤١م) :

بعد أن انفصلت طليعة الجيش المهزوم في «سبو» عن بقية فلوله الهاربة لم تجد ملاذا لها من مطاردة الأعداء سوى اللجوء إلى سبتة التي سرعان ما طوّقها البربر وعزلوها عن ماحولها فيما عدا جهة البحر. كان على رأس هذه الطليعة - المؤلفة من سبعة آلاف من خيرة جند دمشق وفلسطين ومصر والأردن وحمص وقنسرين - قائد شجاع وأرستقراطي قيسى يدعى بلج بن بشر القشيري (وهو ابن عم كلثوم بن عياض القشيري، القائد العام للجيش المهزوم في «سبو»).

وبالرغم مما يعنيه - بالنسبة لعربي - التنازل وطلب النجدة من شخص لا ينتسب لعشيرته، إلا أن بلج لم يجد بدا - نظرا للحصار الذي يطبق عليه الخناق - من الاتصال بحاكم أسبانيا طالبا منه التصريح بعبور المضيق وإرسال السفن اللازمة لذلك.

في البداية، لم يلق عبد الملك بن قطن (الخصم اللدود للقسيين الذي يروقه التشفى من أعدائه) بالا لطلب النجدة، بل إنه أنزل العقاب بالعرب الذين لانت قلوبهم وأرسلوا المؤن من أسبانيا للمحاصرين في سبتة. لكنه سرعان ما كظم مقته ونفوره عندما أحس بخطورة التمرد البربري الذي يوشك على الإطاحة به وطرده من مقره في قرطبة، وفكر في جدوى مساندة بلج له لو تركه ومن معه ينزلون شبه جزيرة أيبيريا. ومن ثم فقد انصاع واستجاب لنداء الزعيم السوري. ولعدم ثقة كل منهما بالآخر فقد تعاهدا على مايلي : يلتزم بلج بمغادرة أسبانيا بمجرد التمكن من قمع التمرد البربري، لضمان تنفيذه لهذا الالتزام يسلم لعبد الملك عددا من الرهائن. وفي المقابل، يتعهد حاكم أسبانيا بإعادة السوريين دفعة واحدة - وليس على دفعات حتى لا يكونوا صيدا سهلا - إلى نقطة آمنة على الساحل المغربي تكون خاضعة لسيطرة العرب الفعلية.

لقد كان تدخل بلج حاسما، أثناء إخلائه مدينة سبته وعبوره إلى «الجزيرة الخضراء»، كان البربر قد نظموا قواتهم في ثلاثة طوابير : كان أولها يهدد قرطبة مباشرة، بينما توغل الثاني في غرب الأندلس حتى وصل إلى «شدونة»، وأحكم الطابور الثالث حصار طليطلة. وبمجرد أن عبر بلج بقواته المضيق اتجه على وجه السرعة إلى «شدونة» وتمكن من هزيمة التجمع البربري الأول على ضفاف نهر «وادي لكة»، كما تمكن من تشتيت التجمع الثاني في إقليم قرطبة.

أما الطابور الثالث (الأكثر عددا) الذي يحاصر طليطلة، فقد خَفَّ للقاء القوات العربية التي أنزلت به هزيمة ساحقة في موقعة «وادي سليط» (بالقرب من الضفة اليسرى لنهر تاجه).

وسقطت في أيدي بلج ومن معه أسلاب وغنائم كثيرة من الانتصارات الثلاثة التي أحرزوها، بعد أن كانوا بالأمس القريب محرومين من كل شيء. وبهذا الشكل اقتعلت جذور العصيان البربري من الأراضي الأسبانية، وبعدها لم يكن لعبد الملك بن قطن سوى أمنية واحدة : عودة من مدوا له يد العون إلى الساحل الأفريقي. لكنه كان رجلا سيئ النية : فبدلا من أن ينجز ماقطعه على نفسه مع بلج أخذ يحيك المؤامرات، ويفسر بنود الاتفاق على هواه لدرجة أنه عقد العزم على إعادتهم ثانية إلى سبته. وقبل أن ينفذ تدبيره باغتت قوات بلج حامية قرطبة الضعيفة وطردت عبد الملك من قصره وعينت زعيمها مكانه. تم كل هذا خلال شهر سبتمبر ٧٤١م (الموافق لذي الحجة ١٢٣هـ).

بعد أن أصبح بلج حاكما على أسبانيا عمل - كما كان متوقعا - لصالح القيسيين، كما أثارت اعتداءاته المتكررة على حياة وممتلكات العرب المدنيين (نسبة إلى المدينة المنورة) غضب وحنق الكثيرين. ومازاد الطين بلة ارتكابه لحماقة إعدام سلفه (عبد الملك بن قطن) دون مراعاة لشيخوخته. وعلى إثر هذا فرأمية وقطن (ولدا الحاكم المقتول) إلى شمال البلاد وقاما بتنظيم حركة تمرد بالتحالف مع حاكم «أربونة» (عبد الرحمن بن علقمة) ومع عدو بلج التقليدي : عبد الرحمن بن حبيب، الذي كان يخطط للاستقلال بحكم أسبانيا. ونجح المتحالفون في تكوين جيش ضخم من العرب المناهضين للسوريين، وانضم إليهم عدد كبير من البربر الذين لم ينسوا لبلج تنكيه بهم في انتصاراته الثلاثة عليهم. والتقى الجمعان (في أغسطس ٧٤٢م - شوال ١٢٤هـ) على بعد عدة فراسخ من شمال قرطبة، وفي المعركة هُزم المتحالفون بالرغم من تمكن حاكم «أربونة» من جرح بلج جرحا مميتا. وعاد السوريون المنتصرون إلى العاصمة وهم يحملون زعيمهم المحتضر (٣٣).

خلفاء بلج، وهيمنة القيسيين على أسبانيا :

بعد موت بلج أخذ مكانه «ثعلبة بن سلمة»، وكان الخليفة هشام قد قام بتعيينه من قبل نائباً لقائد الطليعة السورية تحسباً لما يطرأ من أحوال. ووردت للحاكم المعين حديثاً أنباء تجمع جديد للعرب المدنيين والبربر في «ماردة» (MERIDA)، فهاجم عليهم كالصاعقة وشتتهم ثم عاد إلى قرطبة وفي حوزته آلاف من الأسرى باعهم في سوق الرقيق بمقابل مهين. وأثار تصرف ثعلبة (الذي قاىض الأسير بكلب) حفيظة عدد غير قليل من العرب الذين اتصلوا بحاكم شمال أفريقيا الكلبى وطلبوا منه إرسال أحد من عنده ليأخذ مكان حاكمهم ثعلبة.

وفى ٧٤٣م (١٢٥هـ) وصل إلى أسبانيا كلبى آخر من الطبقة الأرسقراطية الدمشقية ليكون حاكماً عليها، وهو «أبو الخطار بن ضرار الكلبى». فرض الوالى الجديد شخصيته على السوريين، وكان أول ما قام به إعادة الحرية والكرامة للأسرى «ماردة»، ثم أصدر عفوا عاماً عن متحالفى الشمال الذين كانوا بصدد التجمع من جديد بعد هزيمتهم السابقة على مقربة من شمال قرطبة. وبعد أن أيقن أبو الخطار من أن الإبقاء على «الجند» السوريين فى قرطبة سيكون مثار قلق دائم، عرض عليهم الاستقرار فى إقطاعات أو كُور بعيداً عن العاصمة^(٢٤) يملكها لهم، بشرط أن يطيعوا أوامره ويلبوا نداءه العسكرى. وقبل رفقاء بلج المثيرون للقلق هذا العرض الذى يعيدهم لوضع مشابه لما كانوا عليه فى بلادهم الأصلية. وبهذا الشكل دخل أسبانيا النظام السورى المتمثل فى تكوين إقطاعات عسكرية والمستقى - على ما يبدو - من النظام البيزنطى. وعلى هذا فقد نزل أهل جند دمشق كورة «ألبيرة»؛ وأهل جند حمص كورة أشبيلية و«لبلة»؛ وجند قنسرين كورة «جيان»؛ وجند الأردن كورة «أرشدونة» و«مالقة»؛ وجند فلسطين شذونة (مدينة ابن السليم)؛ أما أهل مصر - الأكثر عدداً - فاستقروا فى الغرب (إقليم «باجة»، أكشونية، وجنوب البرتغال الحالية) وفى كورة «تدمير» التى تلاشت منها إمارة التابع القوطى «تيودمير».

ومع هذا، فإن تلك التدابير الحميدة التى اتخذها أبو الخطار بمجرد وصوله لآسبانيا لم تدم سوى زمن قصير لأن ميله للكلبيين سرعان ما أودى بحنكته السياسية. فقد أثار تحيزه فى الحكم فى مسألة تورط فيها اثنان من الحزب المناوئ غضب الصميل بن حاتم^(٢٥) (أحد الزعماء القيسيين المعروفين الذى جاء إلى أسبانيا فى معية بلج، والمنتضى لجند قنسرين) ولم يكن قد غادر قرطبة إلى كورة «جيان» المخصصة له ولجنده.

ومنذ تلك اللحظة ونفوذ الصميل يتعاظم فى توجيه الدفة السياسية للحكومة ليضطلع بعد ذلك بعشر سنوات بدور هام عند تأسيس عبد الرحمن الداخل لإمارته الأموية بقرطبة.

لم يستسغ الحاكم الكلبى أبو الخطار تدخل الزعيم القيسى (الصميل) واعتبره انتقاصا لكرامته، ولذا أعلن عليه حربا شعواء.

ولتأكد الصميل من أن قلة القيسيين العددية لن تظهره على الكلبين، فقد فكر فى استمالة ممثلى قبيلتين عربيتين من أصل يمنى (لخم، جذام) كانت الروابط التى تصلهم بالقيسيين قد وهنت بعض الشئ. وبعد موافقة زملائه فى العشيرة على هذه المناورة الماكرة، قام الصميل بالطواف على مدن إقليم إشبيلية لجمع الأنصار : ذهب أولا إلى «إستجة» (ECIJA) ثم «مُورور» (MORON) حيث تحالف مع الزعيم الجذامى «ثوابة بن سلمة» وأسند إليه قيادة التحالف. تجمع المتمردون بإقليم «شدونة» فى إبريل ٧٤٣م (رجب ١٢٧هـ) والتقوا بعد ذلك بأبى الخطار وجنوده على ضفاف نهر «وادی لكة» وأنزلوا بهم هزيمة فادحة ووقع أبو الخطار فى الأسر. واصل ثوابة بن سلمة الجذامى زحفه نحو قرطبة وتولى حكم أسبانيا.

فك أتباع أبى الخطار إساره بعد ذلك، وحاول جاهدا إعادة تجميع أنصاره، لكنه لم يستطع النيل ممن سلبوه حكمه.

دام حكم ثوابة مايزيد قليلا عن السنة، وكان موته فى سبتمبر/أكتوبر ٧٤٦م (محرم ١٢٩هـ) بمثابة الشرارة التى أدت إلى اندلاع نيران الصراعات الداخلية من جديد. فقد تنافس على الجلوس مكانه مرشحان : ابنه عمرو والجذامى يحيى بن حريث.

ولذكاء الصميل الشديد، فقد فضل ممارسة السلطة من وراء ستار على الزج بنفسه فى أتون طلب الولاية، ولذلك عمل على استبعاد المرشحين السابقين وفرض اختيار شخص آخر ذى أصل نبيل (من سلالة القائد العربى الأشهر عقبة بن نافع) ومتقدم فى السن حتى يسهل عليه قياده، ونعنى به يوسف بن عبد الرحمن الفهرى الذى تولى حكم أسبانيا فى يناير ٧٤٧م (ربيع الثانى ١٢٩هـ).

عهد يوسف الفهرى (٧٤٧ – ٧٥٦م)، ونشاط الصميل :

يعتبر يوسف الفهرى آخر من حكم أسبانيا قبل تولى عبد الرحمن الأول مقاليد الأمور بها. والظروف التى أحاطت بترشيحه للحكم تظهر للعيان هشاشة تبعية أسبانيا

للمشرق العربى. صحيح أن الصلات بينهما كانت دائما مترهلة؛ لكنها الآن أصبحت مقطوعة تماما ولو أراد خليفة دمشق - المشغول وقتها بصراعه مع العباسيين - إعادتها لسابق عهدها لذهبت جهوده أدراج الرياح.

وكما كان منتظرا، فقد أوعز الصميل ليوسف بانتهاج سياسة ممالئة للقيسيين على حساب الكلبيين واليمنيين الآخرين.

ومن جهة أخرى، وعلى سبيل المكافأة، تولى يحيى بن حريث (أحد المرشحين المستبعدين عن حكم أسبانيا) السلطة على كورة «رية» (REYYO)، لكنه لم يكد يستقر بعاصمتها «أرشدونة» حتى وصله - دون سابق إنذار - خبر إقالته. وعلى إثر هذا استبد به الغضب وانضم بمن والاه من الكلبيين إلى أبى الخطار. التقت قوات أبى الخطار ويحيى بن حريث بقوات يوسف الفهرى على مقربة من قرطبة - بقرية شقندة (SECUNDA) - حيث هُزم اليمنيون وكان نصيب قائديهما (أبو الخطار، يحيى) الأسر والإعدام بعد ذلك.

وطد هذا الانتصار دعائم حكم يوسف الفهرى ورفع أسهمه الشخصية وجعله يفكر - فى ضوء المعطيات الجديدة - فى الانعتاق من وصاية الصميل بطريقة ودية. عرض عليه حكم سرقسطة وأوعز إليه بأنه سيكون الأمر الناهى عليها.

وعلى خلاف ما كان يتوقع، فقد قبل الصميل العرض عن طيب خاطر، وتقلد منصبه الجديد عام ٧٥٠م (١٣٢هـ) مع بداية المجاعة الكبرى التى كانت تجلد بسياطها شمال أسبانيا وستظل مستحكمة فيه لمدة خمس سنوات. لم يدخر حاكم سرقسطة الجديد وسعا فى تقديم العون لمنكوبى مدينته لدرجة أنه تناسى - مؤقتا - الأحقاد العصبية ولم يفرق بين القيسيين واليمنيين عند توزيع المؤن الوفيرة والأموال التى كان يتطوع بها. لقد كانت فترة النضوب تلك بمثابة كارثة حلت بأقاليم شبه الجزيرة الشمالية، وأجبرت ألفا من البربر على العودة إلى محالهم فى شمال أفريقيا (٣٦).

وبعد انقضاء سنتين أو ثلاثة على تلك الهدنة غير المعلنة بسبب الجوع والجفاف تأججت نار الفتنة فى النفوس مجددا. لم يستسغ اليمنيون، وهم أكثرية فى أسبانيا، هيمنة القيسيين والمعدين السياسية عليهم، ومن ثم فقد قرروا إقصاء الصميل عن سرقسطة. ومن جهة أخرى، فقد أخذ السأم يستبد بالأرستقراطية القرشية من طول استئثار يوسف الفهرى والصميل بإدارة البلاد. اجتمع زعيمان قيسيان (عامر بن عمر العبدري، الحبحاب بن رواحة) بثغر «رغون» الأدنى وطلبا مساندة اليمنيين والبربر

للإطاحة بحاكم أسبانيا وصفيّه بحجة أن خليفة المسلمين في الشرق لم يصدق على تعيينهما، وبالتالي يفتقر حكمهما إلى الشرعية. فعل القيسيّان هذا وهما يعلمان تمام العلم أن العباسيين قاب قوسين أو أدنى من السيطرة على سورية وأن السلطة الأموية أصبحت في خبر كان.

حاصرت قوات التحالف اليمني / البربري سرقسطة، فطلب الصميل العون من قرطبة. ولما كان يوسف الفهري لا يملك الكثير من الأعوان حتى يمد حليفه ببعضهم، فقد بادر القيسيون بتجنيد متطوعين من الأندلس واتجهوا بهم إلى طليطلة حيث انضمت إليهم تعزيزات من المعديين، وتمكنوا من فك الحصار المضروب حول سرقسطة في ٧٥٥م (١٣٧هـ). وفي صفوف هذا الجيش الذي خفّ لنجدة الصميل كان يوجد عدد كبير من الموالى الأمويين. وهؤلاء الموالى كانوا قد أتوا للتفاوض مع الزعيم القيسي لكي يسهل انتقال الأمير المرواني عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس.

٤- الحملات الإسلامية إلى بلاد الغال (فرنسا حالياً) خلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادي، وبداية «حرب الاسترداد» الأسبانية

المسلمون في بلاد الغال (GALIA) حتى موقعة «بلاط الشهداء»:

شهدت الفترة القصيرة من فتح أسبانيا إلى تأسيس إمارة قرطبة المستقلة عدداً من الحملات التي قام بها حكام أسبانيا العرب في بلاد الغال (٣٧).

ولسوء الحظ لا توجد سوى وثيقة واحدة - مختصرة وغير مضمونة - عن هذه الحملات، ولم يأت بعدها اكتشاف جديد يؤكد فحواها أو يستكملها. ولهذا السبب لم تتبع «مذكرة» «رينود» (REINAUD) القديمة، التي نشرت منذ أكثر من قرن، أية أعمال أو أبحاث تتناول محاولات غزو فرنسا من جانب المسلمين خلال القرن الثامن الميلادي.

من المعروف أن الحدود الشمالية لمملكة أسبانيا خلال عهد القوط لم تكن تنتهي عند سلسلة جبال البرانس بل كانت تمتد - منذ بداية القرن الخامس - إلى الجانب الآخر لتلك السلسلة لتصل إلى «لنجدوك» (LANGUEDOC)، «روسيون» (ROSELLON)؛ وشمال غرب هذا الإقليم الأخير تقع سبتمانيا (SEPTIMANIA) أو «جوتيا» (GOTIA).

وكل هذه المناطق طاقت بها الجيوش العربية بعد دخولها أسبانيا بوقت قصير، وطبقا للمؤرخ العربي ابن حيان^(٢٨) فإن كتائب من القوات الغازية توغلت - بأمر من طارق بن زياد نفسه - في بلاد الغال (بلاد الفرنجة)، ووصلت - بعد الاستيلاء على برشلونة و«أربونة» - إلى صخرة «أبنيون» (AVINON) ثم إلى حصن «ليون» (LYON) (أو «لودهون»). لكن «كارلو» (KARLO) («شارل مارتل» - CARLOS MARTEL، فيما بعد) استطاع صد زحف القوات العربية واضطرها للارتداد إلى «أربونة» (NARBONA) حيث أحكم عليها الحصار.

ونتيجة لهذه الغارة قام الفرنجة بإحكام تحصيناتهم في كل وادي «رودنة» (RODANO). يتحدث المؤرخون العرب بعد ذلك عن سقوط برشلونة و«جيرندة» (GERONA) و«أربونة» في أيدي المسلمين أثناء حكم عبد العزيز بن موسى بن نصير.

فهل كانت قصيرة تلك الفترة التي ظلت فيها «أربونة» في قبضة المسلمين بعد استرداد الفرنجة المحتمل لها؟ لا أحد يعرف.

كل مانعرفه أن السمع بن مالك الخولاني ذهب بمجرد توليه السلطة عام ٧١٩م (١٠٠هـ) على رأس حملة إلى إقليم «أربونة» واستولى (أو استرد) على عاصمته، واتجه بعدها إلى «طولوشة» (TOLOSA).

في ذلك العصر كان ملكية بلاد الغال تحتضر، فبعد موت قهرمان القصر «بيبينو دي هيرستال» نهاية عام ٧١٤م عمت بالبلاد فوضى مماثلة لتلك التي حلت قبل سنوات بمملكة القوط في أسبانيا وجعلتها تنزلق إلى مهوى بلا قرار. كانت بلاد الغال أيضا فريسة لأي غاز، لكن بشرط أن يتمتع بالكثرة العددية التي تمكنه من تغطية أراضيها الشاسعة.

فهل فكر المسلمون في التمرکز في بلاد غاليا (GALIA) والانطلاق منها صوب إيطاليا؟

إنه أمر بعيد الاحتمال، بالرغم من ورود بعض الإشارات التاريخية العربية المتناثرة هنا وهناك عن خطة لموسى بن نصير تهدف إلى عودة الجيش المنتصر إلى دمشق من جهة الشرق بعد اجتياز أوربا بكاملها.

ونقول إن هذا أمر مستبعد اعتمادا على مايلي :

أن العرب لم يكن لديهم في ذلك العصر سوى معلومات مبهمة عن تلك البلاد الواقعة خلف جبال البرانس. كما أن بلاد غاليا (أو بلاد الفرنجة) كانت مجرد جزء من

الأرض التي أطلق عليها العرب إسم «الأرض الكبيرة»^(٣٩)، وهى عبارة عن مساحات شاسعة مليئة بالغابات الكثيفة المناسبة لعمل الكمائن، ومن ثم يسهل على سكانها الدفاع المستميت عنها. وإضافة إلى ماتقدم، فقد كانت الخيرات والثروات الكثيرة التي وجدها العرب فى أسبانيا كفيلا بصرفهم عن التفكير والبحث عن المزيد.

لقد كانت دوافعهم فى شن الغارات على «غاليا» تكمن - بالتالى - فى الطموح وروح المغامرة، وعلى وجه الخصوص فى تنفيذ تعاليم الإسلام المتعلقة بالجهاد لنشر الدعوة بين صفوف الكفار.

ومما لاشك فيه أن حملة السماح كانت ستحدد - فى جميع الأحوال - مصير غاليا الجنوبية لو لم يتصد لزحفه دوق «أكيتانيا» (AQUITANIA) (الأمير «يودو» - أو «إودس» - EUDES) الذى خف لفك الحصار المضروب حول «طولوشة» (TOLOSA). فبعد لقاء حاسم جرت أحداثه فى يونيو ٧٢١م (٨ ذو الحجة ١٠٢هـ) هُزم المحاصرون وولوا الأدبار طريقهم لأسبانيا تاركين قائدهم طريحا فى أرض المعركة^(٤٠).

ولم تكد تمضى أربع سنوات حتى قرر عنيسة بن سحيم الكلبى (خليفة السماح) العودة إلى غزو غاليا من جديد. بدأ بتوطيد فتوحات سلفه فى إقليم «أربونة»، ثم أخذ «قرقشونة» (CARCASONA) عنوة، وبعدها اقتحم «نيمة» (NIMES) فاستسلمت دون مقاومة ولضمان عدم تمردىها أخذ منها عددا من الرهائن وأرسلهم إلى برشلونة.

وبعدها استولى عنيسة - فى حملة خاطفة ودون مقاومة تقريبا - على وادى «رودنة»، ثم على «بورجونيا» (BORGONA)، ثم «أوتان» (AUTUN) التى نهبها بالكامل - طبقا لحوليات دير «مويساك»^(٤١) - فى ٢٢ أغسطس ٧٢٥م واستطاع العرب فى تلك الحملة الوصول إلى «لوكسيل» (LUXEUIL) قبل عودتهم المظفرة إلى شبه جزيرة أيبيريا.

معركة «بواتيه» (بلاط الشهداء) - أكتوبر ٧٣٢م (٤٢) :

بعد عدة سنوات قاد عبد الرحمن بن عبد الله الفافقى حملة أخرى إلى أرض غاليا سارت فى طريق مغاير باتجاه «غسقونيا» (GASCUNA) و«تورين» (TURENA). وخطط عبد الرحمن لهذه الحملة بعناية شديدة : تجمع جيشه بمدينة «بنبلونة»، ثم اجتاز جبال البرانس عن طريق ممر «باب الشزرى» (RONCESVALLES) واتجه مباشرة إلى «برديل» (بورديو BURDEOS). حاول «يودو» (أو «إودس») - دوق أكيتانيا

– التصدى للزحف لكنه هُزم على ضفاف نهر «دوردونيا» (DORDONA) ولم يفلح فى إنقاذ «برديل» من التعرض للسلب والنهب.

توغل فرسان المسلمين فى أقصى الشمال ووقعت فى أيديهم غنائم وأسلاب كثيرة من الأديرة والكنائس التى نهبوها. وكثيرة ماسمعوا عن كنوز كنيسة «سان مارتين» (SAN MARTIN) فى «تور» (TOURS)، استعدوا للتقدم نحو «الوار» (LOIRA) لكن «شارل مارتل» (دوق الإفرنجية) أوقف زحفهم. كان الأمير «يودو» (دوق أكيثانيا) قد طلب – بعد هزيمته فى «دوردونيا» – من شارل مارتل المساعدة وحذره من مغبة التلكو فى درء الخطر الداهم الجديد الذى يحدق به. ويبدو أن «شارل مارتل» – الذى كان يعمل منذ سنوات بحماس وجد منقطعى النظر لإعادة الوحدة المفقودة لأرض غاليا – قد أدرك خطورة الموقف وأحس باقترب النذر.

جمع جيشا كبيرا وسار به دون إبطاء للقاء قوات المسلمين التى يقودها عبد الرحمن الغافقى. وصل شارل مارتل إلى «تور» فى الوقت المناسب قبل أن تصاب بأذى، ثم تركها وانحرف صوب الجنوب ليلتقى بجيش الأعداء بالقرب من أحد الطرق الرومانية الذى يربط «شاتايرو» (CHATELLERAULT) بـ «بواتيه»، على بعد ٢٠ كيلومتر من شمال غرب المدينة الأخيرة.

لا يوجد لدينا سوى القليل من التفاصيل حول ماجرى فى تلك الموقعة. الأخبار المسيحية القديمة تمجد القائد الفرنسى وتشيد بشجاعته وقوته الجسمانية الخارقة التى أثارت إعجاب أتباعه. لكن مانعرفه على وجه أشبه باليقين هو أن المسلمين نالوا هزيمة قاسية، وأنهم فقدوا قائدهم بالإضافة إلى عدد كبير من جنودهم، وأن الباقين منهم تقهقروا دون نظام فى اتجاه «أربونة» (٤٣).

وبالرغم من قلة المعلومات الواردة (فى الحوليات العربية أو اللاتينية) عن المعركة إلا أنها تتفق فى تحديد تاريخها : أكتوبر ٧٣٢ (رمضان ١١٤هـ). وبعد قيامنا بالمقارنة – حسب التقويم الجريجورى – بين بداية شهر رمضان ومايوافقه من الشهر الميلادى، نستطيع القول بأن اليوم الذى حدثت فيه المواجهة الحربية يقع ما بين ٢٥، ٣١ أكتوبر لعام ٧٣٢م. ويطلق المؤرخون المسلمون إسم «بلاط الشهداء» على الميدان الذى جرت فيه المعركة.

قام «شارل مارتل» – بعد الانتصار المدوى على القوات العربية – بتثبيت «يودو» (أو إودس) فى منصبه على مقاطعة «أكيثانيا»، وعهد إلى دوق طولوشة (تولوز) بمهمة الدفاع عن حدود مملكة الفرنجة مع المسلمين والتصدى لهجماتهم المحتملة.

هل فهم العرب بأنهم من الآن فصاعدا سيواجهون مقاومة منظمة على الجانب الآخر من البرانس ؟

مانعرفه هو أنهم ترددوا كثيرا خلال السنوات التالية في شن حملات جديدة، وأن المدونات التاريخية الإسلامية لم تعد تتحدث عن أنشطة عسكرية في بلاد الغال. وردت إلينا فقط عن طريق مدونة «مويساك» (MOISSAC) التاريخية مقتطفات عن هجوم جديد قام به حاكم «أربونة» (يوسف بن عبد الرحمن) عام ٧٣٤م (أى بعد مرور عامين على موقعة «بواتيه» في وادي «الرون» حيث اجتاز هذا النهر واستولى على «آرل» (ARLES) دون قتال، ثم على «سان ريمى» (SAINT-REMY) (في بروفانس)، ثم على صخرة «أبنيون»، وتوغل بعد ذلك في وادي «دورانس» (DURANCE). ومكث المسلمون في «بروفانس» مايقرب من الأربعة أعوام قبل عودتهم إلى القواعد التي انطلقوا منها. وجاء انسحابهم إثر تدخل جديد لشارل مارتل الذي قام على رأس جيش يتألف من فرنجة و«بورجونيين» باسترداد «أبنيون» والتقدم لحصار استحکامات المسلمين في «أربونة». عندما علم حاكم أسبانيا وقتها (عقبة بن الحشاش) بنبا حصار شارل مارتل لأربونة، أرسل جيشا لفك الحصار المضروب حولها، وعندئذ تقدم شارل مارتل للقاءه (عام ٧٣٧) وأنزل به الهزيمة على شاطئ جدول صغير جنوب «أربونة» يسمى «بيرى» (BERRE) قبل أن يلقي القائد الفرنسى حتفه في هور «سيجو» (SIGEAU)(٤٤). أما بالنسبة لأربونة نفسها فقد قاومت وانتصرت.

ولم تستمر سيطرة الإسلام الأسباني على ثغوره في أرض «سبتمانية» سوى وقت قصير لأن «بيبينو البريبي» (PIPINO EL BREVE) - ابن شارل مارتل الذي نجح في انقلابه ضد سلالة «ميروينخيا» (أو الميروفنجية) (MEROVINGIA) المالكة(٤٥) - استردها جميعها عام ٧٥١م (١١٣هـ). وقد كان لسقوط هذه الثغور - قبل سنوات قليلة من تأسيس إمارة قرطبة الأموية - صدى عميقا في العالم المسيحى وفى الغرب الإسلامى، على حد سواء.

فقد كانت - من جهة - بمثابة تحذير لأسبانيا الإسلامية من التفكير ثانية في مدّ أطماعها التوسعية إلى الجانب الآخر من البرانس؛ كما كانت - من جهة أخرى - بمثابة درس تعلم منه الغاليون أن الحراسة المستمرة لحدودهم يمكن أن تدرأ الخطر الإسلامى عنهم.

وطبقا لبعض النظريات - التى تكاد تفتقر إلى التماسك وتعتمد فقط على معلومات قليلة مستمدة من الأعلام الجغرافية - فإن كثيرا من المسلمين الذين شاركوا

فى تلك الحملات قد بقوا فى أرض «غاليا» بعد رحيل رفقائهم فى السلاح وارتدوا عن الإسلام واعتنقوا الدين المسيحى. ومن هنا تكونت بعض الجاليات ذات الأصل «الإسلامى» وخاصة فى «أويرينا» (AUVERINA) وفى جبال الألب البروفانسية. وسيحدث نفس الشئ - بعد قرنين من الزمان - مع مسلمى حصن «فراكسينيه» (جنوب فرنسا). لقد أثرنا الإشارة إلى تلك النظريات دون الخوض فيها لأنها تعالج أمرا مظلونا يفتقر إلى الوثائق المباشرة والصريحة.

المقاومة المسيحية فى أشتوريش پلايو، الصخرة (COVADONGA) (٤٦):

وكما رأينا فيما تقدم، فإن احتلال المسلمين لشبه جزيرة «أيبيريا» كان قد اكتمل بالفعل قبل اغتيال عبد العزيز بن موسى بن نصير عام ٧١٦ م (٩٧هـ). ومن المحتمل - برغم عدم ورود أخبار تاريخية صريحة بهذا الخصوص - قيام المسلمين منذ هذا التاريخ بعمل التحصينات فى الثغور الواقعة بين «سبتمانية» و«جليقية». كما يبدو أيضا أن القسط الأعظم من سكان البلاد ترك المسيحية طوعية وانضوى تحت لواء الإسلام لكى يتمتع بكافة مميزات المسلم وحقوقه. ولهذا فلم يبق للمقاومة سوى جيوب صغيرة لبعض وجهاء مملكة القوط الزائلة.

انضم هؤلاء النبلاء لأهالى «أشتوريش» الذين كانوا قد اعتصموا بالسلاسل الجبلية العالية (المسماة بالقمم الأوربية) عندما هاجم موسى بن نصير إقليمهم.

ومن المؤكد أن أهالى «أشتوريش» (ASTURIAS) قد عادوا تباعا إلى ديارهم بعد أن تبين لهم عدم جدوى المقاومة. ولذا فإن النبلاء القوط - المنفيين طوعية - هم الذين استمروا فى المنطقة الوعرة من «أشتوريش»، واختاروا من بينهم زعيما عليهم يدى «پلايو» (PELAYO) - وهو ابن «فافيلا» (FAFILA) أحد أشراف بلاط الملك القوطى «إخيكيا» - اتخذ «پلايو» قرية متواضعة فى إقليم أشتوريش تسمى «كانجاس دى أنيس» (CANGAS DE ANIS) مقرا له.

أما عن الأحداث التى تلت ذلك فقد وصلت إلينا روايتان متناقضتان :

تقول الرواية المسيحية أن المسلمين عندما علموا بأخبار التمرد أرسلوا للقضاء عليه جيشا يقوده كل من علقمة و«أوباس» (OPPAS) (ابن أو أخ الملك غيطشة)، فاضطر «پلايو» للهرب إلى جبل «أوسيبا» (AUSEBA) والاحتفاء بمغارة «سانتا ماريا»

(التي سيتحول اسمها فيما بعد إلى صخرة «أبييدو» - COVADONGA). حاول «أوباس» التفاهم مع المتمردين وزعيمهم لكن محاولته باءت بالفشل. وفي معجزة سماوية، انقض المتمرّدون تتقدمهم العذراء على الجيش المهاجم فقتلوا معظم رجاله وأجبروا الباقين على الفرار. وعندما علم موسى - حاكم إقليم أشتوريش المقيم في خيخون (GIJON) - بأنباء الكارثة انتابه الهلع وأخلى قواته من الإقليم، لكنهم أخذوا يتساقطون صرعى الواحد بعد الآخر بما فيهم الحاكم نفسه.

أما الرواية العربية فتتحدث عن عدد ضئيل من المتمردين محاصرين من كل الجهات، يعتمدون في عيشهم على عسل النحل البري لانقطاع الزاد والمؤن عنهم ويزدري المسلمون مجرد التفكير في مهاجمتهم مفضلين تركهم لمواجهة الموت جوعاً (٤٧).

ومع أن الراويين محل شك وارتياب إلا أن المسيحية (لو استثنينا مبالغتها في تقدير عدد المهاجمين وما تحتوى عليه من عناصر خيالية) تشتمل - طبقاً لرأى - «بارودييجو» - على بيانات محتملة التصديق.

على أية حال، فإن التراث لم يحفظ لنا من مشروع مملكة «پلايو» سوى أحداث «صخرة أبييدو» التي جرت عام ٧١٨م، وإن كان «سانتش ألبورنوس» (SANCHEZ ALBORNOZ) يرفض هذا التاريخ - في دراسته عن أصول مملكة «أشتوريش» - ويرجئه لعهد عنيسة الذي تولى حكم أسبانيا في الفترة من ٧٢١م إلى ٧٢٦م.

وإن كان من الصعب الانحياز لإحدى الروايتين السابقتين إلا أن الحق كل الحق مع الذين يضيفون اليوم قيمة اعتبارية كبيرة على هذه المعركة النصف أسطورية ويعتبرونها أول تجسيد للشعور الوطني على أرض أسبانيا المسيحية. وهي، بالإضافة إلى ماتقدم، بمثابة الشرارة الأولى لحرب استرداد أراضي شبه جزيرة أيبيريا التي ستستمر لنهاية القرن الخامس عشر بما يتخللها من فترات هدنة أو ركود.

ألفونسو الأول (ALFONSO-I) وبداية «حرب الاسترداد» :

بعد موت «پلايو» عام ٧٣٧م في «كانجاس دي أنيس» خلفه ابنه «فافيلا» الذي لم يكن يفقه شيئاً واستمر في حكمه سنتين. مات «فافيلا» على إثر مهاجمة دب له،

ودفن - تمشيا مع التقاليد القديمة لهذا الإقليم - مع زوجته «فروليبا» (FROLEBA) - بإحدى كنائس العاصمة الصغيرة لأشتوريش. وبعد موته انتقلت مقاليد الأمور في الإمارة الصغيرة إلى ألفونسو الأول (ابن نوق «كنتبريا»، وزوج إحدى بنات «يلايو») الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لمملكة «أشتوريش». ومع هذا الأمير سيسدل الستار - طبقا لرأى «بارودييجو» - على الحقبة نصف الأسطورية لتاريخ أشتوريش لتبدأ حقبة اتساع أراضي المملكة، أي «حرب الاسترداد»^(٤٨).

توجد معلومات محدودة عن طبيعة النشاط العسكري لألفونسو الأول طوال الثمانية عشر عاما التي قضاها في الحكم (٧٣٩ - ٧٥٧م). وبعض المؤرخين المعاصرين يعدونه مجرد زعيم عصابات لايهمه الاستيلاء على أرض بقدر ماتهمه الأسلاب والغنائم؛ بينما يُنصبه آخرون رائدا لحرب (الاسترداد) يخوضها وهو على وعى تام بأهمية الدور الذي يمثله.

وبغض النظر عن اختلاف الآراء فيه، فإنه من باب إحقاق الحق الإشارة إلى أن البلبلة التي كانت تخيم على أسبانيا الإسلامية قد خدمته كثيرا في تحقيق طموحاته. فشغل الحكام العرب بتجيش الجيوش وإرسالها إلى الجانب الآخر من البرانس أدى إلى تراخي قبضتهم على شمال غرب شبه الجزيرة، كما أن فترة حكم ألفونسو الأول قد صادفت وتزامنت مع تمرد بربر أسبانيا المسلمين.

لقد استطاع البربر طرد العرب بسهولة من أقاليم كانوا يشكلون غالبية سكانها، لكنهم سرعان ماضعفوا نتيجة لهزائهم المتتالية. وكما أشرنا كذلك من قبل، فإن الجوع والقحط اللذين ألهما بسياطهما (مع بداية عام ٧٥٠م - ١٣٢هـ) شمال غرب أسبانيا قد أديا إلى هجرة البربر الجماعية لتلك الأقاليم والنزوح إلى المغرب. وبعد هجرتهم انفصلت «جليقية» تلقائيا عن أراضي الإسلام وانضمت لتويج «تصغير تاج» ملك «أشتوريش» الذي كان يضيق البربر النازحين بحروب العصابات المستمرة لكنه لم يستطع بذل المزيد من الجهد حتى تتسع رقعة مملكته على حساب الأراضي الإسلامية.

هبط ألفونسو الأول من معاقله الجبلية إلى سهول «ليون» ليستولى على «أستورقة» (ASTORGA)، ثم استولى بعد ذلك في زحفه المتواصل على مايلى : «جليقية» بكاملها، شمال مايعرف الآن بالبرتغال، المنحدر الجنوبي لسلسلة جبال كنتبريا، «باردوليا» (المسمى القديم لقشتالة العتيقة - CASTILLA LA VIEJA)، وعلى أراضي «ألبة» (ALAVA)، و«بوريبا»^(٤٩) (BUREBA) و«لاريوخا» (LARIOJA).

ومن المحتمل أن يكون قد وصل وتمكن من إخضاع الإقليم الواقع بين وادي «الدويره» والسلاسل الجبلية لوسط أسبانيا. ومن بين الثغور القوية التي سقطت في يده تشير المصادر المسيحية إلى مايلي على الترتيب :

«لُك» (LUGO)، «توي» (TUY)، «بورتو» (OPORTO)، «براجا» (BRAGA)، «بازو» (VISEO)، «أستورقة، ليون، أمايا» (AMAYA)، «سمورة، سيمنكس» (SIMANCAS)، «شونة» (OSUNA)، «شلمنقة»، «أيلة» (AVILA)، «شقوبية» (SEGOVIA)، «سيبوليدا» (SEPULVEDA) (٥٠).

خلال تلك الفترة كان حاكم أسبانيا العربي (يوسف الفهري) مشغولا بالنزاعات الداخلية ولم يتمكن من التصدي بفعالية لهذا الزحف القادم من الشمال، ولا إرسال الأندلسيين لاحتلال البربر النازحين لأفريقيا، ولذا لم تأت الحملة التي سيرها عام ٧٧٥م (١٢٨هـ) إلى «جليقية» بالثمار المرجوة.

ومن جهة أخرى، فلم يكن لدى ألفونسو الأول أيضا القوات الكافية لشغل المناطق شبه الخالية بعد رحيل سكانها وانتقالها نظريا لسلطته.

وبهذا الشكل أصبح يفصل منذ ذلك الحين بين أسبانيا المسلمة ومملكة أشتوريش شريط من الأرض شبه خال من السكان، أو مايمكن تسميته «أرض بلا صاحب» يحدها من الشمال «الماركات» (Marcas) أو الثغور الأشتوريشية بينما تشكل الثغور الإسلامية حدّها الجنوبي. ومن الآن فصاعدا سيتحدث تاريخ شبه جزيرة «إيبيريا» باستمرار عن هذا الشريط الفاصل الذي سيكون مسرحا لمواجهات حربية يحاول فيها كل طرف وقف تقدّم الطرف الآخر^(٥١). عند وصول عبد الرحمن الأول كان الخط الحدودي للمسيحيين من الغرب إلى الشرق يتمثل في مجرى «الدويره» من مصبه حتى مرتفعات «أوسمه» (وخشمة - OSMA) لكي ينعطف بعدها نحو الشمال إلى أن يصل إلى «بِسْكونية» (VASCONIA). أما خط المسلمين الحدودي فكان يمر من شمال «قلمرية» (COIMBRA) بقليل حتى طليطلة (TOLEDO) لكي يصعد بعدها نحو «وادي الحجارة» (GUADALAJARA) و«تطيلة» (TUDELA) و«بنبلونة».

وستكون هذه الأرض التي استردها ألفونسو الأول وخلفه محور النزاع الدام بين المسلمين والمسيحيين طيلة القرن السابق لعصر الهجمات الديكتاتورية العامرية زمن الخلافة القرطبية.

هـ- إسلام الأندلس، وسكانها العرب والبربر خلال القرن الثامن^(٥٢) الأندلس:

من المناسب التعريف أولاً بمصطلح «الأندلس» الوارد في العنوان السابق وبيان حدود استخدامه. يطلق المؤرخون المسيحيون لفظ «هسبانيا» (HISPANIA) أو «سبانيا» (SPANIA) ويريدون به مجموع أراضى شبه جزيرة أيبيريا - سواء الخاضع منها للسيطرة الإسلامية أو الأرض التي حررتها المسيحية الأسبانية قرناً بعد آخر -^(٥٣).

أما المؤرخون العرب - باستثناء حالات نادرة - فيطلقون تعبير «بلاد الأندلس» على الأراضى الأسبانية الخاضعة للإسلام. ومن المعروف أن الرقعة الجغرافية التي يُطلق عليها هذا التعبير (الأندلس) كانت تتأكل بنفس المقدار الذي تتقدم به «حرب الاسترداد» المسيحية إلى أن أصبح يعنى في القرن الرابع عشر والخامس عشر مملكة غرناطة الصغيرة فحسب.

وعلى خلاف هذا فمن النادر أن يقوم المؤرخون والجغرافيون المسلمون بإطلاق لفظ «إشبانيا» (ISHBANIYA)^(٥٤) على أسبانيا المسلمة، وإذا فعلوا هذا فإنما يريدون به الأراضى التي تمثلها المناطق الآتية : البرتغال، قشتالة، نبرة، رغون.

وإلى يومنا هذا لازلنا ننطلق من التكهّنات للبحث عن أصل مصطلح «الأندلس». فالبعض يربطه باللفظ غير المؤكد «فانداليثيا» (VANDALICIA)، وهو الاسم الذى أطلقه «الوندال» (VANDALOS) على إقليم «لا بيتيكا» (LA BETICA) عند اجتيازهم السريع له قبل استقرارهم النهائى فى شمال أفريقيا^(٥٥).

على أية حال، فمن المؤكد أن الاصطلاح يعود استخدامه لبداية الفتح العربى ويشهد بهذا دينار مزدوج اللغة يرجع تاريخه لعام ٧١٦م، حيث نقش على أحد وجهيه باللاتينية : «ضرب فى أسبانيا»، وعلى الوجه الآخر نقش باللغة العربية «ضرب فى الأندلس»^(٥٦).

ومن جهة أخرى، فإن لفظ «الأندلس» لم يختلف بانتهاء السيطرة الإسلامية بل ظل باقياً حتى الآن فى أسبانيا الحديثة وأصبح يطلق - بهذا الشكل : أندلوثة (ANDALUCIA) - على قسمها الجنوبى الذى يضم المحافظات التالية : غرناطة، مالقة، قرطبة، إشبيلية، ألمرية، جيان، ولبة، قادس.

مايهمنا التأكيد عليه فى هذا المقام هو أننا سنستخدم لفظى «الأندلس»، «الأندلسيين» كما فهمهما واستخدمهما المؤرخون العرب الذين يطلقون مسمى

«الأندلس» على الأراضى الواقعة تحت سيطرة المسلمين فقط وليس على الأرض المستردة منهم؛ ويطلقون لفظ «الأندلسيين» ويريدون به المسلمين الذين يعيشون فى أى بقعة من أرض أسبانيا سواء كانت فى الغرب أو «إكستريمادورا» (EXTREMADURA) أو «رغون» السفلى (ARAGON) أو «ليبانتي» (LEVANTE).

اعتناق سكان أسبانيا الإسلام :

بعد فتح العرب لأسبانيا لم يفكروا إطلاقاً فى فرض عقيدتهم الإسلامية على الشعوب الخاضعة لهم، لأنها تنتسب لما يسميه المسلمون «بأهل الكتاب» : أى أصحاب نصوص نزل بها الوحي من السماء^(٥٧). ولما كان الإسلام يمنح «أهل الكتاب» معاملة مفضلة، فقد كان من حق يهود أسبانيا ومسيحييها التمسك بدينهم وممارسة شعائره فى حرية تامة. ويكفى للتدليل على هذا بنص الصلح - الذى قدمناه آنفاً - بين عبد العزيز بن موسى بن نصير وبين الأمير القوطى «تدمير» عام ٧١٣م (٩٤هـ) والذى يضمن فيه عبد العزيز لتدمير ورعاياه عدم التعرض لممارسة شعائره الدينية أو المساس بدور عبادتهم. وعلى هذا الأساس، فقد كان من حق جميع الرعايا الجدد للمسلمين المنتصرين الاختيار بين : اعتناق الإسلام أو البقاء على ديانتهم الأصلية. بالاختيار الأول يتمتعون - سادة وعبيداً - بكل ما للمسلم الأصلى النشأة من حقوق وواجبات؛ وبالاختيار الثانى يتحولون إلى «ذميين» عليهم الوفاء ببعض الالتزامات ومنها سداد ضريبة سنوية (جزية).

وعلى ضوء هذا، اختار كثير من الأسبان دون تردد - وخاصة هؤلاء الذين كانوا يشعرون بغبن فى ظل النظام القوطى - الدخول فى الإسلام. ومن جانبنا، نظن أن المسلمين المنتصرين ربما لم يستهوه هذا التحول الجماعى للإسلام من جانب سكان شبه جزيرة أيبيريا نظراً للعوائد الضريبية الكبيرة التى كانت ستحصل منهم لو استمر معظمهم على ديانته الأصلية^(*). لكن علينا - فى ذات الوقت - أن نأخذ فى الحسبان أن دواعى الأمن والسياسة الفطنة لم يكن يناسبهما زيادة عدد «الذميين» على عدد المسلمين. على أية حال، فلم يكن دخول الرعايا الجدد فى الإسلام يمثل مشكلة فى الأندلس خلال القرن الثامن لأنه جاء نتيجة لاختيارهم الحر ولم يفرضه أحد عليهم^(٥٨). ومن الآن فصاعداً سيمثل هؤلاء الأسبان المتحولون إلى الإسلام غالبية الشعب الأندلسى المسلم وخاصة فى الأقاليم الجنوبية والشرقية لشبه الجزيرة. ولن يغادر معظم أحفادهم بعد عدة قرون - مثلهم فى هذا مثل أحفاد العرب والبربر المستقرين منذ زمن طويل - أرض أسبانيا عندما آلت بكاملها إلى المسيحية.

(*) نسى المؤلف أن المسلمين كانوا يؤدون الزكاة للدولة، وهى الضريبة التى كانت تقابل جزية الذميين. المراجع

وقد أطلق قديما على المسلمين الجدد لفظ «مُسالمة» أو «مولدين» [مفردتها «مولد»^(٥٩)؛ وفي الأسباني القديم «مولادى» MULADI]؛ ويبدو أن كلمة «مسالمة» كانت تطلق على الأسبان المتحولين إلى الإسلام، أما الكلمة الثانية (مولدون) فكانت تطلق على ذراريهم (أبنائهم وحفدتهم).

كما يبدو أن تحول الأسبان الأوائل إلى الإسلام (أو المسلمون الجدد، الذين سنطلق عليهم من الآن لفظ «المولدين») قد تم سريعا وفي زمن قصير، وأنه بعد عدة أجيال كان من الصعب التمييز بين أحفادهم وأحفاد المسلمين القادمين من خارج شبه جزيرة ايبيريا. ومما لا شك فيه أن أعداد هؤلاء المسلمين الأسبان قد تضاعفت خلال القرن التاسع نظرا لتحول جماعات جديدة للإسلام نتيجة لحزم وصرامة بعض أمراء قرطبة الأموية ولتعصب الأقلية المستعربة النشطة.

وقد تلقب الكثيرون من المولدين الأحرار والعبيد، والمتبنين بألقاب أسيادهم ونسوا بالتدريج أصولهم؛ كما أصبح العديدون من المنحدرين عن هؤلاء المسلمين الجدد برجوازيين أثرياء بل وأعيان أقوياء جمعوا ثروات طائلة من الاشتغال بالتجارة أو الزراعة وتناسوا بمرور الزمن أن أسلافهم كانوا يقطنون أسبانيا قبل أن يدخلها الإسلام. وبعضهم الآخر اشترى بالذهب الانتساب لعائلات كريمة لكي يتمكن من التباهي بأصوله العربية. كما فضل البعض الاحتفاظ بأسماء عائلاتهم الرومانية للتمييز عن غيرهم، مثل بنى «أنخيلينو»، بنى «ساباريكو»، بنو «لونجو»، بنى «كابيتورنو»... الخ. وكان ابن القوطية نفسه (وهو أحد المؤرخين العرب) يفتخر في القرن العاشر بأصوله التي تمتد لعائلة الملك غيطشة ويلقبه (القوطى) الذي يعكس هذا الانتساب، وبالإضافة إلى ماتقدم، فإن المصاهرة المستمرة بين المولدين والمسلمين «الداخلين» قد محت من ذاكرة هؤلاء المولدين أصولهم الأسبانية البعيدة. لقد حدث امتزاج قوى وسريع بين الشعوب الأندلسية يصعب من خلاله، وخاصة كلما طال الأمد، التمييز بين العناصر الوافدة وأبناء البلد الأصليين.

وبالرغم من هذا، فلم يفقد المولدون أبدا - دون بقية من ترك دين أسلافه وتبنى النموذج الحياتي للمسلمين الداخلين وتقاليدهم - شخصيتهم الأسبانية. وبفضل هذا الامتزاج غير العادى تمتعت الأندلس بملامح ذاتية خاصة داخل العالم الإسلامى، سواء بالنسبة لحياتها السياسية أو وعيها الثقافى والحضارى.

ومن المهم ألا ننسى كذلك أن اللغة العربية لم تكن هى اللغة الوحيدة المستخدمة منذ القرن الثامن وحتى الخامس عشر، ذلك لأن عددا لا بأس به من السكان كان

يستخدم أيضا في الحديث اللهجات الرومانشية المشتقة أساسا من اللاتينية والمطعمة بمفردات عربية وأيبيرية. ولا يوجد ما يمنع من التأكيد بتفوق اللهجات الرومانشية - حتى عصر متأخر من تاريخ أسبانيا الإسلامية - على اللغة العربية (ومن باب أولى على اللغة البربرية) خاصة في المناطق الريفية والزراعية.

المجتمعات المسيحية واليهودية في الأندلس :

يطلق المسلمون أحيانا لفظ «العجم» على الأسبان المسيحيين الذين لم يتخلوا عن عقيدتهم وظلوا - طبقا للتعبير العربي - «بين ظهرانى المسلمين». وهذا اللفظ (العجم) كان يطلق في بدايته على غير العرب، وفي الشرق كان يطلق بصفة خاصة على الفرس الذين دخلوا الإسلام.

أما التسمية التي غلبت ودامت في أسبانيا فهي «المستعربون»^(٦٠). ومن جهة أخرى، فإن المؤرخين العرب اعتادوا تسمية غير المسلمين في أسبانيا «بالمعاهدين»^(٦١)، أى المرتبطين بعهد يخول لهم الاستمتاع بعدد من الحقوق والالتزام ببعض الواجبات. إنه يساوى - باختصار - تعبير «أهل الذمة» الذى يطلق على دافعى الجزية من المسيحيين واليهود، لكن يبدو (وهذا خاص بأسبانيا الإسلامية فقط) أنه بمرور الزمن أصبح لفظ «المعاهد» يُطلق على المسيحي بينما اختص اليهودى بلفظ «الذمى».

كانت توجد، في طليطلة وقرطبة وإشبيلية، منذ منتصف القرن الثامن المجتمعات المستعربة الأكثر عددا وازدهارا. وظلت طليطلة (عاصمة القوط القديمة) محتفظة، تحت السيطرة الإسلامية، بمكانتها كحاضرة دينية، وكانت المقر الدائم - حتى القرن الحادى عشر - لمطران مسيحي الأندلس الذى كان لا يتم تعيينه - مثله فى هذا مثل قساوسة قرطبة وغيرها من الأبرشيات - إلا بعد موافقة العاهل الأموى فى العاصمة قرطبة.

ولقد كان لمسيحي أسبانيا - بوجه عام - الحق فى الاحتفاظ بكنائسهم وممارسة شعائهم الدينية فيها، لكن التصريح لهم ببناء كنائس جديدة لم يكن يتم إلا فى القليل النادر. ومن جهة أخرى، فقد تم تحويل عدد من الكنائس إلى المساجد، تمشيا مع التقليد المتبع منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب والذى يقضى بتقسيم كنائس المدن المستسلمة - ولو عن طريق الصلح - بين المسلمين والمسيحيين. ويبدو أن اتفاقا من هذا النوع قد وقع فى قرطبة (عاصمة الأندلس) واستمر لعدة عقود من الزمن، وبموجبه تحول نصف كنيسة «سان بيثنتى» (SAN VICENTE) إلى مسجد بينما ظل

النصف الباقي في يد المستعربين. وبعد أن كثر عدد المسلمين في العاصمة الأندلسية، أحس عبد الرحمن الأول بالحاجة لتوسيع المسجد فضم إليه الجزء المخصص للكنيسة، وصرح للمستعربين في مقابل هذا ببناء كنائس جديدة في الربض (٦٢).

لا يمكننا الجزم بأن الأراضى التى استردها ألفونسو الأول ومن بعده «فرويل الأول» فى منتصف القرن الثامن لم يبق فيها مسلم واحد. مانعرفه هو أن البربر نزحوا عن الأقاليم التى استردها هذان الملكان وتركوها شبه خالية، لكن الأعداد القليلة التى بقيت منهم ارتدت عن الإسلام وعادت لممارسة شعائر دينها القديم.

لقد تواجد المسيحيون فى أسبانيا خلال كل العصور؛ أما ملوك أسبانيا المُستردَّة (المسيحية) فلم يسمحوا بتواجد جاليات مسلمة على أرضهم إلا بعد مرور ربح طويل من الزمن، ومن ثم فقد كان لزاما الانتظار حتى نهاية القرن الحادى عشر ومطلع الثانى عشر لتصلنا أول الأخبار عن تواجد بعض التجمعات الموريسكية فى الأراضى المسيحية. وعلى خلاف ماتقدم، فإن الجاليات اليهودية النشيطة والغنية كانت متواجدة باستمرار على هذا الجانب أو ذاك من الثغور الحدودية. لن نسترسل الآن فى الحديث عن تلك الجاليات اليهودية ولاعن مسيحيى الأندلس لأننا سنعود إليهما - وبالتفصيل - عند دراسة النسيج الاجتماعى لخلافة قرطبة والدور الذى لعبه كل فريق فى اقتصادها.

يعتقد - كما أشرنا آنفا - أن يهود أسبانيا لم يساوموا المسلمين على مساندتهم لهم فى دخول البلاد. فمنذ زمن طويل واليهود يعانون حقا من سوء معاملة واضطهاد القوط، وخاصة منذ العصر الذى بدأ فيه التحالف بين الكنيسة والدولة وأسفرت اجتماعاتهما المتتالية فى العاصمة طليطلة عن تقليص حقوق اليهودى الشخصية ثم الإطاحة بها. ففى عام ٦٥٤م اتخذ «ريثيسينتو» (RECESVINTO) ضدهم مجموعة من القرارات الصارمة (استمر تطبيقها كذلك فى عهد «إيريبيخيو») تضطرمهم فى الواقع إما إلى الهجرة أو اعتناق المسيحية. ثم جاء «إخيكيا» وحرّم عليهم - عام ٦٩٣م - التعامل مع مسيحيى المملكة. وبالرغم من قسوة القرار الأخير إلا أنه من المستبعد التسليم بأنه كان سبب تأمرهم فى بداية القرن الثامن مع عرب شمال أفريقيا لطرده القوط من أسبانيا (٦٣). يكثر المؤرخون العرب من الإشارة إلى المساعدات التى قدمها يهود أسبانيا للعرب الفاتحين، ويبدو أنهم كانوا مكلفين - فى حالات معينة - بتأمين وحراسة المدن المفتوحة بعد ترك الجيوش العربية لها لمواصلة تقدمها. لقد تمتع اليهود، فى ظل الدولة الإسلامية، بحقوق المواطنة كاملة، وكانت لهم جاليات ذات أهمية

فى عدد من المراكز الحضارية. وعلاوة على هذا، أصبح اليهود يشكلون غالبية سكان بعض المدن لأزمان طويلة، ومنها على سبيل المثال : غرناطة القديمة أو مدينة «اللسانة» (LUCENA) الصغيرة. كما كان لليهود أيضا - مثل المستعربين - الحق فى ممارسة شعائرهم الدينية والتمتع بسائر حقوقهم المدنية مقابل دفع الجزية فقط.

وعلى ما يبدو، فإن عدد المتحولين منهم إلى الإسلام لم يكن يشكل سوى نسبة ضئيلة للغاية.

وإذا استثنينا الحركات المحدودة والقليلة المناهضة لليهود والتي انبثقت أثناء حكم الزيديين لغرناطة فى القرن الحادى عشر، يمكننا القول بأن التاريخ لم يسجل أى قرار فيه اضطهاد لليهود أسبانيا المسلمة إلا بعد مرور عدة قرون، وبالتحديد فى عهد الموحدين.

ولقد اضطلع اليهود - كما سنرى فيما بعد - بدور هام فى اقتصاديات الممالك الأندلسية والمسيحية على حد سواء، كما عهد إليهم بالعديد من المناصب فى إدارة الأموال وبالمهام الدبلوماسية العظيمة.

عرب أسبانيا : «الداخلون» (٦٤) :

لم يكن تعداد العرب بالوفرة التى يستطيعون بها شغل أراضى امبراطوريتهم الشاسعة التى فتحوها، ومن ثم فقد تصرفوا بحنكة عندما زدوا كل منطقة بالكوادر السياسية اللازمة. ولاتجلى براعتهم فقط فى جعل كل المناطق التى دخولها تقبل على اعتناق دينهم بل، أيضا، فى فرض التعريب الاجتماعى على الكتل السكانية الخاضعة لسيطرتهم. ويغلب الظن بأن نسبة العرب الخالص فى أسبانيا القرن الثامن كانت ضئيلة ومن أبرز ممثليها الأنصار والتابعون. وإذا كانت هذه النسبة قد تزايدت فيما بعد فالفضل يرجع لعودة حكم بنى أمية لتلك الأراضى البعيدة من الامبراطورية العربية والمكانة الرفيعة التى احتلتها هذه المحافظة الإسلامية ذات الطبيعة الخلابة.

وكما لاحظنا من قبل، فإن عرب أسبانيا الخالص القليل العدد (مقارنة بالبربر أو المسلمين الجدد) عندما نقلوا معهم فى القرن الثامن إلى شبه جزيرة أيبيريا نزاعاتهم الطبقية وخصوماتهم العشائرية (بين القيسيين واليمنيين) فإنهم لم يسمحوا بذلك لإخوانهم الجدد فى الدين الاقتراب من مجال السياسة. لقد أصبح فى مقدورنا الآن - بفضل عناية المؤرخين العرب بإبراز هذه المسألة، وبفضل مدونة «جمهرة أنساب

العرب» التى كتبها ابن حزم الأندلسى فى القرن العاشر - التعرف بمزيد من الدقة على المجموعات العربية الرئيسية التى دخلت الأندلس، بل وتحديد الأماكن التى استقرت بها على الخريطة.

وفى هذا المقام يجب تكرار ما أشرنا إليه سابقا قائلين بأن هؤلاء العرب «الداخلين»، بالرغم من شدة اعتزازهم بأصولهم إلا أنهم لم يستطيعوا المحافظة طويلا على نقاء الدم والسلالة اللتين قدما بهما إلى أسبانيا نتيجة لشيوع مصاهرتهم للمولدين ولكثرة حالات التبنى واتخاذ الموالى.

وأقدم خلية عربية عرفت لها الأندلس تتمثل فى القيسييين والكبييين الذين قدموا مع موسى بن نصير إلى شبه جزيرة أيبيريا، وبعدها بقليل (فى ٧١٣م - ٩٤هـ) تبعتهم عدة مئات بصحبة الحاكم : الحر بن عبد الرحمن الثقفى.

ونعتقد أن هجرات العرب إلى الأندلس قد استمرت بعد ذلك حتى منتصف القرن الثامن، لكننا لانستطيع تحديد أحجامها ولا أوقاتها لعدم ورود أخبار عنها، والخبر الوحيد الموثوق به عن هجرات هذه الفترة السابقة لولاية عبد الرحمن الأول يخص «الجند» السوريين الذين قدموا مع بلج القشيري، وقد أشرنا من قبل إلى دورهم العسكرى وإلى استقرارهم فى «كور» جنوب وشرق الأندلس (٦٥).

وتجدر الإشارة إلى أن كتب التاريخ تطلق إسم «البلديين» على الداخلين الأوائل وأحفادهم (من قدموا مع موسى بن نصير ومع الحر)، بينما تطلق على من جاؤا بصحبة بلج «الشاميين» أو «السوريين».

ولقد استقر العرب - بوجه عام - فى المدن الواقعة فى السهول الخصبة، وهذا ينسحب بالتحديد على الأرسقراطية القرشية وعلى أرسقراطية أحفاد الأنصار. وفيما يخص المناطق التى استقر بها العرب فى الأندلس، نجد أن ممثلى العشيرة العدنانية / القيسية للفهرين قد تركزوا فيما يلى : الكنانيون حول طليطلة؛ الهذليون فى إقليم «أوربولة»؛ التميميون والقيسيون فى منطقتى إشبيلية وبلنسية. أما بالنسبة للعشيرة المناوئة (الختعميون، اليمانيون) فقد كان الأزديون والحميريون (مواطنو حضر موت، جنوب شبه جزيرة العرب) موزعين بين قرطبة، بطليوس (BADAJOZ)، إشبيلية، البيرة، ومرسية.

وعلى هذا، فقد استأثرت الطلائع العربية و«جند» بلج السوريون بنصيب الأسد من الأراضى التى فتحها المسلمون فى القرن الثامن، ولانعرف سوى القليل عن كيفية

استفادتهم من طبيعة الأندلس الغنية. وبما أننا سنعود لهذا الموضوع بالتفصيل سنقتصر هنا على الإشارة إلى أنهم تبثوا - على الأرجح - نظام المزارعة والمشاركة فى المواشى الذى كان معمولاً به فى أفريقيا الرومانية والمستمد فى الغالب من نظام بربرى قديم.

اختار العرب الإقامة فى المدن للاشتغال بالوظائف أو بشئون الحكم، أو الإقامة فى بيوتات ريفية مريحة ومسلية كسادة إقطاعيين، وعهدوا بفلاحة ضياعهم إلى مولدين من العوام أو فلاحين مسيحيين مقابل إيجار معين أو المشاركة فى المحاصيل التى تغلها الأرض.

ومن جهة أخرى، فقد ظهرت سريعاً - وخاصة فى جنوب غرب أسبانيا - الأبعاديات الكبيرة التى تمتلكها بعض العائلات العربية، ومن أهمها العائلات المقيمة بمقاطعة إشبيلية.

البربر فى أسبانيا (٦٦):

ندين أيضاً فى معرفتنا لأصول البربر وأماكن استقرارهم فى أسبانيا للمعلومات المسهبة والمحددة التى تركها لنا ابن حزم. عرفنا من قبل الدور الهام الذى اضطلع به البربر فى فتح أسبانيا، ونذكر الآن أن معظمهم قد ترك شمال شبه الجزيرة - دون نية فى الرجوع ثانية إليها - عائداً إلى المغرب إبان فشل حركة تمردهم المتزامنة مع فترة القحط والجوع التى بدأت عام ٧٥٠م (١٣٢هـ). الذين بقوا منهم فى الأندلس وأصبحت لهم ذريات هم الذين صاهروا المولدين أو تزوجوا - فى حالات نادرة - من العائلات العربية.

ويغلب الظن بأن هجرات البربر - سواء كانت اختيارية أو تلبية لالتزامات معينة - من شمال أفريقيا إلى أسبانيا قد استمرت على فترات متباعدة منذ ذلك الحين حتى عصر الخلافة القرطبية على الأقل.

وإضافة إلى ماتقدم، فنحن نعرف أن بعض أمراء بنى أمية كانوا يضمون إلى الميليشيات التابعة لهم فى شمال أفريقيا مرتزقة من البربر (٦٧). ومع هذا، فعلينا الانتظار حتى النصف الثانى من القرن العاشر لكى نسجل مجيئ جماعات غفيرة من البربر للانخراط - كجنود نظاميين - فى صفوف الجيش الأموى بناء على طلب ملوك قرطبة والمنصور بن أبى عامر من بعدهم. وستشهد الأندلس - نتيجة لحدوث مجموعة

كبيرة من الزيريين فى ذلك العصر المتأخر - تجدد الصراع بين البربر الزناتيين والبربر الصنهاجيين^(٦٨).

ويذكر المؤرخ العربى ابن خلدون أن التجمعات البربرية الرئيسية التى تكاثرت فى أسبانيا منذ عهد متقدم كانت أربعة : أهالى «متغرة» (MATGARA)؛ أهالى «مديونة» (MADYUNA)؛ أهالى «مكناسة»؛ أهالى «هوأرة». ومن بين الأقاليم التى كانت تسكنها هذه الجماعات فى المغرب خلال القرن الثامن نخص بالذكر : مناطق «الريف» الجبلية، ومناطق «جيبلة» (CHEBALA) القريبة من ساحل البحر المتوسط؛ ومن تلك المناطق جند طارق بن زياد العساكر اللازمة لحملته على أسبانيا.

أما ابن حزم فقد أضاف إلى القبائل الأربعة التى ذكرها ابن خلدون قبائل أخرى، مثل : «مغيلة» (MAGILA)، «ملزوزة» (MALZUZA)، «نفرة» (NAFZA)، «أوربة» (AWRABA)، «مصمودة» (MASMUDA) الأطلس الكبير، و«كتامة».

ولقد استقر بربر «بنو رزين» فى إقليم «البرازين» (وهو تحريف لإسم القبيلة المذكورة)؛ وبربر «ولهسة» (WALHASA) فى مقاطعة «رندة»؛ و«بنو غزلون» فى «شاطبة»؛ و«بنو طريف» فى «أشونة» ومدينة سالم.

لكن مجموعات الهجرة الأكثر عددا تنتسب لقبائل «زناتة» المغرب وأفريقيا، ومنها : «بنو الخروبي» (BANU-L-JARRUBI)، و«بنو ليث» (BANU LAYTH)، «بنو بيرزال» (BANU BIRZAL)، «بنو ضمّار» (BANU DAMMAR)، «بنو خزر» (BANU JA-ZAR). ومن المحتمل أن هذه القبائل المنتسبة لزناته لم تأت للاستقرار فى أسبانيا إلا فى النصف الثانى من القرن العاشر بعد انتهاء الخليفة عبد الرحمن الثالث، والحكام من بعده، سياسة ممالئة للزناتيين فى شمال أفريقيا. واستوطن البربر - دون استثناء تقريبا - المناطق الجبلية المنتشرة فى سائر شبه جزيرة أيبيريا. والأسباب التى دعتهم للاستقرار فى تلك المناطق كثيرة ومتنوعة : وأولها، لأن العرب احتفظوا لأنفسهم بالأقاليم الغنية فى السهول وبالأراضى التى تعتمد على الرى فى الغوطات الأندلسية ولم يتركوا لهم، بالتالى، فرصة للاختيار. ومن جهة ثانية، فالغالبية العظمى من البربر كانت تقطن الأقاليم الجبلية قبل قدومهم إلى الأندلس، ومن ثم فقد كان بإمكانهم الاستقرار دون صعوبة فى قفار الهضبة الوسطى أو على سفوح الجبال وممارسة نشاطهم القديم فى تربية المواشى وزراعة الأشجار. والسبب الأخير يكمن فى أنهم حينما قبلوا العيش فى أقاليم صعبة المنال كانوا يدركون مقدما أن العرب سيحترمون

استقلاليتهم لما خبروه من براعتهم فى حرب العصابات. وبالفعل، فقد تجنب البربر بسكناهم المناطق المرتفعة المراقبة اللصيقة من جانب أولئك الذين تلقوا منهم يد العون لاحتلال المحافظة الإسلامية الغنية. ومنذ ذلك الحين ستواجه الإمارة القرطبية سيلا من التمردات البربرية المحدودة التى سيتكفل أمراء قرطبة بإخمادها دون مشاكل فى أغلب الأحيان.

على أية حال، يمكن القول بأن «حرب الاسترداد» عندما اندلعت فى الشمال وتقدمت نحو الجنوب (من سلسلة جبال «كنتبريا» حتى وادى الدويره) أجبرت مجموعات كبيرة من الفلاحين البربر على الانتشار فى بقية أنحاء شبه الجزيرة، وخاصة فى غرب الأندلس وفى مناطق «إكستريمادورا» الجبلية التى تمتد حتى وادى الرملة (GUADARRAMA). وفيما يسمى حاليا بأندلوثية، استوطن كثير منهم المناطق الجبلية الآتية : جبال «قرمونة» و«شدونة»، جبال «رندة» و«مالقة»، ومنحدرات جبال الثلج (SIERRA NEVADA). وبهذا الشكل توزعت أراضي أسبانيا الإسلامية بعد سنوات قليلة من فتحها على العرب الخالص والبربر والمسلمين الجدد.

أما المدن فقد كان يسكنها - بالإضافة إلى السادة العرب والدهماء من المولدين - مسيحيون ويهود أسبان، مع نفر قليل من البربر فى بعض الأحيان. ومع أن هذا الخليط البشرى قد أضفى على أسبانيا المسلمة طابعا خاصا ومميزا إلا أنه ظل لفترة طويلة عقبة كؤودا فى طريق سلامتها ووحدتها. وستعرف فى الفصول التالية على مدى تحكم خطر تنوع الأجناس فى دفعة التاريخ السياسى لإمارة قرطبة الأموية، وعلى تهديده لمصير أسبانيا المسلمة عندما تزامن مع المعاول الأولى لحرب الاسترداد التى استطاع المسلمون إسكاتها فى القرن العاشر لكنها نشطت من عقالها ثانية فى مطلع القرن الحادى عشر ومزقت الأندلس إلى أشلاء لم يلملمها إلا تدخل المرابطين.

هوامش الفصل الأول :

(١) توجد «بيلوجرافيا» مفصلة عن أسبانيا القوطية في الكتاب التالي :

- las fuentes de la Historia Española, de Sánchez Alonso, Madrid, 1919, págs. 14-22 (nueva ed., Madrid, 1927, págs. 55-67).

والأعمال الأساسية الحديثة التي تضيفها إلى المصدر السابق هي :

- N. ABERG, Die Franken und Westgoten in der Völkerwanderungszeit, Uppsala, 1922.
- M. Torres, El Estado Visigótico : Algunos datos sobre su formación y principios fundamentales de su organización, en Anuario Hist. Der. esp., III, 1926, págs. 307 - 475.
- A. K. Ziegler, Church and State in visigothic Spain, Washington, 1930.
- H. Zeiss, Die Grabfunde aus dem Spanischen Westgoten-Reich, Berlin, 1934.

وخاصة المجلد الرابع من هذا الكتاب. (Madrid, 1940).

وبالتسبة للوضع السياسي في أسبانيا خلال الفترة من ٦٨م إلى ٧١١م، أنظر :

- F. lot. Ch. Pfister y F. L. Ganshof, Les destinées de l'empire en Occident de 395 á 888 (Histoire du Moyen Age, de Glotz, t. I), París 1940, Páginas 233 - 253.

كما توجد قائمة بملوك القوط في كتاب ابن خلدون «العبر وديوان المبتدأ والخبر ...»، الجزء الرابع ص ٢٣٥، ٢٣٦.

(٢) وكتاب «صبح الأعشى» للقلقشندي، الجزء الخامس، من ص ٢٢٨ إلى ص ٢٤٠.

- 2- F. lot, Les invasions barbares, París, 1937, pág. 14.

(٣) عن التشريعات القوطية، أنظر :

- R. de Ureña, La legislación gótica - hispana : Estudio Crítico, Madrid, 1905, y el tomo III de esta Historia.

(٤) انظر : - Ziegler, op. cit., págs. 121, 195 - 6.

(٥) خصص «ميننتدث بيدال» دراسة لهذه الأساطير تحت عنوان :

- Las leyendas del último Rey godo, en R. A. B. M. , T, V, VI, X, XII, XIII, XIV, XV; Madrid, 1901 - 6.

وله مقال آخر بعنوان :

- El Rey Rodrigo en la literatura, en Bol. de la Real Academia Española, 1924.

أما بالنسبة لأقاصيص وحكايات المدونات التاريخية العربية، أُنظر :

- Lèvi - Provençal, La Péninsule ibérique, págs. 10-11.

(٦) من المصادر العربية التي تتناول فتح أسبانيا ونشاط حكامها العرب قبل تأسيس إمارة قرطبة الأموية نشير إلى مايلي :

- «أخبار مجموعة»، من ص ٢ إلى ٦٦؛ والترجمة الأسبانية من ص ١٧ إلى ص ٧٠.

- ابن القوطية : «تاريخ افتتاح الأندلس»، من ص ٢ إلى ٢١؛ والترجمة الأسبانية من ١ إلى ١٦.

- ابن عبد الحكم : «فتوح مصر»، طبعة Torrey، من ٢٠٤ إلى ٢٢٥.

- ابن عذاري : «البيان ...» الجزء الثاني (من ص ٥ إلى ص ٤٩)؛ وفي الترجمة من ص ٥ إلى ص ٧٣.

- المقرئ : «نفخ الطيب»، الجزء الأول من ص ١٥٦ إلى ١٧٥؛ الجزء الثاني من ص ٦ إلى ١٧.

- ابن الخطيب : «أعمال الأعلام...»، من ص ١ إلى ص ٦.

- ابن خلدون : «كتاب العبر»، الجزء الرابع من ١١٦ إلى ١٢٠.

- ابن الأبار : «الحلة السيرة»، من ٣٠ إلى ٣٢.

- ابن خلكان : «وفيات الأعيان»، الجزء الثالث، ص ٤٧٥.

- القلقشندي : «صبح الأعشى»، الجزء الخامس، من ٢٤١ إلى ٢٤٤.

- الحميري : «الروض المعطار، صفة جزيرة الأندلس»

(Lèvi-Provençal, La Península Ibérique, págs. 10-14).

كما يمكن الرجوع - لكن بحذر - إلى المصادر التالية :

- «فتح الأندلس»، النص العربي والترجمة الأسبانية لـ J. de González، الجزائر، ١٨٨٩.

- ابن قتيبة : «كتاب الإمامة والسياسة» (نشره وترجمه إلى الإسبانية خوليان ريبيرا في ملحق طبعة «تاريخ افتتاح الأندلس» لابن القوطية).

- القصة المنسوبة للمؤرخ ابن حبيب والتي أوردها بوزي في Recherchés، الجزء الأول، من ص ٢٨ إلى ٣٦.

ومن المصادر اللاتينية نشير إلى مايلي :

- Dozy : Études sur la conquête de l'Espagne par les Arabes, en Recherches, pp. 1 - 83.

- E. Saavedra : Estudio sobre la invasión de los Árabes en España, Madrid, 1892.
- F. Codera : Conquista de Aragón y Cataluña por los Musulmanes, en Est. Crit. hist. ár. esp. (VII), pp. 95 - 110.
- Fournel : Les Berbers, París, 1875, I, p. 237 y ss.
- A. Müller : Der Islam im Morgen - und Abendland, I, Berlin, 1885, pp. 421 - 33.
- Simonet : Historia de los Mozárabes, pp. 1 - 37.
- R. Dykes Shaw : The fall of the Visigothic power in Spain, en English historical Review, XXI, 1906, pp. 209 - 28.
- Barrac-Dihigo : Royaume asturien, pp. 107 - 14, 295 - 308.
- Y esta misma Historia, III (España visigoda), pp. LI - LIII, 137 - 9.

(٧) تتحدث نفس المصادر العربية السابقة عن فتح المغرب، ونخص منها الفصل الذي ترجمه A. Gateau من كتاب ابن عبد الحكم تحت عنوان :

Conquête de l'Afrique du Nord et de l'Espagne.

كما توجد ملخصات لفتح المغرب في المصادر التالية :

- Fournel : Les berbers, I, págs, 231 y sigs.
- E. F. Gautier : Les siècles obscurs de Magreb, pp. 221 - 55.
- G. Marçais, en Hist. du Moyen Age de Glorz, III, pp. 206 - 7.
- G. Marçais, en L' Afrique du Mord française dans l'histoire, Lyon - París, 1937, pp. 131 - 42.

(٨) عن موسى بن نصير، انظر :

- Lévi - Provençal, en la Enc. Isl., III, p. 790.

(٩) عن طارق بن زياد، أنظر المرجع السابق، الجزء الرابع، ص ٦٩٩، ٧٠٠.

(١٠) بالإضافة إلى أعمال كل من مينندث بيدال، سافدرا المشار إليها، أنظر :

- Dozy : Le comte Julien, en Rech., I, pp. 57 - 63.
- Codera : El llamado conde D. Julián, en Est. crit. hist. ar. es., VII, pp. 45- 94.

حاول «كوديرا» في تلك الصفحات إثبات أن Julián كان يسمى Urbán أو Olbán، وأن الإسم الأول أطلق عليه في نهاية القرن العاشر، وأنه ينتسب لقبيلة بربرية مغربية تدعى «غومارة» (Gumara). لكن هذه الافتراضات قد قندتها المصادر التالية:

- Saavedra, Invasión, p. 50, n. 2.
- Simonet, Hist. de los Mozárabes, p. 40 y notas 3 y 4.
- O. A. Machado, Los nombres del llamado conde Don Julián, en Cuadernos de Historia de España, Publicados por Inst. de Hist. de la Cultura española medieval y moderna de la Facultad de Filosofía y Letras de Buenos Aires, III, 1945, pp.166 y ss.
- Diehl : Hist. du Moyen Age, de Glotz, III, p. 246. (١١) انظر :
- وطبقا لشهادة Procopio فإن البيزنطيين عادوا إلى سبته بعد احتلال «الوندال» لها، وينى فيها «خوستنيانو» (Justiniano) بعض التحصينات مما جعلها قلعة منيعة (أنظر : Diehl : L'Afrique byzantine, París, 1896, p. 171.)
- (١٢) انظر :
- A. Fernández Guerra : Don Rodrigo y la Cava, Madrid, 1877.
- J. Menéndez Pidal : Las leyendas del último Rey godo, en R. A. B. M., T, V, VI, X, XII, XIII, XIV, XV, Madrid, 1901 - 6.
- وبالنسبة للحكايات العربية عن ابنة يوليان : أنظر :
- Lévi-Provençal : La Péninsule Ibérique, pág. II y n. 1.
- Lévi- Provençal : La Péninsule Ibérique, p.12. (١٣) انظر :
- Lévi-Provençal en la Enc. Isl., IV, p. 699. (١٤) عن طريف، أنظر :
- Saavedra : Invasión, pp. 54 - 56. (١٥)
- (٢٦) توجد أطلال هذه المدينة القديمة في مكان يدعى «روكاديليو» (Rocadillo) أو «برج قرطاجنة». أنظر بصفة خاصة المصدر التالي :
- Lévi-Provençal : La Péninsule Ibérique, p. 180 y n. 3.
- (١٧) ورد في «نفخ الطيب» للمقرئ، الجزء الأول ص ١٦٣ (أنظر :
- (Lévi-Provençal : La Pénin. Ib., p. 204.) أن معركة برباط استمرت أسبوعا (من ١٩ إلى ٢٦ يوليو، ٧١١ - ٢٨ رمضان إلى ٥ شوال، ٩٢هـ) قبل أن تنتهي بهزيمة لذريق. وفي المعركة أسر المسلمون قوطا ينتسبون لجميع الطبقات الاجتماعية : نبلاء وعامة وعبيد، وقد أمكن التعرف عليهم وتمييزهم بالخواتم التي كانوا يضعونها في أصابعهم : فخواتم النبلاء كانت من الذهب، وخواتم العامة من الفضة، أما العبيد فكانت خواتمهم من النحاس.
- (١٨) يرى المؤرخون الأسبان المعاصرون أن مسمى «وادي بكّة» (WADI BAKKA) أو «وادي لكّة» (WADI LAKKO) الذي أطلقه المؤرخون والجغرافيون العرب على نهر برباط يتناسب أكثر مع نهر

(GUADALETE) الأكثر أهمية وطولا والذي يمر بالقرب من شَرِيش (JEREZ). ومن هنا ينبع تضارب الأقوال في تحديد مكان لقاء لذريق بطارق. وبهذا الخصوص تلقت النظر للمراجع التالية :

- Saavedra, Invasión, págs. 68 y sigs.
- J. y M. Oliver Hurtado : De la batalla de Vejer o del Lago de la Janda, Comúnmente llamada del Guadalete (Revista de España, IX, 1869, pp. 5-20).
- M. Mancheño y Olivares : La batalla del Barbate, Arcos de la Frontera, 1899.
- S. de la Rosa y López : El lugar en que se dió la batalla del Guadalete, Sevilla, 1911.

(١٩) عن مغيث هذا، أنظر: «نفخ الطيب» للمقرئ، الجزء الثاني، من ص ٦ إلى ص ٨.

(٢٠) انظر : Lévi-Provençal : La Péninsule Ibérique, pp. 158 - 60.

(٢١) المرجع السابق، من ص ٢١٠ إلى ص ٢١٢.

(٢٢) انظر : Saavedra, Invasión, pp. 99-101.

- C. Sánchez-Albornoz : Dónde y cuándo murió Don Rodrigo, Último rey de los godos, en Cuadernos de Historia de España, publicadas por el Inst. de Hist. de la Cultura española medieval y moderna de la Facultad de Filosofía y Letras de Buenos Aires. II, 1945, p. 5 y sigs.

(٢٣) انظر، للتعرف على عملات المسلمين القديمة، على المصادر التالية :

- H. Lavoix : Catalogue des monnaies musulmanes de (la Bibliothèque Nationale, Califes orientaux, p. XXXVII, y Espagne et Afrique, pp XIV - XVI).
- Al-Andalus (Unos datos y una pregunta), en Al-And., IV, 1936, p. 207, número 2. Cf. para Ifriqiya.

(٢٤) هو ابن الكونت «قاسي» (QASI)، الذي ستنسب إليه بعد ذلك عائلة «بنو قاسي». وستعود لتاريخ هذه العائلة عند حديثنا عن إمارة قرطبة الأموية.

(٢٥) انظر :

- Codera : Narbona, Gerona y Barcelona bajo la dominación musulmana, en Est. Crit. hist. ár. esp. (VIII), p. 293.
- Soldevila : Hist. de Catalunya, I, p. 28.

(٢٦) انظر :

- Gaspar Remiro : Hist. de Murcia musulmana, pp. 11 - 27.

- Lévi-Provençal : Esp. Mus. Xsiècle, p. 33 y n. I.

: La Péninsule ibérique, pp. 78 - 9.

- Simonet : Hist. de los Mozárabes, pp. 52 - 7.

(٢٧) بالإضافة إلى المراجع العربية المذكورة في الهامش رقم ٦ نذكر مايلي :

- Simonet : Hist de los Mozárabes, pp. 134 - 236.

- Lafuente y Alcántara : Cronología de los gobernadores de España, apènd. a su edición del Ajbar machmua, pp. 240 - 42.

- S. Vila : El nombramiento de los walíes de al-Andalus, en Al-Andalus, IV, 1936, pp. 215-20.

- F. Gabrieli : Il califato di Hisham : Studi di storia omayyade, en Mém. de la Soc. Royale d'Archéologie d' Alexandrie, VII, 2, Alejandria, 1935, pp. 104-19.

(٢٨) يمكن الاطلاع على عرض مجمل لتلك الصراعات في المصدر التالي :

- A. Fischer : Enc. Isl., II, pp. 692 - 8.

(٢٩) نتبع في ترتيب حكام أسبانيا العرب المصدر التالي :

- Lafuente Alcántara : op. cit., pp. 240 - 2.

(٣٠) كان عبد الرحمن الغافقي تابعيا مشهورا بدمائة الخلق، وقبل أن يصبح حاكما رسميا على أسبانيا سبق له حكمها لمدة شهرين بعد مقتل السمع بن مالك عام ٧٢١ (١٠٢هـ). وقد أورد «الضبي» في كتابه «بغية الملتبس في تاريخ أهل الأندلس» ترجمته.

(٣١) عن «ميسرة»، انظر :

- Lévi - Provençal : Enc. Isl., III, pp. 163 - 4.

(٣٢) عن تمرد بربر شمال أفريقيا، انظر :

- Fournel : Les Berbers, I, Passim.

- Gautier : Les siècles obscurs du Magreb, págs. 260 sigs.

- G. Marcais : Hist. du Moyen Age de Glotz, III, pp. 341 - 3.

- Gabrieli : Il califfato di Hisham, pp. 92 - 103.

- Lévi - Provençal : Esp. Mus. X^e- siècle, pp. 10-14.

(٣٣) يمكن العثور في المصدر التالي على تفاصيل هذه الأحداث :

- Gabrieli : Il califfato di Hisham, pp. 114 - 7.

(٢٤) طبقا للمعلومات التي أوردها ابن حيان وضعنها ابن الخطيب كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة» (طبعة القاهرة، الجزء الأول، ص ١٨، ١٩)، ولا جاء في كتاب «دوزي» (Rech3., I, pp. 79-80) وكتاب «سيمونيت» (Hist. de los Mozárabes, p. III y 197-8)، فإن اتخاذ أبي الخطار لهذا القرار قد جاء بناء على نصيحة «أردابستو» (Ardabasto)، ابن غيطشة، الذي كان يدير - في ذلك الوقت - شئون الذميين في أسبانيا ويجمع منهم الجزية.

(٢٥) عن الصميل بن حاتم، انظر :

- Lévi - Provençal : Enc. Isl., IV, pp. 575 - 6.

(٢٦) لمعرفة المزيد عن هجرة البربر هذه، انظر :

- Lévi - Provençal : Esp. Mus. X^e- siècle, pp. 14.

(٢٧) جمع Lafuente Alcántara المصادر التي تتناول مباشرة الحملات الإسلامية في بلاد الغال في «الملحق» الذي أضافه لطبعة «أخبار مجموعة»، ومنها نذكر :

- M. Reinaud : Invasions des Sarrazins en France, et de France en Savoie, en Piémont et dans la Suisse, pendant les 8^e-, 9^e-, et 10^e- siècles de notre ère, Paris, 1836.

- A. Molinié y H. Zotenberg : Invasion des Sarrazins dans le Languedoc d' après les historiens musulmans, en Hist. génér. du languedoc de Devic y Vaissete, Toulouse, 1872, II, pp. 549 - 58.

- Codera : Limites probables de la conquista árabe en la cordillera pirenaica, en Est. Crit. hist. ár. esp. (VIII) ; pp. 235 - 76.

- Codera : Narbona, Gerona y Barcelona bajo la dominación musulmana, ibid, pp. 277 - 341.

- Codera : La dominación árabe en la Frontera superior y en la Galia meridional, años 711 a 815 (discurso de recepción en la R. Acad. de la Historia), ibid, pp. 97 - 188.

- H. Pirenne : Mahomet et Charlemagne, Paris, Bruxelles, 1937, pp. 1350-6, 184-5.

- J. Calmette : L'effondrement d'un empire et la naissance d'une Europe, Paris, 1941, pp. 114 - 6.

(٢٨) انظر «نفخ الطيب» للمقرئ، الجزء الأول، ص ١٧٣.

(٢٩) كان المسلمون يطلقون في العصور الوسطى مسمى «الأرض الكبيرة» على أوروبا. انظر، على سبيل المثال:

- Lévi - Provençal : La Peninsule ibérique, p. 34.

كما سنجد في الصفحتين ٢٢، ٢٣ من نفس المصدر فقرات شقيقة للجغرافى الأندلسى «البكرى» عن فرنسا (بلاد الإفرنجية).

(٤٠) انظر، على وجه الخصوص :

- Codera : Narbona, Gerona y Barcelona, op. cit., pp. 366 - 8.

وطبقا لابن عذارى فى كتابه «البيان ...»، الجزء الثالث (ص ٢٥ فى النص الأصيل، ص ٣٦ فى الترجمة) فإن السمع استشهد فى معركة مع المسيحيين عند «طرسونة» (Tarazona) جنوب «تطيلة» (Tudela) بإقليم «رغون» (Aragón).

(٤١) يمكن الاطلاع على حوليات «مويساك» (Crónica de Moissac) فى المراجع الثلاثة التالية:

- Monumenta germaniae histórica, Scriptores, T. I y II de la ed. Pertz ; Recueil historiens de Gaules et de la France, tomo V de la ed. Bouquet ; y en la Patrología latina de Migne, T. XCVIII.

(٤٢) كتب الكثيرون بعد «رينود» عن معركة «بواتيه»، وستقتصر فقط على الإشارة إلى الأعمال التى قامت بالدراسة المقارنة بين المصادر العربية واللاتينية، وهى :

- Codera : op. cit. (VIII), pp. 512 - 9.

- Gabrieli : Il Califfato di Hisham, pp. 108 - 11.

- Lecointre : La bataille de Poitiers, en Bulletin Soc. Antiquaires de l'ouest, 1924.

كما نشير إلى مصدر آخر حديث، لكنه غير ذات قيمة كبيرة، وهو :

- M. Mercier y A. Séguin : La bataille de Poitiers (optiques interne et externe de l'Europe), en Revue Africaine, T. LXXXVII, 1943, pp. 33 - 92.

(٤٣) يشير كل من Conde ; Reinaud ; Dozy y de Juergain (La Vasconie, Paris, 1898-

إلى صدق الحكاية التى تقول أن دوق «أكيتانيا» («يودو» أو «إودس») قد زوج ابنته «لامبيخيا» (1902) (LAMPEGIA) للزعيم البربرى «منوصة» (MUNUZA) المتمرد على حكم قرطبة؛ وأن حاكم قرطبة قضى على تمرده وقتله وأرسل زوجته (لامبيخيا) إلى خليفة المسلمين فى دمشق.

وفى مقابل هذا، حاول Codera فى كتابه : (Munuza y el duque Eddón, en Est. Crit. hist. : إظهار الطابع الأسطورى لتلك الحكاية، وساق دليلا - غير متوقع (pp. 140-169, ar. esp. (VII),

- مفاده أن إسم «منوصة» هذا ليس إلا تحريف لإسم علم جغرافى يمكن أن يكون المقصود به - طبقا لرأيه - مايسمى حاليا بـ «منريصة» (MUNUZA). ومن غير المناسب الانسياق وراء افتراضات

«كوديرا» حتى النهاية لأن اسم هذا الزعيم البربرى قد جاء ذكره فى كتاب ابن عذارى «البيان ...» (الجزء الثانى، ص ٢٧ فى الأصل، ص ٢٨ فى الترجمة) وفى كتاب المقرئ «نفخ الطيب» (الجزء الأول،

ص ١٤٥) بمناسبة المعركة التى واجه فيها حاكم أسبانيا (الهيثم بن عبيد الكنانى) عام ٧٢٩.

وفى كتاب (J. Calmette : L'effondrement d'un empire, pág. 114) لم ينكر المؤلف قيام

تحالف بين دوق أكيتانيا (يودو) وبين زعيم بربرى متمرد، لكنه أسماه «عثمان». ويضيف المؤلف قائلا أن

البلاط الفرنسى ألصق صفة الخيانة بدوق «أكيتانيا» لموافقته على زواج ابنته من الزعيم البربرى، وأن الأسطورة «حولت» لامبيخيا» إلى ضحية وألصقت بها العديد من النكبات والمحن، وأصبحت فيما بعد مادة ثرية ينهل منها الأدب شعرا ونثرا».

ولمعرفة المزيد عن شخصية الكونت «يودو» انظر المرجع التالى :

- J. F. Bladé : Eudes, duc d'Aquitaine, en Annales du Midi, 1892.

(٤٤) انظر :

- Annales del Pseudo-Fregedario (reproducido y traducido hace poco por J. Calmette y J. J. Gruber : Textes et documents d'histoire, II, Moyen âge, París, 1937, pp. 20-21).

- Codera : en Est. Crit. hist. ár. esp. (VIII), pp. 319-27.

- F. Lot : Les invasions barbares, pp. 79 - 80.

(٤٥) تُرجع مدونة «مويساك» (Crónica de Moissac, ed. Pertz, I, pág. 294) تاريخ استرداد «بيبينو البريبى» لأربونة لعام ٧٥٩م.

ومع هذا فعلينا تقديم هذا التاريخ لعام ٧٥١م أو ٧٥٢م إذا أخذنا فى الاعتبار الخبر الذى ذكره مؤرخ أندلسى (الرازى، دون شك) وأورده كل من «المسعودى» فى كتابه «مروج الذهب» (طبعة باريس، الجزء الأول، ص ٢٦٣ - ٢٦٤)، والمقرى فى «نفخ الطيب» (الجزء الثانى، ص ٦٧٢)، وعبد المنعم الحميرى فى «الروض المعطار» (Lévi-Provençal : La Péninsule Ibérique, pp. 16-17)؛ وهذا الخبر يرجع سقوط أربونة لعام ١٢٣هـ.

والتاريخ الهجرى المذكور يقربنا كثيرا من عام ٧٥٢م، وهو التاريخ الذى حددته حوليات «ميتر» (METZ) لاسترداد أربونة :

(T. I, p. 331, de la ed. Pertz de los Monumenta Germaniae historica, Script.).

(٤٦) إلى أن يصدر العمل الذى أعلن عنه العلامة الأسباني «سانتش ألبرنوس» (Sánchez Albornoz)، سيظل العمل التالى هو الأفضل فى التعريف بشخصية «پلايو» :

- Barrau - Dihigo : Royaume asturien, pp. 114 - 36 y 308 -20.

فقد أورد هذا العمل كل النصوص - العربية واللاتينية - المتصلة بتمرد «پلايو»، كما درس كل الافتراضات التى تناولت هذه الحركة.

ويمكن أيضا الاطلاع فى هذا الشأن على مايلى :

- Saavedra : Pelayo, Madrid, 1900.

- Z. García Villada : Covadonga en la tradición y en la leyenda, Madrid, 1922.

(٤٧) انظر «نفخ الطيب» للمقرى، الجزء الثانى، ص ٩، ١٠.

- Barrau - Dihigo : Royaume asturien, p. 136.

ويمكن معرفة المزيد عن فترة حكم ألفونسو الأول من المصدر التالي :

- Dozy : Rech3., I, pags. 116 sigs.

(٤٩) شرحنا في مكان آخر ما يقصده مسلمى أسبانيا بتعبير «ألبة والقلاع» (Alava y los Castillos). أما بالنسبة لمسمى «بوريبا» (Bureba) فيقول ر. مينندث بيدال (R. Menéndez Pidal) في كتابه : (La leyenda de los infantes de lara, p. 177) «إقليم كبير يبدأ من جبل «أونيا» (OÑA) وينتهي بعد منتصف مجرى نهر «أوكا» (OCA)؛ ويقع هذا الإقليم فيما يسمى حاليا بمحافظة «برغش» «Burgos».

(٥٠) طبقا لمصدر عربي اعتمد عليه ابن خلدون («العبر»، الجزء الرابع، ص ١٢٢)، وأورده «المقرئ» كذلك في «نفخ الطيب» (الجزء الأول، ص ٢٢٣) فإن فرويلا الأول (Frúela I) - وليس والده ألفونسو الأول - هو الذي أستولى على كل هذه الثغور.

(٥١) انظر :

- W. Marçais : Le passé de l'Algérie musulmane, en Histoire et historiens de l'Algérie, Paris, 1931, pp. 141 - 2.

(٥٢) العرض المجمل التالي نجده بتوسع في المصدر التالي :

- Lévi - Provençal : Esp. mus. X^e- siècle, cap. I, pp. 18 - 39.

أما بالنسبة لدخول سكان شبه الجزيرة الإسلام خلال سنوات الفتح الدولي، فلا يزال المصدر التالي هو العمدة في هذه المسألة :

- T. W. Arnold : The preaching of Islam : a history of the propagation of the muslim faith, 3a- ed., Londres, 1935, pp. 130-44.

(٥٣) عن أفريقيا ومنطقتها وحدودها، انظر :

- R. Brunschvig : La Berbérie orientale sous les Hafsides, I, p. I.

وعن مفهوم Hispania في أسبانيا المسيحية خلال العصور الوسطى، انظر :

- R. Menéndez Pidal : España del Cid, pp. 72 - 3.

(٥٤) عن اشتقاق كلمة Ishbaniya، انظر :

- Lévi - Provençal : La Péninsule ibérique, pp. 4, 8-9.

(٥٥) انظر :

- Lévi - Provençal : Esp. mus. X^e- siècle, p. 5, y nota I.

(٥٦) انظر :

- I. de Las Cagigas : Al - Andalus (unos datos y una pregunta), en Al-Andalus, IV, 1936, pp. 205 sigs.

٥٧) انظر، على وجه الخصوص، المقال التالي :

- "Ahl al-Kitab" de I. Goldziher, en la Enc. Isl., I, pp. 188-9.

٥٨) انظر : Lévi - Provençal : Esp. mus. X^e- siècle, pp. 32-33.

نعتقد أن تحول الأسباب للإسلام قد استمر - برغم إيقاعه السريع - لبضعة عقود بعد الفتح.

٥٩) - Levi - Provençal : Esp. mus. X^e- siècle, cap. I, pp. 18-19.

- G. Cirot : Index onomastique et géographique de la "Chronique léonaise", en Bull. Hisp., XXXVI, 1934, p. 417, sub Mollitis.

٦٠) انظر المرجعين التاليين لمعرفة المزيد عن هذا الاصطلاح (المستعربون) :

- Simonet : Hist. de los Mozárabes, pp. XI-XIII.

- R. Menendez Pidal : Orígenes del español, 2a- ed., Madrid, 1929, p. 434, nota I.

٦١) إذا أخذنا في الاعتبار ما جاء في (Vocabulista in arabico),

(ed. de Schiaparelli, Florenca, 1871, pp. 190 y 613, S, V Tributarius)

فإن علينا أن نقرأ المعاهدين (بكسر الهاء - إسم الفاعل) بدلا من قراءتها بفتح الهاء (كإسم مفعول). والمعنى يختلف في الحالتين : ففي الحالة الأولى (أى بكسر الهاء) يكون المراد «من أبرم اتفاقا يخول له عددا من الحقوق وعددا آخر من الواجبات»؛ أما المعاهد (بفتح الهاء) فيعني : «المقيد بعهد أو اتفاق».

٦٢) انظر :

- Lévi - Provençal : Esp. mus. X^e- siècle, pp. 211-2.

- N. Ocaña Jiménez : La Basílica de San Vicente y la gran Mezquita de Córdoba, en Al-Andalus, VII, 1942, pp. 347 sigs.

٦٣) عن يهود أسبانيا القوطية، انظر :

- J. Juster: La condition légale des Juifs sous les rois visigoths, en Études d'histoires juridique offertes á P. F. Girard, vol. II, París, 1913, pp. 273 - 335.

- J. M. Millás Vallicrosa : La poesía sagrada hebraicoespañola, Madrid, 1940, pp. 20-2.

- M. Torres : en esta Historia, III, pp. 179 - 84.

٦٤) عن عرب أسبانيا «الداخلين»، انظر :

- Lévi - Provençal : Esp. mus. X^e- siècle, pp. 18 sigs.

- M. Gaudifroy - Demombynes : Le monde byzantine et musulman jusqu' aux Croisades, p. 149.

٦٥) انظر المرجع السابق لـ (M. Gaudifroy)، ص ٣١.

٦٦) لمزيد من التفاصيل، راجع :

- Lévi - Provençal : Op. Cit., pp. 23 - 28.

والبحث التالي يتناول أماكن إقامة البربر في أسبانيا، ويبين الأعلام الجغرافية الحالية (سواء الأسبانية أو البرتغالية) المشتقة من أسماء القبائل البربرية :

- C. E. Dubler : Über Berbersiedlungen auf der Iberischen Halbinsel, en Sach. Ort und Wort, Festchrift Jakob Jud, Romanica Helvetica, Band, 20 (1943), pp. 183-96.

كما يوجد تعليق على البحث السابق قام به (J. Oliver Asín) ونشر في مجلة «الأندلس» (VIII, 1943, PP. 262-7.)

٦٧) سنعرف فيما بعد، أن مجموعات من المرتزقة البربر كانت تفد باستمرار - منذ عهد عبد الرحمن الأول - للخدمة في الميشتليات الأموية. وهؤلاء البربر المرتزقة كانوا مجلوبين إما من شمال المغرب، أو (بالرغم من الافتقار إلى برهان قاطع يثبت هذا) من مناطق نفوذ الأئمة الرستميين في «تاهارت» (TAHART).

٦٨) لم يسجل التاريخ تجدد الصراع العنصري القديم بين البربر على أرض أسبانيا إلا في عهد الأمير «عبد الله». ففي عهد هذا الأمير اندلع الصراع بين البربر «البتر» (Butr) وبين البربر «البرانس» (Baranis).

[راجع الفصل الرابع من هذا الكتاب].

الفصل الثانى

تأسيس إمارة قرطبة الأموية وأمرؤها الأول

(٧٥٦ - ٨٢٢ م)

عناوين الفصل الثانى :

١- رحلة عبد الرحمن بن معاوية فى الشرق وشمال أفريقيا، وتنصيبه حاكما على أسبانيا :

سقوط الخلافة الأموية ومطاردة الأمويين فى المشرق - مع عبد الرحمن فى رحلته من المشرق لأسبانيا (٧٥٠ - ٧٥٥ م) - عبد الرحمن فى أسبانيا قبل توليه أمرها (٧٥٥ - ٧٥٦ م).

٢- عهد عبد الرحمن الأول، وتأسيس الإمارة الأموية (٧٥٦ - ٧٨٨ م) :

سياسة الاستمالة والصعوبات الأولى - الصراع مع متمردي الأندلس - العلاقات بين إمارة قرطبة ومملكة أشتوريش فى عهد عبد الرحمن الأول - حملات شرلمان على أسبانيا، دواعيها ونتائجها - إرساء عبد الرحمن لأسس الدولة القرطبية.

٣- هشام الأول، الحكم الأول (٧٨٨ - ٨٢٢ م) وتثبيت دعائم الحكم الأموى فى الأندلس:

الجهاد ضد أشتوريش والفرنجة خلال عهد هشام الأول - المذهب المالكي فى أسبانيا - الحكم الأول وقمع حركات التمرد فى الثغور الحدودية - ثورات قرطبة - الصراع مع أشتوريش فى عهد الحكم الأول - الهجمات الفرنجية على برشلونة وطرطوشة - شخصية الحكم الأول وأعماله.

– رحلة عبد الرحمن بن معاوية الطويلة والمدهشة في الشرق

وشمال أفريقيا، وتنصيبه حاكما على أسبانيا (٧٥٠-٧٥٦)^(١)

سقوط الخلافة الأموية ومطاردة الأمويين في الشرق :

كان للأحداث التي جرت في الشرق في منتصف القرن الثامن أثرها في زيادة
هذه الروابط التبعية التي تربط الأندلس بخلافة دمشق العربية.

لا يخصصنا هنا سرد تفاصيل النكبات التي أدت إلى الضعف المتنامي لسلطة
الأمويين في دمشق وإلى سقوطها الذريع وقيام الخلافة العباسية على أنقاضها؛ ومن
ثم سنكتفي بالتذكير بالمراحل الحاسمة لهذا الضعف مع الاحالة إلى الدراسات
المتخصصة في رصد تلك الفترة التي تعتبر بمثابة التحول الأساسي في دفة سير
تاريخ الامبراطورية العربية^(٢).

أشرنا من قبل إلى أن «حركة الخوارج» التي ظهرت في القرن السابع سرعان
ما تحولت من مجرد حملة تشهير بالأمويين في الشرق إلى تمرد نشيط ضدهم. ومن
جهة ثانية، فإن الشيعة لم يسرها استشهاد صهر الرسول على بن أبي طالب، وبعد
مقتل الحسين في كربلاء عام ٦٨٠ م (٦١ هـ) أعلنت مواجعتها السافرة لدمشق وساندت
– بعد قليل – عبد الله بن الزبير في ثورته على الخلافة الأموية.

وبهذا الشكل دخلت الإسلام الفرقة التي تهدد وحدة عالمه، وأصبح المشايخ
لعل بن أبي طالب على استعداد للانضمام بون قيد أو شرط لأي حركة عصيان تندلع
في أي ركن من أركان العالم الإسلامي.

كان أمر مواجعة الخوارج والشيعة في آن واحد والتصدي للحركات الانفصالية
المحلية وللشعوبية الفارسية يتطلب خلفاء أقوياء نشطين وعلى وعى تام بحجم المخاطر
التي تحدد بسلالتهم الحاكمة. توافرت هذه الصفات في مروان الأول (٦٨٤ – ٦٨٥ م)
وابنه عبد الملك (٦٨٥ – ٧٠٥ م) وحفيده الوليد (٧٠٥ – ٧١٥ م)، لكن الخلفاء الذين أتوا
بعدهم لم يظهروا قدرتهم على التصدي لتلك المهمة الثقيلة. فمعظم هؤلاء كان شغله
الشاغل إشباع رغبتهم في التمتع بالملذات وتكديس الأموال التي لجأوا في جمعها
لسياسة ضرائبية ظالمة أدت في النهاية إلى إنحسار شعبيتهم وكراهية الناس لهم. ولم
يرد هؤلاء الخلفاء – أو لم يستطيعوا – تضيق الهوة التي تفصل بينهم وبين رعاياهم
وتزداد يوما بعد آخر.

كان غالبية الرعايا من المسلمين الجدد الغرباء على الجنس العربى، وضايقتهم حذقة أمرائهم المموجة فى دين دخلوه بإرادتهم. كما أخذوا عليهم احتكارهم للخلافة، وإيثارهم غير المحدود للعرب دون مراعاة للشعوب الأخرى. ومن الغريب أن هذا الإيثار الذى ضاق به المسلمون الجدد لم يعجب العرب أنفسهم عندما كان يخص به إحدى العشيرتين المتصارعتين (القيسية والكلبية) دون العشيرة الأخرى، ولم يدر بخلد خلفاء بنى أمية انتهاج سياسة منصفة ومتوازنة بينهما.

وفى ظل هذه الأوضاع، لم يكد ينتصف القرن الثامن حتى وصل غليان النفوس إلى أقصى مداه ودانت قطوفه. فها هى نيران التمرد التى اندلعت هنا وهناك فى معظم أرجاء الامبراطورية العربية تقريبا تمسك بتلابيب سورية ذاتها. وبعد المدة القصيرة لحكم الوليد الثانى (الذى اغتيل فى ٧٤٤م - ١٢٦هـ) نشبت حرب ضروس فى كل المحافظات السورية. وتفاقمت الأوضاع فى العهد الأشد قصرا ليزيد الثالث. وبعد قليل استطاع مروان الثانى (آخر خلفاء بنى أمية فى الشرق) أن يسترد دمشق ويتوج فيها. لكن قدره كان ينتظره بمهمة جسيمة تفوق طاقة البشر : استرداد سورية أولا، وجنوب العراق بخوارجه الغلاة، ومحاولة التصدى للانقلاب المسلح الشامل الذى دبرته الشيعة فى خراسان وباقى المحافظات الواقعة على الجانب الآخر لنهر دجلة. وسرعان ما أحس مروان الثانى بعجزه التام. فقد انتفضت خراسان بكاملها تلبية لدعوة أبى مسلم (الخراسانى) وتساقطت على الغرب جيوش ضخمة مدربة شاكية السلاح فى انتظار قدوم «الإمام الغائب» الذى سيعيد للإسلام - طبقا لقولهم - مجده ونقائه ويستأصل شأفة الأمويين البغضاء. وفى ٢ سبتمبر ٧٤٩ (١٤ محرم ١٢٢هـ) سقطت مدينة الكوفة العراقية فى أيدي المتمردين، وبعد أقل من ثلاثة أشهر كشف أبو العباس عبد الله (حفيد عبد الله بن العباس) عن شخصيته بصفته الإمام المنتظر، وتمت مبايعته خليفة للمسلمين فى مسجد الكوفة الجامع. كان أبو العباس قد رفع من قبل الراية السوداء فى خراسان وجعلها شعارا لدعوته، وبعد مبايعته بالخلافة بادر بإعلان برنامجه من على المنبر وكل مافيه من بنود يجعله أهلا للقب «السفاح» الذى ألصق به.

لم يضع أبو العباس الوقت وسار بجيوش الشيعة إلى سورية. حاول مروان الثانى - دون جدوى - وقف تقدمه عند تخوم العراق الصحراوية، لكن الخليفة الأموى تجرع كأس الهزيمة على ضفاف نهر «الزاب» (فى يناير ٧٥٠م - جمادى الثانى ١٣٢هـ) واضطر إلى الفرار والبحث عن مكان يختفى فيه. طاردته قوات الشيعة من

سورية إلى فلسطين ثم إلى مصر حيث ظفروا به عند قرية «بوصير» على مقربة من الجيزة (فى ٧ يوليو ٧٥٠م - ٢٧ ذو الحجة ١٣٢هـ) وقتلوه والسلاح فى يده.

ولم ينتظر الخليفة العباسى المنتصر الظفر بمروان الثانى لكى يعد العدة لاصطياد أمراء بنى أمية الباقين. فمن عُثر عليه منهم فى أى مكان قُتل فى الحال وتُرك فى العراء دون دفن.

ولكى يوقع دون عناء بأكبر عدد ممكن من أفراد أسرة آخر خلفاء بنى أمية أعلن الأمان الكاذب لهم، ولما التقطوا الطعام وتجمعوا فى دير الجماجم (بفلسطين) قتلهم جميعا. راح فى هذه المذبحة، التى جرت قبل عدة أسابيع من النهاية البشعة لمروان الثانى، اثنان وسبعون أو ثمانون رجلا من البيت الأموى.

لم تكتب النجاة من مذبحة دير الجماجم إلا لعبد الرحمن بن معاوية وأخيه يحيى (حفيدى الخليفة هشام بن عبد الملك) لأنهما كانا أكثر حذرا من الآخرين وساورهما الشك فى أمر الأمان المزعوم ولم يحضرا إلى مكان المجزرة. وعبد الرحمن هذا هو الذى سيؤسس الحكم الأموى فى أسبانيا، وستابع فى العنوان التالى رحلته المثيرة من الشرق حتى نزوله بأرض شبه جزيرة أيبيريا.

مع عبد الرحمن فى رحلته من المشرق حتى أسبانيا (٧٥٠ - ٧٧٥م) :

ولد عبد الرحمن بن معاوية فى قصر بإحدى ضواحي دمشق^(٣) عام ٧٣١م (١١٣هـ)، ولم يكن قد أتم العشرين ربيعا عندما اندلعت هذه الأحداث. كانت أمه أسيرة بربرية من قبيلة «نفزة» المغربية؛ وهذا يفسر لحد ما سر توجهه القريب إلى الغرب الإسلامى.

اختبأ عبد الرحمن وأخوه يحيى بعد مذبحة دير الجماجم، لكن يحيى قتل واستطاع عبد الرحمن الفرار بأخوته^(٤) وأخ صغير وابنه سليمان (ذو الأربع سنوات) إلى قرية منعزلة على شاطئ نهر الفرات على أمل الهجرة إلى آسيا، لكن جنود العباسيين اكتشفوهم من جديد، ومرة أخرى حالف الحظ عبد الرحمن فى الفرار بعد أن عبر الفرات سباحة تاركا بين أمواجه أخاه الصغير الذى أدركته سهام العباسيين.

ومنذ هذه اللحظة يبدأ تدخل المولى «بدر» الذى ربط مصيره بمصير سيده الشاب وتفانى بلا حدود فى خدمته. وفى هذا المقام تجدر الإشارة إلى أنه بجوار كل

مؤسسى الممالك فى المغرب الإسلامى يظهر دائما «خادم أمين يدير الأحداث ويعين المغامرين والأمراء المخلوعين فى بحثهم عن مملكة أو إمارة»^(٥).

وسنشهد بعد ثلاثين سنة أمرا مشابها عندما تفانى المولى «رشيد» فى خدمة سيده «إدريس الأول» وأعانه بنجاح فى تحقيق طموحاته بتكوين إمارة بالمغرب. حمل «بدر» بعضا من ثروة الهارب (أحجار كريمة وأموال) والتقى معه فى فلسطين وبصحبته مولى آخر يدعى «سليم»، لكن الأخير ترك عبد الرحمن بعد ذلك وعاد إلى سورية.

ومن فلسطين حث الثلاثة رواحهم فى الطريق المتجه إلى أفريقيا عبر برزخ السويس، ووصلوا إلى غايتهم دون صعوبة تذكر. كانت تلك المنطقة - فى ذلك الحين - تابعة لسلطة عربى فهرى داعبه الأمل ذات يوم فى تولى حكم أسبانيا، ولما أخفق فى تحقيق حلمه عوضه القدر بحكم شمال أفريقيا : ونعنى به عبد الرحمن بن حبيب^(٦)، قريب يوسف الفهرى والى الأندلس. وكان قد وصل إلى أفريقيا قبل عبد الرحمن بن معاوية عدد آخر من الأمويين الذين استطاعوا الفرار أيضا من النقرة العباسية.

ولأن عبد الرحمن بن حبيب - بالرغم من إعلان عصيانه للعباسيين - كان يفكر فى الاستفادة من تغيير النظام وتحويل محافظته إلى إمارة مستقلة، فإن القلق أخذ يساوره مع وصول هؤلاء الفارين إلى أرضه.

وعندما عرف الشاب المروانى المنفى بنوايا والى أفريقيا السيئة تجاهه، فكر فى الابتعاد عنه والاستقرار فى الأراضى البربرية التى تنتسب إليها والدته لو وافقت تلك القبائل على إجارته.

أمضى عبد الرحمن أربع سنوات كاملة فى تلك التنقلات، عاش فيها عيشة بائسة وغير آمنة. كانت هناك نبوءة^(٧) تفيد بوصول الأمير الشاب يوما ما إلى العرش. وبالرغم من معرفة عبد الرحمن بفحوى هذه النبوءة إلا أنه بدأ ييأس من تحقيقها، لكن مولاه «بدر» كان يبت فيه دائما روح الأمل ويستحثه على الصبر فى انتظار الأيام الواعدة.

يختلف المؤرخون العرب فى تحديد الأقاليم التى نزل بها عبد الرحمن فى رحلته الطويلة المضنية بشمال أفريقيا. يقول البعض أنه استقر فترة طويلة فى برقة (ليبيا، حاليا)، ثم غادرها ويحث عن ملجأ آخر فى أفريقيا الوسطى حيث عاش لبعض الوقت فى «تاهرت» (TAHART) [أو - على الأرجح - بقرية فى هذا الإقليم لأن مدينة

«تاهرت» كانت مجرد أطلال خلال تلك الفترة ولم تشيد من جديد إلا عام ٧٧٧ - ٧٧٨م (١٦١هـ) على يد المولى الفارسي «عبد الرحمن بن رستم» الذي جعلها عاصمة لمملكة صغيرة للخوارج.

على أية حال، فقد كان حلول الأمير الأموي الشاب الباحث عن المغامرة بأى أرض يثير بسرعة قلق وشكوك مضيقيه. ولهذا السبب قام عبد الرحمن بالتوغل ناحية الغرب حيث لجأ لقبيلة «مكناسة» - المستقرة فى المنطقة الواقعة بين «ملوية» (MULUYA) والمصب الشرقى لمر «تازا» (TAZA) -؛ وبعد ذلك حملته أقدار حياته الهائلة للساحل المغربى على البحر المتوسط، بالقرب من مدينة ساحلية صغيرة تسمى «نكور» (NAKUR) للعيش فى قبيلة «نفزة» التى تنتسب إليها أمه.

ليس لدينا أى دليل على أن عبد الرحمن فكر فى الانتقال إلى أسبانيا قبل استقراره بين أهالى «نفزة». وعلى خلاف هذا، فمن المحتمل أنه كان يفضل تجربة حظه فى المغرب ذاته لو أعانتة الظروف على تحقيق هذه التجربة؛ لكن تأخر الحظ فى الابتسام له وإحساسه بعدم جدوى الحيل والجهود التى سيقوم بها جعلاه يغض الطرف عن بلاد البربر التى يضيع فيها وقته، وعندها لم يجد مخرجاً سوى التفكير فى أسبانيا القريبة. وشجعه أيضاً على المضي قدماً فى فكرته تواجد عدد لا بأس به من موالى بنى أمية (حوالى خمسمائة من سلاح الفرسان السورى) على الجانب الآخر من مضيق جبل طارق. وهؤلاء «الجند» كانوا ضمن القوات السورية التى حوصرت فى سبتة وعبرت المضيق تحت قيادة بلج القشيري لمساعدة حاكم أسبانيا فى إخماد ثورة البربر، ثم وزّعوا بعد ذلك على إقطاعيات أو كُور عسكرية. ولأن هؤلاء الخمسمائة كانوا مجندين أساساً من مدينتى دمشق وقنسرين فقد نزلوا جميعاً فى كورة «جيان»، و«البيرة».

ومن البديهي أن يتجه عبد الرحمن إلى تلك الأرض المهددة التى يمثلها هؤلاء «الجند» لكى يستطلع رأى فى مشروعه، ولم ينس، فى ذات الوقت، إغراءهم بالمكافآت السخية والمناصب الرفيعة لو مكنوه من تولى أمر الأندلس.

وبالطبع كان «بدر» هو المكلف بجس نبض هؤلاء الموالى وإبلاغهم رسالة سيده. ومن أجل هذه المهمة عبر المضيق فى يونيو ٧٥٤م (١٣٦هـ) واتصل على الفور برؤساء جند دمشق الموالين لبنى أمية.

استمع عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد لعرض بدر باهتمام بالغ، وقررا إحاطة زعيم جند قنسرين (يوسف بن بخت) بالأمر. أعرب ثلاثتهم لبدر - من منطلق

وعينهم التام بما يقتضيه واجب الموالاة للأمير المنفى - عن رغبتهم في تنفيذ طلبه؛ لكنهم رأوا - قبل الإقدام على تمهيد الطريق لعبد الرحمن ودعوته للانضمام إليهم - ضرورة استشارة الزعيم القيسي والسياسي الداهية «الصميل بن حاتم» الذي يدين بالكثير أيضا لبنى أمية. في ذلك الوقت كان الصميل حاكما على سرقسطة وكانت مدينته محاصرة بقوات العرب الكلبيين وبربر شمال غرب أسبانيا. ولهذا السبب انخرط وفد من الموالى الأمويين ومعهم بدر في صفوف الجيش القيسى الذي خف لنجدة حاكم سرقسطة؛ فقد أرادوا أن يساعدوا في فك الحصار وتحين الفرصة لإبلاغ الصميل بتواجد عبد الرحمن في المغرب، ومعرفة رأيه في إمكانيات نجاح الأمير الشاب على أرض أسبانيا.

بعد فك الحصار عن سرقسطة، استقبل الصميل الموالى الأمويين بحفاوة بالغة، لكنه لم يعطهم جوابا شافيا. [كان الصميل، بالفعل، لغزا محيرا، ويحتاج الناس لعدة أشهر ليقفوا على حقيقة ما يدور برأسه]. سافر الصميل إلى قرطبة ليعود بعد قليل إلى سرقسطة بصحبة حاكم أسبانيا يوسف الفهرى؛ لقد جاء سويا بنية القضاء نهائيا على هؤلاء المتمردين الذين كانوا قاب قوسين أو أدنى من الاستيلاء على عاصمة إقليم نهر «إبرة» لولا تدخل القيسيين في الوقت المناسب.

وفي الطريق - من قرطبة إلى طليطلة - اجتمع زعماء الموالى الأمويين مع الصميل للمرة الثانية وطلبوا رأيه، فأجابهم بما سرهم وفاق توقعاتهم؛ لكنه بعد أن خلا إلى نفسه أدرك أنه لو تم الأمر لعبد الرحمن فإنه سيستأثر بالسلطة وحده وفي ذلك وبال عليه وعلى غيره من رؤساء القبائل العربية، فاستدعى زعماء الموالى وسحب وعده لهم بطريقة جعلتهم يرتجفون رعبا^(٨). ومنذ هذه اللحظة لم يبق أمام الموالى الأمويين سوى حل من اثنين : إما إقناع عبد الرحمن بالعدول عن فكرة تأسيس مملكته بأسبانيا، أو محاولة التحالف مع العشيرة اليمنية المناهضة للقيسيين. وفي نهاية المطاف اختاروا الحل الثانى.

ولما كانت نفوس اليمنيين مضطربة بالحقد والمرارة والمهانة منذ هزيمتهم في «شقندة» فقد تلقفوا بحماس دعوة الموالى الأمويين الذين قاموا على الفور - منتهزين فرصة ابتعاد يوسف الفهرى والصميل في حملتهما بأراضى «رغون» - بشراء سفينة وتجهيزها بطاقم مكون من اثني عشر رجلا على رأسهم «تمام بن علقمة الثقفى»^(٩) ومعهم الوفى «بدر»، وشقت السفينة عباب البحر في طريقها إلى المغرب لإحضار «العريس». كان مع العابرين خمسمائة دينار : خصص جزء منها للأمير بقصد انتشاله

كاملين. ولما طال الحصار هبطت روح قوات العلاء المعنوية وانخزل عنه كثير من أنصاره فوجد عبد الرحمن الفرصة سانحة وانقض عليهم في شجاعة منقطعة النظير فمزقهم شر ممزق، وقُتل العلاء وكبار قاداته وقُطعت رؤوسهم في ميدان المعركة ثم حُمِلت إلى قرطبة لحفظها بالمستحضرات الطيبة، وبعد ذلك لفت رأس العلاء في اللواء العباسي ومعها شهادة بتنصيبه حاكما وسجلٌ دونت فيه وقائع المعركة ووضعت في سبط إلى جوار الرؤوس الأخرى، وكلف أحد التجار الذهابين إلى القيروان بحمله؛ وفي جنح الظلام ترك التاجر حمولته البغيضة في سوق عاصمة أفريقيا.

ولنا أن نتخيل الأثر الذي أحدثه اكتشاف السُّفَط المعبأ بالرؤوس المجذوزة. عندما وصل الخبر للخليفة المنصور اشتد غيظه وقال في تعجب ملئ بالحسرة: «الحمد لله الذي جعل بيننا وبين هذا الشيطان [يقصد عبد الرحمن] بحرا!».

وفي ٧٦٦م (١٤٩هـ) انفجر تمرد آخر لليمنيين «لم يشارك فيه العباسيون مباشرة» في إقليم «لبلة» (NIEBLA) تحت قيادة «سعيد اليحصبي» الذي سار إلى إشبيلية واستولى عليها قسرا ثم نزل بقلعة «وادي أيرة» (GUADAIIRA) وتحصن بها. حاصره عبد الرحمن حصارا شديدا فاضطر إلى الخروج في جماعة من أنصاره وعندها لقي مصرعه وقطعت رأسه؛ وبعد قتال شرس استسلمت قواته.

وفي نفس العام (١٤٩هـ) عاود اليمنيون الكرّة تحت قيادة «أبي الصباح بن يحيى اليحصبي» وحاولوا التخلص من ربقة الحاكم الأموي. لجأ عبد الرحمن إلى الحيلة معه: دعاه إلى قرطبة فلبى النداء، وكانت النتيجة ضرب عنقه في حضرة الأمير.

وبمجرد أن سنحت الفرصة – لانشغال عبد الرحمن بإخماد ثورة أشعلها زعيم بربري يدعى «شقيا بن عبد الواحد المكناسي»، وسنتحدث عنها فيما بعد – اندلع تمرد يمني آخر بقيادة كل من عبد الغفار (ابن عم أبي الصباح بن يحيى اليحصبي) و«حيوة بن ملامس» اللذين جمعا جيشا من سكان إشبيلية وحاولا الاستيلاء على قرطبة. عاد عبد الرحمن بسرعة لملاقاة هذا الجيش واستطاع ابن عمه (عبد الملك بن عمر) تشتيته ثم تعقب الزعيمين اليمنيين حتى جنوب «جبال الشّارات» (SIERRA MORENA) وتمكن من قتلهمما والتكيل بأعوانهما عند «وادي قيس» (ما يسمى الآن بنهر «بمبيثار» (BEMBEZAR)(١٢) عام ٧٧٤م (١٥٧ أو ١٥٨هـ).

بعد أن تحدثنا عن حركات العصيان العربية ننتقل إلى أخطر وأطول تلك الحركات التي أدمت عهد عبد الرحمن الأول وهي ثورة البربر بقيادة «شقيا بن عبد

خرج وفد من العاصمة قرطبة متجها إلى «طرش» ليخبر عبد الرحمن أن يوسف يثني كثيرا على أصوله الشامخة وأن غاية رجائه أن تستقر المودعة بينهما شريطة تخليه عن أى نشاط سياسى وألا ينازعه الإمارة، وأنه يعرض عليه القدوم إلى قرطبة لكى يزوجه ابنته^(١٠). لكن محاولة الصلح فشلت، واندلعت الحرب بين الفريقين فى نهاية شتاء ٧٥٦م (١٢٨هـ).

شرع عبد الرحمن بمساعدة «عبيد الله بن عثمان» فى تجنيد عساكر جدد؛ ولم يعجز فى هذا نتيجة لهرولة اليمنيين وبربر الأندلس لتلبية طلبه. ومن جهة أخرى، أمدّه الجندى القيسى «تمام بن علقمة» بأفراد من عشيرته. ولوقع «طرش» المتطرف انتقل عبد الرحمن إلى الغرب : دخل أولا منطقة «رّية» فانضم إليه جند الأردن وعندما وصل إلى عاصمتها «أرشدونة» نصبه أهلها أميرا على الأندلس. ومن «أرشدونة» اتجه عبد الرحمن إلى مقاطعة شذونة (SIDONA) -كورة جند فلسطين- ثم دخل إشبيلية فى مارس ٧٥٦ (شوال ١٢٨هـ) بصحبة زعماء الإقليم اليمنيين، وفيها بايعه أهل الغرب كله. بعد أن وصلت الأمور إلى هذا الحد، أيقن يوسف الفهرى من اقتراب ساعة العمل الجاد، ولم يطل التفكير بل جمع جيشه على عجل وخرج به من قرطبة قاصدا إشبيلية، وسار بحذاء الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير. عندما علم عبد الرحمن تحرك فى الاتجاه المضاد، وسار بحذاء الضفة اليسرى لنفس النهر قاصدا قرطبة. ولم يمض وقت طويل حتى أصبح كل جيش فى مواجهة الآخر لايفصل بينهما سوى مجرى النهر. ولما فطن يوسف لناورة عبد الرحمن أمر جيشه بتغيير المسار والعودة إلى قرطبة، فأصبح الجيشان كفرسى رهان والنهر بينهما. وعلى مقربة من العاصمة وفى موضع يقال له «المصاراة» (AL-MUSARA) توازى الجيشان. لجأ عبد الرحمن إلى الخديعة للإيقاع بخصمه : أرسل وفدا ليوسف الفهرى ليخبره بموافقته على شروط الصلح، وانتهاز فرصة حلول الليل لينقل قواته إلى الشاطئ الذى يعسكر فيه جيش يوسف. وفى صباح اليوم التالى (١٥ مايو ٧٥٦م - ١٠ نو الحجة ١٢٨هـ) اشتبك الفريقان، وكانت الغلبة لعبد الرحمن وفيالقه اليمنية. فقد يوسف فى المعركة أحد أبنائه، وكذلك الصميل، واضطر الاثنان إلى الهرب.

وبهذا الشكل انتقم اليمنيون لهزيمة «شقندة» بموقعة «المصاراة» (أو «مرج راهط» الجديدة) واستولوا على غنائم وأسلاب كثيرة، ودخل عبد الرحمن قرطبة، ومن قصر الحاكم المهزوم أعلن حمايته لحريمه وأصدر قرارا بوقف عمليات نهب المدينة. اشتاط اليمنيون غضبا لمنعهم من العبث بالمدينة والاستيلاء على خيراتها وبيتوا بليل أمر التخلص من الأمير الجديد. وبمجرد أن علم عبد الرحمن بنواياهم اتخذ التدابير الحاسمة التى توقف أية محاولة للعصيان أو التمرد بين جنوده. وبعدها عاهده سكان

قرطبة على الطاعة وبويع أميرا على الأندلس فى المسجد الجامع لقرطبة ولم يكن قد أتم الستة والعشرين ربيعا .

٢- عهد عبد الرحمن الأول، وتأسيس الإمارة الأموية (٧٥٦ - ٧٨٨م) سياسة الاستمالة والصعوبات الأولى:

نعتقد أن المدة التى قضها عبد الرحمن فى الحكم (ثلث قرن تقريبا) كانت كافية ليقدم فيها كل ماعنده من إمكانيات ومواهب.

ونريد أن نلفت النظر بداية إلى أننا لن نستعرض فيما يلى أحداث الإمارة الأندلسية الجديدة أو أنشطة أميرها حسب تسلسلها التاريخى (مثلا فعلنا حتى الآن) لأنها متداخلة ومن الصعب ترتيبها: فهناك السياسة الخارجية والداخلية، والتنظيم المركزى، والثورات المستمرة، والمؤامرات المسيحية والفرنجية ... إلخ.

ويمكن القول بأن تاريخ الإمارة الأموية فى الأندلس - وخاصة فى بدايته - لا يختلف كثيرا عن تاريخ الدول الإسلامية الأخرى أو الدول المسيحية فى العصر الوسيط. فالحاجة الملحة لمواجهة الأحداث غير المتوقعة وضرورة المبادرة بتحديد أثرها كثيرا ماكانت تعطل مشاريع الأمير وتعوق انتهاجه لسياسة مستمرة متماسكة.

بمجرد أن استولى عبد الرحمن على عرش إمارة قرطبة كان عليه القيام على وجه السرعة بما يلى : ترسيخ المكاسب التى حصل عليها؛ ثم القضاء نهائيا على مقاومة يوسف والصميل اللذين لم يفقدا الأمل فى استرجاع ماضى برغم هزيمة «المصاراة»؛ وأخيرا، محاولة وضع نهاية للصراعات الداخلية التى خربت الأندلس حتى تاريخه.

عمل أولا على تنظيم الجيش المهلهل الذى حمله إلى النصر بطرد العناصر المشكوك فيها، واختيار الجنود - من مرتزقة وغيرهم - الموثوق فيهم حتى يمكن الاعتماد عليهم، وشغل القيادات العسكرية والمناصب المدنية برجال أكفاء يدينون له بالولاء. ولما كان هذا النوع من الرجال يندر وجوده فى أسبانيا فقد اتجه عبد الرحمن - بالرغم مما قد يجره عليه هذا التصرف من مخاطر فى المستقبل - بفتح أبواب شبه الجزيرة على مصراعيها للأمويين الذين هربوا من مطاردة السفاح وللموالى المروانيين. وكان لزاما عليه أيضا استرضاء المهزومين فى «المصاراة» قبل الاضطرار إلى استخدام القوة معهم؛ أو بمعنى آخر: انتهاج - ولو على سبيل التجربة - سياسة المصالحة

والاستمالة لكي يقر في روع الأندلسيين، على اختلاف مشاربهم، أن الأمير الجديد هو رمز للرباط الروحي الذي يؤلف بينهم، وأن حضرتة تكفي في حد ذاتها لفض الخصومات الحزبية وإحلال السلام.

أكان هذا برنامجا مثاليا حالما ؟ لقد كان - على أية حال - جديرا بالتجربة. أتت سياسة الجذب والاستمالة أولى ثمارها المتمثلة في موجات الهجرة المتتالية لأسبانيا. لقد ذاعت أنباء انتصارات عبد الرحمن الأول في شمال أفريقيا والشرق، وعلى إثرها عجل الكثيرون من أفراد عائلته بعبور المضيق إلى شبه الجزيرة (أورد بعض المؤرخين أسماءهم بالكامل)، كما سيظل يفعل أمثالهم طوال فترة حكمه. استقبلهم العاهل بأسمى آيات التشريف والحفاوة. تمتع الوافدون الجدد - الأرستقراطية القرطبية ذات الدماء الملكية التي يطلق عليها المؤرخون «النبالة القرشية» - بالحصانة وبالإعفاءات الضريبية ويحق الصدارة في الاحتفالات الرسمية، وخصص لمعظمهم راتبا شهريا كبيرا. ومن أجل التشجيع على نزوح الأمويين ومواليهم إلى الأندلس وصل الأمر بعبد الرحمن لإرسال لجنة إلى الشرق على رأسها القاضي «معاوية بن صالح الحضرمي»^(١١)، وكان من بين مهامها، التي لم يستطع القاضي إتمامها، إحضار أختي الأمير. فضلت الأختان البقاء في موطنهما (سورية) على الذهاب إلى ملك أخيهما العريض في أقصى غرب العالم الإسلامي لأنهما كانتا تنعمان بالثروات الطائلة وبالمعاملة الحسنة من جانب السلطات العباسية.

وبعد وقت قصير من تقلده أمور السلطة في قرطبة أدرك عبد الرحمن أن ثمرة سياسة المصالحة مرة المذاق، وأن ترك الحبل على الغارب للمتذمرين - من عرب وغيرهم - وللمغامرين الذين تغص بهم أسبانيا سيجر عليه عواقب وخيمة. ومع هذا، فمن المؤكد أنه كان يفضل عدم اللجوء إلى القوة مع يوسف الفهري والصميل إلا إذا دفعاه إليها.

لم يقف يوسف والصميل بعد هزيمتهما مكتوفي الأيدي، بل ذهب الأول إلى طليطلة لتكوين جيش، وانطلق الثاني إلى إقليم «جيان» على أمل تجميع أنصاره من القيسيين.

وبعد أن اجتمع الاثنان خططا لاجتذاب عبد الرحمن بجزء من قواتهما بينما ينطلق الجزء الثاني صوب قرطبة لىباغتها ويستولى عليها. كانت الخطة على وشك النجاح، ودانت العاصمة لبعض الوقت لأبي زيد (أحد أبناء يوسف الفهري)، لكنه لم يجرؤ على البقاء بها عندما علم بارتداد أميرها إليها.

وبعد أن خلّص عبد الرحمن العاصمة عاد لمطاردة يوسف حتى وصل إلى غوطة غرناطة. وعندئذ أرسل إليه يوسف والصميل يدعوانه إلى قبول تسليمهما له بالأمر بشرط أن يعفو عنهما ويؤمنهما على أموالهما وممتلكاتهما. تعجل الأمير بالموافقة على الصلح واكتفى بأخذ ولدين من أبناء يوسف كرهينة؛ ثم رجع إلى قرطبة (عام ١٣٩ هـ) بصحبة الحاكم القديم والصميل. باستسلام يوسف اعتبر عبد الرحمن أن سلطته على أسبانيا لم تعد محل نزاع، ومن ثم فقد أصدر أوامره بلعن العباسيين على المنابر وعدم الإشارة في خطب الجمعة إلى خليفتهم في الشرق : أبو جعفر المنصور.

أما عن السنوات التي عاشها يوسف الفهري بعد ذلك حتى نهايته المأساوية فقد وردت عنها روايات مشوشة. يبدو أن يوسف والصميل أقاما في البداية بقرطبة حيث شملهما الأمير برعايته وكان يستشيرهما في بعض الأحيان ويأخذ برأيهما. لكن يوسف نكث العهد بعد ذلك، وفرّ إلى «ماردة» حيث رفع فيها راية العصيان ضد الأمير وجمع جيشا يناهز العشرين ألف مقاتل (معظمهم من البربر) وزحف به نحو قرطبة؛ لكن حكام عبد الرحمن الأوفياء على إشبيلية و«مورور» (MORON) هزموه في الطريق فاتجه إلى أراضى طليطلة وظل هائما فيها على وجهه عدة أشهر إلى أن ضاق به مشايعوه ذرعا فقتلوه (عام ٧٥٩ / ٧٦٠ م - ١٤٢ هـ) وأرسلوا رأسه لعبد الرحمن.

بعد أن تخلص الأمير من خصمه الرئيسي، قرر التخلص أيضا من رأسه المدبر؛ وعليه فقد تم خنق الصميل في السجن الذي أودع فيه منذ فترة قصيرة.

الصراع مع متمردي الأندلس :

منذ هروب يوسف الفهري تبين للأمير عقم لغة التفاهم وسياسة اللين مع المتمردين وجدوى الاحتكام إلى السلاح. ولهذا السبب سيقوم عبد الرحمن خلال الثلاثين سنة المتبقية من حكمه بشن حرب لا هوادة فيها ضد خصومه، وفرض هيمنته بالقوة، والتنكيل بمن يخونه، أي - باختصار ودون مواربة - ممارسة السلطة الاستبدادية انطلاقا من قناعته بأن أي تهاون، ولو بسيط، من جانبه سيستثمر ضده، وسيفهم العرب والبربر، حتى أقاربه الأمويون الذين نعموا وأترفوا على أرض الأندلس، أن من يجرؤ على إثارة غضب العاهل لن يفلت من العقاب.

ومن المؤامرات التي حاكها العرب ضد عبد الرحمن الأول قيامهم بتحريض أنصار الحاكم السابق وزعماء العشيرة اليمنية. انفجر التمرد الأول في طليطلة، بعد

ثلاث سنوات فقط من النهاية المأساوية لوالى الأندلس الأخير، ولم يخمد إلا فى ٧٦٤م (١٤٧هـ). قاد هذا التمرد الزعيم الفهرى «هشام بن عروة» وحكم طليطلة لحسابه إلى أن أعاد الجيش الأموى بقيادة «بدر» و«تمام بن علقمة» النظام لعاصمة القوط القديمة. لم يلق الجيش الأموى مقاومة تذكر، واقتاد قائده إلى قرطبة رؤوس التمرد ليُطاف بها شوارع المدينة قبل أن تُعلّق بالمسامير على الألواح الخشبية. ومن الغريب أن تستسلم طليطلة بهذه السهولة وهى المدينة التى ستطير النوم فيما بعد من عين الدولة القرطبية وتدوّخ أمراءها.

وفى أواخر عهد عبد الرحمن الأول قام الابن الوحيد الباقي من أولاد يوسف الفهرى (الأعمى : أبو العباس محمد) باتخاذ طليطلة أيضا مركزا لتمرده على السلطة المركزية؛ لكن الأمير هزمه فى ١١ سبتمبر ٧٨٥م (١ ربيع الأول ١٦٩هـ)، ومن جهة أخرى، فقد شغل الصراع مع العرب اليمنيين جزءا كبيرا من تاريخ حكم الأمير الأموى. فهؤلاء الناس الذين بذلوا قصارى جهدهم وسلموا قرطبة هدية لعبد الرحمن سرعان ما أحسوا بالضيق لعدم استطاعتهم إملاء إرادتهم عليه وإخضاعه لوصايتهم، ولذلك شاركوا فى كل المؤامرات التى حيكت ضد النظام الأموى. وستقتصر فيما يلى على الإشارة إلى أهم تلك المؤامرات والتى شارك فيها - علانية أو من وراء حجاب - رسل موفدون من قبل الخليفة العباسى.

أعلن الزعيم العربى «العلاء بن مغيث» (عام ٧٦٣م - ١٤٦هـ) فى إقليم «باجة» (BEJA) (جنوب البرتغال حاليا) تمرده على أمير قرطبة ورفع العلم الأسود، شعار العباسيين. جاء العلاء إلى أسبانيا المسلمة وهو يحمل تعليمات محددة من الخليفة أبى جعفر المنصور الذى أمده بالمال ووعدته بتولى حكم البلاد إذا تمكن من خلع الغاصب الأموى.

كفلت مسحة الشرعية للعلاء (بصفته مبعوث السلالة الجديدة الحاكمة فى الشرق) انضمام العرب الأندلسيين من كافة الطوائف إليه - سواء كانوا بليدين أو من الأجناد -، وهم دائما يتحينون الفرص لزيادة ثرواتهم وممارسة أعمال السلب والنهب وللأخذ بثاراتهم القديمة التى لاتنطفئ جذوتها أبدا. وكان اليمنيون يشكلون غالبية تلك الجموع العربية التى انضمت لحركة العلاء. أحس عبد الرحمن بمدى الخطورة التى يمثلها تواجد مندوب مأجور للعباسيين على أرض أسبانيا، وهذا شئ لم يحدث من قبل فى مملكته. اختار من بين قواته المقاتلين الأشد إخلاصا له وتحصن بهم فى ثغر «قرمونة» (CARMONA) المشهور بمنعته حيث حاصره المندوب العباسى شهرين

كاملين، ولما طال الحصار هبطت روح قوات العلاء المعنوية وانخذل عنه كثير من أنصاره فوجد عبد الرحمن الفرصة سانحة وانقض عليهم في شجاعة منقطعة النظير فمزقهم شر ممزق، وقُتل العلاء وكبار قادته وقُطعت رؤوسهم في ميدان المعركة ثم حُمِلت إلى قرطبة لحفظها بالمستحضرات الطيبة، وبعد ذلك لفت رأس العلاء في اللواء العباسي ومعها شهادة بتنصيبه حاكما وسجلٌ دونت فيه وقائع المعركة ووضعت في سبط إلى جوار الرؤوس الأخرى، وكلف أحد التجار الذهابين إلى القيروان بحمله؛ وفي جنح الظلام ترك التاجر حمولته البغيضة في سوق عاصمة أفريقيا.

ولنا أن نتخيل الأثر الذي أحدثه اكتشاف السُّفَط المعبأ بالرؤوس المجذوزة. عندما وصل الخبر للخليفة المنصور اشتد غيظه وقال في تعجب ملئ بالحسرة: «الحمد لله الذي جعل بيننا وبين هذا الشيطان [يقصد عبد الرحمن] بحرا!».

وفي ٧٦٦م (١٤٩هـ) انفجر تمرد آخر لليمنيين «لم يشارك فيه العباسيون مباشرة» في إقليم «لبلة» (NIEBLA) تحت قيادة «سعيد اليحصبي» الذي سار إلى إشبيلية واستولى عليها قسرا ثم نزل بقلعة «وادي أيرة» (GUADAIIRA) وتحصن بها. حاصره عبد الرحمن حصارا شديدا فاضطر إلى الخروج في جماعة من أنصاره وعندها لقي مصرعه وقطعت رأسه؛ وبعد قتال شرس استسلمت قواته.

وفي نفس العام (١٤٩هـ) عاود اليمنيون الكرّة تحت قيادة «أبي الصباح بن يحيى اليحصبي» وحاولوا التخلص من ربقة الحاكم الأموي، لجأ عبد الرحمن إلى الحيلة معه: دعاه إلى قرطبة فلبى النداء، وكانت النتيجة ضرب عنقه في حضرة الأمير.

وبمجرد أن سنحت الفرصة – لانشغال عبد الرحمن بإخماد ثورة أشعلها زعيم بربري يدعى «شقيا بن عبد الواحد المكناسي»، وسنتحدث عنها فيما بعد – اندلع تمرد يمني آخر بقيادة كل من عبد الغفار (ابن عم أبي الصباح بن يحيى اليحصبي) و«حيوة بن ملامس» اللذين جمعا جيشا من سكان إشبيلية وحاولا الاستيلاء على قرطبة، عاد عبد الرحمن بسرعة لملاقاة هذا الجيش واستطاع ابن عمه (عبد الملك بن عمر) تشتيته ثم تعقب الزعيمين اليمنيين حتى جنوب «جبال الشارات» (SIERRA MORENA) وتمكن من قتلهمما والتكيل بأعوانهما عند «وادي قيس» (ما يسمى الآن بنهر «بمبيثار» (BEMBEZAR)(١٢) عام ٧٧٤م (١٥٧ أو ١٥٨هـ).

بعد أن تحدثنا عن حركات العصيان العربية ننتقل إلى أخطر وأطول تلك الحركات التي أدمت عهد عبد الرحمن الأول وهي ثورة البربر بقيادة «شقيا بن عبد

الواحد» وأصله من قبيلة مكناسة البربرية. كان معلما في مدرسة بالمنطقة الواقعة شرق «شنتبرية» (SANTAVER) (١٣)، ودفعه الطمع - وربما أيضا الحماس الديني المحض - لأن يدعى بين عامة مواطنيه البربر الأندلسيين ومعظمهم ضعيف العقيدة - انتسابه للرسول من جهة ابنته فاطمة زوجة علي بن أبي طالب. وحيث أن أمه كانت تسمى أيضا فاطمة فقد ادعى أنه إمام فاطمي ساقته العناية الإلهية لتولى المهام الجسام (١٤). وسرعان ما لاقت دعوته - السياسية الدينية، في آن واحد - نجاحا كبيرا بين صفوف البربر السذج. في نفس هذا التوقيت التف حول دعوة الخوارج في شمال أفريقيا عشرات الآلاف من قبائل «زناته»؛ وفي غرب المغرب ادعى النبوة بربرى آخر من أصل أسباني يدعى «صالح بن طريف» وفرض محاكاة فظة للقرآن وتعاليم الإسلام على كونفدرالية «برغواطة» (BARGAWATA) الكبيرة التي استمرت في هرطقتها لعدة قرون (١٥). اندلع تمرد «شقيا» عام ٧٦٨م (١٥١هـ) ولم تفلح الحملات العديدة في القضاء عليه إلا عام ٧٧٦/٧٧٧م (١٦٠هـ). لجأ الزعيم البربرى لتكتيك شائع بين بنى جنسه : عند اقتراب الجيش الأموى يفر بأتباعه إلى القمم الجبلية المنيعه، وعندما يولى الجيش ظهره ويبتعد يهبط ويهاجمه من الخلف ويستولى على الكثير من الغنائم. وبهذا الشكل استطاع «شقيا» الاستيلاء على كافة الإقليم الواقع بين «الوادي اليانع» (GUADIANA) وحوض نهر «التاجه». ثم استولى بعد ذلك على استحكام «شنتبرية»، وعلى الثغور المنيعه لكل من «قورية» (CORIA) و«مدلين» (MADELLIN) و«ماردة»، واتخذ حصن «سوبيتران» (SOPETRAN) مركزا لقيادته العسكرية. أفاض المؤرخون في الحديث عن عمليات عبد الرحمن العسكرية (سواء التي باشرها بنفسه أو عهد بها لقاداته المحنكين) ضد «شقيا» طوال سنوات تمرده التسع. وفي النهاية تمكن عبد الرحمن من استمالة زعيم بربرى آخر يدعى «أبو زعبل» وإحداث انشقاق في صفوفهم. وفي عام ٧٧٦م (١٦٠هـ) - أو بعده بقليل - سقط «شقيا» ضحية لخيانة اثنين من أتباعه.

لاشك أن قوة العزيمة وحسن الطالع قد جنبا عبد الرحمن الخور أمام هذا الكم الهائل من الصعاب. قد نتخيل في وقتنا الراهن أن عبد الرحمن كان بإمكانه الثقة بأقربائه الذين احتفى بهم في بلاطه منذ أن وطأت أقدامهم أرض أسبانيا، وخاصة بعدما باعه أتباعه مرارا وتكرارا. لكن مفهوم الواجب المترتب على القرابة لم يكن ذا بال في ذلك العصر، وكان واجب الصداقة يفوقه في الرابطة. ففي أحيان كثيرة لم يرع السادة المروانيون قواعد الضيافة التي وجدها على أرض أسبانيا، وكشاهد على هذا

محاولة خلع الأمير عام (١٦٣هـ) من جانب «عبيد الله بن حيان (ابن أخته) والأموي «عبد السلام بن يزيد»، وقد دفعا حياتهما ثمنا لها. ويعدّها بأربع سنوات قام (ابن أخيه الوليد) ويدعى «المغيرة» بتدبير مؤامرة جديدة بالاتفاق مع ابن للصميل يسمى «هذيل»، وكان نصيبهما القتل أيضا.

بل يوجد ما هو أغرب : «بدر» نفسه، المولى الوفى للأمير الذى أصبح قائدا عاما للجيش وسجل فى صحيفة خدمته الكثير من الانتصارات، أسكره هو الآخر مايرفل فيه من نعيم ومكانة بسبب سيده وتناول عليه. وعقابا له، صادر عبد الرحمن ممتلكاته ونفاه لبعض الوقت فى ثغر من الثغور الحدودية (عام ٧٧٢ / ٧٧٣م - ١٥٦هـ)، لكنه عفا عنه بعد ذلك وأعاد إليه منصبه وممتلكاته.

العلاقات بين إمارة قرطبة ومملكة أشتوريش فى عهد عبد الرحمن الأول :

استأثرت المعوقات والمشاكل الداخلية - التى أشرنا إليها فى عجالة - بمعظم وقت وجهد عبد الرحمن الأول ولم تمكنه، بالتالى، من العناية كما ينبغى بحدود مملكته مع مسيحيى الشمال. لقد اضطرت مراقبته المستمرة لأوضاع مملكته الداخلية وقمع الاضطرابات السياسية المستمرة من اتخاذ موقف سلبي إزاء الاعتداءات المتكررة لجيرانه المسيحيين وعدم الرد عليها بفاعلية. ويمكن القول بأن التهديد الأكثر قلقا خلال النصف الأول من عهده قد أتى من جانب مملكة أشتوريش واستوجب رد فعل الأمير عدة مرات.

أوجزنا فيما سبق النشاط الحربى للملك ألفونسو الأول وسياسته التوسعية التى أعانته عليها هجرة البربر الجماعية من الأقاليم الجبلية شمال غرب شبه جزيرة أيبيريا. بعد موت ألفونسو الأول عام ٧٥٧م (أى بعد سنة تقريبا من تولى عبد الرحمن الأول مقاليد السلطة فى الأندلس) خلفه ابنه «فرويلة الأول» وحقق - طبقا لما أورده مدونات لاتينية^(١٦) - سلسلة من الانتصارات خلال عهده الذى استمر حتى ٧٦٨م، من أهمها الانتصار المدوى فى «بونتوبيوم» (PONTUVIUM)^(١٧) بمقاطعة جليقية، فى هذا اللقاء المالحق - الذى صممت عنه المدونات التاريخية العربية - فقد المسلمون ألفامؤلفة من جنودهم علاوة على أحد أبناء حاكم قرطبة (الأمير الشاب عمر) الذى أسر فى المعركة وضربت عنقه بعد ذلك بأمر من ملك أشتوريش. وفى مقابل هذا التزمت المدونات التاريخية المسيحية الصمت ولم تذكر كلمة واحدة عن الهجوم الذى شنته القوات الأموية (عام ٧٦٧م - ١٥٠هـ - أو العام السابق، طبقا للمصادر الإسلامية) بقيادة بدر

(مولى عبد الرحمن الأول) الذى أخذ رهائن من جميع الأقاليم التى اجتازها وفرض على سكانها الجزية. ترجع الإشارات المجلطة التى وردت إلينا عن تلك الحملة (عام ٧٦٧م) إلى وثيقة احتفظ لنا بها الكتاب العرب فى عصر متأخر، وهى منقولة - حسب قولهم - من مدونة الرازى التاريخية التى تعتبر المصدر الأكثر وفاء وقدا لتاريخ الدولة الأموية. تتضمن الوثيقة هدنة^(١٨) لمدة خمس سنوات تبدأ فى يونيو ٧٥٩م (صفر ١٤٢هـ) منحها «الأمير الأكرم، الملك المعظم (عبد الرحمن الأول) للبطارقة والرهبان ولبقية سكان قشتالة وأعماله».

كما ورد فى نص المعاهدة - المذكور بالكامل - الالتزامات المفروضة على الجانب المسيحى وتتمثل فى تسليمه السنوى لإمارة قرطبة ما يلى :

عشرة آلاف أوقية من الذهب، عشرة آلاف جنيه من الفضة، عشرة آلاف جواد ومثلها بغالا، ألف درع، ألف خوذته وألف حربة. من الصعب إبداء الرأى بشأن حقيقة هذه المعاهدة ذات الشروط المجحفة غير المتوقعة بالنسبة للملابسات عصرها، خاصة وأننا لانستطيع فى ذلك الوقت الموغل فى القدم تحديد المراد من كلمة «قشتالة» الواردة بنص هذه الهدنة : هل هى إحدى «الماركات» الدفاعية الواقعة جنوب سلسلة جبال «كنتبريا» بإقليم «أمايا» (AMAYA)، أو أن المراد بها المنطقة التى ستسمى فيما بعد بقشتالة القديمة؟^(١٩).

أما خلفاء «فرويلة الأول» الذين حكموا فى الفترة من ٧٦٨م إلى ٧٨٨م، فكانوا على الترتيب كما يلى: «أوريلىو» (AURELIO)، «سيلو» (SILO)، «موريغاتو» (MAURIGATO). ويبدو أن هؤلاء الأمراء الثلاثة لم يكن لهم نشاط حربي مع الإمارة القرطبية نظرا لعدم ورود أخبار - سواء فى المصادر العربية أو اللاتينية - عن حدوث أية مناوشة بين القوات الأموية و«الأشتوريشية» طيلة هذه الأعوام العشرين التى وافقت دون شك هدنة - صريحة أو ضمنية - لازلنا نجهل شروطها حتى يومنا هذا.

حملات «شرلمان» على أسبانيا (٧٧٨م). نواحيها ونتائجها :

قام «شرلمان» - خلال تلك الفترة التى توقفت فيها قعقة السلاح فى شمال غرب أسبانيا - بحملته الشهيرة على سرقسطة عام ٧٧٨م (١٦١هـ)، والمشهد الأخير لتلك الحملة (أو كارثة ممر «باب الشزرى» Roncesvalles) التى خلدها «أنشودة رولان» (CHANSON DE ROLAND)، لا يزال ماثلا بأذهان الجميع.

وبالرغم من هذا، فأقل وصف يمكن أن ننعت به الوثائق التي لدينا، عن الظروف التي أحاطت بمذبحة مؤخرة الجيش الفرنسي وخط سير الحملة ذهابا وإيابا في حوض نهر «إبره» والأسباب التي دفعت شرلمان للقيام بها، هو الزعزعة والاضطراب. فالمصادر الفرنسية - وكذلك العربية - عجفاء وغير دقيقة بالرغم من قيام الكثيرين منذ نصف قرن باستثمارها في استخلاص نتائج تتباين أحيانا (٢٠).

في الصفحات السابقة توقف حديثنا عن سرقسطة عند تولية يوسف الفهرى لابنه عبد الرحمن حاكما عليها عام ٧٥٣م (١٣٨هـ)، وتجدر الإشارة إلى أن سرقسطة كانت مدينة زاهرة وثغرا قويا ذا موقع استراتيجي هام، نظرا لوقوعها وسط الأراضي الخصبة الغنية ولقربها من الأقاليم التي يقطنها البشكنس ومن الاستحكامات الفرنسية في سبتمانيا. ونظرا لبعدها عن قرطبة فقد كان يتمتع من يحكمها - مثلها في ذلك مثل برشلونة وبلنسية - بضرب من الاستقلالية. ومن بداية الفتح الإسلامي استوطن عدد كبير من العرب حوض نهر «إبره» الذي تفوق على بقية المناطق الأسبانية من حيث كثرة الداخلين من سكانه في الإسلام، وربما كان هذا نتيجة لجهود التابعي «حنش الصنعاني». وكثيرا ما كان الزعماء العرب، المقيمون في سرقسطة أو الوديان المتقاطعة معها، يستغلون بعد المسافة عن حاكم قرطبة ويتصرفون بحرية تامة لدرجة التجاهل المطلق لسلطته. ومن البديهي ألا نعدم بين هؤلاء العرب المغامرين المعدومي الضمائر المستعدين لتتكب جميع الطرق لتحقيق مطامعهم الشخصية من يبيع دينه ويزين لشرلمان - من منطلق المنفعة الشخصية البحتة - سهولة الاستيلاء على شمال أسبانيا والفوائد الجمة التي ستعود عليه من جراء هذا الاحتلال.

نقول هذا لأنه من غير المعقول قيام العاهل الفرنسي بحملة مثل تلك استجابة لفكرة عارضة رواده، خاصة وأن الخطر الإسلامي كان قد تم احتواؤه منذ منتصف القرن الثامن بعد استرداد «بيبينو ألبريبي» (PIPINO EL BREVE) «أربونة» حيث لم تسجل أية مدونة تاريخية بعد هذا التاريخ أي نشاط حربي على جانبي البرانس الشرقية سواء من جهة المسلمين أو الفرنسيين.

عندما خلف شرلمان والده «بيبينو» كانت تنتظره مهام أكثر إلحاحا من تأمين حدوده مع أسبانيا. ومع هذا لا يوجد ما يمنع من الظن بأن شرلمان قد حلم - بعد تنفيذه للمهام الملحة باستيلائه على جزء كبير من أوربا (حتى نهر الدانوب) وإخضاعه لسيطرته - بتحقيق مجد للمسيحية من خلال طرد الكفار من أسبانيا وضمها لامبراطوريته.

وبعيدا عن الافتراضات، فمن المؤكد أن شرلمان سرعان ماتخلى عن مشروعه المظنون بعد فشل حملته على سرقسطه، ولذلك فإنه لم يعاود الكرة.

وردت فقرة هامة (ويبدو أن أحدا لم يتوقف عندها) فى المؤلف التاريخى الأدبى للمقرى^(٢١)، وهى منقولة بالنص من مصادر الكاتب المعهودة (من ابن حيان، دون شك). تقول هذه الفقرة: «وخاطب عبد الرحمن قارله [كارل] ملك الإفرنج، وكان من طغاة الإفرنج، بعد أن تمرس به مدة، فأصابه صلب المكسر، تام الرجولية، فمال معه إلى الإدارة، ودعاه إلى المصاهرة والسلم، فأجابه للسلم، ولم تتم المصاهرة».

مما لا شك فيه أن ماجاء بالفقرة السابقة ليس بكامله من نسج الخيال. وإذا كان القارئ يمكن أن تستولى عليه الدهشة من مشروع المصاهرة الذى يربط بين العائلة الشرلمانية والبيت الأموى إلا أن الواقع يجعله محتمل التصديق. أما مشروع السلام الوارد بالفقرة فيتفق مع الواقع التاريخى لأن حملة شرلمان التى جرت عام ٧٧٨م لم تستتب - قبل أخذ برشلونة فى ٨٠١م - بحملات فرنسية أخرى تخطت حاجز البرانس.

ويمكن الاعتراض على هذه الهدنة باتفاقات الصداقة التى عقدها الامبراطور الفرنسى مع الخليفة العباسى هارون الرشيد^(٢٢) فى بداية القرن التاسع بهدف إثارة قلق الأمويين فى أسبانيا. لكن هذه الاتفاقات مشكوك فيها بدليل أن شرلمان فى أواخر عهده لم يأنف من بسط يد السلام لحفيد عبد الرحمن (الحكم الأول). ومن ثم فإننا نكرر هنا مقولة أحد المحللين العرب ومفادها: أن علماء التاريخ الفرنسى يخلطون الأوراق.

وقبل الانتقال للحديث عن مجريات حملة ٧٧٨م نرى من المناسب التوقف قليلا عند الزعيم العربى الذى اتصل بشرلمان وسيرته السابقة. ينتسب هذا الزعيم إلى العشيرة الكلبية، ويدعى «سليمان بن يقطان بن الأعرابى». وصل سليمان لحكم سرقسطة فى ظروف لم يجتلى غموضها بعد، وقبل عام ٧٧٨م بقليل اتصل بمثير اضطرابات عربى قادم من أفريقيا يدعى «عبد الرحمن بن حبيب الفهرى». (علينا ألا نخلط بين عبد الرحمن هذا وبين آخر يتفق معه فى الاسم كان قد مكث فى أسبانيا لبعض الوقت ثم رحل إلى أفريقيا حيث حكم المنطقة التى تعرف الآن بتونس وتم اغتياله عام ٧٥٥م - ١٢٧هـ، أى قبل قليل من دخول عبد الرحمن الأول أسبانيا. ولكى يمكن التمييز بين الفهرين لقب مانحدث عنه هنا بالصقلبي نظرا لطوله الفارع وعينه الزرقاوين وشعره الذهبى).

أوكل الخليفة الحاكم في الشرق (محمد المهدي) إلى عبد الرحمن بن حبيب الفهرى مهمة مشابهة للمهمة التي كلف بها أبو جعفر المنصور «العلاء بن مغيث» عام ٧٦٣ (١٤٦هـ) : تشكيل حزب موالٍ للعباسيين، وتجنيد المتعاطفين معه من كل الطبقات الاجتماعية وخاصة من البربر لتكوين جيش قادر على إسقاط النظام الأموي.

بعد أن نزل «الصقلبي» بشاطئ مرسية تلقى وعدا من «سليمان بن يقظان بن الأعرابي» الذي كان وقتها في برشلونة، بمساعدته في مهمته. عندما كشف الصقلبي عن نواياه وأخذ يدعو للعباسيين تنكر له ابن الأعرابي واختلف معه (وربما وصل خلاهما لحد المواجهة العسكرية)؛ وعندها لم يجد الصقلبي بدا من الارتداد إلى منطقة بلنسية حيث طارده الجيش الأموي وأحرق سفنه. هرب الصقلبي، لكن بربريا مأجورا من عبد الرحمن الأول تعقبه وقطع رأسه وحملها إلى الأمير الأموي في نهاية ٧٧٨م أو مطلع ٧٧٩م (١٦٢هـ).

بالرغم من اتفاق المؤرخين العرب على قصر المدة التي استغرقتها مهمة الصقلبي على أرض أسبانيا، إلا أن «دوزي» يرى أنه قام عام ٧٧٧م بزيارة شرلمان بصحبة ابن الأعرابي وشخص ثالث يدعى «أبو الأسود» (أحد أبناء يوسف الفهرى) كان عبد الرحمن الأول قد سجنه لكنه استطاع الفرار من السجن عندما خُففت عليه الحراسة بسبب ادعائه العمى.

وفي اللقاء مع شرلمان عرض الثلاثة عليه - طبقا لدوزي - التحالف لمهاجمة أمير قرطبة، لكن الرواية الواردة في «أخبار مجموعة» وما ذكره المؤرخ المشرقى ابن الأثير يظهران - بالرغم من إيجازهما الذي لا ينفع الغلة - مجافاة ما ذهب إليه «دوزي» لوجه الحقيقة.

وطبقا للمصدرين السابقين فإن ابن الأعرابي بعد أن تنصل من وعده لعبد الرحمن الصقلبي بالدعوة للعباسيين رجع إلى سرقسطة حيث تحالف مع مغامر عربى آخر يدعى «حسين بن يحيى الأنصارى» وأعلن تمرده على أمير الأندلس. أرسل عبد الرحمن قائده «ثعلبة بن عبيد» ليقضى على الثورة، لكنه وقع أسيرا بعد أيام قليلة من حصاره لسرقسطة عندما قامت قوة من حاميتها بهجوم خاطف على الجيش الأموي. اغتتم ابن الأعرابي فرصة وقوع الأسير في يده وترك زميله «حسين بن يحيى» على المدينة لمواصلة المقاومة وشد الرحال ومعه ثعلبة (قائد الجيش الأموي الأسير) قاصدا بلاد الفرنجة. عبر بلاد «السكسون» (SAJONIA) ووصل إلى «بادربورن»

(PADERBORN) حيث التقى بملك فرنسا وسلمه الأسير وأخذ يستحثه على تسيير حملة إلى شمال أسبانيا.

من المحتمل مرافقة سيد عربى آخر كان يسيطر على إقليم «وشقة» (HUESCA) اسمه «أبو ثور» لابن الأعرابى فى رحلته إلى «بادربورن». وقد استخلصنا هذه المعلومة من فقرة وردت فى «حوايات ملكية»^(٢٣)، تفيد بأن الملك الفرنسى أخذ عام ٧٧٨م رهائن من «أبى ثور» سيد «وشقة»، ومن «ابن الأعرابى» سيد برشلونة و«جيرندة» (GERONA).

وفى ربيع ٧٧٨م اتجه شرلمان على رأس قواته إلى البرانس وعبرها من ممر «باب الشزرى» (RONCESVALLES) ووصل إلى «بنبلونة» حيث استسلم له البشكنس الذين كانوا يحتلونها^(٢٤). ثم اجتاز «وشقة» واتجه صوب سرقسطة التى ستسقبله بالأحضان كما سبق وأكد له ابن الأعرابى. لكن «حسين بن يحيى» كان من طبعه القيادة ولايرضيه دور الإمعة، ومن ثم فقد أغلق أبواب المدينة فى وجه القادمين وتحصن بها. اضطر شرلمان لتطويق المدينة بقواته، وكلما طال الحصار وتململ الفرنسى كان ابن الأعرابى لايدخر جهدا فى نصحه بالتريث والصبر، مكررا على مسامعه قلة المؤن بداخل المدينة واستسلامها الوشيك. وبينما هما فى ذلك، حمل البريد إلى شرلمان خبرا سيئا يفيد بحدوث اضطرابات فى «السكسون». كان هذا الخبر كافيا لكى يعطى الملك أوامره برفع الحصار عن سرقسطة والعودة إلى فرنسا.

اتجه شرلمان إلى «بنبلونة» لاصطحاب قواته التى كان قد تركها هناك عقب استيلائه عليها، وفى انسحابه منها خرب أسوارها.

لم ينس شرلمان أن يأخذ معه عند عودته «سليمان بن يقظان» الذى عجز عن تحقيق وعده له وكان سببا فى المشاكل التى هبطت على رأسه. فى نفس اليوم الذى ترك فيه شرلمان «بنبلونة»، أو اليوم التالى، وقعت كارثة ممر «باب الشزرى». وهنا نترك الكلمة للمؤرخ «إيخيناردو» (EGINARDO)^(٢٥) ليقص علينا ما حدث :

«كان الجيش الفرنسى يسير ببطء وتثاقل فى صفوف طويلة نظرا لضيق الممر، وهبط البشكنس الكامنون - والغابات الكثيفة التى تكثرت بذلك المكان مناسبة لعمل الأكمنة - من القمم العالية وانقضوا على طوابير المؤخرة وعلى القوات التى تغطى انسحاب الجيش الضخم وقتلوه عن بكرة أبيهم واستولوا على مهماتهم، ثم تفرقوا بسرعة البرق محتمين بستر الليل الذى أرخى على الأرض سدوله.

ساعد البشكنس، فى تلك الموقعة، خفة السلاح الذى فى أيديهم وكشفهم للمكان؛ بينما أضرار بالفرنسيين ثقل عتادهم وموقعهم أسفل الممر. مات فى تلك المعركة القهرمان «إيجيهاردو» (EGGIHARDO)، الكونت «أنسيلمو» (ANSELMO)، دوق «برجونة» (BORGONA) «رولان» (ROLANDO)، بالإضافة إلى كثيرين غيرهم.

ولم يستطع الفرنسيون الانتقام للكارثة لأن عدوهم بعد أن ضرب ضربته تفرق بسرعة مذهلة وكأن الأرض انشقت وابتلعت، ولم يعد بوسع أحد الاهتداء إلى المكان الذى توارى فيه.

ما رواه «إيخيناردو» هنا عن المعركة يأتى مطابقا للخبر القصير الوارد فى «حوايات ملكية»، وتتضح منه الرغبة فى التقليل بقدر الإمكان من حجم الهزيمة.

وبالرغم من أن كاتب سيرة شرلمان (إيخيناردو) هو الوحيد الذى ذكر لنا أسماء الأشراف الفرنسيين الثلاثة الذين سقطوا فى ممر «باب الشزرى»، إلا أنه لم يشير إلى مكان المعركة. حتى أن التاريخ المضبوط للواقعة كان سيظل مجهولا لو لم نعثر صدفة على النص المكتوب على شاهد قبر القهرمان «إيجيهاردو» والذى يحدد تاريخ موته بيوم ١٥ أغسطس عام ٧٧٨م (٢٦).

ومن جهة أخرى فإن الحوايات الفرنسية تنسب الهجوم على صفوف جيش شرلمان إلى عصابات بشكنسية؛ لكن حجم الخسائر فى المعركة يرجح اشتراك جماعات مسلمة لم يكن هدفها فقط نهب مهمات الجيش الفرنسى بل - أيضا - تحرير ابن الأعرابى من أسر ملك الفرنجة.

وردت إشارة فى حوايات ابن الأثير (٢٧) تفيد باشتراك ولدين لابن الأعرابى (هما : مطروح، عيشون) فى هجوم ممر «باب الشزرى» وبأنهما استطاعا تخليص والدهما من الأسر والعودة به إلى سرقسطة.

كان من الضرورى الانتظار لسنوات طويلة حتى تعود هذه المدينة من جديد إلى حظيرة الدولة الأموية. أما «ثعلبة بن عبيد» (قائد جيش عبد الرحمن الأول الذى سلمه ابن الأعرابى لشرلمان) فقد فك أساره فى النهاية نتيجة لمفاوضات جرت بين أمير قرطبة وملك الإفرنج؛ إنها، بلا شك، الجولة الأولى فى سلسلة المفاوضات التى ستجرى بين العاهلين، إذا أخذنا فى الاعتبار الفقرة القصيرة التى أشرنا إليها آنفا ونسبناها لابن حيان. وبالنسبة لابن الأعرابى، فقد اغتاله حليفه القديم «حسين بن يحيى الأنصارى»، وبعدها قام عبد الرحمن الأول بحصار سرقسطة بنفسه وأجبر «حسين بن يحيى» على الاستسلام عام ٧٨١م (١٦٤هـ). وانتهاز العاهل الأموى فرصة تواجده فى

إقليم «رغون» وسار بقواته حتى جبال البرانس الشرقية ووصل إلى «روسيون» (ROSELLON) وربما إلى «كويير» (COLLIOURE) (٢٨).

ونظرا لعدم توخي الحوليات العربية الدقة في تحديد الأعلام الجغرافية يمكن الظن بأن حملة عبد الرحمن هذه كان هدفها «شرطانية» (CERDANA) وإقليم «بنبلونة». على أية حال، فقد كان إذعان سرقسطة مؤقتا لأن «حسين بن يحيى» عاد إلى التمرد فيها بعد بضعة أشهر مما دفع العاهل الأموي لحصارها من جديد في صيف ٧٨٢م (١٦٦هـ). سقطت سرقسطة بحد السيف، ومات حسين ميته بشعة : فقد قُطعت أطرافه قبل الإجهاز عليه، وكان نصيب السكان المعاملة القاسية والطرده من المدينة لبعض الوقت.

أصيب شرلمان بخيبة أمل مرة بعد فشل حملته على أسبانيا، وأيقن من عدم جدوى التحالف مع الزعماء المسلمين في شمال شبه الجزيرة. وسيتضح له من الآن فصاعدا أن الأجدى له لا يكمن في مهاجمة الإسلام الأسباني، بل في تأمين حدود «غاليا» الفرنسية وبقية الغرب المسيحي على طول جبال البرانس. ولهذا السبب، قرر في نفس العام الذي فشلت فيه حملته على «رغون» وبلاد البشكنس اقتطاع جزء من امبراطوريته وتخصيصها لتأسيس إمارة تكون مهمتها الأساسية رصد نشاط الزعماء المسلمين على حدود البرانس - سواء كانوا تابعين لمملكة قرطبة أو مستقلين عنها - والتدخل في الوقت المناسب لقمع تحركاتهم المريبة والرد عليها إذا اقتضى الأمر.

أطلق إسم «أكيتانيا» (AQUITANIA) على الإمارة الجديدة وخصص لها أراض شاسعة تشمل محافظات «بورجيس» (BURGES)، «بورديو» (BURDEOS)، «أوش» (AUCH) و«أربونة»؛ وجعل عليها ابنه الشاب «لويس» (لويس الرحيم، فيما بعد) الذي حمله معه إلى روما في ١٥ إبريل ٧٨١م ليتم تتويجه أميرا على «أكيتانيا» على يد البابا «أدريانو الأول»؛ كما قام البابا في نفس الوقت بتتويج الابن الثاني لشرلمان (بيبينو - PIPINO) ملكا على إيطاليا (٢٩).

وستظل إمارة «أكيتانيا» - وخاصة محافظتاها الجنوبيتان في سبتمانيا، غسقونيا (GASCUÑA) - تقوم، وفي أصعب الظروف، بدور الحراسة المشددة اليقظة للمواقع الإسلامية حتى ٩٨٧م.

ونفس ما أشرنا إليه من قبل بالنسبة لوضع الحدود بين المسلمين والمسيحيين في شمال غرب أسبانيا نجده هنا أيضا بين بلاد الفرنجة وأسبانيا المسلمة. وفي هذا المقام

نورد ملاحظة ل. أوثياس (L. AUZIAS) الصائبة^(٢٠): «في نهاية القرن الثامن وبداية التاسع لم تكن توجد حدود مستقرة بين الطرفين، فالمنطقة الواقعة بين البرانس والإبرة كانت محل نزاع دائم ومن الصعب الفصل في تبعيتها للفرنسيين أو المسلمين، ولذلك فإن السيطرة عليها كانت تتأرجح بينهما تبعا للظروف. ولهذا السبب لم تكن «أينة» (EINA) ولا «أربونة» بمنأى عن الغزو الإسلامي، كما لم تكن كذلك «طرطوشة» وبرشلونة بالنسبة للهجمات الفرنسية.

وبالإضافة إلى ماتقدم فإن الحكام العرب للإقليم لم يكونوا تابعين في الحقيقة للهيمنة الأموية ولا للملوك الفرنسيين بالرغم من تظاهرهم بموالاته هذا الطرف أو ذاك.

على أية حال، فقد تجرع عبد الرحمن الأول الإهانة في هذه المنطقة المتنازع عليها قبل ثلاث سنوات من موته ولم يستطع الانتقام. ففي عام ٧٨٥م قام سكان «جيرندة» (GERONA) بتسليم مدينتهم - نتيجة لحصارها أو بمبادرة من أهاليها - لممثلي السلطة الفرنسية.

وفي مقابل عدم ذكر الحوايات العربية لكلمة واحدة عن ضياع هذه المدينة من أيدي المسلمين، ينسب التراث المحلي - وهو بالتأكيد خاطئ - الفضل في الاستيلاء على «جيرندة» لشرلمان نفسه^(٣١). لكن الشيء المؤكد هو أن هذا التوغل الفرنسي كان بمثابة فاتحة لصيد أثمن بكثير : ونعني به سقوط برشلونة.

إرساء عبد الرحمن الأول لأسس الدولة القرطبية :

لم تمنع التزامات عبد الرحمن المستمرة في توطيد حكمه ومجابهة الثورات العديدة ضده من العمل على تنظيم مملكته الوليدة وطبع المقومات التأسيسية الموجودة قبلا بطابعه الخاص.

لقد قام من سبقوه بنقل النظم الإدارية المتبعة في سورية الأموية، وركزوا الخدمات الحكومية في قرطبة. ومما لاشك فيه أن عبد الرحمن لم يقتصر في هذا الشأن على تحسين النظام الموجود أو تكييفه لملاءمة الأحوال الجديدة لأن أسبانيا المسلمة التي كانت حتى ذلك الوقت مجرد محافظة من امبراطورية مترامية الأطراف قد ارتقت مع عهده إلى مرتبة الإمارة المستقلة التي تمسك بزمام مستقبلها. أما تقسيم البلاد إلى أقسام إدارية (كُور، مفردتها كورة) على رأس كل منها حاكم (والى أو عامل)، ولكل مجموعة من الكُور عاصمة (قاعدة) فلم يكن من مستحدثات أو اختراع

الأمير المرواني. ونفس الشيء ينسحب على النظام العسكري (الذي سندرسه بالتفصيل في مكان آخر من الكتاب)، ومن ثم سنكتفى هنا بالإشارة إلى اهتمام عبد الرحمن الكبير منذ منتصف ولايته على الأندلس بتكوين جيش محترف، وتجنيد - لهذا الغرض - مرتزقة بربرا ورقيقا من جنوب أوروبا. ويقدر أحد المؤرخين عدد الميليشيات غير المسلمة (العجم) في جيش الأمير بما يزيد عن الأربعين ألفاً^(٣٢).

ومما لا شك فيه أن المؤرخين العرب قد التزموا الصمت الكامل إزاء الهيكل الإداري الذي ارتضاه عبد الرحمن لمملكته. وعلاوة على هذا فإنهم لم يذكروا لنا أسماء مستشاري القصر الذين لم يكونوا قد تلقبوا بعد بلقب وزير. كل مانعرفه يقتصر فقط على خمسة قضاة منهم بالإضافة إلى عدد آخر من الحُجَّاب (والحاجب في تلك الفترة لم يكن يعنى - كما سيحدث فيما بعد - رئيس الوزراء، بل مشرفاً مدنياً في قصر الإمارة أو شيئاً مماثلاً «لقهرمان القصر»).

كما أننا لانعلم الكثير عن النظام الضرائبي المتبع في أسبانيا المسلمة خلال ذلك العصر، ومع هذا فمن قبيل المؤكد احترام العاهل الأموي الأول لنظام الخلافة الأموية في الشرق والذي ترسم خطاه حكام أسبانيا السابقون عليه، ولذا فعلينا الانتظار حتى عهد عبد الرحمن الثاني لنسجل تسلسل بعض القواعد والنظم السياسية من الخلافة العباسية في الشرق إلى الدولة القرطبية.

تعرفنا - فيما سبق - على الأسباب (سواء كانت واقعية أو عاطفية محضة) التي جعلت عبد الرحمن الأول يتصدى بحزم لتسلسل أى عنصر به شبهة الانتساب لغاصبي ملك آبائه في الشرق. ومن هنا فلم يكن مسموحاً على أرض أسبانيا إلا برفرفة العلم الأموي^(٣٣)؛ أما الراية السوداء - شعار العباسيين - فقد كان مجرد التلويع بها يعنى العصيان والتمرد؛ كما كان التصدى الحازم والشرس من نصيب أى فتنة يدعمها - مباشرة أو من وراء حجاب - الخلفاء العباسيون.

وصل الأمر ببعض المؤرخين للتحدث عن عزم عبد الرحمن الأول على إعداد جيش والسير به إلى دمشق لطرد العباسيين الغاصبين للخلافة الأموية. وطبقاً لزعيم هؤلاء فإن أمير قرطبة كان قد أعلن على الملأ نبأ حملته هذه عام ٧٨٠م (١٦٣هـ) لكن تمرد سرقسطة وضرورة القضاء السريع عليه حالاً بينه وبين تنفيذ مشروعه^(٣٤).

ومع هذا، وبرغم بغض وكراهية الأمير لقتلة أسرته إلا أنه لم يجرؤ في بداية عهده على حذف الإشارة إلى الخليفة العباسي من خطبة الجمعة في مسجد قرطبة

الجامع. فقد ظل الخطباء - خلال العام التالي لاستيلاء الأمير على قرطبة - يذكرون في خطب الجمعة اسم الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور، ولم يقرر الأمير وضع اسمه مكانه إلا بعد إخضاعه ليوسف الفهرى واقتناعه برأى قريب له قادم من الشرق يدعى «عبد الملك بن عمر بن مروان».

ومع هذا، فلم يدر بخلد الأمير عبد الرحمن - على خلاف من أتوا بعده - اتخاذ لقب «أمير المؤمنين»، ولم تختمر فكرة اتخاذ هذا اللقب المهيب إلا بعد مرور وقت طويل عندما قام عبد الرحمن الثالث (عام ٩٢٩م - ٣١٦هـ)، ولأسباب سياسية بحتة، بالتخلي عن لقب أمير والترقى للقب «أمير المؤمنين»، منافسا بذلك الخليفة العباسي والخليفة الفاطمي. مانود إثباته باختصار هنا هو أن عبد الرحمن الأول لم يلقب نفسه إلا بأمير أو ملك، واقتصر على إضافة «ابن الخلائف» إليهما. ويتضح احترام الأمراء الأمويون الأول للقب «الخليفة» وعدم اقترابهم منه من النقود التي ضربت في أسبانيا خلال عهدهم (٣٥).

وبالرغم من تواضع الألقاب التي ارتضاها عبد الرحمن لنفسه إلا أن مضاء عزيمته ويسالته في تأسيس مملكته الأموية في الأندلس قد أثار إعجاب العباسيين في الشرق وتقديرهم له. وفي هذا الشأن يروى المؤرخون العديد من الحكايات ومنها إطلاق الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور لقب «صقر قريش» عليه. كما أطلق المؤرخون عليه أيضا لقب «الداخل» للتمييز بينه وبين عبد الرحمن الثاني (الملقب، أحيانا، بالأوسط) وبين الخليفة عبد الرحمن الثالث الذي اشتهر في المدونات التاريخية الإسلامية بلقب «الناصر لدين الله» (٣٦).

وفي عهد «الداخل» هذا اكتست قرطبة بوشاح العاصمة الإسلامية وزاد تعداد سكانها زيادة كبيرة، وخاصة في سنوات حكمة الأخيرة.

أشرنا سابقا إلى أن المسلمين عندما فتحوا قرطبة أخذوا نصف كنيسة «سان بيثنتي» (SAN VICENTE) وحولوه إلى مسجد، ولما ازداد عددهم وضاق مسطح بيت الصلاة عن الاتساع لجموعهم الكثيفة أخذوا يعلقون فيه سقائف خشبية. وعندما دخل عبد الرحمن قرطبة ووجد هذه المشكلة عزم على حلها عن طريق ضم نصف الكنيسة الباقي (الذي كان في أيدي المستعربين) إلى الجامع في بناء واحد كبير. وبمجرد أن حصل عبد الرحمن على موافقة المسيحيين أمر (في ٧٨٥م - ١٦٩هـ) بهدم المبنى بكامله (المسجد القديم ونصف الكنيسة) وإقامة المسجد الجامع الذي استغرق بناؤه

حوالى العام، ويقدر بعض المؤرخين تكلفه البناء بثمانين أو بمائة ألف دينار من الذهب (وهو مبلغ كبير بمقاييس ذلك العصر). وبالرغم من هذه النفقات الطائلة إلا أن المصلى ظل متواضعا ومحدود المساحة بدليل أن معظم من تعاقبوا على الحكم بعد عبد الرحمن كان همهم الشاغل زيادة رقعة المسجد وتحسينه. ويذكر أحد المؤرخين أن عبد الرحمن قام فى نفس الوقت ببناء مساجد صغيرة فى جميع أحياء قرطبة. كما يعزى المؤرخون إليه بناء سور قرطبة (عام ٧٦٦م - ١٤٩هـ)، أو على الأقل ترميمه لأن الوالى «السمح بن مالك الخولانى» كان قد عمل فيه قبل نصف قرن تقريبا من هذا التاريخ.

جعل عبد الرحمن - فى البداية - «قصر الإمارة» مقرا للخدمات الإدارية، وهو نفس القصر القديم الذى توارث عليه حكام منطقة «لاييتيكا» (LA BETICA) (جنوب أسبانيا) القوطيون وتبعهم فيه - مع إدخال بعض التعديلات الطفيفة - الحكام العرب السابقون على الأمير الأموى. وبعد ذلك أنشأ عبد الرحمن على بعد ثلاثة كيلومترات من شمال شرق قرطبة قصرا فخما تحيط به حدائق زاهرة، وسمى تلك الضاحية الجديدة «الرصافة»، تخليدا لذكرى الرصافة التى أنشأها جده هشام بالشام^(٣٧)، واتخذها مقاما له - فى حالة تواجده بقرطبة - ومركزا لإمارته. فهل وجد «الداخل» فى الرصافة القرطبية - حيث وقعت عينه ذات يوم أثناء تجواله بها على نخلة وحيدة منفردة وسط حديقتها^(٣٨) - ما يذكره برصافة الشام؟ بالتأكيد، نعم، لأن قصره بها كان مقر إقامته المفضل بالرغم من بعده عن وسط المدينة. وبعد ذلك قام الحكام الأمويون بتوسيع وتجميل هذا المقر الذى ظل قائما حتى الأيام الأخيرة للعهد الأموى فى الأندلس، وعندما اتسعت قرطبة فى القرن التاسع أصبحت الرصافة من أكبر أحيائها^(٣٩). ولا زالت أطلال قصر الرصافة قائمة حتى يومنا هذا فى نفس البقعة عند سفح الجبل. كما أكثر الأمويون من بناء البيوت الريفية (مُنَيَات، مفردتها : مَنِيَّة) حول قرطبة وأطلقوا عليها أسماء مأخوذة من البادية السورية.

كل هذا يجعلنا نعتقد أن التقاليد السورية كانت ستتواجد على أرض أسبانيا خلال فترة طويلة من الزمن حتى ولو لم يأت أحد أفراد بنى أمية ويؤسس فيها مملكته. فالجنود السوريون الذين قدموا مع بلج القشيري واستوطنوا جنوب شبه جزيرة أيبيريا - بالإضافة إلى أعداد غفيرة أخرى قادتهم حياتهم الهائلة إلى أسبانيا - قد احتفظوا بعباداتهم وتقاليدهم القديمة لسنوات مديدة. وساعد أيضا على شيوع التراث السورى توافد أعداد كبيرة من المهاجرين خلال عهد عبد الرحمن الأول. ويمضى الزمن - ومنذ بداية عهد عبد الرحمن الثانى، بوجه خاص - تدثرت هذه المؤثرات السورية بمكونات الحضارة العباسية فى بغداد. وعلى هذا يمكن القول بأن المظاهر الإدارية والاجتماعية

أسبانيا المسلمة كانت مطبوعة لأكثر من قرن من الزمان بالطابع الشرقي نتيجة لتأثيرات الدمشقية في البداية، ثم البغدادية بعد ذلك (٤٠).

لم نتحدث في هذه اللوحة التي رسمناها بإيجاز لعهد عبد الرحمن الأول عن غالبية سكان الأندلس المتمثلة في المولدين؛ ويحتفظ لنا التاريخ بكلام كثير عنهم خلال القرن التاسع نظرا للمتاعب الجمّة - والخطيرة أحيانا - التي سببوها لمن تقلدوا السلطة بعد الأمير الأموي. ومن الصعب تحديد السياسة التي انتهجها عبد الرحمن الأول تجاه هؤلاء المولدين نتيجة لقلة الوثائق التاريخية؛ ومع هذا يغلب الظن بأن الفلاحين ودهماء المدينة كانوا يعيشون في وئام وسلام مع السلطة المركزية خلال السنوات التي تلت الفتح لأن ذكريات ظلم وعسف النظام القوطي لم تكن قد انمحت من أذهانهم. وعلاوة على هذا، نعتقد بأن الفتن والاضطرابات المستمرة من جانب العرب والبربر قد دفعت الأمير إلى استمالتهم بالرغم من ازدرائه - شبه المؤكد - لهم (٤١).

مات عبد الرحمن الأول في ٣٠ سبتمبر ٧٨٨م (٢٥ ربيع الثاني ١٧٢هـ) (٤٢) ولم يكمل الستين من عمره، ودفن في جانب من قصره بالرصافة (روضة)، ومن يومها تحول القصر إلى ما يشبه الإسكوريال : أي سكن ومثوى - في آن واحد - للعائلة الملكية.

ويتفق المؤرخون العرب - مشارقة وأندلسيون - في تمجيد شخصية مؤسس الحكم الأموي في الغرب الإسلامي. فهذا الأمير السورى (الذى يصفه المؤرخون بأنه كان مديد القامة، ذهبي الشعر، ذا ضفيرتين، يؤثر لبس البياض - لون قصره -، بشوشا وصارما، خطيبا مفوها وشاعرا مطبوعا، ولم يكن به عيب خلقي سوى فقدانه لإحدى عينيه) الذى واجه صعابا من كل لون وجنس، لم يفقد أبدا الأمل في المستقبل طوال سنوات حكمه الثلاث والثلاثين.

ترك عبد الرحمن لخلفه مملكة لم تتل منها الهجمات المسيحية إلا قليلا، ويحتاج الحفاظ عليها من أطماع رعاياه لقوة السلاح.

وبكل الجدارة والاستحقاق يمكن اعتبار عبد الرحمن الأول واحدا من أفضل من حكموا الأندلس؛ وكان بالإمكان جعله على رؤوسهم جميعا لو لم يجد الزمان بعده - فى القرنين التاسع والعاشر - يعبدان آخرين للرحمن (عبد الرحمن الثانى، عبد الرحمن الثالث) وخاصة عبد الرحمن الثانى.

٢- هشام الأول، الحكم الأول (٧٨٨ - ٨٢٢م)

وتثبيت دعائم الحكم الأموي في الأندلس

هشام الأول (٧٨٨ - ٧٨٦م) :

لم يعين عبد الرحمن ابنه الأكبر سليمان لكي يخلفه في الحكم، بل فضل عليه أخاه الأصغر هشام واختصه بالولاية.

ولد سليمان في الشرق، وكان عمره أربع سنوات عندما اضطر والده للفرار على وجه السرعة من سورية (٧٥٠م - ١٣٢هـ)؛ وبعد وصول الوالد إلى حكم أسبانيا أرسل إلى الشرق من يبحث له عن ابنه، وفي عام ٧٦٣/٧٦٤م (١٤٧هـ) عاد الرسول إلى قرطبة ومعه سليمان. وعلى هذا، فقد كان سليمان يبلغ من العمر اثنين وأربعين عاما عندما خلا عرش الإمارة. أما هشام (المولود في قرطبة، ١ مارس ٧٥٧م - ٤ شوال ١٣٩هـ) فقد كان يبلغ وقتها الثلاثين عاما.

اهتم عبد الرحمن كثيرا بأمر تربية الأميرين دون تمييز بينهما، لكن هشام كان الأكثر استجابة واستفادة وظهر تفوقه في الأدب والعلم والتدين وتمتع بالقبول من الناس مما جعله أهلا للقب «الرضا» الذي ألحق باسمه. أما سليمان فلم يزد كثيرا عن الجهل، وكان يظهر امتعاضه وازدراءه لماضى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ولبطولات وتاريخ أجداده. كان عبد الرحمن قد قام أثناء حياته - وبغرض تدريب ولديه على ممارسة شئون الحكم - بتولية سليمان على طليطلة وهشام على «ماردة»، وعندما حضرته الوفاة كان الاثنان في موقعيهما، بينما كان أخوهما الأصغر عبد الله (المعروف بالبلنسي في قرطبة. وبناء على وصية الوالد قام عبد الله بالبنسي بأخذ البيعة لأخيه هشام الذي عجل بالحضور إلى العاصمة وتسلم مقاليد الحكم في ٧ أكتوبر عام ٧٨٨م (١ جمادى الأول ١٧٢هـ) ليحكم مدة قصيرة تزيد قليلا عن السبع سنوات، محققا بذلك نبوءة سابقة لأحد علماء الفلك (وهم يشكلون - كما سنرى فيما بعد - جزءا هاما من حاشية جميع أمراء بني أمية في الأندلس).

بدأ الأمير الجديد عهده بالصراع مع أخيه الأكبر الذي لم يرضه الحرمان من السلطة.

يقال أن عبد الرحمن تردد كثيرا في نهاية حياته قبل الإقدام على تعيين هشام وليا للعهد، بل يُروى أنه أمر أثناء احتضاره ابنه عبد الله بتسليم السلطة لمن يصل من أخويه إلى قرطبة أولا :

«من سبق إليك من أخويك - يقول المحتضر لابنه عبد الله - فأبرأ إليه بالخاتم والأمر، فإن سبق إليك هشام فله فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه، وإن سبق إليك سليمان فله فضل سنه ونجدته وحب السوريين له»^(٤٤).

على أية حال، فبمجرد تولية هشام ثار سليمان في طليطلة وجمع جيشا واتجه به إلى قرطبة، لكنه هُزم في أراضى «جيان» وقفل عائدا إلى طليطلة. وبعد قليل لحق عبد الله بأخيه سليمان، لأنه بالرغم من احترامه وصية والده لم يستسغ تولية هشام.

تردد هشام في استخدام القوة ضد أخويه وأشفق عليهما، لكنه لم يجد في النهاية بدا من ذلك حتى لا تتسع نيران التمرد، ومن ثم فقد عمد إلى حصار طليطلة عام ٧٨٩م (١٧٣هـ). استمر الحصار لأكثر من شهرين، استطاع سليمان الفرار إلى بلد تدمير (مرسية) وإضرار نيران الثورة بها. ولما اقتنع سليمان بعد سنة من عدم جدوى تمرده كتب لأخيه هشام يطلب الأمان فقبله هشام لكنه اشترط عليه الخروج من الأندلس وأعطاه سبعين ألف دينار تعويضا عن تركته والده، وغادر سليمان الأندلس إلى المغرب ليعيش في ركن من أركان الأراضى البربرية. ومن جهة أخرى، طلب عبد الله العفو أيضا وهاجر إلى شمال أفريقيا ليعيش فيه حتى موت الأمير هشام الأول.

اتسمت السنوات القلائل التي حكمها هشام بالهدوء النسبي حيث لم يسجل المؤرخون إلا ثلاث ثورات علاوة على تمرد الأميرين المروانيين:

ففي عام ٧٨٨/٧٨٩م (١٧٢هـ) قام «سعيد بن الحسين الأنصاري» بثورة في أراضى «طرطوشة» داعيا عشيرته اليمينية إلى صفوفه، لكنه هُزم في النهاية على يد «موسى بن فرتون بن قسى» (أحد قواد الأمير)^(٤٥)، وهو أصلا من منطقة «أراجون» (أو «رغون»): كما استطاع موسى استرداد سرقسطة.

وبعد قليل من الثورة السابقة عادت عاصمة إقليم «رغون» (ARAGON) للإفلات من ربة السلطة الأموية عندما قاد أحد أبناء «سليمان بن يقظان الأعرابي» - حليف شرلمان القديم - حركة تمرد في برشلونة واستولى على سرقسطة، «وشقة» (HUESCA)، لكن القائد المخلص «عبيد الله بن عثمان» هزمه وقتله.

وفي عام ٧٩٥/٧٩٦م (١٧٨هـ) جاء الدور أخيرا على البربر لكي يشقوا عصا الطاعة في القسم الذي يعيشون فيه وحدهم تقريبا : في «تاكرنا» (TAKORONNA)، أى في المنطقة الجبلية المحيطة بمدينة «رندة» (RONDA). ولقد تم القضاء على عصيانهم بالحديد والنار، وبقيت منطقتهم تلك - طبقا للمصادر التاريخية - شاغرة من السكان لمدة سبع سنوات كاملة.

الجهاد ضد «أشتوريش» والفرنجة خلال عهد هشام الأول :

ساعد الهدوء النسبي في الأندلس الأمير هشام - الفاضل الورع - على شن الحرب المقدسة، طوال سنى حكمه، على مملكة أشتوريش (ASTURIAS)، ليحقق بذلك الحلم الذى لم تمكن الظروف والده من تحقيقه فى كسر شوكة تلك الدولة التى أسسها «ألفونسو الأول».

تحدث المؤرخون العرب بالتفصيل عن الحملات (أو «الصائفات»، مفردا «صائفة») التى توالى على شمال غرب شبه جزيرة أيبيريا.

فى نفس العام الذى تولى فيه هشام الأول حكم الأندلس (٧٨٨م)، اعتلى «برمودو الأول» (BERMUDO, I) عرش مملكة أشتوريش. ولم تكد تمضى ثلاث سنوات حتى جهز المسلمون جيشين لمهاجمة المسيحيين : قاد الجيش الأول «عبيد الله بن عثمان» وانطلق به عبر وادى نهر «إبره» حتى وصل إلى «ألبه» (ALAVA) (٤٦) وأنزل بالمسيحيين هزيمة نكراء ودامية؛ بينما قاد الجيش الثانى «يوسف بن بخت» واتجه به ناحية الغرب حيث التقى بالجيش المسيحى بقيادة «برمودو الأول» وهزمه هزيمة ساحقة.

وفى العام التالى (٧٩٢م)، وقبل قليل من تولى «ألفونسو الثانى» السلطة خلفا لبرمودو الأول، استطاع «عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث» أن يجتاح «ألبه» من جديد وينتصر عليها.

أما الصائفة التى قام بها المسلمون عام ٧٩٤م (١٧٨هـ) فلم يقدر لها النجاح. فى تلك الغزوة جهز هشام جيشين (كما فعل فى الغزوة الأولى) وعهد بقيادتهما إلى الأخوين «عبد الكريم» و«عبد الملك بن مغيث». توجه الجيش الأول لمهاجمة منطقة «ألبه»، بينما سار الثانى إلى الجبهة الغربية ليهاجم «جليقية» (GALICIA). نجح الجيش الذى يقوده عبد الكريم فى هجومه الخاطف والسريع على «ألبه»؛ أما جيش عبد الملك فقد توغل فى أراضى أشتوريش ووصل إلى «أوبييدو» (OVIEDO) (العاصمة الجديدة التى نقل إليها ألفونسو الثانى مقر حكمه) وأعمل فيها التخريب واستولى على كثير من الأسلاب والغنائم، لكن المسيحيين انقضوا عليه بعد انسحابه عند منطقة تكثر بها المستنقعات وقتلوا معظم جنوده. لم يقتل القائد «عبد الملك بن مغيث» فى هذه الغزوة - كما يعتقد الكثيرون (٤٧) - لأننا نجده يظهر على مسرح الأحداث بعد تسع سنوات، أى فى عام ٨٠٣م (١٨٧هـ) ليقود حملة أموية جديدة ضد مملكة أشتوريش.

انتقم المسلمون لكارثة ٧٩٤م بعد عام واحد من حدوثها. فقد خرج من قرطبة (عام ١٧٩هـ) جيش تحت قيادة «عبد الكريم بن مغيث» ووصل إلى مدينة «أستورقة» (ASTORGA) واستولى عليها، ثم تقدم للقاء ألفونسو الثاني الذي لم يستطع التصدي للجيش المسلم وفر بعد معركة دامية صوب الشمال، وتعبه أحد مساعدي القائد العربي ويدعى «فرج بن كنانة» حتى جبال أشتوريش واضطره إلى الهرب إلى حصن على نهر «نلون» (NALON) للاحتماء به. ولم ينسحب الجيش المسلم إلا بعد تحقيق الأهداف التي جاء من أجلها.

وفي نفس هذا العام (١٧٩هـ) خرج جيش آخر من قرطبة وسار في اتجاه مغاير، وهاجم عددا من المدن والقرى المسيحية، لكن القوات المسيحية طاردته عند انسحابه وأنزلت به خسائر جسيمة في الأرواح. وفي العام التالي مات هشام الأول، ولم يستغل خلفه حالة الاستقرار والهدوء الداخلي لمواصلة الجهاد ضد شمال غرب شبه الجزيرة إلا عام ٨٢٦م (٢٠٠هـ). وعلى هذا فقد استطاع المسيحيون التقاط أنفاسهم في هذه السنوات العشرين التي استغلوها في استرداد أراض جديدة.

قبل بضع سنوات من موت الأمير هشام، وفي الفترة التي تخللت الصائفتين ضد «ألبه»، تلقى القائد «عبد الملك بن مغيث» الأوامر بالسير على رأس حملة إلى منطقة «جيرندة» (GERONA) الفرنجية والوصول إلى «سبتمانيا».

ذكرنا آنفا أن «جيرندة» أصبحت منذ ٧٨٥م (١٦٩هـ) تمثل جزءا من مملكة «أكيتانيا». وطبقا للمصادر العربية، فإن «عبد الملك بن مغيث» حاصر تلك المدينة وقتل معظم رجالها وهدم أسوارها وأبراجها لكنه لم يستطع الاستيلاء عليها. ثم زحف - دون مقاومة تذكر - حتى وصل إلى «أربونة» (NARBONA) فأحرق ضواحيها وخربها لكنه لم يستول أيضا عليها. في تلك الأثناء كان لويس - ملك أكيتانيا - في إيطاليا ومعه خيرة قواته، فقام «جيين» (GUILLEN) - دوق «تولوز» (TOLOSA) - بتجميع ما استطاع من قوات وحاول قطع الطريق على جيش المسلمين الذي كان يتهيأ للزحف على «قرقشونة» (CARCASONA). التقى الجمعان على ضفاف جدول صغير يدعى «أوربو» (ORBIEU) بالقرب من قرية «بييدين» (VILLEDAIGNE)^(٤٨)، حيث هزم جيش الدوق «جيين» هزيمة ماحقة، ووقع الدوق - برغم بسالته - أسيرا في أيدي المحاربين المسلمين. عاد الجيش المسلم مظفرا إلى قرطبة ومعه كثير من الأسلاب والأسرى. ويذكر أن خمس الغنائم المخصص للأمير هشام كان يضم خمسة وأربعين ألف أسير

دون حساب الكميات التي يصعب حصرها من الذهب والفضة^(٤٩). وبالتأكيد فإن هذه الأرقام بها كثير من المبالغة، ومن المنطقي قسمتها على عشرة، إن لم نقل على مائة.

العمل بالمذهب المالكي في أسبانيا :

ينسب المؤرخون العرب لهشام الأول - وأحياناً لابنه وخليفته الحكم الأول - مبادرة نشر المذهب المالكي والتبني الرسمي له في أسبانيا، والحقيقة أن كلا العاهلين قد ساهم في إدخال هذا المذهب، وأن الحكم هو الذي قرر - بعد موت أبيه بقليل - إسناد المناصب القضائية، والدينية بعامة، إلى العارفين بهذه المدرسة الشرعية الجديدة.

يمكن أن نكون قد لاحظنا أن رجال الدين والفقهاء والقضاة (ولم تكن توجد بينهم أية فروق في المجتمع الإسلامي العربي حتى نهاية العصر الوسيط) لم يقوموا بدور ذي بال إلى جوار عبد الرحمن الأول الذي شغله تكريس همه في تثبيت دعائم سلطانه عن التأثير برجال الدين أو انتظار مشورتهم بالرغم - وهذا شيء مؤكد - من صلابة إيمانه ورسوخ عقيدته.

لكن الأمور تغيرت مع قدوم هشام الأول بصلاحه وورعه وغيرته الدينية التي أجمع عليها المؤرخون وأشادوا بها. فینسب لهشام الأول عدد لا يحصى من أعمال البر والمشروعات الخيرية التي قدمها طمعا في مرضاة الله وابتغاء مثوبته في اليوم الآخر، ومن هذه الأعمال : إعادة بناء قنطرة قرطبة الرومانية على نهر الوادي الكبير والتي صدع فيضان النهر جزءا منها^(٥٠)؛ بناء مئذنة لمسجد قرطبة الجامع وإضافة أشياء جديدة له لم تكن موجودة في التخطيط الذي وضعه والده^(٥١).

وأدت سماحة هشام وسعة ثقافته إلى اتصاله المستمر بفقهاء قرطبة وعلمائها، وإلى تشجيع رعاياه على الحج وزيارة الأماكن المقدسة، وكان يتابع بنفسه الأخبار التي يحملها هؤلاء الحجاج عن تطور علوم الشريعة الإسلامية في الشرق.

في ذلك الوقت كان الإمام الشهير مالك بن أنس^(٥٢) - الذي توفي بالمدينة المنورة عام ٧٩٥/٧٩٦ م (١٧٩ هـ) - يقوم بإلقاء دروسه الأخيرة على مجموعة كبيرة من تلامذته وأتباعه بالمدينة، والمتعلقة بالتطبيق العملي للمبادئ الأساسية للشريعة الإسلامية كما حددتها السنة المحمدية.

وقام الإمام مالك بجمع الأحاديث النبوية في كتابه المعروف «الموطأ» [أي : الطريق الممهدة]، الذي أصبح بعد ذلك أساسا للمذهب المالكي (نسبة إلى الإمام مالك)

لذى انتشر على وجه الخصوص فى الغرب الإسلامى؛ أما الثلاثة مدارس الفقهية الأخرى - الشافعية، الحنفية، الحنبلىة، نسبة إلى أصحابها - وهى لا تختلف عن المذهب المالكى إلا فى التفاصيل الدقيقة أو المنهجية، فقد انتشرت فيما بعد وعمل بها نى بقية أنحاء العالم الإسلامى.

وفى السنوات التى تلت موت مالك بن أنس بقيت فى المدينة جماعة من الفقهاء الأندلسيين لمواصلة دراسات هذا العالم، ومنهم : زياد بن عبد الرحمن شطون، يحيى بن مضر، عيسى بن دينار، والفقهاء القرطبى ذو الأصل البربرى يحيى بن يحيى الليث. وقد قام هؤلاء الفقهاء أثناء دراستهم فى المدينة بتعريف معلمهم (الإمام مالك) بحسن شمائل وفضل أميرهم الذى يحكم الأندلس؛ وعندما عادوا إلى وطنهم قاموا بالدعوة للمذهب المالكى - بتشجيع ومباركة هشام الأول ومن بعده الحكم الأول (٥٣) - فى قرطبة والمدن الأندلسية الأخرى، وهكذا أخذ المذهب المالكى ينتشر بسرعة حتى غدا - فى عهد الحكم الأول - المذهب الرسمى للدولة الذى تصدر عنه جميع الفتاوى والأحكام الفقهية. ومن جهة أخرى، فإن دراسات المذهب المالكى فى أسبانيا قد تمخضت - منذ ذلك الحين وحتى الأيام الأخيرة لحرب الاسترداد - عن نتاج أدبى غزير وغير عادى.

قبل أن يدخل المذهب المالكى أسبانيا، كان المذهب المعمول به فيها هو مذهب الإمام السورى «الأوزاعى» (المتوفى عام ٧٧٤م - ١٥٧هـ)، وكان يقوم بتدريس ونشر مذهبه فى أسبانيا تلميذه «صعصعة بن سلام الشامى»، مفتى وإمام قرطبة الذى ينسب إليه غرس الأشجار فى صحن مسجد الجامع.

ونظرا للامتياز الذى تمتع به مذهب الإمام مالك فى الأندلس وعاصمتها منذ عهد هشام الأول فقد بدأت تتشكل فى قرطبة منذ ذلك التاريخ ما يمكن تسميته بالأرستقراطية الدينية الثقافية المؤلفة من الفقهاء وعلماء الدين المالكيين.

وكما كان متوقعا فإن هذه الطبقة المميزة سرعان ما تدخلت فى شئون السياسة، فهى تارة تحاول كسب ود الأمير بغرض التأثير فى قراراته والتدخل فى سياسة الدولة، وتتنقلب تارة أخرى على الأمراء الذين يعرضون عنهم ولا يهتمون بهم. وستكون لنا وقفة فيما بعد للتعرف فى القرن التاسع على ربود الأفعال التى أثارها التدخل الزائد عن الحد للفقهاء فى شئون الحكم؛ مثلما سنرى المعارضة التى تبناها بعضهم ضد النظام الحاكم. كما ستكون لنا وقفة فيما بعد نتناول فيها بالتحليل المكانة التى سيحتلها الفكر المالكى فى حياة الأندلس الثقافية.

لكن يهمننا من الآن لفت النظر إلى أن تبني أسبانيا المبكر للمذهب المالكي - بصرامته وعداوته للتجديد - سيجنبها النزاعات الدينية التي بدأت تمزق بقية العالم الإسلامي. وبالطبع فإن الأندلس لن تكون البلد الوحيد الذي سيلجأ إلى الصرامة والشدة في معاقبة حركات التمرد والزندقة؛ لكن هذا الإجراء سيتسم بطابع الفورية على الأراضي الأيبيرية ولن يثير أى احتجاج ولن يستثنى أية طبقة اجتماعية وذلك بفضل الوحدة العقائدية المفروضة على الجميع. والأحكام التي ستصدر بشأن مظاهر المروق ستكون مستندة على الموافقة الضمنية للأمير الذي لن يرضى عن التشدد بديلاً حتى لا يثير انتقادات الفقهاء وغضب العامة من رعاياه. وعلى هذا الأساس ستلعب دولة الإسلام في الأندلس دور الفاعل والراعى للسلفية المتشددة، وستظل سائدة في احترامها الأعمى لفهم جامد للعقيدة، وستجهض دون روية أية محاولة - مهما كانت بسيطة - للاجتهد والتأمل على أساس عقلاني^(٥٤).

الحكم الأول [٧٩٦ - ٨٢٢م]^(٥٥)، وقمع حركات التمرد في الثغور الحدودية :

قضى هشام الأول مايزيد قليلاً عن سبع سنوات في الحكم، ومات عن أربعين سنة في ١٧ أبريل ٧٩٦م (٣ صفر ١٨٠هـ) بعد أن أوصى بتعيين ابنه الثاني «أبو العاص الحكم» خلفاً له مفضلاً إياه على ابنه الأكبر «عبد الملك».

كان عمر الحكم وقتها ستة وعشرين عاماً، ولذا كانت تنتظره سنوات طويلة ليمضيها في الحكم الذي لم تكن نعرف عنه الكثير لولا الاكتشاف الحديث لجزء من مدونة ابن حيان التاريخية يتعلق بعهد. ويوجد تفاوت كبير بين التفاصيل الكثيرة التي يقدمها لنا هذا الجزء من مدونة ابن حيان عن الحكم الأول وخلفه عبد الرحمن الثاني وبين الإشارات المقتضبة والجافة التي قدمتها عن هذين الأميرين المصادر التاريخية الأخرى. ونبدأ الحديث عن عهد الحكم الأول قائلين بأن الاستقرار شبه الكامل الذي شهدته أسبانيا المسلمة خلال العهد القصير لهشام الأول سيتلاشى على الفور بمجرد تولي ابنه الحكم السلطة. وبالرغم من السأم الذي يجلبه الحديث عن حركات التمرد والثورة المستمرة التي تحفل بها عهود معظم الحكام الأمويين إلا أن الواجب يقتضى ذكرها للأسباب التالية : لأنها تحدد إطار سياسة الأمراء الداخلية، وتحول بينهم وبين تنفيذ السياسات الخارجية المناسبة، وتجبرهم في أحيان كثيرة على غض الطرف عن الرد على الهجمات التي يشنها عدوهم المسيحي على ثغورهم الحدودية، ولا تسمح لهم بالتقاط الأنفاس لكي ينظموا أنفسهم من الداخل ويتفرغوا للجهاد ضد «الماركات»

المسيحية في شمال شرق وشمال غرب شبه جزيرة أيبيريا. فمن المعروف أن النيران إذا أمسكت بالبيت لن يهتم أحد من ساكنيه بنهب الجيران لأسواره. ولا ينسحب هذا المثل فقط على حال الأندلس الذي ستظل عليه حتى سقوطها المروع في نهاية القرن الخامس عشر، بل أيضا على بقية الغرب الإسلامي.

وكما هي العادة بدأ الحكم الأول عهده بنزاع أسرى، لكنه - على خلاف المتوقع - لم يكن مع أخيه الأكبر بل مع عميه اللذين نازعا أخيهما هشام الأول السلطة بمجرد انتقالها إليه، وبعد هزيمتهما اضطررا لعبور المضيق إلى شمال أفريقيا حيث استقر سليمان في طنجة بينما طاف عبد الله ببلاد البربر فزار «إبراهيم بن الأغلب» أمير القيروان كما زار «عبد الوهاب بن رستم» إمام «تاهرت» وهناك علم بموت أخيه هشام وتولية ابن أخيه الحكم فأسرع بالجواز إلى الأندلس، علّه يسبق أخاه الأكبر سليمان، فنزل بالثغر الأعلى (سرقسطة) عند «بهلول بن مرزوق» الثائر على الأمير الجديد، ولم تفلح محاولة تمرد عبد الله لأنه لم يجد هناك من يؤيده ويعترف بحقه في الولاية. ولما باءت محاولته بالفشل، توجه في العام التالي (٧٩٧م - ١٨١هـ) بصحبة ولديه «عبيد الله» و«عبد الملك» إلى بلاد الفرنجة لمقابلة شرلمان في مدينة «أكس جران» (AQUISGRAN) ليعرض عليه ما ستحدث عنه فيما بعد.

وفي العام التالي جاء الدور على عم الحكم الأول (سليمان) الذي عاد إلى أسبانيا وجمع جيشا وتهيأ للزحف به على قرطبة مباشرة. وفي خلال عامين التقى ست مرات بقوات الأمير عند «إستجة» (ECIJA) ووادي «شنيل» (GENIL) والوادي الكبير، وانهزم في المرات الست وفي الأخيرة منها بصورة نهائية واضطر بعدها للارتداد إلى «ماردة» وحاول إضرام نار الفتنة بها لكن الزعيم البربري لهذه المدينة (إصبيغ بن وانسوس) قبض عليه وقتله وأرسل رأسه إلى قرطبة فأمر الحكم بتعليقها على رمح والطواف بها في شوارع المدينة، وبعد ذلك أمر - في لمحة كريمة منه - بدفنها في المدافن الملكية إلى جوار مقبرة عبد الرحمن الأول.

أما عبد الله، فقد استطاع بعد عودته من عند شرلمان الاستيلاء على «وشقة» عام ٨٠٠م (١٨٤هـ)، لكن بهلول بن مرزوق (الزعيم الأرجواني الذي سنتحدث عنه فيما بعد) أخرجه منها، فاتجه إلى «بلنسية» ليضرم نيران الثورة بها. وبعد أن خبت آماله في تحقيق ما يصبو إليه عرض الصلح على ابن أخيه واستمرت المفاوضات بينهما مدة لاتقل عن ثلاث سنوات. وفي النهاية قبل الحكم الأول الصلح معه وأرسل إليه الفقيه «يحيى بن يحيى الليثي» ليخبره بعفو الأمير عنه بشرط البقاء في بلنسية وعدم

مغادرتها، وبالفعل أوفى عبد الله بالتزامه وظل بقية حياته حاكما شبه مستقل على «بلنسية»^(٥٦) (حتى أنه عُرف بعبد الله البلنسى) وكان يتلقى راتبا شهريا من الأمير مقدارَه ألف دينار. واستقدم الحكم ولدى عمه عبد الله إلى قرطبة وزوجهما ببنتين من بناته وهما عزيزة وأم سلمى^(٥٧). وسينال أحد هذين الولدين، وهما عبيد الله بن عبد الله، شهرة واسعة ومجدا كبيرا لقيادته جيوش قرطبة بنجاح داخل البلاد المسيحية وسيطلق عليه «صاحب الصوائف».

وإذا تركنا جانبا ثورة عمى الأمير والانتفاضة الشعبية العارمة التي اندلعت فى قرطبة، سنجد أن الحكم الأول قد قضى سنَى حكمه مشغولا بإخماد بُؤر التمرد فى ثغور مملكته بكل من سرقسطة وطليلة وماردة. لقد كانت سرقسطة مصدر صدام دائم لأمرء بنى أمية الأول، وتسبب قريبا من سبتمانيا الفرنجية وبلاد البشكنس (مملكة «نبرة» فى المستقبل) فى إقامتها علاقات اقتصادية وسياسية مع تلك الأقاليم التى مر عليها الإسلام مرور الكرام ولم يمارس سلطته عليها إلا زمنا يسيرا.

أما مستعمرات البربر المتواجدة فى ذلك العصر بوادى نهر «إبره» فكانت كالجزر المنعزلة البعيدة، وكانت بوجه عام مطمعا للمغامرين العرب فى الإقليم ومعتقى الإسلام من الأسبان (المولدين) الذين سيزداد نفوذهم مع الوقت لينتهى بتكوينهم فى «رغون» (أراجون - ARAGON) إقطاعية كبيرة - إن لم نقل إمارة - يتوارثها أفرادها، ونعنى بهم عائلة «بنى قسى». وطبقا لابن حزم فإن هذه الأسرة تنحدر من الكونت القوطى «قسى» الذى اعتنق الإسلام بمجرد وصول العرب، وتحمل عناء السفر إلى سورية ليعان طاعته لخليفة دمشق. وقد قام «موسى بن فرتون» (الذى أشرنا إليه من قبل) حفيد هذا الكونت بمصاهرة «إنييجو أريستا» (IÑIGO ARISTA)^(٥٨) (أول ملك بشكنسى لبنبلونة)، ولذا فإن أولاده وأحفاده تجمعهم الروابط الأسرية بأول سلالة حاكمة لإقليم «نبرة»، وستقوم ذرية موسى هذا بدور سياسى هام فى الثغر الأعلى مع انتصاف القرن التاسع. لكن دور هذه الأسرة لم يكن قد برز كثيرا خلال عهد الحكم الأول، وكانت الشخصية المسيطرة فى أراضى سرقسطة هى شخصية مولد آخر من «وشقة» يدعى «عمروس بن يوسف». كان عمروس نصيرا وفيما أمير قرطبة وساعده عام ٧٩٧م (١٨١هـ) فى القضاء على تمرد طليلة - الذى سنتحدث عنه فيما بعد - ثم على ثورة سرقسطة وبقي حاكما على هذه المدينة حتى وفاته.

بعد قليل من تولى الحكم الأول للسلطة شق «بهلل بن مرزوق» عصا الطاعة وأعلن استقلاله بسرقسطة. ونتيجة لسوء تفاهم عارض مع أمير قرطبة الجديد، حاول

«عبد الكريم بن مغيث» وأخوه «عبد الملك» (القائدان الأثيران لدى هشام الأول) طرد بهلول من سرقسطة والاستيلاء عليها لحسابهما الخاص لكنهما لم يتمكنوا من ذلك. أما الجيش الذي أرسله أمير قرطبة فقد حالفه التوفيق وتمكن من اقتحام المدينة التي فر منها بهلول إلى أعالي إقليم «رغون» (أراجون).

وفي عام ٨٠٠م (١٨٤هـ) ظهر بهلول على مسرح الأحداث من جديد باستيلائه على «وشقة»، وسجل نفس العام قيام أفراد من عائلة «بنى قسى» بعدد من حركات العصيان المتناثرة. في تلك اللحظة قرر الحكم الأول نقل مساعده الأمين «عمروس» من طليطلة إلى سرقسطة وأعطاه السلطة المطلقة التي سمحت له بفرض النظام على الثغر الأعلى بكامله. وصل عمروس إلى سرقسطة عام ٨٠٢م (١٨٦هـ) فتعقب بهلول وقتله، ثم استولى على إقطاعية «بنى قسى» وعاقب مولدى «وشقة» عقابا صارما لما أبدوه من أمارات العصيان.

وفي نفس العام، ويهدف إيجاد نقطة ارتكاز حصينة على تخوم «رغون» (أراجون) و«بسكونية» (VASCONIA)، أنشأ عمروس على ضفة نهر «إبره» اليمنى (فى منتصف الطريق تقريبا بين سرقسطة وبنبلونة) ثغر «تطيلة» (TUDELA) المنيع وجعل عليه ابنه يوسف وأمده بحامية قوية. وقام عمروس فى نفس الوقت بتقوية استحاكومات «وشقة» وولى ابن عمه «شبريت» (SHABRIT) أمرها. ومنذ هذه اللحظة وحتى موت عمروس (فى ٨١٢م - ١٩٦هـ) سيتخفف الحكم الأول من تبعة حفظ النظام فى منطقة سرقسطة وماحولياتها؛ لكن الأمير أحس - قبل سنتين من موت عمروس - أن الأخير يعيش عيشة الأمراء فى قصره على ضفاف نهر «إبره» وأنه يتصرف باستقلالية تامة وخاصة بعدما دخل فى مفاوضات مع «لودوبيكو پيو» (LUDOVICO PIO) دون الرجوع إلى قرطبة. ولكى يعالج الأمير الأمور بحكمة دون تسميم علاقته بعمروس أمر قائده «عبد الكريم بن مغيث» بالسير على رأس جيش إلى الثغر الأعلى وأوصاه بعدم الدخول فى حرب مع عمروس إلا إذا بدرت منه وقاحة على الرسالة الودية التى يحملها إليه من سيده. لكن عمروس أبدى تأثره لما جاء فى الرسالة ولم يستكف عن الذهاب إلى قرطبة ليبرهن على ولائه لسيده الحكم، وعندها أكرم الأمير وفادته بل إنه شرفه بلعب الكرة معه وأعادته إلى سرقسطة مصحوبا بالتبجيل والتكريم.

بعد موت عمروس، أسلم الحكم الأول قيادة الثغر الأعلى لابنه عبد الرحمن، ثم عهد بها بعد ذلك إلى ابن عمروس.

من المعروف أن غالبية سكان طليطلة كانوا من المولدين (مثلها في هذا مثل سرقسطة) وقد ظلت حاضرة الثغر الأوسط تفيض بعوامل الهياج منذ الفتح الإسلامي، لها، وبعد سنة واحدة من تولى الحكم الأول السلطة عادت طليطلة إلى الثورة تحت قيادة ثائر متمرّد يدعى «عبيد الله بن خمير»^(٥٩) وشاعر قرطبي من أصل طليطلي يدعى «غريب بن عبد الله» كان قد اختلف مع العاهل الأموي ولجأ إلى مسقط رأسه حيث ساهم بأشعاره الجارحة في إثارة الرأي العام وإذكاء روح التوتر والاضطراب. وأمام تلك الظروف أمر الحكم الأول عمروس - الذي كان وقتها حاكماً على ثغر «وشقة» وفي مقتبل مشواره السياسي - بالتوجه إلى طليطلة وأعطاه كافة الصلاحيات لاختيار أنجع الوسائل للقضاء نهائياً على التمرد الطليطلي.

تخلص عمروس أولاً من زعيم التمرد «عبيد الله بن خمير» بعد أن أوقعه في كمين، ثم تفرغ لأعيان طليطلة ووجهائها واستطاع القضاء على معظمهم في المجزرة الوحشية المعروفة «بواقعة الحفرة». ويرجع بعض المؤرخين العرب - وتبعهم «دوزي» في ذلك - تاريخ هذه المذبحة لعام ٧٩٧م (١٨١هـ) وعلى هذا فهم يقدمونها عشر سنوات كاملة على تاريخها الحقيقي (٨٠٧م - ١٩١هـ)^(٦٠).

وتفاصيل هذه المذبحة المروعة تقول أن عمروس بعد أن استقر بطليطلة وتمكن من القضاء على «ابن خمير» حاول كسب ثقة الطليطليين عن طريق تظاهره بالتعصب للجنس الأسباني وإبداء كراهيته لبنى أمية وللعرب، وأخبرهم أن سبب عداوته للأمير هو تواجد جنوده بداخل المدينة وشغلهم لبيوت الطليطليين، ومن هنا فقد أقنع السكان بضرورة بناء حصن شمال غرب المدينة (بالقرب من قنطرة نهر تاجه) يكون مأوى له ولجنود الحامية. ولما انتهى من بناء الحصن أعلم عمروس الأمير بأنه أتمه وانتقل إليه مع جنوده، فأسرع الحكم - حسب الخطة الموضوعة - بأمر أحد قواده في الثغور بأن يكتب إليه مدعياً أن حركة بدت من العدو - وذلك حيلة منه حتى يتمكن جيشه من الاقتراب من طليطلة دون إثارة ريبة أهلها -، ولما وصل كتاب القائد أمر الحكم بزحف الجيش وعلى رأسه ابنه عبد الرحمن (ولم يكن قد تجاوز وقتها الأربعة عشر عاماً). عندما وصل الجيش إلى ضواحي طليطلة خرج عمروس وأعيان المدينة للقاء ولي العهد وطلبوا منه تشريف مدينتهم بالزيارة. وبعد إلحاحهم عليه قبل ولي العهد دعوتهم، وعندئذ وجه عمروس الدعوة لوجهاء المدينة لحضور حفل العشاء الكبير الذي أعده في الحصن تكريماً لابن الحكم. وعندما أقبل الأعيان (من المولدين) في الموعد المحدد لم يؤذن لهم في الدخول إلى الحصن إلا واحداً واحداً بحجة تفادي الزحام، وكان قد تم

لاستعداد داخل الحصن فحفرت حفرة كبيرة وعلى جانبيها عدد من الجلادين، وحينما يصل الواحد منهم - ومن خلال معر ضيق - إلى تلك الحفرة يتلقونه بالسيوف ويلقونه فيها. ويحدد بعض المؤرخين عدد من قتلوا في ذلك اليوم بخمسة آلاف بينما يجعلهم البعض الآخر سبعمائة (وهو رقم كبير في جميع الأحوال).

ومن السهولة تخيل وقع المذبحة على من بقوا أحياء في طليطلة وعلى المولدين في بقية المدن الأندلسية.

كانت هذه المذبحة بمثابة ضربة شديدة للمدينة الثائرة جردتها من زعمائها وقضت لعدة سنوات على روح الثورة فيها حتى بعد خروج الداهية عمروس منها وذهابه لسرقسطة في مهمة جديدة كلفه بها الأمير. ومع هذا تمكنت بمرور الوقت غريزة التمرد من نفوس الطليطليين مجددا ابتداء من عام ٨١١ / ٨١٢ م (١٩٦ هـ) وتكررت ثوراتهم في الأعوام الثلاثة التالية لدرجة أن الأمير اضطر بعد ذلك (في ٨١٨ / ٨١٩ م - ٢٠٣ هـ) لإرسال جيش لحصار حاضرة الثغر الأوسط لكن دون التوصل - كالعادة - لنتائج إيجابية.

وفي نفس ذلك الوقت شهد الثغر الأدنى صراعا مع المولدين والبربر المتمردين. اندلعت في «ماردة» حركة التمرد التي ساهم فيها المستعربون وقادها الحليف القديم لقرطبة «إصبيغ بن وانسوس»، واستمرت عملية قمعها، التي بدأها الحكم عام ٨٠٦ م (١٩٠ هـ)، سبع سنوات. مات الإصبيغ عام ٨٠٧ / ٨٠٨ م (١٩٢ هـ) ولم تستسلم «ماردة» إلا عام ٨١٣ (١٩٧ هـ)، لكنها عادت للتمرد عام ٨١٧ م (٢٠١ هـ) واضطر الحكم لإرسال ولده عبد الرحمن على رأس جيش إليها.

في خلال تلك الفترة - وبالتحديد في ٨٠٨ / ٨٠٩ م (١٩٣ هـ) - قاد مغامر آخر يدعى «توملوس» (TUMLUS) تمردا في لشبونة، فأرسل الحكم إليها حملة يقودها ابن ثان له (الأمير هشام)، وتمكن هشام من قتل زعيم التمرد وإخضاع المنطقة الواقعة بين لشبونة و«قلمرية» (COIMBRA).

ثورات قرطبة : مؤامرة ٨٠٥ م، وانتفاضة ٨١٨ م :

علاوة على هذه القائمة العريضة للتمردات الرئيسية التي أنفق الحكم الأول القسط الأعظم من عهده في إخمادها، لازال يوجد حدثان خطيران - لايفصل بينهما سوى ثلاثة عشر عاما - أدبيا قرطبة وكاد أحدهما - على الأقل - أن يتسبب في

ضيا ع عرش الأمويين فى أسبانيا على يد أميرهم الثالث. ومن باب إحقاق الحق تجدر الإشارة إلى أن العباسيين لم يكن لهم يد - خفية أو ظاهرة - لافى هذين الحدثين ولا فى التمردات الأخرى لأنهم تخلوا منذ زمن عبد الرحمن الداخل عن فكرة السيطرة على الأندلس.

ويمكن القول كذلك بأن الحركات الدينية لم تجد فى أسبانيا خلال القرن التاسع - وقبل ظهور الدعوة الفاطمية - أرضا خصبة للانتشار (وهذا على عكس النجاح العريض الذى حققته فى بقية أنحاء العالم الإسلامى وأدى إلى حدوث انشقاقات وحالات مروق وهرطقة)، وكل مايمكن اكتشافه خلال عهد الحكم الأول ينحصر فى - محاولتين ذات طابع سياسى من جانب البربر الخوارج فى منطقة «مورور» و«الجزيرة الخضراء»^(٦١)؛ لكن العاهل الأموى أبطل مفعولهما فى الحال. وعلى هذا فإن دعوة الخوارج - الواسعة الانتشار فى شمال أفريقيا - لم تلق أبدا رواجاً على الأرض الأسبانية، والدليل على هذا أن ابن حزم لن يشير - بعد قرنين من الزمان - إلا إلى مجموعة منعزلة من السكان تدين بهذه الدعوة وتعيش فى «بلفيق» (VELEFIQUE) بأراضى ألمرية^(٦٢).

لاشك أن قرطبة كانت - فى العصر القوطى - مدينة هامة تعج بالسكان، لكن أهميتها زادت وتغيرت ملامحها كثيراً منذ عهد عبد الرحمن الأول؛ وبعد أن أصبحت عاصمة للإمارة الأموية فى الأندلس نزحت إليها جموع غفيرة من العرب القادمين من الشرق وأفريقيا بالإضافة إلى أعداد أخرى من المغاربة نوى الأصول البربرية. وقد رأينا من قبل كيف لجأ عبد الرحمن الأول إلى زيادة رقعة مسجدها الجامع عام ٧٨٥م (١٦٩هـ) لمواجهة الزيادة المطردة فى أعداد المسلمين بها. ولما جاء هشام وأعاد بناء الجسر الرومانى القديم على نهر الوادى الكبير فى جنوب المدينة، كان من الطبيعى أن يمتد العمران إلى الضفة اليسرى للنهر والمواجهة للمدينة، وبهذا الشكل ظهر على هذه الضفة حى أهل بالسكان (الربض) يمتد من ضفة النهر حتى بلدة «شقنדה» (SECUNDA) المجاورة. ولم تكن سكنى هذا الحى مقتصورة على دهماء قرطبة والحرفيين وصغار التجار من المولدين والمستعربين، بل إن قربه من مسجد قرطبة ومن قصر الإمارة ومن الشارع الحيوى المسمى «المحجة العظمى» الذى ينتهى عند القنطرة، قد جعل كثيراً من القرطبيين الذين يدرسون أو يعملون بالمسجد أو قصر الإمارة يفضلون سكنى هذا الحى. ومن ضمن هؤلاء نشير إلى غالبية تلاميذ أنس بن مالك الذين أصبحوا فقهاء مميزين ومؤثرين. ولم يلبث حى الربض طويلاً حتى تحول إلى

مركز معارضة داخل قرطبة نتيجة لمخالطة الفقهاء لعناصر الشغب في الطبقة الشعبية. ومن جهة أخرى، لاقت معارضة الحى تعاطفا ومؤازرة من سكان قرطبة ذاتها.

وإضافة إلى ماتقدم، فلم تكد تمضى عدة سنوات على ولاية الحكم الأول حتى سادت موجة من النفور والسخط بين جميع طبقات قرطبة الاجتماعية، وأخذ الناس ينعتونه بالطغيان وعدم الاكتراث بما يحصل منهم من ضرائب وبالانصراف عن الاعتدال والميل للعنف وبعده عن رعيته وإكثاره من المرتزقة الأجانب حوله.

وزادت حدة التوتر في قرطبة عندما سرت الأنباء ذات يوم بإعدام الحكم الأول لاثنتين وسبعين مواطنا - من بينهم شخصيات معروفة - وعزمه على صلبهم على الكورنيش الأيمن لنهر الوادى الكبير (المسمى بالرصيف) من باب القنطرة حتى «المصاراة» (المكان الذى هزم فيه عبد الرحمن الأول يوسف الفهرى، وكان يوجد به مصلى غير مسقوف يستخدم فى صلاة العيدين) (٦٣).

وتفاصيل هذه الحادثة التى جرت فى مايو ٨٠٥م (جمادى الآخر ١٨٩هـ) كانت كالتالى : اجتمع عدد كبير من أعيان قرطبة وفقهائها وقرروا إقالة الحكم واستبداله بابن عمه «محمد بن القاسم» (٦٤). تظاهر الأموى بالقبول، لكنه أطلع الحكم على المؤامرة وأخبره بأسماء المتآمرين. وعلى الفور أمر الحكم فى نفس اليوم بالقبض عليهم وسلمهم للجلادين، كما أمر فى نفس الوقت باغتيال عمين آخرين له كان قد أودعهما السجن بعد ولايته وتعنى بهما : مسلمة (الملقب بكليب) وأمىة (ابنا عبد الرحمن الداخل)، كان من بين المصلوبين : ابن قاض قديم لقرطبة؛ مفتش أسواق المدينة (صاحب السوق) وتلميذ مالك بن أنس الفقيه يحيى بن مضر.

كان وقع هذا الإجراء الدموى شديدا على قرطبة وتعالّت موجة السخط بها : فالهرج والمرج يسودان اللقاءات العامة، والمؤمرات تحاك فى المساجد، وفى كل مكان ينتشر الجواسيس والوشاة. وعلى الجانب الآخر، لم يقف الحكم مكتوف الأيدى بل أمر بترميم أسوار قرطبة وسد فجواتها، وحفر خندق حول السور، وتحصين أبواب قصره، وفتح «باب جديد» (بالقرب من الزاوية الجنوبية الشرقية لسور قرطبة) يؤدى إلى طريق يفضى إلى مخاضة بالنهر على مقربة من المدينة (٦٥). كما كدس قصره بالسلاح والعتاد، وجلب من خارج أسبانيا عبيدا جددا لحرسه الخاص الذى عهد بقيادته لزعيم الجالية المسيحية بقرطبة القومس (كونت) ربيع (ابن تيودولفو - TEODULFO).

وسجل العام التالى (٨٠٦م - ١٩٠هـ) حدوث شغب فى جنوب حى الرىض عندما تطاول التجار على رئيس شرطة الأسواق وتظاهروا بأسلحتهم فى الشوارع.

كان الحكم يقود وقتها الحصار المضروب حول «ماردة» ولما علم بالحادث عاد على وجه السرعة إلى قرطبة «في ثلاثة أيام فقط» ليحقق بنفسه في الموضوع. قبض على المحرض الرئيسي للشغب، وهو تاجر بحى الربض، وعلى عدد آخر من المتورطين وتم قتلهم جميعا وصلبهم. وبالرغم من محدودية هذا الحادث إلا أنه يعتبر مؤشرا لحالة الغليان في المدينة ومقدمة للتمرد الخطير الذي سيحدث في نفس الحي بعد اثني عشر عاما.

في خلال تلك الأعوام الاثني عشر كانت حدة التوتر تزداد بين الجماهير، ولم يدخر الفقهاء (الغاضبون من إهمال الأمير لهم) وسعا في استغلال تأثيرهم على العامة والنفخ في النار المستكنة بين الجنوات.

وبالرغم من التورط السافر لكل من «يحيى بن يحيى الليثي» و«طالوت بن عبد الجبار» في الانتفاضة الشعبية التي شهدتها العاصمة قرطبة في ٢٥ مارس ٨١٨هـ (١٣ رمضان ٢٠٢هـ) وقمعها الأمير الأموي بشراسة غير مسبوقة، إلا أنه من قبيل المبالغة تحميل هذين الفقيهين مسئوليتها الكاملة^(٦٦).

قبل العصيان العام بقليل كان الحكم قد فرض ضرائب استثنائية (مغارم) وعهد بتحصيلها للقومس ربيع (متولى المعاهدين بالأندلس من الأنصارى) فأضاف إلى استنكار الناس لهذه الضرائب نفورهم من أن يتولى جبايتها منهم نصراني. وعلى هذا فقد كانت تكفى مجرد شرارة لاندلاع النار في الهشيم، وتمثلت هذه الشرارة في حادث بسيط مفاده أن جنديا من حرس الأمير ذهب إلى حداد من الريض ليصلح له سيفه وعندما تباطأ الحداد فقد الجندي صبره وقتله.

في نفس ذلك اليوم كان الحكم قد ذهب إلى الصيد في جنوب العاصمة وعند عودته وعبره حي الريض متجها إلى قصره تعرض له أهل الحي بالقول وصفقوا عليه بالأكف فقبض الحراس الذين كانوا في معيته على عشرة منهم وصلبواهم في الحال. لم يكد الأمير يدخل قصره حتى تعالت همهمات التمرد المخيفة على الجانب الآخر للنهر. أغلقت المحال والمتاجر وتوجه - في جماعات - التجار والحرفيون وبقية العامة المسلحين بالسكاكين والفئوس والمطارق نحو قنطرة الوادي الكبير يريدون اقتحام أبواب قصر الأمير.

قام اثنان من حاشية الأمير - وهما حاجبه «عبد الكريم بن مغيث»، وسكرتيه «فطيس بن سليمان» - باتخاذ التدابير اللازمة. وبينما كانت الميليشيات تقوم بدوريات

لحفظ النظام فى مدينة قرطبة، جمع عبد الكريم وفطيس ماوصلت إليه أيديهما من قوات وحاولا بها صد طوفان الثائرين الذى كان يتضخم دون هوادة، لكن مقاومتهما بدأت تضعف وتمكنت الجموع من اختراق صفوفهما ولم ينقذ الموقف إلا حيلة نفذها قائدان من قواد الحكم وهما عبيد الله (صاحب الصوائف وابن عبد الله البلبسى) والروانى «إسحاق بن منذر». قام هذان القائدان بتجميع الفرسان النظاميين المنتشرين فى قرطبة وتسלّلوا من «الباب الجديد» وأسرعوا بخيولهم فى اتجاه مخاضة «الرملة» (RAMBLA) ثم عبروا النهر واستتروا بمرتفع صغير يسمى «دمنة الخشابين» حتى وصلوا إلى بيوت حى الربض.

تنبه الثائرون للتهديد القادم من الخلف، ولما رأى المدافعون عن القنطرة رفقاءهم الزاحفين من المؤخرة اندفعوا للهجوم فبات الثوار محصورين بين نارين وتششت جموعهم. من تلك اللحظة أصيب التمرد بالشلل وبدأت المذبحة الجماعية. أرخى الحكم - الذى نجا بأعجوبة من غضب العامة - لجنوده العنان فى إمعان القتل والتخريب. استمرت المذبحة وأعمال السلب والنهب، الغير مسبوقين، ثلاثة أيام، ولم ينج منهما شارع أو حارة أو بيت، ولو لم يصغ الحكم لغير سكرتيه «فطيس» لذبح أهل الحى عن بكرة أبيهم؛ لكن توسلات وزيره «ابن مغيث» جعلته يوقف المذبحة أخيراً وإن كان قد أمر بالاستيلاء على كل مخارج الحى من جهة الضفة اليسرى للنهر لحين النظر فيما سيفعله. وبعد أيام قلائل أعلن حكمه على الملاء :

إعدام وصلب ثلاثمائة من المتمردين الباقين على قيد الحياة؛ الإبقاء على حياة بقية أهل الحى بشرط مغادرتهم الفورية لقرطبة؛ تسوية الحى كله بالأرض وزراعته. ونفذت الأوامر بحذافيرها، ولم يجرؤ أحد من خلفاء الحكم حتى نهاية القرن العاشر على مخالفة الحظر والبناء على أرض الحى القديم ولو بناية متواضعة.

أرهب هذا القمع الدموى سكان قرطبة لفترة طويلة، وبسببه التصق بفاعله (الحكم الأول) لقب «الربضى»، والمؤرخون المسلمون يميزونه بهذا اللقب عن الخليفة الثانى للأندلس : الحكم الثانى (الملقب بالمستنصر بالله).

بدأ نزوح جميع أهالى حى الربض - باستثناء الفقهاء وعائلاتهم الذين عفا عنهم الحكم - قبل نهاية نفس الشهر الذى شهد الانتفاضة (رمضان ٢٠٢هـ - النصف الأول من أبريل ٨١٨م). ويقدر بعض المؤرخين عدد العائلات التى رحلت عن الحى بما لا يقل عن عشرين ألف عائلة. توجهت أعداد قليلة من الربضيين (وهذا اللقب قد التصق

بهم أيضا إلى طليطلة على أمل تعاطف أهالى تلك المدينة العاصية معهم، لكن غالبيتهم فضلوا ترك البلاد كلية وعبور البحر خوفا من أن يلحق بهم بطش الحكم فى أى مكان يحلون فيه بالأندلس. وفى الطريق إلى البحر المتوسط تعرضت قوافلهم المتواضعة لبعض المضايقات، ويعد عبورهم المضيق توجه معظمهم إلى المغرب حيث استقروا بين قبائل «الريف» وجبل البربرية، وفى المدن القليلة الموجودة بالمنطقة.

فى ذلك الوقت كان الأمير إدريس الثانى يبحث عن سكان لعاصمته (مدينة فاس) التى أسسها والده إدريس الأول عام ٧٨٩م (١٧٢هـ). كما كانت لدى إدريس الثانى مدينة أخرى تسمى «عالية» كان قد انتهى من تشييدها وتعميرها بالمنشقين الأفارقة ومعظمهم من القيروان. أما مدينة إدريس الأول (فاس)، الواقعة على ضفة جدول صغير فى مواجهة «عالية»، فقد كان يسكنها البربر وحدهم. ولما كان إدريس الثانى مهتما بعدم جعل طابع مدينة أبيه وعاصمته بربريا خالصا فقد وجد فى هجرة الربضيين نجدة له، ومن ثم فقد عرض عليهم الإقامة بفاس وقدم لهم جميع التسهيلات الممكنة. واستجاب الأندلسيون لطلبه وأقامت بضعة آلاف منهم فى الحى الذى خصصه لهم فى مواجهة «عالية» (المسماة بمدينة القروانيين)، ولم يمض وقت طويل حتى سمي المكان الذى أقاموا فيه بمدينة الأندلسيين التى نقلوا إليها مظاهر الحياة الأندلسية الراقية خصوصا وأن معظمهم كان ممن يجيد الحرف والصناعات والزراعة وفنون العمارة وتنسيق الحدائق.

وطبقا للمؤرخين العرب فإن مجموعة أخرى من الربضيين المنفيين كانت لديهم طموحات أكثر وبدلا من الاقتصار على العبور إلى أفريقيا قررت القيام بمغامرة فى وسط البحر المتوسط أو شرقه، وفى يوم موعود ألفت سفنهم مراسيها أمام مدينة الاسكندرية. وماتلى ذلك من أحداث رواها مؤرخو مصر الإسلامية بتواريخ تبدو وكأنها سليمة لكنها لا تكاد تسمح بمطابقة هؤلاء المغامرين الأسبان بالربضيين المنفيين عام ٨١٨م.

وإذا كان هؤلاء المؤرخون المصريون يتحدثون عن قرطبيين - وهذا شئ شبه مؤكد - فإن التاريخ الذى أثبتوه لهم يعنى أنهم خرجوا من أسبانيا قبل اندلاع ثورة حى الربض الشعبية، وسبب مغادرتهم أسبانيا فى هذه الحالة يمكن أن يكون نتيجة لاضطرابات سابقة أو لمبادرة خاصة أو تنفيذ لأمر معين صدر لهم. وفى جميع الأحوال فمن قبيل المؤكد أن هؤلاء القرطبيين لم يكونوا بحارة متمرسين ولذا يغلب الظن بأنهم استعانوا ببشارة من السواحل الأسبانية، ومن المعروف أن «أندلوثة»

(ANDALUCIA) و«ليبانتي» (LEVANTE) كان يكثر بهما في ذلك العصر البحارة المهرة الذين لا يخشون مهاجمة السفن التجارية في عرض المتوسط والدليل على هذا أن أحد المؤرخين - وهو «إيخيناردو»^(٦٧) - قد ذكر بأن شرلمان اضطر لاتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة أعمالهم القرصانية.

ومما تقدم يتضح أن المؤرخين المسلمين - غير المكتثرين عادة بمشاكل التواريخ - قد استسهلوا مضاهاة قرصنة مطلع القرن التاسع الأندلسيين بمن بقوا على قيد الحياة من مذبحة الريض. وفي هذا يكمن سبب اضطرار بعضهم لتقديم تاريخ ثورة الريض أربع سنوات كاملة^(٦٨).

على أية حال، فقد كانت مغامرة هؤلاء الأسبان في الشرق فريدة بكل المقاييس، ولذا تستحق منا بعض الكلمات. حينما وصل هؤلاء الأندلسيون إلى السواحل المصرية، انتهزوا فرصة الاضطرابات الموجودة فيها نتيجة للخلاف بين الخلفاء العباسيين واستولوا على مدينة الإسكندرية وأسسوا فيها جمهورية صغيرة بمساعدة العرب اللخميين وبعض الطوائف الدينية. وفشلت محاولة قام بها السكندريون لطردهم واستمرت الجمهورية الأندلسية لمدة عشر سنوات إلى أن قام الحاكم «عبد الله بن طاهر»^(٦٩) بحصارهم في مايو ٨٢٧م (صفر ٢١٢هـ)، وبعد عدة أيام من الحصار استسلم الأندلسيون وتعهدوا بالجلء عن الإسكندرية وترك مامعهم من عبيد وبعدم النزول من جديد بأى أرض تابعة للعباسيين. وهكذا أبحر الأندلسيون واتجهوا إلى جزيرة «كريت» (CRETA) التابعة فى ذلك الوقت للدولة البيزنطية واستولوا عليها تحت قيادة «أبى حفص عمر البلوطى» (نسبة إلى ناحية «حفص البلوط»). واستمر حكم هذه الجزيرة فى ذرية «أبى حفص» إلى أن قام - عام ٩٦١م، وبعد محاولات سابقة فاشلة - القائد (والامبراطور فيما بعد) «يقفور فوكس» (NICEFORO FOCAS) باسترداد الجزيرة لحساب الامبراطور «رومانو الثانى» (ROMANO, II)^(٧٠). ومنذ استيلاء الأندلسيين على كريت وحتى تاريخ عودتها إلى حظيرة الامبراطورية البيزنطية - أى حوالى قرن ونصف تقريبا - تحولت الجزيرة إلى قاعدة بحرية هامة للأساطيل الإسلامية التى أخذت تُغير على جزر بحر «إيجة» (EGEO) وتهاجم السفن التجارية، وأصبحت مصدرا للرعب والذعر فى وسط وشرق البحر المتوسط.

الصراع مع مملكة «أشتوريش» فى عهد الحكم الأول :

بالرغم من أن عهد الحكم الأول امتد لأكثر من ربع قرن من الزمان إلا أن شغله الدائم بقمع الثورات داخل ثغور مملكته ومواجهة اضطرابات عاصمته لم يمكناه من

احتذاء سيرة والده هشام الأول فى مواصلة الجهاد وإرسال الحملات السنوية (المعروفة بالصوائف) إلى تخوم أسبانيا الإسلامية فى اتجاه أراضى «أشتوريش» أو «سبتمانيا» الفرنجية. ولهذا السبب شهدت فترة حكمه توغل مسيحيى شمال غرب وشمال شرق أسبانيا داخل أراضى الدولة الأموية؛ علاوة على تراجع عمليات المسلمين العسكرية فى إقليم البرانس وجبال «كنتبريا».

وتمدنا مدونة ابن حيان التاريخية ببعض المعلومات المفصلة عن الأنشطة العسكرية فى بداية عهد الحكم الأول ضد مملكة أشتوريش. وفى كثير من الأحيان لا تتفق هذه المعلومات (التي لم تنشر بعد) مع النتائج التى توصل إليها المؤرخون المحدثون - مثل «كوديرا» (CODERA)^(٧١)، «بارو ديهيجو» (BARRAU-DIHIGO)^(٧٢) - ولا مع المصادر العربية أو اللاتينية الأخرى المتاحة حتى وقتنا الراهن.

وعلى سبيل المثال فقد تحدث ابن حيان عن تفاصيل أول حملة أعدها الحكم العام التالى لتولييه السلطة (٧٩٦م - ١٨٠هـ)، وكنا قبل اكتشاف الجزء المكمل لمدونته التاريخية لانعرف عنها سوى نتف من أخبار مجملة. كان هدف هذه الحملة - التى قادها عبد الكريم بن مغيث - الإقليم المعروف بالقلع أو قشتالة القديمة. توغل القائد المسلم فى وادى «إبره» واستولى على ثغر «قلهرة» (CALAHORRA) ومنه أرسل كوكبة من الفرسان لاستطلاع المنطقة الواقعة أقصى شماله الغربى؛ وبعد ذلك تبع فرقة الاستطلاع ببقية قواته واجتاز جميع الأراضى التى صادفته دون مقاومة حتى وصل لساحل «سانتندر» (SANTANDER)، ومن هناك أخذ طريق العودة إلى قرطبة «تعوق مسيرته - طبقا لابن حيان - كثرة الأسلاب والغنائم التى استولى عليها». وبعدها شغل الحكم بنزاعه مع عميه ولم يستطع لعدة سنوات إرسال صائفة جديدة لمملكة «أشتوريش».

وفى المقابل، انتهز ألفونسو الثانى الفرصة وهاجم لشبونة واستولى عليها عام ٧٩٨م (١٨٢هـ)، ثم أرسل سفراءه لشرلمان فى «أكس جران» ليزقوا إليه البشرى. لكن استيلاء ملك «أشتوريش» على لشبونة لم يدم طويلا لأن المسلمين استردوها منه عام ٨٠٨/٨٠٩م (١٩٣هـ) فى الحملة الى قادها ابن الحكم - وأشرنا إليها من قبل - ولم يكتف فيها باسترداد تلك المدينة الواقعة عند مصب نهر «تاجه» بل أخضع الإقليم الممتد شمالها حتى قلمرية.

ويعتبر سقوط برشلونة فى أيدي الفرنجة عام ٨٠١م (١٨٥هـ) أهم الأحداث التى جرت فى عهد الحكم الأول على الإطلاق (وسنعود لهذه النقطة بالتفصيل فيما بعد).

أما الحملة التي أرسلها الأمير الأموي في نفس العام تحت قيادة أخيه معاوية لى «ألبه» و«القلاع» فقد فشلت فشلا ذريعا، ويتفق مارواه ابن حيان عنها مع ما جاء في مصدرها الوحيد حتى الآن وهو المصدر اللاتيني^(٧٣). في تلك الصائفة التي لاقى فيها الجيش القرطبي خلال شهر رمضان (سبتمبر / أكتوبر) هزيمة نكراء بأحد ممرات سلسلة جبال كنتبريا^(٧٤) فقد الأمير معاوية زهرة فرسانه وتمكن من الإفلات بصعوبة والعودة إلى قرطبة حيث مات كمدا وحزنا بعد أشهر قلائل.

وبعد مرور عامين على هذه الصائفة المشئومة - أى في عام ٨٠٣م (١٨٧هـ) - توجه عبد الملك بن مغيث (الذى عاد للانضواء هو وأخوه عبد الكريم تحت لواء الحكم الأول بعد سوء تفاهم عارض معه) على رأس حملة صيفية جديدة إلى «ألبه» و«القلاع»، ثم عاد إلى قرطبة بعد جولة طويلة عرج فيها على سرقسطة. وإشارة ابن حيان المقتضبة عن حملة عبد الملك بن مغيث هذه تجعلنا نظن بأن نتائجها كانت سلبية. ولم تسجل السنوات الخمس التالية أى نشاط حربي للمسلمين ضد مملكة أشتوريش؛ وفي عام ٨٠٨م (١٩٢هـ) نجد إشارة موجزة عن صائفة ضد «جليقية» كان على رأسها الأمير هشام (أحد أبناء الحكم الأول) واجتازت أراضي البرتغال الحالية ثم عادت مظفرة إلى قرطبة. وبعد هذه الصائفة مرت ثمانية أعوام أخرى توقف فيها الحديث عن حملات جديدة في شمال غرب أسبانيا.

أما مملكة أشتوريش فقد استغلت فترات تعطل الجهاد الإسلامي وشنت غارات عديدة على الأراضي الإسلامية تأخر الرد عليها حتى عام ٨١٦م (٢٠٠هـ). في هذا العام قرر الحكم الرد لاسترداد هبة المسلمين فأرسل جيشا قويا بقيادة حاجبه «عبد الكريم بن مغيث» إلى قبائل البشكنس التي تحالفت مؤخرا مع ألفونسو الثانى. كانت «بنبلونة» عاصمة «بسكونية» (VASCONIA) - قد خرجت عن السيطرة الإسلامية عام ٧٩٨م (١٨٢هـ)^(٧٥) بعد أن قتل أهلها العاهل الأموي «مطرف بن موسى بن قسى» واختاروا زعيما من بينهم يدعى «بلاسكو» (VELASCO). توجه جيش المسلمين نحو هدفه الرئيسى وهو «بلاسكو»، ثم إلى تخوم «ألبه» وواصل تقدمه بعد ذلك حتى بلغ إقليم القلاع «قشتالة القديمة» حيث التقى بقوات الملك ألفونسو الثانى ودارت المعارك بينهما ثلاثة أيام متواصلة فر بعدها جيش أشتوريش مخلفا وراءه كثيرا من القتلى، من بينهم - طبقا لابن حيان - خال ألفونسو الثانى المدعو «غرسيه بن لب» (وأمه أخت الملك برمودو الأول) وزعيم بشكنسى يسمى «شانجة» (SANCHO). حاول المسلمون تعقب الفارين لكنهم أسرعوا نحو ممر ضيق بين الجبال يجرى فيه تيار من الماء وسدوه

بجنوع الأشجار والحجارة، وكان هذا الحاجز الطبيعي سببا في وقف المطاردة وعودة القوات المسلمة إلى قواعدها في يونيو ٨١٦م (ذى الحجة ٢٠٠هـ).

تحدث عن هذه الحملة التي جرت وقائعها في صيف ٨١٦م، ولكن بتفاصيل أقل كثيرا، مؤرخون عرب آخرون، بالإضافة إلى مدونة «ناخيرنس» (NAJERENSE) اللاتينية. ولأن «دوزى» و«كوديرا» و«بارو ديهيجو» اعتمدوا على هذه المصادر المقتضبة فقد اعتقدوا بأن الحملة كانت موجهة إلى «جليقية» في حين أن هدفها - كما رأينا - كان بسكونية وقشتالة القديمة. وقد نتج عن خلطهم في تحديد هدف الحملة انحراف استنتاجاتهم عن وجه الحقيقة، وعلى سبيل المثال فقد حاولوا مضاهاة الاسم العربى للنهر الذى وقعت عنده المعركة (وادي أرون WADI ARUN) بنهر آخر وهو «نهارون» (NAHARON)، والمكان القريب من النهر بـ «نارون» (NARON) (وهى قرية جليقية بإقليم «فرول» FERROL)^(٧٦). لكننا لو أردنا الاستدلال على مكان المعركة وعلى أعلامها الجغرافية فعلينا الاتجاه بالبحث ناحية أقصى الشمال، عند المنحدر الجنوبي لسلاسل جبال كنتيريا، بالقرب من أعالي وادي «إبره». وعلى هذا الأساس فمن المرجح أن الموقعة جرت عند قرية «أرون» (ORON)^(٧٧) القريبة من «ميراندا» (MIRANDA) «إبره» ومن ممر «بانكوربو» (PANCORBO) الضيق الذى يجرى فيه - أسفل الطريق والخط الحديدى اللذين يربطان «إيرون» (IRUN) بمدير - التيار المائى المسمى «أورونثيو» (ORONCILLO). على أية حال، فقد كانت صائفة ٨١٦م هى آخر حملة يرسلها الحكم الأول إلى أراضى أشتوريش والبشكنس، وممرت الست سنوات الباقية من عهده دون القيام بأى نشاط حربي فى شمال غرب أسبانيا^(٧٨) وربما يكون هذا راجعا لعقد هدنة بين الطرفين. ومن جهة أخرى فقد شهد شمال شرق أسبانيا - فى نفس الفترة - توقفا آخر للحرب بين الفرنجة والعاهل الأموى.

الهجمات الفرنجية على برشلونة وطرطوشة (TORTOSA)^(٧٩):

لم تكد تمضى خمس سنوات على ولاية الحكم الأول حتى سقطت برشلونة فى أيدي الفرنسيين (عام ٨٠١م - ١٨٥هـ)، ولم تستطع أسبانيا الإسلامية مداواة جرحها العميق باسترداد هذا الثغر ثانية. ولهذا السبب يقتصر المؤرخون العرب - المجمعون هذه المرة على تحديد التاريخ - على الإشارة المائلة إلى سقوط عاصمة قطلونية دون عرض تفاصيل ما حدث.

وبالرغم من أن ابن حيان لم يقدم لنا فى «المقتبس» التفاصيل التى كنا ننتظرها منه عن هذا الحدث الكبير إلا أنه يسوق بعض المعلومات التى لم نكن نعرف عنها شيئا إلا عن طريق المراجع المسيحية الخاصة بسيرة شرلمان مما يؤكد مصداقيتها.

وفيما يلي نقدم عرضا لما حدث طبقا للمصادر الإفرنجية التي يكمل بعضها بعضا :

في نهاية القرن الثامن قام عبد الله البلنسى (عم الحكم الأول) بالذهاب إلى «أكس جران» ليحرض شرلمان على إرسال حملة تنطلق من «جيرنده» صوب برشلونة ودلتا نهر إبره. في نفس الوقت أبدى ملك أشتوريش (ألفونسو الثاني) لامبراطور فرنسا استعدادة لمساعدته والاعتراف بسيادته في حالة قيامه بأي عمل عسكري في تلك المنطقة القريبة من البرانس. وبالإضافة إلى ماتقدم فقد قام حاكم برشلونة المسلم (ويدعى «زادو» Zado، أو «زاطو» Zato) بالذهاب هو الآخر إلى «أكس جران» ليعد شرلمان بتسليمه المدينة لأول فرقة فرنجية تظهر أمام أسوارها.

أيقظت هذه الوعود الوردية في شرلمان ذكرى مغامرته الفاشلة على سرقسطة عام ٧٧٨م؛ لكنه وجدها فرصة للانتقام للهزيمة المرة التي أنزلها المسلمون منذ أربع سنوات عند «أربيو» (ORBIEU) بعامله على «تولوشة» (TOLOSA)، الدوق «جيين». ونظرا للحيرة بين ذكرى سرقسطة الأليمة والانسياق لشهوة الانتقام أرجأ شرلمان اتخاذ القرار. لم يتخذ شرلمان قرار القيام بعمل عسكري في أراضي المسلمين إلا عام ٧٩٨م في المجلس الذي عقده ابنه لويس بمدينة «تولوشة» وحضره ممثلون عن زعيم سرقسطة المتمرد «بهلول بن مرزوق». وفي حيلة تامة أعدت الحملة (ونكرها لم يرد في أية مدونة عربية) التي اقتصر هدفها على احتلال المنطقة الجبلية الواقعة بين «جيرنده» وأعلى وادي «سيجري» (SEGRE)، وتوجد بها الثغور المنيعه التالية : «أوسونا» (AUSONA)، «كسيرا» (CASERRAS) و«كردونا» (CARDONA). في العام التالي (٧٩٩م) سحب «لودوبيكو» (LUDOVICO) والده شرلمان إلى «ساخونيا» (SAJONIA) ولم يعد لأكيثانيا إلا عام ٨٠٠م. وفي الفترة التي قام فيها شرلمان بالذهاب إلى روما لتتويجه امبراطورا أغار ابنه على «لاردة» (LERIDA) التي خربها وعلى «وشقة» التي كان بهلول قد استولى عليها لحسابه الخاص (متنكرا بهذا لوعوده للفرنجة» بعد طرده لعبد الله البلنسى منها).

لم يمنع تنكر «زادو» أو «زاطو» (عامل برشلونة المسلم) هو الآخر لوعوده السابقة مع الفرنجة اتخاذ شرلمان قرار مهاجمة عاصمة قطلونية عام ٨٠١م.

وبينما كانت قوات الفرنجة تجتاز أراضي الإقليم وتحرق المزروعات التي لم تحصد بعد، كانت فرقة قوطية تحت إمرة شخص يدعى «بيرا» (BERA) تطوق المدينة.

بعد عامين كاملين من الحصار أمر «لودوييكو» (بموافقة شرلمان) بإرسال تعزيزات كثيفة من «أكيتانيا» و«غسقونيا» و«بروقانس» و«بورجونيا»، وعلى رأسها قادة متمرسون مثل «روستانج» (ROSTAIN) (دوق جيرندة) و«جيين» (دوق «تولوشة») بهدف تشديد الحصار وزيادة فاعليته. طلب حاكم المدينة «زادو» النجدة من قرطبة؛ لكن الجيش الأموي الذي قدم لمساعدته قرر أثناء الطريق الإغارة على «ألبه» فابتعد بذلك عن هدفه الأساسي. ومع طول الحصار خارت قوى برشلونة واستسلمت - طبقا لمدينة «مويساك» (MOISSAC) - عام ٨٠٣م وحضر «لودوييكو» لتسلم مفاتيحها بنفسه.

تتجلى حسنة الخبر القصير الذي أورده ابن حيان عن سقوط برشلونة في تأكيده على وجود الحاكم «زادو» وفي تقديمه لاسمه العربي الحقيقي وهو «سعدون الرعيني». ويذكر ابن حيان بأن هذا الحاكم استنجد بالزعماء العرب المجاورين لبرشلونة واستطاع الصمود عامين كاملين، لكنه اضطر في النهاية لتسليم المدينة عام ٨٠١م (١٨٥هـ). (ومعلومة ابن حيان هذه تعني أن حصار برشلونة بدأ عام ٧٩٩م (١٨٣هـ)). ويضيف ابن حيان قائلا بأن برشلونة تقلدت منذ تلك اللحظة الدور الذي لعبته «جيرندة» من قبل : أي أصبحت تمثل رأس جسر الهيمنة الفرنجية في مواجهة الأراضي الإسلامية.

وبالفعل فقد نقل «لودوييكو» بالاستيلاء على برشلونة، حائط الصد المواجه للقوى الإسلامية إلى الجانب الآخر من البرانس؛ وفي عام ٨١٧م أخذ «بيرا» (BERA) لقب ماركيز هذا الثغر والمنطقة المحيطة به وحكم المدينة بعد عودته لاعتناق المسيحية إلى أن تولى حكمها «كارلوس ألكالبو» (CARLOS EL CALVO) عام ٨٦٥م وإليه يرجع الفضل في رسم الملامح الحقيقية لسياسة هذا الثغر الأسباني ممهدا بذلك لظهور قطلونية في المستقبل القريب (٨٠).

لم يتحدث ابن حيان في سرده المجلل للأحداث التي جرت في عهد الحكم الأول حسب ترتيبها الزمني عن أية مواجهة حربية أو علاقة سلمية بين الفرنجة والمسلمين بعد سقوط برشلونة وحتى عام ٨٠٧م (١٩١هـ). وعندما وصل لهذا العام يخبرنا بأن شرلمان (أو «كارلو بن بيبين» - طبقا لتسميته) أتم فيه عقد هدنة مع الأمير الأندلسي، ويضيف قائلا بأن مشروع وقف العمليات الحربية كان مطروحا منذ توليه الحكم وأن تحديد بنود الاتفاقية قد احتاج لتبادل طويل لوجهات النظر قامت بها سفارات متعددة من الجانبين. وقد ساق لنا ابن حيان سببا غير متوقع لسعي الجانب الفرنسي لعقد هذه الهدنة مفاده أن الفرنجة كانوا قلقين لظهور مملكة آل إدريس الأول في المغرب

ويخشون قيام تحالف بينها وبين أمير قرطبة في مواجهة الغرب المسيحي. وفي هذا المقام يحق لنا التساؤل : أوجد في تبرير ابن حيان لعقد الهدنة ما يمت بصلة إلى الحقيقة؟ إن المنطق يقتضى طلب الحكم الأول تنازل الفرنجة عن برشلونة لو كانوا هم الساعين وراء الصلح وعقد الهدنة. ولذا فمن الواضح أن ابن حيان يبحث عن مبرر لوقف الأعمال العسكرية التي تجمدت بالفعل لفترة ولكن بناء على طلب الأمير القرطبي دون شك.

وابن حيان يقصد - بالتأكيد - الهدنة التي عقدت بعد ثلاثة أعوام في (٨١٢هـ) وأشارت إليها المصادر الفرنسية.

وإضافة إلى ماتقدم فقد خلط مؤلف «المقتبس» عند تحديده لتواريخ هذه الفترة وترتيبها ترتيباً زمنياً، فهو على سبيل المثال يحدد تاريخ موت شرلمان بخريف عام ٨٠٧م (نهاية ١٩١هـ) بدلاً من ٨١٤م، ويعزى خرق الهدنة لابن شرلمان (لودويكو) الذي شن هجوماً عسكرياً في الصيف التالي على مصب نهر إبرة.

لو صدقنا ما يقوله «الأسترونمو» (ASTRONOMO) فإن «لودويكو» قد قام بعد سقوط برشلونة بثلاث محاولات للاستيلاء على «طرطوشة» (TORTOSA) : الأولى بين عامي ٨٠٤ - ٨٠٧م، والثانية في ٨٠٨م، والثالثة في ٨٠٩م. أخفق «لودويكو» في الأولى والثانية ونجح مسعاه في الثالثة.

ويشكك المؤرخون المحدثون في هذه المعلومة التي لم يرد عنها حرف واحد سواء في المدونات الفرنجية أو على لسان «إرمولدو» (ERMOLDO). أما ما تسوقه المصادر العربية في هذا الشأن فهو أقرب إلى التصديق، وطبقاً لتلك المصادر فإن ملك «أكيثانيا» (لودويكو) استولى عام ٨٠٨م (١٩٢هـ) على «طرطوشة» (TARRAGONA) ثم سار بجيشه نحو «طرطوشة»؛ لكنه اصطدم في الطريق بطابور من الجيش الإسلامي تحت قيادة الأمير عبد الرحمن (ولد الحكم الأول) فأوقف تقدمه وجعله يولى الأدبار. وفي عام ٨٠٩م (١٩٣هـ) كرر «لودويكو» المحاولة واصطدم من جديد بقوات نفس الأمير التي تساندها هذه المرة قوات «عمروس» (حاكم سرقسطة) وقوات «عبدون بن الغمر» (والى طرطوشة). وأمام أسوار المدينة دارت رحى الحرب التي انتصر فيها المسلمون، وعاد «لودويكو» يجر جر أذيال هزيمته النكراء ومنذ ذلك الحين لم يعاود الفرنجة الكرّة على طرطوشة وظلت المدينة حتى نهاية الخلافة الأموية ثغر الإسلام المنيع في مواجهة قطلونية؛ أما طرطوشة فقد تعاورتها خلال نفس الفترة حملات كثيرة من الجانبين ووقعت في أيدي المسلمين مرات وفي أيدي المسيحيين مرات أخرى.

وفى السنوات التالية لهذه الأحداث ذهب أيضا أدراج الرياح محاولات الفرنجة للاستيلاء على «وشقة».

يقول المؤرخون الفرنسيون أن الهدنة التي طلبها الحكم الأول من شرلمان لمدة ثلاث سنوات بدأت(*) عام ٨١٢م^(٨١). ومع هذا فإن ابن حيان يتحدث وبالتفصيل عن حملة إسلامية ضد ثغر برشلونة الأسباني جرت وقائعها صيف ٨١٣م : أى خلال فترة الهدنة.

ولإكمال الصورة تجدر الإشارة إلى أن ابن عذارى يرجع تاريخ هذه الحملة لعام ٨١٥م (١٩٩هـ)^(٨٢). فى هذه الحملة التقى جيش كبير تحت قيادة «عبيد الله» (ابن عم أمير قرطبة والملقب «بصاحب الصوائف») بالقوات الفرنسية المكلفة بحماية برشلونة فى السهل القريب من المدينة. حدث اللقاء يوم الجمعة، وكان يوما عصيبا على الفرنجة لأن الفرسان المسلمين شتتوا شملهم وأشاعوا الرعب بين صفوفهم وقتلوا منهم أعدادا غفيرة : ولما انجلت المعركة نصبت قنوات عالية وثبتت فى الأرض وأمر بالرؤوس المجذوزة فجمعت وطرحت حوالىها حتى غابت القنوات فيها، ومن أعلى هذه الكومة من الرؤوس نادى المؤذن للصلاة. ومما لاشك فيه أن نجاح هذه الحملة الساحق قد أعاد الهيبة للعاهل الأموى فى الثغر الأسباني، لكنه لم يكن كافيا ليعيد إليه برشلونة.

شخصية الحكم الأول وأعماله :

من شراسة الحكم وقسوته الجامحة فى قمع عصيان طليطلة وانتفاضة الربرض يتضح أن الأمير الأموى الثالث لم يكن يشبه أباه (هشام «الرضى») فى شئ ولاحتى جده عبد الرحمن الأول؛ وأن هذا العاهل المستبد المنتقم طغى كثيرا فى استخدام سلطته ولم يكن يصفى إلا لنداء نوازعه؛ ولم يكن له من هم سوى الحفاظ على الملك الذى آل إليه ونقله لورثته. غير أن المؤرخين المسلمين لهم فيه رأى آخر، باستثناء ابن حزم الذى يبغضه ويهاجمه بعنف ويعتبره طاغية أعماه السلطان^(٨٣).

(*) ورد فى النص الأسباني لفظ «انتهت» وقد قمنا بتصويبه إلى «بدأت»، وذلك لأن اللفظ الأول يتناقض مع معنى الجملة التالية كما يخالف كلام المؤلف السابق -الذى لايفصلنا عنه سوى بضعة جمل- ويحاول فيه تصحيح ما ذهب إليه ابن حيان فى تحديد تاريخ بداية الهدنة. (المترجم)

ويبدو أن المؤرخين - حتى هؤلاء الذين ينتمون لعصور متأخرة ويتخففون بالتالي من تبعة التظاهر باحترام سلالة حاكمة ابتلعها الزمان - لايهتمون بالوسائل التي اعتمد عليها الحكم قدر اهتمامهم بالنتائج التي أسفرت عنها، ولذا فإنهم يحسبون له ترسيخ ملك بنى أمية والتمكين له في الغرب. وحكمهم هذا لا يخلوا من صواب لأن حياة الفرد لم تكن ذات بال في ذلك العصر وطريق العدالة كان دائما محفوفًا بالعراقيل. ولا يفوت هؤلاء المؤرخين التركيز على أن عهد الحكم الأول، بالرغم من اضطرابه، قد صادف بداية «أنسنة» الأندلس وفيه ظهرت بوادر الريادة الثقافية التي ستمارسها الإمارة فيما بعد على بقية الغرب الإسلامي.

وبالفعل يمكن ملاحظة أن أسبانيا - التي ظلت منطوية على نفسها خلال قرن كامل نتيجة لضغوط سياسية - أخذت مع عصر الحكم تفك إसार عزلتها وتتجاوز بناظريها حدود البحر المتوسط لتطل على الأراضي الإسلامية القريبة والبعيدة.

وبهذا الخصوص يمكن أن نسجل الآن (أي في عهد الحكم الأول) تحت بند زيارة الأماكن المقدسة أو الرحلات الدراسية التي بدأت في عصر هشام الأول تصاعدا في حركة التنقلات بين شبه جزيرة أيبيريا وشمال أفريقيا وصولا إلى آسيا المسلمة. كما نلمح الآن أيضا أمارات من عهد عبد الرحمن الثاني الذي فتح أبواب الأندلس على مصاريعها أمام تأثيرات الشرق العباسي وحضارة بغداد.

مضى الحكم الأول على سيرة سلفه في الاحتفاء بالتراث السوري لعائلته؛ وفي عهده ظل الروانيون يتقاطرون على أسبانيا، وبالرغم من أن العاهل لم يكن يذكي فيهم أدنى تطلع سياسي إلا أنه أكرم وفادتهم وقدر لهم المخصصات التي جعلتهم يعيشون حياة هائلة.

ومع أن الحاكم نفسه ظل وفيا لأرستقراطيته العربية إلا أنه كان يرحب بالأیدی التي تمتد إليه بالمعونة من خارج عصبية؛ وفي عهده تراجعت المواجهات القديمة بين العشائر العربية وشاعت مصاهرة العائلات العربية النبيلة للمولدين، وبهذا الشكل تصاعد الامتزاج بين فئات الشعب الأندلسي.

ولانضيف جديدا إن أشرنا إلى ميل العاهل الأموي لمسلمين ذوي أصول أيبيرية وخير شاهد على هذا «عمروس» وشقة الذي تعرفنا على دوره البارز في طليطلة ومن بعدها سرقسطة. كما أن حاشية الأمير ذاتها (قاداته ووزرائه) لم تكن مقتصرة على

النبلاء العرب بل كانت تضم غيرهم من أهل الثقة وأصحاب التجارب، ومنهم نشير إلى «عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث» (حفيد أحد الموالى) الذى ظل حاجبا للحكم خلال معظم عهده وقاد غالبية الحملات الحربية وعاش بعد وفاة سيده إلى أن مات فى ربيع ٨٢٥م (محرم ٢١٠هـ) بعد حياة حافلة كرّسها بالكامل لخدمة الأسرة الحاكمة.

كما أحاط الحكم نفسه بخليط من الشخصيات غير العربية (من بربر وصقالبة وخصيان) وعهد إليها بالمناصب الهامة. وفى مقابل هذا كان لا يحتمل الفقهاء وكان يستمع على مضض ل مناقشاتهم الفقهية (لاعتبارها - دون شك - لغوا فارغا)؛ ومع هذا فقد كان قادرا على استرضائهم حتى لا ينقلبوا عليه.

قد يظن أن الحكم الأول لم يكن مكتوثا بقواعد الدين، لكن الحقيقة تخالف ذلك. صحيح أنه كان أقل بكثير من ورع أبيه وربما يكون تدينه أشد فتورا من جده، لكنه كان دائما حريصا على الوفاء بالتزاماته كمسلم. فنحن نجده يحيط قاضيه «محمد بن بشير» بأسمى آيات التقدير والاحترام ويخضع لأحكامه برضى وطيب خاطر حتى ولو كانت صادرة ضده^(٨٤). ونساؤه (اللاتى لم يطلق واحدة منهن إلا إذا كانت عقيما) كن يشتكين فى بعض الأحيان من انصرافه عنهن للعبادة^(٨٥)؛ كما أنه كان يحضهن على أعمال البر وهاهى «عجب» تستجيب لندائه وتقيم مسجدا بالحي الغربى لقرطبة على نفقتها الخاصة وتنشئ على ضفاف الوادى الكبير حديقة ضخمة (المسماة «منية عجب») وتخصص ريعها للإنفاق على نزلاء مستشفى الجذام القريبة^(٨٦). وتقوم محظية أخرى للحكم الأول تدعى «متعة» بإخراج المال اللازم لبناء مقابر للمسلمين ولتشبيد مسجد ظلت ذكراه عالقة بأذهان القرطبيين حتى القرن الثانى عشر^(٨٧).

وعندما كانت الظروف تسمح للحكم بالمقام فى قرطبة فإنه كان يستغل أوقات راحته النادرة فى الصيد أو لعب الكرة (الصولجان) أو حضور منتديات مجموعة الشعراء التى تألفت حوله ولعت منها أسماء مثل: «عباس بن فرناس» و«يحيى الغزال» و«إبراهيم بن سليمان الشامى» (وسيصبح هؤلاء فيما بعد شعراء ابنه عبد الرحمن المفضلين).

ومن جهة أخرى، فقد كان الحكم نفسه واسع الثقافة وشاعرا مطبوعا تتميز أشعاره بالجودة وخاصة فى أغراض السياسة والحرب والقتال. وبعد ثورة الربض الشهيرة تغيرت طباع الحكم الأول وتملكته الريبة، ويعزى الفقهاء هذا التحول إلى شعوره بتأنيب الضمير لما اقترفه من جرائم. ويغض النظر عما يقوله الفقهاء، فمن

الثابت أن صحة الحكم كانت قد تدهورت فى نهاية حياته وأصبح يفضل العزلة والبقاء فى قصره الذى تقوم على أبوابه ميليشيات حرسه الأمين (والمؤرخون العرب يطلقون عليهم «الخرس» وذلك لعدم معرفتهم العربية)^(٨٨). ومن المعروف أن الحكم الأول استكثر منهم وجلبهم من أصقاع شتى: من جليقية وبلاد الإفرنجية وبلدان أوربية أخرى. وكان أقربهم إلى قلبه مائة وخمسون أسيرا من سبتمانيا، وقد ظلوا أوفياء له حتى مماته. هذا بالإضافة إلى مالا يقل عن ألفين آخرين كانوا موزعين على معسكرين بجوار القصر. وقد كانت ميليشيات حرسه مقسمة إلى مجموعات تضم كل واحدة منها مائة فارس على رأسهم «عريف»، ويرأس كافة المجموعات القومس المسيحي «ربيع» (ابن تيودولفو).

لم يكن الحكم الأول يكثرث لنفور العامة منه ولم يكن يهتم لتراجع شعبيته بينهم وظل على هذا الحال طوال حياته. لقد كان همه الأوحـد وشغله الشاغل يتمثل فى الحفاظ على وحدة مملكته وتجنـيب أولاده النزاع على العرش بعده. ولهذا السبب قام - عندما أحس بدنو أجله - بابتداع نظام جديد لتوريث العرش : فلم يكتف بأخذ البيعة لمن سيخلفه بل احتاط بأخذها أيضا لبدل تتوقف ولايته على موت الأول. وفى يوم عيد الأضحى الموافق ١٠ ذى الحجة ٢٠٦هـ (٦ مايو ٨٢٢م) عقد اجتماعا مهيبا فى قصره بقرطبة وأخذ البيعة لابنه البكر «عبد الرحمن» كما أخذها أيضا لابنه «المغيرة» كبديل لولى العهد لو حدث له مكروه. وبعد انتهاء مراسيم أخذ البيعة انسحب بصحبة نسائه وخصيائه الأوفياء^(٨٩) إلى حجرات قصره التى لم يخرج منها ثانية.

وبعد خمسة عشر يوما استدعى - وهو يعانى سكرات الموت- ابنه عبد الرحمن ليملى عليه وصيته التى تتلخص فى أمرين : الحزم والعدل. وفاضت روح الحكم فى اليوم الخامس والعشرين من ذى الحجة (٢٠٦هـ) ليـدفن إلى جوار أبيه وجده فى المقبرة الخاصة المعروفة بالروضة. ويموته تنفست رعيته - وخاصة أهل قرطبة - الصعداء لما أصابها على يده من تنكيل ويطش؛ لكنه - والحق يقال - ترك لخلفه مملكة سلسلة متماسكة لم تصب برضوض إلا على طرفيها مع الفرنجة ومملكة أشتوريش. ولهذا حق افتخاره فى قصيدته التى طبقت شهرتها آفاق أسبانيا المسلمة وتقول بعض أبياتها :

رأيت صدوع الأرض بالسيف راقعا

وقدما لأنت الشعب مذ كنت يافعا

فسائلُ ثغوري هل بها اليوم ثغرة

أبادرها مستنضى السيف دارعا

تُقبِّيك أنى لم أكن فى قراعهم

بوانٍ، وقدا كنت بالسيف قارعا

.....

فهذى بىلادى، إننى قد تركتها

مهادا، ولم أترك عليها منازعا

هوامش الفصل الثاني :

(١) للتعرف على فترة حكم عبد الرحمن الأول بالكامل وعلى حياته السابقة فإن المصدر الأساسي هو «أخبار مجموعة» المجهول المؤلف (من ص ٤٦ إلى ١٢٠ في النص العربي، ومن ص ٥٥ إلى ١٠٩ في الترجمة الأسبانية).

ونحيل أيضا إلى المصادر العربية التالية :

- ابن القوطية «تاريخ افتتاح الأندلس» (من ص ٢١ إلى ص ٤١ في النص العربي، ومن ص ١٥ إلى ٢٢ في الترجمة الأسبانية).

- ابن عذاري: «البيان...» الجزء الثاني (من ص ٤٦ إلى ٦٢ في النص العربي، ومن ص ٦١ إلى ٩٦ في الترجمة الأسبانية).

- ابن الأثير: «الكامل في التاريخ» (الصفحات : ٩١ - ١٠٧ / ١٠٩ - ١١٢ / ١١٨ - ١٢٢ / ١٢٣ - ١٢٦).

- النويري : «تاريخ أسبانيا» في كتابه «نهاية الأرب» (من ص ١٥٤ إلى ١٧١ في النص العربي، من ص ٢٢٢ إلى ٢٣٦ في الترجمة الأسبانية).

- ابن عبد ربه : «العقد الفريد» (من ص ٢٦٨ إلى ٢٦٩).

- ابن الأبار : «الحلة السيرة» (٣٢ - ٣٧).

- ابن الخطيب : «أعمال الأعلام...» (من ص ٦ إلى ص ١٠).

- ابن خلدون : «العبر...» الجزء الرابع، (من ص ١٢٠ إلى ١٢٤).

- المقرئ : «نفح الطيب» الجزء الأول (من ص ٢١١ إلى ٢١٥) - الجزء الثاني (من ص ١٧ إلى ٢٨).
ومن المصادر الأجنبية نذكر مايلى :

- Dozy : Hist. Mus. Esp. I, pp. 188 - 249.

- Saavedra : Abderrahmen I, monografía histórica, en R. A. B. M., 3a- época, 1910, t. XXII, pp. 341 - 59 ; t. XXIII, pp. 28 - 44.

- Codera : Abderramen I y su Pretendida influencia religiosa, en Est. Crit. hist. ár. esp. (VII), pp. 111 - 34.

- Simonet : Historia de los Mazárabes, pp. 237 - 59.

(٢) انظر :

- J. Wellhausen : Das arabische Reich und sein Sturz, Berlin, 1902.

- G. Levi Della Vida, en la Enc. Isl. IV, pp. 1057 - 8.

(٣) في ضاحية «دير حنينا»، أو (طبقا للمقرئ في نفح الطيب، الجزء الثاني، ص ٣٢) في «العليا» بالقرب من تدمير. أما معاوية (والد عبد الرحمن) فقد توفي أثناء حكم الخليفة هشام.

(٤) طبقا «لأخبار مجموعة» (ص ٥٢ في النص العربي، ص ٦٠ في الترجمة الأسبانية) فإن أختى عبد الرحمن كانتا تسميان : أم الأصبن، أمة الرحمن.

٥) انظر :

- G. Marçais, en Hist. du Moyen Age, de Glotz, III, p. 397.

(٦) يوجد خبر قصير عن هذه الشخصية في :

- M. Th. Houtsma, en la Enc. Isl., I, p. 55

(٧) صاحب هذه النبوة هو عم أبيه مسلمة بن عبد الملك (أخ الخليفة هشام) انظر :

- Dozy : Hist. Mus. Esp. I, pp. 191 y 192.

(٨) أورد «دريز» (المرجع السابق، الجزء الأول، من ٢٠٠ - ٢٠٢) الترجمة الكاملة للحوار الذي دار بين الطرفين في هذا اللقاء وقد ترجمه عن «أخبار مجموعة».

(٩) تحدث عن هذه الشخصية ابن الأبار في كتابه «الحلة السيرة» (ص ٧٧).

(١٠) هي أرملة قطن (ابن حاكم أسبانيا الأسبق : عبد الملك بن قطن الفهري)، وكانت تدعى «أم موسى».

(١١) للتعرف على هذا القاضي الذي بنى قصبة «مالقة»، انظر :

- Lévi-Provençal : La Péninsule ibérique, p. 214 y n. 4.

(١٢) يتفرع هذا التزير من الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير عند (AZUAGA) ويعود ليصب فيه ثانية عند (HORNACHUELOS).

(١٣) تقع هذه «الكورة»، فيما يسمى حاليا بمحافظة «قوتقه» (CUENCA)، واسمها العربي «شنتبرية»، وهي غير موجودة الآن. وقدما كانت توجد بالقرب من نقطة التقاء نهر «جواديبلا» (Guadiela) بنهر «التاجه»، جنوب شرق «وادي الحجارة». وفي نهاية القرن التاسع لم تعد «شنتبرية» عاصمة الإقليم لأن «الفتح بن موسى بن ذي النون» بنى عاصمة أخرى وأسماها «إقليش» أو «إقليج» (UCLÉS)، انظر :

- Lévi-Provençal : La Péninsule ibérique, p. 35.

(١٤) تطلق عليه المدونات العربية «الدعي الفاطمي». وبالإضافة إلى ما جاء عنه في المصادر العربية يمكن معرفة المزيد عن «شقبيا» بالرجوع لهذا المصدر :

- M. Asín Palacios : Abenmasarra y su escuela, Madrid, 1914, p. 18, n. I.

(١٥) سنرى فيما بعد كيف ادعى النبوة بربري آخر في منتصف القرن التاسع في منطقة شمال الأندلس، وكيف أنه حَرَفَ القرآن وحَرَمَ عدة أشياء من بينها قص الشعر والأظافر، لكنه أُسر وُصِلب عام ٨٥١م (٢٣٧هـ). انظر : ابن عذارى (البيان...، الجزء الثاني، ص ٩٢ في النص العربي، ص ١٤٦ - ١٤٧ في الترجمة)؛ ابن الأثير (الكامل في التاريخ، ص ٢٢٩)؛ وكذلك :

- M. Asín Palacios : Abenmasarra y su escuela, p. 23, n. I.

(١٦) انظر :

- "Pseudo - Alfonso" de Barrau - Dihigo (Royaume asturien, p. 147 y n. 3).

- "Crónica leonesa", de G. Cirot (cf. Bull. Hisp., T.XIII, 1911, p.391, núm.11 y n.2).

- "Crónica Silense", en Huici, Crónicas latinas de la Reconquista, II, p. 57.

(١٧) يقول «سافدرا» أن هذا العلم الجغرافي يعرف حاليا باسم «بوينتي دومي» (Puentedeume)، وهي عاصمة أحد مراكز محافظة «لاكرونية» (La Coruña)، أنظر :

- Saavedra : Abderrahmen I, p. 37 (del t. XXXIII de la R. A. B. M.).

(١٨) ورد نص هذه الهدنة في الفصل الثاني والثلاثين من كتاب «كتاب مشاريع الأسواق» للكاتب العربي المشرقى «أحمد النحاس الدمياطى» (طبعة بولاق، ١٢٤٢هـ). ويقول القشيري أنها موجودة أيضا في مخطوطة «ابن الخطيب» المحفوظة بمكتبة «الإسكوريال». وقد ظهرت في إصدارات هذه المكتبة، وفي الإصدار التالى بالتحديد :

"Biblioteca arabico - hispana escurialensis", Madrid, 1760, II, pp. 103 -4.

- Simonet : Hist. de los Mozárabes, pp. 242-
3. انظر أيضا :

- A. Fernández Guerra : Cantabria, en Boletín de la Sociedad Geográfica de Madrid, t. IV, 1878, p. 25.

(١٩) عن قشتالة القديمة، أنظر :

- R. Menéndez Pidal : Orígenes del español, pp. 497-8.

(٢٠) توجد مصادر كثيرة عن حملة شرلمان على أسبانيا، وسنشير فيما يلى إلى بعضها :

- Codera : La dominación arábica en la Frontera superior, en Est. Crít. hist. ár. esp. (VIII), pp.136 - 159.

- R. Basset : Les documents arabes sur l'expédition de Charlemagne en Espagne, en Revue Historique, t. LXXXIV, 1904, pp. 286-295.

- Barrau- Dihigo : Deux traditions musulmanes sur l'expédition de Charlemagne en Espagne, en Mélanges Ferdinand Lot, París, 1925, pp. 168 - 179.

- A. Kleinclausz : Charlemagne, París, 1934, pp. 109 - 112.

- J. Bédier : Légendes épiques : recherches sur la formation des chansons de geste, París, 1903 - 13, III, pp. 297 - 303.

- R. Fawtier : La chanson de Roland. Étude historique, París, 1933, pp. 150-180.

- E. Lambert : Roncevaux et ses monuments, en Romania, enero, 1935.

- E. Lambert : Roncevaux, en Bull. Hisp., XXXVII, 1945, pp. 417 - 436.

(٢١) المقرئ : «نفع الطيب» (الجزء الأول، ص ٢١٣). لم تظهر هذه الفقرة في الجزء الرابع من «كتاب العبر... لابن خلدون» (طبعة بولاق).

(٢٢) عن العلاقات بين شرلمان والخليفة هارون الرشيد، انظر (على وجه الخصوص) المصدر التالى :

- F. Lot y F. L. GANSHOF : en la Hist. du Moyen Age, de Glotz, I, p. 488.
والبليوجرافيا المذكورة في الملاحظتين ٤٩، ٥٠ بنفس الصفحة.
- Annales regni Francorum (ed. G. H. Pertz y Fr. Kurze, en Scriptores rerum germanicarum in usum scholarum ..., Hanovre, 1895, p. 51), ad ann. 778 (cf. L. Auzias, L'Aquitaine carolingienne, p. 23 y n. 6).
- Annales regni Francorum, pp. 50 y 51, ad ann. 778. (٢٤)
- Vita Karolī. 9 (ed. G. Waltz, Scriptores rerum germ. in usum schol., Hanovre y Leipzig, 1911 - 1940, pp. 12 - 13). (٢٥)

كما ترجم هذه الفقرة L. Halphen، في كتابه التالي :

"Vie de Charlemagne, de Eginardo, París, 1923, pp. 28 - 31.

(٢٦) انظر، على وجه الخصوص، المصدر التالي :

- Halphen : Vie de Charlemagne, de Eginardo, pp. 30 - 31, n. 3.

(٢٧) ابن الأثير : «الكامل في التاريخ» (ص ١٢٤). و«عيشون» هذا (الابن الثاني لابن الأعرابي) ليس هو «عيثون» (AIZON) القوطي الذي ثار على الفرنسيين في إحدى «المراكات» الأسبانية عام ٨٢٦م. وقد خلط بينهما «كوديرا» (Codera) واعتبرهما شخصا واحدا في كتابه :

Est. Crít. hist. ár. esp. (VII), pp. 201 - 224 : Véase infra (índice).

(٢٨) في طبعة «أخبار مجموعة» (ص ٢٥١) التي قام بها Lafuente Alcántara نجد اقتراحا مشوبا بالتحفظ عن خط سير حملة عبد الرحمن الأول في اتجاه كوير (Collioure).

ويشير ابن الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ» (ص ١٢٩) إلى منطقتين فرنسيتين توجهت إليهما الحملة، وهما : «قلهرة»، «فقيرة» (Kallara y Fakira)، ويرجح مناسبة موقعهما حاليا لمنطقتي «سان ميغيل دي كوليرا» (San Miguel de Culera)، «فيجيراس» (Figueras). وفي مقابل هذا يرى «كوديرا» (Codera) في كتابه :

(Est. Crít. Hist. ár. esp., VIII, p. 143 y n. a)

أن المنطقتين المقصودتين هما : «قلهرة» (Calahorra)، «بقيرة» (Viguera). وتشير المصادر التالية إلى أن عبد الرحمن الأول اتجه بعد ذلك إلى شريطية، غسقونيا، وطاف بأراضي «ابن بلاسكو» (Ibn Velasco)، أنظر :

- Auzias : L' Aquitaine Carolingienne, p. 25, n. 11 y 32 n. 39.

- Ciroi : Index de la "Chronique leonaise", p. 413.

(٢٩) عن تأسيس مملكة أو إمارة «أكيتانيا»، أنظر، على وجه الخصوص :

- L. Auzias : L' Aquitaine Carolingienne, pp. 3-21.

(٣٠) المرجع السابق (ص ٢٣، ٢٤).

(٣١) انظر :

- J. Coulet : Etude sur l' office de Gironne en l'honneur saint Charlemagne, Montpellier, 1907, pp. 5-7, 117 sigs

(٢٢) انظر : المقرئ «نفح الطيب»، الجزء الثاني، ص ٢٥.
 (٢٣) توجد فقرة في «نفح الطيب» للمقرئ (الجزء الثاني ص ٢٤، ٢٥) - مستقاة، دون شك من ابن حيان - عن لواء عبد الرحمن الأبيض، وتفيد الفقرة بأن اللواء كان في البداية مجرد شال عمامة مثبت بعقدة في عود رمح، وكلما تمزقت القماشة البيضاء بفعل تحريك الهواء المستمر لها كانت تستبدل بأخرى، مع مراعاة احتفاظها بالعقد السابقة. ومنذ عصر الخلافة، وقبل خروج أية حملة من قرطبة كان يحتفل بعقد اللواء في المسجد الجامع.

(٢٤) انظر : Gaudefroy - Demombynes : Les institutions musulmanes, Paris, 1923, pp. 135-6.

- Lévi-Provençal : Esp. Mus. X^e- siècle, p. 45.

(٢٥) انظر، على وجه الخصوص، المرجع السابق، ص ٤٦، والملاحظة رقم ٤.
 (٢٦) سنتناول فيما بعد - بمناسبة الحديث عن عبد الرحمن الثالث - مسألة الألقاب التشريعية لدى حكام أسبانيا المسلمة، وسنخصص بالذكر تلك الألقاب المقصورة فقط على الخلفاء.
 (٢٧) عن رصافة الخليفة هشام، انظر :

- J. Sauvaget : Remarques sur les monuments omeyyades, en Journ. Asiat., t. CCXXXI, 1939, pp. 1-13.

ومن جهة أخرى، يجب ألا نخلط بين رصافة هشام ومدينة الرصافة البيزنطية القديمة.
 وعن تفصيل الأمويين للقصور الملكية الواقعة خارج دمشق، انظر :

- H. Lammens : La Bâdia et la Hîra sous les Omayyades, en Mélanges Faculté Orientale de Beyrouth, t. IV, 1910, pp. 91 - 112.

- A. Musil : The country residences of the Omayyads, en Palmyrema, New-York, 1928, pp. 277 - 297.

(٢٨) عن نخلة الرصافة التي أهاجت - حسبما يقولون - أشواق عبد الرحمن الأول توجد مادة ثرية في اللغة العربية، وقد جمعها وقام بدراستها المصدر التالي :

- H. Pèrès : Le palmier en Espagne musulmane. Notes d'après les textes arabes, en Mélanges Gaudefroy - Demombynes El Cairo, 1937, pp. 226 - 9.

(٢٩) عن رصافة قرطبة، انظر :

- Lévi-Provençal : Esp. Mus. X^e- siècle, p. 224.

ورد في «قلائد العقيان» للفتح بن خاقان (ص ٨٤)، وفي «نفح الطيب» للمقرئ (الجزء الأول، ص ٣٠٦ - ٣٠٧) أن أحد قصور قرطبة الأموية كان يسمى «دمشق».
 (٤٠) أنظر، على وجه الخصوص :

- Lévi-Provençal : La civilisation arabe en Espagne, p. 57 y sigs.

(٤١) لم يوفق سيمونيت (Hist. de los Mozárabes, p. 237 y sigs) في الصورة التي تخيلها لعبد الرحمن الأول وأظهره فيها بمظهر القاسي مع المستعربين، علما بأن المؤرخ قد اعترف بإنصاف الأمير

- لمسيحيي قرطبة عندما فاوضهم لكي يضم نصف كنيستهم المتبقى لمسجده.
- (٤٢) بعض المؤرخين يرجع موت عبد الرحمن وتولية ابنه هشام لعام ١٧١هـ، أى يقدمه عام عن التاريخ الذي ذكرناه، ولا يوجد ما يجعلنا نرجع هذا التاريخ أو ذاك.
- (٤٣) عن هشام الأول وعهده، انظر المصادر التالية :
- [أولاً] المراجع العربية :
- «أخبار مجموعة» (النص العربي من ص ١٢٠ إلى ١٢٤ - الترجمة الأسبانية من ص ١٠٩ إلى ١١٢).
 - ابن القوطية «تاريخ افتتاح الأندلس» (النص العربي من ص ٤١ إلى ٤٤ - الترجمة الأسبانية من ص ٣٢ إلى ٣٥).
 - ابن عذارى «البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب»، الجزء الثانى (النص العربي من ص ٦٢ إلى ٧٠ - الترجمة من ص ٩٦ إلى ١٠٩).
 - ابن الأثير «الكامل فى التاريخ»، ص ١٣٧، ١٣٩ - ١٤٤، ١٥٠ - ١٥٣.
 - النويرى «تاريخ أسبانيا» (النص العربي من ص ١٧٢ إلى ١٧٩ - الترجمة الأسبانية من ص ٢٣٧ إلى ٢٤٢).
 - ابن الأبار «الحلة السيرة»، ص ٢٧، ٢٨.
 - ابن الخطيب «كتاب أعمال الأعمال فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام»، من ص ١١ إلى ١٤.
 - ابن خلدون «كتاب العبر»، ص ١٢٤، ١٢٥.
 - ابن عبد ربه «العقد الفريد»، الجزء الثانى، ص ٢٦٩.
 - المقرئ «نفح الطيب»، الجزء الأول، من ص ٢١٦ إلى ٢١٩.
- [ثانياً] المراجع الأجنبية :

- Dozy : Hist. Mus. Esp. 2. I, pp 285 - 7.

- Barrau - Dihigo : Royaume asturien, pp. 150-7.

- (٤٤) انظر : ابن عذارى «البيان ...» الجزء الثانى (ص ٦٢ من النص العربي، ص ٩٨ من الترجمة).
- (٤٥) هو ابن «فرتون بن قسى»، وأب الشخصية الشهيرة «موسى بن موسى بن قسى» التي سنتحدث طويلاً عنها فيما بعد.
- (٤٦) يطلق هذا الاسم (ألبية) فى العربية على منطقة شمال أسبانيا الواقعة على الضفة اليسرى لأعالى وادى «إبرة»، ويفصلها عن البحر منطقتا «جيبوذكوا» (Guipúzcoa) و«بيتكايا» (Vizcaya) أو بلاد البشكنس (والمنطقتان تنتميان لإقليم «نبرة» Navarra). ويحد «ألبية» من جهة الغرب أراضى «بوريبا» (Bureba) وقشتالة القديمة (التي يطلق عليها فى العربية «القلاع»).

(٤٧) انظر :

- Barrau - Dihigo : Royaume asturien, pp. 153 y n. 2.

(٤٨) عن تفاصيل هذه المعركة، أنظر :

- Auzias : L' Aquitaine Carolingienne, pp. 41 y 42.

- J. Bédier : Légendes épiques, I, pp. 143 - 146.

- Lot y Ganshof : en Hist. du Moyen Age, de Glotz, I, p. 470.

(٤٩) وصل الأمر بالمقرئ «نفح الطيب، الجزء الأول، ص ٢١٨» إلى الزعم بأن المسلمين استولوا فى هذه الغزوة

على مدينة «أربونة». ويضيف قائلا بأن هشام الأول أجبر معاهدي جليقية (?) على نقل أحجار سور هذه المدينة إلى قرطبة حيث بنى منها مسجداً أمام أحد أبواب قصره المسمى بـ «باب الجنان»، ومافضل منها استخدمه في بناء ربوة أمام القصر.

- Lévi-Provençal : *Esp. Mus. X^e siècle*, p. 202, n. 3. (٥٠) انظر :

(٥١) المرجع السابق، ص ٢١٢، وملاحظة رقم ٢.

(٥٢) عن مالك بن أنس، أنظر :

- J. Schacht, en la *Enc. Isl.*, III, pp. 218 - 23, y la bibliografía citada.

(٥٣) عن دخول المذهب المالكي وانتشاره في أسبانيا، انظر :

- P. J. López Ortis : *La recepción de la escuela malequí en España*, en *Hist. Der. Esp.*, t. XII, 1931, pp. 1-169.

- Asín Palacios : *Abenmasarra y su escuela*, p. 18. (٥٤) انظر :

(٥٥) من أهم المصادر العربية عن فترة حكم الحكم الأول نشير إلى مايلي :

- ابن حيان : «المقتبس»، مخطوطة فاس، من ص ١ إلى ١٠٣.

- «أخبار مجموعة» (النص العربي من ص ١٢٥ إلى ١٣٥، الترجمة الأسبانية من ص ١١٢ إلى ١٢٠).

- ابن القوطية «تاريخ افتتاح الأندلس» (من ص ٥٢ إلى ٥٨ في النص العربي، ومن ٤٢ إلى ٤٦ في الترجمة الأسبانية).

- ابن عذارى «البيان...» الجزء الثاني (النص العربي من ص ٧٠ إلى ٨٢، الترجمة من ص ١٠٩ إلى ١٣٠).

- ابن عبد ربه «العقد الفريد»، الجزء الثاني، من ص ٢٦٩ إلى ٢٧٠.

- ابن الأثير «الكامل في التاريخ»، من ص ١٥٣ إلى ١٩٥.

- التويرى «تاريخ أسبانيا» (النص العربي من ص ١٧٩ إلى ص ١٩٤، الترجمة الأسبانية من ص ٢ إلى ١٤).

- ابن الأبار «الحلة السيرة»، من ص ٢٨ إلى ٤٢.

- ابن الخطيب «كتاب أعمال الأعمال...»، من ص ١٤ إلى ١٩.

- المقرئ «نفح الطيب»، الجزء الأول، من ص ٢١٨ إلى ٢٢٢.

ومن المصادر الأجنبية نشير إلى مايلي :

- Dozy : *Hist. Mus. Esp.* 2. I, pp 285 - 307.

- Simonet : *Hist. de los Mozárabes*, pp. 297 - 309.

- Barrau - Dihigo : *Royaume asturien*, pp. 157 - 164.

(٥٦) طبقاً لجمهرة الأنساب لابن حزم (f^o 27 v^o del ms.) فإن إمارة عبد الله البلبسى كانت تمتد من شمال بلنسية حتى «طرطوشة» و«برشلونة» و«وشقة»، ومن الجنوب حتى بلد تدمير «مرسية».

(٥٧) سيطلق اسم «أم سلمى» هذه على مقابر بقرطبة، أنظر :

- Lévi-Provençal : *Esp. Mus. X^e siècle*, p. 209, nota.

(٥٨) طبقاً لدوزي (Rech.3, I, p. 212 y n. 4) فإن موسى بن فرتون هو الذي تزوج من ابنة «إنييجو أريستا» التي تسمى أسونا (Assona). لكن ابن حزم عند حديثه عن سلالة «بنى قاسى» أشار إلى أن

أرملة موسى بن فرتون هي التي تزوجت من «إنييجو أريستا» وولدت له «فرتون إنييجيث» **Fortún Iñiguez**

(٥٩) ورد اسم هذا المتمرّد في مدونات ابن حيان، ابن عذارى، ابن الأثير في ثلاثة أشكال مختلفة وهي كما يلي على الترتيب : «عبدة بن حميد»، «ابن خلدون»، «ابن عمير».

(٦٠) حدد ابن حيان وابن عذارى تاريخ هذه المنبحة (واقعة الحفرة) بعام ١٨١هـ. أما ابن الأثير فقد أوردها بتاريخين مختلفين وهما : ١٨١هـ، ١٩١هـ، وبعض المدونات الأخرى نسبتها لعام ١٩٠هـ.

(٦١) ذكر ابن الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ» (ص ١٨٠، ١٨١) أن حركة خوارج «مورور» جرت عام ٢٠٠هـ (٨١٥/٨١٦م).

وبالتأكيد فإن حركة «مورور» تختلف عن حركة خوارج الجزيرة الخضراء التي لم يشر إليها سوى ابن القوطية (انظر **Fagman : Extraits inédits pp. 94-97**) لكنه لم يعين لها تاريخا محددا بل جعلها بين «واقعة الحفرة» وثورة حى الربيض بقرطبة.

(٦٢) يتحدث عنهم ابن حزم بصفتهم شيعة (انظر : «نقط العروس»، ص ٢٩، ص ٢٤٧ من طبعة **Seybold**). كما تحدث ابن حزم عن معتزلة من سكان «وادي بنى طوبة» (وهو واد في جنوب أسبانيا لم يستدل عليه). انظر :

- **M. Asín Palacios : Abenmasarra y su escuela, p. 18, n. 1.**

- **Lévi-provençal : Esp. Mus. X^e- siècle, p. 223, nn. 1 y 3.** (٦٣) انظر :

(٦٤) تخلط بعض المدونات التاريخية بين هذه المؤامرة وبين أخرى مماثلة جرت قبل قليل من تمرد حى الربيض وفيها أراد المتآمرون خلع الحكم وتولية عم له مكانه يسمى «ابن الشماس» (وأبوه هو المنذر بن عبد الرحمن الأول).

وقد خلط دوزى هو الآخر - وتبعه في ذلك المؤرخون المحدثون - بين المؤامرتين واعتبرهما واحدة.

(٦٥) عن فتح هذا الباب وبقاء اسمه (الباب الجديد) لعدة قرون لاحقة، انظر :

- **Lévi-Provençal : Notes de toponomastique hispano - magribine : Les noms des portes, le bab as- sari'a et la sari'a dans les villes de l'Occident musulman au Moyen Age, en Ann. Inst. Et. Or. de Argel, t II, 1936, p. 215 y n. 5.**

(٦٦) لدى دوزى كل الحق عندما أبدى دهشته «لاختلاف المؤرخين العرب حول تاريخ حدث في غاية الأهمية مثل ثورة حى الربيض بقرطبة على الحكم الأول» (انظر: **Dozy : Hist. Mus. Esp.2, I, p. 296, n. 2**). وبالفعل فإننا نجد في كتب التاريخ الإسلامية ثلاثة تواريخ مختلفة لهذا الحادث الشهير، وهي: ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٢هـ.

وقد قام دوزى باختيار تاريخ ١٩٨هـ مدعما اختياره بالعديد من البراهين، وقد تبعه المؤرخون الذين أتوا بعده. وكان من الممكن أن تظل براهين «دوزى» محتفظة بفاعليتها لو لم نكتشف أن ابن حيان قد ناقش نفس القضية في القرن الحادى عشر ودرس جميع التواريخ المقدمة للحادث واستقر في النهاية على عام ٢٠٢هـ معتمدا في ذلك على النص الأصلي والكامل للمنشور الذى بحث به الحكم الأول بعد قضائه على التمرد إلى ولاية محافظات مملكته ليحيطهم علما بما حدث. والمنشور يحدد تاريخ الثورة المسلحة للعامة ضد العاهل الأموى «بيوم ١٢ رمضان عام ٢٠٢هـ، الموافق لشهر مارس من العام الميلادى».

- **Vita Karoli, ed. y trad. L. Halphen, pp. 52- 53.**

(٦٧)

(٦٨) ذكر المؤرخ المصرى «المقريزى» (Jitat, ed. G. Wiet, III, p. 181) أن القرطبيين الذين جاءوا إلى الإسكندرية كان الحكم الأول قد قام بطردهم من أسبانيا عام ١٨٢ هـ بعد حادث الربض.
(٦٩) انظر، على وجه الخصوص :

- G. Wiet : L'Égypte de la conquête arabe á la conquête ottomane (en la Hist. de la nation égyptienne de G.Hanoteaux, t. IV), París, 1937, pp. 68 - 9, 71 - 2.

(٧٠) لمعرفة المزيد عن هذه الأحداث، انظر :

- M. Gaspar Remiro : Cordobeses musulmanes en Alejandría y Creta, en el Homenaje a don Francisco Codera, Zaragoza, 1904, pp. 217 - 233.
- A. A. Vasiliev : Byzance et les Arabes, I.
- La dynastie d' Amorium, ed. franc. de H. Grégoire y M. Conrad, Bruselas, 1935, pp. 49 sigs.

نقل «جاسبار ميرينو» فى بحثه المذكور (ص ٢٣١، ٢٣٢) عن المؤرخ النويرى الخبر التالى : قام «أبو حفص عمر البلوطى» باحتلال جزيرة كريت قبل استيلاء القرطبيين المتقيين على الإسكندرية بعدة سنوات. وبعد مغادرة الأندلسيين وذهابهم إلى كريت قاموا بتجهيز أربعين سفينة حربية واستولوا بها على معظم أرخبيل بحر إيجه.

(٧١) انظر :

- La dominación arábica en la Frontera superior, en Est. Crít. hist. ár. esp. (VIII), pp. 167 - 180.
- Royaume asturien, pp. 157 - 163.
- La Vita Hludowici del "Astrónomo" (Véase : Barrau-Dihigo, Royaume as-turien, p. 160, núm. I).

(٧٤) ورد فى مخطوطة ابن حيان (المقتبس) ذكر هذا الأمر على هذا النحو : «فج أرجانسون».

(٧٥) اقترح «دى خورجان» (De Jaurgain) عام ٨٠٢م لضياع بنبلونة من يد المسلمين. انظر :

- La discusión de Codera : Pamplona en el siglo VIII, en Est. Crít. hist. ár. esp. (VIII), pp. 179 sigs.

(٧٦) فى اللغة العربية من الصعب التمييز فى النطق بين Urún, Irún، انظر :

- Barrau-Dihigo : Royaume asturien, p. 162, n. 3.

وعن هذه الحملة يمكن الرجوع إلى هذين المصدرين :

- Dozy : Rech3, I, pp. 137 - 139.
- Codera : op. cit., pp. 179 - 180.

(٧٧) ظل اسم هذه القرية موجودا حتى عام ١٠٩٠م، انظر :

- R. Menéndez Pidal : España del Cid, I, p. 402

(٧٨) أورد المشرقى «أحمد النحاس الدمياطى» فى كتابه «مشاريع الأسواق» (الفصل الثانى والثلاثون، ملاحظة

رقم ٢٢) أسطورة تقول أن الحكم الأول أرسل حملتين إلى ثغر سرقسطة وأنزل بأشتوريش هزيمة مدوية.
(٧٩) انظر :

- L. Auzias : L'Aquitaine Carolingienne, pp. 43 - 53 y 59 - 66.

قام «كوديرا» بالتعليق على المصادر العربية الموجودة قبل اكتشاف نص مدونة ابن حيان.

- Codera : Narbona, Gerona y Barcelona, en Est. Crít. hist. ár. esp. (VIII), pp. 339 - 341.

انظر أيضًا :

- Simonet : Hist. de los Mazárabes, p. 285 (y n. 4, sobre Zato o Zado).

(٨٠) انظر :

- L. Auzias : L'Aquitaine Carolingienne, pp. 53 y 341 y n. 39.

(٨١) انظر، على وجه الخصوص :

- Annales regni Francorum, ed. Kurze, p.137, ad. ann.812, y p. 143, ad. ann. 815.

ويشير نفس المصدر (ص ١٢٣) إلى استقبال شربلمان في «أكس جران» في أكتوبر ٨١٠م لوفد مرسل من الحكم الأول وموافقته على الصلح معه. فهل الأمر يتعلق - مع الاختلاف الواضح في التاريخ - بالهدنة التي أشار إليها منذ قليل ابن حيان ؟

كما يشير المؤرخ اللاتيني في نفس عام ٨١٠م لتمرد المولد «عمروس» الذي طرده ولي العهد «عبد الرحمن» واضطره للجوء إلى «وشقة» (ص ١٠٣).

(٨٢) ابن عذارى : «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب»، الجزء الثاني (ص ٧٦/٧٥ في النص العربي - ص ١١٩، ١٢٠ في الترجمة).

(٨٣) يتهم ابن حزم («نقط العروس»، ص ١٤ = ص ١٧٦ من طبعة Seybold) الحكم الأول بأنه كان من حكام بنى أمية القلائل الذين يشربون الخمر أمام الناس حتى يغيبوا عن الوعي.

(٨٤) انظر النادرة التي ساقها ابن عذارى في كتابه «البيان ...»، الجزء الثاني (ص ٨٠، ٨١ في النص العربي - ص ١٢٧، ١٢٨ في الترجمة).

(٨٥) انظر على وجه الخصوص : «ابن القوطية» في :

- Fagnan : Extraits inédits, pp. 204 - 205.

(٨٦) أطلق اسم «منية» فيما بعد على أحد أحياء قرطبة، انظر :

- Lévi-Provençal : Esp. Mus. X^e- siècle, p. 207, n. 3 (n.º 21).

أشار «ابن الفرضي» في كتابه «تاريخ علماء الأندلس» (ص ١٨) إلى مستشفى «منية عجب» للجذام.

(٨٧) عن المقابر المسماة «مقابر متعة»، انظر :

- Lévi-Provençal : op. cit., p. 209, número 2 (n.º 10).

(٨٨) انظر المرجع السابق (ص ١٢٠ - n. 2).

(٨٩) ذكر المؤرخون أسماء العديد من هؤلاء «الفتيان»، وكانت حتى ذلك العصر رومانية في مجملها ولم تتسرب إليها الأسماء النسائية التي ستطلق عليهم فيما بعد (خلال القرن العاشر). ونستثنى مما تقدم اسم أحد

خصيان الحكم الأول ويدعى «بزنت» وهو الذى أمره سيده ساعة التفاف ثوار حى الرىض بقصره
بإحضار قارورة عطر لكى يفرغ محتواها على رأسه، ولما سأل بهزنت : «وأية ساعة طيب هذه؟» رد عليه
الأمير قائلا : «اسكت لا أم لك، ومن أين يعرف قاتل الحكم رأسه من رأس غيره»، انظر :

- Dozy : Hist. Mus. Esp. 2, I, Pág. 298 y n. 1.

الفصل الثالث

أسبانيا الإسلامية تحت حكم عبد الرحمن الثاني

(٨٢٢ - ٨٥٢م)

عناوين الفصل الثالث :

- ١ - النشاط السياسى للأمير عبد الرحمن الثاني - * تهدئة الفتنة الداخلية - * الصراع ضد مملكة أشتوريش - * تمرّد ماردة Merida - * - الصراع ضد الفرنجة والبشكنس وموسى بن قاسى - الإنزال البحرى النورماندى عام ٨٤٤م على شواطئ أسبانيا الإسلامية - تمرّد المستعربين فى قرطبة (٨٥٠م - ٨٥٩م).
- ٢ - الدولة الأندلسية والبلاط الأموى فى منتصف القرن التاسع الميلادى - إماره قرطبة والدول الإسلامية فى شمال أفريقيا - بداية العلاقات الدبلوماسية بين قرطبة وبيزنطة - عبد الرحمن الثانى ودوره فى التنظيم والتشييد - الحياة الفنية وتأثير زرياب على البلاط وعلى المدينة - العلماء فى بلاط عبد الرحمن الثانى والدسائس فى نهاية حكمه.

١- النشاط السياسى للأمير عبد الرحمن الثانى

- تهدئة الفتنة الداخلية :

اتسمت الفترة التى حكم فيها عبد الرحمن الثانى - ابن الحكم الأول وخليفته - والتى استمرت ما يزيد على ربع قرن، بالخفوت النسبى لمظاهر الفتن الداخلية، هذا برغم ما تتسم به الفترة السابقة على عصر الخلافة فى أسبانيا الإسلامية بالفوضى فى أغلب الأحيان. وقد أثرت هذه الفتن على الاستقرار فى الأقاليم الداخلية والمناطق الواقعة على أطراف الرقعة التى تسيطر عليها الإمارة الأموية، لدرجة هزّت معها الصرح الذى بذل عبد الرحمن الأول «صقر قريش» جهدا مضنيا فى تثبيت دعائمه. وبدون هذا العزم والارادة الصلبة والتمسك الذى أظهره الحكم الأول كان من المؤكد أن تنهار أسس ذلك الصرح وربما اختفى بالكامل فى دوامة الفتنة التى كان ضالعا فيها كل من العرب والبربر والمولدين فى شبة الجزيرة الأيبيرية. وعندما تولى عبد الرحمن الثانى مقاليد الحكم كان السلام يكاد يعم كافة الأقاليم وانتظمت الشؤون الإدارية وإزدهرت أحوال بيت المال ونشط الاقتصاد. وتطلعت كافة أقاليم الأندلس التى عاشت تحت يد الحكم الحديدى إلى الكيفية التى سيكون عليها الحكم فى العهد الجديد والحكم عليه من خلال الخطوات الأولى التى سيتخذها. كانت هذه الأقاليم تريد أن تتنفس الصعداء بعض الشئ قبل أن تسلم نفسها من جديد ليد الأذعان أو اتخاذها موقفا معاديا للسلطة المركزية على طول الخط والزج بنفسها مباشرة فى طريق التمرد على ممثلى هذه السلطة.

والمصادر العربية التى كانت حتى الآن مصدرنا الوحيد مع مالها من عادات فى رصد عدد قليل من الأحداث كل عام والمساواة بين حالات التمرد، الخطير منها والأقل خطورة، هذه المصادر لا تكاد تلقى الكثير من الضوء على فترة تهدئة الفتن هذه والتى استمرت طوال ما يقرب من ثلثى فترة حكم عبد الرحمن الثانى. لكن لم يسر ابن حيان على هذا المنوال. كما لم يفعل ذلك اثنان من كبار دارسى ومحللى الأسرة الأسبانية الأموية حتى القرن العاشر الميلادى وهما أحمد الرازى وابنه عيسى. وقد أفاد مؤلف «المقتبس» من كتابة هذين الدارسين فى كتابة أخباره أيمًا إفادة. وقد اتسمت هذه الأخبار بأسهابها فى دراسة فتره ولاية الحكم الأول وخليفته. وهى دراسات سوف نقوم بالسير على نهجها تفضيلا لها عن المصادر العربية الأخرى فى فترة لاحقة، ذلك أنها تتسم بالوضوح عن الوثائق الأخرى. نلاحظ فى هذه المصادر تقديرا كبيرا، يصل

أحيانا إلى حد التقريظ، للاستقرار والازدهار التي عاشت فيه أسبانيا الإسلامية تحت حكم عبد الرحمن الثاني. فقد أسلمت البلاد قيادها إلى مُتَع السلام وفرحة الحياة. عاشت الأندلس طبقا للمورخ العربى «أيام عرس» مع ملكها، لانجد لها مثيلا إلا الفترة القصيرة التي عاشتها البلاد خلال السنوات الأولى من القرن الحادى عشر تحت حكم «رئيس خدم القصر» وهو المظفر بن المنصور بن أبى عامر. ولا يمكن لنا أن نغمت بعض ما لهذه الرؤية من قيمة رغم أننا لا نقبل بحرفيتها. ولا تبدو فى نظرنا فترة إمارة عبد الرحمن الثانى - التي لم تدرس جيدا حتى الآن لقلة المعطيات التاريخية - على أنها فترة ازدهار سياسى للأمويين فى الأندلس فقط بل إنها تحدد معالم فترة تحديث ثقافى نجد فيها تقهقر التراث السورى والتوجهات المحافظة التي استمرت على عهد من سبقوه، ليفسح المجال أمام تيارات حضارية وثقافية جديدة، ساعد على ظهورها الأمير الحاكم، والواردة الى العاصمة الأندلسية من الشرق العباسى.

كان عبد الرحمن الثانى قليل الشبه بأبيه فى هذا المقام رغم أنه كان الابن المفضل، فقد ولد فى طليطلة عام ٧٩٢م - ٧٩٣م (١٧٦هـ) قبل تولى الحكم الأول بوقت قصير^(٢). وعندما تولى هو الحكم كان عمره أكثر من ثلاثين عاما. كما كان ذا خبرة قوية بالنسبة لعصره إذ قام ببعض المهام الدقيقة التي أوكلت إليه. وقد سلفت الإشارة إلى أنه شهد المذبحة التي تعرض لها أهل طليطلة «يوم الخندق» وكان موقفه هو اللامبالاة الظاهرية رغم نفوره الداخلى منها^(٣)، كما رافق أوقاد بعض الحملات الصيفية ومارس الحكم لبعض الوقت فى منطقة الثغر العلوى بصفته الوالى. ولما كان واعيا للدور الذى سيضطلع به عندما يتولى الحكم بعد أبيه فقد فضل مسبقا انتهاز موقف ليبرالى، وعنى عناية خاصة بشعبيته. كما أدى نزول الحكم الأول عن كرسى الحكم قبل وفاته بشهر إلى أن تتوفر الفرصة أمام وريثه ليعطى أهل قرطبة نوعا من الرضا النفسى، وهم الذين كانوا قد سئموا من طغيان الأمير الحاكم ومن مطالبه التي لا حد لها بشأن الضرائب، ورغبة منه فى أن يعضد التأييد الشعبى من مركزه كأمر وريث للحكم استطاع أن يحصل على موافقة والده المريض على إعدام القائد المسيحى لميليشيا القصر المدعو القومس ربيع ابن تيود ولفو Teodulfo^(٤) والذي كان له تأثير كبير فيما يتعلق بأمور الضرائب. فأمر بضرب عنقه بحجة أن هذا الضابط المستعرب قد تجاوز حدود الوظيفة المنوطة به مرتكبا العديد من الجرائم، وقد تلقى العامة فى قرطبة هذا الحدث بفرح شديد. كما قام الوريث بمد يده إلى الفقهاء الذين كان يعيشون حاله تدمر فيما بينهم، وذلك بأن أمر بهدم سوق النبيذ فى سيكوندا (Secunda) والواقع على بوابات قرطبة. كان يستأجر هذا السوق شخص يدعى حيون (Hayyun)

وكان يحتكر سوق البيع ويفرض أسعارا مبالغاً فيها ومن المفترض أنه كان يبيع الخمر لبعض المسلمين.

أدت هذه الإجراءات إلى الثمار التي كان ينتظرها عبد الرحمن الثاني: إذا أخذ يتكون رأى عام موال له سواء بين صفوف العامة أو فى الدوائر الدينية فى قرطبة. فى إطار هذا الجو المواتى تولى شئون الأمانة يوم ٢٤ - ٥ - ٨٢٢م (٢٦ من ذى الحجة ٢٠٦هـ) وأقسمت له كافة طوائف قرطبة بيمين الولاء. كما قدمت إلى قرطبة وفود من الأقاليم المختلفة لهذا الغرض حاملة معها رسائل الطاعة من أهالى الأقاليم الداخلية التى أثنت أيضا على الخطوات التى اتخذها العاهل الجديد. ووصل الأمر ببعض هذه الوفود إلى الظن بإمكانية طلب المزيد، فعلى سبيل المثال نجد أن وفد إقليم البيرة (Elvi-ra) الذى كان يعسكر بالقرب من قرطبة فى مكان يطلق عليه بليش (Vélez)^(٥) أرسل إلى عبد الرحمن الثانى طلباً مُتَّبِجاً للغاية ألا وهو الشكوى من عدم شرعية بعض الضرائب التى أقرها القومس ربيع وكذا قيمتها المبالغ فيها وبالتالى طلب الوفد إلغائها. كما أن بعض الميليشيات التى تم إرسالها إلى معسكر وفد البيرة للقيام بمهمة المساءلة، قد استقبلت ببعض الصيحات المعادية. وعلى هذا قام الحرس الأميرى المسمى بـ «الصامتين»، بالعمل على إعادة النظام ولم يبذل أى جهد كبير فى تفريق المتظاهرين الذين مات الكثير منهم خلال هذه العملية. هذه الواقعة الصغيرة هى ما يطلق عليه بعض المؤرخين العرب عبارة مبالغا فيها هى «موقعه بليش (Velez)».

ليس من الضرورى أن يؤدى مقدم عاهل جديد إلى نوع من ردود الفعل الهامة فى بلد خضع فترة طويلة لنظام من الإرهاب. وكان ذلك ما حدث. لم يكن هناك إلا الأخ العجوز لهشام الأول والذى يدعى عبدالله البالنسى، الذى كان يعيش فى مقره القديم فى «شرق الأندلس». إذ ظل الأمل يراود هذا الأخ رغم تقدمه فى السن فى الاستيلاء على كرسى الحكم الذى يشغله الآن أحد أحفاد عبد الرحمن «المهاجر». ورغم أن الحكم الأول قد خوله سلطة شبه كاملة على أراضى بلنسية ورغم أنه ابنه «صاحب الصوائف» عبید الله كان قد حاز الفخار بإرساله الجيوش الموالية له فى عدد من الحملات المؤثرة فإن البالنسى حاول انتهاز فترة التغيير فى الحكم بأن يمد نفوذه ويستولى على منطقة تودمير (Tudmir) الواقعه فى إقليم مرسية (Murcia) آملاً بذلك أن تساعد الحملات التى تتم إلى بلوغ أقصى ما يستطيع إذا ما كانت الفرصة سانحة. لكن عبد الرحمن الثانى لم يكن فى حاجة إلى إصدار أوامر لقواته بالتدخل ضده فقد أصابه الشلل أثناء قيامه برحلة دعائية فى أراضى تودمير، فتم نقله إلى بلنسية وظل بها لا يعرف عنه شيئاً حتى

وفاته فى خريف العام التالى ٨٢٣م - ٨٢٤م (٢٠٨هـ). واستولت حكومة قرطبة بعد ذلك على إقليم بلنسية والمناطق التابعة له وعينت عليه واليا تابعا للعاهل القرطبى.

وتسير الأمور على هذا المنوال، بعد هذه الواقعة، وتظل كذلك لمدة تزيد على خمسة عشر عاما فى ظل حكم عبد الرحمن الثانى، ثم بعدها أخذت تظهر بعض البوادر السياسية المثيرة للقلق. إذا ظهرت بعض حالات متقطعة من التمرد التى لم تكتسب إلا أهمية وقتية وتمّ القضاء على جلّها بسهولة باستثناء التمرد الذى حدث فى منطقة ماردة (Merida) وفى الثغر الأدنى والثغر الأعلى وانشقاق موسى بن موسى بن قاسى. وسوف نقوم لاحقا بدراسة هذه الأحداث عندما نتناول تطورات الصراع بين عبد الرحمن الثانى والأشتوريثيين والبشكنس والفرنجة. وما سنقوم به فى السطور التالية هو معالجة هذه التمردات الداخلية الصغيرة التى يبدو أنها لم تؤثر كثيرا على اقتصاديات المملكة القرطبية خلال الفترة من ٨٢٥م حتى ٨٥٠م.

إن أول ما يشير إليه المؤرخون هو تلك الاضطرابات التى وقعت بعد فترة قصيره من تولى عبد الرحمن الثانى، بين العرب أنفسهم فى منطقة تودمير، فقد إنقسموا على أنفسهم بين مضرين ويمنيين. فقد التف اليمينيون حول رئيسهم أبو الشماخ محمد بن إبراهيم وذلك لشعورهم بالاهانة لسبب يتسم بالصبيانية: إذ انتزعت ورقة من شجرة كرم من إحدى الحدائق الخاصة. كلفت هذه الفعلة التافهة أحد المضربين حياته وأدت إلى اشتعال حرب بين الطرفين استمرت لسبعة أعوام أى حتى عام ٨٢٨م - ٨٢٩م (٢١٣هـ) ومن الواضح أن هذه الأعوام السبعة تخللتها فترات هدنة طويلة. كان هدف عبد الرحمن الثانى هو أن يضعف كل طرف الآخر طالما أن الأزمة قاصرة على منطقة تودمير. وأخيرا قرر أن يرسل إلى المنطقة مجموعة من رجال الشرطة قضت عليهما بالقرب من بلدة لورقة Lorca عند المصارة Musara فقتلت ثلاثة آلاف منهم. كما سيطر على الأقليم بشكل فعال. ولما كانت عاصمة الأمانة القديمة أيو (Ello) التى كان يحكمها القوطى تيود وميرو (Teodomiro) قد ظلت على عهدهما كمصدر للدسائس والمناوأة الدائمة للعاهل القرطبى فما كان منه إلا أن أمر بتدميرها عام ٨٣١م (٢١٦هـ) وبناء مدينة جديده هى: مرسية (Murcia) التى أصبحت اعتبارا من تلك اللحظة مقر إقامة الوالى الذى ترسل به قرطبة ليدبر منه شئون إقليم تودمير (٧).

كما أننا سوف نقتصر على الإشارة إلى ما كان يقع من أحداث تمرد متفرقة كان يقوم بها بربر توريل Tawril الواقعه فى مقاطعة تاكرونا Takoronna فى رندة

Ronda عام ٨٢٦م (٢١١هـ) والتي تم القضاء عليها في الحال. كذلك قضى على التمرد الذي قام به حبيب البرنسي في إقليم الجزيرة عام ٨٥٠م (٢٣٦هـ). كما كانت هناك حالة تمرد أخرى وقعت خلال الفترة الزمنية بين التاريخين المشار اليهما، أي عام ٨٤٨ - ٨٤٩م (٢٢٤)، في المناطق التي لم ينفذ إليها الإسلام جيدا في جزيرتي ميورقة ومينورقة Mallorca y Menorca^(٨). وأخيرا نشير إلى محاولات العصيان المتكررة التي قام بها أهل طليطلة لينفضوا عن أنفسهم نير السلطة الأموية إلا أن هذا التمرد الجديد الذي تأخر عبد الرحمن الثاني في القضاء عليه - والذي إستمر سبع سنوات - لم يتسع مداه إلى درجات مشابهة لحالات تمرد سابقة وقعت في المدينة خلال فترات حكم أسلافه خاصة في عهد الحكم الأول.

كان أحد العمال البسطاء من أبناء هذه المدينة هو المحرك الرئيسي في هذا التمرد الجديد ويدعى هاشم. فقد أتى إلى قرطبة للبحث عن مورد للرزق فعمل في طرق الحديد في حيّ الحدادين، ومن هنا سر شهرته بلقب «الضراب». هذا الرجل عاش متأثرا بما كان للحكم الثاني من قبضة حديدية عامل بها أهل مدينة وبعض أفراد أسرته خاصة يوم المذبحة، فما كان منه إلا أن هاجر إلى العاصمة قرطبة. ثم عاد من جديد إلى مدينته طليطلة خلال الأعوام الأولى من حكم عبد الرحمن الثاني، وأخذ يحرك ضده بعض العناصر المناوئة لحكمه وهي عناصر لم تختف أبدا من مدينة نهر التاجه Tajo ومن القرى المحيطة بها. وبهذه الطريقة التف حوله بعض الأفراد ممن لا وزاع لهم فأخذوا، وهو على رأسهم، في ممارسة قطع الطرق اعتبارا من عام ٨٢٩م (٢١٤هـ) ونهب المسافرين والسطو على منازل البربر ومزارع إقليم طليطلة. كما قام هاشم الضراب ومن معه من مجموعات الرجال بإعمال يد القتل والسلب والنهب في دائرة شنت بريّة Santaver^(٩) الواقعة في أقصى شرق الأقليم، الأمر الذي حدا بحكومه قرطبة المركزية إلى اتخاذ قرار بالتدخل. فقد تلقى الثغر الأوسط محمد بن رستم أوامر بالسيطرة على الجرائم التي تحدثها هذه المجموعة المنظمة. فقام بعدة محاولات لم تسفر عن شئ في البداية إلا أنه إستطاع تفريق شملها بعد معركة شرسة بالقرب من دروكة Daroca [٨٣١م - ٢١٦هـ] والتي لقي فيها هاشم حتفه.

لقد انضم سكان طليطلة والفلاحين في سهول التاجه إلى ذلك المغامر منذ الأيام الأولى حيث كانوا يعتبرونه بطلا جديدا من أبطال الاستقلال. وما كان على عبد الرحمن الثاني، الذي كان يبدو عليه الميل إلى البعد عن اتخاذ الإجراءات العنيفة، إلا أنه أرسل ببعض قواته فأهلكت الزروع والبساتين وتفادى بشكل واضح الدخول في

حرب ضد المتمردين. فأفاد هؤلاء من الموقف بأن كوّنوا مجموعات من الجند وأرسلوا بها للإغارة على أراضي الإمارة الواقعة في الطريق إلى قلعه رباح Calatrava لكن واحدا منهم يدعى ابن مهاجر خانهم ووشى بهم، كما أنهم وجدوا أنفسهم في النهاية محاصرين وقد فتك بهم الجوع وهم في مدينتهم. فقامت القوات النظامية التي أرسلها الوليد - شقيق العاهل القرطبي - بهجمة استطاعت فيها الاستيلاء على طليطلة في ١٥ - ٦ - ٨٣٧م (٨ رجب عام ٢٢٢هـ). وأمر بإعادة بناء القلعة التي كان قد بناها منذ فترة وجيزة المولد عمروس Amrus إلا أن المتمردين كانوا قد هدموها. كما أمر بتولية أحد الحكام على المدينة وأن تكون هناك قوات كافية. ومنذ هذه اللحظة استمرت طليطلة على الوضع الجديد لا تكاد تنبس ببنت شفه حتى نهاية حكم عبد الرحمن.

الصراع ضد مملكة أشتوريش - تمرد ماردة Mérida

وجد الحكم الأول نفسه، طوال معظم فترة إمارته، مجبرا على عدم الرد على الحملات والغارات التي قام بها الأشتوريون بقيادة ملكهم الفرنسو الثاني Alfonso II على أراضي الأقاليم الواقعة على الحدود الشمالية الغربية للأندلس. لكنه استطاع في الأعوام الأخيرة من حكمه الخروج من هذه السلبية الخارجية عن إرادته وذلك بعد حدوث تقدم ملموس في استقرار الأوضاع الداخلية؛ ففي صيف عام ٨١٦م (٢٠٠هـ) كلف قائده المقدام عبد الكريم بن موجته أن يغزو المناطق المجاورة لـ ألبه والقلاع Alava وتذكر في هذا المقام كيف أن هذه الحملة وصلت بالجيش الإسلامي إلى مضيق بانكوربو Pancorbo، وكيف كان عليها أن تعود أدراجها إلى الأراضي الأموية دون أن تحقق أي نصر كبير لتستعيد شهرتها التي تدهورت في أسبانيا الشمالية (١٠).

كان الصراع مع المسيحيين المقيمين على حدود الأندلس أحد النقاط الهامة في التركيبة التي خلفها الحكم لعبد الرحمن المعروف بحرصه على استقرار التقاليد الأسرية فلم يجد أمامه مناصا إلا مواصلة «الجهاد» ضد غير المسلمين. فقد قام في الصيف التالي على توليه الحكم، وطوال عامين متاليين، بتوجيه ضربات إلى مملكة أشتوريش، كما جهز بعد ذلك حملة برشلونه وأراضي الثغر الأسباني. كما سنرى بعد ذلك نوعا من الهدنة بين المسيحيين والمسلمين والتي استمرت حوالي عشر سنوات (٨٢٨ - ٨٣٨ - ٢١٣ - ٢٢٣هـ). كم تم استئناف الحرب المقدسة ضد الشمال الغربي والشمال الشرقي في كل عام خلال الفترة الأخيرة من حكم الأمير القرطبي وحتى وفاته.

كان القائد عبد الكريم بن موجته هو الذي قاد أول صيفية (٨٢٣ - ٢٠٨هـ) وجهها عبد الرحمن الثاني ضد أراضي ألبه Alava والقلاع. قام القائد العجوز - الذي

توفى بعد عامين - للحكم الأول بإعداد هذه الصيفية إعدادا جيدا فدخل بقواته فى إقليم يعرف درويه جيدا وقام بسلب ونهب المزارع والقرى وإحراق المحاصيل دون أن يجد، على ما يبدو، أى مقاومة؛ لكن لم تحدث مواجهة حاسمة بين قواته وقوات ألفونسو الثانى. كان دخول ألبه عن طريق ممرٍ يطلق عليه شرنيق Charniq التابع لمنطقة مقفرة يطلق عليها غيرنيكا (Guernica) وهو إسم لا يمت بصلة للمدينة التابعة لبلاد البشكنس والتي تحمل نفس الاسم^(١١).

وبعد ذلك بعامين تم توجيه حملة جديدة على ألبه لم يشر إليها أحد من المؤرخين إلا ابن حيان. قاد هذه الحملة صاحب الصوائف عبيد الله الذى غزا أراضى ألبه فى شهر أغسطس عام ٨٢٥م (ربيع الثانى ٢١٠هـ) فعات فيها تنكيلا وانتهى به الأمر إلى الدخول فى صدام مع القوات الأشتوريشية فعند سفح جبل يطلق عليه المؤرخ جبل المجوس دار وطيس معركة قوية إنتهت بهزيمة المسيحيين. وهذه الحملة - التى أطلقت عليها أسبانيا الإسلامية اسم غزوه الفتح - لم تكن الوحيدة التى قامت بها الجيوش الأموية فى ذلك الصيف؛ فتم توجيه طابور من الجيش بقيادة العباس بن عبد الله القرشى مهاجما جليقية من ناحية بازو (Viseo) بينما سارت حملة أخرى بقيادة مالك أحد إخوة القائد السابق ووصلت فى زحفها إلى ما بعد قلمرية (Coimbra). لكن هذين الطابورين لم يلتقيا وربما تعرضا للهزيمة وكسر شوكتهما. وخلال الشتاء التالى، أى فى ديسمبر من عام ٨٢٥م (رمضان ٢١٠هـ) توجه جيش إسلامى بقيادة فرج بن مسرة إلى إقليم أشتوريش واستولى بالقوة على حصن القليعة Alcolea وهو حصن من الصعب تحديد مكانه لعدم دقة المعلومات المتوفرة لدينا عن الإقليم الذى تعرض للهجوم. كما جهزت صيفية أخرى خلال صيف عام ٨٢٦م (٢١١هـ) قادها عبيد الله بن عبد الله بالانسى ضد جليقية Galicia و«دولة القشتاليين» وإذا ما أخذنا برأى ابن حيان، الذى لم يورد المزيد من التفاصيل، فإن هذه الحملة لم تكن الا نزهة عسكرية كلفت القليل، حيث وصلت القوات الإسلامية إلى وادى المينيو Mino ثم إلى قشتالة Castilla بعد ذلك.

ربما كانت الهدنة التالية لهذه الحملات نتيجة مفاوضات بين ألفونسو الثانى وأمير قرطبة. وما نقوله فى هذا المقام ليس إلا إفتراضا لايقوم على أى سند تاريخى. وعلى كل حال فإن هذه الهدنة المفترضة انتهت عام ٨٣ هـ (٢٢٣هـ) بأن أرسلت ثلاثة جيوش إسلامية فى وقت واحد إلى إقليم أشتوريش: كان أحد هذه الجيوش بقيادة الوليد بن هشام وهو عم العاهل القرطبى وقد دخل جليقية عن طريق بازو وقام بتوجيه

ضربات انتقامية إلى ذلك الأقليم^(١٢). أما الجيش الثانى فكان تحت إمرة الأمير سعيد أخو عبد الرحمن الثانى وقد حقق هذا الجيش انتصارات فى أبلة وقشتاله القديمة. كما قاد الوليد أحد إخوه العاهل القرطبى الجيش الثالث. وقد وجد هذا الجيش بعض المقاومة لكنه قام بهجوم استولى فيه على حصن القرية Alqurria - وهو حصن من الصعب تحديد مكانه مثل حصن القليعة Alcolea والذي كان قد سقط قبل ذلك بثلاثة عشر عاما^(١٣). وفى الصيف التالى خرجت حملة موجهة ضد الأهداف المعتادة وكانت المحصلة منها الاستيلاء على حصن آخر، وفى الوقت نفسه قام موسى بن موسى بن قاس - والذي سنسرد نشاطه فى أعالي أرغن Aragon على التوالى - بانتهاز الفرصة السانحة أمامه وسير الجيش الذى يقوده على الحدود الشرقية لأبلة. وفى شهر يونيو عام ٨٤٠م (شعبان ٢٢٥هـ) قاد عبد الرحمن الثانى بنفسه حملة توجهت إلى جليقية إلا أن المؤرخين الذين أشاروا إليها تحدثوا عنها باقتضاب شديد ربما لا يمكن إرجاعه بالكامل إلى جهلهم بها: ومما لاشك فيه أن هذه الحملة الصيفية كانت سيئة النتائج بالنسبة للجيش الإسلامى، وأبرزت بالتالى عدم القدرة العسكرية للعاهل. وربما لهذا السبب لن نراه يجازف بوضع نفسه على رأس قوة من الجيش تدخل أراضى الأعداء، لكن ابنه المطرف كان هو الذى قاد حملة على جليقية فى صيف عام ٨٤١م (٢٢٦هـ) وعادت هذه الحملة مظفرة إلى قرطبة وقد حققت النتائج المعتادة: نهب المزارع وإحراق المحاصيل والاستيلاء على الكثير من الغنائم.

لم يؤد موت ألفونسو الثانى فى العام التالى وإعلان تنصيب ابنه راميرو الأول Ramiro I (٨٤٢ - ٨٥٠) مكانه إلى حدوث أى تغيير فى العلاقات بين مملكة قرطبة ومملكة أستوريش ورغم هذا فإن الفترات الزمنية الفاصلة بين الصوائف قد ازدادت بعض الشئ، وهنا نسجل اثنتين من الصوائف وقعتا منذ ذلك الحين وحتى انتهاء حكم عبد الرحمن الثانى: وقعت أولاهما عام ٨٤٦م (٢٣١هـ)، أما الثانية فى عام ٨٤٨م (٢٣٥هـ) وقاد كلتا الحملتين أبناء الأمير الأموى وهما الأمير محمد والأمير منذر. قام محمد بحصار مدينة ليون Leon الواقعة فى أقصى الطرف الجنوبى لمملكة أوبيدو Oviedo واستخدم فى هذا الحصار ماكينات حربية أثرت إقامتها وتجهيزها كثيرا على أهالى ليون لدرجة تملكهم معها الرعب وغادرو المدينة ليلا رغم أسوارها المنيعة. فتم احتلالها وإشعال الحرائق بها وقام المسلمون قبل مغادرتها بفتح ثغرات كبيرة فى أسوارها^(١٤). أما فيما يتعلق بالحملة التى جرت عام ٨٤٨م بقيادة الأمير المنذر فلا ندر عنها شيئا إلا أنها كانت موجهة إلى أبلة.

من السرد السابق الذى يخلو من الكثير من التفاصيل لوحظ كيف أن بعض الصوائف كانت موجهة ضد «جليقية» وهى التسمية التى يطلقها المؤرخون العرب على ذلك الأقليم الذى كان يشمل بصفة عامة - خلال القرن التاسع الميلادى - إقليم جليقية الأسباني فى الوقت الحالى وكذا بعض المناطق الواقعة اليوم فى شمال البرتغال ألا وهى محافظتى إنترى مينو ودويرو Entre Minhoe Douro وتراس أوس مونتيس Tras os Montes وكذلك جزءا من محافظة بيرة Beirea حتى وادى مونديجو Mondego .

كان يفصل «جليقية» تلك عن الأراضى الأموية الثغر الأدنى الذى كانت ماردة Merida عاصمته والتى تقع على نهر «وادى يانه» Guadiana. ومثلما هو الحال فى كل من طليطلة وسرقسطة عاصمتا الثغرين الآخرين كانت ماردة مدينة قديمة^(١٥)، لم تقع تحت الحكم الإسلامى إلا بعد حصار طويل عانى منه الغزاه^(١٦). كان أهلها شديدا الميل إلى العصيان وكان أغلبهم من المولدين وفيهم نسبة كبيرة من المستعربين المسيحيين. كما أن القرب الجغرافى النسبى من أراضى العدو كان يهى الفرصة للسكان ليوقعوا إتفاقيات مع عملاء تابعين لمملكة أشتوريش وأحيانا ما يقومون بالثورة، دون أية ارتباطات أخرى، على سلطة حكومة قرطبة. ويبدو أن ألفونسو الثانى شجع وربما ساند بالفعل تمرد المولدين والمستعربين فى ماردة على الأمير الأموى الذى قام والده الحكم الأول بمواجهة حازمة لهذه المشكلة قبل ذلك بثمانية وثلاثين عاما. وخلال تلك الفترة - لدينا البرهان^(١٧)، ثم دعم موقف المسيحيين فى عاصمة الثغر الأدبى فى تمردهم على عبد الرحمن الثانى وذلك من خلال رسائل ومحرضين جاءت إليهم من ملك الفرنجة لودفيكو بيو Ludovico Pio.

وخلال عام ٨٢٨م (٢١٣هـ) وفى ظل الظروف التى أشرنا إليها اجتمع سكان مارده حول اثنين من القادة - هما محروود بن عبد الجبار من البربر، والمولّد سليمان بن مارتين - وقطعوا آخر الروابط التى توحدتهم بالسلطة المركزية إذ قتلوا الحاكم الشرعى للمدينة مروان الجليقى. إلا أن عبد الرحمن الثانى قام فى العام التالى بقيادة حملة قمعية حاصر فيها ماردة لكن لم يسفر الحصار عن شئ، وما فعله هو نهب المحاصيل فى النواحي المجاورة واتخاذ التدابير ليحول دون حصول المتمردين على المؤن اللازمة. لكن الحصار الذى ثم عام ٨٣٠م (٢١٥هـ) كانت له نتائج أفضل فقد سلّم أهالى المدينة بعض الرهائن وأمكن بذلك تعيين حاكم موال لسلطة قرطبة هو الحارث بن بازى. لكن هذا الانصياع لم يكن الا مؤقتا، فخلال السنوات التالية كان على عبد الرحمن الثانى

أن يعاود الكرة أكثر من مرة لحصار المدينة المتمردة، ثم انتهز فرصة وجود أفضل قواته ليفرض السلام الكامل على كافة أراضي الثغر الأدنى. لسنا ندرى شيئا عن التاريخ المحدد الذي استعاد فيه الأمير الأموي مدينة ماردة وربما كان عام ٨٣٤م (٢١٩هـ) نظرا لأنه يتوفر لدينا نصان باللغة العربية في قلعة ماردة إحياءً لذكرى بناء أحد الاستحكامات المخصصة للحامية الأموية في أبريل ٨٣٥م (ربيع الثاني عام ٢٢٠هـ) بناء على أوامر عبد الرحمن الثاني وتحت إشراف الوالي عبد الله بن كليب بن ثعلبة، وقد أقيم هذا الاستحكام درءاً لأي تمرد جديد في المدينة^(١٨). وإذا ما أخذنا برواية أحد الجغرافيين المسلمين فإن هذا الاستحكام كان قوى البنيان ومحاطا بسور عرض جدرانه اثنتا عشر ذراعا^(١٩).

لم يجد زعيما المتمردين في ماردة مناصا، أمام الضغط الذي قام به الأمير القرطبي على مدينتهم، إلا الابتعاد والبحث عن ملاذ وجداه أولا في بطليوس Badajoz ثم بعد ذلك في بعض القلاع في الوادي الأدنى لنهر «وادي يانه» Guadiana. وبعد ذلك انفصلا وأخذ كل واحد منهم يعمل بمفرده، إذ اتجه المولد سليمان بن مارتين نحو الشمال وأقام معسكره في حصن سانتا كروث دي لاسييرا Santa cruz de la sierra، الواقع بالقرب من ترجاله Trujillo لكن أحد الجيوش الأموية هزمه وقتله عام (٢١٩هـ) ٨٣٤م. وبالنسبة لمحمود بن عبد الجبار البربري فقد ظل في وادي نهر وادي يانه Guadiana لكن القوات القرطبية كانت تطارده كل صيف فما كان منه إلا الانسحاب نحو الجنوب يرافقه أنصاره من البربر وهم يحملون معهم نساءهم. استطاع هذا المتمرّد هزيمة سكان باجة Beja الذين أرادوا مواجهته وانتهى به الأمر إلى الاستقرار بجوار شواطئ الأطلنطي وهي منطقة تابعة لأكشونبة Ossonoba، في قلعة مونتي ساكرو Monte sacro التي لا تبعد كثيرا عن المدينة البرتغالية الحالية المسماة فارو Faro. وفي عام ٨٣٨م (٢٢٣هـ) أجلاه أحد الجيوش الأموية عن المكان وعندئذ قرر الذهاب إلى جليقية. كان قد كتب قبل ذلك إلى الملك الفونسو الثاني طلبا لدخول البلاد فما كان من ملك أوبيدو Oviedo إلا قبول مجيئه داعيا إياه للقدوم إلى العاصمة وأعطاه قطاعا هو حصن واقع على حدود جليقية وبالتحديد في المنطقة الواقعة بين أوبورتو Oporto ولا أميكة Lamego. وأصبح محمود لبعض الوقت أداة نافعة للملك الأشتوري حيث قاد غارات هجومية كثيرة على الأراضي الإسلامية. لكنه في النهاية استيقظ ضميره فبعث برسالة سرية إلى عبد الرحمن الثاني يطلب العفو عما فعل، فما

كان من الأمير إلا المسارعة فى الاستجابة لطلبة وبينما كان المتمرّد يجرى هذه الاتّفاقات مع قرطبة وشى به أحد الوشاه إلى ألفونسو الثانى الذى بعث فى طلبه فوراً إلا أن المتمرّد لم يذهب إلى بلاد ألفونسو متذرّعاً بالمرض غير أن ألفونسو الثانى كان على قناعة تامة بعودة تابعة البربرى إلى صفوف الأمويين وعندئذ ذهب هو لمهاجمته فى معقله، فما كان من محمود إلا الهروب، وأثناء ذلك سقط من فوق حصانه فأصيب بجروح الأمر إلى أدى إلى أسره ثم قتله فى شهر مايو ٨٤٠ م (رجب ٢٢٥هـ) وأخذ ألفونسو الثانى كافة أفراد عائلة محمود إلى جليقية. وتحولت أخت محمود إلى المسيحية وهى امرأة مشهورة بجمالها وأصبحت زوجة لأحد السادة الجليقيين وأنجبت له ابناً أصبح بعد ذلك - إذا ما أخذنا برواية ابن حيان - أسقف شنت ياقب Santiago de Compostela (٢٠).

– الصراع ضد الفرنجة Frances والبشكنس Vascene، وموسى بن قاسى

يبدو أن القائد «أبو مروان عبيد الله ابن» عبد الله البالنسى كان متخصصاً فى القيام بحملات تنظمها قرطبة ضد الثغر الأسبانى hispanica وذلك خلال النصف الأول من القرن التاسع. فبعد أن قام، فى عهد الحكم الأول - ٨١٣ م (١٩٧هـ) بتجهيز حملة ضد إقليم برشلونة، ثم تكليفه بعد ذلك بخمسة عشر عاماً، أى عام ٨٢٨ م (٢١٢هـ) (٢١)، بقيادة حملة صيفية جديدة ضد المدينة التى ستكون فيما بعد عاصمة إقليم قطلونية Cataluña. فقبل ذلك بعام عهد لوفيكوبيو Luodovico Pio إلى ابنه من غيين دى تولوسا Guillen de Tolosa مهمة الدفاع عن المدينة. هذا الابن هو الكونت والماركيز برنارد Bernardo. وتم اتخاذ قرار بهذه الحملة التى جرت عام ٨٢٨ م نتيجة لاتفاق - محتمل - بين الأمير عبد الرحمن الثانى وأحد القوط الذى ينتمى إلى أسرة نبيلة وهو المدعو أيثون Aizon (٢٢)، الذى كان قد سجن فى أكس جران Aquisgran ثم فر من السجن وانتهى به الأمر خلال الشهور السابقة إلى التحريض على التمرد ضد سيطرة الفرنجة فى المناطق الجبلية التابعة للثغر الأسبانى. وخلال صيف عام ٨٢٦ م استولى «أيثون» على بعض القلاع مثل أوسونا (Vich) Ausona ورودا Roda ثم أرسل أخاه إلى قرطبة لطلب المعونة من الأمير الأندلسى، ونتيجة لهذا الاتفاق بين عبد الرحمن الثانى وأيثون قام القائد عبيد الله بحصار برشلونة، لكنه لم يستطع الاستيلاء على المدينة بالقوة هذه المرة أيضاً نظراً لمقاومة قائدها برناردو. ثم ذهب من هناك لحصار مدينة جيرندة Gerona، والشئ الوحيد الذى استطاع فعله هو السير بقواته طوال ستين يوماً فى الجهات الجنوبية للثغر الأسبانى خلفاً وراءه الدمار.

تخلّى عبد الرحمن الثاني بعد ذلك ولبعض الوقت، عن معاودة الهجوم على برشلونة فلم تجهز أى حملات أموية^(٢٣) ضد الفرنجة قبل وفاة لودفيكو بيو فى ٢٠ - ٨٤٠م. وفى العام التالى قرر الأمير القرطبى إرسال حملة قوية التجهيز إلى ذلك الثغر وجعل على رأسها القائد عبد الوحيد بن يزيد الأسكندراني، وتوغلت هذه الحملة كثيرا فى الأراضى الفرنجية مرورا بأراضى أوسونا *Ausona* وعبرت البرانس الشرقية ودمرت شرطانية *Cerdania* ووصلت إلى مشارف أربونة *Narbona*. وبعد ذلك بعشرة أعوام ٨٥٠م (٢٣٦هـ) تم تجهيز حملة أخرى ضد أقليم برشلونة لكنها لم تسفر هى الأخرى عن نتيجة اللهم إلا بعض الأسرى وغنائم الحرب لما قامت به القوات الإسلامية من غارات^(٢٤). وفى الوقت ذاته كانت تجرى مفاوضات من أجل التوصل إلى هدنة بين عبد الرحمن الثانى وكارلوس الكالبو *Carlón el calvo*. وهذه هى رواية أحد المصادر التاريخية للفرنجة فى عام ٨٤٧م استقبل الملك شارلمانى اثنين من السفراء القرطبيين فى ريمس *Rems* «كانا قد أتيا طلبا للسلام وعقد اتفاق».

شهد النصف الأول من القرن التاسع الميلادى تنامى وتصاعد التهديد البشكنسى *Vascon* ضد أسبانيا الأموية. كان هؤلاء البشكنس يقيمون فى الأراضى التى تنسب فى أغلبها إلى مملكة نبره *Navarra* الواقعة شمال وادى نهر إبره *Ebro* وكانوا عبارة عن قبائل لا نعرف عنها إلا القليل. استولت كل واحدة من هذه القبائل على إقطاعية محددة إما تابعة لشرلمان *Carlomagno* وإما تابعة للملك أشتوريش، وذلك اعتبارا من نهاية القرن الثامن^(٢٥). لكن أهم وأقوى مدتهم كانت بنبلونة *Pamplona* التى قاومت السيطرة الإسلامية عام ٧٩٨م (٨١٢هـ) وأصبحت بعد ذلك مقر إقامة الأمير البشكنسى غارثيا إنغيث *García Inniguez* ابن شخص يدعى إنيجو أريستا *Iñigo Arista* (أو إنبيكو *Eneco*) وتؤكد المصادر التاريخية وجود هذا الأمير لكننا لا نعرف كثيرا عن أخباره إلا تلك التى تشبه الأساطير. وفيما يتعلق بغارثيا إنغيث يكفى أن نشير إلى المصادر التاريخية العربية التى تؤكد وجوده لكنها لا تؤكد شيئا بشأن الدور الذى لعبه فى نبره *Navarra* خلال هذه الفترة. فقد ورد ذكر اسمه أكثر من مرة فى المقتبس لابن حيان تحت اسم غارسيا بن فانكو وبذلك يزول أى شك وجدال حول نسبه وحول الفترة التى مارس فيها سلطته على أراضى بنبلونه^(٢٦). وبالنسبة للجوانب الأخرى نلاحظ أن بدايات الأسرة البشكنسية الصغيرة قد تهيأت لها ظروف مواتية تمثلت فى الموقف الذى اتخذته أحد أقوى السادة من المسلمين فى الثغر الأعلى ألا وهو موسى بن موسى بن قاسى شقيق لآخر كان حاكما لمدينة بمبلونه ألا وهو مطرف بن موسى بن قاسى والذى كان تابعا لقرطبة. وظل ذلك الحاكم وفيما للنظام الأموى بل

وذهب إلى أبعد من هذا في كسب ودّ ذلك النظام بفضل بعض الغارات المسلحة التي قام بها على مناطق الحدود مع إقليم البشكنس وأراضى أشتوريش في ألبّة.

سبقت الإشارة إلى أسيرة ذلك الشخص وإلى التأثير السياسى الذى كان لها فى الأقاليم الواقعة بين خيال البرانس ووادى نهر إبرة Ebro^(٢٧). كان المولدون الذين يشكلون جماع هذه الأسيرة على علاقات قديمة كما كانت لهم علاقات مصاهرة بعلية القوم فى البشكنس Vasconia، كما كان إسلامهم فيه الكثير من السطحية. لكن موسى هذا ابن موسى بن فورتون بن قاسى - والذى تزوجت أرملته من إنييجو أريستا Inigo Arista وأنجبت ابنا هو فورتون إنييغث Fartun Iniguez^(٢٨) - وصل بأسرته إلى وضع إجتماعى رفيع واستطاع أن يكون لنفسه إمارة حقيقية فى أعالي أرغن Aragon ظلت تابعة له حتى وفاته عام ٨٦٢م (٢٤٨هـ). علينا الآن البحث فى الأمور الجوهرية التى وقعت حتى نهاية عصر عبد الرحمن الثانى ألا وهى مغامرات موسى بن موسى بن قاس وذلك اعتمادا على الرواية الدقيقة والفريدة التى وافانا بها المؤرخ ابن حيان.

خلال عام ٨٤٢م (٢٢٧هـ) تعاون موسى بن موسى، الذى كان يقيم فى تطيلة Tudela كحاكم لها - وهى مدينة بناها المولّد عمروس عام ٨٠٢م - ١٨٦هـ كما رأينا قبل ذلك^(٢٩) - فى إحدى الصوائف الأموية التى قادها عبيد الله ضد المناطق المجاورة لألبّة. وقد تولى موسى قيادة طليعة الجيش. لكنه عندما عاد من الحرب تعرض لتأنيب غير عادل من قبل أحد القادة النظاميين الذى كان يحاول أن يقلل من الدور الذى لعبه موسى فى الحملة فشعر موسى باستياء شديد من ذلك الموقف وعاد إلى تطيلة Tudela وأعلنها حربا شعواء على أمير قرطبة وعلى من يمثلونه وبعد ذلك أخذ يرسل بقواته للقيام بغارات على الأراضى التابعة لسلطة الأمويين. وبعد مرور بعض الوقت لم يكن أمام عبد الرحمن الثانى إلا الردّ على ذلك بأن أرسل إلى أرغن Aragon بقوات كبيرة على رأسها الحارث بن بازى. فاستطاع هذا الانتصار على موسى بالقرب من برجة Borja. ثم حاصر هذه المدينة الحصينة حصارا ناجحا أعطى ثماره، ثم ذهب بعد ذلك لحصار الزعيم المتمرد فى تطيلة. وعندئذ عرض موسى إقتراحا تمت الموافقة عليه ألا وهو خروجه من تطيلة لكن على القائد الأموى أن يقطع مسار حملته ويعود أدراجه إلى سرقسطه Zaragoza. لكن الحارث بن بازى لم يتأخر كثيرا فى خلف الوعد فعاود الرحيل من جديد لمهاجمة موسى بن موسى الذى كان قد استقر به المقام فى أرنيديو Arnedo وطلب مساعدة الملك غرسية إنييغو Garcia Inigo. وبعد أن استولى القائد الأموى على أرنيديو عبر نهر إبرة بالقرب من بلدة تسمى بالما Balma التقت قواته

بالقوات التابعة لكل من موسى وغرسية، وكانت محصلة المعركة أن القائد الأموي فقئت إحدى عينيه ووقع في الأسر.

ولما كان الأمير عبد الرحمن الثاني لا يسمح لنفسه أن يترك أسر قائده دون عقاب فقد بذل جهدا كبيرا في ذلك العام ٨٤٢م وأثناء عامي ٨٤٣، ٨٤٤ (٢٢٨-٢٢٩هـ) لعقاب انشقاق موسى بن موسى، ورغم أن هذا الجهد أدى إلى نتائج هامة إلا أنه لم يسفر عن إذعان المتمردين بشكل نهائي. بدأ العاهل القرطبي إرسال أول جيوشه للهجوم على بمبلونه فاستولى عليها في بداية شهر مايو عام ٨٤٢م (منتصف شهر رجب عام ٢٢٧هـ) ثم واصل الجيش زحفه حتى وصل إلى المنطقة الحصينة التي تسمى صخرة قيس^(٢٠) الواقعة على الأرها Argá واستولى عليها بالقوة بعد ذلك بشهر. وفي العام التالي وجه الأمير حملة أخرى خرجت من قرطبة في شهر مايو (شعبان ٢٢٨هـ) وقامت بالهجوم على القوات التابعة لكل من موسى بن موسى والملك غرسية إنيغيث وفورتون إنيغيث أحد الأعيان - «هو طبقا للرواية التاريخية أخ لغرسية من الأب وأخ لموسى من الأم»-. كانت نتيجة المواجهة التي جرت في نهاية شهر يوليو ٨٤٣م (نهاية شهر شوال) مؤلة لموسى بن موسى والبشكنس إذ قتل فورتون إنيغيث وذهبوا برأسه إلى قرطبة وعرضها على العامة لسبها وقذفها أما الملك غرسية وابنه غاليندو Galindo فقد جرحا. لكن موسى الذي أسقط عن جواده استطاع إنقاذ نفسه بالهرب، واضطر الكثير من السادة البشكنس ومنهم الزعيم بيلاسكو جارثيس Velasco Garces إلى طلب الأمان من عبد الرحمن الثاني. لكن هذا الأخير لم يرض بهذا النصر المؤزر، فذهب في بداية الصيف التالي على رأس جيش لناهضة موسى بن موسى وحلفائه المسيحيين غير أنه توقف في سرقسطة وأمر ابنه محمد بمواصلة الزحف نحو تطيلة. وفي تلك المدينة تلقى محمد خلال شهر يوليو لعام ٨٤٤م (٢٢٩هـ) مقترحات إذعان من قبل هذا الثرى المولد المتمردين فقبلها الأمير وأعاد وضع موسى على رأس حكومة أراضى تطيلة إلا أنه طلب منه مقابل ذلك عددا من الرهائن حتى يضمن وفاءه بالاتفاق. بدا هذا الاتفاق مؤكدا في نظر قرطبة كما أننا سوف نرى كيف أنه بعد ذلك ببضعة شهور قام موسى بن موسى بتلبية أوامر صادرة من عبد الرحمن الثاني بالذهاب إلى جنوب شبه الجزيرة لمجابهة الإنزال النورماندي في أشبيلية^(٢١). لكن هذا الموقف الذي يعكس الولاء لم يمنع من التوسع خلال الخمسة عشر عاما السابقة على وفاته، دون أي رد فعل من جانب حكومة قرطبة. وسوف نعود مرة أخرى لنتناول جانب جديد من نشاطه السياسي ونشاط من خلفه.

الإنزال البحرى النورماندى على شواطئ أسبانيا الإسلامية عام ٨٤٤م :

ظل ظهور القراصنة الإسكندنافيين على شاطئ أراضى الأندلس فى منتصف القرن التاسع الميلادى وما أحدثوه من دمار وما بثوه من رعب فى صفوف أهالى القرى الأشبيلية ماثلا وحيا فى وجدان أسبانيا الإسلامية لدرجة أن صدها استمر لفترة طويلة فى الأدب، فقد أوردت الأخبار العربية روايات مطولة ومفصلة عما فعله النورمانديون كما أوردت بعض الأخبار المسيحية تلك الوقائع بإيجاز، وقد استطاع دوزى^(٣٢) - منذ ما يقرب من خمسين عاما - القيام بدراسة مسهبة وواقية للموضوع كانت قول الفصل حتى الآن وقد تكون كذلك فى المستقبل اللهم إلا إذا أخذنا فى الحسبان الإضافة الهامة التى أحدثها إكتشاف المقتبس لابن حيان، ويفضل رواية أحمد الرازى وإبنة عيسى التى أوردها المؤرخ القرطبى نجد أمامنا الكثير من التفاصيل الهامة المتعلقة بالإنزال النورماندى فى أسبانيا خلال عهد عبد الرحمن الثانى، وسوف نقتصر على ذكر أهمها.

كان أول ظهور «لرجال الشمال» الذين أطلق عليهم المؤرخون العرب اسم «الأردومانىون» [نوردومانى] - لكن الاسم الذى شاع استخدامهم بينهم كان المجوس^(٣٣) - على شواطئ شبه الجزيرة المطلة على الأطلنطى عام ٨٤٤م، وقبل ذلك كانوا قد استولوا على نانتمس Nantes فى ٢٣ يوليو ٨٤٣م وابتداء من مصب نهر لويرا Loira قاموا بغاراتهم على إقليم خيروندا Gironde وعندما وصلوا إلى بورديوس Bur-deos انطلقوا منها إلى تولوشة Tolosa مروراً بالفارونا Garona، ثم اتجه أسطول صغير لهم نحو الجنوب وقام بإنزال على شواطئ أشتوريش بالقرب من خيخون Gijon، وإنزال آخر فى جليقية بمحاذاة لأكورنيا Coruña ولما واجهوا المقاومة واصلوا زحفهم نحو الشواطئ الإسلامية المطلة على الأطلنطى وفى يوم الأربعاء، العشرين من أغسطس لعام ٨٤٤م (غرة ذى الحجة لعام ٢٢٩هـ) ظهرت أربعة وخمسون سفينة نورماندية بالإضافة إلى عدد آخر من المراكب الصغيرة عند مصب نهر التاجة. وقع الإنزال المجوسى فى لشبونة وقام مسلمو المدينة بثلاثة اشتباكات دامية معهم وبعد ثلاثة عشر يوماً قرر العدو الإبحار من جديد إلى عرض البحر، وأثناء هذه الفترة قام والى المدينة وهب الله بن حزم بإبلاغ عبد الرحمن الثانى وفى الحال أرسل الأخير رسائل تحذيرية وتعليمات لكافة الولاة التى تطل ولاياتهم على البحر لاتخاذ التدابير اللازمة. خرج النورمانديون من لشبونة متجهين نحو الجنوب بحثاً عن مصب نهر جديد ينفذون منه.

ظلوا على هذا الحال حتى وصلوا إلى مصب نهر الوادي الكبير فتوقفت بعض السفن بعيدا عن المصب بعض الشئ ونزل البحارة النورمانديون على شواطئ إقليم شنونة Sidonia وقاموا باستطلاع موسع بعض الشئ للداخل ثم احتلوا ميناء قادش Cadiz. إلا أن أغلب وحدات الأسطول النورماندي دخلت نهر الوادي الكبير متجهة إلى أشبيلية في الوقت الذي كان فيه تأثير المد والجزر واضحا. ويمر النهر في الجزء الواقع منه بين أشبيلية والأطلنطي بإقليم ملئ بالمسطحات المائية والغنى بالكأ، ثم ينقسم النهر إلى فرعين لمسافة خمسة عشر كيلو مترا ثم يلتقى كلا الفرعين من جديد وبذلك تتكون جزيرة كانت تسمى في الماضي كابتيل Captel واليوم «الجزيرة الصغرى». كانت هذه الجزيرة بمراعيها مكانا خصبا لتربية الخيول خلال العصر الإسلامي. ونزل النورمانديون بها حيث رست أربعة وثمانون مركبا وسفينة على شواطئ الجزيرة يوم ٢٩ سبتمبر (١٢ محرم ٢٣٠هـ) وفي اليوم التالي قامت أربعة مراكب بالإبحار إلى الداخل للاستطلاع فوصلت إلى قرية كوريادل ريو Coria del Rio فنزل بها البحارة ونهبوا القرية وقتلوا سكانها. وبعد ذلك بثلاثة أيام واصلت المراكب النورماندية تقدمها عبر النهر وسرعان ما أصاب أهل أشبيلية الرعب عندما رأوا الأشرعة السوداء لسفن القراصنة وهي ترسم على صفحة النهر. فحاول السكان تنظيم المقاومة، ونظرا لعدم وجود قيادة لهم - بادر الحاكم بالفرار متجها إلى قرمونة Carmona - لم يتمكنوا من عمل الكثير فلم يكن لأشبيلية سور يحميها وكان مصير بعض السفن التي أرسلها الأشبيليون لملاقاة الأعداء هو أنها قوبلت ببوابل من السهام وأشعلت فيها النيران. نزل القراصنة المدينة التي جلا عنها جل أهلها. وظل القراصنة ينهبون المدينة لأسبوع كامل فقد قتل الرجال الذين لم يشاءوا أو لم يستطيعوا الفرار بمن فيهم العجزة وكبار السن وسبيت النساء مع أبنائهن. قام النورمانديون بوضع ما سلبوه في سفنهم حتى امتلأت بالغنائم والنساء اللاتي ترتجفن خوفا واتجهوا صوب كابتيل لتركوا ماحملوه من غنائم عظيمة هناك. ثم عادوا مسرعين إلى أشبيلية لكن المدينة المزدحمة بالسكان كانت مدينة أشباح فلم يغتال النورمانديون إلا القليل من كبار السن والمرضى الذين اجتمعوا في المسجد الذي أطلق عليه منذ ذلك اليوم مسجد الشهداء. ثم أخذ المجوس يرسمون خطتهم الحربية بأن يعثوا ببعض الفرسان - على خيل استولوا عليها من كابتيل - صوب شمال وغرب أشبيلية، ذلك أنهم أدركوا أن النهر بعد الميناء يصعب السير فيه بالمراكب^(٣٤). ومن هنا فإن تقدمهم بالسفن صوب قرطبة سوف يكون محفوفا بالمخاطر.

يمكن لنا أن نتخيل أن الأمير عبد الرحمن الثانى لم يقف مكتوف الأيدى عندما تم إبلاغه بالخطر النورماندى إذ بلغ الرعب بالناس لدرجة أن كافة الطوائف الاجتماعية لم تتردد لحظة واحدة فى تقديم كل ما عندها للعاهل. فأصدر أوامره بالاستنفار فى كافة الأقاليم الداخلية والثغور وعندما تلقى الأنباء الأولية عما فعله النورمانديون أمر بأن تخرج إليهم قوات سريعة من الفرسان وعلى رأسهم أفضل القادة مثل عبد الله بن كليب وعبد الواحد الأسكندراني ومحمد بن رستم. اتخذت هذه القوات مواقع لها فى مرتفعات الشرف **Aljarafe** التى تطل على أشبيلية من الناحية الجنوبية الغربية. وسرعان ما انضمت إليها قوات من المشاة. وفى الوقت نفسه أخذت تتقاطر على العاصمة القوات التى تم استدعاءها ثم تتخذ طريقها متجهة إلى أشبيلية تحت قيادة الخصى نصر، وهو فتى كان يحظى بثقة كاملة من العاهل الأموى. وسرعان ما حدثت المواجهات بين القوات القرطبية والنورمانديين الذين تعرضوا لخسارة فادحة. وقد وقعت المعركة الرئيسية يوم الثلاثاء الحادى عشر من شهر نوفمبر لعام ٨٤٤م (٢٥ من صفر عام ٢٣٠هـ) جنوب أشبيلية بقليل فى بلدة تابلادا **Tablada** (٣٥). أى فى السهول الواسعة - التى أصبحت اليوم مطارا - الممتدة شرق المنطقة التى يلتقى فيها نهر وادى يارو **Guadiaro** بنهر الوادى الكبير. كان المجوس قد نزلوا جميعا من سفنهم لمواجهة القوات الأموية التى أخذت فى اعتبارها الموقف فأعملت القتل فيهم حتى وصل عدد القتلى إلى ألف رجل وأسر أربعمائة آخرون تم إعدامهم على مرأى من الغارين الذى عادوا أدراجهم مسرعين إلى السفن ومبحرين بها متجهين صوب الجنوب. لكن ظلت ثلاثين سفينة نورماندية راسية بلا بحارة فتم إحراقها. وعاد المسلمون إلى دخول أشبيلية. وعرضت غنائم النصر المخضبة بالدماء على طاولات محلات الجزارة فى السوق. كما علقت الكثير من رؤوس الأعداء بسعف النخيل فى تابلادا. كان قد مر على دخول النورمانديين إقليم أشبيلية اثنان وأربعون يوما. وأذيع نبأ الانتصار على المجوس فى كافة أنحاء شبة الجزيرة، ووصل الأمر بعبد الرحمن الثانى إلى إبلاغ الأمراء البربر فى المغرب والامام الخارجى لتاهرت، أفلح بن رستم. أما فما يتعلق بباقى الأسطول النورماندى فإنه أبحر فى عرض البحر متوجها إلى أكيثانيا **Aquita-nia**، وكان هذا بعد محاولات جديدة للإنزال على الشواطئ كانت أولاها فى لبله **Niebla** وبعد ذلك على سواحل الغرب **Algarve** (٣٦) ثم فى لشبونة. ثم عاودوا هجماتهم فى العام التالى حيث نشروا الدمار فى كل من بورديوس **Burdeos** وسانتون **Saintonge** جنوب غرب فرنسا. وخلال هذه الفترة قامت بعض السفن الأسكندنافية بغارة على شاطئ أرثيلا **Arcila** الواقعة شمال غرب المغرب.

أدى الانسحاب السريع للنورمانديين بعد هزيمتهم فى تابلادا Tablada ورحيلهم صوب مصب نهر الوادى الكبير إلى تطهير أسبانيا الإسلامية من أغلبهم دفعة واحدة. إلا أنه بقيت بعض المجموعات المتفرقة التى فقدت سفنها فتفرقت شرق وجنوب شرق أشبيلية أى فى أراضى قرمونة Carmona ومورو Moron. فتم تكليف القائد محمد بن رستم إلى حمل أكاليل النصر لما حققه فى تابلادا للسيطرة على هذه المجموعات من المجوس التى لم تجد بدا من الاستسلام بعد أن ضمنت حياتها. فاعتنق أفرادها الإسلام وسكنوا فى وادى نهر الوادى الكبير فى الجزء الجنوبي من أشبيلية وامتحنوا تربية الماشية وصناعة الألبان^(٣٧). هذه المستوطنة الصغيرة من المؤكدين من نوى الأصل النورماندى بدأت تصدر إلى كل من أشبيلية وقرطبة أنواعا ممتازة من الجبن.

كان ما حدث إنذاراً خطيراً لدرجة أن الأمير عبد الرحمن الثانى لم يتردد فى اللجوء إلى اتخاذ أقصى التدابير باستقدام قوات من مختلف أنحاء الإمارة ودعا إلى ذلك أيضا من كان عدوه بالأمس وهو موسى بن موسى بن قاسى للحضور على رأس قواته من إقليم الأرغن Aragon. واعتبر كل من القائد ابن رستم والفتى ناصر على أنهما مخلصا الأندلس وأصبح لثانى هذين الرجلين تأثيرا ملحوظا على العاهل الأموى حتى نهاية عهده فكان وراء أهم القرارات التى اتخذها. ثم صدرت الأوامر ببناء سور يحيط بمدينة أشبيلية بما فى ذلك ضفة النهر. ثم وضع نقاط مراقبة على طول الشواطئ المطلة على الأطلنطى حيث تعاقب على العمل فيها أنقياء المسلمين من الذين تطوعوا لهذا الغرض حيث كان يقيم كل واحد فترة تسمى بالرباط^(٣٨) أى أنها فترة للزهد والتدريبات العسكرية. كما أن حكومة الأندلس أخذت تهتم بشكل أوسع بالمسائل الخاصة بالبحرية وقررت منذ هذه اللحظة بناء أسطول حربي أقوى وأكبر وإنشاء أحواض لبناء السفن ومعامل لصناعة الحبال^(٣٩). وبفضل هذه الاجراءات التى اتخذها عبد الرحمن الثانى فى أواخر مدة حكمه لمجابهة تهديدات النورمانديين فى المستقبل^(٤٠)، أمكن إجهاض المحاولتين اللتين قام بها النورمانديون على الشواطئ الأندلسية خلال عامى ٨٥٩م، ٩٦٦م بسهولة.

تمرد المستعربين فى قرطبة (٨٥٠ - ٨٥٩م) :

لا نجد فى المراجع والأخبار العربية، أيا كان تاريخ تحريرها، أى إشارة إلى الأحداث التى جعلت معظم أيام مسيحيى قرطبة مليئة بالحداد وذلك قبل وفاة عبد الرحمن الثانى بوقت قليل. ولا نجد أمامنا فى هذا المقام إلا شهادة هؤلاء الذين

عاصروا تلك الأحداث وبالتحديد هؤلاء الذين شاركوا فيها. ويرجع الفضل إلى دوزي في إخراج هذه المعلومات إلى النور ورغم ذلك فهذا العلامة الذي أوردها في سياق حديثه عن فترة حكم الأمير الرابع (الأسباني - الأموي) أعطاهما أبعاداً زائدة عن الحد بالمقارنة بباقي أحداث تلك الفترة. وربما خيمت القتامة على دور عبد الرحمن الثاني في النهضة الحضارية وتطور الحياة الاجتماعية والإدارية في الأندلس، إذا ما وقفنا فقط على الاتهامات التي كالهة له شخص يدعى إيولوجيو Eulogio وآخر يدعى ألبارو Alvaro.

لكننا قبل دراسة هذه الاتهامات علينا أن نبين الموقف الذي كان عليه الإسلام في أسبانيا إزاء كنيسة المستعربين خلال القرن التاسع. وهي مسألة عالجه بعض علماء الأسبان بحمية وشفف، وحدة أحيانا أخرى ونذكر منهم على الأخص سيمونيت Simonet في كتابه المتعلق بأحوال المستعربين في أسبانيا وهو عمل هام وجدير بالتقدير. وأبسط ماستلجأ إليه هو أن نورد الفقرات الهامة التي وردت في إحدى صفحات الكتاب المذكور والتي حاول المؤلف فيها^(١) منذ بضعة أعوام عرض المشكلة بموضوعية: «إذا ما كانت فترات تولى بعض الأمراء الأمويين - قلنا ذلك في عام ١٩٣٢ - قد اتسمت باضطهاد الطوائف المسيحية وخاصة تلك التي تقطن قرطبة علينا أن نعترف أن هذا الاضطهاد يرجع في الأساس إلى أسباب سياسية أكثر منه إلى أسباب تتعلق بالتعصب الديني. وبالفعل فإن هذه الطوائف كانت البؤرة النشطة للحركات الوطنية التي توالى بشكل قوى خلال الفترة الأخيرة لحكم عبد الرحمن الأول وعهد عبد الرحمن الناصر. وانصببت عقوبات الأمويين على هؤلاء كمتبردين أكثر من كونهم غير مؤمنين، ونظرا لاستشراء هذه الحركات أصبح كل مسيحي مثار شبهة كان لها ما يبررها في أغلب الحالات. ومن هنا نرى سرّ التحول إلى اعتناق الإسلام بشكل جماعي لكن هؤلاء اعتنقوا الدين الجديد دون قناعة وذلك انقاء للشبهات التي تحوم حولهم بسبب تصرفات بعض إخوانهم في الدين. وهام الآن وقد اعتنقوا الإسلام لا يحق لهم الارتداد عن دينهم الجديد. أو البقاء على الديانة المسيحية إذا ما كان ذلك ممكنا ويكون المرء تحت سلطة الإسلام في أسبانيا لكن من غير الممكن التحول عن الدين الإسلامي إلا تعرض لحد القتل. كما لم يكن ممكنا سبّ دين المنتصرين وبالتالي فإن الشهداء من القرطبيين خلال القرنين التاسع والعاشر ليسوا أناسا تمردوا على محاولات إجبارهم على اعتناق الإسلام بل كانوا مارقين أو متصوفة أسلم القضاة المسلمون رقابهم إلى الجلاذ لاتهامهم بمروق حقيقي ولأنهم لم يريدوا التراجع عن القذف والسب

فى حق الدين الرسمى للبلاد. ومن جانب آخر نجد أن رؤساء الطوائف المسيحية فى أسبانيا لم يقرؤا أبدا الموقف الذى كان عليه هؤلاء الثائرين».

كان من الممكن وجود نوع من المفاجأة عند القول بأن الطوائف المستعربة فى أسبانيا - والتي سندرس فيما بعد تنظيمها الرسمى خلال عصر الخلافة - لم يكن بين صفوفها، سواء فى قرطبة أو باقى المدن والثغور بعض هؤلاء غير الراضين عن الأوضاع والذين انتهزوا الفرصة السانحة للانضمام إلى المتمردين المولدين أو البربر فى حالات الثورة والعصيان والسبب الأول فى أغلب حالات التمرد كان متعلقا بالضرائب التى يفرضها الحكام الراغبين دائما فى أن يكون بيت المال مكتظا بالأموال وأنهم كثيرا ما يوكلون عملية جمع الضرائب إلى ذلك الذى يدفع أكبر قدر من المال دون أن يكلفوا أنفسهم عبء التحرى والدقة^(٤٢). وفى هذا المقام نجد بين أيدينا وثيقة لها أهمية كبيرة ألا وهى رسالة بعث بها لودفيكو بيو Ludovico pio عام ٨٢٨م إلى المسيحيين فى ماردة Mérida والذين يظن أنهم قد بعثوا إليه بوفد منهم. وتتضمن هذه الرسالة التى سنقوم بترجمتها كاملة^(٤٣) صورة صادقة للإهانات التى يمكن أن يتعرض لها الرعايا من غير المسلمين فى إمارة قرطبة والتى يمكن أن يأخذوها على العاقل. كما نلاحظ أيضا أنها لا تشير من قريب أو بعيد لاضطهاد دينى بالمعنى الحرفى للكلمة.

«لقد سمعنا رواية أعضاء وفدكم وما تعانونه من جراء قسوة الملك عبد الرحمن الذى بلغ به الجشع لدرجة انتزاع أموالكم منكم وما أصابكم به من غم وكدر كما سبق أن فعل بكم والده أبو العاصي^(٤٤) الذى قام بزيادة الضرائب عليكم وهى ضرائب غير مستحقة وطالبكم بسدادها بالقوة وحولكم من أصدقاء إلى أعداء ومن رعايا مطيعين إلى متمردين محاولا بذلك سلبكم حريتكم من خلال ضرائب جائرة وغير معهودة من قبل؛ لكنكم حسبما سمعنا قاومتكم ذلك بشجاعة كرجال أشداء ووقفتم ضد ظلم الملوك الطغاة وضد شحهم الشديد، وأنتم الآن تواصلون الصمود حتى اللحظة الراهنة وهذا طبقا لما عرفناه من روايات كثيرة. ولهذا رأينا أن نوجه إليكم هذه الرسالة لتكون لكم سلوى ولحضكم على مواصلة الصمود فى الدفاع عن حريتكم فى مواجهة ملك ظالم ووقوفكم مقاومين غضبه وحنقه. ولما لم يكن عدوكم أنتم فقط بل عدونا أيضا لهذا علينا أن نحارب صفا واحدا طغيانه. وقد قررنا بعون الله أن نرسل بجيشنا فى الصيف القادم إلى الثغر التابع لنا وسوف يربط هناك منتظرا أوامرنا التى نختار فيها وقت بداية الزحف وعبور الحدود ليكون عونا لكم إذا ما رأيتم ذلك للوقوف فى وجه العدو

المشترك الذى يتواجد فى ثغرننا . وفى حالة ما إذا قرر عبد الرحمن القيام بهجوم عليكم فإن تواجد جيشنا بالقرب من الحدود سوف يمنعه من القيام بما يريد . كما نريد إبلاغكم أنكم إذا ما أردتم الهجرة والقدوم إلينا سوف نعمل على أن تتمتعوا بما كان لكم من حريات فى السابق ولا نقصان فى ذلك كما لن تفرض عليكم أية ضرائب وما نهذف إليه هو ألا تعيشوا فى ظل قوانين إلا تلك التى تختارونها ولن نعاملكم إلا على أنكم أصدقاء وشركاء انضموا إلينا بشرف للدفاع عن مملكتنا ونتمنى من الله أن يحفظكم ويرعاكم».

ويمكن الاعتراض بأن رسالة لودفيكو بيو هذه والتى لا تتضمن أية إشارة إلى اضطهاد دينى ذى طابع رسمى، موجه ضد مسيحيى ماردة Merida تسبق زمنيا أول عمليات استتشاف المستعربين القرطبيين بعشرين عاما . ونحن أقرب إلى الاعتقاد بأن عبد الرحمن الثانى - فى نهاية حكمه - الذى كان يميل إلى آراء مستشاره الحميم الخصى نصر قد ابتعد عن التسامح الذى كان سجية سابقه وطابعه هو أيضا بالنسبة للرعايا المسيحيين فى الإمارة. إننا نجد أمامنا من الأسانيد التى تدعونا إلى قول ما قلناه فلم يحدث أن صدر حكم إسلامى - خلال العصور الوسطى - يدين متهما من دافعى الجزية دون أخذ المشورة مسبقا من محكمة الفتوى وأن الحكم الذى يطلبه القاضى فى قرطبة أو العاهل نفسه لا يمكن أن يخالفه وإلا جلب عليه الاستنكار بالإجماع. وإذا ما تم سب دين محمد تأخذ العدالة مجراها سواء كان المتهم مسلما أم غير مسلم.

وفى هذا المقام نقول بأنه ليس من الابتذال القول بأنه أثناء الفترة التى وصلت فيها عمليات الاستتشاف التطوعى فى قرطبة إلى أقصى درجة لها عام ٨٥١م (٢٣٧هـ) صدر حكم ضد أحد المسلمين الذى لم يكن إلا ابن أخت عجب^(٤٥)؛ إحدى محظيات الحكم الأول، بإدانته بالموت - وذلك بعد أن تمت الاستشارة القانونية التى أخذت طريقها الصحيح رغم الضغوط التى مارسها خالته على الأمير - وكان سبب الحكم هو ثبوت أنه مذنّب وأنه زنديق واستخف علانية بالدين الإسلامى^(٤٦). كما أن الوثيقة العربية الأسبانية الوحيدة التى وصلت إلينا والتى تخص حالة من الاستتشاف التطوعى تشير بوضوح إلى أن الحكم بالقتل قد نفذ لأن المتهم نفى ألوهية الله وأن محمدا ليس برسوله.

ورغم أن النص المشار إليه، والذى لم ينشر حتى الآن يعود إلى خمسين عاما بعد الأحداث التى سنسردها،^(٤٧) فإن محتواه يتسم بالأهمية التى تحبذ أن نقف أمامه

بعض الوقت. النص عبارة عن نص مكون من عدة فتاوى صادرة عن الفقيه الأندلسي ابن سهل. ولا يتضمن النص أى إشارة زمنية لكن بفضل مالدينا من معلومات تتعلق بحياة هؤلاء الذين وقعوا على الوثيقة يمكننا وضع تحديد دقيق للفترة التى حررت الوثيقة فيها ألا وهى السنوات الأخيرة من حكم الأمير عبد الله (أى بين ٩٠٢، ٩١٠ - ٢٨٩ - ٢٩٧هـ). هذه الوثيقة تتكون من جزعين مثلها مثل باقى الوثائق القانونية: فهناك ما يسمى بعريضة الاتهام أما الجزء الثانى فيتضمن الفتوى التى أصدرها الفقهاء بشأن حكم الإدانة الذى أصدره القاضى ضد المتهم والأسباب والمبررات الخاصة بتلك الفتوى. ويقول الجزء الأول من الوثيقة «الأشخاص المذكورين فى هذه الوثيقة يشهدون على حضورهم أمام القاضى أحمد بن محمد بن زياد اللجمى، قاضى الجماعة فى قرطبة فى تلك الآونة، وقد دخلوا على القاضى بامرأة تدعى Dhabba اعترفت بأنها مسيحية وأعلنت إنكارها إلهية الله العلى القدير قائلة «المسيح هو الله» ثم واصلت حديثها إلى أن قالت: «لقد كذب محمد عندما قال بأنه رسول الله». نورد فيما يلى فتوى القضاة المستشارين وكلهم من مشاهير الفقهاء فى قرطبة فى بداية القرن العاشر، وهى فتوى تتسم بإيجازها الشديد «أخذا فى الاعتبار ما قالته المذكورة Dhabba وما قاله شهود الإثبات بشأن إنكارها لألوهية الله وقولها بأن المسيح هو الله وما قالته بشأن اتهام الرسول محمد بالكذب نقول بأن من الضرورى إدانة هذه المرأة بالقتل وأن تحرق فوراً». وتتساءل إلى أى فئة إجتماعية تنسب هذه المسيحية التى أدينى بالموت وأصبح اسمها جزءاً من سلسلة الاستشهاد الطويلة فى قرطبة؟ من الصعب الإجابة على هذا السؤال ذلك أن اسمها قد تعرض للتشويه من خلال النسخ المتوالية لكتاب ابن سهل الأمر الذى يحول دون قيامنا بتخمين شئ حول جذورها الاجتماعية.

لكن، لنعد إلى الأحداث نفسها على الوضع الذى ظهرت عليه من خلال الكتابات المعاصرة لها - وهى أعمال تخص أناساً ضالعين فى الدراما ومن ثم يكون مشروعاً لدينا الشك فى صدقها - ونذكر منها فى المقام الأول *Memoriae sanctorum* لأبولوخيو Eulogio ثم لألبارو Alvaro (٤٨).

عاشت طائفة المستعربين القرطبيين فى حالة ازدهار تحت حكم عبد الرحمن الثانى كما كانت شديدة التأثر بالنموذج الحياتى العربى وذلك بفضل الاتصال الطويل بالأرستقراطية والبرجوازية المسلمة. فكان هناك ضباط مسيحيون يشكلون جزءاً من حرس الأمير وكان هناك التجار وجباة الضرائب من المستعربين الذين يتعاملون بشكل يومى مع عليّة القوم فى المجتمع القرطبى. لم يكن غريباً أن يتزوج مسلم من مسيحية

اعتنقت الإسلام. وإذا ما ظل المستعربون يتحدثون باللغة الشعبية «الرومانث» - Ro-mance فقد كان الكثيرون منهم يعرف العربية وكان من بينهم من يقرأها ويكتبها كما كانوا يعرفون نماذج من الشعر الجاهلي ويسعدون كثيرا بدراسة الإنتاج الأدبي العربي القديم منه والحديث *Lorum versibus et fabellis milesiis delectamus* بهذه العبارة يعترف مؤلف كتاب *Indiculus* ويأسف على أن هذا الجهد لم يكرس لقراءة أعمال آباء الكنيسة أو التعليقات والهوامش اللاتينية الخاصة بالإجيل^(٤٩). كان هناك الكثيرون من رجال الدين المسيحي الذين ينظرون بتوجس إلى تطور عملية التعريب التي أصبح يعيشها أتباع الكنيسة ولم يتمكنوا من إيقاف هذا التيار رغم رغبتهم في ذلك. أضف إلى ما سبق معرفتهم القليلة بالديانة الإسلامية مثل فقهاء المسلمين عن الديانة المسيحية. إذ كان كل طرف يتصنع جهله بالدين الآخر ويحقر من شأن بعضهم وكأن هناك اتفاق مسبق على اتخاذ هذا الموقف. لكن لما كان فقهاء المسلمين يمثلون دين المنتصرين أما رجال الدين المسيحي فكانوا يمثلون عقيدة مسموح بها شريطة أن يكون أداؤهم للشعائر الدينية بطريقة مستترة كان من السهل في ظل هذا الجو المحاط بالتعصب أن تقع أحداث عندما تكون هناك جنازة لأحد المستعربين على سبيل المثال. لم يكن أمام الطائفة المسيحية التي تحظى بنفس حقوق الطائفة اليهودية، واللذان تحظيان بالحماية الرسمية، إلا التخلي عن إقامة الشعائر خارج الكنيسة أو الاحتفالات والمواكب الدينية في الشوارع، كما كان ممنوعا عليها دق الأجراس حتى يجتمع المصلون. وفي كل من قرطبة وأشبيلية وطليلة وماردة كان الأكليروس الدائم والمؤقت - فقد كان هناك دوما أديرة للمستعربين في المدن الإسلامية في أسبانيا أو المناطق المجاورة لها - يشعر بالمرارة الشديدة لانخراط نوابغهم من المسيحيين في الثقافة الإسلامية، كما وقف إلى جوار هؤلاء بعض عامة المسيحيين. ومن المعروف أن فترة حكم عبد الرحمن الثاني اتسمت بأنها سليمة وبالتالي أخذت تنمو في العاصمة الأموية ملامح حزب من المستعربين المعارضين بشكل جماعة بعض رجال الدين وغيرهم من المسيحيين ويقود هذا الحزب اثنين من المتحمسين أولهما القس، *Eulogio* إيولوجيو وصديقه كاتب السر ألبارو *Alvaro* الذي كان مسيحيا بورجوازيا من أصل يهودي. كما أن إيولوجيو كان من أسرة ميسورة الحال من المستعربين: إذا كان أحد أخوته موظفا في الإدارة الأموية، كما كان اثنين آخرين منهم يعملان بالتجارة أما شقيقته أنولونا *Anulona* فقد ارتدت الحجاب. أما هو فقد تم تنصيبه قسيسا وذهب للوعظ في أبرشية

القديس زويلو Zollo بعد أن تلقى علوم اللاهوت على يد رئيس الرهبان الشهير الدكتور إسبير - إن - ديو Spera- in- Deo وهناك تعرف على ألبارو وعقد معه صداقة لاتنفصم عراها.

بدأت الأزمة من خلال حادثة مشنومة. ففي أحد الأيام كان هناك أحد القساوسة من كنيسة سان أثيسلكو S.Acisclo في قرطبة والذي يدعى برفكتو Perfecto. بدأ الحديث مع بعض المسلمين في المدينة انزلق في حوار له الحديث عن موضوع شائك ألا وهو الخاص بفضائل المسيح ومحمد. بدأ الحوار في صورة ودية ثم أخذ إيقاع الحدة تدريجيا وبدأ برفكتو يفقد رباطة جأشه وانتهى به الأمر ليكيل السباب لنبي الإسلام. ولما أكد له محدثوه أليخاف من وراء حديث مهذب لم يتعرض لمضايقات في البداية. لكن تم الإبلاغ عنه بعد ذلك وأبلغ للمثول أمام القاضي الذي حكم عليه بالإعدام وأودع السجن حتى يتم تنفيذ الحكم. وتأخر تنفيذ الحكم فهكذا أراد لها الفتى ناصر الذي يتولى الاحتفالات العامة وذلك حتى تتوافق مع عيد الفطر ويسعد بهذا العامة في قرطبة لم يتم تنفيذ حكم الإعدام على برفكتو إلا يوم الثامن عشر من شهر أبريل لعام ٨٥٠م (الأول من شوال ٢٣٥هـ) بعد أن اجتمع المصلون لأداء صلاة عيد الفطر خارج المسجد.

استغل حزب المعارضة الذي يتزعمه كل من إيولوخيو وألبارو إدانة برفكتو والظروف التي أحاطت بإدانته لنشر دعايتهما بين صفوف طائفة المستعربين في قرطبة. وانقضى عام من الاجتماعات التي كان يعقدها الذين انضموا إلى هذا الحزب والذين أخذت أعدادهم تتزايد بشكل واضح إذ أخذوا يثيرون بعضهم البعض من منظور صوفي وهو أنه يجب أن يمر المرء بالمعاناة في سبيل المسيحية. انتهز أعوان الشرطة القرطبية الفرص السانحة للملاحقة هؤلاء، إذ تم اتهام أحد التجار المسيحيين بالقذف لأنه أقسم بالرسول محمد فحكم عليه القاضي بعقوبة السجن المؤقت. وبعد ذلك بقليل بدأت موجة الاستشهاد التطوعي في كافة أنحاء قرطبة وكان أول من استشهدوا الراهب القرطبي إسحق أحد رهبان دير تابانوس Tabanos، الكائن في أرياض العاصمة. وكان هذا الراهب قد سب الرسول محمد في دار القضاء، وقد تجنب القاضي إصدار حكم بإعدامه لكن العاهل رأى أنه من المستحسن إخماد الحريق في بدايته قبل أن يستشري. وفي الثالث من يونيو ٨٥١م، أي بعد ثلاثة عشر شهرا من تنفيذ حكم الإعدام في برفكتو، تم إعدام إسحق ووضع جسده على الصليب بحيث

تكون رأسه إلى أسفل ثم أحرق جسده وألقى بالرماد في نهر الوادي الكبير. وعلى الفور نرى رد فعل الغاضبين. وفي الأسابيع التالية حدثت وقائع سب والمزيد من أحكام الإعدام: ومنهم الجندي الأفرنجي سيسناندو Sisnando والشماس باولو Paulo وراهب آخر يدعى تيود وميرودى كارمونا Teodomiro de Carmona وفي غضون أقل من شهرين تم إعدام أحد عشر مستعرباً وإلقاء جثثهم في المحرقة وهم هؤلاء الذي وجهوا سباباً لدين الإسلام. وبعد ذلك بوقت قصير، أي في ٢٤ نوفمبر العام نفسه جاء الدور على اثنين من رجال الدين وهما العذراوتان فلورا وماريا Flora y Maria حيث لم يستطع فقهاء المسلمين إقناعهما باتخاذ موقف أكثر عقلانية والتراجع عما قالتها.

لو أن الحكم الأول واجه هذا الموقف المتمثل في زيادة أعداد الاستشهاد التطوعي الذي يملأ جوانب العاصمة بالانفعالات ويثير الرأي العام ربما لم يكن ليتردد في اتخاذ تدابير صارمة ضد المستعربين مثل تلك التي اتخذها ضد سكان الريف وبذلك كان يمكن أن تسيل الدماء أنهاراً في صفوف المتمردين بدلاً من وقوع البعض منهم. لكن عبد الرحمن الثاني - وعلياً أن نعترف بهذا - لم يشأ أن يلطخ سمعته باتخاذ قرار مثل هذا. كما أن أغلب المسيحيين في قرطبة الذين كانوا يتوقعون أن يطلب منهم في النهاية تعضيد هؤلاء المتحمسين من أبناء دينهم، لم يرغبوا في شيء آخر إلا التعاون مع السلطة المركزية للبحث عن حل يساعد على تهدئة النفوس، وأخذ عدد كبير من القساوسة في قرطبة وفي غيرها من الأقاليم التابعة لأسبانيا الإسلامية يرفضون الآن الدعاية التي لا طائل من ورائها والتي يقوم بها أنصار إيولوخيو وألبارو على أساس أن الطوائف المسيحية التابعة لهم سوف يؤول بها الأمر لتتعرض لرد فعل المسلمين سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي. وأبلغوا العاهل بالأمر، وعلى هذا قرر هذا الأخير الدعوة إلى عقد مجلس كنسي بناء على دعوته أولئك، ويرأس هذا الاجتماع ريكا فريدو Recafredo أسقف الحاضرة الأشبيلية، كما حضر ذلك المجلس أساقفة الأبرشيات الأندلسية وقد مثلت حكومة الأندلس بواسطة أحد الموظفين المسيحيين الذين يعملون في الإدارة المالية جوميث Geomez ابن أنطونيانو Antoniano وهو شخصية نجد أن الأخبار العربية تورد ذكرها ومنها أنه اعتنق الإسلام في عهد الأمير محمد الأول.

افتتح المجلس الكنسي عام ٨٥٢م (٥٠٠). وعرض جوميث مندوب الحكومة الموقف الراهن وأكد على عدم جدوى الاستشهاد التطوعي الذي يلجأ إليه بعض المتحمسين

وطلب من الأساقفة أن يوقفوا هذه الحركة وأن يمنعوا أتباعهم بشكل رسمي من الانخراط فيها. وكان شاؤل أسقف قرطبة هو الوحيد الذي دافع عن الشهداء أما الآخرين فقد اتخذوا موقف أسقف أشبيلية ريكا فريدو. واتخذ المجلس قرارا تجنب فيه الإشارة إلى الأحداث الماضية مقتصرًا على منع المسيحيين في أسبانيا الإسلامية من القيام بالاستشهاد التطوعي والذي يمكن أن ينظر إليه على أنه أنتحار وبالتالي تدينه الكنيسة. كما تم إلقاء القبض على زعماء حزب المتطرفين من المستعربين ومن بينهم إيولوخيو وأسقف قرطبة. غير أن هذه الإجراءات لم تكن كافية لإعادة الهدوء إلى النفوس فبعد ذلك بقليل صدرت أحكام إدانات جديدة بالموت ضد بعض المسيحيين في العاصمة والذين تجرأوا على توجيه السباب للدين الإسلامي في المسجد الكبير. فتم تنفيذ الحكم فيهم يوم السادس عشر من شهر سبتمبر لعام ٨٥٢م. وبعد ذلك بستة أيام توفي الأمير عبد الرحمن الثاني. «إنه انتقام سماوي» هكذا كان يردد المستعربون في قرطبة وهم أناس لم يرغبوا في إلقاء السلاح.

سوف نواصل قراءة حركة الفوران المتصوفة والمتشددة هذه حتى نهايتها رغم أن ما نفعله هو الخروج بعض الشيء عن الإطار التاريخي الذي وضعناه لهذا الفصل. عندما تولى الأمير محمد الأول مقاليد الحكم تم إطلاق سراح الراهب إيولوخيو وخرج في أحد الأسفار فزار بنبلونة Pamplona في بداية الرحلة ثم أقام بعض الوقت في طليطلة حيث كانت الطائفة المستعربة هناك كثيرة العدد ولهذا لم يجد صعوبة في أن يكون جمهورا يستمع إليه. وعندما عاد إلى قرطبة أصيب بالمرارة الشديدة عندما رأى أقرب أتباعه وقد حل عليهم التعب وأبدوا استعدادهم للتخلي عن موقفهم المتشدد، فخلفه صديقه ألبارو منتهاجا نفس الخط الذي كان عليه صديقه إيولوخيو فأدى ذلك إلى إثارة البلبلية في العاصمة. لكن العاهل الجديد لديه المحاذير التي فرضها والده على نفسه بشأن استخدام القوة فأمر بهدم دير تابانوس Tabanos الذي كان يعتبره - وربما كان محقا - المصدر الرئيسي للمعارضة التي أصبحت تهدد بانتشارها في كافة أنحاء البلاد - فلجأ أهالي طليطلة إلى إظهار مشاعر الود مع أبناء دينهم في قرطبة فاختاروا إيولوخيو ليكون أسقف المدينة وبالطبع لم يقبل الأمير بهذا الاختيار وخلال الفترة من ٨٥٣م وحتى ٨٥٨م لم يكن هناك استشهاد تطوعي إلا أربعة عشر شهيدا يكاد يكون جميعهم من رجال الدين في العاصمة الأموية. كما شهدت هذه الفترة أيضا وصول اثنين من الرهبان من دير سان جيرمان - دي - بارييس. وهما أوزوارديو - usuar-

do وأوديلاردو Odilardo بغية أن يحملا معهما إلى فرنسا بقايا أجساد القديسين في قرطبة^(٥١). ويسبب هذه الأمور كلها نفذ صبر الحاكم المسلم فأمر في عام ٨٥٩م بسجن إيولوخيو. فكان عليه أن يقف أمام القاضى ليحدد مسئوليته عن الجهود التى يقوم بها من أجل جمع شمل أعضاء جدد من تابعيه ووصل به الأمر إلى العودة الى ما كان عليه دون أن يتعظ بما سبق فما كان منه إلا أن وقع فى نفس ما وقع فيه تابعوه: حيث سب النبى محمد ورفض النزول عن فعلته. فصدر الأمر بإعدامه ونفذ الحكم فى الحادى عشر من مارس ٨٥٩م. وبعد ذلك بأربعة أيام أعدمت العذراء الراهبة ليوكريثيا Leocricia حيث ثبتت عليها تهمة المروق. وظل الأمر على هذا المنوال من سب علنى للدين يعقبه حكم بالإعدام؛ لكن لما حرمت المعارضة من قائدها الأول سرعان ما توقفت من تلقاء نفسها ومنذ تلك اللحظة لم تعد قرطبة تعيش، إلا كل فترة طويلة، مشهد سوق بعض المسيحيين إلى المحرقة أو إلى منصة الإعدام لإعلانهم الكراهية أو الاحتقار لدين سادة البلاد.

٢- الدولة الأندلسية والبلاط الأموى فى منتصف القرن التاسع الميلادى

- إمارة قرطبة والدولة الإسلامية فى شمال أفريقية :

لم تأخذ الأندلس نمط الدولة الحقيقية المستقلة والمملكة التى لانتقاش فى كيانها فى نظر باقى العالم الإسلامى إلا فى عهد عبد الرحمن الثانى. إذ أصبح وضع الأسرة المروانية السورية صلبا بعد الخطوات الجريئة التى قام بها الشجاع عبد الرحمن المهاجر والتى دعمها خلفاؤه الأول وهما هشام الأول والحكم الأول بصفة خاصة فلم تعد هذه الدولة تخشى الخلافة العباسية ولم يكن أمام هذه الأخيرة من مناص إلا قبول الأمر الواقع القائل بأن العرش الأموى الذى قضت عليه الخلافة العباسية فى الشرق عاد للظهور فى الأراضى الأيبيرية بقوة وحيوية. كما أن الأندلس بعيدة جغرافيا عن العراق حتى تفكر الخلافة فى الإطاحة بذلك العرش. أضف إلى ما سبق بدء ضعف الخلافة العباسية فى المشرق ليس فقط فى الولايات البعيدة القاصية بل فى الأقاليم القريبة من قلب الإمبراطورية. وكان على الخلفاء العباسيين الذين كانوا يقيمون فى بغداد أن ينتقلوا إلى أبهة «سر من رأى» وسمحوا بأن تدور حولهم الدسائس التى تقضى على سلطانهم كما أثرت عليهم أيضا المبالغة فى جلب المرتزقة من الأتراك

ليكونوا بمثابة حرس شخصي لهم ولينخرطوا في صفوف الجيش الذي أدى إلى أن ينفذ من حولهم أوائل من أسهموا في إقامة دعائم وسلطان الخلافة. ففي عام ٨٢٢م (٢٠٧هـ) تحرر أهالي خراسان من وصاية بغداد ولم تعد لهم صلة بالسادة القدامى إلا تلك الصلة الروحية الضعيفة للغاية وهي الاعتراف بسيادتهم الروحية كخلفاء. ويقوم الإيراني طاهر بن الحسين بتأسيس حكم جديد هو أسرة الطاهريين في هذا الأقليم الأسوي، والتي ظلت تقيم في مروى طوال نصف قرن قبل أن يهدمها الصفويون.

لم تتأخر الحركات الانفصالية في أفريقيا طويلا فأحدثت فصلا كاملا أسهم فيه بعد المسافة الفاصلة بين «إفريقية» و«المغرب» وعاصمة الخلافة في المشرق. وإذا ما بقيت مصر تحت التبعية الفعلية لبغداد فما كان ذلك إلا بفضل جهود ضخمة كان على الحكام المقيمين في القسطنطينية أن يواصلوا مناهضة أعمال التمرد التي كان يقوم بها الأقباط في الدلتا، ولن يمضي وقت طويل إلا ويقوم الحاكم التركي أحمد بن طولون برفض سلطة العباسيين على وادي النيل ويؤسس هناك حكم الأسرة الطولونية التي لم تكد تستمر في الحكم إلا ثلث قرن بالكاد. وفي أقصى الغرب وفي اللحظة التي تولى فيها عبد الرحمن الثاني شئون الحكم في قرطبة لم يكن يعترف بسلطة بغداد في أي من الأمصار ووجد «صقر قریش» من يقف لمباراته في المغرب - إدريس الأول - وذلك قبل نهاية القرن الثامن. وبعد ذلك بقليل وخلال الأعوام الأولى من بداية القرن التاسع ظهر إبراهيم بن الأغلب حاكم «إفريقية» وقد تحرر من تبعيته للخلافة العباسية ولم يكن له بها صلة اللهم إلا روابط مصطنعة. وأخيرا نجد أنه بين «المغرب الغربي» و«إفريقية» كانت هناك منذ خمسين عاما إمارة مستقلة أسسها إيراني من الخوارج هو عبد الرحمن بن رستم بالقرب من تاهرت Tahart على حافة السهول الصحراوية التي تقع وسط الجزائر الحالية.

أي نوع من العلاقة كانت تربط إمارة الأندلس في عهد عبد الرحمن الثاني بهذه الدول المستقلة الثلاث التي تنسب إلى إقليم البربر الإسلامي؟ وللإجابة على هذا السؤال يجب أن نكون شديدي الحذر والبعد عن الإجابة القطعية الثبوت. فالوثائق التاريخية المتوفرة لدينا تلتزم صمتا تاما له دلالاته بشأن العلاقات التي من المفترض أنها قامت بين أسبانيا الأموية من ناحية والمغرب الأندلسي وإفريقية الأغلبية من ناحية

أخرى. واقتصر المؤرخون على ذكر بعض البيانات الشديدة الإيجاز والخاصة بموقف أوائل أفراد أسرة رستم من قرطبة. هذا الحرص الذى سار عليه التأريخ الأسباني الأموى فيما يتعلق بحكام فاس والقيروان يجعلنا نفترض أن كان بينهما وبين أمير قرطبة لا مبالاة مصطنعة، أى نوع من التجاهل المشترك وهذا أبسط الافتراضات، أو كان هناك تعارض معلن بينهما. لكن ما هو قائم لم يحل دون وجود علاقات تجارية و تبادل ثقافى. ومن المعروف أن الطريق الموصل بين بغداد وقرطبة والذى عن طريقه تتلقى قرطبة أحدث مبتكرات الحضارة العباسية والإنتاج العلمى والأدبى كانت فيه محطة رئيسية هى القيروان وسوف تظل كذلك لفترة طويلة.

لانسـتـغـرب عـندما نرى أن الأغلبية^(٥٣) كانوا شديدي التمهـل فى علاقاتهم بالأمويين فى الأندلس، فالدولة التى أسسها إبراهيم بن الأغلب فى «إفريقية» حافظت على شكلها الخارجى وكأنها إقليم عباسى وما حدث فيها من تغيير هو وجود حكومة وراثية واستقلال مالى لا يكاد يحمل نفسه أية أعباء ضريبية اللهم إلا تلك الأتاوة التى يسدها لبغداد وإذا لم تكن سياسة الأغلبية موالية تماما للعباسيين فإنها اتسمت بالسـير على البرنامج التقليدى الذى كان عليه الخلفاء العباسيون. وأدى هذا الموقف المحافظ إلى أن تمتد إلى إفريقية أبعاد الأزمة القائمة التى تواجه فيها بغداد وقرطبة. فالأمراء الأسبان لا يثقون فى هؤلاء الحكام القدامى الذين يدينون بما عندهم من جاه ومال إلى أعدائهم الأبيديين. أضف إلى ما سبق أن المناطق التى يسيطر عليها هؤلاء كانت بعيدة عن الأندلس فهناك البحر وهناك اثنان من الحواجز الفاصلة والمتمثلان فى وجود مملكة تاهرت ومملكة فاس. ولم يكن هناك إلا بعد آخر تمثل فى أنه قبل أن تنقضى خمس سنوات على حكم عبد الرحمن الثانى تحولت الدولة الأغلبية إلى قوة بحرية تنقسم بجرأة لا تخطؤها العين وذلك عندما قامت عام ٨٢٧م (٢١٢هـ) بغزو جزيرة صقلية^(٥٤) بغية إرضاء الأوساط الدينية فى القيروان والتى كانت تحض حكام هذه الدولة على الجهاد ضد المشركين وضم أراضى جديدة تابعة للإسلام. لكن لم تنته عملية غزو صقلية إلا بعد بداية القرن العاشر بعد أن تكبدت الدولة الأغلبية فى ذلك عناء شديدا. ورغم ذلك حدث على هذه الغزوة تقدم كبير أثناء حكم عبد الرحمن الثانى. وليس من قبيل التطويل أن نورد مراحلها المختلفة.

قام أسد بن الفرات قاضى القيروان الذى كان يتسم بالرحمة وكان ذا علم واسع بقيادة الحملة الأولى التى أبحرت من ميناء صوصة Susa واستطاعت القيام بعملية إنزال عند Mazzara - مصر - الواقعة فى الجنوب الغربى للجزيرة الكبرى. وبعد ذلك استطاع المسلمون دحر البيزنطى جيرجنتى Girgenti، كما استولوا على بلد مينيو Mineo فى الوسط، إلا أنهم لم يتمكنوا من القضاء على مقاومة سيرا قوس Siracusa . وفى صيف عام ٨٢١م (٢١٦ رجب هـ) سقطت بالرمو فى أيديهم وذلك بفضل قوات دعم وصلت إليهم من البحرية الأندلسية التى أبحرت على مسئوليتها فى أعمال قرصنة عبر المتوسط. ثم سقطت مدينة ميسينا Mesina عام ٨٤٢م (٢٢٨هـ) بعد وفاة الأمير الأغلبى زائدة الله الأول بخمس سنوات وبذلك تم الاستيلاء على الأجزاء الداخلية فى الجزيرة وإحلال السلام فيها. وهذه هى المهمة التى قام بها آخر أمراء «إفريقية» الذين اتسموا بالتشدد. حيث قاموا بفتح كاستروجيوفانى Castrogiovanni ثم استولوا على كل من سيراتوس وتاور مينا الواقعتان على الشواطئ الشرقية Siracusa y Taormina.

يمكننا أن نفترض أن الموقف الأسباني لم يتسم باللامبالاة إزاء هذه النجاحات التى حققتها جيوش الإسلام وأن عبد الرحمن الثانى ربما يصفق لها ويفرح بها. حتى لو كان ذلك فى الخفاء إلا أن هذا الشعور لابد وقد واكبه بعض القلق للقوة البحرية الأغلبية التى بدت ظاهرة للعيان. ولنتوقف قليلا عند الأخبار الخاصة بالتدخل الحاسم من قبل مجموعة من المغامرين الأندلسيين فى الاستيلاء على باليرمو. القرصنة الأندلسية التى تم تنظيمها فى عهد الحكم الأول - لكنها كانت بعيدة عن تلقى أوامر من حكومة قرطبة - أسهمت فى أن تضمن استمرار كريت Creta تحت حكم الإسلام لفترة طويلة. كما أكدت أيضا وجودها فى النصف الأول من القرن التاسع الميلادى وظلت على نشاطها الدؤوب هذا فى غرب ووسط البحر الأبيض المتوسط حتى نهاية القرون الوسطى.

أما فيما يتعلق بعلاقات الأمويين فى أسبانيا مع الأئمة الرستميين فى تاهرت^(٥٥) نجد أن ابن حيان يورد لنا خبرا غريبا لا يخلو من أهمية. فيقول لنا هذا المؤرخ أنه فى عام ٨٢٢م (٢٠٧هـ)، أى العام الذى تولى عبد الرحمن الثانى الحكم، قام عبد الوهاب بن رستم الإمام الحاكم آنذاك بإرسال سفارة إلى قرطبة تمثلت فى ثلاثة من أبنائه. هذا الإمام هو نفسه الذى تحدثنا عنه سابقا والذى قلنا بأنه استضاف فى بلاطه الصغير عبد الله البلنسى عمّ الحكم الأول قبل عودته إلى أسبانيا. وها هو الآن يرسل بأبنائه لعبور البحر ليعيد علاقات الموالاتة التى ربطت أجداده الفارسيين

بالمروانيين فى سوريا. استقبل أمير قرطبة الأمراء الثلاثة، عبد الغنى، وبحرام، وصخيون، بحفاوة بالغة وبعد أن حملهم بالهدايا أرسل بهم إلى أفريقيا لكن المركب التى كانت تقل صخيون وبحرام غرقت بمن فيها وما عليها، لكن عبد الغنى كان أحسن حظا فاستطاع الوصول إلى المغرب بسلامة. وعندما وصل إلى تاهرت وجد أن والده قد توفى منذ سبعة أشهر وتم اختيار أخاه أفلح ليقوم بدور إمامة طائفة الخوارج.

هذه المعلومات تشير إلى أن أسرة الأئمة الرستميين أرادت أن تضع نفسها تحت سيطرة الإمارة الأسبانية الأموية منذ النصف الأول من القرن التاسع وأن تحاول الحصول على مساعدة منها ولما كان الرستميون يعيشون فى منطقة فاصلة بين الأغالبة والأدارسة ولا تربطهم بهاتين المملكتين إلا مشاعر العداء فقد طلبوا حماية أمراء قرطبة حيث كانوا يجتمعون معهم على كراهية الخلفاء العباسيين. رحبت الحكومة الأموية بهذه الخطوة دون أن تضع اعتبارا إلى أن الإمامة المتشددة فى الرستميين يمكن أن تكون عقبة أمام إقامة علاقات سياسية. ويبدو أن الدخول فى حماية المملكة الأندلسية كان أحد البنود الرئيسية لنشاط الرستميين والذي نود أن نجد المزيد من المعلومات عنه. واستمر هذا الموقف بالطبع حتى أنه فى عام ٨٤٤م أبلغت قرطبة تاهرت رسميا بانتصارها على النورمانديين فى وادى نهر الوادى الكبير. وبعد ذلك ببضع سنوات، أى عام ٨٥٣م (٢٣٩هـ) عندما تولى الحكم الأمير محمد الأول تلقى الإمام أفلح من قرطبة هدية معتبرة من السلع. كما أن ابن أفلح وخليفته فى الحكم، أبو اليقظان محمد (٨٦٨ - ٨٩٤) ظل مستمرا فى العلاقات مع قرطبة وبذل جهوده لزيادة أواصر الصداقة ومن الطبيعى أن يكون للحماية الأموية مقابل والذي تمثل فى توريد الغلال للصوامع التابعة للدولة فى قرطبة، وربما أضيف إلى ذلك إرسال مجموعات من الجنود المرتزقة من البربر إلى قرطبة. وقد لاحظنا أيضا أن شخصا يدعى محمد بن رستم كان أحد القادة الأمويين خلال النصف الأول من القرن التاسع، وكان محمد هذا حفيد عبد الرحمن بن رستم أول إمام فى تاهرت كما أن هناك عضوا آخر من نفس الأسرة يدعى عبد الرحمن، والذي ربما يكون ابنا أو أخا للقائد؛ وقد كان عبد الرحمن هذا أحد وزراء عبد الرحمن الثانى (٥٦).

لم يرق أى من المؤرخين المسلمين بالتعرض للأسباب التى أدت إلى وجود عداة بين الأمويين الأسبان والأدارسة - الذين سيكونون جيرانهم فى المغرب الغربى بعد وقت قليل - خلال النصف الأول من القرن التاسع (٥٧). إلا أنه يمكننا تخمينها، فميلاد كل واحدة من هاتين الأسرتين كانت تصاحبه ظروف شديدة التشابه. فالروانى عبد

الرحمن الأول وعلى الأدريسى الأول كانا من عرب المشرق وكانا كذلك من الفارسين. والفرق الزمني في الفرار بين هذا وذلك تمثل في ثلاثين عاما. إذ أجبر كل واحد منهما على مغادرة القارة الآسيوية لأن إقامتهما فيها أصبحت مستحيلة إذ كانت رأساهما مطلوبتين. هذا التشابه في بداية الحياة السياسية لهما ربما كان حافزا لورثتهما ألا يدخلوا في نزاعات مع بعضهم البعض إذ لم يكن هناك إتجار فيما بينهم. ومع هذا اتسمت العلاقات بين أوائل الأمويين الأندلسيين والأدارسة المغاربة بالبرود أو التوتر وذلك بسبب جذورهم العرقية وذكرى الأزمة التي كان ضالعا فيها على ومعاوية في صدر الإسلام. وليس من المجازفة الظن بأن عبد الرحمن الثاني ساعد اقتصاديا أثناء ولايته، الدول الصغيرة المستقلة التي ظلت قائمة في أقاصي المغرب على شاطئ البحر المتوسط لتدافع عن نفسها ضد مشروع ضمها الذي كان يؤيده ويحبذه إدريس الثاني ومن أتى بعده في الحكم.

كانت الدولة «الصالحية»^(٥٨) هي واحدة من هذه الدويلات الأكثر ازدهارا قد تأسست في بداية القرن الثامن. كان صالح بن منصور أحد رفاق عقبة بن نافع هو الذي أسس تلك الدولة في منطقة الريف على شاطئ غومارا Gumara. وبعد ذلك قام واحد من سلالاته وهو سعيد بن إدريس ببناء عاصمة لهذه الإمارة سماها ناكور Nakur في مكان غير بعيد عن أغادير. كان ذلك عام ٧٦١م (١٤٣هـ). وسرعان ما تحولت هذه المدينة إلى ميناء بحري فيه الكثير من الحركة وذلك بفضل حركة الملاحة البحرية القائمة بين المغرب وشواطئ الأندلس المطلة على البحر المتوسط. وعلى زمن عبد الرحمن الثاني كان الأمير صالح قد تولى الحكم اعتبارا من عام ٨٠٤م (١٨٨هـ) وهو ابن سعيد ابن إدريس الذي شارك قبل مجيئه إلى الحكم في الجهاد المقدس في أسبانيا. ولم يمت إلا بعد أن قضى عمرا مديدا في الحكم استمر حتى عام ٨٦٤م (٢٥٠هـ) مات وفي حلقه غصة من جراء إنزال بحري نورماندي وقع عام ٨٥٨م (٢٤٤هـ) أو العام التالي حيث استولى النورمانديون على ناكور ونهبوها ثم عادوا أدراجهم إلى عرض البحر وقد حملوا معهم بعض السبايا ومنهن نساء من العائلة المالكة. إلا أن الأمير محمد الأول خليفة وابن عبد الرحمن الثاني افتدى الأميرات. وهذا يبرهن على أن الإمارة الصالحية إذا لم تكن تحت السيادة الأموية فإنها - على الأقل - كانت تحتفظ بعلاقات ممتازة معها.

وإذا ما تركنا جانبا الإمارة التي كانت عاصمتها ناكور، وبعدنا بعض الشيء عن ملك الأدارسة لوجدنا في المغرب، خلال القرن التاسع، دولتين قويتين نسبيا^(٥٩): الدولة

الملحدة البراغواتة كما نجد دولة المدراريين الخوارج الذين أقاموا في مجموعة الواحات المتناثرة وأسسوا هناك عاصمتهم سيشيلماسا *Sichilmasa* (٦٠). كانت كلتا المملكتين مستقلتين. وتتوفر بين أيدينا معلومات هامة استقيناها من الجغرافى الأندلسى البكرى. واستمرت هاتان الدولتان لعدة قرون. وليس من المحتمل أن يكون البرجواتة قد أجروا مباحثات مع قرطبة خلال القرن التاسع بهدف التحالف أو عقد صداقة. إذ أن ذلك يكون سابقا لأوانه ذلك أن نبيهم صالح بن طريف كان مكروها وممقوتا في أراضي الأندلس رغم أصله الأسباني، وسوف تمر السنون حتى نصل إلى عام ٩٦٣م (٣٥٢هـ) لنرى سفارة أبى صالح زموّر تظهر في البلاط القرطبي، وهو موضوع سوف نتحدث عنه لاحقا، وقد ساعد هذا الظهور في توفير المعلومات التاريخية عن هذه المملكة في البلاط الأموي. أما بالنسبة للمدراريين في سيشيلماسا، حلفاء الأئمة الرستميين عن طريق المصاهرة فمن المعروف أنهم كانوا تابعين للخلافة العباسية رغم أنها كانت تابعة متقطعة. كل هذه الظروف تفسر لنا السبب الذي من أجله انتظروا وقتا طويلا حتى يقيموا علاقات مع الأسرة الأسبانية لنجد أن إدريس الثانى توفى عام ٨٢٨م (٢١٣هـ) فتقاسم أملاكه أبنائه وهو الأمر الذى أضعف قوة الدولة وتقسيمها بشكل لارجعة فيه..

وبعد ذلك بقليل سوف نرى الأمويين يحاربون بعض أبناء هذه الأسرة أحيانا بعد فترات من المهادنة والمسالمة. ثم نرى بعد ذلك أيضا أن الحموديين وهم أحد فروع الأدارسة يحاولون أن يحلوا محل الخلافة المروانية المريضة في أسبانيا نفسها. أما فيما يتعلق بالفترة التى نحن بصدد دراستها في هذا الفصل فإن الخطر المتمثل في وجود دولة قوية نسبيا في المغرب وعلى أبواب الأندلس قد تبخر تماما. كما لم يعد هناك مبرر لمقترحات شارلمان بإنشاء تحالف هجومي مع الحكم الأول وذلك لمجابهة الخطر التوسعى للعلويين في المغرب ضد أوربا الغربية^(٦٢) حتى إن هذا المشروع لم يخطر ببال المحللين العرب على الإطلاق.

– بداية العلاقات الدبلوماسية بين قرطبة وبيزنطة :

لم تخف بيزنطة قلقها من قيام المسلمين باغتصاب أراضي جديدة من إمبراطوريتها خلال النصف الأول من القرن التاسع. فلم يعد البحر اللاتيني بحرهما، ومنذ مايزيد على قرن من الزمان فقد الامبراطور قسطنطين الشواطئ الأفريقية، واليوم ترى وجود خطر محقق بالشواطئ الخاصة بترينو *Tirreno* الواقعة على البحر

الأدرياتيكي وعلى بحر إيجه. وأضحت صقلية وهي على وشك السقوط تحت حكم الأغالبة وتعرضت شواطئ شبه الجزيرة الإيطالية للكثير من الهجمات، وأصبح حصن كريت في يد بعض المغامرين الأسبان الذين طردوا من ديارهم. وفوق ماسبق نجد أن الجيوش البيزنطية أصيبت بهزائم ثقيلة في آسيا الصغرى. وفي عام ٨٣٣ (٢١٨هـ) خلف المعتصم أخاه المأمون على عرش الخلافة العباسية. ثم بعد ذلك بأربعة أعوام يرى تيوفيل Téo filo العاهل البيزنطي بأنه آن الأوان لاستئناف الهجمات ضد خليفة بغداد فيستولى على حصن زيترا Zapetra فيرد عليه المعتصم ويستولى منه على العمورية في أغسطس ٨٣٨م (شوال ٢٢٣هـ) التي هي معقل الأسرة الحاكمة في بيزنطة ويبدل تيوفيل جهدا كبيرا في محاولة إعادة الأمور إلى أوضاعها السابقة. كما يقوم في الوقت نفسه بالبحث عن حلفاء جدد فيتوجه أولا إلى القوى المسيحية وهذا هو الأمر الطبيعي. فأرسل سفارتين، بفاصل زمني لعدة شهور، توجهت أولاها إلى إنجلهم Ingelheim الواقعة على شواطئ الراين حيث هناك بلاط الملك الأفرنجي لوفيكوبيو. أما السفارة الثانية فقد توجهت إلى فينيسيا. استقبل السفارة الأولى ابن شارلمان قبل موته بعام واحد تقريبا وبالتحديد في السابع عشر من يونيو لعام ٨٣٩م. كان أعضاء السفارة يحملون على عاتقهم مهمة طلب العون من الفرنجة ومن حكام فينيسيا للوقوف ضد المسلمين في «إفريقية» وصقلية فهام قد ظهروا على شواطئ كالابريا Calabria وأبوليا Apulia واستولوا على تورنتو. ويلح تيوفيل على أن الخطر الآخر القادم هو خطر الأغالبة التابعين لاعدائه القريبين منه وهم العباسيون في آسيا^(٦٣) لكن تيوفيل لا يجهل أن للعباسيين مناوئ قوي في قلب العالم الإسلامي فلماذا - فكر - لا يحاول إقامة علاقات معه وجذبه إلى صفه؟ من المؤكد أن هذا هو السبب وراء وصول أول وفد بيزنطي إلى العاصمة الأندلسية عام ٨٤٠م (٢٢٥هـ)

أمكن لنا أن نعرف شيئا عن هذه السفارة التي بعث بها تيوفيل إلى عبد الرحمن الثاني من خلال فقرتين وردتا في المقرئ إلا أنه كان من المستحيل معرفة أهدافها. لكن الرواية الرائعة لابن حيان أسهمت في سد هذه الفجوة كما أنها أوردت النص الكامل للرسالة التي بعث بها عبد الرحمن الثاني إلى الملك البيزنطي ردا على رسالته إليه، وهو النص التاريخي بالفعل. وفيما يلي نورد بإيجاز^(٦٤) ما نعرفه اليوم عن هذه المهام الدبلوماسية غير المسبوقة في تاريخ أسبانيا الإسلامية لكنها كانت البداية لتقليد بدأ بين القسطنطينية وقرطبة بحيث تكرر أكثر من مرة خلال القرن العاشر كما سنرى فيما بعد.

كان السفير الذي أرسل به الإمبراطور تيوفيل إلى أسبانيا من أصل يوناني يدعى كارتوس Qartiyus وكان يعرف اللغة العربية حمل معه هدايا للأمير الأندلسي

ورسالة رسمية من سيده تقول بأنه «اتخذ خطوة كان يأنف منها ملوك من ذى القوة والجاه - طبقا لما جاء فى رواية ابن حيان - وتتمثل فى افتتاح العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس والروم».

طلب تيوفيل من عبد الرحمن الثانى أن يعقد معه تحالف صداقة وحرّضه على أن يطالب فى المشرق بميراث أجداده السوريين، ثم ألقى باللوم على عدوانية العباسيين وأتباعهم الأغلبية الذين هم الأعداء الطبيعيون لكل من البيزنطيين والأمويين، وأخيرا طالبت الرسالة باستعادة جزيرة كريت التى يسيطر عليها الأسباني أبو حفص البلوطى، لم يقم تيوفيل بالالتزام بأمر عظيمة، وإذا ما وصلت به الأمور إلى أن يقنع عبد الرحمن الثانى بالدخول فى حرب ضد الأغلبية فإن هذه الأزمة كانت ستسهم فى تحسين موقفه وجعله يتنفس الصعداء بعض الوقت.

استقبل الأمير الأندلسى السفير اليونانى باحتفالية كبيرة وأثنى على الهدايا التى بعث بها تيوفيل، كما عبر عن شعوره بالفخر حيث ينظر إليه على أنه عاهل قوى ويحظى بالاحترام ويراعى جانبه فى اتخاذ القرارات الحاسمة وبعد ذلك بقليل ودع المندوب البيزنطى ترافقه صحبة مكونة من اثنين من السفراء المسلمين اللذين اختارهما من أفراد حاشيته: الشاعر يحيى الغزال، وآخر يدعى يحيى الملقب «بصاحب المنقولة» وذلك لأنه اخترع نموذجا جديدا للساعة المائية، وقد حمل هذان الرجلان على عاتقهما مهمة تسليم الأمبراطور البيزنطى رد سيدهما على رسالته.

صيغت الرسالة فى عبارات مهذبة جدا لكنها ترفض بشكل قاطع الاستجابة لتتويهاات الجانب البيزنطى. بدأ عبد الرحمن الثانى رسالته بالإشارة إلى أنه يتذكر جيدا مانوه إليه المراسل الأمبراطورى بشأن اغتصاب العباسيين للعرش الأموى، وأضاف، دون أن يعد بما هو أكثر من هذا، أنه يثق فى أن تهىء العناية الإلهية للأسرة الأموية فى أسبانيا الانتقام لنفسها من الخلفاء العباسيين فى بغداد، أما بالنسبة للأندلسيين الذين يسيطرون على كريت فقد اقتصرت الرسالة على إعفاء الأمير نفسه من المسؤولية عما يفعل هؤلاء فهم متمردون ولم يعودوا من رعاياه وأن الأمبراطور اليونانى يمكن له أن يفعل ما شاء معهم سواء طردهم أو عقابهم. أما بالنسبة للأغلبية فى «إفريقية» وبنشاطهم البحرى فقد تفادى عبد الرحمن الثانى الرد على السؤال بمهارة ووقف عند عبارات فيها تصميمات ثم أضاف بأن من الصعب عليه أن يستنكر علانية قيام مناوئية بحملات موجهة ضد غير المسلمين لإعلاء كلمة الدين، هذه الرسالة المطولة التى لم تعد بشئ كانت عملا رائعا من أعمال الدبلوماسية القرطبية التى أخذت

تسير أولى خطواتها: الكثير من الكلمات الطيبة ونغمة حريصة وصحيحة. لكن دون أية التزامات سواء فيما يتعلق بالمستقبل أو الحاضر.

استقبل تيوفيل السفارة الأندلسية في القسطنطينية وتسلم رسالة عبد الرحمن الثانى وهداياه. ثم عادت السفارة أدراجها إلى أسبانيا عبر البحر ويخصص ابن حيان عدة صفحات للشاعر الغزال ويورد فيها بعض الأمور الهامة والغريبة بالإضافة إلى بعض الطرائف المتعلقة بالفترة التى مكث فيها السفيران القرطبيين فى العاصمة البيزنطية. اتسم الغزال بالروحانية والعبقرية وحظى بعناية ورعاية كبيرتين فى البلاط الإمبراطورى، وقد برهن أكثر من مرة على ألعيته وقدراته أمام الإمبراطور تيوفيل أو الإمبراطورة تيودورا، والأمير ميغيل Miguel ولى العهد، والذى سوف يُلقَّب بـ ميغيل الثالث.

وإذا ما كان لنا نثق فى روايات بعض المؤرخين المسلمين ممن ينسبون إلى عصر متأخر^(٦٥)، فإن الشاعر يحيى الغزال ورفيقه فى الرحلة إلى القسطنطينية قد كلفا من قبل عبد الرحمن الثانى بسفارة ثانية خلال العام التالى مباشرة لكن هذه السفارة كانت موجهة إلى ملك النورماندين بغية ثنى عزيمته عن القيام بإنزال بحرى جديد فى أسبانيا. وقام الشاعر ورفيقه بإنجاز مهمتهما فى شمال أوروبا بعد رحلة وعرة فى مياه الأطلنطى ثم عادا إلى قرطبة بعد تسعة أشهر. إلا أن هذه الرواية غير صحيحة من أول كلمة إلى آخر حرف فيها. ذلك أن تلك الرواية التى تتحدث عن سفارة لم تحدث، موجهة إلى أسكندينايفيا لكن تم تخيلها فى القرن الثانى عشر أو الثالث عشر، لا تكاد تصمد إذا ما درسناها بشئ من التأنى ذلك لأن التفاصيل التى توردها وتنسبها إلى هذه السفارة المزعومة، ما هى إلا بعض تفاصيل رحلة يحيى الغزال إلى الإمبراطورية اليونانية خلال القرن العاشر. ومما لاشك فيه أن الخطوه التى اتخذها إمبراطور بيزنطة بشأن قرطبة وكذلك الهجوم البحرى للفيكنج على الأراضى الأسبانية كانا بمثابة إلهام لبعض القصص ثم اختلطت الخيوط ببعضها فى المخيلة الشعبية لأهالى الأندلس وتكونت تدريجيا أسطورة أسهمت فى تشويه الواقع التاريخى^(٦٦).

عبد الرحمن ودوره فى التنظيم والتشييد :

كان عبد الرحمن الثانى مجددا فيما يتعلق بالتنظيم الإدارى وذلك طبقا لنفس المصدر التاريخى ورغم أن ابن حيان لم يعبر عن ذلك بشكل صريح يمكن القول بأنه كان مقلدا: لم يتجاهل الأمير القرطبى التنظيم الحكومى المتقدم الذى استحدثه الخلفاء

العباسيون ولم يتردد فى الإعلان عن إعجابه بالتفاصيل الكاملة التى كان يرويها له الرحالة الأندلسيون عند عودتهم من المشرق، رغم أن هذا الإعجاب قد يكون على حساب حبه لبنى جلدته من الأمويين: اتسم العاهل الأندلسى بالذكاء فاستطاع تقدير المزايا التى تعود على دولته من جراء تطبيق التنظيم الإدارى الشرقى الذى يرجع بجنوره الأصيلة إلى فارس الساسانية، وربما لم يكن يدرك بعد أصول هذه الجنور وإن كنا لا نستطيع تأكيدها فى هذا المقام. وسوف يتولى أحد أفراد ذريته وهو عبد الرحمن الثالث إكمال هذا التنظيم الإدارى وأن يضيف عليه الصيغة الأندلسية مثلما له من صيغة الخلافة. ورغم هذا فهو تنظيم ظل حتى بعد سقوط الخلافة فى قرطبة صورة مصغرة وأمينه للتنظيم الإدارى العباسى الذى أخذت شبه الجزيرة الأيبيرية فى تطبيقه اعتباراً من بداية القرن التاسع عشر.

سوف نقتصر فى هذه السطور - مؤقتاً - على نصح القارئ بالرجوع إلى الفصل الذى خصصناه للتنظيمات الإدارية لعصر الخلافة خلال القرن العاشر والذى سنورد تفاصيله فيما بعد. إلا أننا سوف نوجز فى كلمات قليلة الخطوط الرئيسية لهذا التنظيم والتى ندين فيها بالفضل لابن حيان حيث تناول التنظيم الإدارى لعبد الرحمن الثانى. أو ما نلاحظه هو أن العاهل هو محور كل شئ من التنظيمات الإدارية التى تدور فى فلكه. فلا يمكن اتخاذ أى قرار دون الرجوع إلى من هو أعلى. تجتمع فى يد العاهل كل السلطات وفى حالة تخويل أى من هذه السلطات فإن المكلف بالأمر يكون مسئولاً كلية أمامه. ولا يمكن مراجعة العاهل وهناك استثناء فى هذا المقام متمثل فى قاضى القضاة أو رئيس لجنة الافتاء إذ يمكن لهذين أن يراجعا العاهل - إذا ما كانا يتمتعان بثقته - ويكون التعبير عن هذا باستخدام التورية وأن تكون الأسانيد القانونية قوية. وتتم ممارسة هذه السلطة المطلقة حتى فى الشئون الدينية، رغم أن ذلك سابق على قيام عبد الرحمن الثالث باتخاذ لقب الخليفة - وأمير المؤمنين بعد ذلك بقرن من الزمان. كان اتخاذ هذه الألقاب ذو قيمة أخلاقية وكان الهدف منها التأثير على خيال الجماهير سواء فى الداخل أو الخارج. كما أنه سوف يمثل الرد - أو الصفحة - على نوايا الفاطميين. وعلى الصعيد الأسبانى لم يؤد اتخاذ هذين اللقبين إلا الإعلان رسمياً عن موقف متخذ منذ عدة أجيال.

مثلما هو الحال فى بغداد يتم ترجمة السلطة من خلال مؤسسات الدولة: مثل سك العملة والمصانع التى يتم فيها صناعة المنسوجات رفيعة المستوى والتى تحمل اسم العاهل الحاكم. ويرى مؤرخو الأندلس أن هذه الخطوات تمت على عهد عبد الرحمن

الثانى. ويقولون بأنه خلال الفترة السابقة على حكمه كانت العملات التى تسك فى أسبانيا غريبة الشكل وكانت عبارة عن دراهم من الفضة و obolo (فلس) من البرونز. وكانت العملات المتداولة فى البلاد عبارة عن عملة أفريقية أو مشرقية^(٦٩) اللهم إلا القليل من الدنانير الغربية المصنوعة من الذهب. كما أن قلة هذه العملات كثيرا ما أثرت بالسلب على عمليات التبادل التجارى الأمر الذى جعل التجار يلجأون فى أغلب الحالات إلى المقايضة. وفى هذا المقام نجد أن المراكب المغربية التى ترسو فى الوقت المناسب على الموانئ الأندلسية لتوريد الغلال كانت تضطر إلى إجراء مبادلة مباشرة بأن تحمل فى طريق عودتها المنتجات الأسبانية من المصنوعات المختلفة مثل المنسوجات والجلود المدبوغة. أراد عبد الرحمن الثانى أن يضع حلاً لسلبات هذا الموقف بأن ضاعف من عدد قطع العملات الفضية والبرونزية المتداولة وعلى هذا أنشأ دارا لسك العملة «دار السكة» وعهد بإدارتها إلى من هو من ذوى الخبرة فى هذا المقام وهو الحارث بن أبى الشبل^(٧٠). كانت عمليات سك العملة الذهبية محدودة للغاية. ذلك أن أغلب الاحتياطي من المعدن الثمين كان محفوظا فى كنوز الأمراء. وفيما يتعلق «بالطراز» وهى هيئة بيزنطية تم إقامة هيئة مماثلة لها فى بغداد ثم طبقت فى مصر وانتقلت بعد ذلك إلى أسبانيا لكن لم يعثر المؤرخون اليوم على أى منتج أندلسى ينسب إلى ذلك العصر. لكن يروى الكثير من المؤرخين أن المصانع الملكية للمنسوجات كانت تعمل فى قرطبة ابتداء من ولاية الأمير الأموى الرابع تحت إشراف حارث بن بازى وقامت هذه المصانع بتوريد البسط الستائر والملبوسات إلى البلاط وقامت بصناعة الحلل الفخرية التى كان توزع على بعض عليّة القوم فى بعض المناسبات.

وطبقا لنفس المصادر التى اعتمد عليها ابن حيان، يرجع إلى عبد الرحمن الثانى الفضل فى تنظيم ما أسماه المؤرخ «بمراتب الخطط»^(٧١)، وتحديد المكانة التى يجب أن تكون لكل واحدة من الطبقات فيما يتعلق بمراسم البروتوكول. كما أن موظفى الدولة «أهل الخدمة» كانوا مسجلين إما لدى الإدارة العامة أو لدى الإدارة الخاصة ببيت المال. فكان يتبع الإدارة كل من «الكتبه» و«الوزراء» أو الذين يتبعون الإدارة الثانية كانوا «القهرمانات» أى النظار والأمناء. كان على ديوان بيت المال أن يستخدم منذ ذلك الحين دفاتر رسمية تسجل فيها البنود المختلفة كل واحد على حدة. كما أن «ديوان الخزانة» التابعة للدولة كان هدفا للتفتيش الدائم ويقوم بهذه المهمة أمناء يتحملون المسئولية بالتضامن. أما الإدارة العامة فقد كان المجلس الذى بناه عبد الرحمن الثانى خصيصا لذلك عند مدخل قصره، كما كان يستدعيهم يوميا الى المثل أمامه إما بشكل جماعى، أو بشكل منفرد وذلك ليبلغوه بأخر التطورات والمراسلات التى تصل من

الأقاليم ويقومون بوضع «الخاتم» على الرسائل والمراسيم الصادرة. هذا الخاتم كان يحمل العبارة التالية «عبد الرحمن راض بما أراد الله»^(٧٢). وقد خصص الأمير لكل واحد من «كبار الموظفين» مرتبا ثابتا قد يصل إلى ٣٥٠ دينار شهريا.

فى الوقت الذى قام فيه بتنظيم «مخزنة»، وهى عبارة كثيرة الاستخدام فى المغرب حديثا، على الطريقة العباسية قام عبد الرحمن الثانى بوضع حل للمشاكل الخاصة بالأشغال العامة وبجهاز الشرطة لمواجهة النمو المستمر للعاصمة قرطبة. فحتى هذه اللحظة كان صاحب السوق هو الذى يتولى وضع الموازين والمكاييل ويراقب جودة الأصناف والسلع المعروضة للبيع وتطبيق النظام والأحكام فيما يتعلق بجرائم الحقوق العامة. فقام العاهل بإنشاء مناصب جديدة بحيث يتولى كل فرد مهام محددة. فهناك «والى السوق» - المحتسب فيما بعد - الذى ظل يمارس مهامه السابقة، إلا أن البوليس المحلى تم تقسيمه إلى إدارتين للشرطة. كما أن إدارة الخدمات أخذت تتبع مسئولا جديدا هو. والى المدينة، «أو صاحب المدينة».

من الصعوبة بمكان تحديد مدى الدور الذى لعبه عبد الرحمن الثانى فى تنظيم الأقاليم وذلك نظرا لغياب المعلومات الدقيقة فى كتب المؤرخين، وهو موضوع سنتعرض له بالدرس فيما بعد. إلا أنه أمكن لنا ملاحظة أن تقسيم الأندلس إلى مجموعة من الأقاليم (الكُور) كان سابقا على ولاية عبد الرحمن الثانى بزمان طويل. ورأيت^(٧٣) أن بعض تلك الأقاليم تم «تجنيدها» حيث أعطى الفرسان من الجند السوريين من «بلج» إقطاعات من الأراضى. هذا التقسيم إلى «كُور» كان على ما يبدو سيرا على ما وجدته فى أسبانيا عند مجيئهم إليها. فكان كل إقليم تابعا لإدارة مسيحية خلال العصر القوطى كما كان اسم عاصمة الإقليم مذكورا فى قوائم كنسية فى أسبانيا معروفة باسم «توزيع قنسطنطين»^(٧٤).

أما الجيش الذى كان موضع رعاية مستمرة من كل من عبد الرحمن الأول والحكم الأول كان أيضا أحد البنود الرئيسية التى تشغل بال الأمير الرابع. فعندما تمت توليته اشترى لأخوته حصة الممالك التى كانت تخصهم طبقا للوصية الملكية، التى تركها الحكم الأول والتى كانت ملكا خاصا به. وعندما استعاد بهذه الطريقة كافة «الخُرس»، الذين كانوا على أيام والده، قام بزيادة عددهم عندما ضم إلى أملاكة مناطق جيدة هى لانغيدوك Languedoc وبسكونية Vasconia وغسقونية Gascona. فبلغ عدد الحرس الخاص بالأمير خمسة آلاف رجل منهم ثلاثة آلاف فارس وألفى راجل. كما تم دعم قيادات الجيش النظامى. ووضع هناك تصنيفا لهم حسب المهام

التكتيكية لكل منهم فهناك سلاح المرتزقة وهناك «الحشد» وهم الذين يستعدون للدخول في صفوف الجندية وهناك العناصر التي ترسل بها الأقاليم «المجندة» [الجند]. وأخيرا نجد أنه نتيجة للإنزال البحري النورماندى عام ٨٤٤م ظهرت القوات البحرية وتم تدعيمها بوحدات جيدة. كما أنشئ في أشبيلية مصنع للحبال. ونذكر أيضا أنه خلال عامى ٨٤٨ - ٨٤٩ (٢٣٤) توجهت قوة بحرية أموية مكونة من ثلاثمائة مركب إلى جزيرتي مايوركا ومينوركا لإقرار النظام هناك^(٧٥).

لم يقتصر جهد عبد الرحمن الثانى على التنظيم الإدارى فقط بل تعداه إلى التشييد. فكما رأينا أنشئت في عهده مدينة مرسية Murcia والقصبية في ماردة Mérida وأسوار أشبيلية. وفي قرطبة أمر خلال عام ٨٢٧م (٢١٢هـ) بإعادة إصلاح الرصيف الكائن على شاطئ نهر الوادى الكبير وذلك فى المسافة التى تبدأ بعد الكوبرى واستخدم فى هذه العملية الحجارة المنحوتة والملتصقة بالجص ذلك أن تيار النهر كان كثيرا ما يقضى على التبتطينات السابقة. وأدخل تعديلات جوهريّة على بناء القصر. فقد ترك القصر القديم الذى كان يسمى «باب السدة»^(٧٦). وأقيمت على شرفاته مجموعة من المباني البانورامية العالية ذات النوافذ الزجاجية الضخمة التى تسمح بمشاهدة قرطبة وماحولها ابتداء من السلسلة الجبلية وحتى آخر أفق للزراعات فيها. كما بنى قصرا جديدا سيرا على العادات الجديدة فى البلاد الإسلامية والتى بمقتضاها يقوم كل عاهل ببناء قصر جديد تاركا السكنى فى القصر القديم. كما استحدث الأمير الوسائل اللازمة لتزويد القصر بالمياه القادمة من جبل قرطبة وذلك عبر مجريات استخدمت أيضا فى تغذية نافورة عامة تزينها واجهة من الرخام ومنشأة أمام مدخل القصر اعتبارا من عام ٨٥٠م (٢٣٦هـ).

قام عبد الرحمن الثانى بعمارة المساجد أيضا إلى جانب العمارة المدنية التى أشرنا إليها. ففي عام ٨٢٥م (٢١٠هـ) أقام المسجد الكبير فى جيان Jaen^(٧٧). وإذا ما اتخذنا جزءا من بدن عمود قديم منقوش عليه عبارات عربية كمصدر تاريخى فبعد بناء مسجد جيان بأربعة أعوام^(٧٨) أمر عبد الرحمن الثانى ببناء المسجد الكبير فى أشبيلية وقد أشرف على البناء القاضى عمر بن Adabas. وفى قرطبة سار على نهج والده بأن حث نساءه على أن تتبرعن من مالهن لبناء مساجد فى الأحياء المختلفة وتسمى هذه المساجد باسمهن مثلما نجده فى مسجد طروب ومسجد فجر ومسجد الشفا وهذه أسماء يتردد ذكرها كثيرا فى كتب السير الأندلسية. ثم قام بتوسعة المسجد الكبير فى قرطبة على مرحلتين أولاهما عام ٨٢٣م (٢١٨هـ) والثانية عام ٨٤٨م (٢٣٤هـ). ولم

يتمكن المؤرخون من تحديد طبيعة الإضافات التي تمت على المسجد الكبير في قرطبة إلا بعد اكتشاف مؤلف ابن حيان. فقد ساعد هذا النص على تذليل بعض الصعوبات التي تواجه الدراسة الأثرية للجامع والتي أدت في البداية إلى وجود تعارض بين المعلومات التاريخية المعروفة سلفاً^(٧٩). كان هدف التوسعة الأولى هو عرض المسجد أما التوسعة الثانية فكانت خاصة بالعمق. ففي عام ٨٣٣م تم التوسعة على جانبي المصلى أى ناحية الشرق وناحية الغرب حيث أضيف إلى الأروقة الجديدة القائمة سلفاً رواقين عرض كل واحد منهما تسعة أذرع ونصف. ولما اتضح أن مساحة المسجد غير كافية اتخذ قراراً عام ٨٤٨م بإضافة مساحة جديدة إلى المصلى بنقل الحائط الجنوبي من مكانه وكذلك المحراب بحيث أضاف إلى المبنى ثمانية بلاطات أخرى. كان يشرف على هذه الأعمال القائد الشهير الخصي نصر ويعمل معه رفيقه مسرور، وكلاهما يعمل تحت إمرة القاضي وإمام المصلين محمد بن زياد ويبدو أن هذه الإضافات لم تكتمل إلا بعد وفاة عبد الرحمن الثاني. كما أضاف هذا الأمير إلى صحن المسجد مساحات أخرى تمثلت في ثلاثة أروقة مرتفعة السقف وخلف الرواق الخلفي أقيمت مصليات صغيرة مخصصة للنساء.

الحياة الفنية وتأثير زرياب على البلاط وعلى المدينة :

لم يكن عبد الرحمن الثاني سعيداً بأن ينقل عن العباسيين تنظيماتهم السياسية والحكومية ويطبقها في الأندلس. وسوف يقوم بتقليد الخلفاء العباسيين في بغداد حتى في منهاج حياتهم مثلما كان يفعل ذلك الأمراء الأغالبة في إفريقية. فقد هيأت له كثرة الأحوال في الخزنة أن يحيط نفسه بمظاهر البذخ والقيام بالمهام الباهظة التكاليف وممارسة حق الأفضلية في شراء المجوهرات النادرة والتحف والكتب النادرة التي كان يجلبها بعض التجار الأذكياء إلى أسبانيا والواردة من بغداد أو المدينة أو حتى من القسطنطينية والموانئ المسيحية المطلة على البحر الأبيض المتوسط. وغالباً ما كان هؤلاء التجار يهوداً من أربونة Narbonne. كانوا يتاجرون في كل شيء مثل الجوارى الجميلات اللاتي اختطفن من بيوتهن بواسطة القراصنة والخصيان والحرير المخمل والجلود القادمة من الشمال والجواهر والأحجار الكريمة. وخلال هذه الفترة التي كان الأمير يشتري فيها تلك المقتنيات بأعلى الأثمان حتى يضيف على حياته الخاصة المزيد من السعادة ويكمل من تفاصيل الحياة اليومية، قام الجغرافي المشرقي ابن خردادبة Jurdahbeh الذي توفي عام ٨٨٥م (٢٧٢هـ)^(٨٠) بوصف مسار هؤلاء التجار اليهود

الذين كانوا يجيدون عدة لغات هي العربية والفارسية واليونانية والرومانث الأسباني ولغة السلافيين ولغة الـOc، فعبر مصر وموانئ شبه الجزيرة العربية كانوا ينقلون العبيد والسلع التي كانت تحملها القوافل إلى العراق، وكانت سفنهم محملة بالإستبرق والجلود المدبوغة وجلود حيوان القندس والسمور ونصال السيوف، أضيف إلى ذلك سفنا صغيرة مخصصة للأغراض المعيشية أو لإقامة المشترين والخصيان، كانوا يذهبون في رحلاتهم إلى السند وكذلك إلى باقى الموانئ الهندية وقد وصلوا فى بعض رحلاتهم إلى الصين حيث جلبوا من هناك المسك وخشب الصبر والكافور كما جلبوا القرفة وغير ذلك من أنواع التوابل، وقد سافر البعض منهم لتسويق تجارته فى القسطنطينية واحتفظ آخرون بما معهم من أجل ملك الفرنجة، أما أغلبهم - وعلينا أن نخمن ذلك رغم أن الجغرافى المشرقى لايقوله - فقد اتجه إلى أسبانيا سواء ذهابا أو إيابا، فهم على دراية بأن هناك من سيشترى منهم بضاعتهم بسعر جيد ليقوم ببيعها فى قرطبة وقد حصل على أرباح طائلة.

وتورد كتب التاريخ الكثير من التفاصيل بشأن الصادرات العراقية لأسبانيا فى منتصف القرن التاسع وكان أهمها السلع الفخمة التي كانت تستخدم كنموذج للتقليد سواء فى صناعة المنسوجات أو فى صناعة الحلى فى مختلف مدن الأندلس، وأخذت أنماط المنسوجات والحلى تعيش تحت تأثير المنتجات العراقية أو بمعنى أدق الإيرانية بعد أن ظلت متأثرة بالأنماط القوطية فى ذلك الوقت ومن بين الحلى التى وردت من بغداد إلى شبه الجزيرة الأيبيرية نجد العقد الشهير الذى أورد الكثير من المؤرخين أخباره والذى أهده عبد الرحمن الثانى إلى محظيته فى تلك الفترة «شفا»، كان عقدا شهيرا فى المشرق وكان يسمى «الثعبان»، كان ذلك العقد ملكا لزبيدة الزوجة الشهيرة لهارون الرشيد وأم خليفة محمد الأمين، وقد اشتراه الأمير الأندلسى بعشرة آلاف دينار من الذهب عندما عرض عليه شراؤه بين مجموعة من التحف الثمينة المسروقة من قصور بغداد أثناء الصراعات العرقية التى عاشتها هذه المدينة قبل تولى الخليفة المأمون^(٨١).

كان عبد الرحمن الثانى يسير على شاكلة الخلفاء العباسيين فإذا لم تكن هناك حملة عسكرية يقوم بها على بعض الثغور أو الأقاليم فنادرا ما كان يظهر أمام مواطنيه من سكان العاصمة قرطبة^(٨٢)، وعندما يقيم فى قرطبة لا يكاد يغادر قصره إلا للصيد فى وادى نهر الوادى الكبير وقد حددت له سلفا مسارات سرب من طير الكركى^(٨٣)، وأحيانا ما يغيب أسبوعا لصيد الغزلان فى أدغال جبال الشارات Sierra Morena .

ورغم هذا فكثيرا ما كان يظل فى قصره الذى أخذ يضع له الكثير من القواعد والتقاليد التى تحدّد تفاصيل الحياة اليومية. لكن هذه التقاليد لم تكن على نفس الدرجة من الصرامة التى كانت عليها فى عصر الخلافة الأموية فى الأندلس خلال القرن العاشر. غير أن الأفراد المكلفين بالعناية بذلك هم أنفسهم الذين سوف نراهم حول عبد الرحمن الثالث أو حتى الحكم الثانى. إنه عالم من الخصيان أى الفتيان^(٨٤) الذين يجوبون أنحاء القصر وأغلبهم من أصل أجنبى كما أن الحالة التى هم عليها هيأت لهم السير بحرية فى ردهات الحريم الملكى. كان رئيس البلاط القائد الكبير - الفتى الكبير - هو الخصى أبو الفتح نصر^(٨٥)، وقد جرى تعيينه عدة مرات ثم أخذ يترقى تدريجيا حتى احتل المركز الأول إلى جوار عبد الرحمن الثانى بعد الدور الذى قام به ضد الغزو النورماندى. وقد قال عنه إيولوخيو Eulogie^(٨٦) «إن هذا الوالى أمين السرّ كان يشرف على كافة إدارات الدولة القرطبية». وبعد ذلك سوف نراه يقوم بالتآمر حتى يخلف سيده أمير ليس هو الأمير وريث العرش كما سنراه وهو يحاول دس السم للعاهل بجرأة غير معهودة كلفته حياته.

كما سنتحدث عن أن نصر قد دبر هذه المؤامرة التى كانت نتائجها مأساوية عليه، بالاتفاق مع طروب إحدى محظيات عبد الرحمن الثانى من جواريه. كان للجوارى كثيرات العدد دور هام فى البلاط القرطبى خاصة عندما تكون واحدة منهن قد أنجبت طفلا، فيكون عندها أمل كبير فى أن تلقب بأُم الولد أى «الأميرة الأم» والتى يتم عتقها بوفاء سيدها وتستطيع التصرف فى ثروتها. ويروى لنا المؤرخون أن عبد الرحمن الثانى كان يحب النساء وإذا ما أخذنا بهذه الروايات فقد وصل عدد أبنائه إلى خمس وأربعين ابنا واثنين وأربعين بنتا. ويمرور الزمن أخذت تحل محل «أمهات الأولاد» نساء أخريات أكثر شبابا وجمالا. فالعاهل الذى كان يساعده خبراء يزودونه بالحريم لم يكن يريد إلا النساء العذراوات وكان يحب أن يكون مزودا بالمعلومات الكافية عن الجذور الأسرية لمحظياته. ويمكن لنا أن نذكر أهمهن : فى المقام الأول نذكر طروب التى يبدو أنه كان لها دلال خاص على الأمير. أما الثانية فهى معمرة التى كانت إحدى المقابر فى قرطبة تحمل اسمها حيث أمرت بإصلاحها على حسابها. وهناك الطيبة العاقلة والجميلة شفا التى شكر لها عبد الرحمن كثيرا إرضاعها لمحمد خليفته فى الحكم وكذلك أرضعت له ابنها المطرف الذى كان يكن حبا جما للأمير وريث العرش. هناك الرائعة فجر. وأخيرا هناك المدينيات الثلاث الشهيرات وهن فضل، وعلم وقلم، وكل واحدة منهن كان لها ابن من الأمير. هؤلاء الثلاث كن شهيرات بغنائهن ورشاقتهن وتميزهن الذى لا تضارعهن فيه أخرى.

أطلق على هؤلاء الفتيات الثلاث لقب «مدنيات» لا لأنهن من أبناء المدينة المنورة ولكن لأنهن تربين وتتقنن فيها على فن الغناء. كانت قلم إسبانية وكان أبوها - طبقا لابن حيان، من سادة البشكنس وقد اختطفت وهي صغيرة السن في إحدى الغارات. وأدى بها طريق الرق إلى الشرق ثم عاد بها مرة أخرى بعد أن اكتملت ثقافتها العربية لتقوم بدور الترويح عن سيد أسبانيا الإسلامية. فكانت، بالتعاون مع زميلتيها، ترأس جوقة موسيقية متمرسة على العزف والغناء حيث قام عبد الرحمن الثاني ببناء جناح خاص لهن (٨٧).

كانت «المدينة» هي المكان الذي تربت فيه ثلاثتهن تربية موسيقية، وكانت لاتزال تحت سلطان العباسيين رغم أقول نجمهم السياسي: إذ كانت مركزا نشطا للثقافة العربية وحاضرة تؤمها عليا القوم. ولعبت المدينة إلى جوار العاصمة بغداد دورا غير مباشر في إضفاء الصبغة «المشرقية» من جديد على أسبانيا خلال النصف الأول من القرن التاسع. أضف إلى ما سبق وجود عنصر آخر هام جدا أسهم بدور فعال في إضفاء «المشرقية» من جديد على قرطبة ألا وهو نزول المغني العراقي زرياب على قرطبة وإقامته فيها. وكان له تأثير كبير على البلاط والمدينة وحاز شهرة واسعة تجعله جديرا بأن نتوقف عنده لنعرض لسيرته على أرض الأندلس (٨٨).

ولد أبو الحسن علي بن نافع عام ٧٨٩م (١٧٣هـ) في بلاد ما بين النهرين وكان أحد عتقاء الخليفة العباسي المهدي. وقد كُتِبَ بزرياب بسبب سمرة بشرته، ويرى كتاب السيرة أن هذه اللقب كان يطلق على عصفور ذي ريش أسود. تميز زرياب منذ يفاعته كتلميذ نجيب للموسيقى الشهير إسحاق الموصلي. وصلت شهرته للخليفة هارون الرشيد الذي طلب من أستاذه أن يأتي به إلى البلاط ليسمعه. فتفوق الموسيقى الشاب على نفسه في حضرة العاهل وأثار غيرة إسحاق الموصلي لدرجة أن التلميذ خشي على حياته إذا مابقى في بغداد فاضطر للخروج منها والبحث على الرزق متوجها إلى الغرب. وبعد أن مكث فترة قصيرة في البلاط الأغلب الذي كان به آنذاك القيرواني زيادة الله الأول، كانت شهرته قد سبقته إلى الأمير الحاكم الأول في أسبانيا من خلال الموسيقى اليهودي القرطبي أبو النصر منصور فأخذ طريقه إلى أسبانيا وعندما وصل إلى الشاطئ الآخر، عند الجزيرة، علم بوفاة الأمير الذي طلب مجيئه وأن ابنه عبد الرحمن الثاني تولى الحكم بعده. فسارع هذا الأمير ليطلب منه مواصلة الرحلة إلى قرطبة وأرسل إلى زرياب بالكثير من الهدايا جعلته يتخذ قرارا بالبقاء في أسبانيا ما بقي له من العمر. واستقبله العاهل استقبالا ممتازا وهيا له راتبا مرتفعا جدا بلغ

مائتي دينار شهريا وخصص له إقطاعا من الأرض شديدة الخصوبة، وكان للموسيقى العراقي أبلغ الأثر في المجتمع القرطبي سواء فيما يتعلق بموهبته الموسيقية أو العائد المادي. ووصلت أخبار سخاء الأمير الأموي مع زرياب إلى كافة أرجاء العالم الإسلامي لدرجة أن موسيقيا آخر من بغداد هو Alluyah قال أمام الخليفة المهدي أنه قد يموت جوعا بينما يسير زرياب في شوارع قرطبة تحيط به كوكبة من الفرسان ويمتلك ثلاثين ألف قطعة عملة ذهبية. وصل زرياب إلى أسبانيا عام ٨٢٢م (٢٠٧هـ) وكان له أربعة أبناء سوف يستمرون في ممارسة مهنة والدهم^(٨٩) وكان عمره يتجاوز الثلاثين بقليل وظل في الأندلس حتى وفاته عام ٨٥٧م (٢٤٣هـ). ظل طوال هذه الفترة قول الفصل في الأناقة والعنصر المحرك لكل أنواع التقاليع الجديدة التي كانت سائدة آنذاك ولم يكن تأثيره على الشكل الخارجي فقط بل على الحياة الخاصة للمسلمين في الأندلس.

وإذا ما تناولنا الجانب الموسيقي^(٩٠) عند زرياب فطبقا لكتاب سيرته كان مجددا عبقريا حتى في ذلك البلد الذي اختاره ليكون مقرا لإقامته. فأنشأ معهدا للموسيقى بدأت فيه الموسيقى الأندلسية تحنو حنو المدرسة الشرقية التي كان على رأسها إسحاق الموصلي لكنها سرعان ما أخذت طريقها الخاص بها والذي لازال تأثيره واضحا حتى الآن في الغرب الإسلامي. وإلى زرياب يرجع الفضل في إدخال تعديلات فنية على العود فزاده إلى خمسة أوتار بدلا من الثلاثة التي كان عليها كما كانت الريشة عبارة عن ريشة من قوادم النسر بدلا من القطعة الخشبية.

وإذا ما اتفقنا على أن تأثير زرياب كموسيقى كان كبيرا في قرطبة إلا أنه - بالمقارنة - كان أقل عمقا من ذلك التأثير الذي أحدثه بنصائحه الموجهة إلى عليه القوم في أسبانيا فهذا الأنيق الشرقي يذكرنا بيتروينو Petronio وبرمل Brummel. ولنشر، كيفما اتفق، إلى بعض التجديدات التي نسبها إليه المؤرخون والتي أحدثت تأثيرا على المجتمع الأندلسي المحافظ للغاية والذي اتخذ منهاج حياة لم يتغير إيقاعه طوال قرن من الزمان أي منذ تأسيس الإمارة الأسبانية الأموية. فقد علم زرياب أهل قرطبة كيفية إعداد الأطباق التي كانت سائدة في المطبخ البغدادي والتي يتسم بعضها بالتعقيد في إعدادها، وكذلك كيفية تقديم الطعام وترتيب تناول الأطباق المختلفة وألا يتم خلط الأطعمة ببعضها بل يجب البدء بالحساء ثم يعقب ذلك أطباق اللحوم وأطراف الطيور بعد إنضاجها جيدا وفي الختام يتم تقديم أطباق الحلوى مثل حلوى الجوز واللوز والعسل أو عجائن الفواكه المضاف إليها بعض الفانيлия والمحشوة بالفستق والبندق. وبدلا من أن يكون مفرش المائدة من التيل السميك حل محلها الجلد الرقيق وأكد أن الكؤوس المصنوعة من الزجاج تزيد من زينة المائدة بدلا من تلك الكؤوس الفضية أو الذهبية. كما

افتتح في قرطبة ما يمكن أن يطلق عليه معهد الجمال والرشاقة حيث أخذ الناس يتعلمون كيفية حلاقة الذقن وإزالة الشعر من الجسم واستخدام معجون للأسنان وكيفية تصفيف الشعر ولا تترك الخصلات طليقة في وسط الرأس فقد تنسدل على الجبين وتغطي الصدر، بل يجب أن تكون خصلات قصيرة ومموجة لتكون الحواجب ومؤخرة الرأس والأذنين مكشوفة. كما وضع توقيتات للموضة بحيث يلبس اللون الأبيض اعتباراً من شهر يونيو وحتى نهاية سبتمبر وأن يكون الربيع هو الوقت المناسب للبس الحرير الرقيق أو المنسوجات الأخرى ذات الألوان الزاهية، أما الشتاء فهناك المعاطف الجلدية والمعاطف المصنوعة من الفراء والمبطنة بالقطن. كان الجميع يطلبون منه النصيحة وكانوا ينفذونها بحذافيرها. فليس هناك ما هو أكثر تأثيراً من تلك التيارات الحضارية القادمة من بغداد إلا تأثير زرياب. لقد غيرت المدينة والبلاط الملابس والأثاث والمطبخ وكان الحكم هو زرياب وظل اسم هذا الأنيق الشرقي يتردد دائماً كلما ظهرت موضة جديدة في صالونات شبه الجزيرة.

العلماء في بلاد عبد الرحمن الثاني؛ الدسائس في نهاية حكمه :

كان عبد الرحمن الثاني شديد العناية والميل للعلوم الدينية والدنيوية مثل ولعه بالموسيقى وبقاى وسائل الترويح عن النفس. وقد كان يعتنى بدراسة التراث الإسلامى والشعر العربى القديم قبل مجيئه إلى كرسى الحكم وظل محتفظاً بهذا الميل بعده. وطبقاً لتعليماته جرى نشاط كبير من أجل دراسة الحديث سيرا على مذهب الإمام مالك. كان هذا الأمير أوسع أمراء بنى أمية الأندلسيين ثقافة باستثناء أحد خلفائه وهو الحكم الثانى. وامتد اهتمامه إلى المؤلفات الطبية والفلسفية والعلوم الغيبية أو بمعنى آخر التنبؤ بالمستقبل وتفسير الأحلام. وأثناء حياة والده أرسل بيعته إلى العراق لتتولى جلب الكتب له فى التخصصات التى كانت تهمه. فأثناء النصف الثانى من القرن السابق استطاع أحد العلماء من السند أن يدخل فى بغداد منهجية علم الفلك فى الهند وأملى على تلاميذه «قانون» دراسة النجوم. كما كانت هناك مؤلفات أخرى مثل Zich y el Sindhind التى أذاعت فى العراق نتائج الأبحاث الهندية فى علم الفلك^(٩١). لكن هذه الكتب لم تصل بعد إلى أسبانيا فأتى بها الأفراد الذين أرسلهم عبد الرحمن الثانى وأخذت الأوساط الثقافية القرطبية فى دراستها ونشرها فيما بينها.

وعندما تولى ابنه الحكم الأول مقاليد السلطة أحاط نفسه بكوكبة ممتازة من الأدباء والشعراء والفلاسفة الذين كانوا فى الوقت نفسه من علماء الفلك، ونذكر من

بينهم عبد الله بن السمير صديق الطفولة للأمير والذي كان ذا موهبة حقيقية فى قرض الشعر. وهناك المولى الأموى إبراهيم بن سليمان الشامى، الذى تعرف فى الشرق على أبى نواس وأبى العتاهية الشهير بقصائده فى الزهد والذى هو صاحب بيت الشعر العربى الذى يقارن فيه الحياة الدنيا ببيت العنكبوت. هناك أيضا عالم النحو عثمان بن المطعنه الذى كان يوزع ساعات يومه بين الرباط فى الثغور وبين دراسة الفلسفة العربية ثم انتقل إلى قصر الإمارة ليكون معلما للأمراء نذكر كذلك عالم العروض سعيد بن فرج الرجاج الذى كان يحفظ عن ظهر قلب أربعة آلاف قصيده وكان تلميذا لأشهر علماء النحو فى الكوفة والبصرة. وهناك شقيقه محمد الذى وضع مقاسا محددا للذراع الأندلسى الذى حمل اسمه «الذراع الرجاجى» والذى حفر منه نموذجا فى أحد ممرات المسجد الكبير فى قرطبة^(٩٢). نذكر أيضا شاعر البلاط عبد الله بن بكر الملقب «بالنادل» بالاضافة الى كثير من الشخصيات الأخرى. لكن لم تحظ شهرة وقدرة أى من هؤلاء السابقين فى بلاط عبد الرحمن الثانى بنفس الدرجة التى كان عليها كل من عباس بن فرناس ويحيى الغزال.

كان عباس بن فرناس من أصل بربرى وكانت أسرته تعيش فى منطقة تاكرونا Takoronna رُندة، لم تعرف سعة خياله وقدرته على الابتكار حدودا. كانت له مهارات جسدية لا تقارن فبرز فى أعمال الشعوذة الأكثر تعقيدا ولم تخف عليه أى من تفاصيل العلوم الخفية. كان يعرف حل الألغاز الصعبة. فعندما جلب أحد التجار إلى أسبانيا كتاب العروض العربى للخليل بن أحمد لم يكن أحد يفهم شيئا من قواعد العروض أو التفاعلات المختلفة. إلا أن عباس بن فرناس أرسل فى طلب المخطوطة الموضوعة جانبا فى القصر وتصفحها وفهم ما فيها وقام بشرحها لجمهور فاغرفاه من الاعجاب واعتمد على أدوات وعدد اخترعها هو. اكتشف طريقة تصنيع الزجاج وبنى نموذجا مقبيا تمثيلا لشكل السماء ويشكل يجعله غائما أو منقش الغيوم وأضاف إلى نموذجه أيضا البرق وصوت الرعد. لكن محاولته الأكثر براعة وذكاء تمثلت فى محاولة الطيران وجعلته أقدم رائد فى هذا الميدان والتى كانت على وشك أن تكلفه ثمنا غاليا فبعد أن ارتدى كيسا ربط به أجنحة جعل طولها يناسب طول قامته وجعل فى هذين الجناحين ريشا مصنوعا من القماش الحريرى صعد إلى ربوة مرتفعة فى الرصافة وقد تجمع الفلاحون من حول الربوة، ثم ألقى بنفسه من هذا المرتفع ثم طار للحظات وسقط بعد ذلك على الأرض دون أن تحدث به إصابات بالغة، وكان سقوطه فى نقطة قريبة من نقطة الانطلاق^(٩٣).

أما العالم الثانى فهو يحيى بن الحكم البكرى العربى الذى ولد فى جيان Jaen والذى لقب بالغزال وهو شاب «من الغزالة» وذلك نظرا لوسامته ونحافته. وعندما تولى عبد الرحمن الثانى الحكم كان الغزال قد تجاوز الخمسين من العمر لكنه ظل يعيش حتى كاد يصل إلى مائة عام ثم توفى فى عهد خليفة عبد الرحمن الثانى (٨٦٤م- ٢٥٠هـ) فكما أشرنا سلفا تولى الغزال مع سفير آخر مهمة السفارة التى بعث بها عبد الرحمن الثانى إلى القسطنطينية عام ٨٤٠م (٢٢٥هـ) لتحمل ردّ الأمير الأندلسى على الأمبراطور (تيوفيل). وقد استطاع الغزال أن يحوز اهتمام عاصمة بيزنطة لبضعة أسابيع^(٩٤). كان الغزال شاعرا من أصحاب الكلمة الحادة ويخشى الجميع سلاطة شعره الذى لا يرحم والمكتوب بلغة واضحة ليس فيها أى تنميق بلاغى وبالتالي يفهمه الجميع. كان مشهورا برودده البلغية رغم أنها قد تتجاوز حدود الذوق، فلأنه كان يتسم بالبخل فقد طلب من الأمبراطورة تيودورا حلياً من أجل بناته اللاتى حصل لهن كذلك على راتب قبل أن يغادر قرطبة. وربما لم ينبج من سلاطة لسانه أحد إلا الأمير كما أن كلماته وعباراته اللاذعة لم ترحم حتى الفقهاء وخاصة يحيى بن يحيى رئيسه الذى كان يخشى جانبه ويهاب من هياجه.

أى مكانة كانت لهؤلاء الفقهاء وعميدهم المؤثر ضمن حاشية عبد الرحمن الثانى؟ يبالغ دوزى بعض الشئ عندما يقول بأن الأمير الأموى الرابع قد سار طوال حياته على ما رسمه له الفقيه يحيى من خطوات. وعلى إيقاع الموسيقى زرياب وعلى خطوات امرأة هى طروب، وأحد الخصيان وهو نصر. وقراءة ابن حيان لا تعطى انطبعا مثل هذا لكن نتأكد من خلالها أن الفقيه القرطبى - الذى زاد من التوتر مما أسفر عن وقوع التمرد فى الربض على عهد الحكم الأول - ظل محتفظا بتأثيره على عبد الرحمن الثانى طول مدة حكمه^(٩٥). وبفضل الحماية التى كان يحظى بها فى البلاط أمكن له السيطرة على عالم فقهاء العاصمة وكذا فقهاء كبريات المدن الأندلسية. فلم يعين أى قاض إلا برضاه هو وعندما يتولى القضاة مناصبهم يخضعون لتفتيش يومى الأمر الذى يفسر لنا تعاقب أحد عشر قاضيا على هذا المنصب طوال فترة حكم عبد الرحمن الثانى. وعندما تحين اللحظة المناسبة لم يكن يحيى بن يحيى يخشى أن يحض الأمير على الالتزام المطلق بفروض الدين ويجبره على الامتناع الكامل عن أى شئ من المفطرات خلال شهر رمضان. وفى كثير من الأحيان ينقض على الشعراء - علماء الفلك الذين كانوا يعيشون فى ظل الأمير ورغم ذلك كان يضيع وقته معهم حتى أنه لم يتمكن من مواجهة العبارات اللاذعة التى أطلقها الشاعر الغزال والتى تداولها الناس: «لماذا لا نجد إلا فقهاء أغنياء؟* طيب أن أعرف كيف اغتتوا» ومهما حاول يحيى بن يحيى من وضع

قواعد صارمة ضد رجال البلاط الذين يتحدثون بحلو اللسان ويتناقشون في أمور بعيدة عن العلوم الإسلامية فلن يقلح في إقناع عبد الرحمن الثاني. وعندما توفي ٨٤٩م (٢٣٤هـ) أمكن للمؤرخين الذين سجلوا وقائع الوفاة أن يروا بأعينهم كيف أن هذا الفقيه الغيور قد «وضع كل القضية تحت رحمة سهامه المسممة»^(٩٦).

ابن القوطية^(٩٧) هو المؤرخ القرطبي الوحيد الذي أورد بعض تفاصيل الدسائس التي وقعت في البلاط قبل انتهاء ولاية عبد الرحمن الثاني بقليل والتي تزعمتها «أم الولد» طروب والخصى نصر رئيس قطاع الفنانين. لم يكن الأمير قد عين بعد واحدا من أبنائه العديدين ليخلفه بعد وفاته وارثا بذلك خطأ التردد في اتخاذ القرار مثلما فعله الحكم الأول. كان الأمير الحاكم يميل إلى أن يتولى ابنه محمد الحكم من بعده وهو الذي خلفه بالفعل. لكن إذا لم يكن عبد الرحمن الثاني قد اتخذ القرار بالبيعة بالشكل الملائم فقد كان ذلك لوازع فيه رحمة وطيبة. فالمحظية طروب قد أظهرت مهارة كبيرة في الحفاظ على سيطرتها على الحكم وأرادت أن يقع الاختيار على ابنها الأمير عبد الله. ولما يتست من إمكانية تعيينه خليفة بشكل رسمي عملت بالنصيحة - وبتأمر مع نصر - القائلة باستخدام الوسائل غير الاعتيادية مثل دس السم لمن سيقع عليه الاختيار ليكون وريثا للحكم، وكذلك دس السم للأب للحيلولة دون أن ينزل بها عقابه. وفي هذه الفترة كان قد وصل إلى قرطبة طبيب من المشرق كان اسمه على اسم المدينة التي ولد فيها. إنه حران، وهي مدينة في بلاد ما بين النهرين. فطلب منه نصر أن يعد مشروبا ساما فلم يجرؤ الحراني على الرفض لكنه حذر من ذلك إحدى «أمهات الولد» في القصر ألا وهي فجر - التي ذكرناها سابقا - وهذه قامت بإبلاغ الأمير. وعندما قدم نصر مشروبا كربه الطعم لعبد الرحمن الثاني قائلا له بأنه دواء سيشفيه من علته فما كان رد الأمير عليه إلا بأن طلب أن يشرب هو. ولم يجد نصر مناصا إلا تناول الشراب ثم جرى مسرعا نحو الحراني يطلب منه الترياق لكنه لم يكن ناجحا فمات نصر. حدث كل ذلك في شتاء عام ٨٥٠م (٢٣٦هـ). وقام أنصار كل من إيولوخيو وألبارو **Eulogie y Alvaro** بالربط بين النهاية المأساوية لنصر واللعنات التي صبها عليه رجل الدين برفكتو **Perfecto** قبل مقتله. أما بالنسبة لطروب فيبدو أنها لم تتعرض لعقوبة من أي نوع من الأمير.

وبعد ذلك بأقل من عامين وبالتحديد في ليلة يوم ٢٢ سبتمبر عام ٨٥٢م (٣ ربيع الثاني ٢٣٨هـ) مات عبد الرحمن الثاني فجأة عن عمر يناهز الستين عاما. فهل كان ضحية مؤامرة أخرى؟ تصمت كتب التاريخ عند طرح هذا السؤال. إلا أننا إذا ما

أخذنا رواية ابن القوطية في الاعتبار^(٩٨)، الذي يروي تلك الأحداث، فعندما عرف في القصر نبأ وفاة الأمير فعلت طروب «أم الولد» المستحيل ليتم تنصيب ابنها عبد الله واعتمدت في هذا على عون اثنين من الخصيان كانا شديدا الارتباط بها وهما سعدون وقاسم. إنه عمل ليس وراءه جدوى: خشي فتية آخرون من سوء معاملة القرطبيين لهم إذا ما أرادوا أن يعترضوا على الأمير الجديد. في تلك الليلة ذهبوا للبحث عن الأمير محمد وذهبوا به إلى القصر. وفي اليوم التالي علمت قرطبة نبأ وفاة عبد الرحمن الثاني^(٩٩) وأن ابنه محمد هو خليفته.

وهكذا انتهت إمارة عبد الرحمن الثاني وكانت، في كلمة موجزة، مليئة بالفخار. فعلى مدى ثلاثين عاما قضتها إسبانيا الإسلامية في تبعية شبه كاملة للحكومة المركزية ازدهرت أثناءها وتمتعت بفترة طويلة من السلام النسبي أفادت منه كثيرا الإضفاء المزيد من البعد الحضاري والأنساني باتصالها بالحضارة العباسية وبدأت بذلك تتبوأ مكانة رفيعة في تلك الفترة المتقدمة من العصور الوسطى، بين دول العالم الإسلامي. واحتفظت بهذه المكانة حتى نهاية «حرب الاسترداد» Reconquista.

هوامش الفصل الثالث :

(١) المصادر العربية: تم الاعتماد في الأساس على الجزء المطول من «المقتبس» لابن حيان والذي لم ينشر حتى الآن (فاس) من ص ١٠٢ حتى ٢٠٢ ومن خلاله حصلنا على الكثير من التفاصيل عن حكم عبد الرحمن الثاني وكذا سرد تفصيلي للأحداث عاما بعام حتى ٢٨٢ هـ وهو التاريخ الذي ينتهي عنده هذا الجزء من المخطوطة. كما اعتمدنا، ولكن بشكل ثانوي على «أخبار مجموعة» من ص ١٢٥ - ١٤١ - وفي الترجمة الأسبانية من ١٢٠ - ١٢٤. ابن القوطية «إفتتاح». ص ٥٢ - ٧٠ من النص الأصلي (ص ٤٦ - ٥٦ من الترجمة الأسبانية (FAGNAN, Extraits inédita 215- 205) من ١٢٠ - ١٢٤ ابن الأثير «الحواليات» من ١٩٥ - ٢٢٠ (Passim) النويري - تاريخ أسبانيا ص ١٩٤ - ٢٠٥ - (ص ١٥ - ٢٢ من الترجمة الأسبانية) - ابن الأبار «الحلة» ص ٦١ - ٦٤ - ابن الخطيب «أعمال» ص ١٩ - ٢٢ - ابن خلدون «العبر» ص ١٢٧ - ١٣٠ - المقرئ «نفح الطيب» Analecto ص ٢٢ - ٢٢٦ مصادر أخرى : دوزي تاريخ أسبانيا الإسلامية - الجزء الأول ص ٢٠٨ - ٢٤٦ - و Simonet تاريخ المستعربين ص ٢١٠ والتاليه - . و BARRAU- Dihigo في كتابه Royaume ص ١٦٤ - ١٦٩ .

(٢) كان والده الحكم يشغل منصب حاكم هذه المدينة في ذلك الوقت. أما والدته «حلوة» فقد كانت من أصل متواضع.

(٣) وطبقا لكتاب السير فإن عبد الرحمن الثاني - إعتبارا من ذلك اليوم - إعتاد على أن تطرف عينه كثيرا واستمر ذلك حتى نهاية حياته.

(٤) وبالنسبة لهذه الشخصية Cf. supra pág 108 .

(٥) لم يتم تحديد المكان - سوف يذكر اسمه مرة أخرى عند التعرض للمرحلة الأولى للحملة التي سببها عبد الرحمن الثالث عان ٩٢٤م (٢١٢هـ) ضد أقاليم تودمير وبلنسية (إبن عذارى «البيان الجزء الثاني - ص ١٩٦ - و ص ٢٠٧ من الترجمة) ويمكن أن نخمن هذا الموقع شرق قرطبة وغالبا ما سيكون مطلا على نهر الوادي الكبير.

(٦) فيما يتعلق بالإشارة إلى أن تلك البلدة هي نفسها البلدة المهجورة اليوم في محافظة تودمير وربما هي بلدة N.2.. حاليا - أنظر ليفي بروفنسال «شبه الجزيرة الأيبيرية» ص ٧٩ Ojós

(٧) انظر ليفي بروفنسال «شبه الجزيرة الأيبيرية» ص ٢١٨ - ٢١٩ .

(٨) إسم الاحتلال الإسلامي لجزر البليار - والذي ينسب أحيانا، رغم عدم وجود ما يؤكد ذلك، إلى عبد العزيز بن موسى بن نصير - بأنه هُشَّ طول القرن التاسع الميلادي - وفي نهاية القرن الثامن الميلادي، عام ٧٩٨، Los Annales Regni Francorum طبعة Kurze ص ١٠٥ نجد فيها الإشارة إلى غارات قرصته أندلسية على جزيرتي مايوركا ومينوركا

Insulae Baleares, quae nunc ab incolis earum Maiorica et Minorica vocitantur Mauris piraticam exercentibus depraedatae sunt.

وفي الفترة نفسها يشير Eginardo من جانب أن شارلمان اتخذ مواقع محصنة لمقاومة غارات القرصنة الأندلسية وكانت هذه المواقع توجد على شواطئ Narbonense و de la septimania وكذلك على الشواطئ الإيطالية حتى روما. (Cf. EGINARDO. Vita Karoli, ed y trad. Halphen, página) ولم يغز الإسلام هذه الأراضي إلا عام ٩٠٣م (supra, pág III y n. 89 del cap II y n. 3 ; 53) (٢٩٠هـ) أثناء حكم الأمير عبد الله وعندئذ أطلق على ميورقة عبارة كورة المملكة القرطبية (Cf. infra pags. 250 - 1).

(٩) فيما يتعلق بإقليم Santaver أنظر Cf., supra, pag 74 y n. 17 del cap. II.

(١٠) نفس المصدر السابق ١١٢ - ١١٤.

(١١) Barrau- Dihigo, Rayaume asturién ص ١٦٤ - ١٦٥ - وقد رأى إتشاغراي أن تلك القرية هي نفسها Guremnic في مقال له بعنوان هل وصل العرب إلى Guremnic ؟ En Revue Intern, des etudes basques, t IV 1910 pag 44- 5 garganta إلا أن أخبار ابن حيان تعطى للاسم «Chulbín» لفظا مختلفا هو «de charniq» كبير.

(١٢) Barrau Dihigo نفس المصدر السابق ص ١٦٦ ورقم ٢ يجدر تفسير تنويه «البيان» ليس على شاكلة فاجنان Fagnan (نقذ من خلال باب الغرب) بل على هذا النحو [نقذ إلى هذه المقاطعة عبر شعب من ناحية الغرب].

(١٣) نفس المصدر ص ١٦٦ عدد ٢.

(١٤) فيما يتعلق بالاستيلاء على ليون عام ٨٤٦م انظر بوزي في Rech3 ص ١٤٠ - ١٤١.

(١٥) بالنسبة ماردة Mérida خلال العصر الإسلامي والأساطير المتعلقة بجذورها التاريخية انظر ليقي بروفنسال في الموسوعة الإسلامية الجزء الثالث ص ٥٢٧ - وكذا مؤلفه شبه الجزيرة الأيبيرية ص ٢١٠ - ٢١٣.

(١٦) - Cf. Supra pag 15- 16.

(١٧) - Cf infra pag 151- 2.

(١٨) انظر ليقي بروفنسال "Inscription arabes d' Espagne" الأعداد ٢٩، ٤٠ ص ٥٠ - ٥٢، وبالنسبة لقلعة ماردة Mérida.

(١٩) بروفنسال «شبه الجزيرة الأيبيرية ص ٢١٣.

(٢٠) ولعرفة سيرة محمود بن عبد الجبار فقد سرنا على التفاصيل التي أوردها ابن حيان عن أحمد الرازي لكن كان الاعتماد الأكبر على حوالات ابن الأثير ص ٢٠٥. انظر أيضا بوزي في مقاله «محمود الماردي» في Rech 3 ص ١٢٩ - ١٤٠ حيث اعتمد في هذا البحث على المصادر المسيحية (Sebastian y Crónica Albeldense) التي تتحدث عن هذا اليريري المتمرد.

(٢١) ابن الأثير - الحوالات ص ٢٠٠ حيث يشير إلى حملة أموية تم تسييرها ضد الفرنجة وكان يقودها القائد عبيد الله خلال شهري يونيو ويوليو عام ٨٢٥ (ربيع الأول عام ٢١٠هـ) وحقيقة الأمر ببساطة هو الخط بعام ٨٢٧م (ص ٢٠٣ - ٢٠٤) وفي الحقيقة فكما رأينا كان عبيد الله، في بداية عام ٨٢٥، مشغولا بقيادة حملة ضد أراضي ألبية Alava.

(٢٢) بالنسبة لتمرّد القوطى أيزون Aizon أنظر 6-91 pag Auzias, Aquitaine Carolingienne وكذا المصادر المشار إليها. وقد قام Codera بدراسة هذا التمرد El godo O moro Aizón, en Est crit. hist, ar, esp. 201-24. ويرى العلامة الأسباني أن هذه الشخصية يمكن أن تكون عيشون (cf. supra, pag y 83 n. 34 del cap. II) أحد أبناء سليمان بن العربي الحليف القديم لشارلمان وكان الدور الذي لعبه عام ٨٢٦م اختراع كامل من قبل المصادر الأفرنجية. وفي الوقت نفسه نلاحظ أن المؤرخين المحدثين لاقليم قطلونيا لا يكادون يقبلون بنظرية العلامة الأسباني هذه.

(٢٣) لسنا ندري مدى الصدق فيما أورده ابن الأثير في حواريته ص ٨١١ (والتي لم ترد في أخبار ابن حيان) والتي تقول بأنه في عام ٨٢٩م (٢٢٤هـ) قام Ludovico (لوندريق في المصادر العربية) ربما قام بقيادة جيش حتى مدينة سالم ولم تتم مقاومته مقاومة فعلية إلا بتدخل حاسم من قبل فرتون بن موسى.

(٢٤) فيما يتعلق بهذه الحملات التي توردها لنا فقط أخبار ابن حيان نلاحظ أن المؤرخين المحدثين للتغري الأسباني لا يذكرون شيئاً وخاصة Soldevila في مؤلفه تاريخ قطلونية، وكذا Auzias في Aquitaine. ويبدو أن تنظيم الحملة الأخيرة أظهر أن الهدنة المعقودة بين عبد الرحمن الثاني carolingienne وكارلوس الكالو C. Calvo عام ٨٤٧م كانت قصيرة للغاية. ولا يبدو أنه قد تمت الإشارة إليها إلا من خلال حواريات بعنوان :

- m (annales Bertiniani. ed. g. W arrz en scriptores rerum germanicarum in usum scholarum Hannover Leipzig 1883 pag 34, ad. ann. 817): "Legati Adbirhaman regis saracenorum a Corduba Hispaniac ad Karolun pacis petendae foederisque firmandi gratia veniunt. Auzias. op. cit. p. 243 y n 96 y ademas p. 260. n. 39. proposito de una ayuda que segun Eulogio, habría prometido Abd Al Rahman II a Guillén de Tolosa, rebelado contra Carlus el Calvo. Indudablemente a esta embajada cordobosa de 847 hace alusión el cronista hispanomusulmán, texto pag 71; Iraul esp., pag 57; FACNAN, Ertaitis inédits, pag 216) cuando, dice que éste fué enviado en embajada por el emir Abd al Rahman II, a Carlos, rey de Francia() y al rey de los bizantinos (Rum).

(٢٥) Cf. supra ص ١٢٢.

(٢٦) انظر Barru- Dihigo, :Les premiers rois de Navarre: note critiques, en Revu T. XV Hisp. T. XV 1916- pag 614- 44 وطبقاً لرواية وردت فقط في "Vita Hludowici del Astro- nomo Cf. Florez, España sagrada x pag 574) قام اثنان من الفرنجة ممن يحملون لقب (Eblo و Aznar بشن غارات ضد بنبلونة عام ٨٢٤م. فاستغاثت المدينة بالمسلمين والذين كونت وهما Eblo و Aznar من بني فاس من تطيلة. وهزم الفرنجة إذ أسر Eblo وأرسل به إلى الأمير عبد الرحمن الثاني في قرطبة. وقد قام المؤرخ Codera بمناقشة تلك الملاحظات التي تتسم أحياناً بالخيال الجامح بإسهاب في مؤلفه حمله Elboy Aznar على بنبلونة.

- "Ecpedición a Pamplona de los condes Francos Eblo y Aznar, en Est. crit hist ár. esp. (VII), páfs. 185- 99. Véase también AUZIAS, Aquitaine Carolingienne página 166"

(٢٧) Cf supra ص ١٠١.

(٢٨) Cf supra ص ١٠١ ورقم ٧٧ من الفصل الثاني.

(٢٩) Cf supra ص ١٩٢.

(٣٠) هذا المسمى العربى الذى يعنى «صخرة قيس» (هذه اللفظة كثيراً ما تردد فى المصادر العربية مشيرة إلى مرتفع من الأرض يتحول إلى حصن فى أعلى جزء منه) ربما يشير إلى Huarto Araquil الحالية (فهذه اللفظة الأخيرة يمكن أن تكون اشتقاقاً صوتياً طرأ عليه بعض التغيير من مفرد صخرة) نظراً لموقعها المحدد على نهر Arga الواقع شمال غرب بمبلونة. كما لا نقبل بأن تكون صخرة قيس هى Aza- والواقعة فى Calahorra حالياً وهى بلدة تقع على الشاطئ الأيسر لنهر إبرة فى مواجهة قلعة gra أقصى جنوب عاصمة ناباراً.

- (CODERA Est clir. hist ár. Esp (VIII), página 171, n, a) Más adelante (capítulo V, II) veremos cómo Qays había de ser alcanzada y saqueada, en 924 (312). por Abd al Rahman III, al final de su célebre campaña llamada "de Pamplona".

(٣١) Cf infra ص ١٥٠.

(٣٢) النورمانديون فى أسبانيا - فى 3 Rech الجزء الثانى ٢٥٠-٢٧١ وقد استخدم المؤرخ الدانماركى . ويمكن أن نجد بييليو غرافيا خاصة Normanneme. مؤلف دوزى هذا فى مؤلفه Steenstrup بالهجرات الأسكندينية إلى جنوب أوروبا فى F. LCT, Les invas barbars, pag 124, Sobre el desembarco de 844 citaremos, sólo como curiosidad, la pequeña contribución de A. KRISTOFFER FABRICIUS, La première invasion des Normands dans L' Espagne musulmane en 844, Lisboa, 1892- En la Enc. Lst., III páfs, 105- 6, se encontrará visión de conjunto de lévi Provençal sobre las correrías de los normandos por el occidente musulmán en los siglos IX y X.

(٣٣) فيما يتعلق بتسمية المجوس هذه وخاصة إطلاق اللفظة على Zoroastras أنظر مقال Buchner, V.F. en la Enc, Isl. III pags 101- 105.

(٣٤) ذلك أن الجزر غير ملحوظ (4- 263, 222 pag Ibn Abdun Le traite d' Lévi Provençal). (Cf.

(٣٥) بالنسبة لاسم المكان الذى ورد عند ابن حيان "Tablata" أنظر دوزى 3 Rech الجزء الأول ص ٢١٠-٣١١.

(٣٦) طبقاً للمقرئ فى الحوليات - الجزء الأول ص ٢٢٢ فإن النورمانيين أبحروا فى نهر وادى أنه من المصب حتى مدينة Beja باجة الواقعة حالياً فى محافظة Alemtejo ثم نزلوا هناك لسلب ونهب تلك المدينة.

(٣٧) انظر ليفى بروفنسال «الحضارة العربية فى أسبانيا ١١٣.

(٣٨) فيما يتعلق بالرباط الذى سنعود لمعالجته أكثر من مرة انظر ليفى بروفنسال.

- (٢٩) انظر على سبيل المثال: ليفي بروفنسال «شبه الجزيرة الأيبيرية» ص ١٩١.
- (٤٠) بالنسبة للسفارة المزمعة التي سيرها عبد الرحمن الثاني إلى ملك النورمانديين بعد الإنزال البحري لعام ٨٤٤م أنظر *Infra* ص ١٦٣.
- (٤١) ليفي بروفنسال: إسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر الميلادي ص ٢٣ - ٢٤. وبالنسبة لروح التسامح في الإسلام خلال القرون الأولى انظر: *infra* pág 163.
- (٤٢) فيما يتعلق بهذه المطالب الضريبية يتوفر لدينا أيضا شاهدين معاصرين :
- LEOVICILDO, De habitu clericorum. (en FLOREZ España Sagrada, XI. P. 523):
"inquisitio vel census, vel veetigal, quod omni unari mense pro Christi nomine solvere cogimur" ELOGIO. Memoriale ducción esp. do S.. vila, pág. 66, n. 5.
- (٤٣) النص في Florez, España sagrada X111 pag 416- 7- cf. tambien simonet. historia de los Mozárabes pag 313- 4.
- (٤٤) بالنسبة لتولى الحكم الأول، في المصادر الأفرنجية وكنيته «أبو العاصي» انظر *supra* ملاحظة رقم ١٠٧ - الفصل الثاني *in fine*.
- (٤٥) نفس المصدر ص ١٢١.
- (٤٦) بالنسبة لهذه المسألة نحيل القارئ إلى مقال لـ L. Massignon - الموسوعة الإسلامية الجزء الرابع - ص ١٢٩٨ - ١٢٩٩. وبالنسبة لحالات أخرى من الزندقة والحكم القضائي فيها نجد المزيد من التفاصيل لدى القاضي القرطبي ابن سهل - كتاب الأحكام الكبرى - ومنها قضية زندقة حبي بن زكريا الخشاب ابن أخت عجب - والتي رواها أيضا ابن حيان - وأوردها الخشني في «تاريخ قضاة قرطبة» - وفي العام نفسه تم إتهام شقيق أحد القضاة (وهو القاضي الشهير عبد المالك بن حبيب) والذي يدعى مروان، وقد تم إطلاق سراحه - أنظر أيضا Asin Palacios ابن مسرة ومدرسته ص ١٩ العدد ٧، ٨.
- (٤٧) ابن سهل «كتاب الأحكام الكبرى» ص ٢٠١ - (الجزائر) ص ٢٤٣ - الرباط - انظر أيضا القاضي أحمد بن زياد اللخمي المتوفى عام ٩٢٤م (٣١٢هـ) الذي نعرف عنه الكثير انظر على سبيل الخصوص ابن الخشني - النص ص ١٧٤ - ١٨٢ و ١٩٠ - وابن الفرضي «تاريخ عدد ٨١» كما أن باقي الموقعين على هذا الحكم الفقهي هم: عبيدالله بن يحيى بن يحيى الليثي المتوفى عام ٩١١م (٢٩٨هـ) ومحمد بن عمر بن اللبابة المتوفى عام ٩٢٦م (٣١٤هـ) وسعد بن معاذ بن عثمان المتوفى عام ٩٢٠م (٣٠٨هـ) ومحمد بن وليد بن محمد المتوفى عام ٩١٠م (٢٩٧هـ). وقد خصص بن الفرضي نبذة عن حياة كل واحد من هؤلاء الفقهاء «تاريخ» - عدد ٧٦٢، ١١٨٧، ٥٣٥، ١١٧٨ و ٦١.
- (٤٨) نشر Ambrosio de Morales أعمال Eulogio عام ١٥٧٤م في Alcalá de H. وفي عام ١٦٠٣ - ١٦٠٨ نشرت في فرانكفورت الجزء الرابع من :
- Hispaniae illustratae scriptores uarii, de A. Schot: las de Alvaro en los tomos X y XI de la España Sagrada. de Flórez y en la patrologia latina de MIGNE, t. CXXI, Paris, 1852. Los sucesos de que vamos a dar un resumen han sido ex-

puestos con todo detalle por DOZY Hist Mus Esp. I, pags 317. 46, y por SIMONET, hist de los Mozárabes págs, 357- 486- W. W. BAUDISSIN ha dedicado a Eulogio y Alvaro una monografía: Eulogius und Alvar: ein Abschnitt spanisch. Kirchengeschichte aus der Zeit der Maurenherrschaft, Leipzig 1872 Un trabajo mas reciente sobre Eulogio es el de J. EREZ DE URBEL, San Eulogio de Cordoba Madrid, 1928.

(٤٩) بالنسبة للثقافة العربية لأهل الذمة في قرطبة خلال القرن التاسع انظر - بالإضافة إلى دوزي وسيمونيت - «أصول اللغة الأسبانية» ص ٤٣٦ - ٤٣٨ Menendez Pidal.

(٥٠) وليس عام ٨٥١م كما ظن دوزي، قبل استشهاد فلورا وماريا. وقد حدد Florez هذا التاريخ بعام ٨٥٢ في كتابه أسبانيا المقدسة - الجزء العاشر ص ٤٢١.

(٥١) انظر Baudouin De Caiffier, Les notices Hispaniques dans le mateyrologe d' usard en las Analecta Bollandiana t. LV Fas 304 193 pag 268 ثم إرسال هذين الراهبين Hilduino إلى أسبانيا في بداية عام ٨٥٨م وقد بحث بهم (usuardo, Odilardo) بغية استعادة رفات القديس بيثنتي السرقسطي. وبينما هما في Saint Germaindes- prés الطريق عند برشلونة جاعتهم الأخبار بأن رفات ذلك القديس ليس في بلنسية وأن من المستحيل العثور على أي أثر له، غير أنهما يمكن أن يحملوا إلى فرنسا رفات بعض شهداء أهل الذمة الذي تم حكم الأعدام ضدهم في قرطبة منذ أعوام قليلة مضت. وعلى ذلك توجه الراهبان إلى العاصمة الأموية وأقاما هناك مدة تصل إلى شهرين وبعد لأي استطاعا أن يحملوا إلى فرنسا رفات ثلاثة من هؤلاء الشهداء - الذين نفذ فيهم حكم الأعدام في ٢٧ يوليو عام ٨٥٢ وأخذوا طريق العودة Natalia Aurelio, Jorge عبر طليطلة وقلعة هنارس وسرقسطة وبرشلونة فوجدوا رهبان الدير الذي همامته لاجئين في Esmans في جزيرة فرنسا ذلك أن باريس كانت تحت سيطرة النورمانديين. وبعد ذلك بضع سنوات تلقى Usardo تكليفاً من Carlos el calvo بإعداد فهرس للشهداء والقديسين حيث قام بتسجيل بعض البيانات عن ضحايا ما يشبه اضطهاد المسيحيين في قرطبة.

(٥٢) لازال المصدر الرئيسي متمثلاً في «المقتبس» لابن حيان وقد رجع مؤلف هذا الكتاب إليها في محاضراته عن «الحضارة العربية في أسبانيا». وبالنسبة للمراجع الأخرى الفرعية فقد تمت الإشارة إليها Supra ص ١٧٦ ملاحظة (١) من هذا الفصل.

(٥٣) بالنسبة للأغلبية انظر الأطار العام لـ :

- G. MARCAIS en la Hist Moyen Age, de GLOTZ, III pags. 412, y, para más detalles la monografía de M, VONDERHEYDEN Lo Berberie las relaciones entre la Ifriqiya aglabi y la España omeya.

(٥٤) حول غزو صقلية انظر :

- G. MARÇAIS, op. cit., págs. 415- 6, y T. CROUTHER GORDON en Enc. Isl. IV, págs. 414- 6 para más detalles, AMARI, Storia der Musulmani di Sicilia, 2 ed catania 1931, II, pags. 367 sigs.

(٥٥) حول «الرستميين» أنظر :

- G. MARCAIS, op. cit., págs. 415-21; el mismo en la Enc. Isl., III. paginas 1270-1, y IV, pags 6401; E. F. GAUTIER, Siècles obscurs pags 293 sigs.

(٥٦) المادة الرئيسية الخاصة بأصول القائد. محمد بن سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن رستم هي عبارة عن سيرة قصيرة وردت في «الحلة» لابن الأبار - ص ٩٤ - وطبقا لذلك المؤلف كان والده سعيد هو الذي قدم من أفريقيا للبقاء في أسبانيا - وأصبح محمد الذي كان يعيش في إقليم الجزيرة صنيعة عبد الرحمن الثاني عندما كان هذا الأمير حاكما لولاية شنونة Sidona أثناء حياه والده الحكم الأول، وعندما تم تولية إمارة البلاد رقى محمد بن رستم إلى أعلى الدرجات العسكرية وأراد هذه الأمير أن يكون عند حسن الظن فبذل جهد كبيرا في الكفاح ضد العدوان النوماندي كما كانت له معرفة بالأدب والطب ويجيد لعب الشطرنج. كما تزوج بإحدى بنات زرياب. وفي كتاب البيان حرق الكتبة إسمه فاصبح بن وسيم بدلا من ابن رستم. وفيما يتعلق بالوزير عبد الرحمن بن رستم أنظر ابن القوطية في «افتتاح» ص ٦٢ من النص الأصلي.

(٥٧) بالنسبة للادارسة انظر R. Basset en la Enc. Isl., II, págs 421- 4 -R. Basset en la Enc. Isl., II, págs 478- 80.

(٥٨) المصدر الأصلي بالنسبة للصالحين من أمالي الناقورة هو بكرى Descr. de l' Alr. sep texto pág وبالنسبة لتاريخ هذه الأسرة الصغيرة التي يتحدث ابن عذارى عنها أيضا هناك نصوص وردت 9- 90 عنها باسهاب لدى ابن الخطيب.

(٥٩) بالنسبة للبرغواتة أنظر R. Basset en la Enc. Isl. I. págs 724- 5 y H. Basset Ibid, IV, pág. 117.

(٦٠) المصادر الرئيسية عن المدراريين في سيشلماسا هي بكرى Descr. de' Ale. sept. texto pags E. F. Gautier في و بالنسبة للجزء غير المنشور من «أعمال» لابن الخطيب انظر أيضا 149-51 Sieles obscours, pags 292- 3; G. Marçais. cit. pag 427 y G. Colin en la Enc. IS. IV. pág 419 - 21.

(٦١) Cf. infra ص ١٨٤ - ورقم ٧.

(٦٢) Cf. infra ص ١١٧.

(٦٣) فيما يتعلق بوضع الأمبراطورية البيزنطية خلال النصف الأول من القرن التاسع والسفارات المشار إليها انظر :

- A. A. VASILIEV Byance et les Arabes. I. la dynastic d' Amorium, edición de H. GREHOIRE y M. CANARD, Bruselas, 1935, pags 177- 85.

(٦٤) لمزيد من التفاصيل انظر :

- LEVI PROVENCAL, Un échange d' ambassades entre Cordoue et By anceuu IX' siècle, en Byzantion, XII, 1937, págs 1-24. (Reseña en Al-Andalus, V,

1940, págs, 488 - 90) En este artículo se encontrará el texto árabe y una traducción de la catra de abd al Rahman II al emperador bizantino.

(٦٥) انظر ليفي بروفنسال في *Un échange d'ambassades* ص ١٥ ورقم ٢، بوزي 3 Rech الجزء الثالث ص ٢٦٩.

(٦٦) انظر ليفي بروفنسال في *Un échange d'ambassades* ص ١٦.

(٦٧) انظر ليفي بروفنسال في *Un échange d'ambassades* شبه الجزيرة الأيبيرية ص ٢٥١.

(٦٨) نفس المصدر السابق ص XXX111.

(٦٩) سوف نقوم لاحقا بدراسة للعملة الأسبانية الأموية.

(٧٠) ليفي بروفنسال «أسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر ص ٧٥ ورقم ٢.

(٧١) هناك تعبير مماثل لدى المقرئ «نفخ الطيب» *Analectes* الجزء الأول ص ٢٢٢، «رتابة رسوم المملكة».

(٧٢) نجد لدى المؤرخين (مثل ابن حيان في كتابه البيان الجزء الثاني - النص الأصلي ص ٨٢) بعض الطرف - سواء حقيقية أم زائفة - المتعلقة بالظروف التي أدت إلى اختيار عبد الرحمن الثاني أحد أبيات الشعر لتسجيله في خاتمه.

(٧٣) Cf supra ص ٢١.

(٧٤) فيما يتعلق بقنسطنطين "Reperto de Constantino" انظر ليفي بروفنسال «شبه الجزيرة الأيبيرية ص ٤٢ رقم ٢ و ٢٤٦ - ٩.

(٧٥) Cf supra ص ١٢٢ ورقم ٨.

(٧٦) لم يكن «باب السدة» هو الاسم الذي أطلق على البوابة الرئيسية لقصر قرطبة بل كما يقول ابن حيان كان الاسم الذي يطلق عامة على عموم مقار الأمراء. وهذه الإشارة تساعدنا على استيضاح الكثير من الفقرات الواردة في كتب الأخبار المتعلقة بقصر العاصمة الأموية شبه الجزيرة الأيبيرية ص ٨٨ - ٨٩ ورقم ١.

(٧٨) انظر ليفي بروفنسال في *Inscr. ar. d' Es, m 28 bis, pp. 439 198* انظر أيضا ابن القوطية وابن صاحب الصالة حيث تحدثا عن بناء المسجد الكبير في أشبيلية.

- Al. SALA: cf. M. M. ANTUÑA, *Sevilla sus monumentos árabes*, El Escorial, 1930 págs. 53 y siguientes/ (Véase también L. T (OTTES) B (ALBAS), *La primitiva mezquita mayor de Sevilla*, en *Cronica arqueologica de la España musulmana*, XIX, Al- Andalus, XI, 1956, págs. 425- 439 y sobre todo M. OCNA JIMÉMEZ *La inscripción fundacional de la mezquita de Ibn Adabbas de Sevilla* en *Al- Andalus*, XII. 1974, pags 145- 51)

- Véase E. LAMBERT *L' histoire de la grande mosquée de cordoue aux VIII. et IX siècles d' après des textes inédits* en *Ann. Inst Et Orient de Argel*, II, 1936,

págs 165- 79; L T (ORRES - B (ALBAS) Nuevos datos documentales sobre la construcción de la Mezquita de Córdoba en el reinado de Abd al Rohman II, en Crónica arqueológica de la España musulana, IX Al- Andalus, VI, 1941 páginas 411- 22.

٨٠) هناك ترجمة لهذه العبارة الشهيرة عند "G. Wiet "l'egypte arabe" (تاريخ الأمة المصرية) ص ١٦٧.

٨١) انظر ليفي بروفنسال «الحضارة العربية في أسبانيا ص ٦٨ وما يليها ظل «عقد الشفاء» يحظى بالشهرة في أسبانيا ويتم مراجعة ما ترجمة Fagnan للبيان لابن عذارى ص ١٤٩ (الجزء الثاني حيث ترجمة عقد الشفاء بـ Les aiguillons de scorpions).

٨٢) هناك عبارة واردة عن المقرئ في نفح الطيب I Amalectes ص ٢٢٢ (ليفى بروفنسال: أسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر ص ٤٤ رقم ١) تقول: كان عبد الرحمن الثاني أول من وضع مبدأ الاحتجاب عن العامة. ويرى لنا المقرئ إحدى الطرائف في هذا المقام في كتابه المذكور - الجزء الثاني ص ٢٥ أنه قبل ذلك بوقت طويل وأثناء ولاية عبد الرحمن الأول فقد تلقى هذا الأخير نصائح من حاشيته بعدم الظهور كثيراً أمام العامة أو المشاركة في تشييع المآتم أو الاختلاط بالعامة.

٨٣) خلال نفس الفترة كان الأمير الأغلبى محمد الثاني، والذي سيحكم في أفريقية منذ عام ٨٦٤م وحتى ٨٧٦م، لازال شغوفاً بمثل هذا النوع من القنص والذي بمقتضاه سيطلق عليه أبو الغرانق.

٨٤) أحيانا ما تتم ترجمة هذا المصطلح وكذا المصطلحات الأخرى «غلام» و«خليفة» بشكل فيه تجاوز كبير إلى "paje" بما في ذلك الخصيان الذين عرف عنهم بأنهم بلغوا سن الرشد أو تجاوزه وفيما يتعلق بمعاني هذه المفردات أنظر cf infra الفصل الخامس والسادس.

٨٥) اتسم ابن حزم غالبا بإيراده الدقيق للأخبار وقد أورد لنا شيئا عن أصول «نصر» يثير الفضول [الجمهرة ٢٨ F٥، لنفس المؤلف] يقول بأن الحكم الأول أمر بخصى عدد من الفتية الصغار من أبناء قرطبة الذين يتسمون بالوسامة ليعملوا لخدمة حريمه. وكان من بينهم نصر الذين كان أبنا لأحد المسيحيين من أهالي قرمونة والذي اعتنق الإسلام وكذا شريح وطرفه ابنا لاقط بن منصور إذ كان يعملان كضباط أو موظفين. وقد ظل اسم هؤلاء الخصيان الثلاثة يتردد بعد ذلك بإطلاقها إسمهما على «مسجد الشريح» و«مسجد طرفه» - أنظر ليفي بروفنسال أسبانيا الإسلامية القرن العاشر ص ٢٠٨ عدد ٢ رقم ٣.

٨٦) "Nazar, claviculario pro consule, qui eo tempore totius reipublicae in Hispania ad-ministrationem gerebat" (EULOGIO). Memoriale sanctorum, libro I, editado por SIMONET, Hist los Mozárabes. pág 387, n.1)

٨٧) انظر ليفي بروفنسال «الحضارة العربية في أسبانيا ص ٧٥- ٧٨ ويمكن أن نجد سيرا لجوارى عبد الرحمن الثاني في ابن الأبار التكملة ملحق 6- 2852 Miscelánea nos.

٨٨) تم نشر الفقرات التالية وهي فقرات معاملة لما ورد في كتاب «الحضارة العربية في أسبانيا» ص ٧٩- ٧٤ وبالنسبة لزرياب كمغنى أنظر :

- .H. C. FARMER en la Enc. Isl (Suppl., págs 285- 6 y la bibliografía citada (sobre todo MAQQARI Analectes II, págs, 83- 90 que reproduce largos extractos del

Muqtabis de IBN HAYYAN; cf G. DUGAT. Introducción a las Anateetes. I. págs LXIX- LXXII).

(٨٩) طبقا لخبر ورد في ملحق جمهرة الأنساب لابن حزم (مخطوطة المؤلف) كان لزياب اثنا عشر ابنا وثلاثة بنات تزوجن جميعهن من علية القوم في قرطبة إذ تزوجت عليه من الحاجب محمد بن رستم أما فاطمة - الثانية من بين بناته - فتزوجت من وهب الله بن حزم وتزوجت الثالثة - حمدونة - من القائد الشهير/ هاشم بن عبد العزيز. وقد أورد ابن الأبار سيرة اثنتين من بنات زياب التكملة - ملحق Miscelánea num. 2857 y 2860.

(٩٠) بالنسبة للموسيقى العربية الخاصة بتلك الفترة نوصي بالدراسات الجيدة H. G. FARMER History of Arabian Music, Londres 1929, y studies in O.Musical instru. lonsre, 1931..

(٩١) حول علم الفلك والنجوم في الإسلام خلال القرون الوسطى تشير إلى اثنين من المقالات الهامة في هذا المقام وهي ب 8- 502 pag C. A. NAKKINO en la Enc. Isl.

(٩٢) فيما يتعلق بالترايع الرشاشي Rachchachi الذي ذكره الأديسي في معرض الحديث عن أبعاد المسجد الكبير في قرطبة انظر ليفي بروفنسال «شبه الجزيرة الأيبيرية» ص ٢٦٦. إذ كان طول هذا المقياس ثلاثة أشبار.

(٩٣) انظر ليفي بروفنسال «الحضارة العربية في أسبانيا» ص ٧٦- ٧ A. Gonzalez palencia في الإسلام والغرب ص ٤٨- ٩.

(٩٤) Cf. supra pag 162- 3 ليفي بروفنسال Un echange d' ambassades pag 12- 3.

(٩٥) عن يحيى بن يحيى انظر في المقام الأول : Religión 3 J. lopez or tiz Figuras de juriscon- sultes Hispa y cultura xv1 1931- mo-46- pags 94- 104..

(٩٦) ابن عذارى البيان الجزء الثاني ص ٩١ من النص.

(٩٧) «افتتاح» ص ٧٦- ٧٧ من النص - وانظر ايضاً pag 220 Fagnan "Extraits inedits.

(٩٨) أورد دوزي «تاريخ أسبانيا الإسلامية - الجزء الأول» ص ٢٤٦- ٢٥١ تفاصيل الدسياسة التي حدثت في قصر قرطبة بعد وفاة عبد الرحمن الثاني - وإعتمد في هذا على ابن القوطية (إفتتاح ص ٧٧- ٨٢ من النص).

(٩٩) وردت أنباء وفاة عبد الرحمن الثاني في الحوليات Bertiniani ص ٤٢ عام ٨٥٢م في العبارة التالية :

- "Abdirhaman rex Saracenorum in Hispania consistentium cordubae moritur, regnumque eius filius ipsius adsequitur"

الفصل الرابع

الإمارة الأسبانية الأموية

(٨٥٢ - ٩١٢ م)

عناوين الفصل الرابع:

- ١- النشاط السياسى للأميرين محمد الأول ٨٥٢ - ٨٨٦. والمنذر ٨٨٦م - ٨٨٨م : تفاقم الأزمة الداخلية. - الأمير محمد وكبار رجال بلاطه. - اضطرابات طليطلة. - معركة جواداليتى ٨٥٤. - بداية انشقاق ابن مروان الجليقى فى إقليم ماردة - تمرد الجنوب الأسبانى فى أواخر فترة حكم محمد الأول. - بدايات تمرد ابن حفصون. - فترة حكم المنذر ٨٨٦-٨٨٨ وتطور التمرد الأندلسى.
- ٢- الكفاح على الحدود ضد أوردونيو الأول وألفونسو الثالث حتى وفاة محمد الأول. - إمارة بنى قسى. - نزول القوات النورمانية على السواحل لأول مرة ٨٥٨- ٨٦١. - الحرب ضد مملكة أشتوريش حتى هدنة ٨٧٨. - موسى بن قسى. - الصراع فى بسكونية. - بنو قسى فى الحدود العليا واستئناف أعمال القتال ضد ألفونسو الثالث.
- ٣- جماعات التمرد وتفتت السلطة الملكية تحت حكم الأمير عبد الله ٨٨٨- ٩١٢. - الأمير عبد الله (دعامة) الأسرة الاسبانية- الأموية. - تفتت الوحدة السياسية. - النزاع بين العرب والمولدين فى منطقة البيرة. - اتحاد بحارة بجانة فى أواخر القرن التاسع. - النزاع بين العرب والمولدين فى أشبيلية. - إمارة بن حجاج. - نشاط بن حفصون أثناء حكم الأمير عبد الله. - وضع الثغور فى أواخر القرن التاسع.

١- النشاط السياسى للأميرين محمد الأول ٨٥٢-٨٨٦م، والمنذر ٨٨٦-

٨٨٨م : تفاقم الأزمة الداخلية^(١).

الأمير محمد الأول وكبار رجالات بلاطه :

بدأ الأمير محمد، منذ توليه الامارة فى ٢٣ سبتمبر ٨٥٢م (٤ ربيع الثانى ٢٣٨هـ)^(٢)، حكما استمر مدة تضاهى تلك التى قضاهما والده فى الحكم. وإذا ما استثنينا مناطق الثغور، التى أصبحت درجة الغليان فيها متوطنة، إلى حد ما، فإن إسبانيا الاسلامية قد بدأت تعرف فترات طويلة من الهدوء السياسى، على مدى ثلث القرن الذى تلى موت عبد الرحمن الثانى، وتنعم فى ظل السلام الداخلى، حتى عام ٨٧٥م على الأقل، بثمار سلطة أحكمت قبضتها على مجريات الأمور، وأقرت، فى نفس الوقت، العدل بين الرعية. وقد كان من عادة المؤرخين العرب أن يبرزوا، فى غبطة، بعضا من الملامح التى ينطوى عليها طابع كل أمير، أو يروون عنه نوعا من الطرائف المظهرة لسلوكه؛ وجريا وراء هذه العادة نراهم يركزون على مجموعة من الخلال التى تحلى بها محمد الأول، مثل : نكائه الواعى، وفطنته، وبعد نظره وسخائه ومقته للكذب، ولكنه، على النقيض من هذا، لم يكن يتورع عن سفك دماء سلفه أو يشعر بوخز للضمير. هذا إلى جانب أن بعض المؤرخين ينوهون إلى أنه كان يتمتع بهمة عالية فى مراجعة حسابات عماله من القائمين على أمور بيت المال. بينما يتهمة آخرون بالبخل، أو بالأحرى، يلصقون به تهمة عدم التفاخر بصفة الكرم التى تكمن، حسب التقاليد العربية القديمة، فى بذل الذهب بسخاء فى مقابل جواب كريم ومناسب أو مجاملة رقيقة. ولاشك أن مثل هذه الأمور تدخل فى إطار الشتائم التى يطلقها الطفيليون المتجولون من الشعراء والشحاذين، نتيجة عدم رضاهم وغبطتهم على الاطلاق بما كانوا يحصلون عليه من رواقب. ومن المدهش أن دوزى، فى روايته غير المتسقة التى تبدو فى بعض الأحيان فناً قصصيا يحكى أحداث هذه الفترة، قد ظن نفسه مخولا، حين استند إلى رأى مناوى وجده مكتوبا فى فهرس شهداء مستعربى قرطبة، يرسم صورة للأمير يظهره فيها «شخصا محدودا، باردا وأنانيا»^(٣). ويأتى مثل هذا التقويم مخالفا تماما لما قاله كل مؤرخى فترة حكم محمد الأول، وبصفة خاصة الأقدمون منهم، أمثال بن القوطية أو المؤلف المجهول لكتاب «أخبار مجموعة». وقد عنى هذان المؤلفان، وخاصة الأول، بتسجيل بعض الملاحظات عن شخصية الخليفة عبد الرحمن الثانى، التى، إذا ماتمت إضافتها إلى الروايات التى حفظها ابن عذارى والمؤلفون الشرقيون

مثل ابن الأثير والنويرى، فستكون مفيدة لنا بعض الشيء فى دراسة النشاط السياسى لهذا الأمير وابنه المنذر، خاصة وأننا لانملك بين أيدينا مخطوطا للنص الأصيل لتاريخ ابن حيان^(٤)، والذي يعد مماثلا للمخطوط الذى اعتمدنا عليه فى التأريخ لهذين الأميرين السابقين، والمخطوط الآخر الذى حفظ لنا تاريخ الأمير عبد الله.

عمل محمد الأول على استمرار وتوثيق أواصر الصداقة التى أقامتها الأندلس، فى شمال أفريقيا، مع الامارة الرستمية الصغيرة فى تاهرت (Tahart). وقد رأينا كيف أنه، حين أقام الاحتفالات بمناسبة توليه الإمارة، أرسل هدية إلى الامام أفلح^(٥). وفيما بعد، اعتبر الامام أبو اليقظان محمد بن أفلح، الذى أصبح رئيس الدولة الرستمية فى عام ٨٦٨م (٢٥٤هـ)، نفسه أحد أتباع محمد الأول، وبهذا اللقب، حسب مايقول بعض المؤرخين^(٦)، ظل يطلب مشورته وأوامره، ويسير عليها فى كل قراراته السياسية الهامة. وهو نفس الأمر الذى وقع مع الملوك المدرارين فى سجلماسة، التى لانعرف عن تاريخها فى تلك الفترة شيئا فى وقتنا الحاضر^(٧)، مما أشاع حالة من الجهل بمدى تبعيتها لقرطبة وهل كانت تبعية وطيدة مثلما جرى مع جيرانها الرستميين. وعلى كل، فمن الثابت أنه، فى النصف الثانى من القرن التاسع، أى فى الفترة التى لم تتوقف فيها التجارة البحرية بين الموانئ الأندلسية وميناء إمارة تاهرت (مرسى فروج)^(٨)، القريب من مصب نهر الشليف. وكما رأينا، فإن الاتصال البحرى بين ميناء ناكور الريفى، عاصمة الدولة الصالحية الصغيرة المطلة على الساحل، كان يتم بنفس الدرجة من الفاعلية^(٩).

هناك نص بسيط يذكره نفس المؤرخين^(١٠) يوضح لنا أن الأمير محمد أقام علاقات صداقة مع كارلوس الأصلع، الذى «كان يقدر فيه ذكاءه حق التقدير، ويرسل له الهدايا القيمة». ولايعد هذا التوضيح ضربا من الخيال، إذ من خلال إشارة موجزة يبرزها بن القوطية فى تاريخه، نتأكد من أن عبد الرحمن الثانى قد بدأ فى حياته سلسلة من العلاقات امتدت أواصرها بين بلاط الفرنجة وبلاط قرطبة^(١١). وأيا كانت طبيعة هذه المفاوضات، التى جرت بين الملكين فإنه من الصعب علينا، لسوء الحظ، أن نحدد كنهها فى وقت قيامنا بتأصيل تاريخ الأمويين فى إسبانيا وتاريخ الفرنجة. وعليه فإن ما بوسعنا أن نخمنه فقط هو أن كارلوس الأصلع، الذى أبدى رغبته فى تجنب مواجهة القوات الأندلسية التى دأبت على غزو سبتيमानيا Septimania فى كل عام، قد رفض الموقف العدائى الذى تبناه لودويكو بيو، وحاول أن يتودد إلى الأمير المسلم. كما أنه اتبع نفس الأسلوب مع موسى بن موسى بن قسى، حاكم منطقة تطيلة Tudela

المستقل^(١٢). وفي الحقيقة، أننا نجد تباعا، وخلال حكم محمد الأول، وبداية من الفترة التي أسس فيها كارلوس الأصلع «الثغر الإسباني» بصفة نهائية، توقفا شبه كلي لنشاط الأندلس الحربى ضد إقليم برشلونة Barcelona، وهو أمر يرجع، بما لا يدع مجالا للشك، إلى ماتم توقيعه من هدنة أو اتفاق لعدم التعدى بين إمبراطورية الفرنجة ومملكة قرطبة^(١٣). ولعل ماحققة الأمير الأموى من انتصارات هامة، فى أوائل حكمه، ضد أوردونيو الأول ملك أشتوريش، لم يكن أمرا بعيدا عن محاولة تبني أسلوب ما للتعايش السلمى بين محمد الأول وملك الفرنجة.

وفيما يتعلق بالحياة داخل بلاط قرطبة، نجدها قد فقدت، منذ مجيئ الأمير الجديد، شيئا من الأبهة التى أحاطها بها عبد الرحمن الثانى. حيث تقلص نفوذ المختنئين والنساء^(١٤). ولايعنى هذا أن محمد الأول قد سمح بحل الراية التى رفعها سابقوه، وخاصة، والده. فقد كان، كوالده، مغرما بالعناية بجمال العاصمة. فقد أنهى عملية توسيع المسجد الجامع^(١٥)، التى بدأت قبل بلوغه الحكم بفترة وجيزة، ثم عمد إلى تزيين ونحت الواجهات الجانبية للمسجد، ثم أعد مقصورة خاصة، تمكنه من أداء العبادة داخلها دون أن يراه عامة المسلمين^(١٦).

كما أن بناء الجيش والأسطول كان من بين الأهداف التى أقضت مضجعه^(١٧). فزاد عدد المرتزقة وخفف، لصالح أهالى قرطبة، عبء الاشتراك السنوى فى الغارات الصيفية (الصوائف) ضد الثغر الأعلى أو ضد مملكة أشتوريش، وأعفاهم من الخدمة العسكرية والتجنيد الإجبارى. مقابل قيامهم بتجهيز فرقة من المتطوعين، على نفقتهم، لكل صائفة. وإذا مانظرنا إلى أحد القوائم الهامة لقوات سلاح الفرسان المجندين فى الأقاليم، والمتوجهين إلى حملة عام ٨٦٣م (٢٤٩هـ) ضد أشتوريش، فسوف نستنتج منها حجم الرجال المشاركين الذين تأثروا بدعوتهم للحرب فى كل كورة : بلغ عددهم الكلى إلى مايزيد على ٢٠٠٠٠ فارس، أتى مايقرب من ثلثهم من إقليم شنونة Sidona. أما أقاليم البيرة Elvira وجيان Jaén وملقه Málaga فقد قدم كل منها مجموعة تصل إلى ألفين أو ثلاثة آلاف^(١٨).

ماتزال إسبانيا الاسلامية دولة غنية، لما تقوم به من جمع للضرائب بصورة جادة، وذلك باستثناء السنوات التى يشهد فيها الجفاف. وقد شهدت فترة حكم محمد الأول قحطا أصاب البلاد مرتين : أما الأولى فقد استمرت من ٨٦٥ إلى ٨٦٨م (٢٥١ - ٢٥٥هـ)، والثانية، الأخطر من سابقتها، ضربت البلاد، وكذلك منطقة المغرب وأفريقيا. ونجم عنها أفة أودت بحياة عدد كبير من السكان. وفى هذا العام الأخير،

وجد الأمير محمد الأول نفسه مضطرا إلى التخلي عن جباية عشر المحاصيل، وإثاء واليه على قرطبة، حمدون بن باسل، رغم كل شيء، عن عزمه على أن يملأ مخازن الدولة بالغلل.

وكذلك، فإن دعائم الإدارة المركزية ماتزال تعمل، مثلما أرساها عبد الرحمن الثانى، تحت إمرة محمد الأول، بل لعلها تعمل بنظام أفضل مما كانت عليه فى النصف الأول من القرن التاسع. فقد خضعت الدواوين وبيت المال، فى حقيقة الأمر، للرقابة الدائمة والمباشرة من جانب الأمير، الذى كان يعمل إلى جواره، بأعداد وفيرة دائما، جمع من الوزراء والأمناء وخزنة بيت المال. وجاء على رأس الإدارة الحاجب الوزير الأول للأمير والمتحدث الرسمى باسمه، والذى من الممكن أن يجمع بين هذا المنصب وبعض المهام العسكرية، من بينها، كما كان يحدث فى الفترة السابقة، تولى قيادة إحدى الصوائف على الحدود. وكان اختيار أمثال هؤلاء الموظفين الكبار أمرا موكولا إلى الأمير بطبيعة الحال، ومع هذا كثيرا ما نرى مجموعة بسيطة من أسر قرطبة تلتف حوله، يبرز من بينها كبار القوم الذين لم يتخلوا، حتى سقوط الإمارة الأسبانية الأموية، عن المشاركة، بواحد أو أكثر من أفرادها، فى المناصب الإدارية العليا بالملكة. من بين هذه الأسر «أسر كبار الموظفين» والذين سنعود للحديث عنهم أكثر من مرة، حظيت اثنتان منها على الأقل بمكانة خاصة منذ بداية حكم محمد الأول، رغم أنهما قد ربطتا حياتهما بحياة البيت الحاكم على مدى أجيال عديدة. أما الأولى، فهم بنو شهيد، وأما الثانية، فهم بنو أبى عبدة. وقد مثلتهما فى المناصب الإدارية العليا بدولة قرطبة فى النصف الثانى من القرن التاسع. كل من عيسى ابن شهيد، وعبيد الله بن أبى عبدة.

جاء تعيين عيسى بن شهيد فى منصب الحاجب من قبل عبد الرحمن الثانى عام ٨٢٣م (٢١٨هـ)، وهو المنصب الذى زانه من قبل الشهير عبد الكريم بن مغيث. وكان هذا الشريف ينتسب إلى الأرسقراطية العربية من المهاجرين. كما أن جده، شهيد بن عيسى بن شهيد، مولى الخليفة معاوية وسليل أحد الشخصيات التى شاركت فى معركة مرج راهط، قد أتى إلى اسبانيا فى ظل العاهل الأموى^(١٩). وحين جاء محمد الأول، تم تثبيت عيسى بن شهيد فى منصب الوزير الأول، حيث احتفظ به إلى أن حل محله عبيد الله بن أبى عبدة. وينحدر هذا الأخير أيضا من سلالة معروفة شاركت فى معركة مرج راهط. كما أن أحد أسلافه، المدعو حسن، قدم عام ٧٣١م (١١٣هـ)، بغرض اللجوء إلى أرض الأندلس مع ولده عبد الغافر، والذى أصبح فيما بعد وزيرا لعبد الرحمن الأول، ورئيسا لحرس ابنه هشام الأول^(٢٠).

وكما نرى، فإن هاتين العائلتين قد حازتا ألقاباً سامية جعلتهما يتعمان بحماية ورعاية محمد الأول. ورغم هذا فإن التأثير الذي مارسه أعضاؤهما كان بسيطاً، على الرغم من شغل المناصب الرفيعة في الإمارة، وذلك بالمقارنة مع مولى آخر، هو الوزير أبو خالد هاشم بن عبد العزيز بن هاشم^(٢١). وقد لعبت هذه الشخصية، مع أخيه الأصغر، أسلم، كبير قضاة قرطبة في ظل حكم عبد الرحمن الثالث، دوراً سياسياً من الدرجة الأولى، تميز بالشؤم في بعض الأحيان، ضمن بطانة الأمير بقرطبة. وإذا ما صدقنا رواية المؤرخ ابن القوطية، فإن هذا الرجل النشيط، المذهب، حائك الدسائس، لم يكد ينعم بفضل الأمير عليه إلا في عام ٨٧٥م، عندما بدأ يهمل «اختيار عماله في بيت المال من بين الرجال ذوي الخبرة والسن، وفضل عليهم مجموعة من الشباب تقاسم معهم الأرباح، حتى أنه أطلق عليهم لقب «المناصفون»^(٢٢). وتبعاً لما يقوله المؤلف نفسه، فإن سير الأمور بهذا الوضع لم يكن بمنأى عن تطور الأزمة الداخلية، التي تزامنت مع السنوات الأخيرة لحكم الأمير محمد.

ومن جانبهم، لم يقف الفقهاء مكتوفي الأيدي. فقد ازدهرت مدرسة القضاء بقرطبة بدفع من آخر تلاميذ مالك بن أنس وتلاميذهم أنفسهم. وعليه فقد ظل قاضي العاصمة يعمل مستشاراً للأمير في كل ما يتعلق بالقانون الإسلامي، الذي يعد مجال تخصصهم الحقيقي. كانت هيئة الإفتاء تتلقى طلبات الفتوى بصفة مستمرة، تأتي إليها من طرف الحكومة المركزية. وفي تلك الأونة، برز من بين هؤلاء رجل يدعى بقى بن مخلد، العلامة الذي عاش طويلاً في بلاد المشرق، والذي أتى بطرق اجتهاد وتفسير جديدة اعتبرها فقهاء قرطبة قلباً للنظام المعهود لديهم، حيث عمدت إلى استبدال دراسة الحديث النبوي بكتب مذهب الإمام مالك، كما أنها تبنت التقليد والاحترام المطلق لآراء السلف، فيما يتعلق بالتطبيق العملي للقانون الإسلامي. وقبل هذا الوقت، حدثت، في المشرق، ردود أفعال مماثلة ضد هذه الاتجاهات المفرطة في اتباع المنهج المحافظ؛ ولكنها قد كُفّت، مسبقاً، أفواه أولئك الذين حاولوا رفض تلك الأفكار الآلية، وابداء أدنى روح للنقد. كان هذا هو حال بقى بن مخلد، والذي تم استقباله عند عودته إلى الأندلس كمجدد وصلت تعاليمه حد الإلحاد. وإذا ما كان قد نجا من العقوبة المقررة لأمثاله، فإن الفضل في هذا يرجع إلى تدخل هاشم بن عبد العزيز ومحمد الأول. إذ كان الأمير مقتنعاً بصحة إيمانه، وكان يشاركه الرأي، دون أن يجروء على التصريح به، وذلك في رفضه للطرق القديمة التي يسير على نهجها الفقهاء، فأنقذه من غضب هؤلاء

وشمله برعايته. ومع هذا، فقد ظل بقى حتى وفاته فى ٨٨٩م (٧٢٦هـ) هدفًا للحقد الذى تولد لدى هيئة فقهاء قرطبة. وماكانت عودته إلى العاصمة لتغير شيئًا من الموقف التقليدى لمدرسة القضاء الاسبانية، والتى ماكان لها أن تتغير، رغم شيوع مبادئ الظاهرية فى شبه الجزيرة الأيبيرية، إلى أن أتت دولة الموحدين، بعد ذلك بثلاثة قرون، لترسخ فرضية المذاهب التأملية التى أتت بها من المشرق عن طريق المهدي بن تومار^(٢٤).

ومن المحتمل ألا يكون فقهاء قرطبة بمنأى عن الموقف المتشدد الذى اتخذهُ الأمير محمد الأول، فى بداية مدة حكمه، تجاه المستعربين من أصحاب المناصب الرفيعة الذين يبشرون بالتطوع بالشهادة فى قرطبة. وكذلك فإن هؤلاء الفقهاء هم الذين قاموا، بما لا يدع مجالاً للشك، وبالاتفاق مع كبار القوم من العرب ضمن بطانة الأمير، بتحريضه على وضع موظفيه من المسيحيين أمام أحد خيارين : إما التحول إلى الإسلام وإما ترك مناصبهم. وهذا هو ما حدث، على الأقل، مع السكرتير جوميث، بن أنطونيو، الذى شغل، كما رأينا^(٢٥)، منصب مندوب الحكومة الأموية فى مجلس الأساقفة الذى شهدته قرطبة عام ٨٥٢م، برئاسة ريكا فريدو، مطران أشبيلية. وعقب موت والده، قام الأمير محمد بتثبيت جوميث فى مناصبه العليا بأمانة الدولة. ولكن، نتيجة لشكوى الأعيان، بتحريض من هاشم بن عبد العزيز، فكر الأمير فى الاستغناء عن خدمات جوميث، حين قدم هذا شهادة قانونية تفيد تحوله إلى الإسلام. «يالها من دهشة ستصيب الخلفاء العباسيين فى المشرق - جاء ذلك فى كلمات بعث بها أحد أفراد بلاط الأمير إليه - عندما يعلمون أن الأمويين، فى الغرب، قد اضطروا لأن يعهدوا بأماناتهم الخاصة وأمانة دولتهم لجوميث المسيحي، بن أنطونيو، الذى كان، بدوره، ابناً لمسيحية تدعى خوليانا! أريد أن أعرف من ذا الذى أعماك حتى جعلك لا تقدم على اختيار رجل يفوقه نبلاً، يضيف على المنصب شرفاً ويكون أهلاً له بما له من مكانة سامية استحقها نظراً لأصله الموروث»^(٢٦). ومالنا أن نتعجب كثيراً من مثل هذه الحرية فى التعبير، التى تتمشى مع الأسلوب العربى القديم، وأوضحت للأمير رأى العائلات العربية الكبيرة، التى كان من المفروض أن يجعل لها رواتباً، حتى لا يحرم من تأييدها له. ولكن هذا كله لم يكن ليمنع محمد الأول، ولاحتى من خلفوه، من الاستمرار فى تقديم المناصب الادارية لأمناء يدينون بالمسيحية، والذين سرعان ما انضم إليهم عدد من المحاسبين والوكلاء من أصل ودين يهوديين، سواء فى القرن الذى شهد مدة الخلافة الاسبانية - الأموية، أم فى فترات أخرى من تاريخ الأندلس.

اضطرابات طليطلة : معركة جواداليتى عام ٨٥٤م :

كان من عادة أهالى قرطبة اعتبار وصول أموى جديد إلى عرش قرطبة مؤشرا لهم على شق عصا الطاعة، فقد أعلنوا تمردهم تماما فى نفس اللحظة التى وصل فيها محمد الأول إلى السلطة. ومنذ عام ٨٣٧م (٢٢٢هـ) كان عليهم، طوعا أو كرها، أن يظهرُوا خضوعهم، على الرغم من مشاعر التعاطف التى أعربت عنها جالية المستعربين فى المدينة من خلال حركة المقاومة السلبية لأنصار إولوخيو وألبارو. ومع هذا، وكضمان لحسن سلوكهم، فرضت على عدد من أهالى طليطلة إقامة جبرية، إلى جانب عدد من السياسيين الآخرين تم التحفظ عليهم من مقاطعات نشبت فيها أيضا بعض الاضطرابات، فى مبنى كبير يعرف باسم «بيت الرهائن». وبدأ أهالى طليطلة باستعراض قوتهم. فقاموا، بعد أسابيع من تنصيب محمد الأول، بحبس الحاكم الأموى للمدينة، ولم يطلقوا سراحه إلا بعد أن تأكدوا من إطلاق سراح رهائنهم. زاد هذا النجاح الأول من جرأتهم، وما أن أعدوا جيوشهم، حتى أرسلوها إلى أرض الميدان، بجنوب طليطلة، فى اتجاه قلعة رباح Calatraba (٢٧) - وهى الحصن المنيع، الواقع فى أعالى وادى أنة، بالقرب من مدينة ثيوداد ريال الحالية، والذى كان يأتُر بأمره جميع المراكز الأمامية فى قرطبة وجيان - وقد تم اخلاؤها من حاميتها، بسبب الضغوط الكبيرة من جانب كتيبة طليطلة. وما كان للأمير محمد أن يترك مثل هذه الإهانات تمر دون عقاب. ففى صيف ٨٥٣م (٢٣٩هـ) أمر بإرسال قوات، بقيادة أخيه الحكم، لاستعادة قلعة رباح وإعادة تشييد حصونها، وما أن فرغ من العمل، الذى بدأه منذ عامين، حتى عمرت المدينة مرة أخرى ووضعت بها حامية قوية، بقيادة القائد حارث بن بازى. ومع هذا، فلم يكن احتلال قلعة رباح كافيا لضمان تحييد نشاط المجموعات المحاربة من أهالى طليطلة، والتى قامت، فى صيف عام ٨٥٣م نفسه، بسحق مزارع نهر جندولا (٢٨) [أحد فروع الوادى الكبير الذى يخترق جبال الشارات، ونصبوا كمينا حول جيش قرطبى، كان يعسكر قريبا منها، فى أندوخار، والذى اضطُر إلى الانكماش بعد هزيمة مروعة، تاركا وراءه أسلحته وأمتعته.

كان أهل طليطلة أول من أصيب بالدهشة لهذا النجاح غير المنتظر، الأمر الذى، حين تتوافر الظروف المواتية، ستكون له ردود فعل عنيفة ضدهم من جانب حكومة قرطبة. ولكى يتمكن هؤلاء الأهالى من تكوين جبهة مضادة لمحمد الأول، وجدوا أنفسهم فى حاجة إلى إعداد قوات تفوق ذلك العدد من الرجال المسلحين الذين يعملون تحت إمرتهم، وهنا توجهوا بطلب المساعدة إلى أوردوينو الأول. الذى خلف والده راميرو عام

٨٥٠م. كان ملك أشتوريش مهتما بإشعال نار الحرب الأهلية فى المناطق الاسبانية - الاسلامية، وما إن قدرَ الفائزة التى سيجنيها من وراء العمليات التى سيقوم بها ضد الإسلام خارج أراضيه، لم يتردد فى إرسال جيش جرار إلى أهالى طليطلة، يقوده أحد أقاربه، يدعى جستون، كونت البيرزو. ومن جانبه، بدأ الأمير محمد الأول باستعداد للحرب فى يونيه عام ٨٥٤م (محرم ٢٤٠هـ). فخرج فى مجموعة مكونة من آلاف الرجال، متخذاً الطريق الرومانية التى تصل قرطبة بطليطلة، وذلك عبر ديسبنيابيروس، ثم تابع سيره، جاعلاً قلعة رباح على يساره، حتى وصل إلى المنطقة السهلية الواقعة جنوب شرق طليطلة، عبر كونسويجرا، وهى منطقة يمر بها فرع لنهر التاجه، يعرف بجدول وادى سليط، والذى قامت على ضفافه القوات السورية فى بلش بالقضاء على العصابات البربرية التى حاصرت الحامية العربية فى طليطلة. وحين علم الأمير الأموى بقرب وصول القوات الأشتوريشية والطليطلية، قام باعداد خطة للمعركة، وانطلق، بعد أن ترك الجزء الأكبر من رجاله كامناً فى ثنايا الأرض المجاورة للجدول، بادئاً الهجوم بما تبقى معه من قوات. وقد آتت الخدعة القديمة ثمارها مرة أخرى، حيث لحقت بجاستون هزيمة ثقيلة. وتبعاً لما يذكره كتب التاريخ والمصادر العربية واللاتينية فإن الأشتوريشيين قد تكبدوا خسائر فى الأرواح بلغت ٨٠٠٠ أما الطليطليون فقد كانت خسائرهم مايقرب من ١٢٠٠٠. وقد عبر المنتصرون عن وفائهم لعادتهم فجمعوا رؤوس الضحايا فى هذه المذبحة، ومن فوق منصة الموت أعلنوا وحدانية الله وسبحوا بحمده. كما أرسلت غنائم هذه المذبحة، التى تعد علامة فى ذاكرة الجيوش الإسلامية ويطلق عليها المؤرخون «معركة وادى سليط»، إلى قرطبة والساحل الشمالى الأفريقى (٢٠).

وعلى مدى الصفحات التالية سوف نرى النتائج التى ترتبت على مثل هذا النجاح للأمير محمد وتأثيرها فى العلاقات بين قرطبة ومملكة أشتوريش. كان الأثر الأكبر لمعركة وادى سليط على أهالى طليطلة، رغم العقاب الأليم الذى نزل بهم، أنها زادت من حنقهم وبغضهم تجاه نظام قرطبة. وبدل أن يقوم الأمير مباشرة باستغلال النصر الذى حققه فيذهب حتى يسترد المدينة المتمردة، نراه قد أثر أن يساير أهلها. وفى عام ٨٥٦م (٢٤٢هـ) سمح لابنه المنذر بفرض الحصار على طليطلة، إلا أنه لم يأت بنتائج ملموسة. وفى العام التالى قام جيش طليطلة بمحاصرة الضابط الذى كان مكلفاً بقيادة القوات فى طلبيرة Talavera، لكنه خرج إليهم خروجاً ساحقاً فردهم على أعقابهم. وفى عام ٨٥٨م (٢٤٤هـ)، قام الأمير نفسه بمهاجمة العاصمة القوطية

القديمة، وما إن أصدر أوامره إلى جماعة المهندسين من جيشه بنسف معبر نهر التاجه، حتى انهار المصنع تحت أقدام المدافعين، فى الوقت الذى هبوا فيه لاطلاق النار على القوات الأموية. وأخيرا، فقد اضطر سكان طليطلة الذين هجرهم أوردونيو الأول، إلى طلب العفو، الذى أجيبوا إليه، وبذلك ظلوا ينعمون بالهدوء والراحة طيلة عشر سنوات. وفى عام ٨٧٥م (٢٥٩هـ)، أصبح الأمير محمد الأول مضطرا لأن يخرج إليهم بنفسه لكى يعيدهم إلى صوابهم، فطالبهم بتقديم الرهائن ودفع التعويضات، ثم نصب ابنه المطرف حاكما عليهم. وعليه، فما قامت لهم قائمة إلا بعد مرور ثلاثة عشر عاما، حين تولى المنذر الحكم، ولكنه تمكن من السيطرة عليهم فى أسرع وقت بواسطة بربر شنت برية.

بداية انشقاق بن مروان الجليقى فى ماردة :

تعد ماردة عاصمة للثغر الأدنى، وقد تأخر بهما الوقت أكثر من طليطلة حتى تعلن مجددا عصيانها فى وجه السلطة الأموية. وما كان لمثل هذا التمرد، الذى تم قمعه فى الحال على يد الأمير محمد الأول، أن يلقي صدى كبيرا، لولا ظهور مدبره الرئيسى على المسرح السياسى، بعد مرور سبع سنوات، ليعلن عن نفسه كبطل للاستقلال فى غرب الأندلس. وعلى مدى الفترة الزمنية التى عاشتها مملكته، استطاع الأمير محمد الأول أن يحدد جهوده بصفة دائمة؛ ولكن خلفاءه على عرش قرطبة لم يكن بإمكانهم أن يقوموا بشئ ضد هذا المتمرد ولا أن يمنعوه من توطيد ملكه الذى ادعاه لنفسه داخل إمارته، تلك الامارة التى لم تتمكن الحكومة الاسبانية الأموية من استعادتها إلا بعد ذلك بكثير، أى فى عام ٩٣٠م (٣١٨هـ).

عرفت هذه الشخصية المتمردة باسم عبد الرحمن بن مروان بن يونس^(٣١) ولكنه اشتهر خاصة باسم «ابن الجليقى»، فقد كان ينتسب إلى أسرة من المولدين قدمت من شمال البرتغال ثم استقر بها المقام منذ أمد بعيد فى ماردة. وكان والده، مروان، حاكما لهذه المدينة تحت إمرة عبد الرحمن الثانى، وكما رأينا^(٣٢)، فقد تم اغتياله من قبل رجال إدارته عام ٨٢٨م (٢١٣هـ). أما الابن فلم يظهر نفس علامات الولاء، وعمد إلى جانب عدد من مواليه أو من المستعربين، إلى إثارة هزات كبيرة داخل صرح السلطان الأموى عام ٨٦٨م (٢٥٤هـ). وهنا بدأ محمد الأول بالاستعداد للمواجهة ثم تحرك يريد فرض الحصار على ماردة. رغم أنه قد تظاهر بالخروج تجاه طليطلة. وبعد

أيام من الحصار، وجد أهالي ماردة، الذين لم يستعدوا جيدا للمقاومة، أنفسهم مضطرين لطلب الاستسلام. فأجيبوا إلى طلبهم؛ ولكن زعماء التمرد، خاصة عبد الرحمن بن الجليقي، قد وجهت إليهم الدعوة للقيام بقرطبة بصحبة عائلاتهم، وكذلك الخدمة ضمن صفوف الجيش. أما ميريديا فقد دمرت، ولم يبق منها شيء في حالة جيدة سوى القلعة وذلك لتكون سكنا للحاكم سعيد بن العباس القرشي وأفراد الحامية.

أما ابن مروان - الذي اعتاد المؤرخون تسميته بابن الجليقي - فقد ظل هكذا في قرطبة حتى عام ٨٧٥م (٢٦١هـ)، وهو العام الذي شهد نزاعا بينه وبين الوزير هاشم بن عبد العزيز، الذي سب ابن الجليقي سبابا غليظا، ولم يتوقف الأمر به عند هذا الحد، بل صفعه على وجهه. وهنا انتفض المولدي لهذه الإهانة، فترك قرطبة على الفور، ثم توجه من جديد إلى غرب شبه الجزيرة. وبما أنه لم يعد في إمكانه التفكير في العودة إلى المدينة دون أن ينتقم لنفسه، فقد توجه، مع رفقائه الذين صاحبوه في مهربه، إلى قلعة ألانبة [قلعة الحنش] Alange ليمضي وقتا ممتعا بها^(٢٣)، فهي تقع على مسافة عشرين كيلومترا جنوب شرق ماردة. وهناك ذهب الأمير محمد لحصاره طيلة ثلاثة شهور. وما أن نفذت المياه لدى الممتنعين وعمدوا إلى ذبح جيادهم للاقتيات بلحومها، اضطروا إلى طلب الهدنة. ورغم هذا، فما صدرت أوامر بحمل ابن مروان للبقاء في قرطبة، بل سمح له بالبقاء إلى جوار صحبه في بطليوس Badajoz، والتي كانت آنذاك قرية متواضعة على وادي نهر «أنة»، شريطة أن يترك حفيده كرهينة بقرطبة. وما أغنى حذر الأمير عن قدر، إذ عاود ابن مروان، بعد عدة أشهر، تمرده، واهتم بتحسين بطليوس، بحيث يهيئ لنفسه ظروفًا تمكنه من تحمل الحصار. ولكن الأمير محمد لم يترك له وقتًا ينفذ فيه مآذبه إليه نواياه، حيث خرجت، في الصيف التالي، عام ٨٧٦م (٢٦٢هـ) قوات للجيش يقودها الجنرال هاشم بن عبد العزيز، الذي بلغ به الأمر مع ابن مروان من قبل ما بلغ، وذلك بهدف إخضاعه. وفي هذا الأثناء، حصل ابن مروان على مساعدة من متمرّد آخر في نفس الإقليم، مولدي مثله، يدعى سعدون السرنباقي، الذي تمكن من الاستيلاء على قلعة مونسالود^(٢٤). وعندما تلقى عبد الرحمن بن مروان أنباء وصول الجيش الأموي، انتقل قليلا صوب الجنوب، إلى قلعة قلقرّة Cárcar^(٢٥)، بينما أرسل سعدون السرنباقي إلى ألفونسو الثالث، خليفة أوردونيو الأول، يطلب المدد منه. وحقا، فما تأخر انتظار ابن مروان وسعدون لوصول بعض فرق الجيش الأسطوري. وأما هاشم، الجنرال القرطبي، الذي أتى إلى منطقة تموج بالاضطرابات ووجد نفسه مضطرا إلى تقسيم قواته إلى صنوف أمنية عديدة، فقد هُزم في سهولة ويسر، والأدهى من ذلك أنه أودع بالسجن. وهنا قام ابن مروان

بإرسال الأسير إلى ملك أستورياس ليبرهن له عن امتنانه وشكره. أرسل هاشم بن عبد العزيز إلى أوبييدو Oviedo، حيث قضى بها عامين، قبل أن يتمكن من دفع ما يقرب من ١٠٠٠ دينار طلبت نظير الإفراج عنه. ولم يطلق سراحه إلا بعد دفع جزء من هذه الفدية، كما قبل أن يترك أخويه وابنه وحفيده كرهائن إلى أن يسدد المبلغ المتبقى عليه.

كان ابن مروان، حين انتقم بحذق فائق للالهانة التي ألحقها به الوزير العربي السابق في قرطبة، يعلم جيدا أن محمد الأول سيجمع كل الجيوش العاملة تحت لوائه ثم يحضر على رأسها ليعيده إلى جادة الصواب. وبالفعل، قام ولي العهد المنذر، في صيف ٨٧٧م (٢٦٣هـ) بالتوجه صوب ماردة. وهنا عمد ابن مروان إلى إخلاء بطليوس، بعد أن عاد إليها، وبعد أن التقى بالقوات الموالية له مرتين^(٣٦)، وجد أنه مازال حتى الآن يفتقر إلى حشد القوة المناسبة التي تمكنه من مواصلة الكفاح، وعليه، فقد قرر أن ينضم إلى ألفونسو الثالث في خندق واحد. واستمر هذا التحالف بين الاثنين، على الأقل، زهاء ثمانية أعوام، وطوال هذه المدة لم يذكر لنا المؤرخون نشاطا يذكر لابن مروان داخل المناطق الإسلامية. وهكذا، فلا يكاد اسم ابن مروان يذكر بعدها إلا في عام ٨٨٤م (٢٧١هـ) : فما أن تنصل من تحالفه مع الملك المسيحي، عاد إلى بطليوس، حيث طرد منها بعد قليل على أيدي القوات الأموية، بقيادة المنذر، الذي أضرم النيران في مقر إقامته. وهنا خرج ابن مروان تجاه الشرق عبر وادي أنة، لينزوي بين أسوار قصر إسبراجوسا المنيع^(٣٧)، حيث حوصر داخله في الصيف التالي، دون أن يكون للحصار أية نتائج ملموسة، وذلك على يد عبد الله بن الأمير الحاكم، والقائد هاشم بن عبد العزيز. وحسب ما يذكر المؤرخ ابن القوطية، قام محمد الأول بإجراء مباحثات مع بن الجليقي في تلك الفترة، بعد أن تمكن من مد حركته حتى شمال كورة الغرب البرتغالي، ولم يتوقف عن توجيه الضربات إلى مناطق أكشونية ولبلة، كما وصل به الأمر إلى مهاجمة أبواب أشبيلية نفسها^(٣٨). وأخيرا، ترك له الأمير القرطبي، حين أدركه الموت، حرية تدبير أمر بطليوس. وأما بالنسبة للمنذر، الذي خلفه على العرش، فقد كان مغرما، طوال مدة حكمه القصيرة، بأمر سعى إلى تلبيتها أكثر من اهتمامه بأمر إخضاع عبد الرحمن بن مروان الجليقي. وكذلك، فعندما تولى الأمير عبد الله الحكم وجد نفسه مضطرا لمواجهة صعوبات ومشاكل لاحصر لها، فرأى هو الآخر أنه من المناسب أن يكون على علاقة طيبة مع السيد المستقل، والتابع له، على أرض بطليوس، كما أن عليه أن يعترف، شاء أم أبى، بوجود إمارته.

تمرد الجنوب الاسباني، في نهاية حكم محمد الأول :

بدايات تمرد بن حفصون :

بعد مرور ثمانية وعشرين عاما على فترة حكم محمد الأول، أى فى عام ٨٧٩م (٢٦٥هـ)، طفت على السطح أعمال شغب جديدة دون مقدمات تذكر فى المناطق الجبلية بجنوب الأندلس، أندلوثيا الحالية. كما أن أهالى تلك الأقاليم، ومعظمهم من المولدين والبربر، أصبحوا يرون أن الوقت قد حان لرفض سلطة أمير قرطبة، فباركوا النجاحات التى حققها بن مروان الجليقى، واستقبلوا نبأ أسر الجنرال هاشم بن عبد العزيز وإرساله إلى أوبييدو بفرحة غامرة، وماخفى عليهم أيضا أن بنى قسى، فى الطرف الشمالى من المملكة الاسبانية الأموية، يحكمون إمارتهم فى أعالي رغن فى جو من السلام التام، كما أن هناك حالة من التمرد غير المعلن فى سرقسطة، وأن الفونسو الثالث مازال يضرب بلا هوادة الحاميات الموجودة فى القلاع المجاورة. كما أن رياح الثورة قد بدأت تهب فى جميع أرجاء المرتفعات الجبلية الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط ونهر «الوادى الكبير»، والمناطق الجبلية فى رونة وملقة، والأودية السحيقة فى إقليم «الجزائر» وكذلك فقد بدأ المحرضون على التمرد يرفعون أصواتهم ويجندون الأنصار، ضمن اضطرابات محلية صغيرة سرعان ماتم اخماد جذوتها، لعدم قدرتها على أن تصبح فى وقت ما تمردا عاما، إلا فى حالة أن يقوم على أمرها رجل محارب، أو لنقل زعيم، يصل فى وقت مناسب، بما له من شجاعة وقوة إيمان بحسن طالع، فيعمل على ايقاظ الجماهير واقناع الناس واطهار إرادته الحديدية فى مواجهة كل الجهود التى بذلت من أجل أن تستميله إليها. ولكن لم يكن لأندلوثيا أن تعرف مثل هذا القائد الذى يجمع الرجال على كلمته إلا فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر حين ظهر المولدى الشهير «عمر بن حفصون»^(٢٩)، الذى بذلت جهود مضيئة من قبل أميرى قرطبة، المنذر وعبد الله، من أجل إخضاعه خضوعا مبرما، الأمر الذى لم يتمكنوا من إنجازه. وماتحقق مثل هذا الأمل إلا على يد عبد الرحمن الثالث، الذى استطاع بكل ماله من قوة القضاء، فيما بعد، على بن مروان الجليقى؛ والذى حين وافته المنية فى عام ٩١٨م (٣٠٦هـ)، دون أن يرفع راية الاستسلام نهائيا أمام الهجمات المتلاحقة من جانب حكومة قرطبة، كان أبنائه يحاولون، من جانبهم، إطالة عمر المقاومة مدة عشر سنوات قادمة. وما إن تأتى اللحظة التى يقضى فيها الأمير الأموى على حركة بن مروان، ويصبح مالكا لزام الأمور فى قلعته، حتى يكون قد استأصل شأفة ذلك المتمرد القديم، واستأصل وربما ظل ينخر فى عظام مملكة الأندلس مايقرب من قرن. وفى هذا

الوقت فحسب يصبح بإمكان الأمير بسط نفوذه السياسى فى بلاد المغرب، ومد حدود أراضيه بعض الشئ إلى شمال شبه الجزيرة الأيبيرية نفسها، وأن يجد نفسه جديرا بأن يطلق عليه اللقب السامى، ألا وهو «أمير المؤمنين»، وذلك لتضم حوليات اسبانيا عددا من أمجد صفحات تاريخ إسبانيا الإسلامية.

إن تاريخ حياة بن حفصون يبدأ، فى حقيقته، أشبه شئ بالرواية. «فعمر ابن لأسرة ثرية، رفض أن يخضع للنظام العام الذى يدور فيه الوسط الاجتماعى الذى أحاط به، فانطلق يبحث عن المغامرة بأسلوب غير مشروع. كان والده حفص من أشرف الريف، يعيش فى رغد من الحياة نظرا لما كان يحصل عليه من عوائد أرضه التى يملكها بضیعة كائنة بضاحية رُندة، تعرف باسم تورثيا، غير بعيدة من قلعة أوتا^(٤٠). إنه من المولدين الذين اعتنقوا الإسلام حديثا، فجده جعفر، الملقب بالاسلامى (نظرا لأنه من المسلمين الجدد) اعتنق الدين الرسمى للدولة خلال عهد الحكم الأول. وكل أجداده يحملون أسماء لاتينية وأيبيرية، وحسبما يذكر بن خلدون^(٤١)، فى الخبر الذى ينقله عن ابن حيان، فإن بن حفصون ينتسب مباشرة إلى كونت قوطى يدعى ألفونسو. وكان حفص يتمتع، وسط من يتعامل معهم، بشخصية توحى بأنه من أصحاب النفوذ، وحتى يتم تكريمه، أدخلت عادة تقضى بإضافة نهاية التكبير فى اللغة الاسبانية وهى «ón»^(٤٢)، (أى الواو - النون) إلى اسمه. وبهذا تحول اسمه من حفص إلى حفصون، وذلك تبعا للتقاليد التى كانت سائدة فى تلك الفترة بين أفراد الأرستقراطية الاسبانية سواء فى القرى أو فى المدن، فانبتقت منها أسماء عائلات عديدة تحمل هذه النهاية، وهى أسر سيكون لها نصيب كبير فى الظهور على صفحات التاريخ السياسى والأدبى للأندلس، مثل بن بدرون، وابن زيدون، وابن خلدون، وغيرها من مئات الأسماء. كان لابن حفصون أخوان يصغرانه فى السن، هما أيوب وجعفر، ولكنهما لم يكن لهما نفس طابعه الحاد، وذات يوم تشاجر مع جار له فقتله دون تفكير. وهنا كرهه والده، ولكنه، خوفا على حياته، أرسله ليختفى فى منطقة جبلية وعرة تحتضن المضيق الضيق لنهر «وادی العرس» على مسافة أربعين كيلومترا شمال رُندة، وهو المكان نفسه الذى سيعمل على تكوين جماعته داخله. ولكن الفتى سرعان ما شعر بالوحدة الطويلة، ففكر على الفور فى اللجوء إلى حملات للسرقة فى ربوع الريف، يرافقه فيها مجموعة من قطاع الطرق، فانتهى به المطاف إلى الأسر؛ ولأن حاكم دييو (باقليم مالقة) كان يجهل تلك الجريمة التى ارتكبها ابن حفصون فى تورثيا، لم ينزل به عقابا أكثر من الضرب. وعند ذلك رأى ابن حفصون أنه من العقل أن يذهب فى تفكيره إلى أبعد من هذا، فعبر الحدود إلى أفريقية، قاصدا تاهرت، عاصمة الامام

الرستمى أبو اليقظان. وهناك استقبله أحد معارفه، يعمل حائكاً، حتى يعلمه حرفته التى يعمل بها. وذات يوم رمقه إسباني وهو ممسك بالابرة فى يده داخل دكانه الصغير، فتحدث معه عن بلده الأم وتنبأ له بأعلى المناصب، إذا ما هم برفع راية العصيان. وخاف ابن حفصون أن يفتضح أمره لدى الامام فيقوم بتسليمه إلى العاهل الأموى. فرأى من الأفضل العودة مرة أخرى إلى موطنه، وإذا مارأى أباه مستمرا على جحوده له، ذهب إلى عمه ليعيش فى كنفه، فهو ألين عريكة من والده. وهكذا حدث الأمر. ففى عام ٨٥٠م (٢٦٧هـ)، عاد عمر مرة أخرى إلى أندلوثيا، حيث قام عمه، بهدف تمكينه من ممارسة حياته كقطاع طريق، بامداده بعصابة صغيرة من الفلاحين الغلاظ الذين عقدوا العزم مثله على الخروج على القانون. وهنا بدأ بن حفصون، حقاً، طريقه المجنون. وما إن عاد إلى الجبل الذى اختبأ فيه قبل هروبه إلى الشمال الأفريقى، حتى جعل منه قاعدة لعملياته، التى وجدت فى مكان مسور مرتفع بأعلى الجبل، يعرف باسم بيشتر Bobastro (برباط)^(٤٢)، تجرى من تحته فى سرعه مذهلة مياه نهر «وادي العرس».

وما زالت الأجواء، منذ عام على الأقل، مشحونة فى اقليمى الأندلس، ريو وتاكورونا. وأحس الحكام أنهم غير قادرين على فرض النظام، أو وضع حد لأعمال السلب والنهب التى يقوم بها قطاع الطرق وجبايتهم لما يشاؤون من ضرائب الدولة دون أية موانع. وقد قام أحد الثائرين، يحيى الجزيرى بنشر التهديد فى ربوع منطقة «الجزائر» بلا هوادة. وفى عام ٨٧٩م (٢٦٥هـ) حاربه هاشم بن عبد العزيز ثم حمله إلى قرطبة. وبعد بضعة أشهر، قام الأمير عبد الله بحملة عسكرية بين المناطق الجبلية فى مالقة، وأقام بها مجموعة من القلاع الجديدة وأصلح ماتخرب من البعض الآخر. ولكن هذه الحملة لم تحل بين قيام حركة جديدة والتخطيط لها فى منطقة الحامة، فى منتصف الطريق بين غرناطة وملقة، على يد بنى رفاعه، الذين هاجمهم محمد الأول عام ٨٨٢م (٢٦٨-٢٦٩هـ). ومن الواضح أن أعمال القمع لم تكن كافية، وما كان بإمكان حكومة قرطبة أن تفعل أكثر مما قامت به، حيث كان اهتمامها موجهاً لأمور أخرى أهم من ذلك. وخاصة التهديد المتوقع مستقبلاً من قبل بن مروان الجليقى، الذى عاد لتوه من أشتوريش إلى الأراضى الإسلامية.

استغل عمر بن حفصون الوضع القائم. فنرى عصابته الصغيرة، التى التفت حوله فى برباط، يزداد عددها يوماً بعد الآخر. ولم تكن أرجاء الأندلس تخلو من رجال هاربين من الجندية تجمعت لديهم الخبرة والحكمة وروح المغامرة، والذين انضموا بعد ذلك إلى صفوف الزعيم المولدى الشاب، الذى استطاع بهذا الأسلوب أن يشن غارات

جريئة على أغنى القرى بالمناطق السهلية الواقعة بين كامبيوس وقرطبة. وفي الوقت نفسه عمل بن حفصون على تدعيم قاعدته في برباط، وبذل كل جهد من أجل تبرير تلك الشهرة التي أحاطت به من تمتعه بالهيبة والجسارة. وقد أحست العاصمة الأموية مؤخرًا بحالة فزع كبيرة نتيجة الهجمات الجريئة والمتلاحقة التي شنّها ذلك المتمرّد. وفي عام ٨٨٣م (٢٧٠هـ) خرج قائد محمد الأول المفضل لديه، هاشم بن عبد العزيز، في حملة موجهة ضد اثنين من المتمردين الجدد في جبال منطقة الجزيرة الخضراء، ثم برباط، حيث تمكن من اخراج ابن حفصون منها. وقد فضل هذا الأخير الذهاب إلى قرطبة بصحبة القائد هاشم بعد أن أعلن استسلامه، فقبل القائد، وترك بالمنطقة حامية صغيرة تحت إمرة أحد ضباطه، عهد إليه ببناء الحصون الجديدة. بدأ عمر، الذي قوبل بالترحيب داخل العاصمة، يعمل ضمن صفوف قوات الحرس الأميري ثم رافق هاشمًا في الحملة الصيفية (الصائفة) التي وقعت في العام نفسه ضد ألبّة^(٤٤). وقد أظهر عمر بن حفصون تفوقًا أمام أسوار بانكوربو وظل ضمن صفوف الجيش الأموي حتى عاد إلى قرطبة. ولكن هذا الأندلسي المولدي لم يستطع التعود، مثلما حدث مع بن الجليقي قبل سنوات، على حياة المدنية الكبيرة، وأكثر من هذا على الإزدراء الذي أبداه أعيان العرب تجاه المسلمين الجدد أمثاله. وعلى أثر مشاجرة وقعت بينه وبين محمد بن وليد بن غانم، وإلى المدينة، شرع في الهرب، عائداً إلى برباط، ثم طرد الضابط الأموي بعد أن سلبه محظيته، وهنا عاد أفراد عصابته القديمة فانضموا إليه من جديد تغمرهم حالة من السرور التام، وخاصة بعد أن رأوا زعيمهم قد عقد العزم على أن يتخلص من لعنة العبودية لعرب قرطبة.

ومنذ ذلك الحين استأنف عمر بن حفصون هجمات السلب والنهب ضد القرى والضياح، وحياته السابقة كقطاع طريق، بل زاد على ذلك عزمه على تكوين إمارة مستقلة، مثل تلك التي أسسها بن الجليقي في الغرب. وهنا ضحك له القدر، فأصبح يمتلك في حوزته مجموعة من القرى : قرية أوتا، الواقعة غرب المنطقة التي يقطنها والده، ثم ميخاس وكومارس، هذا بالإضافة إلى امكانية سيطرته في ذلك الوقت على حصن أرشدونة المنيع. وبعد ذلك، خرج، في عام ٨٨٦م (٢٧٣هـ)، ليمد يد العون إلى حارث بن حمدون، متمرّد بني رفاعه، الذي لم يكن قد وضع سلاحه بعد وقام باحتلال الحامية، إذ كان يعلم بقرب وقوعها هدفاً للحصار. وحقيقة، فإن قدوم فصل الصيف قد تزامن مع الحملة الأموية. وعليه، فقد خرج جيش يقوده المنذر بن الأمير الحاكم، بغية محاصرة المدينة، فمنع، بعد شهرين من فرض الحصار الصارم، خروج المتمردين منها. ولكن المنذر لم يكن بإمكانه أن يستغل هذا النجاح الأولي الذي حققه. فحين علم

نبأ وفاة والده، الأمير محمد الأول، في قرطبة في الرابع من أغسطس عام ٨٨٦م (٢٨ صفر ٢٧٣هـ)، اتخذ طريقه، عبر الممرات الملتوية بجبال مالقة، عائداً إلى العاصمة كي يتولى زمام الحكم.

فترة حكم المنذر (٨٨٦ - ٨٨٨م) وتطور التمرد في الأندلس :

لم يكن بمقدور الأمير المنذر أن يحافظ على هذا الحكم ولو لعامين كاملين. وحين عين في التاسع من أغسطس التالي (٣ ربيع الأول) وهو في الأربعين من عمره (٤٥)، خاض غمار الحرب ضد المتمردين حتى صرعه الموت، بعد ثلاثة وعشرين شهراً، في ظروف درامية سنعرفها لاحقاً. وكما يذكر المؤرخون العرب، الذين أعربوا عن أسفهم لفقدانه، فإن المنذر لو امتد به العمر أطول من هذا، لتمكن من القضاء على التمرد قضاءً مبرماً في أرض أندلوثيا. وهو الأمر الذي ظل يشغل باله طيلة مدة حكمه؛ وقد وصفه مؤرخوه بأنه كان أميراً كريماً حليماً مع رعيته، يتميز بعلو الهمة والشجاعة. وقد بدأت العلاقات بينه وبين وزير والده وجنراله المفضل، هاشم بن عبد العزيز، منذ ٨٨١م (٢٦٨هـ)، تفتت بدرجة كبيرة؛ وعليه، فبعد قليل من وصوله إلى الحكم، انتهز بعض الوشائيات به، فعجل بالخلاص منه؛ أودعه السجن حيث قضى عليه داخله. كما أمر بسجن أولاد هاشم ومواليه وألزمهم بدفع غرامة قيمة للدولة، وصادر أملاكهم، حتى أدركهم عهد الأمير عبد الله، بعد فترة وجيزة، فأعادها إليهم وأطلق سراحهم.

كان ابن حفصون رجلاً يتحلى بروح ذكية وواقعية لأبعد الحدود، الأمر الذي جعله لا يعول كثيراً على الهدنة العابرة التي توفرت له بين موت أمير وتسلم آخر مقاليد العرس في قرطبة. وفي الأثناء التي كان فيها المنذر مشغولاً بأخذ يمين الولاء وتقديم الهدايا التقليدية لقواته احتفالاً بتوليته عرش قرطبة، لم يقف المتمرد مكتوف الأيدي. بل قام بالقاء كلمة ذات مغزى أدت إلى إنكاء روح الثورة لدى الفلاحين الأندلسيين، الذين أثقلتهم الضرائب التي لا سند لها من القانون وأعمال السخرة التي انطوت على كثير من الجور والظلم. «منذ وقت طويل - خطب فيهم - وأنتم تتحملون العبودية التي فرضتها عليكم هذه الحكومة. وتعانون من انتزاعها لأملاككم وفرضها للأعباء الثقيلة التي تثقل كواهلكم، في الوقت الذي يزيدكم العرب إذلالاً ويعاملونكم كالعبيد. إن ما أريده لكم هو تحقيق العدالة وأن تحلوا أنفسكم من اليمين الذي أديتموه» (٤٦). أدت هذه الكلمات إلى إطلاق روح الحماس عند الناس، وما عاد أحد يتحدث إلا عن سيرة ابن حفصون في أرجاء المنطقة الجبلية بأندلوثيا، فتمتدح خصاله كرجل تميز

بالشهامة، وهو ما يتمتع به حقا، ويمتدح احترامه للنساء وقانون الشرف، وعدالته النافذة ضد من يقوم بارتكاب عمل من أعمال العنف. كان محبوبا من قبل قادة جيشه لأنه عرف كيف يكسب حبهم له، فكان يغدق عليهم بالهدايا، وحين يظهر له تفوقهم في ميدان المعركة، يمنحهم النياشين العسكرية الحقيقية، فتارة يهديهم أسورة من ذهب، وتارة أخرى غيرها، وكلها أشياء تهدى إليهم في احتفال مهيب أمام قواته مجتمعة. وهكذا، بدأت مناطق نفوذه تزداد شيئا فشيئا. فأحكم قبضته على برييجو، وأسر قائد حاميتها، وسار بحملاته حتى قبرة، بل وإلى أبعد من ذلك، حيث فرض سيطرته على طريق جيان، كما استولى أيضا على قلعة إثناخار، وأمر عليها بعضا من أنصاره.

وفي الصيف الذي تلى تولى الأمير المنذر مقاليد الحكم. بدأ كفاحه ضد ابن حفصون. وفي هذه المرة لم يكلف الأمير نفسه مشقة الخروج، فعهد بالقيادة إلى ثلاثة من قواده، الذين خرجوا يقصدون أندلوثيا على رأس جيش من الفرسان. استعادت القوات منطقة إثناخار وأثارت الذعر في صفوف المتمردين حتى وصلوا إلى إقليم اللسانة، ولكن هذه النتائج لم تكن كافية، رغم إيجابيتها، وحين أيقن المنذر بهذه الحقيقة، قرر على الفور القيام بعملية أوسع، يشرف عليها بنفسه. وفي أوائل ربيع ٨٨٨م (٢٧٤هـ)، وبعد مرور موسم الأمطار الذي تأخر حتى شهر فبراير، خرجت القوات الأموية من قرطبة، متجهة نحو الجنوب، يقودها الأمير شخصيا، وذلك بهدف الاستيلاء على القلاع التي استحوذ عليها المتمردون ومحاصرة ابن حفصون داخل قلعة برباط. قام المنذر، في بداية الأمر، بمحاصرة أرشدونة، الواقعة في قلب مدينة ريه، بين أنتقيرة ولوشة، حيث كان يوجد بها أحد المولدين، يدعى عيشون تمثلت فيه سلطة ابن حفصون. ولجأ الأمير إلى تقديم الرشاوى لعدد من السكان فأسلموا له ابن عيشون حيا، فصلبه بين كلب وخنزير. وسرعان ما استسلمت أرشدونة عن طيب خاطر، وتم القبض على الرؤوس المدبرة للتمرد وأرسلوا إلى قرطبة انتظارا لصلبهم. وكذلك، فقد لقي ثلاثة من المحرضين على التمرد الذين استأجرهم ابن حفصون (بنو مطروح حارث، بنوعون، بنو طالوت)، ممن تزعموا حصون المنطقة الجبلية في برييجو، نفس مصير سابقينهم. وعقب ذلك توجه الأمير مباشرة إلى ابن حفصون، ضاريا أطنابه أمام أسوار قلعته. وماذا كان الموقف، هل كان الزعيم المولدى يخاف عدم قدرته على المقاومة، أم كان يحس مهارة فائقة يتمكن بها خداع أمير قرطبة؟ وحقيقة ما حدث هو أن ابن حفصون دخل في مباحثات مع المنذر أفهمه خلالها أنه على استعداد بأن يعلن استسلامه ويعدل عما اعتزمه شريطة أن يضمن له أن تكون معاملته فيما بعد معاملة طيبة وأن يحظى، ومن معه، باستقبال مشرف وبمكانة اجتماعية ممتازة. خدع الأمير

المنذر بهذه الكلمات المعسولة. وهنا حرر قاضى الجيش وثيقة شاملة بشأن العفو يتعهد الأمير بمقتضاها احترام حياة ابن حفصون وأن يشمل به فضل ورعايته، وأرسلت إليه مجموعة من خمسين بغلا لينقل عليها أمتعته وأمتعة من معه. سارت القافلة، تحرسها بعض فصائل الفرسان، عبر طريق وعر يؤدي إلى برباط. وفى هذا الوقت بالذات، رأى ابن حفصون أن الفرصة مناسبة ومغرية للتحلل من وعوده : فبعد أن اجتمع والأمير، هرب فى جنح الليل، حتى بلغ القافلة فئات الرعب فى قلوب الحرس واستولى على المطايا والهدايا التى كان الأمير قد أعدها لأفراد أسرته، الذين أقاموا بالقلعة.

غضب المنذر غضبا شديدا لوقوعه فى مثل هذا الشرك، فدعا قواته من جديد، بعد أن كانت قد بدأت العودة إلى ثكناتها، فحاصر برباط مرة أخرى، وأقسم بكل ما هو مقدس بأنه لن يتحرك من هناك إلا بعد أن يقبض على المتمردين، حيا أو ميتا. ولكنه لم يتمكن من الوفاء بيمينه. فقد داهمه المرض بعد أسابيع قليلة فطلب من أخيه عبد الله أن يحضر إليه قادما من قرطبة ليسلم له قيادة الحصار. وماكاد الأمير يصل، حتى أتى المنذر الموت^(٤٧)، فى ٢٩ يونيو ٨٨م (١٥ صفر ٢٧٥هـ). قام عبد الله، المرشح لخلافة أخيه، إذ لم يترك وراءه ابنا واحدا فى سن الرشيد تجعله مؤهلا لشغل منصب والده، ببذل مافى وسعه حتى يخفى نبأ وفاة أخيه عن الجنود، فهو يعلم، وهذه ظاهرة كثيرا ما وقعت فى التاريخ الإسلامى، أن الخبر إذا انتشر بين الجنود سوف تكون له نتائج سلبية ينجم عنها تفرق الجميع من حوله. وهنا أشار عليه المقربون منه بدفن رفات أخيه فى نفس مكان موته فرفض، وأذاع نبأ الوفاة بعد ثلاثة أيام، ثم هم باتخاذ الاجراءات اللازمة لرفع الحصار عن برباط، فحمل الجثمان على ظهور الجمال متوجها صوب قرطبة. وفى هذه اللحظة تفرق الجنود من حوله وما أصبح يرافقه سوى بعض الأمويين وعدد بسيط من ضباط القصر، فسلك طريقه برفقتهم إلى العاصمة. علم ابن حفصون بهذا الأمر فى مكان اختفائه، فعجل بالنزول ليخرب المعسكر ويثير الذعر بين القوات المنسحبة. وجد عبد الله أنه من الضرورى أن يرسل إليه رسالة مع أحد الخصيان المجندين يطلب منه عدم التعرض للموكب الجنائزى ويحيطه علما بأن الأمير الجديد راغب، فور توليه السلطة، فى أن تجمع بينه وبين ابن حفصون حياة يسودها السلام. وهنا قرر ابن حفصون. نظرا لما لاقاه من معاملة رقيقة، ألا يكون متمردا جباناً فنأى بنفسه عن التعرض ومضايقة القافلة الأموية الصغيرة، التى وصلت إلى قرطبة بعد أيام قليلة. أمر عبد الله بدفن جثمان المنذر فى ضريح القصر الملكى ثم بدأ يتلقى يمين الولاء للمنصب الجديد كأمر.

٢- الكفاح على الحدود ضد أوربونييو الأول وألفونسو الثالث حتى وفاة

محمد الأول :

إمارة بنى قسى :

نزل القوات النورمانية على السواحل للمرة الأولى ٨٥٨ - ٨٦١ :

أنت فترة حكم محمد الأول مواكبة للنشاط الحربى الخطير الذى استفحل على حدود مملكة أستورياس والامارة الباسكية. وقبل أن ندرس هذا النشاط تفصيلا، سنشير فى عجالة إلى الهجوم الخاطف الذى شنه النورمان فيما بين ٨٥٨ - ٨٦١م على مراكش وشبه الجزيرة الأيبيرية^(٤٩). نزل القراصنة الاسكندنافيون مرة أخرى على الساحل الجلىقى؛ ولكنهم، حسب ماتذكره رواية المؤرخ ألبند Albende قويلوا بمواجهة صارمة من جانب الكونت بدرو فصدّهم. ومن جانبهم، أصبح المسلمون يعدون العدة منذ بداية حملة عام ٨٤٤م. فقامت فصائلهم بحملات تفقدية دائمة عبر ساحل الأطلنطى، حتى الحدود المجاورة لخليج غسقونية Gascuna، حتى يصبح بمقدورهم مهاجمة سفن قراصنة البشكنس الشهيرة. نزل هؤلاء، بعد محاولات غير مجدية فى جليقية، ناحية الجنوب فى أسطول مكون من اثنين وستين زورقا. قامت القوات البحرية المسلمة بملاحقة زورقين من بين قطع الأسطول كانا يسيران فى طليعته فأسروهما عند ساحل المنطقة الغربية. أما بقية السفن فقد رست عند مصب نهر الوادى الكبير؛ ولكن سفن الماتشوس لم تنفذ عملية إنزال قواتها وذلك لعلمها بنزول قوات الجيش الأموى بوادى النهر وأخذت أهبّتها للانتقام منها. وما أن انتقلوا إلى منطقة الجزائر، حتى أشعلوا النيران فى المسجد الكبير بالمدينة، ولكنهم سرعان ما طردوا منها. وفى نفس المكان الذى كانت تعسكر قواتهم بنى مسجد خصيصا لإحياء هذه الذكرى، وصنعت أبوابه من أخشاب السفن التى تم الاستيلاء عليها^(٥٠). ومن الجزائر تابع النورمان سيرهم حتى ساحل مرسية فشنوا غارة على أوريولا، بينما ذهبت مجموعة أخرى من الأسطول لتخريب ناقور على ساحل مراكش، وسبى الأسرى^(٥١). وقيل أن يغادر النورمان سواحل اسبانيا الاسلامية نراهم قد تكبدوا خسائر فى المعدات بلغت أربعين وحدة. أما وحدات الأسطول المتبقية فقد انضمت إلى أسطول آخر، خرج لمهاجمة جزر البليار، كما أرسلت بعض السفن لترسو فى مجرى نهر إبره. وتمكنت مجموعة من تلك القوات من الوصول إلى بنبلونة، فأُسرت الملك الباسكى جارشيا إنيجث، الذى لم ينل حريته بعد ذلك إلا بعد أن دفع فدية بلغت عشرات المليارات من العملات الذهبية. ومن

بين الذين أسرهم النورمان من الجليقيين كان رفيق مغامرات عبد الرحمن بن مروان الجليقي، سعدون السرنباقي^(٥٢)، الذي افتداه تاجر يهودي ثم استأنف حياته كقاطع طريق داخل اقليم قُلُمريّة و اقليم شنترين، وذلك قبل أن يتم القبض عليه واعدامه من قبل ألفونسو الثالث. أما فيما يتعلق بسفن الماتشوس فقد واصلت سيرها، بعد أعمال التخريب في بنبلونة، حتى تمارس الأعمال نفسها في الأراضي الفرنسية. عبر مصاب الرودانو Ródano، وقد دمرت في طريقها كلا من أرس، ونيمس، وفالنس، ثم أكملوا تخريبهم في شمال إيطاليا، الذي ظل يعاني ويلات ما ارتكبه من أعمال العنف هناك. هذا هو مجمل ما قام به رجال البحرية الاسكندنافيون في عام ٨٥٩م (٢٤٥هـ). وما عدنا نسمع شيئاً عن أخبارهم إلا بعد مرور قرن من الزمان حين يبدأ التاريخ حديثه عن محاولة جديدة لهم ضد الأندلس أثناء حكم الحكم الثاني.

الحرب ضد مملكة أشتوريش حتي هدنة عام ٨٧٨ :

موسي بن قسي :

تزامن وصول محمد الأول للحكم مع تولى أمير جديد عرش امارّة أشتوريش: هو أوردونيو الأول، الذي حكم منذ عام ٨٥٠ وحتى وفاته، في السابع والعشرين من مايو عام ٨٦٦م. وقد أعرب هذا الأمير عن وفائه للسياسة التي رسمها أسلافه، فتطلع إلى مد أراضي مملكته الصغيرة صوب الجنوب، وذلك على حساب إسبانيا الإسلامية. وقد رأينا^(٥٣) كيف أن نشاطه ضد الاسلام قد بدأ بفشل حقيقي، عندما قام الأمير محمد الأول بسحق قواته، التي أرسلها بقيادة الكونت جاستون لم يد العون للمتمردين في طليطلة، أثناء معركة وادي سليط في صيف ٨٥٤م (٢٤٠هـ). ولم يكتف أمير قرطبة بهذا النصر المدوي على القوات الأشتوريشية، بل قررت القوات المسلمة دخول أبلّة مرة أخرى في العام التالي، تحت أمرة الأمير نفسه، أو تحت قيادة موسى بن قسي. وهذا الأخير هو الذي شهد تمرد أوردونيو الأول ضده، بعد أن انتهز الهدنة الطويلة التي عقدها معه محمد الأول، فقام ببناء حصون قوية كانت قد تهدمت، وأعاد تعمير مدينتي ليون وأمايا، وسلب الإمارة اثنين من قلاعها : تالامنكا وقورية.

أشرنا من قبل إلى الطريق المضطرب الذي سلكه موسى بن قسي^(٥٤). ففي أواخر حكم عبد الرحمن الثاني عاد ليستقل بنفسه تماماً، رغم كل البراهين التي لاتنكر من جانبه لحكومة قرطبة على حديثه في عزمه على الانضمام اليها. كما قام محمد الأول، بعد موت والده، بالاعتراف بسيد تطيله Tudela كواحد من أتباعه، مقتنعاً

حفاظا على مظهره، بمطالبته بإظهار الولاء الشكلي الخارجي، وهو الأمر الذي قبله موسى دون ماتكليف بالغ. وقد عهد إليه، في حينه، بالقيام بالحرب المقدسة باسم أمير الأندلس، ضد الثغور الاسبانية تارة، وضد مملكة أشتوريش تارة أخرى، وعلى جانب آخر. سمحت له درجة قرابته للبيت الحاكم في بسكونية بالتوسط في المشاجرات التي وقعت بين بنبلونة وقرطبة، وذلك نظرا لقوة ومتانة العلاقات التي تربطه بالطرفين. وفي عام ٨٥٦م (٢٤٢هـ)، أو قبل ذلك بأربعة أعوام، حسب ما تذكره إحدى الروايات التاريخية اللاتينية^(٥٥)، قاد، بأمر من محمد الأول، صائفة ضد برشلونة، دمر على أثرها المدينة، وأسر كونتين تابعين لقوات الفرنجة : هما نشودي كاسكونيا وإيمينون دي بيرجورد^(٥٦). وأغار أثناء تلك الحملة على قلعة تارجا Tarrega واستولى عليها، على مسافة ٥٠ كيلومترا شرق ليريد، واستعمل خمس الغنيمة التي فاز بها من حملته على هذه القلعة في توسعة المسجد الكبير بسرقسطة.

ومنذ البدايات الأولى لتلك الحقبة، خلع موسى بن موسى على نفسه هيئة الامارة، كما أطلق على نفسه «ثالث ملوك أسبانيا»^(٥٧). وبالفعل فقد أحكم قبضته، دون منازع، على الجزء الأكبر من الثغر الأعلى الاسباني، بما فيه سرقسطة وشقة وتطيلة^(٥٨). بدت أملاك موسى كما لو كانت جسدا غريبا وسط الأراضي الاسبانية، ولهذا أصبح لزاما عليه أن يهيئ نفسه للدفاع عنها وحمايتها، فأقام حصنا قويا منيعا عرف باسم ألبدا، على مسافة فرسخين جنوب لوجروينو الحالية. وماكاد ينتهي من تأسيس هذه القلعة، حتى قدم إليها أوردونيو الأول عام ٨٥٩م، فضرب عليها الحصار. وهنا حضر موسى للدفاع عنها، ووقع لقاء حاسم بين موسى وعاهل أشتوريش، في جبل لاتورس، نجم عنه : هزيمة العاهل الأشتوريشي واصابته بثلاثة جروح، وموت صهره جارثيا^(٥٩)، هذا إلى جانب نهب جميع الهدايا التي كان قد خبأها في معسكره، بعد أن تلقاها سلفا من كارلوس الأصغر، كغدية (مقابل إطلاق سراح الأسيرين الفرنجيين اللذين أسرهما في حملته على الأراضي الاسبانية) أما مدينة ألبدا فقد هوجمت وتم الاستيلاء عليها، وإبادة حاميتها عن آخرها، وتم تدمير القلعة^(٦٠). لم يدم عمر موسى بعد هذه الكارثة طويلا. وفي الوقت الذي كان ابنه لوبي قد اعترف بتبعية لـأوردونيو الأول، كان موسى يقوم بمحاولات لمد نفوذه صوب الجنوب؛ ولكنه، في هجوم على بن سليم^(٦١)، سيد وادي الحجارة، عام ٨٦٢م (٢٤٨هـ)، أصيب بجراح خطيرة أدت إلى وفاته قبل أن يتمكن من العودة إلى تطيلة.

وحين اختفى موسى بن موسى بن قسي، رأت حكومة قرطبة، بعد أن خسرت خدمات نصيرها المحارب النشط، أن الوقت مناسب لشن سلسلة من الحملات

الهجومية ضد أوردونيو الأول. وبعد مدة من موت أمير أراجون، خرجت حملتان، تفصل بينهما مدة عام واحد، نفذتهما قوات محمد الأول بنجاح كبير ضد أهالي أشتوريش، وكان الهدف من وراء هاتين الحملتين، كما هي العادة، التطلع إلى الاستيلاء على ألبه. تم تجهيز الحملة الأولى عام ٨٦٣م (٢٤١هـ) بأفضل وأدق المعدات، يقودها عبد الرحمن، بن الأمير، يساعده الجنرال عبد الملك بن العباس، شارك فيها أكثر من ٢٠٠٠ فارس تم تجهيز بالكور. توغل المسلمون داخل ألبه. وقطعوا أشجار الفاكهة، وجمعوا المحاصيل قبل أوان حصادها بقليل، وعبثا حاول أوردونيو، المحاصر في أجوار شعب لزم عليهم اجتيازه، أن يوقف تقدمهم : أسفرت المعركة عن تدمير قواته وقتل تسعة عشر كونتا من قواده في الميدان.

لم تكن حملة عام ٨٦٥م (٢٥١هـ) بأقل فائدة بالنسبة للقوات الإسلامية. وفي هذه المرة تسلم المنذر، وريث العرش، راية القيادة. خرجت القوات الأموية في بداية الأمر عبر وادي نهر الدويرة Duero، لتتقدم بعد ذلك جهة الشمال عن طريق جبال أوكا على الضفة اليمنى لنهر الأبرو. وبداية وضعت القوات يدها على القلاع المجاورة لمضيق برادانوس^(٦٢)، بالقرب من بريبيكا الحالية، حيث نشرت الدمار وسحقت كل مزارع المنطقة الممتدة على طول مساحات شاسعة. وهكذا دمرت مزرعة الكونت القشتالي رودريجو، لابوريبا، تدميرا جمع بين الدم والنار. وحين بدأ المنذر يعد العدة للعودة إلى الأراضي الإسلامية، علم بأن الممر الذي كان مقررا له اجتيازه، ممر لافوث دي مالاكويرا^(٦٣)، وسط جبال أوبارينيس، قد قطع بواسطة خندق عميق حفره الكونت رودريجو. وهنا، قرر المنذر أن يسير بقواته عبر شاطئ إير، وبهذا يصبح من الأفضل اختبار قواته أمام القوات المسيحية فوق ساحة سهلية مكشوفة. كانت المعركة، التي سرعان ما نشبت بين الطرفين، مهلكة بالنسبة لأنصار أوردونيو الأول، حيث سقط منهم قتلى كثيرون. ومن نجا منهم لاحقته القوات المسلحة، حيث غرق عدد كبير منهم في مياه النهر. وبعد هذا النصر، في ٩ أغسطس عام ٨٦٥م (١٢ رجب ٢٥١هـ)، أصبح الطريق خاليا أمام المنذر فهم بالرجوع إلى قرطبة^(٦٤).

وكذلك فقد قام محمد الأول، في العام التالي، بإرسال صائفة تجاه ألبه، ولكنها كانت بمثابة غارة عادية، لم تسفر عن لقاء حاسم بين المسلمين والمسيحيين. وفي عام ٨٦٧م (٢٥٣هـ)، قاد الأمير الحكم حملة جديدة ضد ألبه، أو لعلها كانت موجهة إلى جليقية، نجم عنها الاستيلاء على قلعة جيرنيكا. وعقب هذا رفض أمير قرطبة مواصلة هجومه ضد مملكة أشتوريش، وذلك بسبب تمرد بن الجليقي، في ماردة، والاضطرابات

التي تبناها بنو قسي، في رغون، وكلها أمور لم تتح له فرصة التفرغ لهاجمة أستورياس. كانت هذه الهدنة الضمنية فرصة ثمينة استغلها ألفونسو الثالث. خليفة أوردينيو الأول، فنظم حدود مملكته، في جليقية والبرتغال من ناحية، وفي ليون وقشتاله من ناحية أخرى، الأمر الذي جعله جديرا باللقب الذي أطلقه عليه المؤرخون الأسبان، وهو لقب «ألفونسو العظيم». وفي الحقيقة، لم يكن ألفونسو يستحق مثل هذا اللقب، فقد جمعه الحظ بابن حفصون، في نهايات حكم محمد الأول، والذي كانت له به علاقات مباشرة وغير مباشرة، ووجد فيه المساعد الغيور النشط الذي يعتمد عليه في الحصول على ما يصبو إليه من توسع اقليمي على حساب الأراضي الخاضعة للإمارة الأسبانية الأموية.

شهدت الفترة الأولى لحكم ألفونسو الثالث مؤامرة كبرى كلفته خسارة عرشه لبعض الوقت. حيث سلبه فرويلا، كونت جليقية، عرشه وأجبره على أن يلجأ إلى قشتالة. وحين استعاد ألفونسو الثالث عرشه عام ٨٦٦م، رأى من الصواب أن يشغل سادة جليقية بالصراع ضد الاسلام عبر الحدود الجنوبية المتاخمة لاقليمهم. وبعد سلسلة من الهجمات الموفقة تمكنت مملكة أشتوريش من بسط نفوذها على بعض الحصون المنيعة في شمال البرتغال الحالية : استولى الكونت بيمارانو بيريث عام ٨٦٨م على بورتو؛ وكذلك، فسرعان ماتم الاستيلاء على الاقليم الواقع بين هذه المدينة وتوى، فوق المينيو Mino، بعد أن انتهت عملية إعمارها. وفي هذه الظروف ولدت سريعا منطقة جديدة شهدت نفوذا مسيحيا حقيقيا، وصلت حتى شواطئ نهر الدويرة، بالقرب من المنطقة التي أعلن فيها بن مروان الجليقي، في السنوات التالية، تمردة ضد أمير قرطبة. وبعد سنوات، في عام ٨٧٧م (٢٦٣هـ)، حين اضطر متمرّد بطليوس إلى الهرب إلى جوار عاهل أوبييدو، الذي مازال يحتجز حتى هذا الوقت الجنرال الأموي هاشم بن عبد العزيز أسيرا. رأى محمد الأول أن الفرصة سانحة لشن عملية واسعة النطاق ضد جليقية؛ وعليه، فقد خرج جيش من قلمرية يقوده البراء بن مالك القرشي، في صيف ٨٧٨م (٢٦٤هـ) فعبر نهر الدويرة وهم بأعمال التخريب المتعارف عليها، رغم أنه قد تكبد خسائر ملموسة بعض الشيء. ومن المحتمل أن يكون الجيش قد اضطر إلى الانسحاب سريعا، فكما نعلم، أن الكونت إيرمينخيلدو اقتطع منطقة قلمرية من جسد الإمارة في ذلك الحين.

وهنا، اتخذ الأمير محمد الأول مبادرة، منيت بفشل ذريع. حيث طرأت على ذهنه فكرة : لماذا لا يستخدم السفن الاسلامية، التي أبحرت في مياه المحيط تترصد

الأساطيل النورمانية، ضد جليقية؟ وإذا ما كانت غير كافية، فتبنى سفن أخرى. وهكذا صدرت الأوامر إلى ترسانات أشبيلية وموانئ البحر المتوسط ببناء السفن، وما أن اكتمل الأسطول، وقام على قيادته أمير البحر عبد الحميد بن مغيث، حتى ركب البحر عام ٨٧٩م (٢٦٦هـ)؛ ولكنه سرعان ما أصبح لعبة في يد عاصفة عاتية أتت عليه من أوله إلى آخره. وما كان هذا آخر فشل يلحق بالأمير، فبعد هذا الحدث بعامين، حسب رواية المؤرخ ألبدي Albelde^(٦٦)، قام ألفونسو الثالث، فور علمه بانشغال أمير قرطبة في جنوب شبه الجزيرة، بحملة خرجت من قلب الأندلس لم يتحدث عنها المحللون العرب، بل أحاطوها بكتمان تام. اجتاز ملك أشتوريش شمال البرتغال، ثم نهر التاجه، بعد أن استولى، على الأرجح، على قلعة نفزة البربرية، على نهر وادي أنة، ثم تابع سيره على امتداد النهر حتى ماردة، وبعد أن اجتازه، توغل بقواته صوب سيرانورنا، وما أن وصل إلى جبل أوكسيفير حتى هزم الجيش المسلم الذي أتى للقاءه ثم عاد أدراجه إلى أوبييدو دون عائق يذكر.

أما فيما يتعلق بليون وقشتالة فإن الأمور قد تداعت بطريقة أخرى، ومنذ وصول ألفونسو الثالث للحكم، كان المسلمون هم الذين يملكون زمام المبادرة في الهجوم غالباً. فقبل عام ٨٧٧ - في تاريخ يصعب تحديده - خرجت إحدى الصوائف بقيادة المنذر، ابن الأمير الحاكم، حتى تهاجم ليون، ولكن دون جدوى، كما قام جيش قرطبي بهجوم على بيرثو Bierzo ولكن مجهوداته قد ذهبت سدى. انتهز ألفونسو الثالث هذين الفشلين ليستولى على حصن يدثيا وأتينثا. ويضيف المؤرخون المسيحيون، الوحيدون الذين يشيرون إلى مثل هذه الأحداث. أن المنذر قد قام في عام ٨٧٨م بحملة ضد أستروجيا وليون. وجه عاهل أشتوريش جهوده أولاً إلى اعتراض الامدادات التي كانت في طريقها للانضمام إلى الأمير المسلم فحطمها كاملة في بولبوراريا، على نهر أوبريجو Obrie-go. ثم سار في انتظار المنذر أمام قلعة سوبلانتثيا، على بعد فرسخين من ليون، قريباً من نهر إسلا Esla. ولكن الجيش المسلم لم يكن يلح على الدخول في المعركة، فقرر الانسحاب، الذي عد بمثابة هزيمة سلبية، تم الاتفاق على أثرها على هدنة لمدة ثلاث سنوات بين قرطبة وأوبييدو^(٦٧).

الصراع في بسكونية. بنو قسى في الثغر الأعلى واستئناف أعمال القتال ضد ألفونسو الثالث:

لا يذكر المؤرخون العرب، على مدى فترة حكم محمد الأول، أكثر من ثلاث حملات تأديبية قامت بها الامارة الأموية ضد مملكة بسكونية الصغيرة Vasconia: وقعت

إحداها عام ٨٦٠م (٢٤٦هـ)، والأخيراتان في ٨٧٣، ٨٧٤م (٢٥٩ - ٢٦٠هـ). قاد الأمير الأموي بنفسه أولى هذه الحملات، ويحتمل أن يكون موسى بن قسى قد شارك فيها هو الآخر، في الوقت الذي ساعد فيه العلاقة بين جارتيا وملك أشتوريش، أوردونيو الأول. وأسفرت هذه الحملة عن تدمير بنبلونة، وثلاث قلاع ضمن هضبة نبرة - كارباروسو، وفالثيس وميلاجروا الحالية^(٦٨) - كلها آلت إلى حوزة المسلمين. أسر فورتون، ابن الملك جارتيا، الملقب بالأنقر، لعور في عينه، داخل أسوار قلعة ميلاجرو، وحمل إلى قرطبة حيث بقي في الأسر مدة عشرين عاما قبل أن يسمح له بالعودة إلى موطنه. وكما سنرى، فإنه الجد الأكبر لعبد الرحمن الثالث من جهة أمه. وفيما يتعلق بالحملتين اللتين خرجتا في ٨٧٣، ٨٧٤، فهما عبارة عن حلقتين بسيطتين في سلسلة الصراع المحتدم، الذي رأى الأمير محمد الأول، مضطرا، ضرورة الإبقاء عليه في الثغر الأعلى، بعد أن اختفى موسى بن موسى بن قسى في ظروف ستتعرض لها الآن.

توفي موسى عام ٨٦٢م (٢٤٨هـ) وترك أربعة من الأولاد هم : لوبى، الذى أمهله القدر مدة وجيزة عقب وفاة والده، والمطرف وفرتون واسماعيل. وكما نعلم، فإن الابن الأول كان مستمرا على العهد الذى قطعه على نفسه بالخضوع لألفونسو الثالث، بعد الاستيلاء على ألبيدا، فذهب إليه بغية الاستقرار بمملكته، إلا أن الموت قد أتاه مبكرا. أما إخوته الثلاثة فأمضوا حياتهم فى جو من الهدوء التام على مدى السنوات التالية، كما سمحوا لحكومة قرطبة دون عناء يذكر باستعادتها لأملك والدهم. هذا إلى جانب بعدهم التام عن حركات التمرد التى طفت على السطح فى الأراضى التابعة لسرقسطة: ظهرت الحركة الأولى فى صورية، على يد سليمان بن عبدوس، وتم إخمادها عام ٨٦٩م (٢٥٥هـ)، أما الحركة الثانية فقد كان ظهورها فى العام التالى بأرض وشقة، بتحريض من الحاكم عمروس وابنه زكريا وحفيده لوبى. وما إن أخمدت جنوة هذه الحركة الأخيرة، حتى ظهر بنو قسى من جديد على ساحة الأحداث. وفى ديسمبر عام ٨٧١م (٢٥٨هـ) استطاع المطرف أن يستميل الحاكم الوفى لمدينة تطيلة وأعلن عن استقلاله بهذه المدينة. وفى الشهر التالى فعل اسماعيل مثل صنيع أخيه بمنطقة سرقسطة. مما استوجب رد الفعل الفورى من قبل محمد الأول. فخرج بنفسه متوجها إلى الثغر الأسباني، فاستولى على تطيلة حاضرة المطرف بن موسى، وصل إلى بسكونية فجاب أراضيتها ثم عاد إلى قرطبة، وهناك أصدر أوامره بإعدام المتمرد مع ثلاثة من أبنائه : محمد وموسى ولوبى. أما بالنسبة لاسماعيل فلم يكن من السهل إخضاعه، إذ لم يتمكن الجيش الذى خرج لنزاله فى ٨٧٣م (٢٦٠هـ) من استرداد سرقسطة مكتفيا بتخريب أراضى بنبلونة. استمر اسماعيل، حليف ألفونسو الثالث - مثل أخيه فورتون

تماما، الذي أصبح حاكما لتطيلة في هذا الوقت - يهدد بلا هوادة، على مدى عشر سنوات، أمير قرطبة، مما اضطره في نهاية المطاف إلى اتخاذ قرار عام في ٨٨٢م (٢٦٨هـ) بإرسال ابنه المنذر برفقة القائد هاشم بن عبد العزيز على رأس جيش عظيم مهمته شن حملة من الهجوم المتواصل على بنى قسى، وملك أشتوريش. عادت الجيوش المسلمة لمهاجمة سرقسطة مرة أخرى ولكن دون جدوى، فتحوّلت القوات إلى الجنوب بغية احتلال المراكز القوية في رويدة، ونهر الخالون Jalón، وبورخا، حيث كان يتواجد حفيد موسى بن قسى، ويذكر تاريخ البيلدي Albelde بأن محمد بن لوبى، نظرا لغيرته الشديدة من عميه، مد يد العون للأمير الأموى. وما أن وصلت تعزيزاته إلى جيش المنذر، حتى خرج ليهاجم مدينته لاردة والأراضي التابعة لها، والتي عرفت في ذلك الوقت باسم بربوتانيا أو بارييتانيا^(٦٩)، وهى بمثابة الاقطاعية الخاصة لاسماعيل بن موسى. وأخيرا، أعلن المتمرّد خضوعه وقدم الرهائن الكثيره^(٧٠). وعقب هذه المناسبة توجهت الجيوش المسلمة صوب ولبة لغزوها. شنت هجوما فاشلا على منطقة يثوريجو، فى المنحدر الجنوبي لجبال أوبارينس، وهاجمت بعدها قلعة بانكوربو، تابعت القوات سيرها بعد ذلك تجاه قشتالة واستولت على كاسترو خيريث، فى الوقت الذى كان الفونسو الثالث ينتظرها فى رباطة جأش بالمناطق المحيطة بليون. ولكن لم يقع اللقاء بين الفريقين. وعلى أثر المفاوضات التى جرت بين المسيحيين والمسلمين، عاد المسلمون إلى قرطبة فى شهر سبتمبر التالى، راضين بما حققوه من انجازات.

أما الابن الأخير لموسى بن موسى بن قسى - إذ توفى فورتون منذ فترة وجيزة - فلم يستقبل نبأ خيانة حفيده محمد بن لوبى وانضمامه للإمارة بشئ من الرضى، وعليه، فما أن جاوز جيش المنذر حدود منطقة الثغر الأعلى، حتى تعجل الهجوم عليه، ولسوء حظه، وقع فى الأسر، مع ابن أخيه فورتون، يدعى اسماعيل كعمه. قام محمد بن لوبى بحبس أقاربه داخل قلعة بقبيرة، وما أن وجد نفسه فى حالة فراغ، هم بالاستيلاء على سرقسطة، حتى يعيد سلطة محمد الأول عليها تعبيرا عن وفائه. ولكن هذا الأخير قد ارتكب حماقة مطالبتة تسليم المدينة ومعها بنى قسى كأسرى. رفض محمد بن لوبى هذا الطلب، وهو يتميز من الغيظ، وأفرج عن أقاربه وحاول أن يتقرب من الفونسو الثالث. وهنا لم يعد رد الأمويين على مثل هذا التصرف يحتمل التأخير. وفى عام ٨٨٣م (٢٦٩ - ٢٧٠هـ) أخذ الأمير المنذر والقائد هاشم بن عبد العزيز طريقهما صوب الحدود الاسبانية، آخذين معهم القائد الأندلسى «عمر بن حفصون» الذى، كما رأينا، قد انضم فى العام نفسه إلى حكومة قرطبة.

جاءت حملة عام ٨٨٣ نصا مكررا من سابقتها : فرض حصار آخر على سرقسطة لم يثمر شيئا؛ وعقد رباط أمام ثيورخيو وبانكوربو؛ ووقع هجوم فاشل على كاسترو خيريث؛ وتجولت القوات عبر سوبلانتيا ثم عادت عن طريق بالنسية دى سان خوان. كما بدأت فى نفس الوقت مفاوضات، ومازالت الجيوش المسلمة تتواجد فوق أراضى ليون. توجه الراهب دوليثديو، سفير ألفونسو الثالث، إلى العاصمة الأموية ليجرى مناقشات حول امكانية السلام، وفى عودته إلى أوبييدو، فى ٩ يناير عام ٨٤٤م، كان يحمل معه رفات الشهيدين إولوخيو وليوكريثيا، اللذان أعدموا قبل ستة وعشرين عاما فى قرطبة^(٧١).

لقد حان الوقت لى توافق الامارة على توقيع إتفاق سلام مع المملكة المسيحية فمئذ وفاة الأمير محمد الأول، عام ٨٨٦ (٢٧٣هـ)، أباحت حكومة قرطبة، التى بدت منهكة بسبب صراعاتها مع الفتن الداخلية، لألفونسو الثالث الاستمرار فى سياسته التوسعية الإقليمية التى تبناها مؤخرا دون عقاب يذكر. وقبل اتاحة مثل هذه الفرصة لملك أشتوريش، كان قد استغل العشرين سنة الأولى من فترة حكمه قدر استطاعته، حتى يعمل على توطيد وتعمير مناطق نفوذه الجديدة. أصبحت حدوده من الغرب إلى الشرق تحميها المواقع الاستراتيجية الهامة مثل: قلُمريّة وأسْتُرْقَة وليون وأمايا. وهاهو الآن يسمح لعدد كبير من المستعربين بأن يقيموا فوق الأراضى التى افتتحتها حديثا. وكان هؤلاء من الذين غادروا أقاليم الأندلس ليجدوا أنفسهم مرة أخرى داخل الأراضى المسيحية^(٧٢)، استمرت هذه الهجرة على مدى فترة حكم الأمير عبد الله، وحتى السنوات الأولى من القرن التاسع. ومن المعروف، على سبيل المثال، أن حصن سمورة المنيع قد تم إنشاؤه فى عام ٨٩٣م (٢٨٠هـ) على يد ألفونسو الثالث، بمشاركة المستعربين من أهالى طليطلة^(٧٣). وهنا غدت كل أودية المنطقة مسومة بالقلاع الجديدة: فأقيمت بورجوس عام ٨٨٢ أو ٨٨٤م فوق الأرنطون، على يد الكونت ديجو دى كاستيا، وأقيمت سيمانكس فوق البيسورجا، فى عام ٨٩٩م، فى نفس الوقت الذى أقيمت فيه مثيلتها دونياس؛ وأخيرا، أقيمت قلعة تورو جنبا إلى جنب مع سمورة، وذلك لتأمين حوض نهر الدويرة. وبعد موت ألفونسو العظيم، تم إنشاء قلعتين عظيمتين، قريبتين جدا من أرض المسلمين : سان استييان دى جورماث وأوسما، زودتا بأسلوب متقدم فى نظام الدفاع، وسوف نرى فيما بعد مدى الصراع الذى نشب بين هاتين القلعتين وجيوش قرطبة بقيادة عبد الرحمن الناصر^(٧٤).

وفى الوقت الذى وقعت فيه اتفاقية السلام مع ملك أشتوريش كان بنو قسى مايزالون على ساحة الأحداث : مثل محمد بن لوبى وعمه اسماعيل. وقد استقر اسماعيل، تبعا لما تذكره رواية ابن خلدون، فى مدينة ليريدة وقام بادخال تحصينات عليها عام ٨٨٤م (٢٧٠هـ). وهنا، انزعج كونت الفرنجة على برشلونة لهذا الجوار، فهم بمهاجمة اسماعيل، الذى صده بكل قوة وألحق به خسائر جسيمة. وفى العام نفسه، لم يتمكن محمد بن لوبى، رغم محاولاته المتكررة، من نيل رضى ألفونسو الثالث، ولهذا وجب عليه أن يأخذ حذره من بنى المهاجر، الذين كانوا يسمون فى الغالب بالتوجبين. وقد كلفت هذه الأسيرة العربية، لما لها من نفوذ فى رغون منذ أيام الفتح، من قبل الحكومة الأموية بتكوين جبهة صد أمام النشاط السياسى لحفيد موسى بن موسى، وسوف نعود لاحقا للحديث عن هذه الأسيرة (٧٦). عهد الأمير القرطبى إلى عبد الرحمن بن عبد العزيز، الممثل الرسمى للبيت الحاكم. بإنشاء الحاميات، فى جنوب شرق سرقسطة، فى قلعتى أيوب ودرؤقة. مارس التوجبيون الأوفياء ومحل الثقة جميع صنوف الضغط على حركة محمد بن لوبى على مقربة من عاصمة الثغر الأعلى أسفر عن محاصرة محمد بن لوبى وحراجه موقفه للغاية. وبدلا من أن يتحلى بالنزاهة والليونة فيقوم باخلائها بحثا عن ملك فى مكان آخر بعيدا عنها، فضل أن يبيعها، لمن؟ يبيعها للأمويين أنفسهم! تمت اجراءات البيع بالاتفاق مع القائد هاشم بن عبد العزيز، الذى قدم من أراجون لقيادة الصائفة فى ٨٨٤م (٢٧١هـ)، كما قام بدور الوسيط فى عملية البيع هذه رايموندو دى بالارسى، صهر زعيم التمرد. وهذا هو مايمكن فهمه، على الأقل، من رواية ابن حيان (٧٧)، رغم أن مؤرخا آخر هو ابن خلدون يتحدث، فى معلومات غير مؤكدة، بأن سرقسطة قد حوصرت حصارا صارما وتم الاستيلاء عليها. ومنذ هذا الوقت، تتابع الحكام الأمويون على حكم مدينة الإبرة، حتى استولى عليها التوجبيون بعد ذلك لست سنوات.

وطوال المدة القصيرة التى استغرقها حكم المنذر لم تطرأ تغييرات على أوضاع الثغر الأعلى. وما أن تولى الحكم بعده الأمير عبد الله حتى غدا الإقليم الحدودى مسرحا للصراعات الملتهبة. ولكن طال الوقت بقرطبة حتى تفصح عن ربود أفعالها. وماعدنا نرى على مدى عقود عديدة متتالية الجيوش الأموية تصعد فى كل صيف إلى وادى نهر إبرة، لتقر فيه النظام العابر ثم تنزل قواتها فى الأراضى التابعة لاقليم ألبه، مسببة الرعب والدمار.

٢- جماعات التمرد وتفتت السلطة الملكية مدة حكم عبد الله ٨٨٨ - ٩١٢م^(٧٨):

الأمير عبد الله «دعامة» الأسرة الاسبانية - الأموية :

نعلم، منذ أمد بعيد، وبطريقة تفصيلية كُنه الأحداث المختلفة التي شهدتها الأندلس على مدى الأربع والعشرين سنة التي استغرقتها حكم الأمير عبد الله، والذي عاش حيناً تداطمه أمواج الاضطرابات المتلاحقة. وقد جاء سرد مثل هذه الأحداث عبر صفحات عديدة من كتاب المؤرخ ابن حيان، وقد اطلع على هذا المخطوط، المحفوظ في مكتبة بودليانا بأكسفورد، كل من دوزي وسيموني، فاستخلصا منه ملخصات عدة في كتابتهما عن المسلمين والمستعربين في إسبانيا، وذلك قبل أن يقوم ب. أنطونيو بنشره في طبعة حديثة. يأتي الجزء الكبير الذي يخصصه ابن حيان لهذه الأحداث في كتابه، حسب قواعد التحليل التقليدي، يعج بخلط فائق الحد، وهو الأمر الذي لا يجب أن ننسبه إلى المؤرخ. فكل المعلومات التاريخية الخاصة بهذه المملكة تتشابك دوماً بعضها ببعض. فالأمر لا يتعلق فقط بخيانات إقليمية، محددة المعالم الجغرافية لاتجمع بينها علاقات مشتركة. وهاهم المعادون للنظام الأموي يجمعون أمرهم للعمل، في حالة من جمع الشمل والاتفاق وثيق العرى، فيأمرون بتكوين جماعات أو بحل أخرى، حسب ماتقتضيه الظروف. وسرعان ما أعلن المولون تمردهم ضد العرب، فبادر هؤلاء، سواء شاركهم البربر أم لا، بإعلان الهجوم على المسلمين الجدد. ومن البديهي أننا داخل هذه المتاهة ذات التحويلات الدائمة ليس من السهل الحصول على خيط يسوقنا إلى دليل. وبهذا يصبح من الأفضل التضحية في بعض المناسبات، بغية الإيضاح، ببعض الحلقات التي تأتي في المرتبة الثانية من الأهمية من أجل تركيز أكبر على وضع نظام لمجموعات الروايات غير المحتملة عن الثورات وحركات القمع لها أثناء تلك الفترة التي شاعت فيها الفوضى.

كان عبد الله في الرابعة والأربعين من عمره حين تولى مقاليد السلطة. فقد ولد في الحادي عشر من يناير عام ٨٤٤م (١٥ ربيع الثاني عام ٢٢٩هـ)، نفس العام الذي ولد فيه المنذر، كما أنه ابن أمة أيضاً. كان المنذر ذا شعر أسود مسترسل، وتظهر علامات الإصابة بمرض الجدري على وجهه، ولكن الأمير الجديد كان متوسط الطول، ذا عينين زرقاوين وشعر أشقر ضارب إلى الحمرة، مثل كثير من أمراء أسرته المالكة^(٧٩). كانت ميوله متواضعة، وما أغراه الترف، مثلما يمكننا الاستدلال على ذلك بهيئته المتواضعة ونوع الحياة التي كان يعيشها. تميز بالقناعة، وماجرب الخمر قط. تمتع بثقافة واسعة ممتازة وماكانت تنقصه البلاغة حين يتحدث، كان ضليعا بالعلوم

الدينية وعكف عن تلاوة القرآن فكان يقرأ كل يوم جزءاً، حتى حفظه عن آخره إلى جانب أشعار من الأدب القديم؛ وحين كانت تتاح له الفرصة كان ينشد الجميل من أبيات الشعر. كان فقهاء قرطبة يشرفون على ورع الأمير ويشجعونه عليه. وما كان يضرب بالرأى العام عرض الحائط، وخاصة بالعاصمة. كان يتلقى الشكاوى التي يقدمها أهالي قرطبة بنفسه، والتي كانت تشكو من سوء استغلال موظفيه لسلطتهم؛ وحين أمر بفتح باب في سور القصر أطلق عليه باب العدل، أصبح يجلس بصفة مستمرة تحته مرة كل أسبوع يستقبل أولئك الذين يرغبون في تقديم طلباتهم إليه شفويًا أو كتابةً. وماتخلف قط عن صلاة الجمعة في المسجد الجامع، ودائماً ما كان يلزم نفسه بصلاة النفل الكثير. ولكنه حتى يضمن انتقاله المباشر من القصر إلى مقصورته الخاصة بالمسجد، والتي أقامها والده في مقدمة صفوف المؤمنين، أمر ببناء ممر مغطى، يقطع شارع البونيتي وينتهي بباب يؤدي إلى أحد المباني الملحقة بالمسجد^(٨٠). مثل هذا الحذر، الذي لم يلجأ إليه سابقوه، يسمح لنا بأن نتكهن بأن عبد الله كان لا يثق بطبعه بأي شيء وكان يخشى أن يقدم نفسه هدفا سهلاً للانتقام من قبل أحد الساخطين عليه من رعاياه، رعم أن المؤرخين العرب، الذين يميلون إلى الاطراء دائماً، لا يرون في هذه المبادرة الكبرى سوى دليل على احترام الأمير لرعاياه من أهالي قرطبة، فما أراد أن يضطرهم للانحناء احتراماً له عند مروره أو يجعلهم يمضون وقتاً طويلاً في انتظار خروجه عليهم ليهتفوا بحياته. وإذا ما استثنينا حالة التشاؤم التي كانت تعترى الأمير في أمور حياته اليومية، وورعه، وتطلعاته البسيطة، وقلقه الفطري، وسوء ظنه، وريبته، فإنه يملك - تبعاً لما يراه جمع الفقهاء المحيط به، كل صفات الأمير الفاضل. وما خانته رجال الدين قط أثناء الفترة العصيبة التي واجه فيها كثيراً من المشاكل والمحن. وماتراً بفكرهم أيضاً أن يدرجوا اسمه ضمن قائمة التشهير بالمجرمين في الجرائم التي ارتكبتها، باسم حق الدولة، عدد من أفراد أسرته. وعلى العكس، فقد ألح عليه الفقهاء حتى أدخلوه السجن، لمرة واحدة على الأقل، ولكن ليقوم بسفك دم أحد المقربين إليه.

ونحن في سردنا للأخبار والظروف التي أدت إلى وفاة الأمير المنذر أمام بربشتر، والطريقة التي خلفه بها عبد الله، نعتمد على الرواية التقليدية، كما ظهرت مسجلة في أغلب كتب التاريخ. ترد هذه الرواية ضمن حكايات أحمد الرازي وابنه عيسى، محلان عاشا في ظل مملكة عبد الرحمن الثالث، ولهذا، فما كان لهما أن يلطخا، دون انزال العقاب بهما، ذكرى جد هذا الأمير، الذي أقدم في حياته على تعيين حفيده وريثاً للعرش الأموي. والآن، نقول إن مثل هذه الحيرة والشكوك لم تكن توجد

عند المؤرخ ابن القوطية، كما أنه لا يمكن أن نعثر عليها فيما بعد عند ابن حزم الذى عرف بعدم تهاونه. فكلاهما^(٨١) يتهم بجلاء شديد الأمير عبد الله بالتخلص من أخيه المنذر ليحل محله فى السلطة، وهما محقان، بكل تأكيد، فيما يقولانه. ففى تلك الفترة لم يكن من الصعب تقديم الرشوة إلى أى طبيب أو خصى وإجباره، مثلما هو الحال بالنسبة لما نتحدث عنه، على استخدام مشروط مسمم حين إجرائه لعملية العضد. وفيما بعد، سنرى كيف أن الأمير عبد الله كان لا يحفل كثيرا لحياة من تبقى من إخوته، أو أبنائه. وما كان عبد الله، باتباعه هذا الأسلوب، الأول أو الأخير بين أفراد الأسرة الأموية الحاكمة، فقد سار على نهجه بعد زمن وجيز عبد الرحمن الناصر.

أنجب الأمير عبد الله، كما يذكر مؤرخوه، أحد عشر ابنا : أنجب سبعة منهم قبل وصوله الحكم، وأربعة بعده. كان أكبرهم يدعى محمدا، ولد عام ٨٦٤م (٢٥٠هـ) وعين وريثا للعرش. كانت أمه در بمثابة أم ولد. وتبعاً لتقليد ظهر أثره فى تاريخ مايا Meyá، فيما يتعلق بنسب ملوك بنبلونة، كانت هى أميرة بسكونية، ابنة حفيد انييجو أريستا، دونيا إنييجا^(٨٢)، تزوجت للمرة الثانية من الملك عبد الله، وأنجبت منه الأمير محمد. وأيا كان القصد من وراء هذا التأكيد، فإن أحداثا غير هذه يمكن تصديقها لأمحالة، فقد ابن السيدة إنييجا حياته وماكاد يبلغ السابعة والعشرين، ثمنا لثورة غضب ألت بوالده، حيث اتهمه، وهو محق فيما ذهب إليه بلاشك، بالتآمر عليه لقتله وتولى زمام أمر الولاية من بعده. وكثير من المحللين الرسميين الذين عاشوا فى القرن التاسع. ولم تكن لهم نفس الروح الاستقلالية التى كان يتمتع بها كل من ابن حزم وابن القوطية، أصبحوا يعرضون الأحداث بطريقة تجعل الحق دائما فى جانب أمير قرطبة ضد ابنه. فحين عين محمد لخلافة والده مستقبلا على العرش، أثار ذلك كره وحسد أخيه المطرف، الذى تمكن، بفعل الدسائس التى حيكت مع الموظفين والمقربين من رجال البلاط، من أن يدفع والده إلى الزج بأخيه وريث العرش فى غياهب السجن. وفى اللحظة نفسها التى تم فيها الإفراج عن محمد، نظرا لعدم توافر الأدلة، هم المطرف بدخول منطقة القصر التى كانت مقرا لسجن أخيه، ثم طعنه عدة طعنات فى ٢٨ يناير عام ٨٩١م (١٣ شوال عام ٢٧٧هـ). وقبل واحد وعشرين يوما من وقوع هذا الحادث، ولد ابن للمسكين محمد فى قرطبة، هو عبد الرحمن، الذى سيلقب فيما بعد بالناصر. وهنا، أراد الأمير عبد الله، الذى أخذ يتميز من الغيظ لقتل المطرف لأخيه كراهية له، تبعاً لما يذكره المؤرخون، أن ينزل العقاب بالذنب، إلا أن حاشيته قد أقنعتة بالعدول عن ذلك. ولكن الحقيقة تختلف تمام الاختلاف عن هذا كله، فلدينا الدليل على أن المطرف قد أقدم على قتل أخيه محمد بأمر صريح من والده.

ولكن المطرف، الذى كان يصغر أخاه الأكبر بخمس سنوات، لم يمهله القدر ليحيا مدة أطول من خمس سنوات أخرى بعد وفاة أخيه، حيث كان هدفاً هو الآخر لثورة أبيه. وماكان للفقهاء الذين أهانهم إهانة كبيرة أن يغفروا له موقفه منهم. فحين تمرد إقليم أشبيلية عن آخره، اتهم المطرف بخيانة والده فى هذا الاقليم، واغتيال وزيره وقائده المفضل عبد الملك بن عبد الله بن أمية، وتجمعت لدى الأمير عبد الله كل الأدلة التى من شأنها أن تدين ابنه، فامتلاً حقداً وغيظاً عليه. ولكنه أظهر حالة من التردد فى توقيع العقوبة عليه، وهنا جاء دور الفقهاء، متأثرين بدور الفقيه ابن لبابة^(٨٢)، فحملوا الأمير على تنفيذ ما اعتزمه. وقد ظل المطرف يدافع عن نفسه على مدى ثلاثة أيام فى قصره بقرطبة أمام الجنود الذين كلفوا بالقبض عليه، وحملوه فى النهاية إلى حيث يوجد والده، فى الثانى من نوفمبر عام ٨٩٥م (١٠ رمضان عام ٢٨٣هـ)، حيث أمر عبد الله بضرب رقبتة فى الحال ودفنه تحت شجرة من أشجار الريحان فى حديقته، وهو المكان الذى اعتاد المطرف (الضحية) الجلوس فيه يشرب الخمر.

ولم يكن نصيب من تبقى من إخوة عبد الله بأفضل من نصيب أبنائه : فلم يفلتوا من العقاب، مثلما حدث مع المنذر، نتيجة الحالة المرضية التى اعترت الأمير والمتملة فى عدم الثقة. وعليه فقد راح يتخلص منهم، بأدنى ارتياب، فى كل مرة تقدم ضدهم شكوى، حتى ولو كانت مجرد وشاية، فقد أصبح يجد فيها الفرصة المناسبة لذلك، ففي الثالث والعشرين من سبتمبر عام ٨٩٧م (٢١ شعبان ٢٨٤هـ)، عقب إعدام المطرف بعامين، جاء الدور على هاشم، ابن محمد الأول، فدفع حياته ثمناً لمؤامرة ملفقة لم يجرؤ القاضى النقى على كشف حقيقتها. كما أصدر عبد الله أمراً بدس السم لأخيه القاسم فى تاريخ غير معروف، وغالباً ماكانت الأسباب جميعها تدور حول اتهامهم بتدبير المؤامرات التى تهدف إلى قلب نظام الإمارة.

آن لنا أن ندع جانباً الحديث عن تلك الدراما التى صنعت حياة هذه الأسرة الحاكمة، والتى توافرت بكثرة فى كل فترة من فترات تاريخ العصر الوسيط، المسيحية منها والإسلامية. فما أن وصل عبد الله إلى العرش، الذى سعى إليه كثيراً بشتى الوسائل، حتى وجد خزائن الدولة تعج بالثروات، الأمر الذى أحاطه بسعادة غامرة، فبغير هذا الرصيد المتراكم الاحتياطي الذى تركه له أسلافه لم يكن بمقدوره تعديل ميزانيته، ولا دفع رواتب موظفيه وجنوده النظاميين. وفى الحقيقة، بدأ تحصيل الضرائب يتناقص شيئاً فشيئاً، وفى كل فصل من فصول السنة المالية، بدأ الأمير يدرك بمرارة عجزاً جديداً ويقيس من خلاله، فى نفس الوقت، مدى اتساع رقعة المناطق

التي لا ترغب في أن تعترف له بالسلطان. وفي أكثر من مناسبة، لم يكن إيفاد الحملات إلى مكان أو آخر في أي منطقة يهدف إلى شيء سوى إلزام المتمردين بدفع ضريبة استثنائية، وإحضار الأموال إلى خزانة الدولة. وهاهي الأيام التي كان أبوه وجده ينفقان فيها الأموال عن سعة قد ولت. فغدا الأمير فقيرا، لكنه، لحسن الحظ، لم يكن بخيلا، فرأى أنه ليس من المناسب أن يثقل كاهل البعض من رعاياه الأوفياء بضرائب جديدة.

وفي نفس الوقت، تلقى مؤازرة غير مشروطة، وخاصة من جانب العائلات الكبيرة بقرطبة. فهاهم أبناء هاشم بن عبد العزيز، الذي أطلق سراحه عقب وصوله إلى الحكم^(٨٥)، يعربون له عن امتنانهم العميق لهذا الأمر. كما أزرته مجموعة طيبة من الضباط والقادة - الذين منحهم لقب وامتيازات الوزير-، من بينهم عبد الملك بن عبد الله بن أمية، الذي حزن كثيرا لاغتياله على يد ابنه المطرف؛ وعبيد الله بن محمد بن أبي عبدة، الذي شغل، في نفس الوقت، منصب رئيس إدارته، وكان يرأس الإدارة المركزية، كما هي العادة، حاجب، وهو المنصب الذي شغله على التوالي كل من عبد الرحمن بن أمية بن شهيد، وسعيد بن محمد بن السالم. وقد ألغى هذا المنصب في أواخر حكم الأمير عبد الله^(٨٦)، ولكن عهد بمهامه، دون اللقب، إلى خصي وفي، هو بدر الصقلي، دون أن نخلط اسمه بسمي له هو بدر بن أحمد^(٨٧)، أحد ثقات الأمير، الذي أصبح بعد ذلك، حتى وفاته عام ٩٢١م (٣٠٩هـ)، المساعد الرئيسي للأمير عبد الرحمن الثالث.

وأيا كان مصدر النصائح المسداة، في كل ما يعرض من قضايا، هو الوجهاء أو الفقهاء من أصحاب النفوذ من أفراد حاشيته بقرطبة، فما كان الأمير عبد الله في حاجة إلى من يذكر فيه الحس السياسي، الذي توفر لديه بالفطرة. فحين رأى نفسه تحيط به الأزمات من كل جانب، وخاصة المالية منها، أدرك تمام الإدراك، منذ اللحظة الأولى التي تولى فيها السلطة، مدى العمل الطويل الشاق الذي ينتظره، وأنه لا يمكن لحملات غير مضمونة العواقب وخاطفة، أن تكون كافية وحدها لإعادة بناء الامارة الأموية على أسس متينة، بعد أن بدأت تترنح أمام ضغوط القومية الاسبانية والنزعة الفردية العربية. ورغم علمه بحجم قدراته التي لا يمكنه من بناء الامارة على نفس الأسس المتينة التي أرساها أسلافه مثل الحكم الأول وعبد الرحمن الثاني، لم يشأ أن تخمد همته أو يصاب باليأس، كما أنه لم تزل قدماءه بعد، خاصة إذا ما كرس جهوده لتعبيد الطريق أمام من يأتي بعده. إنه من سيقوم بتعيينه في القريب العاجل : حفيده

«عبد الرحمن»، وليس واحداً من أبنائه الذين سيتمد العمر بهم من بعده؛ انه ذلك الطفل اليتيم الذي راح أبوه ضحية أزھقت روحها على يد جده عام ٨٤٩١م، انه وليد ابنه محمد أكبر أولاده، الذي سيحظى بجانب بسيط من حنان جده المتبقى في قلبه المتحجر. ضم عبد الرحمن لكنف جده ورعايته منذ نعومة أظفاره، واعتنى به جسدياً وروحياً، وتربوياً، طرب كثيراً لذكائه، ووضع فيه مسبقاً آمال الأسرة الحاكمة. وأخيراً، فبرغم أن الأمير عبد الله لم يبد رباطة جأش، كانت صفة ملازمة لأغلب أفراد الأسرة الأموية باسبانيا، فقد كانت له، في بعض الأحيان، ربود فعل لم تكن لتصدر عن غيره من أمراء الأسرة المروانية. وهكذا، فحين بلغ بن حفصون أبواب قرطبة وجد الأمير نفسه مضطراً، خوفاً من ضغط أفراد حاشيته والخوف من الخيانة، إلى أن يبرهن للجميع على قوته فجأة، والتي ستؤدي إلى نصر غير متوقع لـ «بولي». وأياً كانت أخطاؤه ونقاط ضعفه، فليس بإمكاننا إنكار أن الأمير عبد الله جدير بأن يوضع في مكانة منازرة للحكم الأول وعبد الرحمن الثاني فيما يتعلق بتأسيس الإمارة الأسبانية الأموية، هذا إلى جانب العمل الفذ الذي قام به عبد الرحمن الداخل. وربما أن ذلك هو الذي يفسر قيام عبد الرحمن الثالث، أو الأكبر، بتوجيه الشكر إلى جده، في محاولة منه لمحو الآثار الدموية التي مازالت تلتخ سيرته في ذاكرة معاصريه.

تفتيت الوحدة السياسية :

ماكاد الأمير عبد الله يصل إلى الحكم، في بداية صيف ٨٨٨م، حتى اشتعلت نيران الحرب الأهلية في معظم أقاليم الأندلس، ومازالت تشتعل هنا أو هناك متفاوتة فيما بينها قوة وضعفاً. إنه أمر أشبه بالانفجار الذي لامقدمات له، فنجم عنه تفتيت فوري في الأقاليم بعيداً عن كل التقديرات، وانقسامات لم تشهد اسبانيا الإسلامية لها مثيلاً قبل حلول عصر الطوائف. فقد أخذ الجميع، المولون والعرب والبربر، في جنوب وشرق وغرب قرطبة، يعملون على زعزعة السلطة الأموية. تتنازع الكل فيما بينهم، وماعدوا أياً من الأمال على السلطة المركزية الأموية، حيث ماكانوا يُكنّون لها الكره والانكار. وماكان الوضع القائم في الثغور بأفضل من هذا الحال، بداية بإمارة بن مروان الجليقي، في إكستريما دورا والمنطقة الغربية، وانتهاءً بالأملاك الخاصة لبنى قسي في طليطلة و«رغون»، بالإضافة إلى العرب التوجيين. وإذا ما أردنا عمل إحصاء لحركات التمرد التي ظهرت على مسرح السياسة في الأندلس، والتي تتوافر لدينا معلومات كثيرة عنها، فسنجد أنها تصل إلى مايقرب من ثلاثين حركة. وماكانت هذه

الحركات تتمتع بدرجة واحدة من الأهمية، وكذلك فإن بعضها لم يكن بمقدوره أن يصمد في الساحة زمنا طويلا، فالمغامرون الصغار الذين لا يتحركون في فلك متمرّد مهم له مكانة كبيرة كانوا يواجهون أحد مصيرين : إما أن يتم ابتلاعهم من قبل جار أقوى منهم، وإما أن يتم اخضاعهم لسلطة أحد الجنرالات العسكرية الموالية، وحين يحدث لهم ذلك، تكون نقطة النهاية لكل منهم فوق الساحة. كان هؤلاء المتمرّدون البسطاء يواجهون أعمالهم ضد أندلوثيا، حيث لم يكونوا يتمتعون بعتاد ونفوذ قويين، أما الأدوار الكبرى فما كان يقوم بها منهم إلا أربعة هم : سوار العربي، في منطقة البيرة، والعربيان كريب بن خلدون وابراهيم بن حجاج في منطقة أشبيلية، وابن حفصون، قائد بوياسترو بيشتر المفترس، الذي بسط نفوذه الواسع على هذه الأرض نظرا لما كان يتمتع به من شخصية غير عادية.

كان أغلب زعماء التمرد من المولدين أو المسلمين الجدد، وكلهم من جيران وحلفاء بن حفصون. كان زعيم هؤلاء الاسبان الذين اعتنقوا الإسلام حديثا هو عبد الله بن أمية، والذي لقب بابن الشالية، نسبة إلى أسرته، حكم مدة منطقة المرتفع الجبلي المسمى بسيمونتين (في اقليم جيان الحالي، بين لنيارس والوادي الكبير). واتخذ من قطلونية مقرا له^(٨٨). وعلى أرضها ظل يزهو بنفسه ملكا صغيرا؛ يملك قوادا وقوات عسكرية عالية التنظيم؛ زوج ابنته لجعفر، أحد أبناء بن حفصون، واحتفظ بامارته المستقلة حتى السنوات الأولى لحكم عبد الرحمن الثالث. كما استطاع مولد آخر. هو سعيد بن وليد بن ماستانا، أحد مستشاري بن حفصون الذين كان يسمع لكلامهم، تسلم زمام الأمور في مناطق خاضعة لقلاع بريجو، كاركابوي ولوكويين ولوكي (بين قرطبة وحيان)، من الصمود حتى أواخر حكم عبد الله. كما كان بنو هاييل من المولدين أيضا (منذر بن هريز وأخوته الثلاثة : هاييل وأمير وعمر) تمركزوا في شمال شرق جيان واستولوا على عدد من القلاع من بينها مارجريتا وسان استييان دل بويرتو. وفي ناحية الجنوب، تولى المولدي جابر بن شاكر زمام الأمور في قلعة جابر، أما قلعة مونتيليون، بالقرب من جيان، غير البعيدة عن منطقة مارتوس، فقد ملك زمام أمورها سعيد بن هذيل.

كما أن هناك بعض المولدين - دون الإشارة إلى بني قسي في رغون، وابن مروان الجليقي، في باداخوس (بطلينوس)، كانت لهم ممالك في الفترة نفسها، ممالك مستقلة في جنوب شرق شبه الجزيرة، واطليم تودمير. أما مدينتي مرسية ولورقة فقد اجتمع الأمر فيهما لديسم بن اسحق، صاحب إدارة وجيش أحسن تنظيمها، وقوات

للمشاة، وأخرى مكونة من خمسة آلاف فارس، كانوا في غالبيتهم من المرتزقة. خرج إليه جيش أموى فهزمه عام ٨٩٦م (٢٨٢هـ)، نون أن يتمكن من انتزاع مناطق نفوذه، التي توفي فيها بعد ذلك بعشر سنوات، ولما يستسلم بعد. وفي جنوب البرتغال، تمكن اثنان تابعان لابن مروان الجليقي من تكوين منطقتي نفوذ مماثلة وعلى نفس الدرجة من الأهمية: هما عبد الملك بن أبي الجواد، في باجة ومارتلة، ويكر بن يحيى بن بكر، في شنتمرية الغرب^(٨٩)، التي تعرف الآن باسم فارو، عاصمة أكشونية. وقد ظل والد هذا الأمير الصغير رافعا راية التمرد منذ أواخر حكم محمد الأول. كان حفيدا لمسيحي من المنطقة الغربية، يدعى ثابولفو. أما خلفه يحيى، الذي يتفاخر بأنه جار لملك أشبيلية، ابراهيم بن حجاج، فقام بتحسين مدينته، وأحاطها بأسوار ذات أبواب كسيت بصفائح من حديد، زودت بمستشارين وسكرتاريين وجنرالات وإدارة مالية حقيقية. كان رجلا متحررا، ومضيافا، ولهذا فقد ألزم رعيته باستقبال كل أبناء السبيل الذين يمرون بأراضيهم. كانت سنتا ماريا تضم بين جنباتها كنيسة كبيرة، أضفت عليها هيئة العاصمة. كان الأمير عبد الله غير راغب في الدخول في حرب مع عدوه البعيد عنه، فتفاهم معه في النهاية وبلغ به الأمر أن عهد إليه بحكم اقليم أوكسوتريا كله، وعاصمته سيليس. طال عمر يحيى بن بكر بعد موت عبد الله إلى أوائل حكم الناصر، وسوف يخلفه من بعده ابنه خلف، الذي سينضم إلى عبد الرحمن الثالث عام ٩٢٩م (٣١٧هـ).

كان المتمردون من البربر، الذين أعلنوا عصيانهم للأمير عبد الله، ينتمون في معظمهم إلى سكان المناطق الجبلية. وعلى جنبات الصفحات التالية سنتحدث عن بنى ذى النون ونشاطهم في الثغر الأعلى. أما بقية المتمردين فكانوا فرادى لا يتمتعون بنفوذ قوى في جيان والبيرة أو إكستريمادورا والألتيوخو. وفي جيان نفسها قام شخص يلقب بالملاحى، ويعرف باسم عمر بن مريم الهترولى، بالاستيلاء على مقاليد الأمور في المنطقة بعد أن اغتال حاكمها؛ لكن لم يطل به العمر، حتى استسلم، بعد مجموعة من الأحداث عام ٩٠٣م (٢٩٠هـ)، للقائد ابن أبي عبدة، حين هاجمه، وحمله إلى قرطبة. كما أن البربر، وخاصة، كوتاميثس خليل بن المهلب وأخوه سعيد، بعد أن استولوا على قلعتى توربى كارويلا^(٩٠) وإسبراجيرا في اقليم البيرة، الواقعة على مسافة خمسين كيلومترا شمال شرق غرناطة، قد أعلنوا استسلامهم، وإن عاد الزعيمان لإعلان التمرد من جديد، وما كان عبد الرحمن الثالث يحسب حسابهما جيدا في عمليات القمع حتى عام ٩٢١م (٣٠٩هـ). وأخيرا، يأتى بربرى من نفزة هو زوال بن يعيش بن فورانيك، صاحب قلعة أم جعفر^(٩١)، في اقليم ماردة؛ وفي هذا الاقليم أيضا كان هناك متمرد آخر هو بن تاكيت، وربما بدت عليه العداوة لابن مروان الجليقي.

أما العرب، فكان ظهور التمرد الفردي نادرا جدا من ناحيتهم، حيث كانوا يفضلون العمل ضمن حركات معارضة كبيرة ظهرت على مسرح إقليمى البيرة وأشبيلية. مع هذا، نذكر من بين العرب المتمردين محمد بن أضحى الهمذاني فى نوءاليخو، بشمال غرناطة؛ وتمرد آخر قام به الضابط العجوز اسحق بن ابراهيم العقيلي، المسمى بابن عطف، فى مُنتيشة^(٩٢)، بأراضى جيان؛ والمنذر بن إبراهيم بن السالم. وانتهى به الأمر إلى الاغتيال، فى مقر اقامته فى جراثالما^(٩٢) بمنطقة قادش الحالية، وذلك على يد عبد له يدعى جاليندو، فحل محله وليد بن وليد، أحد أقاربه، فاستمر على تمرده حتى أخضعه خلف الأمير عبد الله.

النزاع بين العرب – والمولدين فى منطقة البيرة :

بعد مرور عدة شهور على وفاة المنذر ومجيئ أخيه إلى الحكم، أى فى ربيع عام ٨٨٩م (أوائل ٢٧٦هـ). بدأ الصراع يحتدم بصورة أكبر مما كانت عليه بين العرب والمولدين من أهالى البيرة. قام المسلمون الجدد، بعد أن رأوا الفرصة سانحة للهجوم المفاجئ على القائد القيسى يحيى بن سوقالة فانتهزوها، ثم حملوه أسيرا وذبحوه، مع عدد من أتباعه. وقد كان أحمد بن سوقالة هذا قائدا، منذ فترة وجيزة، لحركة عربية ضد المولدين فى المنطقة، وفى عدة لقاءات مع القوات الاسبانية هزمها، حين كانت تحت قيادة نبيل والشميس. كان يستخدم قلعة مونتيخر كقاعدة لعملياته، والتي توجد على مسافة ٦٠ كيلومترا شمال غرناطة، ووقعت أخيرا فى يد المولدين، فاضطر لتوقيع هدنة معهم. وحينئذ استسلم فى مدينة البيرة ثم اغتيل بعد ذلك.

وقبل أن نقوم بسرد أحداث هذا الصراع، نقدم بعض المعلومات عن الوحدات الأساسية للمنطقة التى جرت فوقها تلك الأحداث. وقد ذكرنا فى مناسبات عدة اسم إقليم إدارى وعسكرى يعرف بـ «كورة البيرة». كانت أراضيه تابعة، فى العصر الوسيط، لإقليم غرناطة الحالى. حملت هذه الكورة، مثلها فى مثل بقية الأماكن فى الأندلس، اسم عاصمتها، ويرجع وجودها إلى التقسيم الكنسى ومناطق اسبانيا القوطية. وقبل وصول المسلمين إلى إسبانيا كانت هناك محلة قديمة رومانية فى أحد جوانب غرناطة الحديثة، والتى شهدت عام ٣٠٠م انعقاد مجلس أسقفى شهير. كما أقام كثير من الحكام الأوائل المسلمين فى كورة البيرة هذه، ولكن، كما هو الحال فى أماكن أخرى من إسبانيا، فضل الولاة الذين أتوا بعد ذلك الانتقال إلى منطقة أخرى

قريبة من العاصمة القديمة. وبهذا ظهرت تلك العاصمة الجديدة على السطح وأصبحت تعرف باسم قشتالة، وذلك قبل تأسيس الدولة الأموية بقليل على يد عبد الرحمن الأول. واستمر هذا الاسم، كورة إلبيرة، يطلق على الاقليم، وأكثر من ذلك، أنه امتد ليطلق أيضا على قشتالة تميزاً لها، في الوقت الذي بدأ يفقد مسماه القديم شيئاً فشيئاً. وكما رأينا، فإن مسمى إلبيرة قد أصبح يطلق على المحلة القديمة التي كانت مجاورة لمنطقة البيرة القديمة، التي غدت تعرف باسم جديد هو : غرناطة. ولم تكن غرناطة وقتها، في القرن التاسع، سوى قرية كبيرة محصنة، أخذت تتدرج على امتداد الشاطئ الأيمن لنهر حدره Darro، في مكان غير بعيد عن إلتقاء هذا النهر بنهر شنيل Genil، سكنها حينئذ عدد قليل من المسلمين، وكثرة من المسيحيين، أما عدد اليهود فقد كان كثيراً فاق أعداد المسيحيين، ولهذا غدت تعرف باسم «غرناطة اليهود». وعلى الجانب الآخر من النهر، فوق قمة جبلية شديدة الانحدار تحتضن الشاطئ الأيسر لنهر حدره، شيدت قلعة قديمة، عرفت باسم الحمراء، نظرا لأن أسوارها قد صنعت من طوب مدقوق له لون أشقر ضارب إلى الحمرة، وأصبحت بعد ذلك مقرا أقام فيه النصريون، كان لها فيما بعد شهرة ذاع صيتها. وبالنسبة لمدينة إلبيرة، قشتالة القديمة، الواقعة على مسافة ١٢ كيلومترا شمال شرق غرناطة، بين مجموعة من القرى الحالية - أترافي وبينوس بونيتي - فقد كانت، أثناء مدة الامارة، وبعدها في ظل الخلافة الأموية، مدينة مزدهرة مزدهمة بالسكان. بنى مسجدها الجامع^(٩٤) وتم توسيعه عام ٨٦٤م (٢٨٠هـ) على يد محمد الأول، نفذت رسوماته، مثلما حدث في مسجد سرقسطة، على يد حسن الصنعاني. قام البربر بتأسيس وتدمير البيرة أثناء الحرب الأهلية في بداية القرن الحادي عشر عام ١٠١٠م (٤١٠هـ). هاجر سكانها آنذاك إلى غرناطة المجاورة، والتي تحولت، بعد ذلك بسنوات قليلة، إلى عاصمة للمملكة المستقلة لبنى زيرى فى إسبانيا^(٩٥).

كان من بين سكان منطقة البيرة، في الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها، مجموعة كبيرة من المولدين، الذين اعتنقوا الإسلام مؤخرا، ومن العرب البسطاء، الذين أقاموا بها بعد الفتح أو من الذين ينحدرون من موظفين حكوميين أقاموا بالمنطقة، وأخيرا، ودون أن نحصى الأقلية البربرية، نجد مجموعة من الجنود العرب، السوريين، الذين وفدوا من دمشق. ورغم هذا الحشد غير المتجانس من السكان، إلا أنهم لم يفقدوا، وحتى نهاية القرن التاسع، وعيهم بأصولهم. أما فيما يتعلق بالعرب البلديين والشاميين، فقد ظلوا محتفظين بما يجمع بينهما من مظاهر المودة والعداء العرقية، رغم

تبنيهما موقفا إيجابيا تجاه الحكومة المركزية، فأظهرا لها احتراما كبيرا؛ ولم يتعرض هؤلاء لشئ من مغالاة جباة الضرائب، وظلم الرؤساء المحليين، فأعلنوا ولائهم وغدوا يمثلون عماد النظام القائم. كانت قرطبة تعلم هذه الأمور جيدا فما شاعت أن تضايق هؤلاء الأصدقاء للنظام، والذين غالبا ماكانوا يكسبون القضايا التي يرفعونها ضد جيرانهم العرب، المتكبرين، المتعجرفين والكسالى، الذين عاشوا كالطفيليات إلى جوارهم فى الأراضى التي كانوا يمتلكونها. كانوا يتفوقون فى العدد، ولهذا قام هؤلاء الموحدون، بالإضافة إلى عدد لا يستهان به من الاسبان الذين ظلوا على مسيحياتهم، وبالتشجيع الضمنى من جانب حاكم الاقليم، بتكوين نوع من الاتحاد الحكومى، فى الوقت الذى تمكن فيه القلق من النفوس نتيجة أحداث الشغب فى جنوب الأندلس، وذلك من أجل تكوين جبهة مضادة، عند اللزوم، للموقف العدائى المستمر الذى تبناه جيرانهم العرب، والذين تجمعوا، بدورهم، فى جماعات معادية.

هكذا كانت تسير الأمور عندما وصل المولدون والعرب إلى الحكم، وقد نجم عن المرحلة الأولى للصراع الاستيلاء على مونتينيخير واغتيال يحيى بن صقاله على يد عصاة من المسلمين الجدد. تجمع عرب البيرة فى الحال حول الزعيم الجديد سوار بن حمدون القيسى، الذى رأى ضرورة الانتقام لمقتل يحيى بن صقاله وابنه الأكبر. حاول فى بداية الأمر استرداد قلعة مونتينيخير، ورغم استماتة أهلها فى الدفاع عنها، إلا أنه تمكن من الاستيلاء عليها وإبادة حاميتها من المولدين. ولم يرض العرب بهذا العمل، فأرادوا ضم عدد آخر من القلاع إلى نفوذهم. أثار هذا الأمر حفيظة المولدين، فطلبوا معونة حاكم الاقليم، جاد بن عبد الغفار الخالدي، الذى خرج على رأس القوات المرابطة فى البيرة والبقية من المسلمين الجدد، وذلك لمهاجمة سوار؛ ولكن المدينة انتصرت لنفسها من جديد، فصدت جيش جاد حتى المناطق المجاورة لألبيرة، كما قام أهلها بأسر حاكمها. أضفى النصر جسارة على العرب، فبدأوا الاتصال بذويهم فى المناطق المجاورة مثل ريو (مالقة)، وجيان، وقلعة رياح. كما طلب المولدون من الأمير عبد الله ان يمد يد العون إليهم. فحاول الأمير البحث عن حل سلمى للقضية، فعرض على سوار ومن معه من العرب أن يمنحهم امتيازات جديدة إذا ماتخلوا عن أعمال القتال وتصالحو مع المولدين. قبل سوار هذا العرض، ولكنه، نظرا لأن القوات التى كانت تحت يده مدربة وذات كفاءة عالية، استخدمها، وربما بتحريض من الأمير نفسه، لشن هجوم على أتباع بن حفصون القرييين من اقليم البيرة. لم يكن هذا هو مافهمه المولدون من توقف أعمال القتال الذى تم الاتفاق عليه مؤخرا، ولهذا، هاجموا العرب من جديد،

والحقوا بهم خسائر جسيمة واضطروهم إلى اللجوء إلى قلعة الحمراء. وحين وجد سوار نفسه ومن معه محاصرين بما يقرب من ٢٠.٠٠٠ جندي أسباني، ورأى أن الموقف يتدهور بالنسبة له، اتفق مع أتباعه على البحث عن مخرج إيجابى، وفى موقعة المدينة، تمكن العرب من النزول إلى سهل ضئيل، فقتلوا أكثر من نصف قوات الحصار.

وبعد هزيمة غرناطة هذه، لم يعد أمام المولدين من مهرب سوى أن يلقوا بأنفسهم فى أحضان ابن حفصون. وهنا قدم متمرّد برباط إلى البيرة، فجمع الفرق التى وجدها بها، بعد أن انضمت مؤخرًا إلى مناطق نفوذه، وخرج أملا فى لقاء العرب؛ ولكن سوار، الذى كان ينتظره ثابت القدمين متمكنا من النصر، هزمه. وعاد ابن حفصون إلى (ببشتر)، يكاد يتميز من الفيظ، بعد أن ترك لنائبه حفص بن المرة مهمة مواصلة الكفاح. وسرعان ما وقع سوار فى كمين، وقتل فى نفس العام الذى تولى فيه القيادة. نصّب العرب من خلفه، رجلا محاربا اشتهر بالشجاعة فى ميدان القتال، هذا إلى جانب ما اشتهر به من قرض الشعر، انه سعيد بن سليمان بن جودى الساعدي، ينتسب إلى قنسرين. ولكن القائد الجديد لم يكن يحظى، رغم هذا كله، بنفس مكانة سابقه كزعيم، أو يتحلى بصفاته كقائد حرب. ورغم أنه استطاع فرض سيطرة نسبية على العرب، وضم إليه مجموعة من القلاع الجديدة، مثل مُنتيشة وبُسطة، إلا أنه لم يقدّم بأعمال عسكرية متميزة وبراقة. منح الأمير عبد الله سعيد بن سليمان نفس الامتيازات التى كانت لسوار. حيث ظلت مدينة البيرة تحت سلطانه لفترة طويلة من الزمن، ولكنه كان يقيم يصفة شبه دائمة فى غرناطة. وفى عام ٨٩٢م (٢٧٩هـ)، وقع اشتباك بينه وبين ابن حفصون أسفر عن هلاك عدد كبير من القوات العربية، فى مرج الجنيل، ووصل الأمر إلى حد الإذلال من جانب ابن حفصون لسعيد بن سليمان. ولم يتمكن هذا الأخير من الحفاظ على الخلافات التى عملها صدر أتباعه كامنة تحت السطح، وهكذا مضت أعوام سبعة. وفى عام ٨٩٧م (ذو القعدة ٢٨٤هـ)، عندما استردت حكومة قرطبة إقليم البيرة، قتل سعيد بن جودى على يد واحد من العرب، كان قد أغوى امرأته، وتوافق موته مع حل جماعته. وهنا دب الصراع بين العرب فى المنطقة، فبدأوا يتقاتلون، يقتلون ويُقتلون، دون أن تسفر الجهود التى بذلت من جانب البعض من زعمائهم عن أمل فى توحيدهم من جديد. أما بالنسبة للأمير قرطبة فما فعل شيئا سوى أنه ربح من جرّاء ما قام به العرب والمولدين فى إقليم البيرة من تصفية بعضهم البعض فى مثل هذه المشاجرات الداخلية. وسوف يكون عبد الرحمن الثالث، حين يصل إلى الحكم، وخاصة فى السنوات الأولى، هو من يعيدهم إلى جادة الصواب.

إتحاد بحارة بجانة فى أواخر القرن التاسع :

الآن نتوقف عن الاسترسال فى سردنا الرتيب لمثل هذه الصراعات الفوضوية لنذكر بعض الشئ عن الاتحاد البحرى الطريف الذى تكون على أرض اقليم بتيشينا. فما قام به هذا الاتحاد من نشاط فى منتصف القرن التاسع لم يحظ حتى اليوم ولو بمجرد الإشارة إليه^(٩٨)، على الرغم من أن المعلومات التى وردت إلينا عنه لم تذكر فقط فى كتاب المؤرخ ابن حيان، وإنما ذكرها أيضا الجغرافى البكرى، فى وصفه للشمال الأفريقى، والذى ترجم وتداوله الناس منذ زمن بعيد. بدأت المملكة الأموية فى إسبانيا تتطلع إلى امتلاك طرق بحرية، وذلك نظرا لما كانت تتمتع به من موقع جغرافى متميز وساحل ممتد، كما دفعها إلى ذلك موقعها المنعزل بالنسبة لبقية العالم الإسلامى، لعدم وجود خط برى يربط بينهما. وبالفعل، فهناك معلومات تؤكد بأن المملكة كانت تمتلك منذ وقت مبكر، بالإضافة إلى السفن التى عبرت البحر لصد الهجمات النورمانية، أسطولا تجاريا على درجة عالية من الكفاءة، أخذت تستورد على متنه الغلال من المغرب وتصدر عبر البحر المتوسط، محاصيل أراضيها والأراضى التابعة لها، هذا إلى جانب السلع الترفيهية التى كانت الورش المتخصصة فى المدن الكبيرة تهتم بصناعتها. وليس هناك من ضرورة تدعونا إلى التعمق كثيرا فى تاريخ أسبانيا الإسلامية حتى نتمكن من العثور على أدلة شاهدة على إنشاء الترسانات (دور الصناعة)، ووجود تجارة منظمة وهامة بين موانئ الجنوب والشرق وساحل شمال أفريقية. وقد رأينا من قبل، مدى تطور العلاقات البحرية مع ناقور وسوس فاروج؛ ميناء المملكة الرستمية فى تاهرت. كما نعلم أن المغامرين الإسبان قد خرجوا، فى عهد الحكم الأول، للقيام بأعمال القرصنة فى مياه البحر اللاتينى حتى وصلوا إلى كريت فاحتلوها؛ كما اشترك بحارون آخرون من الأندلس، بعد ذلك بقليل، فى فتح سيشيل، ماديين يد العون إلى الأغالبة. وهكذا، سواء أكان الأمر متعلقا بالعلاقات التجارية أم بأعمال القرصنة، فقد أصبح من الضرورى إعداد أفراد من البحارة المدربين ونوى الكفاءات العالية. كانت الأندلس تعج بأمثال هؤلاء : كانوا فى غالبيتهم من أصول إسبانية، مولدين ومسيحين، كما عمل بجانبهم قليل من العرب والبربر.

كانت مجموعات هؤلاء الملاحين، فى عهد محمد الأول، تمتلك، على طول ساحل البحر المتوسط، موانئ متراصة بين لَقْنَت وأجلاس، ومن بينها الميناء الرئيسى المعروف باسم إسكومبرايراس^(٩٩)، أمام الجزيرة التى تحمل هذا الاسم، على الجانب الشرقى لخليج قرطاجنة. وكان من عادة هؤلاء الملاحين أن يذهبوا إلى الساحل الأفريقى القريب

أثناء الخريف، يقضون الشتاء به ثم يعودون في الربيع يحملون معهم البضائع الثقيلة. ومن أجل هذا قاموا بتوقيع معاهدات صداقة مع قبائل بربرية على الساحل المغربى، كما عاش بين هذه القبائل - بصفة دائمة - أناس يمثلونهم يحملون صفة «قنصل» كانوا يختارونهم من بينهم. وبهذه الطريقة أصبح فى مقدور عدد كبير من الأندلسيين أن يقيم شيئاً فشيئاً فى موانئ الشمال الأفريقى ويحصل فيه على سكنى دائمة. كما قاموا فى عام ٨٧٥م (٢٦٢هـ) بتأسيس قرية تينس الجديدة، على مسافة قصيرة من قرية تينس القديمة (١٠٠). وبعد مدة وجيزة، أى فى عام ٩٠٢م (٢٩٠هـ)، أقدم بحارون أندلسيون، يرأسهم محمد بن أبى عون ومحمد بن عبدون، على اتخاذ قرار بالاقامة فى ميناء وهران (١٠١)، بعد أن حصلوا على تصريح من البربر القاطنين بالمكان. وبعد سبع سنوات هاجمتهم القبائل المجاورة، فخربت منازلهم، ولكنهم عادوا إليها مرة أخرى عام ٩١١. ويذكر لنا البكرى موانئ أخرى فى الشمال الأفريقى، كانت فى عصره - القرن الحادى عشر - فى قبضة الجماعات الأندلسية (١٠٢)، مثل بونا (١٠٢)، وبوخيا (١٠٤) ومرسى الروجاج (١٠٥). وبواسطة البكرى أيضاً نعلم أن هناك مجموعة من أبراج المراقبة، تعرف باسم «مادية» (١٠٦)، وذلك كقاعدة لتجارتهم فى اسبانيا. كان هذا المكان مرصداً، يقع فى خليج توافرت له الحماية الجيدة، يحتضن مصب نهر صغير جانبى، هو نهر باندركس (وادی بجانة). بدأ برج بجانة، الذى سرعان ما أطلق عليه اسم الميرية، يتحول منذ ذلك الحين إلى ميناء مورود وفعال على ساحل الأندلس المطل على البحر المتوسط.

ومابيتشينا اليوم إلا قرية صغيرة على الشاطئ الأيسر لنهر الأندركس، فى مكان غير بعيد عن منحنى هذا النهر الصغير، الذى يهبط من المنحدر الجنوبى لسلسلة جبال الثلج، متجها صوب الجنوب قبل أن يصب فى البحر على مسافة تزيد على عشرة كيلومترات. كانت مقاطعة بجانة فى القرن التاسع مقرا لبعض العرب اليمنيين، الذين عهد إليهم عبد الرحمن الثانى بحماية الساحل أمام مايتردد عن نزول قوات للمجوس به، حيث اضطروا للاقامة هناك فى رباط دائم، وذلك نظير منحه لهم الوادى الخصيب لنهر الأندركس. ولهذا السبب أصبح الاقليم يعرف باسم «أرش اليمين» (١٠٧). كان الملاحون الأندلسيون ينزلون - فى طريق عودتهم، بألمرية، وفى ظروف لاتعرفها، وقع اتفاق بينهم وبين عرب أرش اليمن يقضى بتأسيس مايمكن أن يطلق عليه «جمهورية» الملاحين، تكوين محمية فى مواجهة الاعتداء المتوقع من الجيران. وقرروا أن تكون بجانة هى عاصمة الجمهورية الجديدة. وماكانت بجانة حتى الآن مدينة متكاملة وإنما مجموعة من المباني المتناثرة، أقام فيها عمر بن أسود، أهم شخصية هناك فى أرش اليمن،

مسجدا جامعا يتكون من ستة صحنون، وقبة نصف كروية تقوم على أحد عشر قوسا مؤسسه على أعمدة. ومنذ إنشائه عام ٨٨٤م (٢٧١هـ) (١٠٨)، قام الملاحون ببناء سور حول بجانة واضطلعوا بمهمة تحويلها إلى مدينة حقيقية. ويذكر البكري أنهم قد اعتمدوا نموذج العاصمة الأموية في بنائها واعدادها، كما علقوا تمثالا للعدراء فوق أحد أبوابها، مماثلا لذلك الذي ازدان به باب المعبر في قرطبة (١٠٩)؛ وهذا التفصيل يدل دلالة كبيرة على أنه كانت تعيش بين الملاحين مجموعات كبيرة من المسيحيين، الذين اهتموا أيضا بتأسيس كنيسة لهم. وفي وقت قريب تحولت بجانة - بفضل حركة أسطولها في البحر، الذي كان يرسو من قبل بشاطئ ألمرية، إلى مدينة زاهرة؛ استضافت بكل ترحيب خلف أسوارها العديد من رجال الأعمال، الذين أخذ عددهم يزداد مرة بعد الأخرى، فأقاموا فيها بصفة نهائية؛ انتشرت بها الحمامات والمصانع المنتجة للحرير، مما جعل الفلاحين يقومون، في البلاد المجاورة، التي يكثر فيها شجر التوت، بتربية دود الحرير.

وبعد أربع سنوات من تأسيس دولة بجانة الاتحادية، ربما بتشجيع من محمد الأول والمنذر، وصل الأمير عبد الله إلى العرش في قرطبة. وهنا أرسل إليه العرب والملاحون من أهالي بجانة باعلان يعلنون فيه بتعيينهم له، طالبين منه أن يترك عليهم الزعيم الذي اختاروه لأنفسهم، راغبين، في نفس الوقت أن يسمح لهم بتوسيع مساحة دولتهم بعض الشيء، وأن تكون دولة مستقلة، تنعم بالحماية الأموية. أجابهم الأمير فيما ذهبوا إليه من مطالب، فأصبح بإمكانهم أن ينشئوا حزاما أمنيا من القلاع حول منطقة نفوذهم : فأقاموا في الغرب قلعة الحمراء، والهايبا، وقلعة بن طارق، أما في الشرق فأقاموا، ناجرة، وفي الشمال، على الجانب الآخر من سلسلة جبال فيلا بريس، المشهورة بمحاجر المرمز الكثيره، أقاموا حصنا قويا عرف باسم بورتشينا، على نهر المنصورة. ثم عمدوا بعد ذلك إلى الاستيلاء على الطريق البري الوحيد الذي يربط بين بجانة، بتفرعاته المختلفة، وادي آش في الغرب، وموريثا في الشمال الشرقي.

وفي العام التالي ٨٨٩م (٢٧٦هـ) قام زعيم الرابطة العربية في البيرة، سوار بن حمدون، ظنا منه أن بيتشينا قد غدت صيدا سهلا، بالاغارة عليها. جاء هذا الأمر من جانب ابن حمدون نتيجة لاغراءات كثيرة : فهو يقوم، من ناحية، بمهاجمة المولدين والمسيحيين، الذين سلبوا بعض العرب حقوقهم المكتسبة، ومن ناحية أخرى، رأى أن بإمكانه أن يحصل على غنيمة كبيرة من وراء هذا الهجوم. كان زعيم الملاحين في ذلك الوقت رجلا يتميز بقوة الشكيمة، يدعى عبد الرازق بن عيسى. أصبح هذا الزعيم،

بمشاركة زعماء حلفائه من العرب، بنو أسد، يملك زمام الأمور في هذه الجمهورية، وغدا بإمكان المسافرين الذين ينزلون للراحة في ألميرية و يقيمون بعض الوقت في بيتشينا، قبل أن يأخذوا طريقهم عبر الجنوب الإسباني، أن يتركوا بضائعهم دون حراسة في الشوارع وممرات الأسواق دون أن يتجرأ أحد على النيل منها. وما أن علم عبد الرازق باقتراب قدوم جيوش سوار، حتى أثر الدخول في مفاوضات معها، فأرسل إلى سوار سعيد بن أسود وأخيه حشش وحفيده محمد بن عمر. وفي النهاية تخلى سوار عن عزمه، نظرا لما حصل عليه من هدايا ثمينة ومكافأة مجزية.

وبعد إغتيال سوار، خلفه سعيد بن جودي، فعاوده حلم سوار مرة أخرى، ولكن في هذه المرة بالتواطئ مع العرب في أرش اليمن، والذين بدى عليهم الاستياء من حلول الملاحين الإسبان محلهم في بجانة، وهم الذين استقبلوهم مرحبين بهم منذ وقت قليل. وعليه، هبّ عرب البيرة مرة أخرى، في أعداد كبيرة، لمهاجمة المدينة التجارية الزاهرة، والتي نجت من التخريب لعوامل عدة، وفي الواقع، فإن كونت أمبورياس وسونير، الذي اعتاد الخروج من أجل القرصنة، على طول ساحل إسبانيا الإسلامية، قام، في نفس الوقت الذي اقترب فيه العرب من بجانة، بالنزول المفاجئ على الشاطئ المجاور، على رأس أسطول مكون من خمسة عشر مركبا، رسى بها أمام ألمرية؛ حرق سفنا عديدة كانت راسية هناك، ثم نزل بقواته ينوي الوصول إلى بجانة كي يخرب محلاتها ومخازنها الغنية. وهنا خرج الملاحون كلهم في الحال حتى يوقفوا زحفه، وفي صباح اليوم التالي دخل الطرفان في نزال، توصلا بعده إلى اتفاق أسفر عن تحرك أسطول سونير أخذا طريقه في البحر. ورأى سعيد بن جودي، من فوق تل قريب، السفن الخمس عشرة لكونت أمبورياس تلوح في الأفق، فأيقن من حصول ملاحى بجانة على تعزيزات هامة، وعلى عجل ركب طريقه مرة أخرى عائدا إلى غرناطة^(١١١).

وما إن تخلصت بجانة من شبح هذين التهديدين، حتى عادت سيرتها الأولى في السعي نحو الازدهار وتحصيل الثروات وذلك من خلال الأعمال التي يقوم بها سكانها في مجال الصناعة. ففي عام ٩٢٢م (٣١٠هـ) دخلت من جديد رحاب الجماعة الإسلامية^(١١٢)، وظلت على نشاطها حتى النصف الأول من القرن العاشر، ولكن الوضع انتقل فيها من سيئ إلى أسوأ أمام ازدهار الميناء المجاور لها، وخاصة حينما قام عبد الرحمن الثالث، عام ٩٥٥م (٣٤٤هـ) بنقل عاصمة الاقليم إلى ألمرية والشروع في أعمال معمارية هامة بها^(١١٣). وفي عهد الحكم الثاني بلغت بجانة قمة انحدارها. وحين أتى القرن الحادي عشر، وأصبحت ألمرية تتمتع بثراء فاحش ومكانة عالية

كعاصمة للدولة، نرى أن بجانة قد أخذت تسعى بخطى واسعة لتكون قرية صغيرة يسكنها الفلاحون.

النزاع بين العرب والمولدين في أشبيلية : إمارة ابن حجاج :

كانت أشبيلية تعد في القرن التاسع المدينة الثانية بعد قرطبة بالنسبة لعدد السكان، وأغنى مدن الأندلس. وقد ساعد موقعها الجغرافي المتميز وأرضها الخصبة، التي أنتجت المحاصيل الطبيعية المتنوعة، على تطور المدينة بصورة مزهلة. بها ميناء على نهر الوادي الكبير يتمتع بنفس النشاط والفاعلية اللتين تمتع بهما ميناء بجانة، حيث كان يستوعب الجزء الأكبر من التجارة الاسبانية مع مراكش على المحيط. عاشت أشبيلية، في عهدى عبد الرحمن الثاني ومحمد الأول، حياة تميزت بالهدوء والسكينة، دون أن تثير انتباه الحكومة الأموية، اللهم إلا في تلك الأوقات العصيبة التي حل فيها العدوان النورماندي عام ٨٤٤م. وجد بين سكانها، كما هو الحال في أماكن أخرى عديدة، عدد كبير من المولدين، هذا إلى جانب عدد من الذين بقوا على مسيحياتهم ومازالت كنائسهم قائمة. حيث كانت المدينة ماتزال مقرا لمطران بيتيكا. أما العرب المجاورون لأشبيلية، والذين سادت بينهم وبين هؤلاء الاسبان روح من التفاهم الجيد، فقد كانوا ينتمون في غالبيتهم إلى الأرستقراطية العربية، كما كان من بينهم نبلاء قرشيين، سواء أكانوا من أصل أموي أم لا. كان هؤلاء العرب، والذين يحيون حياة الأمراء، لا يقيمون بالمدينة إلا بعض العام، وأما بقيته فكانوا يقضونه في مزارعهم وضياعهم، فقد كانوا جميعا يملكون ثروات كبيرة، وممتلكات شاسعة في الوادي الكبير، أو على ضفاف المجد، أو السند، على طريق أبله. وفي كل ضيعة كان هناك مكان للراحة. وفي شرق أشبيلية ارتفعت المساكن بأعداد كثيفة، وكذلك القلاع الصغيرة لهؤلاء الأسياد، والتي إذا ماتوجه إليها البصر، تاه في مناظرها الخلابة المتناسقة. كانت قلاعا محصنة، تحفظ فيها المحاصيل، ويفد إليها المزارعون والعبيد ليدفعوا ما عليهم لأسيادهم العرب. وعلى مسافات بعيدة، بالقرب من مصب الوادي الكبير، وفي المستنقعات والجزر التي تكونت نتيجة ترسيبات النهر، أصبح العرب يمتلكون مساحات زراعية هامة، بها مراعي صالحة للتسمين سمحت باقتناء الأبقار، وقطعان من الخيل. وعلى مدى أجيال سابقة كانت أسرة بني حجاج، من نبلاء اليمن، تمتلك أهم تلك المزارع. كانت تلك الأسرة تفخر بأنها تتصل في نسبها من ناحية الأب إلى قبيلة عربية مشهورة تعرف باسم قبيلة لخم. كما كانت هناك قبيلة بني خلدون^(١١٥)، قبيلة

حضرية، من نفس العرق العربى، تمتلك أراض شاسعة فى وادى المجد، الذى اشتهر بأشجار التين والزيتون، وإلى هذه القبيلة ينتمى أحد أبنائها المتأخرين، عبد الرحمن بن خلدون، الذى منح قبيلته شهرة لاتنقطع على مدى الدهر^(١١٦).

كانت هذه العائلات العربية النبيلة ماتزال تحتفظ حتى ذلك الحين بعلاقات طيبة مع الحكومة المركزية. وقد أتاح لها قرطبة مساحة واسعة من الحرية، كما كان الحكام الذين يتوافدون على أشبيلية يتلقون تعليمات مفادها عدم اللجوء إلى أى فعل من شأنه أن يجرح أحاسيس هذه القبائل. تجمعت هذه القبائل فيما بينها بواسطة الزواج من عائلات ثرية من المولدين الأندلسيين، ورغم هذا كله فقد ظلت روح العصبية فيهم وأصولهم العرقية بمنأى عن أى تناول. كان هذا، على سبيل المثال، هو حال بنى حجاج، الذين أصبح من بينهم ، بسبب صلة النسب مع الأجناس الأخرى، أمراء ينتمون إلى العرق القوطى من ناحية الأمهات، وأصبحوا فيما بعد ورثة أملاكهم المترامية الأطراف. إن مثل هذه الحكاية، التى لايشوبها الاختلاق، تلفت الانتباه حقا، وتستحق منا أن نتوقف عندها بعضا من الوقت. فالمؤرخ الذى أشار إليها، وهو ابن القوطية^(١١٧)، توافرت لديه كل مقومات معرفة الأمر على حقيقته، إذ كان ينحدر هو الآخر من نفس العرق النبيل.

وحسب ما جاء فى هذه القضية، فقد ذهب أبناء الملك غيطشة، أولوندو وأرداباستو - وقد ذكرناهما آنفا^(١١٨) -، وروميلو ثالثهما، إلى طارق لرؤيته، عقب حملته الناجحة على إسبانيا، ليسأله أن يسمح لهم بالتوجه إلى افريقية، طلبا لزيارة موسى بن نصير. وكان طارق قد سلمهم خطاب توصية لموسى، قد عرض فيه الخدمات الجليلة التى قدمها هؤلاء الأمراء القوطيون الثلاثة. وأرسلهم القائد العربى بدوره، إلى الخليفة الوليد، فى دمشق. قدّم لهم الخليفة كل أنواع التشريفات الواجبة وأعاد إليهم ممتلكات أبيهم الشخصية. وما إن عادوا ثلاثتهم إلى اسبانيا، حتى تقاسموا تركة والدهم : احتفظ أولوندو لنفسه بأملاك الأندلس الشرقية وأقام فى أشبيلية؛ أما أرداباستو فقد اختار المزارع القريبة من قرطبة، حيث توجد إقامته؛ وأما روميلو فقد وقع اختياره على ألف ضيعة فى أراضى طليطلة. وافت أولوندو منيته فى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (٧٢٤-٧٤٣م)، تاركا وراءه ابنة تدعى سارة، وولدين آخرين. انتهز أرداباستو هذه الفرصة حتى يضع يده على أملاك أخيه الأكبر. وهنا ركبت سارة البحر من أشبيلية ثم رحلت مع أخويها الصغيرين إلى سوريا. نزلت بعسقلان، ثم توجهت إلى دمشق، حيث عرضت على الخليفة كيف كانت ضحية للظلم، وطالبت به

بالمرسوم الذى وهبه لوالدها. وهنا اعترف الوليد بحقها، وطلب من والى أفريقية أن يقوم بالوساطة، بما يتوافق مع الأوامر التى أصدرها، حتى يعيد الحق إلى صاحبه وذلك عن طريق الحاكم أبو الخطار. وأثناء إقامة سارة بدمشق، زوجها الخليفة بعيسى بن مزاحم، فأنجب منها أولادا، وكان فى رفقتها حين عادت إلى إسبانيا، واستردت أملاك أولوندو. وقد تعرفت سارة وهى فى بلاط دمشق على الأمير عبد الرحمن بن معاوية، الذى هاجر فيما بعد إلى إسبانيا، وحين وصل إلى عرش الأندلس، أحاط الأميرة القوطية بعناية فائقة، فى الوقت الذى قدمت نفسها إلى حضرته. وكلما ذهب سارة إلى قرطبة سمح لها بالدخول إلى قصر الأمير مباشرة. وأما عيسى بن مزاحم، زوجها، وفى نفس الوقت، جد المؤرخ ابن القوطية، وافته المنية عام ٧٥٦م (١٢٨هـ). عادت الأرملة للزواج من جديد، بناء على نصيحة عبد الرحمن الأول. من عمير بن سعيد، فأنجب منها ولدا يدعى حبيب، والذى غدا فيما بعد سلفا لأربع عائلات أشبيلية أرستقراطية، من بينها أسرة بنى حجاج، والتى تحدثنا عن أملاكها التى توارثتها فى صفحات سابقة.

وحين تولى الأمير عبد الله مقاليد الحكم، برز من بين الشخصيات اللامعة فى أسرة بنى الحجاج أخوان هما : عبد الله وإبراهيم. وعلى رأس الأسرة الشريفة الأخرى، برز كريب بن عثمان بن خلدون وأخوه خالد. وعلى جانب آخر، نجد من بين المولدين الأشبيليين عائلات لمع اسمها فى الميدان، عائلات ثرية وصاحبة نفوذ قوى، مثل بنو أنخلينو وبنو سايريكو، اللتان تمكنتا من الحفاظ على ألقابهما الرومانية، كما سنرى فيما بعد. وقد نشب نزاع بين العرب والمسلمين الجدد بدى هادئا فى أول الأمر، إلا أنه أخذ يتفاقم رويدا رويدا حتى أصبحت الإمارة عاجزة عن السيطرة عليه، وهو الأمر الذى اضطرها إلى العفو عن الرؤوس المدبرة له مع مرور الوقت. ونحن لن نعمد إلى رواية الأحداث المتعددة التى واكبت التمرد الذى طال أمده على أرض أشبيلية، فقد رواها لنا ابن حيان ودوزى، فيما بعد، باستفاضة تامة، استنادا على رواية المؤرخ المحلى بن الأشعث القرشى. وسوف يقتصر دورنا هنا على التذكير فقط بأهم الأحداث الرئيسية، التى تسمح لنا بتفسير كيفية تسببها فى أن يتمكن إبراهيم أخو عبد الله بن حجاج من أن يصبح «ملكا على أشبيلية» عام ٨٤٩٩م (٢٨٦هـ)، وذلك حسبما أطلق على نفسه، وتلقى المراسم الرسمية الملكية من الأمير عبد الله نفسه.

وقبل ذلك بعشر سنوات، أى فى عام ٨٨٩، بدأ الصراع على يد كريب بن خلدون. واتبع هذا السيد العربى، لما كان يتمتع به من مزاج فظ وإقدام كبير، أساليب

عديدة فى الاعلان عن نفسه، كما انتهز فرصة الفوضى المتزايدة بين ربوع المملكة حتى يضع نفسه فى الصفوف الأولى. ترك أشبيلية، إذ كان من الممكن القاء القبض عليه فيها فوراً والحيلولة بينه وبين ما انتواه من شر، فتوجه إلى قلعة المجد الخاصة به والتي كانت تعرف فى ذلك الوقت باسم برج ابن خلدون، الذى شيد على أرض قوية البلاط. استقر هناك، ثم قام، بمساعدة عرب يمينين آخرين والموالين له من البربر، بتكوين تآلف قوى، تمكن به من شن هجوم على المولدين القاطنين نفس الاقليم. وحتى يعمل على إيجاد الجو الملائم، قام كريب بتشجيع عمليات قطع الطرق فى الخفاء، كان البربر الذين اتبعوه اتباعاً أعمى، بما فيهم قائدهم المتمرد جنيد بن وهب القرمونى، من البرانسيين، الذين أبعادوا لأسباب الكراهية العرقية القديمة. التى ترجع إلى سنوات طويلة سابقة على إقامتهم على أرض شبه الجزيرة الأيبيرية، عن البربر المعروفين باسم «البوتر»، الذين أقاموا أيضاً فى المناطق المختلفة من الاقليم^(١١٩). عقد كريب تحالفات مع المتمردين فى شذونة ولبلّة وروج لنفسه دعاية واسعة وفعالة فى غرب الأندلس، وهنا تكونت تحالفات مضادة كرد فعل طبيعى للأحداث، لم تكن أطرافها تقتصر على المولدين من أولى العزم فقط وإنما كانت من العرب والبربر أيضاً، الذين تجمعهم عصبية مناهضة للعصبية اليمانية والبرناسية، أى المضريين والبوترين فى اقليم مورور Moron. لم يتوان كريب فى اتخاذ القرار بشأنهم، فأمر على الفور بربر ماردة ومادلين بمهاجمة الضواحي الأشبيلية. هزم الحاكم الأموى موسى بن العاص بن تغلب فى تلياتا، وهو المكان الذى شهد سحق النورمان منذ خمسة وأربعين عاماً مضت^(١٢٠). وما كان لكريب أن يتوقف عن هذا الحد، بل ذهب أبعد من هذا، فأقام علاقات مع بن الجليقى. وما كان له أن يرعوى عن مثل هذا وابن الجليقى من المولدين، فكل وسيلة تصبح مباحة حين يتعلق الأمر بغرس بذور الزعر، ومحاولة بث مزيد من الفوضى وعدم الأمان ونسف السلطة التى يتمتع بها الأمير الأموى فى جانب منها. ولهذا ما شعر بن الجليقى بأى نوع من القلق والحيرة تجاه مثل هذا الأمر، فانتهاز الفرصة وهاجم إحدى «ضياع المجد» ثم عاد محملاً بالأسلاب والغنائم. وفى عجلة رأينا الموقف يزداد سوءاً، وأصبح الطريق بين قرطبة وأشبيلية يشهد هجمات متكررة من جانب عصابات قطاع الطريق، وبرز من بينهم قاطع طريق بربرى هو بن التاسماشكا، وذلك لما كان يرتكبه من جرائم جريئة للغاية.

ظل المولدون فى أشبيلية وقد بدت على وجوههم علامات الدهشة لحالة الصمت الطويلة من جانب أمير قرطبة على مثل هذه الأعمال، فذهب أحدهم إلى العاصمة، بغية مقابلة الأمير عبد الله، ثم أفضى إليه برغبته دون أدنى موارد : إنه على استعداد تام

بأن يعيد الأمن مرة أخرى إلى الأقاليم التي سادت بين ربوعها أعمال الفوضى، إذا ماسمح له بأن يقيم، مع مجموعة من الفتيان الأشداء، في قلعة سان تيرسو المعروفة باسم قلعة الأبراج السبعة، بين إسبجة وإشبيلية. وما أن حصل هذا المولدى، محمد بن غالب، على الاذن اللازم، حتى أرسى قواعد الأمن والنظام فى الطريق بأسرع وقت ممكن. ولكن زعماء الرابطة اليمينية لم يعترفوا بهزيمتهم، فأسرع كريب بن خلدون إلى إبرام تحالف مع بن الحجاج يتضمن خروجهما لشن هجوم على ابن غالب فى قلعته. ولكنه أضاع الوقت فى مثل هذا العمل، حيث تمكن ابن غالب من صدّه. وأثناء النزال وقع رجل من نبى الحجاج صريعا. وكان هذا يعنى وجود جريمة ما: اغتيال أحد رجالات الارستقراطية العربية على يد رجل من حقراء المولدين. توجهت الأنظار نحو قرطبة، حيث بدأت فيها المطالبة بالقصاص. بات الأمر محيرا بالنسبة للأمير عبد الله، فقد كان يريد أن يبقى على الجانبين : العرب والمولدين، فما أراد أن يصيب العرب الأشراف بجرح فى مسألة كهذه تتعلق بالشرف، وفى الوقت نفسه، لا يريد أن يخسر أتباعه الأوفياء من المولدين. وبينما كان كريب بن خلدون وعمر بن خطاب بن أنجلينو يدافعان عن قضيتيهما. قرر الأمير أن يتبنى حلا وسطا، حلا صادرا عن رأى شخصى يرفع به الحرج عن نفسه : قرر أن يرسل إلى أشبيلية ابنه الأكبر، الأمير محمد، ليقوم بتقصى الحقائق التى تمكنه من صياغة تقرير شامل يقدمه لوالده. وبالفعل، خرج محمد إلى أشبيلية، وأرسل والده مساعدا له ليكون حاكما للمدينة، ينتمى إلى أسرة شريفة هى أسرة بنى عبده يدعى أمية بن عبد الغافر الخالدى، وهو أخ لجاد، حاكم البيرة، الذى حمله سوار معه كأسير، فى الوقت الذى كان فيه سوار زعيما للرابطة العربية فى غرناطة. عمل الأمير محمد ومساعدته الأموى على مد وقت التحقيقات. ومن البديهي، أنهما كان يريدان كسب الوقت، وافساح المجال أمام كل القضايا حتى تحل بذاتها. وهكذا وصلا إلى السماح لابن غالب بالعودة إلى قلعته والقيام مرة أخرى بتأمين طريق قرطبة.

وحين اعتقد المولدون الأشبيليون أنهم قد كسبوا الجولة، لم يعد لدى العرب من صبر، فحلف الجميع اليمين من أجل الانتقام لتأثرهم بأنفسهم من الاهانة التى لحقت بهم، وقرروا القيام بضربة حاسمة : استولى كريب بن خلدون على قلعة كورة النهر، عند الوادى الكبير، بينما استولى عبد الله بن حجاج على قرمونة. وحققت العمليتان اللتان نفذا فى آن واحد، نجاحا كبيرا، وفى الوقت نفسه، استطاع كريب، بمساعدة متمرد ليبريخا، أن ينشر الخراب فى جزيرة النهر، التى كانت ملكا لأحد الأمويين الأثرياء، فحمل معه مائة من الأفراس ومائتين من الأبقار. وهنا أبلغ الأمير محمد، وهو

مايزال فى أشبيلية، والده بكل ماحدث، فحاول عبد الله إيجاد حل سلمى للأزمة كعادته، حيث لجأ إلى حل قدمه له وزراؤه، رغم أنه كان حلاً خالياً من كل جرأة وشجاعة : فاقترحوا عليه إعدام المولدى محمد بن غالب، حتى تعود الأمور إلى نصابها ويسود النظام مرة أخرى. كان جاد، أخو الحاكم الأموى، والذي خرج حديثاً من الأسر على يد سوار ثم عاد إلى قرطبة، هو المكلف بإزاحة ابن غالب. توجه إلى قرمونة، بحجة طرد بن حجاج منها، استمال ابن غالب إليه، فتمكن منه وقتله. طرب ابن حجاج لهذا العمل وأعاد إلى الأمويين قلعة قرمونة.

أدى اغتيال محمد بن غالب إلى تفجير أحاسيس الغضب لدى المولدين فى أشبيلية، الذين آمنوا بعدالة قضيتهم، بعد أن ملوا جميعاً من الانتظار والتروى، فقرروا على الفور، دون أن يقطعوا أوامر المودة كاملة مع الحكومة المركزية، طلب المعونة من المعدين والبوطة من البربر للاستعانة بهم على أعدائهم الطبيعيين من عرب اليمن، رغم أنهم كانوا يأخذون فى حساباتهم عدم تجاوز الحدود داخل أشبيلية، والحفاظ على النظام الدائم داخلها. وفى ٩ سبتمبر عام ٨٨٩م (٩ من جمادى الأولى عام ٢٧٦هـ) وصلت إليهم التعزيزات المطلوبة. أصبح الجو معباً، وأصبح من المتوقع أن تعم أعمال الشغب كل الشوارع، الأمر الذى أدى بمن لاناقة له ولاجمل فى النزاع، ويأسف كل الأسف للحد الذى وصل إليه الصراع، أن يفرض على نفسه عزلة داخل بيته. وبعد أن عقد المولدون وحلفاؤهم اجتماعاً سرياً، خرجوا فى مظاهرة أمام مقر إقامة ابن الأمير، وبلغ الأمر بالعامية من أهل أشبيلية إلى حد الاشتباك بالأيدي مع حرس القصر، الذى حرّضه الحاكم أمية على الصمود، معرضاً نفسه لعظيم المخاطر. أخذ الخطر يزداد شيئاً فشيئاً بالنسبة لمثل النظام، الذين كان عليهم أن يتحملوا الهجوم إلى أن تصل فرق جاد، الذى أحيط علماً بما وقع. وهاهو جاد يدخل فعلاً مدينة أشبيلية، فى صباح اليوم التالى وأمكنه أن يفك حصار أخيه أمية والأمير القرطبي. وحين هوجم المولدون من الخلف، بدأ انسحابهم وتفرقوا على أثر مذبحه توقف بعدها تمادى الأمويين فى مزيد من الهجوم.

وعقب هذه الأحداث أصدر الأمير عبد الله عفواً عن شاركوا فيها، ولكن حالة الهدوء التى سادت كانت عابرة. فقد وقع جاد، بعد أن تملكه الخوف أن يقع أسيراً فيسلم لابن حفصون، الذى طالب برأسه نظير اغتياله لابن غالب، فى كمين حين عودته إلى أشبيلية قادماً من قرطبة، والتى كان قد رجع إليها بصحبة الأمير محمد، وتم اغتياله إلى جانب أخوين له كانا فى صحبته. أما أمية، الذى مازال يقوم بدور الحاكم

الرسمى فى أشبيلية، فقد اتهم المسلمين الجدد بمسئوليتهم عن اغتيال ثلاثة من أفراد أسرته، واستدعى بنى خلدون وبنى حجاج ليحثهم على الاحتكام إليه فى هذا الأمر. ونتيجة لهذا كله أصبحت المدينة والقرى المحيطة بها تفوق فى الدماء أياما مظلمة؛ أبيد الإسبان، مسلمون ومسيحيون، بالآلاف، وأذلهم بنو أنخلنيو وبنو ساباريكو. وما أن أطفأ عرب اليمن ظمأهم للانتقام، لم يتبق لهم سوى عزل الحاكم أمية وفرض أساليب معينة للتعايش على الأمير عبد الله فى قرطبة، تجعل الوضع مستقرا وخاضعا لاختياراتهم، حيث إن عبد الله، والذي ماترك له بن حفصون وقتا يستريح فيه، كان يلبي لكل طالب مطلبه. ظل الوضع هكذا حتى عام ٤٩١م (٢٧٨هـ). وفى هذه الأثناء قتل عبد الله بن حجاج، بعد أن وقع ضحية لمكيدة دبرها له البربرى جنيد بتحريض من أمية، وتولى ابراهيم مكانه، ولم يهدأ لأخى ابراهيم بال، فقرر الانتقام لمقتل عبد الله بن حجاج. ورغم أن أمية، بسبب عدم ثقته، قد طالب مجموعة من الرهائن من بنى حجاج وبنى خلدون، فقد رأى نفسه مضطرا لأن يطلق سراحهم، وفى النهاية، تم اتهامه وخسر كل شئ، ففضل أن يسقط والسلاح فى يده. وبعد أن ذبح نساءه وعقر جياده، وحرق متعلقاته الشخصية الثمينة، خرج من قصره يطلب الموت فى مشهد بطولى، فمات فى الحال.

وهنا تظاهر الأمير عبد الله بأنه يركن إلى صحة تفسير غير حقيقى تم تقديمه إليه حول النهاية المأساوية للوالى أمية، وأنها جاءت بمثابة كفارة عن محاولة تمرد ضد السلطة، فأناوب مكانه حاكما آخر. وبعد ذلك أرسل ممثلا شخصيا له هو عمه هشام، بن عبد الرحمن الثانى، مجرد دمية أرسلت، إلا أنها ساعدت على حفظ ماء الوجه. ومع هذا، فسرعان ماوقع هشام رهين الحبس فى قصره على يد أعيان أشبيلية، ووصل الأمر إلى اغتيال ابنه المطرف. وهنا أصبح من الضرورى أن يتصرف الأمير بطريقة إيجابية وفاعلة، فأمر بخروج حملة، بقيادة وزيره المفضل، عبد الملك بن عبد الله بن أمية، والمطرف، ابن الأمير نفسه. خرج الجيش الأموى من قرطبة فى يونيو عام ٨٩٥م (ربيع الثانى ٢٨٢هـ) وذلك بهدف إرساء قواعد النظام فى المنطقة الغربية، ولكن المهمة كانت تنطوى، فى الحقيقة، على هدف آخر وهو إرجاع أهالى أشبيلية إلى جادة الصواب والوقوف ضد نشاط كريب بن خلدون وابراهيم بن حجاج، وإن لم يعلننا تمردهما صراحة، فقد كانا مصدر إضرار نيران التمرد فى المدينة والاقليم. وعندما علم كريب بمجيئ المطرف، حاول أن يقنع جده هشام بالتدخل ليقنعه بالعدول عن طريقة؛ ولكنه لم يكسب سوى إضاعة الوقت، ووجد نفسه مضطرا لفتح أبواب أشبيلية أمام جيوش الأمير. هاجمت الجيوش عددا من القلاع التى احتلها المتمردون فى اقليم

شريش أركس ومدينة سيدونيا، وحينما عادت مرة أخرى إلى أشبيلية، فى نهاية شهر أغسطس، منعها كريب من الدخول. لم يلح المطرف فى الدخول، ولكنه تمكن من أسر خالد بن خلدون، أخا كريب، وعبد الرحمن بن ابراهيم بن حجاج ثم عاد إلى قرطبة وبرفقتة هذين الأسيرين المهمين. وقبل ذلك بقليل قتل المطرف رفيقه القائد عبد الملك. وكما رأينا^(١٢١)، لم يتأخر الوقت بنا لنشهد إعدام المطرف بأمر من والده نفسه. أما الأسيرين فقد تم الإفراج عنهما بعد أن دفعت أشبيلية الفدية عنهما لبيت المال، كما أنهما أُجبرا على أن يتركا رهائن بقرطبة. وما إن عادا إلى المدينة، حتى تحللا من وعود الشرف التى اقتطعاها على نفسيهما، فأعلنا انفصالهما عن سلطة الأمير فى قرطبة، ورأى ابراهيم وكريب أن يقتسما القيادة فيما بينهما على أراضى اقليم أشبيلية.

وفى هذه المرة لم يتحرك عبد الله، لأنه كان يرى أن التوافق بين زعيمى الأسرتين لن يدوم طويلا. وما خاب تقديره. إذ دبت حالة من فقدان الثقة بن ابراهيم وكريب، وبما أن حكومة قرطبة لم تكن تدع فرصة تمر، من ناحيتها، تجد فيها أملا فى تعميق الهوة الفاصلة بين الطرفين إلا وانتهزتها، حتى انتهى التحالف بين بنى حجاج وبنى خلدون بأن غرقا فى بحر من الدماء : فى عام ٨٩٩م (٢٨٦هـ) اغتيل كريب بن خلدون وأخوه خالد فى منزل هذا الأمير على يد بعض رجال الشرطة المواليين لابن الحجاج. ومنذ هذا الوقت، أصبح المجال خاليا أمام ابراهيم فى أشبيلية، ووصل به الأمر إلى حد التجرؤ بأن يطلب من قرطبة أن تنصبه بطريقة قانونية تضمن له كل حقوقه على أشبيلية وقرمونة. ولم يجرؤ عبد الله أن ينكر على ابراهيم طلبه هذا، وعليه، قامت، بتصريح من الأمير نفسه، دولة جديدة شبه مستقلة يقوم على إدارتها واحد من العرب، الذى أعد لنفسه جيشا خاصا، وأخذ يجمع الضرائب لنفسه، ويرى أن أميره ينظر إليه نظرة احترام وتقدير باعتباره جارا له، لكن مع حفظ الفوارق بين الرجلين؛ كما كان يرى نفسه أحد الأتباع الأثرياء، ولكنه على استعداد، فى نفس الوقت، إذا ما حانت الفرصة المفيدة، أن يعقد تحالفا مع أعداء الأمير للوقوف فى وجهه، بما فى هؤلاء ابن حفصون، الذى أصبح منذ فترة وجيزة واحدا من أقاربه نظراً لعلاقة المصاهرة التى جمعت بينهما، وكان ينظر إليه نظرة إعجاب وتقدير.

وما إن تحول ابراهيم بن حجاج إلى رجل فرض سلطانه على مقاليد الأمور فى أشبيلية وقرمونة، حتى أصبح بعيدا عن نهاية الطريق الذى بدأه. أظهر ابراهيم حنكة فى الادارة، ولعب دور الأمير بصورة جادة، ورغب فى أن يحكم امارته بأسلوب يتراوح

بين اللين تارة والشدة تارة أخرى، وأن يجعل لنفسه شعبية واسعة بين أتباعه. فعمل على تحصين قرمونة، حيث كان يزورها باستمرار، ليعد لنفسه فيها مهرباً حصيناً قد يلجأ إليه. وكثيراً ما أبرز المؤرخون العرب المبادرات التي قام بها من أجل ترسيخ سلطته ورفع مكانته : نظم جيشاً قوامه ٥٠٠ فارس يدفع إليهم رواتبهم، أحاط نفسه بمجلس وزراء جديد، أصدر قراراً شخصياً بتعيين القاضي ورئيس شرطة أشبيلية، وأبان عن طابع الجود والكرم مع الأدباء والشعراء بغية أن يصبح لقبه نصير الأدب والفنون. ولكن لم يصل به الأمر إلى حد سك نقود باسمه، رغم أنه امتلك مطابع خاصة قامت بطبع اسمه على المنسوجات الحريرية، كما كان يحدث في قرطبة، ومصر، والعراق. أراد أن يقلد عبد الرحمن الثاني في حوزته لمغنية بغدادية، فاشتري المغنية الجميلة قمر، مقابل وزنها من الذهب في الوقت الذي اشتراها فيه من المشرق. كما استقدم أيضاً عالم اللغة «أبو محمد الأوجري»، الذي بهر أهل أشبيلية بمعارفة اللغوية وبلهجته البدوية الحجازية الغربية. وحين رأى المثقفون في قرطبة إهمال الأمير عبد الله لهم وعدم تقديرهم، قرروا الذهاب إلى البلاط الصغير الذي يرأسه بن حجاج، موقنين بأنهم لن يعودوا صفر اليمين . هكذا كان الحال بالنسبة لمؤلف المنتخب الأدبي الذي يحمل عنوان «العقد»، إنه الشهير ابن عبد ربه.

ظلت العلاقات بين الأمير عبد الله وأمير أشبيلية تزداد توتراً يوماً بعد الآخر، طالما كان عبد الله يحتجز عبد الرحمن بن إبراهيم في قرطبة كرهينة؛ ولكنه قرر أن يفرج عنه بعد إلحاح مستمر من جانب وزرائه، وذلك بعد ثلاث سنوات، عام ٩٠٢م (٢٨٩هـ). ومنذ هذه اللحظة تصالح إبراهيم بن حجاج مع أمير قرطبة الأموي؛ ودفع له الجزية كتابع من أتباعه؛ أمدّه بكثير من الفرق التي كانت تحت يده حتى يساعد الأمير في حملاته المتكررة، وتخلي عن مساندته لابن حفصون الذي كان مناوئاً للأمير عبد الله. وبعد وفاة إبراهيم بن حجاج المفاجئة في عام ٩١٠ - ٩١١م (٢٩٨هـ)، وهو في الثالثة والثلاثين، خلفه ولده إبراهيم ومحمد، حيث تولى الأول أمر أشبيلية، والثاني أمر قرنونة^(١٢٢). وكما سنرى، فإن العمر لم يمتد بهما سوى فترة قصيرة خلال عهد عبد الرحمن الثالث، وأن الأمير لن يتوانى كثيراً في استرداد الأراضي التي ادعاها أبوهما لنفسه.

نشاط ابن حفصون في ظل حكم الأمير عبد الله :

بينما كانت الأحداث التي انتهينا لتونا من سردها تجري على أرض البيرة وأشبيلية، لم يكن المتمرد ابن حفصون هادئاً ساكناً في بربشتر. كما أنه كان يشارك

فى هذه الأحداث، أحيانا، بطريقة مباشرة، خاطفة، كلما رأى فى ذلك تحقيق مطمع شخصى له، وطوال فترة حكم الأمير عبد الله ظل ابن حفصون يتعامل بنفس الأسلوب : يأخذ قرارات متسعة، ينفذها بأسلوب المفاجأة، تلتها فترات انتظار تطول وتقصّر، هذا إلى جانب تساهله فى كثير من الأحيان. وهذا الطابع الذى جبل عليه، والذى نتبينه من خلال تتبعنا للأنشطة التى يزاولها، يثير انطباعا غريبا. فكل وسيلة تصبح طيبة فى نظره إذا كانت ستسمح له بفرض سلطانه على المناطق الممتدة من جنوب قرطبة حتى البحر المتوسط، وذلك ليبنى منها إقطاعيه له، بحيث يكون مكانا يشعر بالارتياح فيه ويتحرك بين جوانبه فى حرية تامة. وعندما كان يريد كسب الوقت نجده ينضم إلى الحكومة الأموية لفترات وجيزة، ويقدم إليها الرهائن إذا لزم الأمر، فتقتلهم دون تردد أو حيرة. كان يناصر ويشجع بعض المتمردين الذين لا يتمتعون بشأن كبير ويتحركون فى إطار مناطق نفوذه، وسرعان ما كان ينقلب عليهم ويجهز على الجميع بعد شهر أو سنوات. كما أن علاقاته التى تجمع بينه وبين المتمردين فى الأراضى المجاورة له كانت تتعرض لفترات من المتانة والفتور، وذلك حسب مزاجه أو نظرا للجو العام الذى يغلف الفترة الزمنية نفسها. كان انتهازيا كبيرا. ففى نفس الوقت التى أملت عليه الظروف تحولا مروعاً جهة المسيحية، لم يكن يكف عن البحث عن تحالفات داخل الإطار الإسلامى. فيطرق جميع الأبواب، بما فيها أفريقية، ويحاول مد جسور الاتصال مع خصوم الأمويين من السياسيين ورجال الدين، والذى يعد نظاما معاديا للنظام العباسى عادة. وإذا ما تعرض أحد هذه التحالفات للخطر والانهيار، لم يكن يبذل أى جهد لتقويته أو إعادته إلى حيز الوجود. ومن داخله، كان شخصا لا يتمتع بباع طويل : شخصا مترددا، متملقا. وعلى الرغم من أنه كان يتمتع بقريحة لاشك فيها، ومواهب جعلت منه المحرك الأول لمشاعر الجماهير وقائدها الأوحى، نجده يعرب عن خيائته لأكثر من مرة لمجموعة من الناس ضحت بكل ماتملك من أجل أن تكتب الحياة لحركة التمرد التى قادها. هل كان يضع أمام عينيه هدفاً أسمى حقاً؟ هذا الأمر يعتبر محل شك كبير. فلو كان يريد حقاً تحرير إقليم الأندلس من الغزاة الأجانب ليقم حكومة وطنية، أكان يعدم الوسيلة، لهذه الدرجة، التى ينظم بها أفكاره وبرنامجه الموضوع بحكمة والمعمول بتنفيذه بكل شدة وصرامة؟ أكان مافعله، فى هذا الحال، تعسفا وتشنيتا لجهوداته من عام لآخر؟ يبدو أن المؤرخين الذى تناولوا حياة ابن حفصون قد بالغوا فى الحديث عن دوره السياسى، ناسبين إليه، بما لا يدع مجالا للشك، بعض المقاصد التى لم تكن من نصيبه. وبدون أن نحاول التقليل من شأن الخطر المستمر الذى نجم عن حركة التمرد التى قام بها ابن حفصون على أرض الأندلس، وبذل فى سبيلها

مجهودات متواصلة، علينا أن نؤكد على أن هذه الحركة لم تكن جيدة التنظيم، ولم يكن ثبات الأمير عبد الله أمام هذا التمرد ومعرفة كيفية التعامل معه، دون هوادة وباستخدام وسائل محدودة، وخاصة مع عدو أصبح يتمتع بنشاط قوى على المدى الطويل، بالأمر الهين، فنرى الأمير يعرض عليه السلام فى الوقت الذى يراه مستعدا لقبوله، دون أن يتطلع إلى فترات هدنة طويلة معه، كما كان يوجه، فى الوقت المناسب، إليه ضربات شرسة لايهدف من ورائها إلحاق أخطار جسيمة به، كما جعله، أخيرا، ينفمس فى حرب استنزاف لاتنتهى، فنشوب حركات التمرد فى مختلف نواحي البلاد قد حالت بين الأمير ومحاولة القضاء على ابن حفصون.

وحين توفى المنذر، بدأ ابن حفصون يتطلع فى زهو، وهو يرى الأمير الجديد يعود إلى قرطبة ويجلس على العرش، إلى معرفة حقيقة الصداقة التى وعده بها الأمير عبد الله. وبالفعل، وفى الأمير عبد الله بوعده : فقد أتى القائد ابراهيم بن خمير إلى ببشتر حتى ينصب الزعيم المولدى فى مكانه كحاكم لمنطقة ريو ويشهد منه يمين الولاء. حلف ابن حفصون يمين الولاء، وزاد عليه أن بعث مع رسول الأمير العائد إلى قرطبة ابنه حفص وعددا من ضباطه ليكون ذلك أبلغ دليل على وفائه للأمير. ولكنه سرعان ما نما إلى علمه أن البلاد قد بدأت تموج فى بحر من التمرد، فعاد يعلن انشقاقه من جديد ثم بدأ فى توسعة مسرح عملياته، حتى أصبح فى غضون بضعة أشهر سيد فى الأندلس من الجزيرة الخضراء وحتى مرسية، ثم أطلق العنان لجنوده ليخربوا المزارع القريبة من قرطبة. وعلى ضوء هذه الأحداث، قرر الأمير عبد الله أن يبدأ أولى حملاته ضد ابن حفصون، وفى ربيع عام ٨٤٩م (٢٧٦هـ) أجرى الأمير بعض المناورات العسكرية على مدى أربعين يوما، لم تسفر عن أية نتائج عملية. جاء رد ابن حفصون على ذلك بالاستيلاء على إسبينة وأشونة؛ كما أن إستجة، التى توجد على مسافة ثلاثين كيلومترا شمال الطريق المؤدى إلى قرطبة، قد فتحت له أبوابها هى الأخرى. وحين رأى ابن حفصون أن تقدمه هذا يعد كافيا فى الوقت الراهن، أراد أن يعلم الأمير قدرته على إيقاف الأعمال الحربية. فقبل عبد الله من فوره هذا الحل السلمى، أيا كانت المدة التى سيستغرقها توقف هذه الأعمال الحربية، والتى لم تتجاوز بضعة أشهر. حيث عقد، بعد توجيه الدعوة له من جانب الأمير عبد الله للمشاركة فى حملة تأديبية، يقودها ابراهيم بن خمير، ضد المتمردين ماستانا - الذى قدم المعونة إلى عرب قلعة يحصب، الذين تخصصوا فى أعمال السلب والنهب - معاهدة مع بن ماستانا الذى خرج لتأديبه، وأسر الجنرال الأموى وتحل مرة أخرى من وعوده مع أمير قرطبة، بعد أن قدم

المساعدات لمولدي إلبيرة ضد سوار وكانت معركة مرج غرناطة هي التي شهدت أول هزائمه.

وما كان لمثل هذا الفشل أن يقلل، مع هذا، من شأن وخطورة ابن حفصون. فقد كانت سلطته الوحيدة التي يحسب حسابها في معظم أرجاء مناطق ريو وإلبيرة وجيان. ودون أن نعد هذه المدينة الأخيرة، فإن مدن أرشدونة وبائيثا وأوبييدو وبريجو وإستجة قد اعترفت بزعامته عليها. وقد بدى له في هذا الوقت أن الفرصة سانحة للهجوم على قرطبة. ويعتقد المؤرخان دوزي وسيمون أن المستعربين في العاصمة قد عرضوا، في هذا الوقت بالذات، مشاركتهم على المتمرّد ابن حفصون وأصبحوا ينظرون إليه على أنه محرّره. إلا أن البحث عن مثل هذه الإشارة في المصادر العربية ذهب هباء ودون جدوى. فواقع الأمر، أنه قد وقع حدث غير ذي قيمة : فقد قام أحد أبناء الرابطة المسيحية بالهرب من معتقله وعرض خدماته على ابن حفصون. كان ذلك المسيحي يدعى سير باندو. حمل أبوه نفس الاسم، رغم أنه كان يعرفه الناس باسم «حجاج» أيضا؛ وأصبح في نهاية عهد محمد الأول بمثابة القائد بالنسبة للمستعربين من أهالي قرطبة، كما تمتع بشهرة واسعة نتيجة الشدة التي اتخذها منها في التعامل مع بني دينه. فما كان يفكر في شيء أكثر من إرضاء البلاط، ولهذا أثقل كاهل مواطنيه بالضرائب الإضافية، وأجبر عددا كبيرا منهم على الدخول في الإسلام حتى يضمنوا الإفلات من المتابعات الصارمة لأموالهم، أصاب خزائن الكنيسة بالفقر، وعين عليها وزراء يختارهم بنفسه؛ كما حاول توريط وإحراج أسقف قرطبة، بالينثيو، أمام رؤسائه المسلمين، وكذلك رئيس الدير المسمى سمسون، الذي يقدم لنا، في رسالة وصلت إلينا^(١٢٣)، التفاصيل المتعلقة بهذا الموضوع، على الرغم من أنها تحمل، بكل تأكيد، نوعا من المبالغة. وأخيرا بدأ سيرباندو يطلب العفو عما ارتكبه، مطالبا أبناء دينه بنسيان الماضي. أما بالنسبة لابنه سيرباندو، الذي شارك في بعض أعمال الاغتيال، فقد اضطر إلى التخفي بين أحضان الريف مع بعض من أنصاره للقيام بأعمال السلب والنهب وقطع الطرق على مسافة ٥٠ كيلومترا جنوب شرق قرطبة، حول قلعة بولي، أجيلار الحالية^(١٢٤)، ووصل به الأمر إلى الاستيلاء على القلعة باسم ابن حفصون. وقد كلف سيرباندو من قبل ابن حفصون بشن بعض الحملات على مناطق الريف، مما جعل الأمير عبد الله يرسل فصيلة من الفرسان لمهاجمة ابن معاونه ونصيره القديم. وفي النهاية، وقع المسيحي في كمين ثم فارق الحياة. حمل رأسه إلى قرطبة، حيث صلب

أبوه حجاج. وإذا ما كان الحلم يداعب المستعربين من أهالى العاصمة بالتمرد مرة أخرى، فإن مثل هذه العقوبة جعلتهم يفكرون فى الأمر مليا قبل الشروع فيه.

وعلى كل فقد أصبح ابن حفصون صاحب بولى وأمر بتحسين هذه القلعة، والتى رغب فى أن يجعل منها قلعة محكمة. وحين نقل معسكره العام إلى إستجة، ضم إلى أملاكه، فى بداية الأمر، مدنا أخرى مثل: بيانة واللّسانة، التى كانت، وستظل حتى أواخر القرن الحادى عشر، مدينة يهودية خالصة^(١٢٥). وفى نفس الوقت، حين تجمعت لديه الأدلة الدامغة على خيانة المتمرّد الصغير خاير بن شاكر، سيد خضر، أمر قائده رويال بقتله^(١٢٦). وبأسلوبه المعهود، أرسل رأسه إلى الأمير عبد الله. وفى الوقت نفسه أرسل نوابه المحملين بالهدايا إلى إبراهيم الثانى فى قيروان، يطلب منه رعاية العباسيين له، فهو ينوى مواصلة الكفاح باسمهم ضد المروانيين المغتصبين. وأما إبراهيم الثانى، فقد كانت لديه لديه هموم خاصة لا تترك له فرصة الاهتمام بشئون إسبانيا، مما جعله يقتصر فى رده عليه بتشجيعه بالمضى قدما فى تحقيق مشروعه فى الهجوم على قرطبة. كان كل هذا يغذى الحلم الذى راود ابن حفصون ويزيد من حماسه ويشجعه على السير فى هذا الطريق، خاصة أنه أصبح يمتلك قواعد متينة لعملياته الحربية، وبصفة خاصة فى بولى، التى كانت جماعات الفرسان تغادرها كل ليلة للقيام بعمليات سلب ونهب فى مزارع ريف قرطبة.

نكبت العاصمة، التى بدأت تعاني ويلات نفاذ المؤن، بموجة من الاضطراب. وماكان للجماعة المحيطة بالأمير أن تفصح عن تشاؤمها، كما أن الاشاعات الكاذبة أخذت تصيب الشعب بفرع شديد، استطلع الأمير عبد الله الرأى فى أمر استخدام الحكمة مع ابن حفصون. فكانت النتيجة أن تلقى ردا متفطرسا. فقد مضى زمن التردد الطويل وماعاد الأمير يستطيع انتظار أية نصيحة مفيدة من جانب مستشاريه المثبطين للهم. عليه أن يعتمد على نفسه فى اتخاذ القرار، وبأسرع وقت. ووسط دهشة المحيطين به - الذين دائما ماتعودوا على ربود أفعاله البطيئة أمام المخاطر -، قرر الأمير أن يستخدم كل ماله من أوراق، حيث أصبح الأمر متعلقا بعرش آبائه، وبشرف الأمويين ومستقبل الدولة. فعمل فى إصرار وعزم على حفز الطاقات الخاملة، وأمر بتجميع كل القوات الموجودة وتنظيم جيش يكون هو قائده. وما أن علم ابن حفصون بهذه الاستعدادات، حتى ضحك ساخرا منهم، وبلغ به الأمر أن لقب أعداءه بـ«قطيع الثيران»^(١٢٧). وحين خرج الأمير قاصدا النزال، حمل معه خيمته الخاصة

فأقامها فوق سهل منطقة سيكوندا، حيث المكان الذى سوف تتجمع وتراجع فيه القوات؛ وذات ليلة تجرأ الزعيم الأندلسى فأتى المكان الذى تواجد به الأمير وحاول أن يشعل النار فى خيمته بصحبة مجموعة من الفرسان. ولكن مثل هذا الصلف من قبل ابن حفصون كان بإمكانه أن يكلفه الكثير، فما أن وصل إلى المكان حتى أمطره الجنود بوابل من السهام فاضطر إلى أن يعود القهقرى برفقة رجل واحد ممن رافقوه، حيث هلك الباقون.

تمكن عبد الله من أن يجمع، بعد جهود مضنية، أربعة آلاف جندي نظامي، وعشرة آلاف من المتطوعين من أهالي قرطبة، فى الوقت الذى جمع فيه ابن حفصون تحت يده قوات تفوق قوات الأمير أضعافا مضاعفة. وقد غادر الجيش الأموى، المكون من الفرسان فحسب، العاصمة عند بزوغ فجر السبت الموافق ١٥ مايو عام (٤٩١م) ١ صفر عام ٢٧٨هـ (١٢٨)، وفى المساء أصبح على مسافة كيلومترين من بولى، ثم عسكر على ضفاف جدول كارتشينا. بدأت توريات الاستطلاع المعادية مهام الاتصال وتم الاتفاق على أن يكون النزال فى اليوم التالى. وفى مطلع الفجر بدأت الجيوش الأموية تقدمها، وكان ابن حفصون قد أعد قواته لتأخذ وضع الاستعداد للمعركة، أسفل قلعة بولى، انتظارا لملاقاة عدوه فى رباطة جأش. وبعد أن أصدر عبد الله تعليماته، احتفظ لنفسه بمهمة متابعة المعركة من فوق ربوة عالية، حيث نصبت مظلته الملكية، التى ترمز لسيادته وسلطانه. قام الوزير عبد الله بن عبد الله بن أمية بمناورة فى غير أوانها، ولكن الجنرال نائب القائد قد أوقفها فى الوقت المناسب، ذاك هو عبيد الله بن أبى عبده، وانطلقت قوات الفرسان الأموية لمهاجمة أنصار المتمرد المولدى. فقام الجناح الأيمن الملكى بسحق الجناح الأيمن لابن حفصون، والذى كان يقوده هو بنفسه، وتمكن من أن يجبره على الفرار. حل الذعر ببقية الفرق المتمردة، فبدأت تغادر الميدان بعد أن ولت هاربة تجر أذيال الهزيمة. استغل جيش الأمير عبد الله هذا النصر الذى لم يكن متوقعا قدر استطاعته فتتبع الفارين، الذين تراجعوا تجاه بولى، والتى أسرع إليها أيضا ابن حفصون، بعد أن تأكد من امكانية تحمله لأى حصار يفرضه عليه فى هذه القلعة، ولكن قواته، التى كانت فى غالبيتها من فرسان إستجة، لم تشأ أن تترك نفسها فريسة لهذا الحصار، فأخلت المكان فى الليلة التالية، عبر ثغرة مفتوحة بالسور. وعلى ضوء ماوقع لم يجد ابن حفصون أمامه من وسيلة سوى الهرب. ثم توجه مسرعا إلى أرشدونة، ومنها إلى منطقة جبال الأندلس، يملؤه إحباط كبير نتيجة ما حل به من كارثة لامقدمات لها، بالإضافة إلى خيانة قواته له. استولى الأمير عبد الله على قلعة بولى وقتل الأسرى المسيحيين الذين سباهم. بلغ عدد القتلى من بين هؤلاء المساكين - الذين

قتلوا أمام الأمير - إلى ما يقرب من ألف ولم يبق منهم سوى رجل واحد ارتد عن مسيحيته وقت توقيع العقوبة عليه.

توجه الأمير عقب ذلك إلى إستجة لمحاصرتها، حاصرها بالفعل واستسلمت حاميتها، التي خلت من المؤن، فأنقذت بذلك حياتها. تابع سيره بعد ذلك إلى بربشتر، حيث عكف على اظهار المهارات التي تتمتع بها قواته فحسب. وفي ١٣ يوليو التالي (١ ربيع الأول) صعد حتى أرشدونة، ثم خرج منتصرا من مناوشة وقعت بينه وبين ابن حفصون؛ طاف بالبيرة، فجمع عددا كبيرا من الرهائن، ثم عاد، في النهاية، إلى قرطبة.

أضحى الوضع - بعد أن كان من أحلك ما يمكن قبل ذلك، وإن لم يكن قد تم تصحيحه كاملا، وقد تحسن على أقل تقدير. فقد سمح النصر الذي حققه الأمير في بولي، والذي أسفر عن استرداد إستجة وأرشدونة والبيرة وجيان، بأن يلتقط أنفاسه ويستعيد ثقته بنفسه. وكذلك، فقد كان ابن حفصون في حاجة إلى فترة يلتقط فيها أنفاسه حتى يتمكن من استعادة مكانته التي تلطخت بعض الشيء بسبب سوء الحظ الذي حالفه. ولهذا فقد طلب السلام من عبد الله، فوافقه على اقتراحه، شريطة أن يرسل المتمرّد أحد أبنائه إلى الأمير عبد الله رهينة عنده. فأذن ابن حفصون لهذا المطلب؛ بل إنه حاول أن يسخر من الأمير فأرسل إليه باين له بالتبني. علم الأمير بهذا التغيير، فأرسل بالشكوى إلى ابن حفصون، الذي رأى نفسه في موقف أفضل، فنكث عهده مرة أخرى مع قرطبة عام ٨٩٢م (٢٧٩هـ)، ثم خرج في محاولة منه لاستعادة المدن الزاهية، فاسترد أرشدونة في المقام الأول، ثم البيرة، التي عادت إلى حظيرة نفوذه نتيجة خيانة بعض سكانها. وبعد ذلك أنزل هزيمة كبيرة بسعيد بن شهيد ومن معه من العرب في مرج غرناطة، ثم خرج ليستولى على جيان. ولم تعد هناك منطقة يريد استردادها سوى إستجة وبولي حتى يرى نفسه في الوضع الذي كان عليه قبل هزيمته عام ٨٩١م.

وعلى مدار السنوات الست التالية لم يقم ابن حفصون بانجاز أمور عظيمة، بل خسر البيرة. وانتهاز الأمير عبد الله هذه الفترة لينفذ الجيوش ضد المتمردين الأندلسيين من غير ذي الشوكة، وخاصة ضد سعيد بن ماستانا، دون الدخول في مواجهة صريحة مع ابن حفصون. إلهم إلا في صيف ٨٩٧م (٢٨٤هـ)، حين قام ابن حفصون باسترداد إستجة بصفة مؤقتة إلى حظيرة نفوذه. فخرج جيش بقيادة الأمير عبان والجنرال أحمد بن محمد بن أبي عبده، العائد إلى قرطبة بعد عمليات قام بها في أراضي لبلة ضد ابن حصيب، الذي أعلن تمرده في مونتى مور عقب وصوله صوب

جنوب الأندلس. سمحت هذه الحملة البوليسية، التي قادها الأمير عبان حتى ساحل مضيق جبل طارق، بأن تصبح الخزانة العامة مترعة بالأموال، ولكنها لم تحقق النتائج السياسية التي كان يأملها الأمير عبد الله.

وعلى النقيض من ذلك، فقد قام ابن حفصون بمبادرة غير منتظرة جعلته يفقد بعض النقاط. حيث أعلن، في عام ٨٩٩م (٢٨٦هـ)، رده مرة أخرى إلى دين آبائه وأجرى مراسم تعميده جنبا إلى جنب مع أفراد عائلته. استبدل اسمه بأخر هو صموئيل، وأما زوجته فقد أصبحت تعرف باسم كولومبا. حرم مثل هذا التحول الصارخ لابن حفصون إلى المسيحية، رغم أنه لقي ترحيبا وحماسا من المستعربين في أندلوثيا، الزعيم وأنصاره من المساعدات الصديقة التي مازال المولدون يقدمونها إليهم، وهم المخلصون بحق للإسلام. وهنا أعلن كثيرون الانقلاب على ابن حفصون، حيث انقلب عليه قائده خوان الملقب بيحيى بن أنا توليو، كما فعل نفس الشيء أو ساتشا بن الحابي، سيد قلعة كانيتي لاريال، بمنطقة تاكرونا. ومجمل القول إن ردة ابن حفصون قد أضرت به أكثر مما نفعته، فبالإضافة إلى كونها تعنى التكر للإسلام، فقد أصبح يعلم جيدا أنه معرض لضربات قاصمة من جانب قادة الجهاد، الحرب المقدسة ضد الكافرين والتي سيشعلها ضده رجال الدين في قرطبة. وبالفعل فقد تألب عليه معظم الناس في مختلف الأرجاء، وفي المغرب كذلك، حيث كانت لعبة «القط والفأر» ما تزال مستمرة بين متمرّد ببشتر والأمير الأموي، وهكذا فقد خسر ابن حفصون، المسلم الجديد، الكثير من مكانته. وقام أحد الأتقياء الغيورين في ناكور، يدعى عبد الرحمن، بن الأمير الصالحى صالح بتسليح جيش صغير ثم قدم به إلى إسبانيا ليقاقل ابن حفصون، باسم الدين المهان، وإن كان الحظ قد عانده، بعد أن وقع جنوده في كمين نصبه لهم ابن حفصون، هذا بالإضافة إلى أن صالح نفسه، الذي هرب ووصل إلى مرسية، قد لقي حتفه إلى جانب الجنرال ابن أبي عبده، في عام ٩١٢م (٣٠٥هـ)، وهى شهادة فى سبيل الله جاء يبحث عنها بعد هذا الجهاد.

إن الموقف الذى اتخذه ابن حفصون بعد تحوله إلى النصرانية يتيح لنا، أكثر من سلوكه السابق، الفرصة لفهم وتقويم طابعه غير المستقر واتجاهاته الانتهازية. فقد رأيناه يطلب المساعدة من كل مكان، ويعمد إلى اتباع سياسة جس النبض مع ألفونسو الثالث، ويحاول تحسين علاقاته مع بنى قسى فى رغن، تحسبا لضربة تم الاتفاق عليها ضد أراضى جيان. كما كتب كذلك إلى الأمير الإدريسي بالبصرة وأرثيلا بشمال المغرب، إبراهيم بن القاسم بن إدريس، ليعلمه بأنه يدعو له فى خطبة الجمعة على منابر المساجد على أرض الأندلس الخاضعة لنفوذه (١٣٠). وفى عام ٩٠٠م (٢٨٧هـ)، عرض

التحالف على ابراهيم بن حجاج، وذلك محاولة منه لتسميم الجو وإثارة حنق بن حجاج ضد الأمير عبد الله، الذي أصر على عدم إعادة إبنه إليه بعد أن تحفظ عليه كرهينة فى قرطبة. قبل أمير أشبيلية هذا التحالف، وأرسل إليه أموالاً وجيشاً، وفى العام التالى، عاد ليوقع معاهدات بين ببشتر وبلاط قرطبة؛ ولا يعرف على وجه الدقة من ذا الذى أخذ زمام مبادرة عقد مثل هذه الاتفاقيات، وما أسفرت سوى عن سلام عابر، وقبل ابن حفصون أن يرسل إلى قرطبة أربع رهائن، من بينهم حليفه القديم بن ماستانا، سيد برييجو ولوكى. خرقت هذه الهدنة فى عام ٩٠٢ م (٢٨٤٩هـ)، وبعد ذلك بقليل تكبد المتمرد، على الرغم من المجهود الذى قام به سلاح الفرسان الاشبيلي، خسارة فادحة فى أراضى إتيبة على يد القائد الأموى أحمد بن أبى عبده. ونظراً لهذا كله، فقد أمر الزير عبد الله بإعدام جميع الرهائن التى تركها ابن حفصون، باستثناء بن ماستانا، وبعد ذلك أعلن تصالحه مع أمير اشبيلية ابراهيم بن حجاج. وأعاد إليه ابنه عبد الرحمن.

أبانت السنوات العشر الأخيرة لحكم الأمير عبد الله عن أثرها الفعال، رويداً رويداً، فى إضعاف قوة ابن حفصون بطريقة تدريجية، والذى، على الرغم من هذا كله، مايزال هو السيد الذى لاينازع على الأراضى الأندلسية تحت نفوذه، بعد أن أعربت الحكومة فى قرطبة، التى قابلت حتى الآن هجوم ابن حفصون المتكرر بسلبية كبيرة، عن عدائها الصارخ له وأخذت تضيف إلى رصيدها سلسلة من النجاحات البارزة التى رفعت من شأنها فى الوقت الأخير، وهو ماكانت فى حاجة ماسة إليه. ومنذ ذلك الحين أصبحت توفد كل عام حملات موجهة ضد جيان، وبرييجو وريو (مالقة)، التى كان يقودها، فى بعض الأحيان، الأمير عيان أو أخوه العاصى، يساعدهما الجنرال أحمد بن أبى عبده، أو أحد ابنيه : عيسى والعباس. وفى عام ٩٠٤ م (٢٩١هـ)، بداية من مايو وحتى أواخر أغسطس، قام جيش أموى، دون أن يجد فى طريقه أى نوع من المواجهة، بالتجول عبر الأراضى الفاصلة بين مالقة ولوشة. وفى عام ٩٠٥ م (٢٩٢هـ)، واجهت ابن حفصون محنة كبيرة بالقرب من وادى ألبويون، القريب من جيان، وتكبد خسائر فادحة. وفى عام ٩٠٦ م (٢٩٣هـ) تم استرداد توكتى، مارتوس الحالية (١٣١)، فى نفس الإقليم، من بين برائن المتمرد فهد بن أسد، الذى حمل إلى قرطبة وصلب، بينما تسلق الجنود قلعة كانيتى لاريال، فى أراضى تاكرونا، واستولوا عليها، كما زودت بحامية خاصة. وفى عام ٩٠٧ م (٢٩٤هـ)، قامت صائفة أميرية بالتجول، دون أن تلقى أية مقاومة، فى أقاليم الجزائر والريو. وفى عام ٩٠٨ م (٢٩٥هـ) قامت القوات باستعراض أمام ببشتر. وفى عام ٩٠٩ م (٢٩٦هـ)، ظهرت القوات الأموية - من جديد أمام حصن

ابن حفصون، واستولت على قلعة لوكي، التابعة لابن ماستانا، الذي عاد لتوه يعلن عن تمرد. وفي عام ٩١٠م (٢٩٧هـ)، استعادت باثنيا مجموعة من قوات الأمير، وتم طرد ابن حفصون إلى منطقة غير بعيدة عن بلدا أنتقيرة، وبعد عدة أشهر حلت به الهزيمة في أراضى جيان، على الرغم من وجود قوات سعيد بن ماستانا وسعيد بن هديل التي أتت لتعزيزه. وفي عام ٩١١م (٢٩٧-٢٩٨هـ)، منى بهزيمة أخرى بجوار نهر وادي إيله. وأخيرا، في صيف ٩١٢م (٢٩٩هـ)، أصبح عليه أن يتحمل ضغوط قوات الأمير له بالقرب من ببشتر، التي استنفادت هي الأخرى أيضا من استرداد إثناخار. وفي السادس عشر من أكتوبر التالي (الأول من ربيع الأول) توفي الأمير عبد الله في قرطبة وخلفه على العرش حفيده عبد الرحمن الثالث.

ونود أن ننوه إلى أننا لانملك حول هذه السلسلة من العمليات الصغيرة التي جاءت في صالح الحكومة المركزية سوى روايات موجزة ذكرها المؤرخون الأمويون؛ ولكن يفترض أن أمثال هؤلاء، إذا ما كان لابن حفصون أن يحقق في أوقات الهدنة بعض الانتصارات الهامة، ما كان لهم أن يلتزموا الصمت تجاهها، ومن هنا يأتي الانطباع بأن ابن حفصون قد خسر، في السنوات العشر الأخيرة لعهد عبد الله، الامساك بزمام المبادرة في العمليات الحربية. ولا يعني هذا مطلقا أن الزعيم المولدي، الذي بدت عليه علامات الشيب، إذ قد تجاوز الخمسين من عمره عند وصول عبد الرحمن الثالث إلى العرش، قد أصبح على وشك أن يلقي سلاحه. بل على العكس من ذلك، لم يعلن تراجع قط، ودون أن تخمد همته، نظرا للاهتمام البسيط الذي أولاه إياه من قبل أغلبى القيروان وإدريس البصرة، تابع باهتمام بالغ نجاحاته الأولى والتطور السريع لحركة الفاطميين في وسط المغرب، وحين علم بوقوع إفريقية في يد المهدي عبد الله، وأن الشيعة قد دخل رقادة ونصب نفسه أميرا للمؤمنين، في أوائل عام ٩١٠م (٢٩٧هـ)، أسرع ابن حفصون فبعث إليه برسالة إذعان وطاعة وأصبح يدعو له من فوق منابر مساجد الأراضى الخاضعة لنفوذه في الأندلس. إنه، بلاشك، أول من جعل فكرة فتح شبه الجزيرة الأيبيرية سرايا لامعا يلوح أمام أعين سادة إفريقية. ولهذا، فعندما وضع عبد الرحمن الثالث جل اهتمامه لتصفية عجز ببشتر المتمرد، أصبح وقد قتل عصفورين بحجر واحد. فمن ناحية، أخرج من بين ضلوع مملكته تلك الشوكة المسممة التي أعملت فيها سمها منذ أمد بعيد، ومن ناحية أخرى، قطع على الفاطميين آمالهم الأولى في المساعدة التي كان بإمكانهم الحصول عليها داخل الأوساط الاسبانية من أجل صراع السلطة والنفوذ، الذي سوف يبدأونه على جناح السرعة خفية في بادئ الأمر ثم على مرأى ومسمع من الجميع، في شمال إفريقية ضد الأمويين.

وضع الثغور فى أواخر القرن التاسع :

فى الوقت الذى وصل فيه عبد الله إلى العرش كان الوضع يزداد غموضا فى الثغور عنه فى أشبيلية وألبيرة وجنوب الأندلس. وقد اتبع الأمير طوال فترة حكمه، مع الأحواز الواقعة على حدود أراضيه، سياسة ملتوية، مضمونها ترقب ما سوف تسفر عنه الأحداث؛ والمشاركة فى بعض الأحيان فى إنكائها وتطورها عن طريق التدخل المناسب؛ والمهادنة، إذا لم يكن هناك من سبيل آخر، أمام الأمر الواقع؛ والسماح لزعماء التمرد باغتصاب بعض ممتلكاته، والإسراع بالاعتراف بأن هؤلاء الزعماء هم من التابعين له، وذلك بهدف تصغيرهم وتحقيرهم أمام المناصرين لهم. بدأت رقعة الدويلات الصغيرة شبه المستقلة، التى تخنق وتلف قرطبة شمالا وغربا - ابتداءً من أشبيلية إلى مرسية، ومرورا ببيلبوس وطليلة وسرقسطة - تأخذ شكل الاتحاد نظرا للطاعة الوهمية لهذه الدويلات، أو بالأحرى، نتيجة نوع من الحماية الأموية، حماية شكلية خالصة. وما كان يهتم به الأمير فى المقام الأول، وعلى وجه الخصوص، هو ضرورة منع هذه الاقطاعات، التى يحوزها العرب، والبربر والمولدين من أن تتوحد ضده، فهو يعلم جيدا أن التحالف المكون من أعدائه سيسفر عن عواقب وخيمة بالنسبة له. وما كان بمقدور أى أمير مسلم فى الغرب أن يفهم جيدا، مثلما فعل عبد الله، كنه الحكمة القديمة القائلة : فرق تسد. ومن ناحية أخرى، فقد كان من السهل، نظرا للأثرة والخصوصية البعيدة لهؤلاء الزعماء، أن يتعاملوا مع الأمير عبد الله معاملة الند للند، لكنهم كانوا يحسدون جيرانهم ويتحسسون نقاط الضعف فيهم مهما تكن بسيطة. ويصرف النظر عن هذا، فإن هؤلاء السادة الزعماء، رغم تطلعهم إلى الاستقلال، يعتبرون بمثابة السواعد القيمة للإمارة، وذلك من ناحية حمايتهم للحدود، كما أنهم كانوا يستنزفون عند قيامهم بالجهاد ضد المسيحية فى شمال إسبانيا، وكذلك باعتبارهم نوعا من الظلة التى بدأت تغطى الأراضى الأسبانية، التى مزقتها الحروب الأهلية، وحالت بينها وبين هموم التهديدات بالعدوان المباشر من جانب مملكة أشتوريش، ونظرا لما كان يتمتع به من روح هجومية، أيقظته الحساسية المرفهة، والرغبة فى الاثراء بأقل مجهود عن طريق الغارات الهوجاء، فإن ألفونسو الثانى، الذى أبدى شجاعة وفاعلية فى عهد محمد الأول، لم يقم، كما يبدو، بشن أى هجوم حقيقى ومهم على أراضى إسبانيا الإسلامية.

وفى أواخر القرن التاسع توافد على تلك الاقاليم الحدودية، التى تعج بالبربر خاصة، عدد كبير من رجال الصوفية، فى محاولة منهم لتسريب معتقداتهم إلى

الجماعات الإسلامية التي سرعان ما تذعن للمعتقدات. في الوقت الذي أصبحت الأرجاء المختلفة للعالم الإسلامي تشهد تفجرا للنزعة الروحية. وقد بدأت آراء المعتزلة الداعية إلى استخدام العقل والإيمان بحرية الاختيار، في الدخول إلى الأندلس، قادمة من الشرق على أيدي الرحالة الرافضين لفكرة التحجر الفكري لعلماء الدين على أرض الأندلس. وفي عهد الأمير عبد الله وخلفه ظهر الفيلسوف الإسباني ابن مسرة، الذي سنعود للحديث عنه، فبدأ يعرض نظريته الميتافيزيقية على تلاميذه في المصلى الصغير الكائن بسلسلة جبال قرطبة، والتي استوحاها من الجانب الآخر للبحر المتوسط، ومن غيره. وإلى جانب هؤلاء المتصوفة الذين عاشوا حياة تتسم بالزهد والورع والاهتمام بالدراسة في مكان بعيد عن الناس، لا يبيغون من وراء ذلك نفعا دنيويا، نجد صنفاً آخر لا يحظى بأي قدر من الثقافة، يحلو له الظهور في ثياب المصلحين الملهمين، ويمارس الأسلوب الإسلامي المتسم بنقد العادات ودمها (نفس الطريقة التي سيمارسها فيما بعد المهدي بن تومرت في مراكش، عند قيامه بنشر طريقة الموحدين). ماكان المغامرون من هذا الصنف من الناس يتمتعون بقدر عال من الصراحة؛ ولكنهم - سواء الجاد منهم والمحتال-، سرعان ماكانوا يتحولون إلى أعداء للنظام الذي يشير إليهم بأصابع الاتهام وقليل ماكان يغفر لهم التدخل في النظام المعمول به.

وقبل موت الأمير عبد الله ببضع سنوات، نجد أحد هؤلاء الأشخاص قد تورط في حكاية شديدة الغرابة، جرت أحداثها فوق الحدود بين إسبانيا النصرانية والإسلامية، إنها حكاية تجمع وجه شبه كبير بحكاية المتمرّد الفاطمي عبد الله الشيعي، مما يجعلنا نتذكرها جيداً، حيث قام صاحبها بنشر المذهب الاسماعيلي في شمال إفريقيا بين سكان جبال كتامة في كبيلا الصغرى. كان المتصوف الأندلسي يدعى أبو على السراج^(١٢٢)، مكنته حجته بالدعوة إلى الجهاد من فتح الطريق أمامه حتى يجوب أفاق البلاد، فأضفى على نفسه هيئة صاحب الكرامات؛ فارتدى الصوف، ولبس نعالا صنعها من الحلفاء وركب الحمار، وهي الطريقة نفسها التي إتبعها المتمرّد المناهض للفاطميين أبو اليزيد أثناء جولاته بجبال أورس وإفريقية، واشتهر باسم «صاحب الحمار». وعلى الرغم من أن السراج كان يقدم نفسه كمصلح ديني، فقد كرس جهوده في همة ونشاط لإبرام مشروع التحالف بين بني قسي في رغن وعمر ابن حفصون في عام ٨٩٨م (٢٨٥هـ)؛ ورغم كل ماحدث بين تطيلة وبيشتر، فقد ظل المشروع معلقاً في الهواء. وبعد ثلاث سنوات تمكن السراج من أن يقتنع شخصاً من قریش يعيش في قرطبة، يدعى أحمد بن معاوية، ويلقب بابن القط^(١٢٣) يتصل نسبه مباشرة بأمير الأندلس هشام الأول، وقدم نفسه على أنه منجم يتمتع بخبرة واسعة، حتى يكون على

رأس حركة دينية وسياسية فى نفس الوقت، مناهضة للأمير الحاكم. بدأ الاثنان جولتهما بين البربر القاطنين شمال قرطبة، وفى منطقة فحص البلوط وسلسلة جبال البرانس. وأدى الترحيب الذى استقبلا به والحماس الزائد إلى دفعهما للذهاب أبعد مما انتوياه؛ جندا مريدين جددا، وبهذا تمكن أناس آخرون من البربر من الوصول إلى أرض قبيلة نفذة، كانوا يسكنون فى الوادى الأعلى لنهر «وادی أنة». فى أعالي مياه ماردة.

وهناك عرض المشهد الكلاسيكى للمهدى، الذى بدأ فى الظهور بإعلان من جانب الرجل القائم على أمر الدعاية له: لعب ابن القط دور المهدى أما السراج فقد قام بدور الداعى له. وهنا بدأ المهدى الجديد بدعوة البربر القائمين على الحدود، عبر نداءات متكررة، يدعوهم فيها للجهاد. لاقت هذه النداءات ترحيبا أكبر، عندما بدأ المهدى يفصح عن عزمه على طرد المسيحيين من سمورة؛ المدينة التى أعاد بناءها ألفونسو الثالث عام ٤٩٣م (٢٨٠هـ)، والتى كانت مزودة بحامية قوية، خرجت منها حملات متواصلة ضد المناطق الاسلامية عانى البربر منها كثيرا. بدأت الجموع الغفيرة تتجمع كل يوم من أجل الجهاد، حتى بلغت فى فترة وجيزة مايقرب من ٦٠.٠٠٠ متطوع. عبر ابن القط، مع هذا الحشد من الناس الذين اتبعوه على غير بضيرة، نهر تاجه متوجها صوب نهر الدويرة، فى الوقت الذى انضم إليه مسلمون آخرون وفدوا من طليطلة وطللييرة ووادی الحجارة وشنت برية. وبدأ الناس يتزاحمون أملا فى رؤية ألعاب الشعوذة التى كان المهدى الجديد يؤديها أمام جموع مريديه. فنراه، على سبيل المثال، يحمل فى قبضة يده حزمة من الأعواد الجافة، يضغط عليها بشدة، فيرشح منها الماء. وبهذا العمل لم يعد هناك من حاجة إلى شئ آخر يبرر به مهمته كرجل كرامات خارق للعادة. والأدهى من ذلك، أنه قد صرح لهم بأن أسوار سمورة سوف تنهار دون فاعل بمجرد وصوله. وهنا بدأ الداعى السراج يتلاشى فى تعقل. ويعد ذلك بلغت مسيرة ابن القط إلى منطقة النفوذ المسيحية، فأرسل إلى ألفونسو الثالث رسالة شديدة اللهجة، يدعو فيه ومن معه الدخول فى الإسلام، وذلك تجنباً لإبادتهم. وهنا خرج ألفونسو الثالث، يكاد يتميز من الغيظ بجرأة الهرطقى الملهم، إلى الشاطئ الأيمن لنهر الدويرة لمهاجمته. وفى المعركة التى دارت بينهما، كانت الانتصارات الأولى فى صالح المهدى الكذاب؛ واضطرت الجيوش المسيحية للانسحاب صوب الشمال، وحاصرت القوات المسلمة سمورة. ولكن، بعد هذا النجاح الأولي، ملأ الحقد قلب زعيم بربر نفذة زوأل بن يعيش بن فورانيك^(١٢٤)، الذى دخل ضمن تشكيلة الجيش المسلم المضطلع بالجهاد، فتخلى عن ابن القط، ورحل بكل من معه. وأدى هروبه إلى سلسلة من عمليات الفرار

من الميدان. وما أن علم ألفونسو الثالث بأن عمليات الهروب تزداد شيئا فشيئا، حتى عاد بفرقة، وبعد ثلاثة أيام من المعارك المجهولة، أقدم المهدي بن القط، بعد أن تخلى عنه مريدوه، على التضحية بنفسه، فألقى بها في وجه الأعداء حتى لقي حتفه، في العاشر من يوليو عام ٩٠١م (٢٠ رجب ٢٨٨هـ). وظل رأسه معلقا مدة طويلة فوق أحد أبواب سمورة^(١٢٥). تعد هذه المغامرة التي جمعت بين الجد والهزل حلقة غير ذات قيمة، أو تأثير في كتب التاريخ التي ألقت في الثغرين الأدنى والأوسط من أسبانيا الإسلامية، في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر.

وفي بطليوس نجد السيد المولدى عبد الرحمن بن مروان الجليقى، الذي حصل على استقلاله بقوة السلاح في عهد محمد الأول، قد احتفظ بما حصل عليه خلال العامين الأولين لفترة حكم المنذر أيضا. وحين وصل عبد الله إلى الحكم، اعترف بن الجليقى بسيادته، فهو الذي جدد له عهد والده الممنوح من قبل بالتمتع ببعض الامتيازات الخاصة. ولكن تبعيته للأمير لم تمنعه في العام التالي، من القيام بتلبية نداء كريب بن خلدون، وأن يخرج، كما أشرنا من قبل، لنهب قوى الأشراف، في المناطق التابعة لأشبيلية. وفيما يبدو، وافته المنية بعد بضعة أشهر في ظروف لانعلم حقيقتها. وكل مانعرفه هو أنه اضطر في أواخر حياته للدخول في صراع مع أحد المتمردين من البربر، ابن طاقت، فأمكنه أن ينتزع منه اقليم ماردة. أدى اختفاء عبد الرحمن بن مروان الجليقى من الساحة إلى إيجاد جو مناسب لقيام بويلات صغيرة على أرض الجانب الغربى، وباجة وسنتا ماريّا، على يد اثنين من قواده هما : عبد الملك بن أبى الجواد وبكر بن يحيى بن بكر. وفي بطليوس نفسها، التي تحولت، على يد عبد الرحمن إلى مدينة جميلة، تزدان بالقصور والحدائق، لحق به ابنه مروان، فلم يمهل الموت سوى شهرين بعد وفاة أبيه، وحكم المدينة أحد أحفاد عبد الرحمن بن مروان، يدعى عبد الله، الذى توفى عام ٩٢٢م (٢١١هـ)، وتولى الحكم بدلا منه ابنه عبد الرحمن. وبالنسبة لحفيد عبد الرحمن الجليقى هذا فلن نسمع به أو نراه على مسرح الأحداث حتى عام ٩٢٩م (٣١٧هـ)، والذى سيجبره فيه عبد الرحمن الثالث على الخضوع له نهائيا ثم يحمله معه إلى قرطبة^(١٣١).

ولا يوجد بين أيدينا أخبار كثيرة حول الوضع في طليطلة والثغر الأوسط فيما بين مجيئ المنذر إلى الحكم وموت عبد الله. ويبدو من خلال فحصنا للنصوص البسيطة والقليلة التى يوردها كل من ابن حيان وابن عذارى في كتابيهما اللذين يتحدثان عن العاصمة القوطية القديمة، أنها ظلت تماما طوال هذه الفترة خارجة عن سلطان

الأمويين. كان مصيرها يرتبط في البدايه بمصير اقليم سنتايير، الذي سيطر عليه بربرى من قبيلة هواره، يدعى موسى بن ذى النون^(١٣٧). أقام ابن ذى النون، الذي أعلن تمرده هو الآخر على الامارة، علاقات مع متمرّد طليطلة، لوبى بن طريشة، وقررا سويا الاستيلاء على مدينة نهر التاجه. جمع بن ذى النون جيشا قوامه ٢٠٠٠٠ من البربر فى شنت برية، وهاجم طليطلة فى ١٨ فبراير عام ٨٨٨م (١ شوال ٢٧٤هـ)، فسحق المدافعين عنها. ظل موسى بن ذى النون صاحب المدينة عدة سنوات، وبعد ذلك ملك زمام أمورها أحد أفراد عائلة بنى قسى الأراجونية. فى أوائل ٩٧م (ذو الحجة ٢٨٣هـ)، أصبح محمد بن لوبى بن موسى صاحب المدينة. وفى العام التالى، حشد ابنه لوبى عددا كبيرا من القوات داخلها حتى يتمكن من مهاجمة المولدى بن الشالية^(١٣٨) فى قلعة المعروفة باسم كاثونة، بالقرب من لينارس وفى أواخر ٩٠٣م (٢٩٠هـ)، أرسل أهالى طليطلة وفدا إلى لوبى نفسه ليعرض عليه خضوع المدينة، والتى نراها، فى فترة الهدنة، قد خرجت من تحت نفوذه. وهنا فوض لوبى الأمر إلى أخيه المطرف، الملقب «بالمالك»، ولكنه خسر عرشه على يد عمه الثانى محمد بن اسماعيل بن موسى، الذى اغتاله أهالى طليطلة عام ٩٠٦م (٢٩٣هـ). وهنا أصبح لوبى بن طرابيشة صاحباً لطليطلة - فقد كان يشغل منصب القيادة من قبل لموسى بن ذى النون-، ومازال يحتل نفس المنصب حتى السنوات الأولى لعهد عبد الرحمن الثالث. ومن خلال نص بسيط للمؤرخ المسيحي سامبيرو نعلم أنه، فى أواخر حياته، استدعى ألفونسو الثالث من قبل أهالى طليطلة، فدفعوا له الجزية، وعند عودته استولى على قلعة يطلق عليها سامبيرو اسم كينيتا لوبيل؛ وماكان هذا التقدم من جانب العاهل الأشتوريشى نحو وادى التاجه سوى رحلة خاطفة لم تتمخض عن نتائج تذكر^(١٣٩).

وفى الشرق، فى المناطق المجاورة للثغر الأعلى، وعند وفاة موسى بن ذى النون فى ٩٠٨م (٢٨٥هـ) اقتسم أبنائوه الثلاثة تركته. فاخص ابنه الأكبر، يحيى، بأويلامو، أما الآخران، الفتح Al Fath والمطرف فقد استأثرا بأوكلس وأوديتى على الترتيب. وفى هذه القلاع الثلاث، الواقعة باقليم قوينقة الحالية، استمر الأخوة جميعهم حتى بعد موت الأمير عبد الله.

كانت منطقة الثغر الأعلى فى تلك الفترة مسرحاً لصراع النفوذ، صراع معقد ومتبادل بين التوجبيين خلفاء موسى بن موسى بن قسى وبين شخصية جديدة عرفت باسم محمد الطويل، الذى تورط بدوره فى نزاع داخل أقاليم وشقة ولاردة.

وقد أوضحنا أن محمد الأول استطاع أن يرسم سياسة يواجه بها قدر الامكان الأنشطة المختلفة المعادية للأمويين، والمنتشرة فى أرجاء أراجون بزعامة محمد بن

لوبي، حفيد موسى بن موسى بن قسي، حيث جعل في مواجهته عبد الرحمن بن عبد العزيز التوجيبي، السيد العربي على قلعة أيوب وداروكا؛ كما أن سرقسطة، بمجرد أن بيعت في عام ٨٨٤م (٢٧١هـ)، عادت إلى سلطة العاهل القرطبي. وبعد ذلك بقليل، في يناير ٨٩٠ (رمضان ٢٧٦هـ)، قام بن عبد الرحمن التوجيبي، أبو يحيى محمد، الملقب بالأنقر (الأعور)، باغتيال حاكم سرقسطة، أحمد البراء بن مالك القرشي، وذلك بإيعاز من الأمير عبد الله، حيث لم يكن يثق به مطلقاً. وعقب تنفيذ الاغتيال، تولى الأنقر أمر سرقسطة، ولم يجد عبد الله أمير قرطبة أمامه من سبيل سوى قبول مثل هذه الأمور، راضياً بذلك الوعد البسيط بالخضوع من جانب التوجيبي. وأدى هذا الانقلاب من جانب الأنقر إلى إنكفاء روح الكراهية ضده وخاصة من قبل محمد بن لوبي، الذي خرج عدة مرات، دون نجاح، ليحاصر عاصمة الثغر الأعلى، وانتهى به الأمر إلى أن لقي حتفه أمام أسوارها عام ٨٩٨م (٢٨٥هـ). استمر الأنقر على وضعه في سرقسطة حتى وفاته في عام ٩٢٤م (٣١٢هـ)، بعد أن أقره عبد الرحمن الثالث على الامتيازات التي كان يتمتع بها. وقد قدم التوجيبي، في الواقع، خدمات جليلة للأسرة الحاكمة، سائراً دون ماهوادة في حربه لبني قسي، الذين سلبهم أقاليم كثيرة منها إيخيا دي لوس كابايروس، عام ٩٠٨م (٢٩٥هـ)، على مسافة ٦٠ كيلومتراً شمال شرق سرقسطة، الموقع الاستراتيجي الهام الذي انتزعه محمد بن لوبي من القائد الأموي محمد بن توملس، قبل قليل من بلوغ عبد الله العرش.

أما بالنسبة لبني قسي، فقد بدأ نشاطهم يخبو منذ موت محمد بن لوبي. ولم يتمكن خلفاء موسى بن موسى، وهم أكثر، من توفير جو الوفاق بينهم، كما أدت المناقشات إلى انهيار قوتهم. كان الناجي الوحيد من بينهم هو لوبي بن محمد، الذي ظل يحتفظ من بين كل أفراد الأسرة بحماسة للحرب وشجاعته. وما إن تولى الأمر مكان والده حتى بدأ يتبع سياسة جس النبض مع قرطبة فحصل على موافقة الأمير على ولايته للاقطاعية التي ورثها عن أبيه مثل تطيلة وطرُسونة؛ وما أثناه ذلك عن الخروج لمهاجمة سرقسطة عدة مرات؛ ولكنه لم يتمكن، كما حدث مع والده، من أن يطرد الأنقر منها. وحين ترك لأخيه المطرف منطقة نفوذه التابعة لطليطلة وجه جيوشه ضد ألبه وثر الفرنجة وجبل البشكنس. وفي صيف ٩٠٤م (٢٩١هـ) انتزع من ألفونسو الثالث قلعة بانيسوس، في إقليم ريوخا، وطلب من العاهل الأشتوريشي وقف حصار جرانينون. وبعد ذلك، بدى بكل تأكيد أنه كان على علاقة بملك أوبييدو في ظل ظروف لا يمكن لنا أن نوضحها.

أما في سبتمانيا القديمة فقد تغير الوضع كثيرا منذ ثلاثين عاما. ففي عام ٨٦٥، كما رأينا، كانت هذه المنطقة مقسمة إلى اقليمين مختلفين : لاجوتيا، في الشمال، والثغر الاسباني، في الجنوب. كانت هذه المنطقة الأخيرة، التي يربطها ببقية الامبراطورية الافرنجية رباط هش، من نصيب ويفريندو ذي الشعر الكثيف، الذي سيؤسس أسرة «الكونتات المركزيين» في برشلونة. وفيما يتعلق بأصول هذه الأسرة - الواقعة تحت مرآة النقد منذ قرن متلما حدث بالنسبة للمراحل الأولى لمملكة نبرة - فما زالت حتى الآن غامضة لم يكشف الستار عنها. ومع هذا، فإن المؤرخين المحدثين الذين حاولوا الكشف عنها ماكانوا يأخذون في حساباتهم نصا أساسيا للمؤرخ عيسى الرازي ذكره بن حيان في رسالته عن فترة حكم عبد الله، والذي يشير إلى ويفريدو بالتحديد^(١٤٢). وتبعاً للتراث المقبول في الغالب، فقد حكم هذا الكونت، الملقب في اللغة الكتالانية بـ «جيفري البيلوسي»، برشلونة، حيث حررها من الوصاية الشارلمانية، منذ عام ٨٦٥ وحتى ٨٩٨، وخلفه في أول الأمر أخوه ويفريدو الثاني، والياس بوريل الأول، الذي توفي في السادس والعشرين من أبريل عام ٩١٤م، وبعد ذلك خلفه ابنه الأكبر سونير، الذي أصبح الكونت الأكبر حتى ١٥ أكتوبر عام ٩٥٤م. والآن. وحسب ما تذكره رواية المؤرخ المسلم - الذي يبدو أنه خبر مايقول : هذا - كما يذكر النص الذي أورده الرازي - قام في ٢٨٤هـ بحملة على قلعة أورا (في أراضي برشلونة)، وبعد أن استولى عليها وحرّمها، واجه ويفريدو، فهزّمه وسدد إليه ضربة رمح مات على أثرها الكونت بعد أيام قليلة^(١٤٣).

وبعد هذا النجاح الذي حققه لوبي بن محمد بن لوبي على فرنجة قطللونية، والهجوم الذي شنه تباعا ضد الأراضي الخاضعة للكونت بيارس، انقلب على البشكنس، الذين حاولوا اغتصاب أملاكه في وادي الابرو. ومنذ زمن قريب، كان لوبي بن محمد يرى نفسه غير مضطر نتيجة لروابط أسرية لأن يتخذ موقف صداقة تجاه ملوك بنبلونة. وقد أخلّى سبيل فورتون جارثيس، السجين القديم بمدينة قرطبة والجد الأكبر لعبد الرحمن الثالث من جهة أمه، والذي خلف والده جارثيا إنيجيث في تاريخ لانعلمه، على عرشه في ٩٠٥م، على يد أحد أفراد الامارة يدعى سانتشو جارثيس الأول، وانسحب بعد ذلك لينهى أيامه في الأديرة.

وماكان لسانتشو هذا^(١٤٤)، الذي أنقذ تاريخ ناباراً من الظلام الذي أحاط به، أن يموت حتى عام ٩٢٦، بعد أن حكم لفترة طويلة، لاتخضع عند التسايرخ لها لنفس حالات الريبة التي تتسم بها الفترات الأخرى. وبعد فترة وجيزة من بلوغ المغتصب

الباسكى السلطة، قام لوبى بن محمد بن لوبى بالهجوم على بنبلونة، يبدو أنه كان بإيعاز من الممثلين القدماء للبيت الحاكم، ثم ذهب ليضرب أطنابه ويحصن نفسه بالقرب من العاصمة، فى محلة تنتمى تقريبا إلى أريانا الحالية. وقد قام سانتشو جارثيس بتدبير عدة مكائد له، جاءت إحداها مميتة للوبى، فوقع على أثرها جريحا يعانى الموت فى التاسع والعشرين من سبتمبر عام ٩٠٧م (١٧ ذى الحجة ٢٩٤هـ)، وما كان عمره يزيد على الثامنة والثلاثين عاما. قام أخوه عبد الله، الذى خلفه، بمواصلة الكفاح ضد أهالى نبرة، وأوقع بسانتشو جارثيس الأول هزيمة كبيرة فى صيف ٩١١م (٢٩٨هـ). وظل على مدى خمسة أعوام يمسك بزمام الأمور فى إمارة تطيلة، ومات مرابطا عام ٩١٥-٩١٦م (٢٠٣هـ). فى أوائل عهد عبد الرحمن الثالث.

وقبل ذلك بعامين توفى محمد الطويل، الرجل الثانى الذى تزعم الصراع ضد المسيحيين فى شمال شرق شبه الجزيرة. لقب بالطويل نظرا لطوله الفارع. أما اسمه الحقيقى فهو محمد بن عبد الملك بن شبريط، كان حفيدا لهذا الأمير، شبريط، بن عم الشهير عمروس «صاحب عملية الخندق» الذى أوكل إليه، فى بدايات القرن التاسع، حكومة وشقة^(١٤٥). ورث محمد الطويل سيادة أويسكا وأعرب عن عداته لبني قسى منذ عام ٨٨٩م (٢٧٦هـ)، واستولى على لاردة، إحدى ممتلكاتهم. كانت هذه المدينة تكون جزءا من ولاية باربيتانيا آنذاك^(١٤٦). كما كانت إقطاعية للسقيم اسماعيل بن موسى بن موسى. وإلى جانب هذا، وجب على محمد الطويل أن يتخلى عن ملكيته لهذه الولاية لمحمد بن لوبى نتيجة حكم أقره الأمير عبد الله. نشبت معركة جديدة بعد قليل بين سيد وشقة ولوبى بن محمد بن لوبى، حيث كان هذا الأخير يرغب فى تأسيس قلعة مونثون عام ٨٩٦م (٢٨٣هـ) على ضفاف الثينكا، ويترك حامية بها، مما استدعى معارضة الطويل؛ غير أنه هُزم ووقع ابنه فورتون فى الأسر. وبعد أن توفى لوبى، بعد أحد عشر عاما، غدا ذلك بالنسبة لمحمد الطويل إشارة لبدء الهجوم على باربيتانيا، وفى ٩٠٧-٩٠٨م (٢٩٤-٢٩٥هـ)، فرض سيادته على مدن بيشتر والقصير ومنتون ولاردة. ومنذ ذلك الحين تمكن من أن يكرس نشاطه الحربى خلال أربع سنوات متتالية، منذ ٩٠٨ وحتى ٩١١م (٢٩٦-٢٩٩هـ)، للكفاح ضد نبرة، وخاصة، ضد الفرنجة فى الثغر القديم. بدأ بمقاطعة بيارس، حيث حطم قلاع رودا، فى وادى نهر إيسانيا، ومونتي بدروسو، وأوليولا، وجوالثير، والجوايرى، فى وادى نهر السرجى. وبعد ذلك، وقت أن كان حليفا لبعض الوقت لعبد الله بن محمد بن لوبى، انقلب على مملكة نبرة. وفى مايو عام ٩١١م (رمضان ٢٩٨هـ)، حرق قلعة فى جنوب شرق بنبلونة بالإضافة إلى العديد من الكنائس؛ ولكن، نتيجة ضغط من جانب سانتشو جارثيس الأول، وجد نفسه

مضطرا إلى الانسحاب، تاركا حامية تيركاستيو، رويستا الحالية، على نهر أراجون^(١٤٧). وفي العام التالي ألحق الهزيمة بالكونت سونيير، حاكم برشلونة، بعد أن نهب وخرب بسائط تاريجا، التي يجرى على أرضها نهر الثيريرا. لقي حتفه عام ٩١٣م (٣٠١هـ)، أثناء هجوم جديد على قطلونية. وتعرف من خلال المخطوط الذي تركه «ميلا» أن محمد الطويل كان متزوجا من سانتشا ابنة الكونت أثنار الثاني، وأنه أنجب أربعة من الأولاد: عمروس وفورتون وموسى وعبد الملك، وابنة واحدة تسمى بيلاسكيثا.

وحتى ننهي حديثنا هذا، الذي اعترض موضوعنا، رغم أنه ضروري، عن الأحداث التي وقعت في ثغور الأندلس خلال عهد الأمير عبد الله، يتبقى لنا أن نشير إلى أنه في عام ٩٠٣م (٢٩٠هـ)^(١٤٨)، استرد المسلمون جزر البليار. ومن المدهش أن ابن حيان لم يذكر شيئا عن ذلك. أما ابن خلدون فهو الوحيد الذي قدم لنا بعض التفاصيل، إذا ما استبعدنا الإشارة الموجزة التي يذكرها الجغرافي البكري^(١٤٩)، الذي يؤكد تاريخ الواقعة ويجعلنا، بهذا، على ثقة منها. لقد رأينا أنه في عام ٨٤٨-٨٤٩م (٢٨٤هـ) في عهد عبد الرحمن الثاني، قد وقع تمرد من جانب جزر ميورقة ومينورقة، وأن أسطولا مكونا من ٣٠٠ سفينة قد خرج إليهما ليعيد فرض النظام على أراضيها^(١٥٠). ومما لا شك فيه، فإن هاتين الجزيرتين، قد نفضتا، منذ ذلك الحين، نير الحكم الإسلامي عنهما. لكن، تبعا لما يذكره ابن خلدون، فقد حدث أن أندلسيا يدعى عصام الخولاني، الذي ركب البحر في طريقة إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج، قد وجد نفسه مضطرا بسبب عاصفة أملت به للبحث عن ملاذ في ميورقة، والبقاء فيها عدة أيام قبل أن يركب البحر مرة أخرى. وحين عودته من الشرق، قص حكايته على الأمير عبد الله وأشار عليه بمدى سهولة الاستيلاء على منطقة البليار هذه من جانب القوات المسلمة. وعلى ضوء هذا، رحلت مجموعة من السفن، وعلى متنها كثير من المتطوعين للجهاد، تجاه مايوركا، بقيادة عصام الخولاني نفسه، الذي افتتح فعلا، الجزيرة دون ماصعوبة تذكر. وقد عهد الحكم إلى رئيس الحملة، الذي توفي بعد عشرة أعوام من ولايته، بعد أن أقام العديد من المساجد وأسواق الغلال والحمامات العامة. وتولى الحكم بعده ابنه عبد الله الذي قرر، بعد أن ثبته عبد الرحمن الثالث في منصبه، الذهاب إلى المشرق، حيث أنهى أيامه في عزلة صوفية.

كانت تلك هي الأحداث الرئيسية التي شهدتها الفترة التي دام فيها حكم الأمير عبد الله، والتي اتسمت بالاضطرابات الدائمة، التي أقضت مضجع سادس خلفاء عبد الرحمن الداخل. كان كهلا حينما وافته المنية بقرطبة، ليلة الخامس عشر والسادس

عشر من أكتوبر عام ٩١٢م (١ ربيع الأول عام ٣٠٠هـ)، تاركاً العرش، وما زال يهتز، إلى حفيده أبو المطرف عبد الرحمن. وتم تنصيب الأمير الشاب على الفور طبقاً لرغبة العاهل المتوفى. وقام أعمامه وأخواله^(١٥١) في زى حدادهم الأبيض^(١٥٢)، بتقديم يمين الولاء له. وهكذا بدأت فترة حكم جديدة : فترة حكم الخليفة الأول لقرطبة. وبعده بدأ القرن الرابع الهجرى، فكان عهداً من أعظم العهود وأخصبها في تاريخ إسبانيا الإسلامية.

هوامش الفصل الرابع :

(١) المصادر العربية : أخبار مجموعة، النص، صفحات ١٤١-١٥٠؛ وصفحات الترجمة ١٢٤-١٢١؛ ابن القوطية، افتتاح، النص، صفحات ٧٠-١٠٢؛ الترجمة الإسبانية صفحات ٥٦ - ٨٧ (فاجنان، صفحات ٢١٥-٢٤٢)؛ ابن عذاري، البيان، الجزء الثاني، النص، صفحات ١٦-١٢٣؛ الترجمة، صفحات ١٥٢-١٩٨؛ ابن الأثير، الحوليات، صفحات ٢٣٠-٢٦٣؛ التويري، تاريخ إسبانيا، النص، الصفحات ٢٠٥-٢١١؛ الترجمة الإسبانية؛ صفحات ٢٤-٢٩؛ ابن الأبار، الحلة، صفحات ٦٤-٦٥؛ ابن الخطيب، الأعمال، صفحات ٨-٢٢؛ ابن خلدون، العبر، الجزء الرابع، صفحات ١٢٠-١٢٢؛ المقرئ، الجزء الأول، صفحات ٢٢٥ - ٢٢٦.

مراجع : دوزي، تاريخ إسبانيا الإسلامية، الجزء الأول، صفحات ٢٤٦-٢٦٢؛ والجزء الثاني، صفحات ١-٢٠؛ سيموني، تاريخ المستعربين، صفحات ٤٤٣ - ٥٢٥.

(٢) ولد في مارس- أبريل من عام ٨٢٣ (نو القعدة، ٢٠٧) وكان في الثلاثين من عمره حين بلغ سدة الحكم. ماتت أمه بوهائر بعد ميلاده بقليل، كانت أم ولد لعبد الرحمن الثاني، والتي أرضعته في نفس الوقت مع ابنها الطرف.

(٣) تاريخ إسبانيا الإسلامية، الجزء الأول، صفحة ٣٥٢.

(٤) تم العثور على الجزء الخاص من المقتبس لابن حيان والذي يأتي تاليا للجزء الذي يتحدث عن فترتي حكم الحكم الأول وعبد الرحمن الثاني في فاس مؤخرا؛ ولكنه لسوء الحظ، وجد تالفا بفعل الحشرات، بحيث أصبح من الصعب الحصول على أية معلومات مفيدة.

(٥) المرجع المذكور، صفحة ١٥٩.

(٦) انظر ابن عذاري، البيان، النص، صفحة ١١١؛ الترجمة، صفحة ١٧٨.

نفس التفاصيل توجد في ابن الخطيب، الأعمال، صفحة ٢٤.

(٧) نفس المرجع ص ١٦٠ والمرجع المذكور في رقم (٦٠). بالنسبة للأمراء المدرايين لتشيلماسيا المعاصرين لمحمد الأول هم : أبو مالك المنتصر، والذي تازعه السلطة ابتاه، مأمون بن تقي وميمون ابن الرستمية؛ وفيما بعد أتى محمد، بن ميمون بن تقي، وأخيرا، اليسع، ابن المنتصر.

(٨) عن طريق الجغرافي اليعقوبي، نعلم أن الرستميين كانوا يتمتعون بعمر أو بمدخل على البحر ويمناء، مرسى فروج، والذي يعين الإدريسي مكانه في شرق ماستاجانم، الأمر الذي يصعب مهمة التعرف عليه.

(٩) المرجع المذكور، ص ١٦٠.

(١٠) البيان، الجزء الثاني، المرجع المذكور؛ ابن الخطيب، الأعلام، صفحة ٢٥. لقد أصبح اسم كارلوس الأصل يعرف بواسطة النساخ «بفرناندو»؛ ولكن من السهل أن نفسر بكل دقة سلسلة التشوهات الخطية التي أدت إلى أن تحل محل الخط العربي «لكارلوس» فتخطه باسم آخر جرت العادة على معرفته بالنسبة

للمسلمين الإسبان - نفس الكتب تضيف، بالنسبة لكارلوس الأصلع، بأنه كان «الرجل الذي أمر بصناعة تمثال للمسيح، يزن ثلاثمائة رطل، من الذهب الرقيق، مرصع بالياقوت والزمرد، مقام فوق قاعدة من الذهب الخالص أيضا مرصعة بنفس الأحجار الكريمة، وحين فرغ من إقامة التمثال، سجد أمامه، أمراً كل سكان البلد بفعل ما قام هو بعمله، ويعد ذلك تم إهداء التمثال إلى رئيس الكنيسة الذهبية، في روما».

(١١) حول الهدنة الموقعة عام ٨٤٧ بين كارلوس الأصلع وعبد الرحمن الثاني، أنظر المرجع المذكور، ص ٢٦٦ ومايليها، وص ٥٩.

(١٢) لاشئ يمنعنا حتى من تأريخ هذا الاتفاق في يوليو ٨٦٤.

(١٣) ابن حزم، طوق الحمامة، صفحة ٦، يشير إلى أن الأمير محمد كان مغرماً بمحظيته غزلان، التي أنجبت له ثلاثة أبناء : عثمان والقاسم والمطرف.

(١٤) انظر ليثي بروفنسال : إسبانيا الإسلامية، القرن العاشر، صفحات ٢١٢-٤؛ أنظر أيضاً نفس النص بالعربية، العدد ١، صفحات ١، ٢.

(١٥) تحت إمارة الأمير محمد الأول، في ديسمبر عام ٨٦٤ (نو القعدة، ٢٥٠)، أسس وتمت أعمال توسعة المسجد الكبير في البيرة، تحت إدارة المحافظ عبد الله بن عبد الله. بالنسبة لنص الاكتتاب التذكاري، الذي ضاع، قد حفظ لنا عن طريق ابن الخطيب : أنظر ليثي بروفنسال : الوصف العربي لإسبانيا، عدد ١٥٨، صفحة ٤٤. ومن ناحية أخرى، وطفا لما يذكره ابن الفرضي في التأريخ، عدد ١٥، فإن المسجد الكبير بملقه قد تأسس في نفس الفترة بأموال تم إرسالها من قبل أمير قرطبة.

(١٦) بعد ذلك في (صفحات ٢٠٢-٢٠٤ و ٢٠٧) سوف نرى نوع النشاط الذي قامت به البحرية الأموية ضد النورمان وجليقية، تحت إمرة محمد الأول. ولنشر أيضاً من الآن إلى أنه في نهايات نفس فترة الحكم بدأت تزدهر الاتحادات البحرية في بيتشينا والميرية، والتي سوف نتحدث عنها في الجزء الثالث من هذا الفصل (صفحات ٢٢٣-٢٢٨).

(١٧) انظر ابن عذارى، الجزء الثاني، ص ٣، والترجمة صفحات ١٧٨ - ١٧٩.

(١٨) انظر ليثي بروفنسال : إسبانيا الإسلامية، ١٠، ص ١٠١، ١١٠.

(١٩) المرجع المذكور، ص ١٠٠.

(٢٠) حول هذه الشخصية، انظر، بالإضافة إلى الحوليات التاريخية، الضبي البقية، عدد ١٤٢٣؛ ابن الأبار، الحلة، صفحات ٧٢-٧٦.

(٢١) ابن القوطية، الإفتتاح، النص، ص ٧١؛ الترجمة إلى الإسبانية، ص ٦٦ (فاجنان، ص ٢١٦، حيث نعثر على ترجمة أقل دقة لهذا الجزء).

(٢٢) حول باقى بن مخلد، انظر ليثي بروفنسال : الكتابات الإسلامية الجزء الثالث، صفحات ١٧٦-١٧٧، والمراجع المذكورة. أنظر أيضاً أسين بالاثيوس، ابن مسرة ومدرسته، ص ٢٩، أعداد ٢، ٤.

(٢٣) انظر، على وجوه الخصوص، جولتسهير، ليبيريج ١٨٨٤، ص ١١٥، نفس الكاتب، تقديم لكتاب : كتاب محمد بن تومارت، الجزائر، ١٩٠٣، صفحات ٢٥-٢٨.

(٢٤) نفس المرجع، ص ١٥٥.

(٢٥) ابن القوطية، إفتتاح، النص الأصلي، ص ٨٣؛ الترجمة الإسبانية صفحات ٦٧-٦٨ (فاجنان، صفحات ٢٢٥-٢٢٦). حول جوميث، ابن أنطونيانو، انظر أيضا الخشني قضية قرطبة، النص الأصلي، ص ١٢٠-١٢٢؛ الترجمة، صفحات ١٥٩-١٦٤. - شخص يقال له عمر بن جوميث بالشك هو ابن الأسبق، وافته منيته عام ٩١١ (٢٩٨)، كان سكرتيرا للأمير عبد الله، ليفي بروفنسال، إسبانيا الإسلامية، ١٠، صفحة ١١١ والمرجع المذكور في رقم ٥.

(٢٦) تظهر كالاترابا (قلعة كالاتراب القديمة) في الخرائط إلى جانب التقاطع مع نهر وادي أنه لرافد صغير للضفة اليمنى لهذا النهر، يسمى جدول ببيخيرو. حول أصول المكان يمكن الاطلاع على : ليفي بروفنسال، شبه الجزيرة الأيبيرية، صفحة ١٩٦ والمرجع المذكور في رقم ٢ من ثبت المراجع.

(٢٧) هكذا يجب ترجمة وتفسير الفقرة التي ذكرها ابن عذارى، البيان، الجزء الثاني، النص الأصلي، ص ٩٧؛ الترجمة ص ١٥٤، الذي يحكى مثل هذه الأحداث. وقد ترك دوزي نفسه للسير في ركاب الخطأ، معتقدا أن اسم هذا النهر (الذي يسمى بالعربية سننولة) كان اسما أطلق على زعيم طليطلي، والذي خطه سنيدوله. وبعده، قام المؤرخون والمترجمون بإبراز شخصية هذا الشبيه - سننولا، زعيم التمرد الطليطلي. ويرجع الفضل في تصحيح هذا الخطأ الفريد إلى سيموني. فبعد أن قص هو الآخر مغامرات سنيدوله في كتابه : تاريخ المستعربين، وقع في الخطأ القائل بأن الأمر يتعلق بنهر جاننولا، الذي يصب في الوادي الكبير، القريب من أندجّر، وتركه هكذا، دون أن يلح في الأمر، في تصحيح الأخطاء، ص ٨٢٧. ولكن الأمر الغريب أن أحدا لم يعر هذا الاستدراك البديهي انتباها : لا بارأو، ولاحتي شانشيث ألبورنو، أو جوثاليت بالينثيا، أو بايستيروس، فما أعاره أحد منهم اهتماما في عمله التاريخي.

(٢٨) المرجع المذكور، ص ٢٠.

(٢٩) انظر سانشيث ألبورنو، مسيرة وادي سليط، ١٨٢٢، ص ٦٩١-٧٠٠.

(٣٠) حول عبد الرحمن بن مروان الجليقي، أنظر، على وجه الخصوص، الدراسة التي أنجزها كوديرا، بنو مروان في ميريديا وبطلينوس، في الدراسات النقدية التاريخية العربية الإسبانية، مقال إسباني رقم (٩)، ص ١-٧٤.

(٣١) العمل المذكور، ص ١٢٩.

(٣٢) يطلق عليها في اللغة العربية قلعة الحنش (حصن الحنش)، وهو اسم أطلقه عليها المؤرخون اللاتينيون. كوديرا، العمل المذكور، (٩)، ص ٥٥، والمرجع المذكور في الملاحظة رقم (١)، يخطئ حين يضع هذا الاسم الجغرافي في علاقة مع هذا التابعي الشهير حنش الصنعاني (العمل المذكور، ص ١٨). وربما أعد تفسيراً سليماً إذا ما كان اسم هذه الشخصية قد ظهر ذات مرة بالإدارة التعريفية في اللغة العربية «أل».

(٣٣) وطبقا لما يذكره سيموني، تاريخ المستعربين، ص ٥٠٩، مرجع ٢، فإن قلعة مونسالود (التي تسمى في العربية مونت جالوت) توجد جنوب بطليوس، في أراضي نوجاليس.

(٣٤) وليست كاراكويل Caracuel، القرية من يثوداد ريال، إلى الشرق المتطرف، كما تم التسليم به حتى الآن، باتباع ما قاله دوزي وسيموني، فإن الوحيد الذي رفض قبول أن الأمر يتعلق بكاراكويل - Cara-

كان من المحتم أن تقع في جنوب (Karkar) Cárcar. طبقاً لما يذكره هو، فإن كاركرك cuel مونسالود، على طريق أشبيلية.

(٣٥) ابن القوطية، افتتاح، النص الأصلي، ص ٤٩؛ الترجمة، ص ٧٤، يوضح بأنه في هذا الوقت بالذات بدأ كل من ابن مروان وسعدون السرنباكي بجولة «في الأجواء الخالية التي كانت تفصل بين المجالات الإسلامية والأخرى المسيحية». هذه الفقرة قد تمت ترجمتها من قبل دوزي (تاريخ إسبانيا الإسلامية، الجزء الثاني، ص ٩ : «خطب في أنصاره من أبناء وطنه ديناً جديداً كان يمثل حلقة وسطية بين المسيحية والإسلام».

(٣٦) هكذا يبدو أنه لا بد من قراءة الاسم الجغرافي الذي رسمه خطياً دوزي، وتبعه في ذلك فاجنان، تحت مسمى «أتشيغيرا» Acheghira أو أتشيغيرا Achiguerra. إن قراءة الاسم أتشبارأجوثا Ashbarr- (تأتي متوافقة تماماً مع الخط العربي، مثلما يذكر ذلك Esparragosa تساوي (إسبراجوسا guza ابن الأثير وابن عذاري. هناك وحدتان محليتان بهذا الاسم في إقليم بطليوس الحالي : إسبراجوسا دي لاسيرنا في كاستوريرا واسيراجوسا دي لاريس، في بوبلا دي الكوثير. في هذه المحلة الأخيرة، الواقعة بين وادي أنة وألمادين، هي في الغالب المكان الذي سوف يكون مهرباً لابن مروان.

(٣٧) ابن خلدون، العبر، الجزء الرابع، ص ١٢١ (كورديرا، ١١ بنو مروان، ص ٤١-٤٢)، يقدم الأمور بصورة أخرى ويتأريخ أكثر تمويهاً. تبعاً لما يذكره هذا المؤلف، فإن ابن مروان، بعد أن أقام في الأراضي التابعة لأفونصو الثالث، ربما ذهب ليقوم في محلة باقليم ميريدا Mérida، تسمى أنتانيا Antaniya، والتي من خلالها بدأ فتوحاته في غرب الأندلس. وبالنسبة للمؤرخين الذين درسوا هذا الإشارة لابن خلدون لم يحددوا أي تعريف لهذه المحلة المعروفة باسم أنتانياك ولكن الأمر يتعلق بداهة بالقرية الحالية في البرتغال والتي تعرف باسم إيداها أبلها Idanha a Velha، الواقعة في مكان قريب من الحدود الإسبانية، في إقليم كاستيو برانكو، على مسافة ١٥٠ كيلومتر شمال شرق ميريدا.

(٣٨) ابن الخطيب، الإحاطة، مخطوطة رقم ١٦٧٤ بمكتبة الأسكوريال، ص ٢٨٢-٢٨٤، يخصص رسالة ذاتية عن ابن حفصون - (أنظر ليقى بروفنسال، مخطوطات إسلامية، الجزء الثالث، صفحات ١٠٤٩-١٠٥٠).

(٣٩) مما لا شك فيه أنها باراوتا Parauta، على مسافة ١٠ كيلومتر جنوب شرق روندا Ronda، كما يشير إلى ذلك سيموني في، تاريخ المستعربين، ص ٥١٢ مرجع رقم ٤. ولقد تم اقتراح تعريفات عديدة أخرى لهذا العلم الجغرافي. أما دوزي فقد اعتقد أنه يتعلق الأمر هنا بإيثانتى Izante، الواقعة في أراضي بيليث - ملقة Vélez-Málaga.

(٤٠) العبر، ٤، ص ١٢٤.

(٤١) يسمى في اللغة العربية «التفخيم». حول هذا اللاحق للكلمة واستخدامه في إسبانيا أنظر، على وجه الخصوص، كيتاني وجبريلي، الأسماء العربية، المجلد الأول، روما ١٩١٥، ص ٩٧، ٦٤، والمراجع المذكورة :

Caetani Y Gabrieli, Onomasticon arabicum, vol. I, Roma 1915, p. 97, y 64 y las Meferencias citadas.

(٤٢) نعرف اليوم بدقة وقد تم حفر مكان قلعة بريشترة Bobastro، فوق أويو ديل شورو Hoyo del Chorro أو تاخو ديل جاتيان Tajo del Gaitan، حيث يمر بها، بالإضافة إلى وادي العروس، الطريق الحديدي لقرطبة والذي يصلها بملقه عن طريق بوباديا Babadilla.

(٤٣) العمل المذكور، ص ٢٠٩.

(٤٤) ولد عام ٨٤٤ (٢٢٩) من امرأة تدعى أيلو Ailo (نفس الاسم الذي أطلق على أيم (أرملة) رودريجو - إيخيلونا - المتزوجة بعبد العزيز بن موسى بن نصير، يبدو أنه من أصل مسيحي. يرجع تاريخ وصوله إلى الحكم الذي قدمناه في النص إلى معلومة واردة عن الرازي (ابن الأبار، الحلة، ص ٧٤). أما بقية المؤرخين فيجعلون هذا التاريخ متأخرا بعض الشيء.

(٤٥) ابن عذاري، البيان، ٢، النص الأصلي، ص ١١٧، الترجمة ص ١٨٨.

(٤٦) بعد ذلك، في صفحات ٢١٢-٤ (صفحة ٢١٥-٨٥)، سوف نشير إلى الظروف الحقيقة للموت المبكر للأمير المنذر.

(٤٧) نفس المراجع والكتب التي تظهر في رقم (١) من هذا الفصل، ونضيف هنا، ابن عبد ربه، العقد، ٢، ص ٢٧١ و ٢٧٢. أما بالنسبة للإشارات المرجعية للمصادر الإسبانية المسيحية فإنها توجد في :

Barrau-Dihigo, Royaume asturien.

(٤٨) انظر، على وجه الخصوص :

Dozy, Rech3, II, pp. 279-286.

(٤٩) انظر ليثي بروفنسال :

Léve-Proveçal, la Péninsule ibérique, p. 91.

(٥٠) العمل المذكور، ص ١٦٠.

(٥١) العمل المذكور، ص ١٩٤.

(٥٢) العمل المذكور، ص ١٩١-٢.

(٥٣) العمل المذكور، ص ١٤٣ - ٤.

(٥٤) أنظر : Auzias, Aquitaine Carolingienne, p. 265, n. 57.

(٥٥) أنظر : Barrau- Dihigo, Royaume asturien, pp. 177-178; Auzias, Aquitaine Carolingienne, pp. 264-266.

(٥٦) أنظر : Hwci, Crónica latina de la Reconquista, II, p. 77 ; Dozy, Rech3, I, p. 214.

(٥٧) كان ممثله في هذه المدينة هو أخوه لوبي. أما سيويو ألفونسو، الذي يخلط بين أسماء المدن مثل توديبلا، مثلما تفعل بقية التاريخ الأخرى العربية أو اللاتينية، يعلن بأن لوبي هذا كان «قنصلا» في طليطلة، باسم والده، الحدث الذي يعد تزيفا حقا. إن الأمر يتعلق بحفيد، لوبي بن محمد بن لوبي بن موسى، الذي أصبح سيدا لطليطلة في فترات متقطعة في نهاية القرن التاسع وبداية القرن العاشر.

(٥٨) هذه الشخصية، التي لانملك عنها أخبارا أكثر، تزوجت، طبقا لما يذكرها ابن حزم من بنت لموسى بن قاسي، تدعى حورية.

(٥٩) لم تذكر أية رواية عربية شيئا عن بناء أو هدم البلدة Albelda، كما لم تذكر شيئا عن معركة جبل لاتورس Laturce. المصدر الرئيسي لهذه المعلومة هو :

Barrau- Dihigo, Royaume asturien, pp. 179-181.

٦٠) المندخ بن القوطية (افتتاح، النص الأصلي، ص ٩٨-١٠٠، الترجمة ص ٨٣-٨٥، ويمكن أيضا الاطلاع على :

Fagnan, Extraits inédits, p. 239-241.

هذه الكتب تذكر شيئا حول الظروف التي أحاطت بالمعاهدة بين موسى بن موسى ومحافظ وادي الحجارة - والتي تطلق عليه اسم إزراق Izraq بن منتيل - فتجعل منها حكاية أشبه بالروايات.

٦١) بهذه المجلة يمكن أن نميز بلاشك برادش المذكورة في البيان Bradish (الجزء الثاني، النص الأصلي، ص ١٠١؛ الترجمة ص ١٦١)، حيث أن حرفي n, a يمكن تمثيلهما في العربية بلفظ واحد، دون أي اختلاف سوى ذلك الذي ينحصر في الإطار التمييزي. أما التماهي الذي يقترحه :

Barrau- Dihigo, Royaume asturien, p. 183, n. 2 (Bradish-Briviesca).

فهو من النوع الصوتي والخطي المستحيل.

٦٢) إن كتاب البيان يطلق عليها الملاحاة al-Mallaha. وبالفعل، فإن الملاحات توجد بوفرة في بوريبا Bureba (ملاحات بوريبا، بئر الملح، الخ). حول الملاحاة هذه يمكن الاطلاع على :

Barrau- Dihigo, op. cit, p. 184 -1.

٦٣) هذا التماهي الذي تم اقتراحه على فاجنان من قبل توديرا : (انظر: البيان، ٢، الترجمة، ص ٥٢٠) تم قبوله وتبنيه من جانب :

Barrau- Dihigo, op. cit, p. 184.

٦٤) انظر :

Barrau- Dihigo, op. cit, pp. 181-185.

٦٥) البيان يحدثنا عن إنشاء مراكب في قرطبة، كما أن مثل هذا الأمر غير محتمل، فلا بد أن يتعلق «بنهر قرطبة»، وهو الاسم الذي أطلق، في إسبانيا الإسلامية، دائما على نهر الوادي الكبير.

٦٦) انظر :

Huici, Crónicas latinas de la Reconquista, I, p. 169.

٦٧) بالنسبة لهذه الرواية نتابع ماورد في :

Barrau- Dihigo, Royaume asturien, pp. 186-197.

فيما يخص معركة بولفاريا Bdoraria، والهدنة التي تلتها وأسفرت عن تحرير هاشم بن عبد العزيز من الحصار، يمكن قراءة الرعاية، التي هي أشبه بالقصة في :

Sánchez Albornoz, la batalla de Polveraria, en Anales de la Universidad de Madrid, T. I, fasc, 3, 1932.

٦٨) هكذا نرى بأنه من الضروري تعريف الأعلام الجغرافية الثلاثة الواردة في ابن الأثير (Annales, p. Kabarrucho: يمكن أن تكون كتابة خطية خاطئة لكلمة كاباروتشو Firush). فمحلة فيروش 236 وفلاحس من الضروري أن نقرأ فالتشاس Falchas؛ وأخيرا، القاشتيل، التي ترجع بداهة إلى القلعة

المعروفة باسم «قلعة ميلاجرو» Castillo de Milagro، والتي أطلق عليها فيما بعد اسم بلانا دي ناباراً . نفس الأمر يتعلق بفالتيث Falces، هذه القلعة الأخيرة تراقب من عل، بل وتحتل الواد المعروف باسم وادي أرجا . وفيما يتعلق بكاباروسو، فإنها مدينة صغيرة واقعة الشاطئ الأيسر لنهر أراجون، وقد تهدمت وأصبحت تمثلى بأطلال قلعة سان مارتين. عن هذا المكان، أنظر، على وجه الخصوص :

Barrau- Dihigo, les premiers rois de Navarre, en Rev. Hisp. T. XV, 1906, pp. 634-8.

٦٩) كان الاسم القديم للسوبرارابي Sobrarabe (دوزي، Rech، II، ص ٢٢٩) كانت المدن الرئيسية في هذا الاقليم الجبلي هي جاقا Jaca، بريشتر Barbastro بولتانيا Boltaña، وهو الاسم الذي من المحتمل أن يكون مشتقا من باربيتانيا Barbitania: أنظر :

Lévi-Provençal, la Peninsule Ibérique, p. 236 y n. 4.

٧٠) إن الفقرة التي يذكرها ابن الأثير والتي تشير إلى هذه المجلة، يقدم غالبية الأسماء الخاصة بها والبارزة (Annales, p. 258). ونفس الأمر يحدث مع ابن خلدون في كتابه، العبر، الجزء الرابع، ص ١٢٢، أنظر أيضا :

Codera, Est. Crit. hist. ár. esp. (VII), pp. 231-2.

للإطلاع على ما يخص «بنو قاس» يمكن مراجعة : Huici, Crónicas Latinas de la Reconquista, I، وما يليها. pp. 173.

٧١) حول مشوار الراهب دولثيدو Dulcido، الذي كان مكلفا بمهمة في قرطبة يمكن الاطلاع على:

- Huici, op. cit. p. 181)

- Simonet, Hist. de los Mozárabes, pp. 572-3.

٧٢) أنظر، على وجه الخصوص :

- Gómez Moreno, Iglesias mozárabes, Madrid, 1919, pp. 105 y ss.

- Barrau - Dihigo, p. 252, n. 3.

٧٣) حول ثامورا ، يمكن الاطلاع على :

- Lévi-Provençal, Enc. Isl., IV, p. 1281.

هذا بالإضافة إلى المراجع المذكورة فيه.

٧٤) من أجل هذا التلخيص، استخدمنا الرواية التي يرويها برآو، التي تعد على درجة كبيرة من الدقة والانتقان:

Barrau-Dihigo, Royaume asturien, pp. 197-208.

٧٥) أنظر، على وجه الخصوص :

Dozy, Rech.3, I, pp. 216-7.

(٧٦) المرجع المذكور، ص ٢٤٦ - ٧، ٢٧٨.

(٧٧) يبدو أن دوزي لم يفهم جيداً الفقرة التي أوردها ابن حيان (المقتبس، طبعة أنطونيا، ص ٢٠)، التي تحكى، ولو بصورة مبسطة، هذا العمل الغريب. وطبقاً لما يذكره، فإن محمد بن لوبى، الذى باع إليه سرقسطة، يتعلق الأمر برايموندو دى بايأريس، وقد استعبدت المدينة، عقب ذلك مباشرة، على يد الأمويين.

(٧٨) انظر؛ على وجه الخصوص :

- Dozy, Hist. Mus. Esp. 2, II, pp. 21-93; Simonet, Hist. de los Mozárabes, pp. 257 - 74.

(٧٩) بما أن أمهاتهم كن، غالباً، أسيرات فرنسيات أو إنجليزيات، واللاتى شعروا نحوهم بتميز أكثر. هذه الخاصية الجسمانية لكثير من آل أمية الاسيان كان لها رد فعل على ابن حزم، وهو الأمر الذى خصص له بعض الفقرات فى كتابه «طوق الحمامة» صفحات ٣٦ - ٢٧، طبعة بتروف، ليدن، ١٩١٤)، يمكن الاطلاع أيضاً على :

Ribera, Sisertaciones y opúsculos, Madrid, 1923, I, pp. 23-5; NYKL, The Dove's Neck - Ring, Paris, 1931, p. 227.

(٨٠) يمكن الاطلاع على :

- Lévi-Provençal, Esp. Mus. X^e- Siécle, p. 213.

- G. Marçais, Manuel d'art musulman, I, p. 222.

هذا المؤلف يبدى ملاحظة تنطوى على تجديد للتراث السورى، حيث أنه كان هناك ممر سرى يصل، فى دمشق، بين القصر الذى شيده معاوية ومسجد الوليد.

(٨١) انظر : ابن القوطية، افتتاح، النص الأصلي، ص ١٠٢، الترجمة ص ٨٧؛ ابن حزم، نقد العروس، طبقاً لما يذكره ابن حيان فى المقتبس، ص ٤١؛ انظر أيضاً: ابن عذارى، البيان، الجزء الثانى، النص الأصلي، صفحات ١٦٠ - ١، الترجمة ص ٢٥٨.

(٨٢) هذه السيدة فينيجا Fñiga (أو إينيك Enneca، أونيك Onneca) كانت أختاً لفورتن جارثيس (الأنقر). ربما أنه ولد فى قرطبة خلال الأسر الطويل لوالده فى هذه المدينة. وقيل أن تصبح زوجة لعبد الله (الأمر الذى وقع قبل سنوات طويلة من تعيين عبد الله كأمير)، ربما كانت زوجة لأثنار سانشيث دى لارأوين (ناياراً). انظر، على وجه الخصوص :

- Codera, en B. R. A. H., Tomo LVIII, 1911, p. 128.

(٨٣) عن هذا الفقيه يمكن الاطلاع على : العمل المذكور ص ١٧٩، مرجع ٤٧.

(٨٤) حول تفاصيل أكثر عن اغتيال عبد الله - الأمير المنذر، وابنيه وأخويه - انظر الرواية الطويلة التى يرويها دوزي فى المقدمة التى كتبها فى طبعته لكتاب البيان، لابن عزارى، صفحات ٤٤-٦١.

(٨٥) العمل المذكور، ص ٢٠٠.

(٨٦) يمكن الاطلاع على :

- Lévi-Provençal, Esp. Mus. X^e- Siécle, p. 65 y nota 1.

(٨٧) تبعا لابن حزم، نقط العروس، ص ٢١ من طبعة سيبولد Seybold، فإن بدر بن أحمد هذا، الحاجب القادم لعبد الرحمن الثالث، كان طفلا قد ترك مهملا، في عهد الأمير محمد الأول، بالقرب من أحد المساجد بقرطبة وكفله عبد الله.

(٨٨) حول كاثولونا Cazlona يمكن الإطلاع على :

- Lévi-Provençal, la Péninsule Ibérique, p. 191, n -2 y p. 248, n. 13.

(٨٩) حول القديسة ماريا دي ألجاري، يمكن الإطلاع على :

- Lévi-Provençal, Enc. Isl. IV, pp. 158 - 9 ; La Péninsule Ibérique, pp. 140-1.

(٩٠) في اللغة العربية قردهيره. يأتي هذا التحديد على لسان :

- Simonet, Glosario de voces Ibéricas y latinas usadas entre los mozárabes, Madrid, 1889, p. 101.

(٩١) انظر :

- Lévi-Provençal, la Péninsule Ibérique, p. 252 y n 7.

(٩٢) عن هذه المحلة يمكن الإطلاع على : نفس العمل لليقى بروفنسال ص ٢٤٨.

(٩٣) في اللغة العربية هي مدينة ابن السالم، ويأتي هذا الاسم منتميا إلى اسم الشخصية القديمة التي نتناولها بالحديث هنا. انظر ليقى بروفنسال العمل المذكور، ص ١٩٥.

(٩٤) العمل المذكور، ص ٢٥٢، رقم ١٦.

(٩٥) إن هذا التماهي الذي يشمل إلبيري – غرناطة – إلبيرة قد تم الحديث عنه في مناقشات كثيرة. وحول هذا الموضوع يمكن الإطلاع على :

- Seybold, Elvira, en la Enc. Isl. II, p. 26-7.

- Lévi-Provençal, la Péninsule Ibérique, p. 29 y 37.

وعن الحمراء في القرن التاسع، يمكن الإطلاع على :

- L. Torres Balbás, La Alhambra de Granada antes del siglo XIII, en Al-Andalus, V, 1940- pp. 155 y ss.

(٩٦) هذه الاقطاعات كانت تعرف باسم روماتشي هو بارشيل، والذي أصبح في العربية بارشيل.

(٩٧) حول السيرة الذاتية لسوار وسعيد بن جودي يمكن الإطلاع على :

- Ibn Al-Abbar, Hulla, pp. 80-3 y 83 - 7.

- Ibn Al-Jatib, Ihata, ms. 1674 de El Escorial, pp. 364 y 366.

(٩٨) إن سيمونى هو الوحيد الذى قال عنها بضع كلمات فى كتابه :

Descripcion del reino de Granada, ed. de 1872, pp. 136 - 7.

انظر أيضا :

- Lévi-Provençal, la Péninsule Ibérique, p. 45 y n. 7.

(٩٩) انظر :

- Bakri, Descr. de L'Afrique Sept. Texto, p. 81 ; trad. p. 163.

(١٠٠) المرجع السابق، النص، صفحات ٦١-٦٢؛ الترجمة، صفحات ١٢٨-١٢٩. يمكن الإطلاع أيضا على :

- A. Dessus-Lamare y G. Marçais, Recherches d'archéologie musulmane : La mosquée du Vieux Ténés, en Rev. afr. 1924, p. 537, n. I.

(١٠١) يمكن الإطلاع على :

- Makri, Ibid, texto, p. 70; trad. pp. 144-145.

- Ibn Jaldún, Hist. des Berb. I, pp. 283-4.

(١٠٢) بعد ذلك، حين تم طرد الموريسكين من إسبانيا، فقد استقرت الجماعات الأندلسية فى كثير من موانئ شمال أفريقية (مثل الرباط، على الأطلنطى، شيرشيل، الجزائر، بيزریتا، تونس ... الخ).

(١٠٣) انظر :

- Bakri, Descr. de L'Afrique Sept. Texto, p. 55 ; trad. p. 117.

(١٠٤) نفس المرجع السابق، ص ٨٢، الترجمة، ص ١٦٦.

(١٠٥) نفس المرجع السابق، ص ٦٥، الترجمة، ص ١٣٥.

(١٠٦) كانت هناك أيضا ماريّا Mariya أخرى فى جنوب غرناطة : ماريات باليش Mariyat Ballish، والتي تعرف اليوم باسم بيليث - مالفه.

(١٠٧) أنظر :

- Lévi-Provençal, la Péninsule Ibérique, p. 47.

(١٠٨) يذكر هذا التاريخ فى مناهج الفكر، أنظر :

- Fagnan, Extratis inédits, p. 59.

(١٠٩) انظر :

- Lévi-Provençal, la Péninsule Ibérique, p. 48 y n. I.

(١١٠) فى : شبه الجزيرة الأيبيرية، ص ٣٦، مرجع ٢، أطلق المؤلف نظرية مفادها أن هذا الحجاج كان هو البحار الذى شرع فى رحلة إستكشافية عبر المحيط الأطلنطى، ولهذه الرحلة يشير، للأسف، إشارة موجزة جداً.

(١١١) يأتى المصدر الوحيد لما تقدم مختصرا فى : اين حيان، المقتبس، ص ٥٢-٨٧. وحول تدخل الكونت الحاكم لأمبورياس يمكن الإطلاع على :

- J. M. Millás Valicrosa, Els textos dels historiadors musulmans referents a la Catalunya carolíngia, Barcelona, 1922, p. 152.
- Soldevilla, Hist. de Catalunya, I, p. 67, n. 2.

(١١٢) إن عودة بجانة إلى إمرة السلطات الأهوية تظهر الإشارة إليها في :

(Crónica de al-Nasir, ad ann. 310 h.)

(١١٣) انظر :

- Lévi-Provençal, la Péninsule Ibérique, p. 221.

(١١٤) انظر :

- Dozy, Hist. Mus. Esp. 2, II, p. 39, n. 2.

(١١٥) تبعا لما يذكره ابن الخطيب في كتابه، أعمال، ص ٢٩، فإن هناك أسرتين عربيتين أخريين من أشبيلية في هذه الفترة هما : أسرة بنو عباد، المؤسسين لنولة بنى عباد في القرن الحادى عشر، وأسرة بنو السالم، والتي استقرت بعد ذلك في مدينة رُندة Ronda.

(١١٦) تحدث ابن الخطيب في سيرته التاريخ الخاص بسلفه كريب وبأعمال الشغب التي وقعت في أشبيلية خلال فترة حكم الأمير عبد الله.

(١١٧) افتتاح، النص، ص ٣-٧؛ الترجمة الإسبانية، صفحات ٢-٤. يمكن الإطلاع أيضا على :

- Maqqari, Analectes, I, pp. 167-9.

(١١٨) العمل المذكور، ص ٥، ٥٦، رقم ٤٠.

(١١٩) عن تقسيم البربر إلى بوتر وبرانس، يمكن الإطلاع على :

- E. F. Gautier, Les Siècles obscurs du Maghreb, pp. 202-14.

(١٢٠) العمل المذكور، ص ١٤٩، رقم ٣٥.

(١٢١) العمل المذكور، ص ٢١٤.

(١٢٢) ابن آخر لإبراهيم بن حجاج يدعى سليمان قد تم اعدامه شنقا من قبل والده، إذا ما صدقنا الرواية التي يذكرها ابن حزم في : نقط العروس، ص ١٩.

(١٢٣) يمكن الإطلاع، فيما يتعلق بهذا الراهب :

Simonet, Hist. de los Mozárabes, pp. 487- 502.

(١٢٤) إن التماهى الحاصل بين بولى مع أجيالار - والتي لاشك نحو دقتها - قد تم اقتراحها من قبل بوزى :

- Dozy, Rech. 3, I, p. 307.

- (١٢٥) حول المدينة اليهودية المعروفة باسم لوثينا Lucena، يمكن الإطلاع على :
- Iolrissi- : Descr. de L' Afrique et. e l' Espagne, texto, p. 205 ; Trad. pp. 252-3.
 - Lévi-Provençal, les "Mémoires" de' Abd Allah, p. 31 y n. 64.
 - J. M. Millás Vallicrosa, la poesía sagrada hebaico española, p. 22.
- (١٢٦) هذا الاسم الرومانثي يعنى «روخويلو». وابن حزم يضع له المقابل العربى «الأحيمر» - والذي عرف به أيضا القائد الخاص بابن حفصون.
- (١٢٧) ابن حيان، المقتبس، ص ٩٧. وأنظر أيضا :
- R. Fernández Pidal, Orígenes del español, p. 349 y nota 1.
- (١٢٨) إن قراءة متأنية للرواية التى يذكرها ابن حيان عن بولى وماقام به من عمل تجعلنا نتبع نوزى فيما يتعلق بتاريخ هذا الحدث المذكور من قبل هذا المؤرخ فى:
- Dozy, Hist. Mus. Esp. 2, II, p. 69 y n. 1.
- وتبعاً لما يذكره، فإن معركة بولى قد وقعت يوم الجمعة ١٦ أبريل عام ٨٩١.
- (١٢٩) انظر :
- Bakri, Descr. de L' Afrique septenteriouale, texto, p. 92. trad. p. 182.
 - Ibn Ibharí, Bayan, I. Texto, p. 179 ; trad. p. 249.
- (١٣٠) هكذا، على الأقل، يروى ابن حزم فى كتابه، نقط العروس، صفحات ١٧-١٨.
- (١٣١) حول تحديد توتش Tucci وتماهيا مع مارتوس Martos، يمكن الإطلاع على :
- Dozy, Rech3, I, pp. 311 a 313.
- (١٣٢) إن الدور الذى قام به هذا المقامر قد نظر تماما من قبل أسين بالاثيوس :
- Asín - {alacios, Abenmasarra y su escuela, p. 33 y n. 3.
- (١٣٣) بالنسبة لابن القط، توجد له سيرة ذاتية فى الحلة لابن الأبار، ص ٩١-٩٢.
- (١٣٤) العمل المذكور، ص ٢١٩، حيث تحدثنا عن هذا الزعيم الصغير المتمرد.
- (١٣٥) هذه الفقرة، التى ذكرت مطولة عند ابن حيان، فى المقتبس، صفحات ١٣٣-١٣٩، كان محطاً لاشارة بسيطة من قبل المؤرخ سامبيرو، والذي يطلق على مهدى ابن القط، اسم الشامام.
- (١٣٦) يمكن الإطلاع على :
- Codera, los Benimeruán en Mérida y Badajoz, en Est., Crit. hist. ár. esp. (IX), pp. 48 y ss.

(١٣٧) حول هذه الأسرة وما قامت به من دور في القرن التاسع، يمكن الإطلاع على:

- Seybold, en la Enc. Isl, I, p. 990 ;
- D. M. Dunlop. The Dhunnunids of Toledo, en Journal Roy, As. Society, Part 2, 1942, pp. 78 a 81.

(١٣٨) العمل المذكور، ص ١١٧.

(١٣٩) يمكن الإطلاع على :

- Barrau - Dihigo, Royaume asturien, p. 211 y n. 2.
- Huici, Crónicas lat. de la Reconquista, I, p. 269.

(١٤٠) انظر، على وجه الخصوص :

- Dozy, Rech3, I, pp. 217- 220.
- Codera, Est. Critc. hist. ár, esp., (VII), pp. 323 - 360.

(١٤١) انظر :

- Ibn Hazm, Chamharat al-ansab (f.º 119 r. del manuscrito de la colección del autor)

(١٤٢) انظر :

- J. M. Millás Vallicrosa, Els textos dels historiadors musulmans referents a la Catalunya carolíngia, p. 153.

(١٤٣) يمكن الإطلاع على :

- Soldevilla, Hist. de Catalunya, I, pp. 48- 58.
- J. Cal - Mette, Notes sur Wilfred le Velu, en R. A. B. M., t. v. 1901, pp. 442 a 451.

(١٤٤) انظر، ابن الفرضي، تأريخ، رقم ٦١٨، وابن الأبار، التكملة، رقم ٧٣٥، ٢ كما يمكن الإطلاع على :

- M. Bencheneb, Notes chronologiques sur la conquête del' Espagne, en Mélanges René Basset, Paris, 1923, I, p. 77.

(١٤٥) حول هذا الموضوع يمكن مراجعة :

- R. Menéndez Pidal, España del Cid, I, p. 76, n. 3.

(١٤٦) العمل المذكور، ص ١٠٢. وفيما يتعلق بالأخبار حول محمد الطويل فقد جمعت على يد كوديرا من كتب التاريخ العربية واللاتينية :

- Codera, Mohrámed Ataul, rey moro de Huesca, en B. R. A. H., tomo XXXVI, 1900, pp. 318 a 324.

(١٤٧) العمل المذكور، ص ٢٠٨ - ٩، رقم ٧٠.

(١٤٨) يمكن الإطلاع على :

- J. M. Lacarra, Expediciones musulmanas contra Sancho Garcés (905 - 925), en Revista Príncipe de Viana, Pamplona, 1940.

(١٤٩) يمكن الإطلاع على كتاب، العبر، ٤، ص ١٦٤. وكذلك كتاب كوديرا Codera، المذكور، صفحات ٢٤٩ ومايليها.

(١٥٠) - Lévi - Provençal, la península Ibérique, p. 228.

(١٥١) العمل المذكور، ص ١٢٢ ورقم ٨، ص ١٦٧.

(١٥٢) تبعا للروايات العربية التاريخية، فإن أبناء عبد الله هم : العاصي، عبد الرحمن، محمد، أحمد، وأبناء عبد الله : العاصي، سليمان، سعيد، أحمد.

(١٥٣) هذه التفاصيل نأخذها من «تاريخ الناصر». ومثلها يحدث أيضا بمناسبة الاحتفال بجلوس الحكم الثاني على العرش، بعد ذلك بنصف قرن.

الجزء الثاني

الخلافة الأموية في قرطبة

(٩١٢ - ١٠٣١م)

الفصل الخامس

عبد الرحمن الثالث (الناصر) - أمير وخليفة الأندلس

(٩١٢ - ٩٦١م) (١)

عناوين الفصل الخامس :

(١) إحلال السلم في الامارة وتأسيس السلطة الملكية (٩١٢-٩٣٢) - وصول عبد الرحمن الثالث إلى الحكم - الحرب في الأندلس حتى وفاة ابن حفصون، ونهاية إمارة إشبيلية ٩١٢-٩١٧ - أولاد ابن حفصون ونهاية التمرد في الأندلس - استرداد بطليوس وطليلة ٩٢٩-٩٣٢، ومحمية الثغر الأعلى.

(٢) قرطبة والممالك المسيحية في شمال إسبانيا في عهد عبد الرحمن الثالث، قرطبة وليون وبنبلونة حتى مجيء راميرو الثاني (٩١٢ - ٩٣٢) - قرطبة وليون أثناء حكم راميرو الثاني ٩٣٢-٩٥٠، كارثة الخندق في شنت منكش - قرطبة ومملكتي ليون وبنبلونة في السنوات الأخيرة لحكم الناصر ٩٥١-٩٦١.

(٣) النزاع بين الأمويين والفاطميين في المغرب - سياسة عبد الرحمن الثالث في أفريقيا - البربر في أوائل القرن العاشر - بداية الحركة الفاطمية - سياسة عبد الرحمن الثالث في أفريقيا حتى سقوط سبقة ٩١٢-٩٣١ - سياسة عبد الرحمن الثالث في أفريقيا منذ ٩٣١ وحتى ٩٦١ - دائرة ساكني القصر - ساكنو القصر الخيفي : أسرة الخليفة، الصقالبة - قصر قرطبة، بيوت الضواحي ومدينة الزهراء - الحياة داخل البلاط الملكي في عهد عبد الرحمن الناصر - علاقات أسبانيا الأموية بالبلاد الأوروبية فيما وراء الجبال - قرطبة وبيزنطة في منتصف القرن العاشر - السفارات الأوروبية، القرصنة الأندلسية ومغامرة المسلمين في فراكسنية - أعمال عبد الرحمن الناصر.

١- احلال السلم فى الامارة وتأسيس السلطة الملكية ٩١٢ - ٩٣٢:

وصول عبد الرحمن الثالث للحكم:

على الرغم من قوته وربعة قامته - الأمر الذى لايلاحظ عليه عند ركوبه الجواد، فما كانت الركاب تكاد تتجاوز الجزء الأسفل من كرسيه المزين-، فإن عبد الرحمن الثالث كان يتمتع بمظهر طيب، وملامح وجه عادية، له عينان يقطتان زرقتهما قاتمة، شعره أشقر ضارب إلى الحمرة، وأحيانا ماكان يصبغه باللون الأسود ليخفى لمعان تلك الشقرة الداكنة. أموى أندلسى من أصل طيب، ففى عروقه تجرى دماء كثيرة ذات أصول أوروبية وأسيوية : فمزنة^(٢)، الأمة المحظية الى أنجبته، كانت أسيرة فرنجية، أو بالأحرى بشكنسية، وكذلك الأميرة إنيجا، ابنة فورتون الأعور وجدة الأمير الجديد. وحين وقع على عاتقه العبء الثقيل لخلافة جده عبد الله، كان رجلا فى ريعان الشباب، لم يكد يصل وقتها سن الرشد. ولد فى السابع من يناير عام ٨٩١م (٢٢ رمضان ٢٧٧هـ). أى قبل ثلاثة أسابيع من النهاية الدرامية التى انتهت بها حياة أبيه محمد. وتبعاً لما يذكره مؤرخو عهده، فقد جمع كل خصال الرجل المثقف والأخلاق الحميدة : كان رجلاً مهذباً، رحيماً، كريماً، فطناً. وحظى بخصلتين ميزتاها عن غيره : الذكاء الفطرى المنظم، والاصرار على تجربة كل شئ. وإلى هذه الصفات يضاف حبه للاستطلاع وسعة الأفق، وكلها أمور من الصعب رؤيتها مجتمعة فى شخص واحد، الأمر الذى ضمن له التحلل من المفاهيم، الضيقة فى كثير من الأحيان، لكبار المحيطين به، والمثقفين، ورجال القضاء من بطانته. قليل الورع، يتمتع بحظ شكلى من الرأفة والرحمة، مما جعله يتمتع بروح السماحة وعدم التعصب^(٣). فأصبح أكثر أمراء أسرته سماحة وعفوا، وهو ما شكره له الكثيرون من أتباعه الذين عاشوا تحت عرش دولته من اليهود والمسيحيين، كما كان ردهم على تعاطفه معهم ورأفته بهم مزيداً من المودة والإخلاص له. وذات مرة، أقدم على تعيين أحد المستعربين فى منصب القاضى الأكبر لقرطبة، إلا أنه تراجع عن ذلك نظراً لخوفه من لوم الفقهاء، لدرجة أن الرجل الذى كان يشغل هذا المنصب سابقاً، وهو أسلم بن عبد العزيز، ظن أن له الحق فى أن يعلن مابداخله قائلاً : « الحمد لله الذى جعلنى من بين من يعلنون : أنه لا إله إلا الله! ».

وهكذا، فقد أصبح عبد الرحمن يملك، أكثر من أمراء عصره الآخرين، وكلما تقدم به العمر، الاحساس بالعظمة الملكية، بهذه الهيبة التى هى، فى نفس الوقت، بسطة فى الجسم، وقوة فى الحديث، والغيرة من أجل أن يحيط نفسه ببطانة رشيدة، وبرتوكولات لبلاط عرشه تتمتع بالفخامة والهيبة. كانت المقابلات التى تجرى فى بلاطه

تشبه تلك التي تجرى في البلاط الأتوقراطي في القسطنطينية، فهو أفضل ما يمكن أن يقارن به بلاط الأمير. ولكنه عرف أيضا كيف يتبسط في الحديث مع أقاربه، وأن يرد في ذكاء على ما يورده مهرجوه؛ وكما هو الحال بالنسبة لرجال البلاط، لم يتخل عن استخدام اللغة المعروفة باسم الرومانسي، التي شاع استخدامها في اسبانيا الإسلامية آنذاك، ليتكلم بها مع المقربين إليه^(٥). وقليلًا ما تذكر رسائل التأريخ العربية الأندلسية إحياء الأمراء نقدا لهذا الأمير الذي حظى بصفات لم تتوافر لغيره من الأمراء. وقد أصبحت هذه الخصال التي تشكلت منها شخصيته قزداً رويداً رويداً بطبيعة الحال مع مرور الزمن، رغم ظهور أماراتها عليه منذ بداية عهده، الذي استمر لفترة تقترب من نصف قرن، مما سمح له بتقديم كل ما كانت تنطوي عليه نفسه.

كان جده يتمتع بحدس عبقري حين قرر تعيينه، وفضله على أبنائه من صلبه، ليكون حاكماً للأندلس من بعده. وقد استقر رأيه على هذا القرار منذ زمن بعيد، فجاء لصالح الطفل الذي أمضى حياته بجوار جده داخل القصر ورأى كيف أن أعمامه - وقد حرموا حرية الدخول إلى القصر وأجبروا على الإقامة في منزل خارجي بقرطبة - لم يفعلوا شيئاً سوى إثارة فقدان الثقة المحمومة لدى الأمير العجوز. ومع هذا، فإن مثل هذا الاختيار لم يكن يخلو من مخاطر، ولم يكن عبد الله يجهل صعوبة الموقف، لو لم يقم خلفه، منذ اللحظة الأولى لولايته بفرض نفسه بما فيه الكفاية على الأمراء أعمامه الذين تم استبعادهم عن العرش وتركهم يجرون اتصالات بزعماء المناطق المتمردة، الذين لم يتركوا فرصة تغيير الأمير، كما فعلوا من قبل، دون أن ينتهزوها ليعربوا عن قوتهم وبأسهم. ومن ناحية أخرى، ألم يكن من قبيل المغامرة أن يعهد الأمير العجوز بمصير الإمارة إلى أمير شاب تنقصه الخبرة السياسية، ومقام حتى الآن بأى من التجارب الحربية، وما وجد الوقت الكافي الذي يتيح له اكتشاف شخصيته؟ وبالفعل، وبعداً عن المرات النادرة التي قام فيها عبد الرحمن الثالث - نيابة عن جده، بتلقى التكريم من جانب الجنود المحاربين وجنود الحراسة، فإنه قد كرس صباه كله للدراسة والمعرفة. وهذه الأسباب مجتمعة كانت بالامكان أن تؤدي إلى إيجاد الدوافع التي تجعل جده عبد الله يتردد في مثل هذا التعيين؛ ولكنه حتى لو فكر في مثل هذا الأمر لما كان سيعيره انتباهها. وأصبح القدر وحده هو المنوط بتبرير هذا الإلهام الإلهي من جانب جده، والبرهنة على أنه لم يكن بمقدوره أن يضع التركة التي ورثها عن جده عبد الرحمن الداخل، وأصبحت تتهددها المخاطر، في يد أفضل من يد حفيده.

ومنذ اليوم الأول لولايته، في ١٦ أكتوبر عام ٩١٢م (١ ربيع الأول ٣٠٠هـ)، اضطلع عبد الرحمن الثالث بالمهمة التي كانت تنتظره بكل ماله من حماس الشباب والجدية التي تتم عن كمال نضجه المتوقع. وعلى عكس ما كان منتظرا، فإن وصوله إلى العرش لم يحدث أي رد فعل من جانب أعمامه الصغار أو الكبار، وأقيمت حفلة توليه العرش، وأخذ يمين الولاء في أبهة تليق بالحدث داخل البلاط الذي ارتدى ملابس الحداد لوفاة الأمير عبد الله. وقام عميد الأمراء بالعائلة، في مداخلة مهيبه، بعرض الطاعة الصريحة من جانب كل أفراد العائلة المالكة إلى الأمير الشاب، وأعلن له ثقته فيه من أجل المستقبل. تحمل عبد الرحمن الثالث المهمة على الفور ورسم دون إبطاء البرنامج الذي أزمع على اتباعه: العمل على بناء صرح السلطة والمكانة الرفيعة للبيت الأموي الأندلسي؛ استرداد الأراضي المنشقة؛ القضاء على الإمارات المستقطعة من قرطبة والتي أصبحت شبه مستقلة؛ وفوق كل شيء، القضاء نهائيا على حالات التمرد داخل الأندلس، بداية بصغار المتمردين المحيطين بابن حفصون الذين يتلقون أوامرهم ومساعداتهم من بيشتر. وهاهو الشتاء على الأبواب، ولكن ذلك لا يهم. ليس لنا أن ننتظر حتى الصيف القادم لنبدأ عبر الصوائف المعهودة سلسلة الحملات الحربية للمملكة.

وهكذا فقد أرسل عبد الرحمن الثالث الأمناء ليحصلوا له، من الأقاليم والشعر الأعلى، على يمين الولاء من التابعين الخاضعين لسلطة الإمارة. وفي نفس الوقت قام بعمليات إحلال وتبديل وتعيينات جديدة فيما يتعلق بالشخصيات الهامة في الدولة. وهاهو أحد وزراء جده، موسى بن زياد، الذي حاول خيانتته قبل وصوله إلى العرش، يصبح سجيناً، وظل بسجنه سبع سنوات إلى أن نفذ فيه حكم الإعدام. وهذا على النقيض مما كان عليه حال المولى بدر بن محمد، الذي لم يكن يشغل أي منصب إلى الآن سوى الاضطرار بالخدمات البريدية، حيث أصبح يشغل منصب الوزير الأول (الحاجب) وقائد الفرسان (صاحب الخيل). كما كان التغيير أيضا من نصيب مناصب القضاء المدنية والمحافظات العليا والدنيا، وجهاز الشرطة، كما حدث تغيير آخر في المناصب المالية. ومع هذا، فإن هذه التعيينات لم تكن تتسم بالدوام، ففي إدارة المملكة حدثت تغييرات كثيرة ومستمرة، حتى وصل الصقالبية إلى أرقى المناصب، وقد سجل المؤرخ أريب بن سعد، الذي يعتبر المصدر الرئيسي لنا في التأريخ لهذه الفترة، فترة حكم عبد الرحمن الثالث، تفاصيل هذه الحركات بدقة متناهية كما لو كانت قد صدرت

عن جريدة رسمية. ونظرا لعدم وجود بعض المستندات الأخرى الأقل إيجازا، فإن هذه القوائم ستكون الأساس الذي يسمح لنا، عندما يأتى الوقت المناسب، ببدء دراسة التنظيم الحكومى لاسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر.

الحرب في الأندلس حتى وفاة ابن حفصون،

ونهاية إمارة إشبيلية ٩١٢ - ٩١٧ :

قبل أن يشرف عام ٩١٢ على الانتهاء نرى أن عبد الرحمن الثالث قد سجل فى رصيده نجاحا عسكريا ساحقا. حيث خرج الجيش ليعيد النظام فى سلسلة جبال ألمادين، وواصل مسيرته حتى كراكويل^(٦)، الحصن القوى الذى كان، مثل قلعة رباح، فى قبضة البربر، الذين وفدوا لانقاذ الفتح بن ذى النون. وأسفر اللقاء الذى جمع بين الجنرال الأموى عباس بن عبد العزيز القرشى والفتح بن ذى النون عن هزيمة ابن ذى النون، ففر هاربا يطلب اللجوء فى قلعة كلس التى كانت تحت نفوذه. كما لقى حتفه أحد أفضل قواده ومساعديه، محمد بن أردا بوليش، وكانت رأسه، التى علقت فى قرطبة على باب السُدة، أول تذكار للنصر الذى حققته إمارة عبد الرحمن الثالث الناشئة.

وبعد أسابيع من هذا الانتصار، فى الأول من يناير عام ٩١٣ م (١٩ جمادى الأولى عام ٣٠٠هـ) خرج جيش يقوده الحاجب بدر بن أحمد، ليسترد إستجة، المدينة الملعونة^(٧)، التى تقع على مسافة ٦٠ كيلومترا من ناحية الشرق، وتعتبر مركز المقاومة القريب من قرطبة. هُدمت أسوارها وسحق معبرها الممتد فوق نهر الشنيل^(٨)، وعليه تم قطع الاتصالات بين المدينة وبين عمر بن حفصون، وما زالت تدين له بالولاء.

ولم تكد الأمطار الشتوية الشديدة تنتهى، حتى أخذ عبد الرحمن الثالث طريقه لمهاجمة المتمردين على أراضى شرق الأندلس فى عقر دارهم. تم إعداد وتنظيم الحملة بكل دقة واتقان. كما راقب الأمير إعداد الحملة مراقبة دقيقة من خلال معسكر الضواحي الذى أقام فيه شخصيا، ابتداءً من ٢٤ مارس عام ٩١٣ م (١٣ شعبان). وبعد مرور ثلاثة وعشرين يوما توجهت القوات الأموية ناحية جنوب شرق الأندلس، تعززها الفرق التى أرسلها محمد بن فروة، السيد الوفى الحاكم لأوبييدو فى إقليم البيرة^(٩)، والذى اغتصب أملاكه ابن حفصون. وفى أول الأمر، زحفت القوات إلى مارتش^(١٠)، آخر المعاقل الحصينة على طريق جيان، الخاضعة للسلطة المركزية. ومن

هناك، قامت فرقة مهمة بالتوجه إلى مآلقه^(١١)، بهدف مناوشة العدو، وتعطيل ابن حفصون، الذى يُضمر مشروعات معينة لهذا المعقل البحرى الذى أشرنا إليه. أما بقية الجيش، بقيادة عبد الرحمن الثالث، فقد جعل همه محاربة المتمردين فى الكورة؛ وكان أول من سقط هو المولدى سعيد بن هُدِيل، سيد حصن المنتلون^(١٢)، الذى ما إن وجد نفسه محاصرا فى قلعته، حتى عرض استسلامه وحصل على الأمان فى ٢٧ أبريل (١٧ رمضان). واصل الجيش مسيرته تجاه جبال سوموتين، اقطاعية عبید الله بن الشالئة، الذى وضع سلاحه، هو الآخر^(١٣)؛ وهو المثل الذى حذا حذوه السيد العربى على مونتيشة، ابن عطاف، إضافة إلى كل الرؤوس التى كانت تحتل أعالي وادى النهر المعروف باسم «وادی نهر بنى عبد الله»^(١٤). قبل عبد الرحمن الثالث وعودهم بالولاء، وضمهم إلى صفوفه، وترك حاميات فى قصباتهم، ولكى يأمن جانبهم إلى حد كبير، أرسل بزوجاتهم وأولادهم إلى مدينة قرطبة. ثم دخل بعد ذلك كورة إلبيرة. وانتشرت هذه الأنباء عبر هذه الديار، رغم وعورة طرقها، وبطريقة سريعة جدا : هاهى سحابة هائلة من أسياذ القلاع الصغيرة، المجتمعين حول بسطة، يعملون فكرهم، ثم يخرجون بقرار إعلان خضوعهم للأمير. اجتازت القوات، دون ماعقبة، الاقليم الممتد إلى شمال شرق وادى آش؛ تجول داخل فنيانة، فأحست فى نفسها روح المقاومة، أسر فيها رسل ابن حفصون؛ قام بعد ذلك مباشرة باجتياز سور سلسلة جبال الثلج التى ترتفع شامخة أمام فنيانة، دون أن يأبه بوعورة الطريق. وما أن أصبح فى المنحدر الجنوبى لهذه السلسلة الجبلية، حتى فرض الحصار على جوفيلس بعد أحد عشر يوما، بينما ذهبت فرقة من الجيش لانقاذ حامية إلبيرة، التى كان يهددها ابن حفصون، مما اضطره هو وجنوده إلى الفرار. وبعد مضى أسبوعين عرض المولدون من حامية جوفيلس المتمردة استسلامهم وتعهدوا بتسليم الجنود المسيحيين الذين أرسلهم ابن حفصون تعزيزا لهم. تم الاستيلاء على الحصن وقطعت رقاب الممتنعين به من المستعربين. ومن جوفيلس توجه عبد الرحمن الثالث إلى الساحل القريب للبحر الأبيض المتوسط، وهبط صوب الجنوب الشرقى، وهم بالاستيلاء على ميناء صغير يدعى شلوبانية. شرع بعد ذلك فى العودة إلى قرطبة، وتوقف فى طريقه مدة ثلاثة أسابيع بغرض الاستيلاء على قلعتين من أمنع القلاع : قلعة شنت إشتين وبينيا فوراتا. وصل إلى العاصمة، بعد غياب دام أكثر من ثلاثة شهور، وقت الاحتفال بعيد الأضحى (١٧ يوليو ٩١٣). وحسبما يذكر أحد المؤرخين المتحمسين، فإن هذه الحملة أسفرت عن استعادة ٧٠ حصنا منيعا، دون أن نأخذ فى الحسبان مايقرب من ٣٠٠ موقع استراتيجى من الدرجة الثانية.

كانت الحملة التي تعرضنا لوصفها، والتي عرفت باسم «حملة المنتلون» من بين الحملات التي نفذت بحزم ودقة، وآتت ثمارها المرجوة. حيث كان الهدف منها هو تقليل بقع التمرد الموجودة شرق المنطقة الخاضعة لنفوذ ابن حفصون ذات التأثير المعروف في حركته، وهي غير تلك التي تعد من أملاكه الخاصة؛ التي خرج إليها عبد الرحمن الثالث في العام التالي بكل مايملك من جهود حربية. بدأت الحملة في الثامن من مايو عام ٩١٤م (٨ شوال عام ٣٠١هـ). وما إن وصلت القوات الأموية إلى المناطق الجبلية من رندة ومالقة، حتى اتبعت نفس الأسلوب الذي سارت عليه في الربيع الماضي وأنتج ثمارا طيبة : حيث تم عزل ابن حفصون أكثر وأكثر داخل بيشتر، وانتزعت الحصون من بين يديه الواحد تلو الآخر وخاصة غير المركزية منها والتي تعد بمثابة نقاط دعم له. وبهذه الطريقة، أمكن استرداد بعض المعاقل الجديدة أحيانا بالقوة، وفي أحيان أخرى كانت تستلم طواعية. وفي لقاء وقع بين ابن حفصون والقوات الأموية أمام سور قلعة أوجين^(١٥)، لم تكن العواقب في صالح المتمردين. ولكن عبد الرحمن الثالث لم يتوقف ليستولى على الحصن، الذي دافع عنه أهله دفاعا كبيرا، بل تابع سيره على شاطئ البحر حتى وصل «الجزائر». وفي الطريق، وجد مجموعة من المراكب في أحد المرافئ تحمل على متنها مؤنا حملت بها من الشمال الأفريقي لتكون في خدمة ابن حفصون، فأحرقها عن آخرها. ثم عبر بعد ذلك، سالكا أقصر الطرق، مناطق سيدونا ومورو، وتوجه بعد ذلك إلى قرمونة.

بإمكاننا أن نتصور أن عودة أشبيلية إلى حظيرة عرش عبد الرحمن الثالث، التي تعد بمثابة أغلى جوهرة في عرشه، وانفصلت عنه منذ مايزيد على عشر سنوات، كانت تمثل الرغبة المتقدة عند العاهل الجديد. والآن، فقد أصبحت عودة إشبيلية إلى عرشه أمرا واقعا، منذ سبعة أشهر؛ وهو الحدث الذي يعد شهادة بارزة في تاريخ العاهل الشاب، أهله لأن يكون محط تقدير من جانب كل أتباعه. كما علينا أن نعترف بأن الظروف قد خدمته بأسلوب لامثيل له، وكانت في صالحه دائما. فكما نذكر، فإن إبراهيم بن حجاج قد وافته منيته قبل الأمير عبد الله بعامين، وتقاسم ابنه عبد الرحمن ومحمد تركته : كانت أشبيلية من نصيب الأول أما الثاني فقد رضى بقرمونة، وهنا وجد محمد نفسه حاقدا على أخيه لأنه فاز بالنصيب الأكبر، فدرس له السم : وافته المنية عبد الرحمن في أغسطس عام ٩١٣م (محرم ٣٠١هـ). وما أفاد محمد من مكيدته شيئا حيث بدأ أهالي أشبيلية، بدلا من دعوته ليكون أميرا عليهم، يبحثون عن أمير لهم تمثل في شخص صهر إبراهيم بن حجاج، يدعى أحمد، وهو ابن أخيه مسلمة. ولكن عبد الرحمن الثالث لم يكن راضيا عن هذا التغيير، وتقبل باهتمام بالغ الاقتراحات

التي قدمها محمد بن ابراهيم بن حجاج، الذي ما إن رأى نفسه وحيدا وهدفا لعداء ابن عمه الشقيق أحمد بن مسلمة، لم يجد أمامه من وسيلة أخرى سوى الاذعان لقرطبة. في مثل هذه الظروف، قررت الحكومة المركزية الشروع بقواتها في محاصرة أشبيلية، عاهدة بإدارة العمليات لسيد قرمونة، يساعده في ذلك القائد قاسم بن الوليد. وأعمل الرجلان جهودهما في الأراضي الأشبيلية، فافتتحا أخرافة واقليم إيتاليكا^(١٧)، على مسافة عشرة كيلومترات شمال شرق المدينة. وما إن رأى أحمد بن مسلمة نفسه تحيط به الأخطار من كل جانب فتخفقه، لم تكن أمامه من وسيلة لانتقاذ نفسه سوى أن يستجد بابن حفصون. قدم إليه الزعيم المولدى شخصيا، فجعل حليفه القديم يجتاز الوادى الكبير ثم رحل برفقته لمهاجمة القوات المتحالفة، التي تابعت انتشارها نحو الشرق، ولكن اللقاء لم يكن فى صالح ابن حفصون، الذى عاد سريعا إلى بيشتر.

وحين أصبح محمد بن مسلمة وحيدا وسط قواته، اتخذ قرارا بالدخول فى المفاوضات، وأعلم عبد الرحمن الثالث أنه على استعداد لأن يسلمه أشبيلية. ونتيجة لهذا، فقد ذهب الحاجب بدر بنفسه ليتسلم المدينة، ودخلها فى ٢١ ديسمبر عام ٩١٣م (١٩ جمادى الأولى عام ٣٠١هـ)^(١٨)، ثم ترك عليها حاكما يتولى أمرها باسم الأمير. وقد أعرب محمد بن ابراهيم بن حجاج عن غضبه، حيث كان الأمل يراوده لاحتلال منصب والده، ولكنه كظم غيظه ورحل لينزوى داخل قرمونة. أما عبد الرحمن الثالث، بما كان يكتفه له من الامتنان، لم يزد أن يعكر صفو الأمور، فأفهمه أنه لم يعد بالامكان قبول وجود دويلات أخرى داخل الدولة الأم، ورغم أن محمدا مازال على حالته من الغضب وبلغ به الأمر أحيانا أن قام بمحاولة هجوم فاشلة على أشبيلية، إلا أنه عاد فى النهاية إلى جادة الصواب؛ وفى أبريل عام ٩١٤م (رمضان عام ٣٠١هـ) أتى إلى قرطبة يعلن إذعانه. وهنا أفاض عليه الأمير من عظيم عنايته، فمنحه لقب ومرتب وزير، وطلب منه أن يصحبه فى الحملة التى، كما رأينا، بدأها بعد شهر، فى مايو، ضد جنوب الأندلس.

وحين عودته من هذه الحملة فى الثامن والعشرين من يونيو عام ٩١٤م (١ ذو الحجة عام ٣٠١هـ)، وجد عبد الرحمن الثالث نفسه ومعه ابن ابراهيم بن حجاج أمام قرمونة من جديد، حيث تواترت لدى الأمير أخبار مفادها أن الحاكم الذى عينه على هذه المدينة، حبيب بن عمر بن سودة، قد أعلن تمرد. وبعد أن ضرب الحصار على المدينة، انسحب مرة أخرى متجها إلى قرطبة فى أواخر يوليو؛ وفى فترة وجيزة تجمعت لديه الأدلة الدامغة على أن متمرّد قرمونة إنما كان يعمل باتفاق مع محمد بن ابراهيم

بن حجاج. وتوفي هذا على وجه التحديد في ابريل عام ٩١٥م (شوال ٣٠٢هـ). هل مات مسموماً؟ هذا أمر يفتح الباب على مصراعيه أمام الشكوك. وعلى كل فقد انتهت بموته أسرة بنى حجاج فى أشبيلية أما بالنسبة لقرمونة، فقد مر وقت طويل حتى أذعنت، حيث لم يتمكن الحاجب بدر من الاستيلاء عليها عنوة إلا فى الخامس والعشرين من سبتمبر عام ٩١٧م (٥ ربيع الثانى عام ٣٠٥هـ). واقتيد المتمرّد حبيب إلى قرطبة، وأودع السجن مع اثنين من أبنائه، وتم اعدامه بعد عامين.

ومنذ أن جاء حفيد عبد الله، فقد تخلى الحظ عن ابن حفصون فى كل لقاءاته مع قوات الامارة. ويعد أن حرم من كثير من مساعديه فى الأقاليم مثل جيان والبيرة منذ حملة المنتلون، لم يعد فى مقدوره، حقاً، أن يجمع حوله سوى أبنائه الذين عهد إليهم فى كل مرة بتغذية نيران التمرد فى جبال رنّدة ومالقة. وكان للجفاف الشديد الذى أصاب إسبانيا عام ٩١٤م (٣٠٢هـ) أثره فى أن تنفس ابن حفصون الصعداء، حيث إن عبد الرحمن الثالث اقتصر، فى أوائل الصيف، على تكليف عبان، عمه، بالخروج على رأس قوات بسيطة فى جولة عسكرية بين أراضى كورة ريّو، حيث لم يكن هناك إمكانية للتفكير فى إرسال جيش كبير، وربما لم يكن فى الاستطاعة توفير المؤن اللازمة له على أرض القتال. ظل هذا الوضع مستمرا على مدى العام التالى، الذى وجد فيه الأمير العديد من المشاغل التى تدور فى فلك الحركات الخارجة على النظام وقمعها بالإضافة إلى أعمال قطع الطريق وكلها ناجمة عن ندرة الطعام فى مختلف أرجاء الإمارة. هذا بالإضافة إلى ظهور وباء حصد سكان القرى والمدن، وكان لقرطبة منه نصيب، حيث كانت تعج بالفئات المحتاجة التى دفعت ضرائب جمة لمكافحة المرض والجوع. ومن ناحية أخرى، كان معروفاً فى البلاط أن ابن حفصون، الذى يضيق عليه الخناق حيناً فحيناً، قد أصابه المرض، وأنه لم يعد يمثل خطراً كبيراً، ولم تعد هناك حاجة عاجلة للقضاء عليه. وفى نهاية مشواره، ذلك المتمرّد الذى لم يصب بهزيمة قط، بدأ يفقد تباعا مكائته وأنصاره، ولم يعد ينشغل بأكثر من أن ينجو بنفسه، ولجأ إلى العزلة داخل كنيسة بيشترا^(١٩)، ليؤدى بعض العبادات. وفى سبتمبر عام ٩١٧م (ربيع الأول ٣٠٥هـ) مات على المسيحية. دفن، طبقاً لمراسم أسلافه، وجهه لأعلى، ويداه مختلفتان فوق صدره، ووجهه مصوب جهة المشرق^(٢٠).

سرى نبأ وفاة ابن حفصون فى إسبانيا كقطع البارود، فكان له عظيم الأثر. استقبل المستعربون فى قرطبة وأشبيلية وطليلة هذا الخبر بضيق شديد، بينما استقبله المسلمون بعظيم الشكر لذهاب المولدى الذى كثيراً ما أهان الأمير عبد الله قبل

أن ينزع عنه قناعه ويرتكب الجريمة التي لا يمكن غفرانها له من جانبهم : ردته عن الإسلام.

إن ابن حفصون، بمميزاته وعيوبه التي حاولنا أن نسلط عليها الضوء سابقا، لم يحد، على الأقل حتى آخر لحظة من حياته، عن موقفه كمنشئ حلف أن يسير في هذا الطريق منذ عهد سحيق يوم أن فرّ هاربا إلى تاهرت. إن هذا البطل الذي تزعم حركة الاستقلال الإسبانية، كان بمقدوره أن يجد، بما لا يدع مجالا للشك، مثلا أشد صرامة وبرنامج عمل أقل تنوعا وأقل تبعية للفرق المتناثرة آنذاك. وما من أجل هذا تخلى عن أن يصبح البطل الجسور والحقيقي لقضية تتسم بأنها قضية شرف ومجد. ولهذا فإن المؤرخين العرب هم الوحيدون الذي يحدثوننا عن مشواره الطويل، وعليه فقد كان عليهم أن يحجموا عن تلميح ذكراه أو ذكر اسمه مقرونا باللعنات والشتائم. كما أن المنتصر الأموي (عبد الرحمن الثالث) كان سيحظى بنصيب من المجد أكبر لو أنه، بعد بضع سنوات، حين احتل بيشتر، عرف كيف يحترم الحلم الأخير لعدو إمارته القديم، بدلا من أن ينتهك حرمة قبره ليرسل بجسده المسكين إلى قرطبة حتى يتم عرضه في المكان المعد للتمثيل بجثث الموتى.

أولاد ابن حفصون ونهاية التمرد في الأندلس :

ترك عمر ابن حفصون عند موته أربعة من الأبناء^(٢١). تحول أكبرهم، جعفر، إلى المسيحية، وتبعته أخته الشابة، أرختيا، أما الثلاثة الباقون، سليمان وعبد الرحمن وحفص، فقد استمروا، على ما يبدو، على إسلامهم. كان ملك بيشتر من نصيب جعفر، الذي ورث عن أبيه الميل إلى الهجوم والعريضة، رغم أنه لم تكن تظهر عليه بوادر صفات الجرأة والمقاومة. كان مشواره قصيرا. كما أن عبد الرحمن الثالث قد تنبأ في جلاء تام أنه، باختفاء عدوه الرئيسي، لن يتأخر الوقت حتى يدب الخلاف والنزاع بين أبناء ذلك المتمرد ويرفعون عصا الفرقة والخلاف في وجه بعضهم البعض. وما كان له أن ينتظر حتى تمده الظروف بالأسباب، ولكنه قرر مواصلة الحرب كل عام على أرض أندلوثيا. وحتى يتمكن من إطفاء جذوة التمرد سيكون بحاجة إلى عشر سنوات أخرى من الجهود المتواصلة.

وفي مايو عام ٩١٩م (نو الحجة عام ٣٠٦هـ) خرج الأمير على رأس القوات في حملة بيلدة، والتي سميت باسم هذه المدينة المشهورة^(٢٢) في إقليم مالقة، لها بسائط خصبة، تقع بين أرشُدونة وبِشتر، يجمع بينها وبين أنتقيرة الحالية شبه كبير. قام في

البداية بتخريب المحاصيل، التي اقترب موعد حصادها؛ استولى، بعد ذلك، على قلعة «دوس أمانتس» بالقرب من بيلدة؛ وأخيراً، في الأول من يوليو (٢٨ ذو الحجة)، فرض الحصار على المدينة نفسها. وحدث نفس ما حدث في مونتى ليون منذ ست سنوات مضت، استسلمت الحامية المولدية وأنقذت حياتها، بينما استمر الجنود المستعربون يحتملون الحصار في شجاعة حتى النزاع الأخير، فبعد أن تم الاستيلاء على القلعة لقوا حتفهم الواحد تلو الآخر. قام عبد الرحمن الثالث بإعلان عن تواجده السريع والخاطف في منطقة ببشتر، ثم قفل عائداً إلى قرطبة قبل نهاية الشهر الجاري. وفي هذه الأثناء طلب منه جعفر بن عمر بن حفصون توقيع هدنة بينهما، بعد أن قدم الرهائن ودفع الجزية كضمان لولائه للأمير. أجابه الأمير إلى طلبه. كما أخضعت الكتبية التي أرسلت لتضرب الحصار على الابن الثالث لابن حفصون، عبد الرحمن، في أوجين، قاعدته، في سهولة تامة. طلب المتمرد الصفح واقتيد إلى قرطبة، حيث قضى أيامه في الظل، يعتمد على قريحته كخطاط في نسخ المخطوطات، حتى يكسب قوت يومه.

أما بالنسبة لجعفر وأخيه الأصغر سليمان فلم تكن العلاقة بينهما طيبة، ومن المؤكد أن جواسيس الحكومة الأموية قد كرسوا جهودهم لإذكاء نيران الخلاف بينهما. وفي الثلاثين من أكتوبر عام ٩٢٠م (١٣ جمادى الثانية ٣٠٨هـ) اغتيل جعفر في ببشتر ودفن على الطريقة المسيحية بجوار والده. وهنا أتى سليمان على عجل ليأخذ مكانه ويذكي نيران التمرد. (ويعد أن توفي ابن حفصون بقليل، خرجت الجيوش الأموية في ربيع عام ٩١٨م (شوال ٣٠٥هـ) لاحتلال حصن أوبييدا دي فارو المنيع في منطقة البيرة، التي كان يملك زمامها سليمان بن عمر بن حفصون، فأخضع واقتيد إلى قرطبة، فأصبح يضطلع ببعض المهام التي نسبت إليه ضمن صفوف الجيش؛ ولكنه سرعان ما انسلك منها ليعلن تمرده من جديد). ومنذ أن أصبح صاحب ببشتر، خليفة لأخيه جعفر، استعاد أوجين، ولكن لم يدم ذلك طويلاً، حيث قام عبد الرحمن الثالث، في عام ٩٢١م (٣٠٩هـ) بتحرير هذا الموقع، وحول كنيسه إلى مسجد كبير. وفي العام التالي، هاجم الأمير قلعة مونتى رويو، بين غرناطة وألمرية؛ وقد لقي عباس، بن القائد القديم لجده أحمد بن محمد بن أبي عبده، أمام أسوار هذه القلعة حتفه في عام ٩١٥م (٣٠٢هـ). ورغم كل هذا، لم يضع سليمان سلاحه، فأصبح من الضروري خروج عدة صوائف لرد نشاطه الهجومي. وفي إحدى حملاته على ميناء المنكب أصيب بفشل ذريع، ونمى إلى علمه بعد ذلك أن هناك دسياسة تحاك له من قبل المستعربين الأندلسيين فطرد، بلا خجل، أسقف الأبرشية التابعة لببشتر. ومن جانبه، فقد استمر عبد الرحمن

الثالث فى الضغط واتباع سياسة التطويق. وفى عام ٩٢٣م (٣١١هـ) عاد إلى اقليم مالقة ونجح فى القيام بحملة جريئة على جيتى والمنكب على ساحل البحر الأبيض المتوسط. أما العام التالى فقد خصصه لاحتلال السلام فى كورة إلبيرة، حيث نشبت بعض أعمال التمرد والعصيان. وأخيرا، فى عام ٩٢٧م (٣١٤هـ)، استطاع الأمير أن يتخلص من سليمان. فقد تم القبض عليه فى إحدى المناوشات التى جرت فى ٧ فبراير (١ من ذى الحجة) فى مكان غير بعيد عن ببشتر واجتزت رقبته، وأرسل جسده المشوه إلى قرطبة حيث علق على باب السدة.

لم يعد هناك سوى حفص، الابن الرابع لابن حفصون، الذى جعل من ببشتر معسكرا عاما له، رغم أنه لم يكن يمنى نفسه بطموحات كبيرة بالنسبة للأسلوب الذى يمكنه من الاستمرار فى المقاومة. وبعد ثلاثة أشهر على موت سليمان، أخذ عبد الرحمن الثالث طريقه صوب جنوب الأندلس، نجعل جيوشه تتمركز أمام المدينة، بهدف إحكام الحصار عليها طيلة الوقت الذى يتطلبه الموقف، وأوكل مهمة متابعة الحصار إلى وزيره سعيد بن المنذر، ثم رحل إلى مالقة ويعدها عاد إلى قرطبة، ينتظر سماع خبر استسلام عش النصور، والذى ما تأخر كثيرا. كما كان عليه أن ينتظر ستة أشهر، ضيق خلالها الحصار شيئا فشيئا على ببشتر، التى كانت مهددة بطلقات سهام المصوبة نحوها، من قبل الحصون العديدة التى سقطت فى أيدي القوات الأموية. وأخيرا تنبه حفص إلى أنه لم تعد هناك فائدة ترجى من وراء المقاومة، فكتب إلى الأمير يعرض استسلامه، وهجر المدينة. قام الوزير أحمد بن محمد بن هدير، الذى أوفد فى هذه المهمة، باستلام المدينة رسميا، باسم سيده، فى ١٩ يناير ٩٢٨م (٢٣ ذو القعدة عام ٣١٥هـ)، وتم رفع العلم المروانى الأبيض على أعلى أبراج القلعة. أرسل حفص وأفراد أسرته إلى قرطبة. وحيث أنهم قد استسلموا دون حرب، لم يعمد الأمير إلى مضايقتهم، كما تمكن حفص من الانضمام إلى صفوف الجيش. أما أخته الشابة أرخينتا، التى أحست ميلا إلى حياة الرهينة ولم يكن باستطاعتها أن تعلن عيانا اعترافها بدين قد رفضته من قبل فى نفس اليوم الذى أعلن فيه ذلك كل من والدها وأمها كولومبا، فقررت أن تحبس نفسها داخل دير العاصمة لتعيش فيه بعيدا عن الدنيا بأسرها، فى عزلة صارمة. وبعد مدة انخرطت فى سلك الزهد والبحث عن الشهادة، التى نالتها فى ١٣ مايو ٩٣٧، عندما حكم عليها بالاعدام، إلى جانب امرأة تدعى أولفورا، بعد توجيه تهمتين : الأولى الردة، حيث ولدت مسلمة، والثانية توجيه الاهانات والسباب للدين الرسمى للدولة (٢٣).

ورغم أن الاستيلاء على بيشتر كان متوقعا منذ موت ابن حفصون، فإن الاستيلاء السلمي على المدينة كانت له آثاره العظيمة في مختلف ربوع إسبانيا، سواء على الجانب الإسلامي أم على الجانب المسيحي، وشمال أفريقية، كما زاد من مكانة ونفوذ الأمير عبد الرحمن الثالث، بدرجة أكبر من تلك التي حققتها له نجاحاته الأولى، داخل أو خارج حدود مملكته. ولهذا، فقد تمكن في النهاية - وهذا أمر سوف نتناوله بتوسع أكبر فيما بعد - من تحقيق مشروع امتد لسنوات عديدة، كان قد وعد بانجازه حين يستولى على بيشتر: أن يتبنى في بروتوكوله لقبين ساميين، لقب خليفة وأمير المؤمنين، واللقب الشرفي الناصر لدين الله، الأمر الذي أكد من خلاله - سواء أمام أتباعه المباشرين أم أمام الخليفين الآخرين، الفاطمي والعباسي - أنه أصبح صاحب أرض الأندلس بلا منازع وكسر للأبد الرابطة الواسية التي كانت ماتزال تربط مملكته صورياً بالشرق الإسلامي. لقد أراد الخليفة الجديد آنذاك أن يدوس بأقدامه أرض القلعة التي رفعت راية التمرد لزمان طويل وأن يستغل انتصاره، هادما إلى غير رجعة معاقل الانشقاق التي كان بمقدورها أن تعمل على اشعال الحرائق على أرض الأندلس. ففي العاشر من مارس عام ٩٢٨ (١٥ محرم ٣١٦، خرج من قرطبة، بصحبة وريثه، الأمير الشاب الحكم، الذي بلغ من العمر آنذاك ثلاثة عشر عاما، عبر إستجة وأشونة، ثم تابع مسيرة النصر إلى أن بلغ الحصن الشهير لابن حفصون وأولاده. وحين وطئت أقدامه أرض المدينة زارها حتى آخر ركن فيها، معرباً عن شكره لله، أمرا بنبش قبري عمر وابنه جعفر وحمل رفاتيهما - الأمر الذي ينال من شرف الأمير - وأرسلهما إلى قرطبة ليتم عرضهما على المسلمين لتحقيقهما ولعنتهما من قبل الجميع. طاف بعد ذلك بأراضي مالقة؛ أمر بهدم بعض القلاع التي رأى هيئتها غير صالحة للاضطلاع بأمر الحراسة للمناطق المحيطة بها؛ كما أمر بإبعاد العديد من المستعربين الأندلسيين الذين كانت لهم علاقة بأي نشاط مضاد للنظام. وبعد أقل من شهر وجد نفسه داخل قرطبة.

ومنذ ذلك الحين، أصبحت الأندلس تعيش في سلام عمّ جميع أرجائها. فعلى مدى السنوات الماضية، فقد الكثيرون من السادة الصغار، واحدا تلو الآخر، الأمل في الحفاظ على مميزاتهم الاقطاعية، وحين غمرهم اليأس، وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الإذعان. استسلم بنو هديل في اقليم برييجو، وبنو مهلب، في تورى كارديلا واسبراجيرا^(٢٤)، وذلك في عام ٩٢١ م (٣٠٩ هـ)، وبعد شهور قليلة على هذا الحادث سار على نهجهم سيد كاسا رايونيلا، في اقليم مالقة؛ وملاحو بجانة، كذلك، أصبح عليهم أن يتخلوا عن فكرة الاتحاد شبه المستقل ليصبحوا في المستقبل تحت ظل إداره الحكومة الأموية^(٢٥). خيم الهدوء من جديد على كل الأرجاء، فحمل الازدهار معه. بدأت

الضرائب تصل إلى بيت المال في سهولة لانظير لها واستعادت خزينة الدولة عز أمجاد أيام مدة حكم عبد الرحمن الثاني، لتصبح في وقت قصير أغنى بيوت المال، ربما في أوروبا كلها.

ومن ناحية أخرى، ففي الوقت الذي سقطت فيه ببشتر، أتت مجهودات السلام ثمارها، ليس فقط على أرض الأندلس المعروفة بهذا الاسم، وإنما كذلك على أرض المنطقة الغربية ولينبتى، بعد انضمامها إلى حكومة قرطبة. وفي عام ٩١٦م (٣٠٤هـ) كان سهلاً أن ينتزع الجنرال اسحق بن محمدا لقرشى امارة لورقة ومرسية القديمة التي أسسها المولدى قاسم بن اسحق لنفسه (المتوفى عام ٩٠٦م (٢٩٣هـ)، من بين أيدي ورثته. وفي نفس هذا العام، استولى الحاجب بدر على لبلة وماردة وشنترين، في الغرب، ولقنت، وكايوسادى سيجورا (٢٧)؛ كما تم اخضاع شاطبة وبلنسية ومربيطر، في الشرق، واحدة تلو الأخرى. ومن خلال قائمة التعينات حكام المحافظة، أدرجها أحد المؤرخين عام ٣١٦هـ (٢٨)، تعطينا مثل هذه التحديدات، والتي تجعل بمقدورنا أن نقيس على الخريطة مدى اتساع رقعة الاقاليم التي أعيد ضمها مرة أخرى في ذلك الحين إلى حظيرة العرش : فعلى ساحل المتوسط نجد أسماء مثل طرطوشة وبلنسية وكورتى تدمير، إلبيرة وريو؛ وفي غرب الأندلس نجد أسماء مثل ماردة وتروخيو قصر أبى دانس [قصر الفتح]؛ وبالقرب من حدود ليون نجد أسماء شنت برية، ووادي الحجاره، ومدريد وطلبيرة. وبدون أن نتحدث عن الثغر الأعلى، بقيت إلى الآن مدينتان هامتان هما : بطليوس وطليلة.

استرداد بطليوس وطليلة (٩٢٩ – ٩٣٢) ومحمية الثغر الأعلى :

ظلت إمارة بطليوس من الناحية العملية، خلال عهد الأمير عبد الله، بمنأى عن الأعمال الهجومية التي شنتها قوات قرطبة، وعلى هذا المنوال استمرت رداً طويلاً من الزمن أثناء حكم عبد الرحمن الثالث. وفي عام ٩٢٩م (٣١٧هـ) أصبحت الفرصة مواتية للقضاء عليها. منذ وفاة ابن الجليقي عانت سلطة المروانيين نقصاً محسوساً. فقد ظل حفيد عبد الرحمن بن مروان، المدعو عبد الله بن محمد، رغم اضطرابه لمواجهة عدد من المشاكل الخطيرة، على أرض بطليوس أكثر من ثلاثين عاماً، وماوافته المنية إلا عام ٩٢٣م (٣١١هـ). وأما بالنسبة لابنه الذي جاء من بعده، عبد الرحمن (٢٩)، لم يكن يمثل في نظر الأمير العدو الذي لا يمكن إخضاعه، يعد حصار دام مدة قصيرة كانت كافية لإجباره على الاستسلام. كانت الحملة على بطليوس بقيادة عبد الرحمن الثالث

فى بداية الأمر، فأمر جيوشه بالتمركز أمام أسوار المدينة فى الخامس من يونيو عام ٩٢٩م (٢٢ ربيع الثانى عام ٣١٧هـ)، وخرب الضواحي والبيوت المعدة للراحة فى المناطق المجاورة. وبعد ذلك أمر قواته بمحاصرة المدينة المذكورة، وتوجه هو صوب باجه، حتى يهاجم عبد الرحمن بن سعيد بن مالك، سيد المدينة المتمرده، الذى لم يأخذ وقتاً طويلاً حتى يعلن استسلامه. ومن باجه، تابع عبد الرحمن الثالث مسيرته حتى منطقة أكشونبة، حيث كانت الامارة التى أسسها المولدى العاقل الماهر بكر بن يحيى بن بكر (٣٠) فى شنتمرية الغرب وشلب، مازالت تنعم بالسلم، ويحكمها حفيد لمؤسسها، يدعى خلف، الذى كان يحظى هو الآخر بحب أتباعه. لم يرد خلف بن يحيى بن بكر وضع العراقيل والصعوبات أمام إذعانه للخليفة، فقد تجمعت لدى الخليفة أخبار تمتدح خلفاً، وبعد أن تراضى الطرفان، قرر الأمير أن يتركه فى نفس منصبه كتابع من أتباعه، مع التزامه بدفع جزية سنوية للأمير، وألا يستقبل أو يستضيف أحداً من المتمردين أو الهاربين. ومن جانبه، فقد اقتنع أمير بطليوس، عبد الرحمن بن عبد الله بن مروان بعدم جدوى المقاومة، وبعد عدة أشهر من عودة الأمير إلى العاصمة، عرض عليه إذعانه، ثم ذهب بأسرته إلى قرطبة عام ٩٣٠م (٣١٨هـ).

ولم يتبق للناصر حتى يكمل عملية السلم فى الداخل، التى أفنى فيها ثمانية عشر عاماً بلا هوادة من حكمه (أهى مدة حكمه؟) - سوى العمل على اقرار السلطة الأموية، بطريقة نهائية فى هذه المرة، فى أكبر مدن الثغر الأوسط، العظيمة المشاكسة، ألا وهى طليطلة، والتى لم يتمكن أسلافه من إخضاعها لسلطانهم إلا لفترات قصيرة جداً. منذ أوائل القرن العاشر، تغير الموقف قليلاً فى العاصمة القوطية القديمة - ولغيرتهم على حريتهم والحرص على وجود مخزونهم من الغلال سليماً غير منقوص داخل صوامعهم الشهيرة، لكى يتمكنوا من مواجهة أى حصار طارئ يطول أمده، كان الطليطليون يثقون ثقة كبيرة فى الوضع الاستراتيجى لمدينتهم، التى يحيطها نهر التاجه من كل جانب بهوة عميقة. وتبعاً لأهوائهم وظروف الوقت، فقد كانوا يعهدون بإدارة مدينتهم، إما إلى زعيم محلى، يختارونه من بين أبناء المدينة، أو أى سيد من أصحاب النفوذ الاقطاعيين الذين كانوا يتمتعون فى الأماكن القريبة من المدينة بنوع من الاستقلال. وفى بعض الأحوال، كانت تجمع بينهم وبين مملكة أشتوريش علاقات تفصح عن حسن الجوار. وما نحن قد رأينا أن اثنين من أفراد عائلة بنى قسى الأراجونية، المطرف بن لوبى بن موسى ومحمد بن اسماعيل بن موسى - قد ملكا زمام الأمور القيادية بالمدينة بضع سنوات، وبعد هذا، وفى عام ٩٠٦م (٢٩٣هـ)، أصبحت قيادة المدينة فى أيدي المتمرده القديم بها، لوبى بن طريششة، حيث حكمها، على الأقل، حتى

عام ٩٢٠ م (٢٠٨هـ). وفى هذا العام، بدأ عبد الرحمن الثالث حملته المعروفة باسم حملة مويث، التى سنتحدث عنها بعد ذلك، ثم سار فى طريقه حتى وصل إلى موقع أمام طليطلة. «وهنا هم الأمير لوبى بن طريشة - كما يذكر أحد المؤرخين - بالخروج للقاء عبد الرحمن الثالث ليحارب تحت إمرته، معلنا الانزعان له. ولكنه لم يكن سوى إنزعان ظاهري»^(٢٢). وجاء من بعد لوبى بن طريشة حاكم آخر للمدينة، فى تاريخ لانعلمه، هو ثعلبة بن محمد بن عبد الوارث، والذي لانعرف عنه سوى اسمه، ومع ثعلبة هذا قرر الأمير عبد الرحمن الناصر أن يختبر قواه.

بدأ بمحاولات الحصول على الخضوع السلمى للمدينة. ولهذا، توجه وفد من الكبار والفقهاء إلى طليطلة بهدف اقناع السكان بأنه قد حان الوقت، بالنسبة لهم أيضا، للدخول فى أحضان الجماعة ودفع الجزية للسلطة المركزية. انطوت ردود الأهالى على المراوغة، وعلى ضوء هذا، لم يعد هناك سوى اللجوء إلى طريق الحرب، وفى ربيع ٩٣٠ م (٢١٨هـ)، خرجت مجموعة أولية من الجيش، بقيادة الوزير سعيد بن المنذر، وتمركزت فى أجوار طليطلة، حتى انضمت إليها قوات أخرى فى شهر يوليو، يقودها الأمير عبد الرحمن شخصيا. أمر عبد الرحمن الثالث قواته بالتمركز بجوار نهر الجودور، بالقرب من قلعة مورا (على مسافة ٣٠ كيلومترا جنوب شرق العاصمة)، وطالب زعيم طليطلة، الذى ملك زمامها، مطرف بن عبد الرحمن بن حبيب، بالاستسلام. وفى مرحلة لاحقة، بينما أخذ يقترب أكثر من هدفه، احتل موقعا من المواقع المتمردة فى مرتفعات تشالينكاس^(٢٣)، وحتى يفهم المجموعة المحاصرة بأن الحصار سوف يستمر طوال الوقت الذى يتطلبه الموقف، أمر بتحويل المعسكر إلى مجموعة من الانشاءات أطلق عليها اسم مدينة الفتح. ويعد أن اتخذ الاجراءات المناسبة وترك تعليماته، عاد إلى قرطبة، ولكن ليس قبل أن يتلقى الانزعان الفورى من سادة الامين^(٢٤)، وقنالش^(٢٥). الواقعتان على مقربة من شمال طليطلة.

استمر حصار المدينة المتمردة عامين كاملين، وداومت العاصمة، فى كل فرصة أتاحت لها، على إرسال الامدادات التى من شأنها أن تزيد من الضغط على أهالى طليطلة. وقد توقع هؤلاء تدخلا حاسما من جانب ملك ليون راميرو الثانى، الذى طلبوا مساعدته لهم، وبالفعل حاول العاهل المسيحى أن يخرج لنجدتهم، إلا أن جيشه قد منى بهزيمة فى لقاء جمع بينه وبين القوات الأموية، وسوف نرى كيف أن بعضا من المشاغل الأخرى قد منعه من تحقيق هدفه للشروع فى حملة جديدة لرفع الحصار عن طليطلة^(٢٦). أصبحت المدينة تقتصر على مواردها ولم يتأخر الوقت بالمحاصرين كي

يعلنوا عن بوادر التعب والارهاق. أتى عبد الرحمن الثالث شخصيا ليحصد أمجاد الإنتصار، الذي سيكون بمثابة التاج الرائع الذي تزدان به جهوده الرامية إلى إحلال السلام في الداخل. خرج عبد الرحمن الثالث من قرطبة في أواخر يوليو عام ٩٣٢م (رجب ٣٢٠هـ)، وما إن أصبح داخل ملكه فوق أراضى طليطلة، حتى استقبل زعيم المدينة، ثعلبة، الذي قدم إليه ليبدأ المفاوضات معه حتى يسمح للجوعى من مواطنيه بالحصول على المؤن. وفى اليوم التالى - ٢ أغسطس (٢٥ رجب) - دخل الناصر مدينة طليطلة ممتطيا جواده، وقد بدت عليه علامات الخشوع لربه، فحمده وأثنى عليه، ولم يتحرك من المدينة حتى ترك بها حامية قوية وأصدر أوامره اللازمة للعمل على الاحتلال الدائم للمواقع الاستراتيجية بالثغر. وما إن عاد إلى قرطبة، حتى أخذ فى توزيع المكافآت على الجنود، ونظم، مع الأجهزة العليا، حفلة شكر وامتنان، هذا إلى جانب حفلة أخرى بمناسبة ختان بعض أبنائه الصغار.

وبعد ببشتر وبطليوس، جاءت طليطلة لتحنى أمام إرادة قرطبة القوية. فعلى مدى عشرين عاما تمكن الأمير - بعد جهود مضيئة - من أن يحصل على مثل هذه النتائج، التى كانت وحدها كافية بتزيين مشوار أى أمير آخر من سلالة عبد الرحمن الداخل (المهاجر). ورغم كل هذا، لم يكن الأمر سوى مقدمة مضيئة لفترة نشاط سياسى مشوارها طويل ومثمر. ومنذ اللحظة التى رأى الناصر نفسه فيها سيدا مطلقا على الأراضى الخاضعة له، بدأ يكرس نشاطه، وبطاقة أكبر، للمشاكل الخارجية التى كانت تتطلب منه العناية أو كانت تثير فيه طمعا وتطلعا ما. لم يكف الخليفة الاسباني، ودون أن يسلم نفسه قط - رغم ما قيل فى بعض الأحيان - للمتعة، حتى وفاته عن الاعراب عن إرادته ووضعها موضع الاحترام من الجميع، براقة لاتقبل الخدش، ورغبته فى أن يدير كل الأمور بنفسه، ويكون مستعدا لأداء مهامه دون ماكلل. وفى نهاية حياته أصبح باستطاعته القول، بعد فترة طويلة من ممارسة الحكم، أنه لم ينعم بقسط من الراحة سوى أربعة عشر يوما قضاهما فى مشاغل من كل نوع^(٣٧)؛ وبإمكاننا أن نصدق فى قوله هذا، خاصة عندما يتبين لنا فى الصفحات التالية حقيقة نشاطه العسكرى والسياسى على الجانب الآخر من نهر الدويرة والشاطئ الآخر من مضيق جبل طارق.

ومن الواجب علينا أن تلقى نظرة على الوضع فى الثغر الأعلى فى الفترة ما بين بداية عهد عبد الرحمن الثالث وعام ٩٣٢. كان اهتمام العاهل الأموى يتركز فى عدم تعجل الأحداث فى هذه المنطقة اللامركزية من مناطق نفوذه والاعتماد على أحد أتباعه

النشطين، وذلك كلما أضحت مملكته وسلطانه أكثر فعالية، بما يتعكس في كل عام في صورة كم هائل من الجزية إلى الخزانة العامة لقرطبة، التزم الناصر بهذا الخط، وظل يعمل على تحسين علاقته بالتوجيبي، في سرقسطة، الذي أحاط نفسه بعدد من الجيران الذين انكسرت شوكتهم الهجومية مثل آخر أفراد أسرة بنى قسى في إقليم تطيلة، وأتباع محمد الطويل في وشقة وبنى ذى النون في أعالي جبال شنت برية؛ ولهذا كله، فقد حرص عبد الرحمن الثالث، كما فعل جده من قبل، على أن يبقى رسميا على هذه المحمية التابعة للثغر الأعلى، التي دامت طويلا، رغم الصعوبات التي خلقها بعض المنتفعين من هذا الوضع الاستثنائي، أمام الحكومة المركزية.

انتهى المطاف ببنى قسى إلى المصير المظلم. فقد تم اغتيال أمير تطيلة عبد الله بن محمد بن لوبى، في أوائل مدة حكم عبد الرحمن الثالث، في عام ٩١٥-٩١٦م (٣٠٣هـ) (٢٨). وفي نفس العام توفي أيضا أخوه المطرف على يد ابن أخيه محمد، أحد أبناء عبد الله. وتزوجت إحدى بنات عبد الله، أورأكا، من أحد أبناء ملك أشتوريش، ألفونسو الثالث، المسمى فرويلا الثاني، الذي أصبح ملكا لليون بعد أوردوينو الثاني وقبل ألفونسو الرابع الملقب بالراهب. أعلن محمد بن عبد الله خضوعه للأمير الأموي، الذي أبقاه لفترة من الزمن حاكما لتطيلة. أما بالنسبة لبقية أفراد هذه العائلة المضطربة فقد أصبحوا يتوارون عن مسرح الأحداث واحدا تلو الآخر؛ انتقل أكثرهم إلى قرطبة عام ٩٢٤م (٣١٢هـ)، واحتلوا مناصب عدة بالجيش النظامي. كما أعلن البعض الآخر رده عن الاسلام إلى المسيحية، وانخرطوا في صفوف ملك ليون تارة وملك نبرة تارة أخرى. قام أحدهم - تبعا لما يذكره ابن حزم - بالذهاب إلى إفريقية لينضم إلى صفوف الفاطميين هناك.

لم يكن المشوار الذي بدأه أبناء محمد الطويل في وشقة يحظى بسمعة ورنين أكثر من مشوار أولئك، حيث مات محمد الطويل في قطلونية من العام التالي لمجيئ عبد الرحمن الثالث. تولى أكبر أبنائه، عبد الملك، زمام الأمور بعد أبيه، ولكنه اغتيل - في ديسمبر عام ٩١٨م (رجب ٣٠٦هـ)، على يد أخيه الأصغر، عمروس، الذي شغل منصبه مدة ليس بالامكان تحديد عمرها الزمني.

أما عن أسرة ذى النون فلدينا بعض ما نذكره عنها، حيث أن ابن حيان، في تأريخه لعهد الأمير عبد الله، خصص بضعة أسطر لكل واحد من الأبناء الثلاثة للسيد البربري الذي ولى أمر شنت برية^(٤٠). وأما الثاني، الفتح، سيد أوكليس، فقد أصيب بجراح مميتة على يد أحد أنصاره القدامى، الأقرع، عام ٩١٥م (٣٠٣هـ). أما الأكبر،

يحيى، الذى استقر له الأمر فى البداية على أويلامو، فقد جعل من نفسه قاطع طريق، وما انكسرت شوكتة إلا عام ٩٢٢م (٣٢١هـ)، عندما أرسل الناصر جيشا يرأسه وزيره عبد الحميد بن باسل يتتبع قاطع الطريق هذا؛ طلب يحيى العفو عنه، وتم تعيينه كعريف للجند ثم توفى بعد ذلك بأربع سنوات بين صفوف قوات الأمير فى حصار سرقسطة. أما فيما يتعلق بالمطرف، أصغر اخوته الثلاثة، الذى ورث عن أبيه بارونية أويتى، لم يتأخر فى إعلان خضوعه، كما أعرب عن تحوله إلى خادم وفى للأمير. وقد مكنه هذا من المشاركة فى حملات كثيرة قادها الأمير؛ أسر لفترة من الزمن فى قبضة سانتشوجارثيس، حاكم بنبلونة، حتى تمكن من الهرب؛ أظهر براعة كبيرة فى موقعة الخندق المشنومة، فى شنت منكش، وأنهى أيامه فى عام ٩٢٤ - ٩٤٥ (٣٢٣هـ). كحاكم لحصن وادي الحجارة المنيع.

وأخيرا، فى سرقسطة، تعجل الحاكم شبه المستقل، أبو يحيى محمد الأنقر، بن التوجيهى، عبد الرحمن، حين عرف نبأ موت الأمير عبد الله، فأرسل رسالة طاعة وإذعان إلى الأمير الشاب الذى بلغ العرش لتوه. لم تدركه المنية إلا بعد اثنتى عشر سنة بعد ذلك، أى فى عام ٩٢٤م (٣١٢هـ). وفى غضون الفترة الانتقالية لم يقدم إلى عبد الرحمن الثالث أكثر من دوافع الاطراء نظرا لما أعلنه من ولاء وغيره، ولكنه أعرب عن عدم موافقته على الأهواء الهجومية الأخيرة التى أعلن عنها بنوقسى. خلفه ابنه هاشم (الذى باتت أسرة التوجيهى بسرقسطة تعرف مؤخرا باسمه : أسرة بنى هاشم)، والذى كان حاكما، بدوره، للثغر الأعلى، ولكننا لا نعلم عنه سوى وفاته فى عام ٩٣٠م (٣١٨هـ). وخلفه ابنه محمد بن هاشم^(٤١)، الذى أعلن تمرده، بعد ذلك بأربع سنوات، ضد الخليفة وانضم إلى راميرو الثانى. وسوف نعرف ماذا حدث له بعد فى صفحات قادمة^(٤٢).

٢- قرطبة والممالك المسيحية فى شمال اسبانيا فى عهد عبد الرحمن

الثالث^(٤٣) قرطبة وليون وبنبلونة حتى مجيئ راميرو الثانى ٩١٢ - ٩٣٢ :

لولا وجود البيانات الدقيقة التى ذكرتها المصادر العربية، لما علمنا شيئا ذا شأن، وحتى فى عصرنا هذا، عن النشاط الذى قام به الملوك المسيحيون فى ليون وبنبلونة ضد إسبانيا الإسلامية فى النصف الأول من القرن العاشر. وإذا ما عقدنا مقارنة بين وفرة ما أنتجته المدونات التاريخية العربية الإسبانية، بأسهاب فى بعض

الأحيان، وبين البيانات الفقيرة التي أوردتها كتب التاريخ اللاتينية، التي تنسب إلى القس سامبيرو، والراهب دي سيلوس، ويخلط الاثنان، أو بمعنى آخر، التاريخ التجريسي، والذي يطلق عليه أيضا تاريخ ليون، فسنجد أن هذين الأخيرين يصدران عن اقتضاب محيط، ولابد من أن نضيف أن المدونات التي تم إنجازها فيما بعد حول هذه الحوليات العارية قد امتلأت بأخبار مزيفة نُسجت في أسلوب قصصي، وقليلًا مانجدها تقف في مواجهة الآراء التي توجه إليها انتقادات لاذعة. كنا سنجد أنفسنا في حالة شك فيما يتعلق ببعض التواريخ الهامة في هذه المدونات التاريخية الغامضة، هذا بالإضافة إلى نظام خلافه بعض الأمراء بعضهم البعض؛ لو لم نجد بين أيدينا تلك التذييلات الروائية التي تركها لنا قلم المؤرخ الأندلسي العظيم ابن حيان. ولانملك بين أيدينا حتى الآن النص الأصلي الذي تركه؛ ولكن، لحسن الحظ، فإن ابن خلدون قد أورد في موسوعته التاريخية أهم النقاط الأساسية حول هذه المعلومة، التي استقاها مؤرخ قرطبة، بدوره، من مصادر جيدة للغاية، وبفضل ما قدمه لنا، فإن الشحوب الذي اعتري ازدهار تدوين التاريخ في العصر الوسيط فيما يتعلق بإسبانيا المسيحية قد أخذ يكتسى بألوان أكثر حيوية منذ اللحظة التي بدأ دوزي، بفطنته وسعة علمه، ترجمتها واستخدامها لأول مرة منذ عدة سنوات.

لقد سبق ملك أشتوريش، ألفونسو الثالث، الذي عاصر الأمراء محمد الأول، والمنذر وعبد الله، هذا الأخير بعامين إلى العالم الآخر، فالتاريخ المعهود لوفاته هو ٢٠ ديسمبر ٩١٠م. وحسب ما يذكره سامبيرو، والمحتمل أن يكون تأصيلًا لتراث أسطوري، فإن الأيام الأخيرة لألفونسو الثالث قد اعترتها ظلمة التمرد من جانب أبنائه الذين ثاروا ضد سلطانه. وهاهو ابنه الأكبر، جارتيا، يقع في الأسر على يد الملك الطاعن في السن ويحبس داخل إحدى القلاع، ولكن صهره، خونيو فيرنانديث، وأخويه اللذين يصغرانه أوردونيو وفرويلا، قد تحملوا على عاتقهم قضيته، فخلعوا ألفونسو الثالث عن العرش وفرضوا عليه إقامة جبرية لم تطل به حتى أدركه الموت^(٤٤). خلفه على العرش جارتيا، الذي أعرب عن امتنانه لأخويه أوردونيو وفرويلا، بأن منحهما، بامتياز ملكي، الحكم شبه المستقل لملكاتهما في جليقية وأشتوريش. لم يدم حكم جارتيا الأول أكثر من أربع سنوات. وبالإضافة إلى إحدى الحملات الموفقة على الأراضي الإسلامية، والتي لم يكن لها صدى عند المؤرخين العرب، فإن منجزاته الأساسية تتلخص في نقل عاصمة مملكة أشتوريش من أوبييدو إلى ليون، والتي يطلق عليها حتى الآن «مملكة ليون»، والعمل على إعادة تعمير المدائن الواقعة على حدوده، سائرًا على نهج والده، بالشاطئ الأيمن لنهر الدويرة، مثلما هو الحال بالنسبة لوخسمة وكلونيا وشنت إشتين

دى غُرْمَاج. وعندما داهم الموت المبكر جارشيا الأول عام ٩١٤، خلفه أخوه أوردونيو الثانى على عرش ليون.

لم يكن أوردونيو الثانى يخلو من طموح سياسى. إذ قام وهو مايزال ملكا تابعا لعرش جليقية بحملة موفقة على الثغر الأدنى للمسلمين. وهامى بعض تفاصيل هذه الحملة التى لم تنتشر بعد^(٤٥): فى صيف عام ٩١٣م (أوائل عام ٢٠١هـ)، حيث لم يكد يمر على مجيئ عبد الرحمن الثالث بضعة أشهر، حتى سار جيش قوامه ٣٠ ألف جندى متوجها إلى يابرة Evora (فى وسط الاقليم البرتغالى الحالى المعروف باسم أليمتيخو Alemtejo)، الذى كان مقرا للحاكم المسلم مروان بن عبد الملك. وفى التاسع عشر من أغسطس (١٣ محرم) بدأ حصار المدينة، القليلة الحصون، وشهدت أسوارها تجمع أكواما هائلة من القمامة حولها، وكان بإمكان أى طامع فيها أن يملك زمامها من بدايتها إلى نهايتها. ورغم أن مدينة إيبورا قد أبدت روح المقاومة، إلا أنها سرعان ما أسلمت أمرها للمحاصرين وحكم على أهلها بالقتل فى مذبة، راح ضحيتها الحاكم وسبعمائة من رجال الحامية. وبعد ذلك بيومين، حين سلبت المدينة عمدا، عاد أوردونيو فأخذ طريقه صوب جليقية يحمل عددا من الأسرى بلغ أربعة آلاف بين نساء وأطفال. وقد أدت مثل هذه الضربة الشجاعة إلى غرس الذعر بين سكان المنطقة الغربية. كما أحدث هذا الأمير حالة من الفرع عند أمير بطليوس، عبد الله بن محمد، حفيد عبد الرحمن بن مروان، مما جعله يسرع فى بناء سور من الحجارة والملاط حول المدينة.

وما إن خلف أوردونيو أخاه جارشيا، حتى استأنف هجومه على الجانب المسلم فى نفس الاتجاه. وفى هذه المرة ذهب ملك ليون يقصد ماردة. وتبعها لما تذكره الروايات المتوافقة لكل من سبلشى وابن خلدون^(٤٦)، ففى عام ٩١٤ أو ٩١٥م (٣٠٢هـ) أجبر الحامية والسكان المسلمين فى قلعة الحنش Alange^(٤٧)، على الاستسلام وكان مصيرهم كمصير نويهم فى مدينة يابرة. عاد الخوف يسيطر على أمير بطليوس من جديد، ولكى يستدر عطف الملك المسيحى ورحمته بعث إليه بإتاوة هائلة، ربما استخدمها أوردونيو فى بناء كنيسة سانتا ماريا دى ليون، وربما كان هذا الحدث ضربا من الخيال.

كان أوردونيو الثانى يأمن جانب العقاب؛ معتقدا أن الأمير العربى الجديد على قرطبة، بكونه مشغولا باحلال السلام الداخلى فى إمارته، قد أصبح لزاما عليه بذل جهد فائق ليتمكن من القيام برد فعل على مثل هذه الأحداث والحملات، التى كانت موجهة كذلك إلى أراضى مسلمة لم تكن قد أذعننت له بالطاعة بعد. ولكن مثل هذا

الاعتقاد كان يعنى عدم الدراية بشخصية الأمير الشاب، الذى خلف الأمير عبد الله. فمئذ عام ٩١٤م (٢٠٤هـ) كان عبد الرحمن الثالث هو البادئ بالهجوم. وفى يوليو (محرم) من نفس العام، خرج أحمد بن محمد بن أبى عبده، بأمر من الأمير نفسه، من قرطبة على رأس جيش عظيم وماعاد إلا بعد أن شن حملات مثمرة على أراضى ليون. وفى الصيف التالى، عاد الجنرال نفسه فخرج على رأس حملة أخرى، ينوى طرد العدو من أهم وأقوى مواقعه فى وادى الدويره : انها شنت إشتين دى غرماج، والتي يطلق عليها المؤرخون العرب أيضا اسم كاسترو موروس. كما خرج بن أبى عبده، على رأس جيش يتكون من مرتزقة شمال أفريقية، ومتطوعين للجهاد، وفيالق مجندة من مناطق الحدود، خرج ابن أبى عبدة فى الواقع لمهاجمة المدينة ثم حاصرها حصارا شديدا استمر عدة أيام. وقع اللقاء فى الرابع من سبتمبر عام ٩١٧م (١٤ من ربيع الأول عام ٣٠٥هـ)، وكان بالنسبة للقوات المسلمة بمثابة الكارثة، وذلك بسبب خيانة المجندين من المناطق الحدودية. وهنا، وبعد أن رأى الجنرال الأموى أن الآمال قد تبددت، فضل أن يموت فى مكانه^(٤٨)، وأما الناجون من قواته فقد لاحقتهم القوات المسيحية عن كثب، وعادوا أدراجهم إلى الأراضى المسلمة فى فلور مشتتة بعد أن تكبدوا خسائر جسيمة؛ وتبعاً لما يذكره سيلنس فإن التلال والغابات والحقول، «بداية من الدويرة وحتى أتينثا Atienza وباراكو يوس» قد بدت وكأنها زرعت بجثث المسلمين. وأما أوردونيو فقد عاد إلى ليون منتصرا، وذلك بعد أن قام بتعليق رأس الجنرال المسلم المهزوم عند أعلى شنت إشتين جنبا إلى جنب مع رأس خنزير برى^(٤٩).

وماكان من أثر لهذه الهزيمة النكراء لجنود عبد الرحمن الثالث سوى أنها دفعته للإصرار على قراره بضرورة توجيه ضربه قاسية لعدوه، حين تسنح الفرصة المناسبة. وقد استشعر أوردونيو الثانى الخطر؛ إلا أنه لم يشأ أن يجعل من نفسه من يقف موقف المدافع، فبذل غاية جهده فى العمل على زيادة وسائله المختلفة، وعليه فقد قام بتوقيع تحالف مع الملك شانجة غرسية، ملك نبرة Navarra، ثم توجه ليستولى على طلييرة عند نهر التاجه، بينما قام عاهل بنبلونة فى ربيع عام ٩١٨م (أواخر عام ٣٠٥هـ) بمهاجمة أملاك بنى قسى وخرب محاصيل المناطق المحيطة بها مثل ناجرة وتطيلة. وأخيرا قام سانشو بمهاجمة بالتيرا فى شمال تطيلة وأحرق مسجد ربض هذه القلعة. وهنا لم ينتظر عبد الرحمن الثالث كثيرا فى الرد على مثل هذا العمل. وفى الأيام الأولى من شهر يوليو من نفس العام (محرم ٣٠٦هـ)، تلقى الحاجب بدر بن أحمد أمرا بالخروج، وما إن تلقى إمدادات أخرى فى الطريق، حتى توجه إلى ليون، حيث ألحق، فى منتصف أغسطس (أوائل ربيع الأول) بأوردونيو هزيمة ثقيلة، بالقرب من مدينة مودونيا^(٥٠).

والتي لانعرف موقعها بالتحديد. وفي الصيف التالي كان الدور على الجنرال الأموي اسحق بن محمد القرشي ليخرج كي يضع حداً لأطماع ملك ليون في الهجوم على الأراضي المسلمة، والذي عاد مرة أخرى يشن الحملات على الأراضي الواقعة تحت نفوذ الأمير، وهزمه، مما اضطره إلى الاسراع في الهرب^(٥١). وأما عبد الرحمن الثالث فلم يبد سرورا، مع هذا، بهذين الانتصارين؛ وحين أراد الانتقام المروع والذائع الصيت لتلك الكارثة التي تعرض لها جيشه في شنت إشتين دي غرماج والمهانة التي عومل بها جسد جنراله الوفي بن أبي عبدة، أمر بخروج جيش اختاره بعناية، يقوده هو شخصيا هذه المرة. كانت تلك الحملة الشهيرة التي عرفت بحملة مويث، وخرجت في صيف ٩٢٠ م (٣٠٨ هـ) وجاءت أخبارها إلينا عبر الرواية المفصلة، التي وصلتنا، من جانب المؤرخ «أريب بن سعد» ورواية أخرى، موسعة كذلك، تظهر ضمن صفحات «تاريخ الناصر».

كان خروجها من قرطبة في الخامس من يونيو (١٢ محرم). سار عبد الرحمن الثالث عبر طريق طليطلة، وبعد مدة من السير خاض نهر وادي أنة^(٥٢). وتلقى الأمير هناك خبرا كان بمثابة فآل حسن للحملة التي بدأها، حيث حمل إلى حاكم وادي الحجارة نبأ هزيمة حملة خرجت من ليون، هزيمة فادحة، في الوقت الذي أغارت فيه على وادي الحجارة وقلعة مسلمة مجاورة، قلعة القليّة Qulaya^(٥٣)، وأن الجانب المسيحي قد تكبد خسائر جسيمة في هذه الحملة. وما أن وصل الأمير عبد الرحمن إلى أجوار طليطلة، حتى تلقى، كما ذكرنا^(٥٤)، التكريم من حاكمها المحلي، لوبي بن طرييشة، ثم تابع سيره صوب الشرق، طريق وادي الحجارة، وبعدها إلى مدينة سالم، كمن يريد أن يعطى انطبعا بأُن حملته تهدف إلى الاستيلاء على نابارا، ومازاد الأمر عن كونه مجرد حيلة. ومن مدينة سالم اتجه نحو الغرب، حتى وصل بصعوبة بالغة إلى الحدود الجنوبية لألبّة Alava، ثم دخل وخشمة، دون أن يعير انتباها للسلام المقترح عليه من جانب سيدها المسيحي، دخلها في هدوء، فما تمكن سكانها من اخلائها حين رأوا طلائع الجيوش الأموية تظهر تباعا. وبعد سلب المدينة وحرقها، قام عبد الرحمن الثالث، في اليوم التالي (٩ يوليو - ١٨ صفر) - بمهاجمة الموقع الاستراتيجي الهام الواقع على الجانب الأيمن لنهر الدويرة، المعروف باسم شنت إشتين دي غرماج، وشهدت أسواره موت ابن أبي عبدة وعدد كبير من المسلمين. استولى عبد الرحمن الثالث على القلعة دون أدنى صعوبة، بعد أن فرت حاميتها المسيحية، وقام هو بسحق دفاعاتها الرئيسية الموجودة بها^(٥٥). وسارت الجيوش المسلمة في حملة أخرى صوب الشمال من النهر المذكور مما جعلها تتمكن من سلب ونهب الاقليم حتى المدينة

الرومانية القديمة كلونيا^(٥٦)، القريبة من المدينة الحديثة المعروفة باسم كورونيا ديل كوندى. وما وجد المسلمون هناك مقاومة تذكر : فحيثما تقدمت وجدت الطريق أمامها خاليا. أصبحت كل الحصون الموجودة بهذا الأقاليم مسلوية ومهدمة، بالإضافة إلى الكنائس والأديرة، وهكذا فقد قام الأمير عبد الرحمن بالانتقام للكارثة التي وقعت عام ٩١٧ بمقادير فاقت جميع الحسابات المتفائلة.

ومع كل هذا، فما رغب عبد الرحمن الثالث فى إنهاء هذه الحملة، التى لم تكلفه خسائر تذكر فى الأرواح، فعاود الهجوم على نبرة، عازما مواجهة الملك سانشو، عاهل بنبلونة، الذى لم يتوقف عند زعزعة الأمن والراحة بين المسلمين فى ريوخا، ومهاجمته فى المناطق المجاورة لعاصمته. كانت تطيلة واقعة تحت إمرة بنى قسى. حيث كان يحكمها محمد بن عبد الله بن لوبى، أحد آخر أفرادها الذين حفظ التاريخ أسماءهم^(٥٧)؛ وقد تلقى هذا أمرا من الأمير ليخرج قاصدا قلعة كاركار باقليم نبرة للاستيلاء عليها، قلعة تقع على مسافة ٦٠ كيلومترا شمال غرب مدينته، بالقرب من ملتقى نهر إجه مع نهر إبره، وهكذا أدى مهمته دون أى صعوبة، بينما كان الأمير عبد الرحمن قد استولى على قلهرّة، على الشاطئ الآخر من النهر، وأجبر شانجة غرسية على حبس نفسه داخل أرنيديو، الواقعة على مسافة ١٥ كيلومترا فى الجنوب الشرقى. وما أن تلقى ملك نبرة نبأ خروج الأمير عبد الله فى الطريق متجها إلى بنبلونة حتى همّ بالرحيل صوب الشمال، وبعد لقاء بينه وبين طلائع الجيوش المسلمة، كانت الغلبة فيه للجانب المسلم، وهنا استطاع أن يجمع قواته إلى جانب قوات أوردونيو الثانى، الذى أتى لمساعدته. حاول سكان جبال ألبة (ولبة) والبشكنس عرقلة تقدم القوات المسلمة؛ ورغم ذلك كله، واصل عبد الرحمن الثالث زحفه إلى الأمام، تحدوه الرغبة فى أن يختبر قوته أمام قوة أعدائه فوق ميدان سهلى، وقد تمكن، حقا، دون خسائر كبيرة من تركيز قواته فى وادى خونكيرا، تبعا لما يذكر «السيلسنى»^(٥٨)، حيث هو المؤرخ الوحيد الذى يذكر لنا اسم هذا الوادى فى روايته الموجزة لهذه الحملة. كان الأمير الأموى ينتظر، فى ذلك المكان، فى رباطة جأش جيوش نبرة وليون، فألحق بها هزيمة نكراء، ربما لم تكن لها سابقة فى حويلات إسبانيا المسيحية منذ فترة الفتح العربى. فقد وقع عدد كبير من النبلاء فى أيديهم، هذا إلى جانب اثنين من الأساقفة هما : دولثيديو من شلمنقة وإرموخيو من توى، حيث كانا فى هذه المرة يحملان السلاح، وحملتا أسيرين إلى قرطبة^(٥٩).

كان ذلك النصر الذى حققه عبد الرحمن الثالث فى خونكيرا، فى ٢٦ يوليو عام ٩٢٠م (٦ ربيع الأول ٣٠٨هـ) ذائعا ومدويا، وفى اليوم التالى له، لم يرد عبد الرحمن

الثالث أن يدع فرصة للهاريين الذين تجمعوا بقلعة مويث المجاورة لالتقاط أنفاسهم (٦٠). فتوجه إليهم ليهاجمهم، وفي التاسع والعشرين من نفس الشهر، غدت القلعة كاملة في قبضة يده، وقتل عدد كبير من فرسانها ونبلائها يقدر بنحو خمسمائة فرد. كما استولى المسلمون أيضا على قلعة أخرى، هي بيجوريا (٦١)، على مسافة فرسخ من جهة الشرق. ظل أمير قرطبة يتابع على مدى ثلاثة أسابيع أعمال السلب والنهب التي أتت على كل ما شملته أراضى نبرة الوطينة، رغم عدم قيامه بالهجوم على بنبلونة؛ ودون أن يصدر أمرا بانسحاب القوات حتى السادس عشر من أغسطس (٢٦ ربيع الأول). تابع سيره على الشاطئ الأيسر لنهر الدويرة، فمر بأنتيسة ثم عاد إلى قرطبة في أوائل سبتمبر، بعد غياب دام ثلاثة أشهر.

عملت حملة «مويث» على رفعة شأن الأمير عبد الرحمن الثالث بطريقة متفردة ومتميزة؛ ولكن على الرغم من هذا، لم يكن الأمير مسرورا غاية السرور. فما كان يطمح إليه هو الخروج إلى نبرة ليلحق الاهانة بملكها في عقر عاصمته، في أقرب فرصة تعين له بعد إحراز تقدم في عملية إحلال السلام بالأندلس. فقد كانت كراهيته للملك أورديونيو الثاني، ملك ليون، تنبع من إعجابه بعض الشيء بشجاعته في القتال وأصالته منبته، بينما لم يكن يشعر تجاه سانشو الأول، ملك نبرة إلا بالإزدراء. ولو لم يترك لهما الفرصة لتكوين حلف ضده، لأصبحا بمثابة الخطر الذي يهدد مملكته، ولهذا فقد أصبح من الملائم بالنسبة له أن يقوم بسحقهما كل على حدة، في الوقت المناسب، غير البعيد. وفي عام ٩٢١ م (٣٠٩ هـ)، حسب ما يذكره المؤرخ سامبيرو - تمكن أورديونيو الثاني من التوغل كثيرا في الأراضى المسلمة، دون أن ترد حكومة قرطبة على غاراته تلك. وبعد هذا بعامين، استولى ملك أستوريش وليون على ناجرة، بينما قام خليفة سانشو الأول بمهاجمة آخر أمراء بنى قسي، في قلعة بيجيرا (٦٢). وهنا نفذ صبر الأمير عبد الرحمن وقرر، دون ما تأخير، أن يقود بنفسه «حملة بنبلونة»، التي خرجت في ربيع عام ٩٢٤ م (٣١٢ هـ)، وما إن عزم على الخروج لمعاقبة ملك انبرة في عقر داره، حتى علم بأن أورديونيو الثاني قد وافته المنية في ليون بسبب مرض خطير، تاركا وراءه من يخلفه، إنه أخوه الضعيف فرويلا الثاني، الذي كان أضعف من أن يمثل خطرا على الأراضى الأندلسية.

وكذلك فقد كانت «حملة بنبلونة» هدفا لرواية مفصلة من جانب المؤرخ «أريب بن سعد» الذي أوضح لنا مراحلها المختلفة بعناية فائقة، الأمر الذي يعطينا على متابعتها بسهولة على الخريطة، ومتابعة طريق الجيوش الأموية عبر انبرة، خرج عبد الرحمن الثالث من عاصمته في السابع والعشرين من أبريل عام ٩٢٤ م (١٦ محرم ٣١٢ هـ)

متجها إلى تودمير (فى مرسية) وبلنسية، حتى يخضع آخر المتمردين الذين رفضوا الاعتراف له بالسلطان. ثم تابع سيره مباشرة تجاه تطيلة. وفى العاشر من يوليو (٤ من ربيع الثانى) عبر نهر إبره ثم توغل بقواته فى الاقليم. بدأ أعماله الحربية بسحق وإحراق ما استطاع من مواقع استراتيجية، تمكنت القوات من خلالها من السيطرة على طريق بنبلونة، فى الوقت الذى أخلتها فيه حاميتها حين رأت عبد الرحمن الثالث يقترب منها؛ لم تكن تلك القلاع بعيدة عن نهر إبره. مثل قلعة كاركار وبيرالقا وفاليتس، هذا إلى جانب تلك التى وجدت فى الشمال الشرقى مثل قلاع تافايا وكاركاسيتو. وعبر هذه القلعة الأخير صعد الجيش المسلم عن طريق وادى نهر رغون، ثم اجتاز فى نظام دقيق المضيق المعروف باسم فوت دى لومبيير، ووصل من خلاله إلى وادى نهر إيراتى Irati. كان اشانجة غرسية الأول ينتظر القوات المسلمة على الجانب الآخر، تصحبه قواته بالاضافة إلى فيالق أخرى كان قد طلبها على جناح السرعة من أهالى ليون. وقعت بين الطرفين معركة حاسمة، كانت الغلبة فيها للجيش المسلم، وبهذا انهزم ملك ليون للمرة الثانية واضطر إلى الهرب، تاركا الطريق إلى بنبلونة ممهدا وخاليا. وبهذه الطريقة، وصل عبد الرحمن الثالث، عبر لومبيير وليثوائين إلى مداخل عاصمة البشكنس، فأخلاها سكانها بسرعة. وقعت القلعة فى أيذى المسلمين، نهبت أحيائها عن آخرها. لم يستثن من ذلك أى شئ، بما فى ذلك كنيسة المدينة (الكاتدرائية)، المعبد الشهير الذى كان يقصده عدد هائل من الأجانب المؤمنين لأداء مناسك الحج، وهاهى قد أضحت وقودا للنار. ولما لم يكن عبد الرحمن الثالث مغتبطا بما وجهه من ضربة قاسية لسانشو الأول فى مقر مملكته، قرر مواصلة المسير صوب الشمال وإنزال الدمار بالقلعة المسلمة القديمة، صخرة قيس، والتى، مما لاشك فيه، أنها أوراتى أراكيل الحالية^(٦٣). وما إن وصلها دون عراقيل أو مضايقات، حتى أضرم النيران فى كنائسها وأديرتها، وشتت سكان المناطق الجبلية مرة أخرى، الذين جندهم اشانجة غرسية لصفوفه، حيث كانوا يعتزمون الوقوف فى طريق تقدم القوات المسلمة. وهنا أدرك عبد الرحمن الثالث أنه قد حقق هدفه على أوسع نطاق، وفى فترات وجيزة، عاد إلى الشواطئ الجنوبية لنهر الإبره فى قلهرة، بعد أن اجتاز أولا إتشاوردى، فى مصب مضيق عرضى، ثم اجتاز بعد ذلك مانبيرو. ومن قلهرة التف عبر فاليثيرا، ثم وصل إلى تطيلة فى الأول من أغسطس (٢٦ ربيع الثانى). وهاهو يصل إلى قرطبة بعد خمسة وعشرين يوما، بعد أن طالب، مرورا باقليم اشنت برية، بإخضاع منطقتين تابعتين لبنى ذى النون، لم يتضح موقفهما بعد : الأولى ليحيى بن موسى والثانية لابن أخيه يحيى بن الفتح بن موسى^(٦٤).

وبهذا التنكيل الذى ألحقه عبد الرحمن الثالث ابشانجة غرسيه تم وضع نهاية لأول سلسلة من الحملات المكثفة التى بدأت ضد أقاليم المسيحيين فى إسبانيا، أثناء الفترة الطويلة التى استغرقها عهد هذا العاهل. وهكذا، أعلنت ليون وبنبلونة استسلامهما أمام الحقيقة القائلة بأن الوضع قد تغير تماما وأنه لم تعد هناك إمكانية لأى نوع من المغامرات ولا لأعمال هجومية على الحدود الخاضعة للدولة المسلمة. ولهذا، وعلى مدى السبع سنوات التالية، أو بمعنى آخر، حتى مجيئ ملك ليون راميرو الثانى، لم تكن هناك أدنى محاولات تذكر من شأنها أن تنقص الهدوء الذى بدأت تنعم به حدود المناطق الخاضعة للأمير المسلم. وعلى جانب آخر منها، بدأت تتطور مجموعة من الأحداث جعلت عبد الرحمن الثالث يرقبها بإيجابية شديدة ومطلقة، ومن الملائم أن نشير إليها بإيجاز شديد، وخاصة أن المصادر العربية هى التى ساهمت إلى حد كبير فى فك عقدها المتشابكة.

تحدثنا آنفا، عن أن عبد الرحمن الثالث، قبل أن يشرع فى حملته الموفقة على بنبلونة، تلقى نبأ وفاة أورونيو الثانى وكذلك وصول أخيه فرويلا الثانى للحكم. لم تدم مدة حكم هذا الأخير لأكثر من عام واحد، دون أن يبدي أية محاولة للإغارة على الحدود الإسلامية، جاعلا كل همه تزويد سانشو الأول ببعض الإمدادات. وما إن هاجمه مرض الجذام حتى وافته المنية، حسب ما يذكر ابن حيان^(٦٥)، عام ٩٢٥ م (٣١٣هـ). وتبعها لما يذكره ابن حزم^(٦٦)، فقد تزوج بامرأة من البيت الحاكم لأسرة بنى قسى، تدعى أورآكا، والتى أنجب منها ولدين هما : راميرو وأورونيو؛ ولكنهما لم يصلا قط لخلافة والدهما، فحسب المعلومات التى زودنا بها المؤرخ الأسباني المسلم (ابن حزم)، نعلم أن العرش فى أشتوريش وليون قد انتقل من فرويلا الثانى، الذى نازعه أخوه سانشو ملكه، والذى بعد أن ارتدى تاج الملكية فى شنت ياقب، قدم ليستولى على عاصمة ليون، وأما ألفونسو الرابع فقد حاول، بموافقة ابن عمه ألفونسو، بن فرويلا الثانى ومونيلونا، وبموافقة ملك نبرة سانشو الأول، الذى تزوج لتوه من ابنته إنييجا، بعد عامين، استعادة العرش المفقود. ورغم هزيمته من جانب سانشو فى بداية الأمر، إلا أن ألفونسو الرابع قد تمكن من طرد منافسه من ليون، واضطره إلى اللجوء إلى جليقية. وفى عام ٩٢٨ م أصبح ملكا متوجا على مملكته مرة أخرى؛ إلا أن سانشو قد احتفظ، مع هذا بحكم جليقية حكما مستقلا حتى وفاته، التى وقعت بعد قليل، فى أوائل صيف عام ٩٢٩ م. وفى غضون ذلك، عام ٩٢٦ م، توفى أيضا عاهل بنبلونة، شانجة غرسيه الأول، صهر ألفونسو الرابع ملك ليون، وخلفه ابنه، الصغير، جارشيا سانشيس الأول، وظل يحكم

حتى عام ٩٧٠م، حكم فى البداية تحت وصاية عمه خيمينو جارتيس وأمه، الملكة تودا^(٦٧)، والتي ستتحدث عنها بإسهاب فيما بعد.

وكذلك فإن معرفتنا بالظروف التى أحاطت بوصول راميرو الثانى إلى العرش، بعد خلافته لألفونسو الرابع ملك ليون، يرجع الفضل فيها إلى ابن حيان، إذ لم يشر إليها المؤرخ المسيحي سامبيرو، فى الواقع، إلا فى القليل النادر^(٦٨). وبعد سبع سنوات من الحكم، فى عام ٩٣١م، قرر ألفونسو الرابع، بسبب وفاة زوجته، أن ينخرط فى سلك الرهبنة، وأن يفرض على نفسه عزلة صارمه داخل معبد ساجون، مما جعله يتنازل عن العرش لأخيه الأصغر راميرو، الذى قدم من بيسيو، مقر إقامته، ليتولى مهام العرش فى أشتوريش وليون. ولم يكد يمر سوى زمن قليل حتى غير ألفونسو الرابع رأيه وأعلن عودته لتولى مهام العرش الملكى فى شنت منكش. إلا أن الرهبان وجهوا إليه انتقادات لاذعة مما اضطره فى النهاية إلى العودة إلى سلك الرهبنة، ولوقت وجيز أيضا. فما إن علم بأن أخاه راميرو الثانى قد هب لنجدة أهالى طليطلة، المحاصرين بقوات عبد الرحمن الثالث^(٦٩)، حتى خرج يطلب فرض سيطرته على ليون. والآن : لم يترك فرصة لأخيه حتى يخدعه، وقرر العودة إلى عاصمته ففرض الحصار عليها، حتى استعادها لنفسه وزج بألفونسو الرابع (الراهب) فى السجن.

جرت هذه الأحداث عام ٩٣٢م (٣٢٠هـ). وبعد قليل، قام راميرو الثانى بحرمان أخيه من نعمة البصر، فسحل عينيه، وثلاثة من أبناء فرويلا الثانى - ألفونسو وراميرو وأوردونيو - الذين وقفوا إلى جانب ألفونسو الرابع واعتبرهم راميرو الثانى خطرا على عرشه.

دامت هذه الحرب الأهلية سبعة أعوام كاملة، وكان عبد الرحمن الثالث أول من تهلل لنشوبها، كما فرح بالاختفاء الذى أتى فى حينه لعاهل بنبلونة سانشوجارتيس الأول، الذى لقب أحيانا بسانشو الأكبر. بعد هذا الصراع الطويل مع ليون على جانب حدوده الشمالية، وقعت هدنة لأمد طويل، مكنته من أن يوجه اهتمامه إلى مهام سياسية أخرى إكمال النظام الإدارى والعسكرى لدويلاته.

ومع راميرو الثانى بدأ الوضع يتغير بصورة جذرية. وكان الامبراطور والملك العظيم^(٧٠)، يتحسس من أرض ليون أدق أعمال راميرو الثانى، فوجد فيه عدواً حازماً يعى واجباته تماماً، كأمر مسيحي، ألا وهو عداوته للإسلام. وهكذا فقد بات من

الضرورى أن تقع المواجهة بين هذا البطل النشيط المتزعم حرب الاسترداد الاسبانية وبين زعيم الجهاد فى الغرب الاسلامى، وعلى أثر هذا النزال تتجمع لديهما تجربة فعلية، وخاصة الطرف الثانى، حول التغيير الكبير الذى يعترى لغة السلاح دائما.

قرطبة وليون أثناء حكم راميرو الثانى (٩٣٢ - ٩٥٠) كارثة الخندق فى شنت منكش :

فى الرواية التى يذكرها تفصيلا أريب بن سعد عن فترة حكم عبد الرحمن الثالث نلحظ صمتا ذا مغزى بين عامى ٣١٢ و ٣١٩ للهجرة، حيث يشير فقط إلى علاقات مملكة قرطبة بالممالك المعاصرة فى ليون وبنبلونة. وإذا ما أقدم مؤرخ، اعتاد أن يسهب فى رواياته، على التزام الصمت بهذه الطريقة فيما يتعلق بالنشاط العسكرى للخليفة ضد مسيحي الشمال، خلال الفترة التابعة تحديدا للنصف الأول لعهد راميرو الثانى، فإن هذا، بما لا يدع مجالا للشك، يرجع إلى أنه لم يكن قد راقه تسجيل بعض حالات الفشل التى واجهت قرطبة. وكذلك، فإن المؤلف التالى له، ابن عذارى، الذى يعتمد تمام الاعتماد على رواية أريب، قد حذا حذوه. وبالنسبة للجزء الذى عثر عليه ويتعلق بـ «تاريخ الأندلس فى عهد الناصر» لا يصل، للأسف، إلى أبعد من عام ٣١٨هـ. ولهذا فما يتبقى لنا، لكى نكمل المصادر المسيحية، وخاصة الرواية التى يوردها سامبيرو بإيجاز - إلا مختصرات ابن حيان التى حفظتها لنا أعمال ابن الخطيب وابن خلدون. وكان علينا أن ننتظر، مع هذا، إلى أن يظهر النص الكامل لمؤرخ قرطبة العظيم - واذى سيكون، كما هى العادة، دراسة موضوعية غير متحيزة - فى يوم مجيد بمراكش، مثلما حدث بالنسبة لنصوص أخرى ظهرت منذ عشرين عاما. ولكن، علينا أن نعلن عن فرحنا، فى الوقت الراهن، يمثل هذه الوثيقة العربية التى نتحدث عن هذه الفترة الموجيزة، وثيقة تحمل معلومات لاتجعلها تحسد المصادر اللاتينية الاسبانية على شئ يذكر.

وإذا صدقنا رواية سامبيرو، فإن راميرو الثانى قد بدأ مدة حكمه بالاستيلاء على قلعة مدريد المسلمة. ومن المؤكد أن ملك ليون قد أحكم قبضته على هذا الموقع الحدودى الهام وهو فى طريقة إلى طليطلة يمد لها يد العون^(٧٢). وفى العام التالى، عام ٩٣٣م (٣٢١هـ)، ألحق هزيمة نكراء بجيوش عبد الرحمن الثالث والتى كانت فى طريقها للاستيلاء على وخشمة Osma : فما أن علم بتقدم تلك القوات عن طريق كونت قشتاله فردلند القومس هذه المدينة ثم شنت شملهم، وأسر منهم آلاف الرجال^(٧٣).

وعلى النقيض من ذلك، فقد كانت صائفة عام ٩٢٤م (٣٢٢هـ)، حسب ما يذكر ابن خلدون، سلسلة من النجاحات بالنسبة للقوات المسلمة. فيها هو عبد الرحمن الثالث يقدم على حصار راميرو الثاني في وخشمة، والتي لم يخرج منها ملك ليون لينازل المسلمين في المعركة التي فرضت عليه. واصل الخليفة الأموي حصار المدينة ثم ذهب ليهدم برغش Burgos بالإضافة إلى عدة قلاع أخرى. وربما وقعت، خلال الحملة على قشتالة، مذبحة راح ضحيتها مائتي راهب في سان بدرو دي كار دينيا، الدير الشهير الواقع على مسافة بضعة كيلومترات شرق برغش، وهو المكان الذي وارى جثمان البطل المعروف باسم «السيد» وجثمان زوجته خيمينيا (٧٤).

وقد شهد العام نفسه مفاوضات بين راميرو الثاني وحاكم سرقسطة العربي، الذي كان، إذ ذاك، ومنذ موت والده هاشم، حفيد التوجيبي الأنقر، أبو يحيى (٧٥). وتبعاً لما تذكره الروايات المسيحية، فإن أبا يحيى هذا قد أجرى دراسة وافية للموقف، أينحاز إلى عاهل ليون وأشتوريش أم إلى راعي قرطبة، وتوصل في النهاية إلى اتخاذ قرار بالانضمام إلى الأول. وهكذا، عندما طلب منه عبد الرحمن الثالث الحضور إلى جانبه في الحملة التي خرجت قاصدة وخشمة، رفض أن يجيبه إلى طلبه في البداية، على الرغم من أنه، بعد ذلك، رأى أن الوقت مازال مبكراً لإعلان مثل هذا التمرد، فقرر المشاركة في الصائفة. ومنحه الخليفة الأموي لاحقاً، وبدون أدنى صعوبة، الإذن بالعودة إلى سرقسطة. وبعد هذا بثلاثة أعوام، في ٩٢٧م (٣٢٥هـ)، أثمرت الضغوط التي مارسها راميرو الثاني حول الشكوك الأخيرة لحمد بن هاشم، واعترف هذا الأخير له بولايته على العرش. وفي سرقسطة، أحدث هذا الموقف ردود فعل قوية من جانب السادة العرب الذين أحاطوا بالتوجيبي؛ ولكن ملك ليون قدم له عوته ثم استولى على القلاع الموالية للثغر، ثم أعادها إلى حليفه العربي. وفي الوقت نفسه تم توقيع حلف ثلاثي بين ليون وسرقسطة ونبرة.

أما عبد الرحمن الثالث فلم يكن يسمح بمثل هذه الأمور، فقرر الخروج الحصار سرقسطة واستردادها. خرج على رأس جيش عظيم متوجهاً إلى الثغر، فرفض الحصار في المقام الأول على قلعة أيوب، حيث كانت تدافع عنها حامية مسلمة، تفوز بها قوات من ولبة أرسلها راميرو الثاني، يقودها قريب لأبي يحيى محمد بن هاشم، المدعو المطرف بن منذر التوجيبي. وألقى هذا الجنرال حتفه ذات مرة خرج فيها ينشد رفع الحصار. خلفه أخوه الحكم، الذي انتهى به الأمر إلى إجراء مفاوضات مع القوات المحاصرة، التي أمنت له حياته وحياته رجال الحامية المسلمة، دون الحفاظ على حياة العسكر

القادمين من ولبية، حيث أعمل السلاح فيهم. وما أن وقع حصن قلعة أيوب في قبضة الناصر، حتى أصبح يفرض سلطانه على مايقرب من ثلاثين قلعة في أراضي سرقسطة، بينما الحصار مايزال مفروضا على العاصمة نفسها بواسطة قوات يرأسها قريب للخليفة، يدعى أحمد ابن اسحق القرشي، الذي أبان في هذه المناسبة عن عجزه، مما اضطر الأمير، الذي لم تكن تعوزه الأسباب الأخرى الدافعة إلى فقدانه الثقة في شخص قريبه، إلى عزله واستبداله. وبعد حصار محكم، اضطرت سرقسطة إلى الاستسلام. ومع هذا، فقد عفى عبد الرحمن الثالث عن أبي يحيى، ولم يكن هذا العفو صادرا عن رصانة سياسية وإنما عن رغبة الخليفة في أن يبدو رحيمًا مع متمرّد نادم مازال بإمكانه أن يقدم للخليفة خدمات نافعة. وأخيرا وحسب ماتذكر الإشارة الموجزة التي يوردها ابن خلدون، فإن الخليفة قد انتهز فرصة تجمع جيوشه في الأراضي الأراجونية ليخرج لمهاجمة الملكة تودا الوصية على عرش نبرة في عقر دارها، وليحصل منها على اعتراف له بولايته على العرش. مثل هذا الانعاع، إذا كان قد شهد النور يوما ما في ذلك الوقت، لم يدم طويلا، حيث واصلت الملكة تودا الصراع، بعد ذلك بغامين، إلى جانب راميرو الثاني ضد العاهل المسلم وساهمت بدور كبير في الهزيمة التي ألحقها به ملك ليون وأشتوريش (٧٧).

في عام ٩٣٩م عانى الخليفة عبد الرحمن الثالث (الناصر)، حقا، أعظم فشل على مدى عهده الطويل. وكان للصمت الذي التزمته الروايات التاريخية العربية بشأن هذا الفشل أثره في أن اقتصر مؤرخو إسبانيا في فترة العصور الوسطى على رواية مطولة بعض الشيء عن هذه الحملة، التي كانت بمثابة مأساة بالنسبة للجيش العربي الأموي. ولهذا فقد رأى مؤرخ مثل دوزي نفسه مضطرا لأن يربط بين هذا الفشل المأساوي للخليفة المسلم وبين ماكان يمارسه عليه من تأثير أولئك الاسلاميون من بطانته في قرطبة (٧٨). ومما لاشك فيه، فإن مثل هذا التأكيد يحمل شيئا؛ إلا أنه ليس بالكثير الذي يفسر تماما الكارثة التي تعرضت لها قوات الخليفة المسلم، والذي كان هو نفسه السبب الرئيسي في وقوعها، إذ يبدو أنه بالغ كثيرا في تقديره لإمكاناته الخاصة وخط بدرجة كبيرة من إمكانيات القوة المعادية له. وإلى جانب ذلك، يجب أن نضيف إلى النصوص المستخدمة حتى هذه اللحظة نصا آخر، والذي ربما يكون أهمها بالنسبة لهذا الموضوع : إنه النص الذي يورده ابن الخطيب في كتابه «أعمال الأعلام». لم يكن دوزي يعلم شيئا عن هذا المؤلف للمؤرخ الغرناطي، ولكن مدرسة التاريخ والاستشراق بمدريد، والتي استفادت منه فيما بعد بدرجة وفيرة ومفيدة، لم تتوقف أمام مثل هذه

الرواية حول صائفة عام ٣٢٧، التي وردت فيه، ومن البديهي أن تكون صادرة عن ابن حيان. لنرى، إذن، ماذا حدث.

قام عبد الرحمن بتنظيم حملة ذاك العام، والتي كان يعتبرها، في رأيه، الحملة الحاسمة، مما جعل يطلق عليها اسم «الحملة الجبارة» أو «القادرة»، لتكون شاهدا على رغبته المتعالية في إخضاع جيرانه من المسيحيين الأسبان إلى الأبد. كان لطلبه أن يلتزم الناس بالتجنيد السنوي العادي، إلى جانب تقديم دفعة أخرى عن موعدها أن تجمع لديه ما يقرب من ١٠٠٠٠٠ مجند؛ إلا أنه لم يكن قد حدث بينهم التجانس التام. وكما كانت هي عادة تلك الفترة، سلكت القوات المسلمة طريقها عبر أراضي ليون متخذة الطريق الرومانية الممتدة من قرطبة عبر طليطلة تجاه وادي نهر الدويرة^(٧٩). وفي نهايات شهر يوليو (أوائل شوال) وصلت القوات أمام شنت منكش، حيث كان بانتظارها راميرو الثاني بقواته الخاصة إلى جانب القوات التي تجمعت معه من قشتالة ونبرة التابعة لفروند القومس والملكة تودا. ولم تسفر المعركة التي وقعت بين الطرفين في الحال، واستمرت عدة أيام، عن نتائج مؤكدة، إلا أن المعلومات التي وردت في الأيام الأولى، أوضحت مدى الظروف العصيبة التي تحيط بالقوات المسلمة، على العكس من أعدائهم الذين بدت عليهم روح الميل إلى الهجوم والثبات في الميدان. وتبعاً لما كان سائداً من سياسة قتالية في العصور الوسطى، فإن الأعداء قد لجأوا إلى اتباع سياسة الكرّ والفرّ في المعركة أثناء النهار فقط، أما الليل فكان كل جانب ينسحب إلى معسكره. وما كان القتال الشديد يقع بين الطرفين إلا عندما يظهر التعب على أحدهما أو تنخفض الروح القتالية، أو حين ينكشف تماماً لعدوه، وكان مثل هذا الالتحام الشديد يعد الفيصل في حل النزاع. وهذا هو ما حدث أمام أسوار شنت منكش. فحين علم راميرو الثاني بأن جند الخليفة، الجيش النظامي، الذي كان يشغل القوة الأساسية في النزال، كانوا يقاتلون بحماس نسبي بعض الشيء، انطلق في وجههم وأجبرهم على الانسحاب، متوجهين إلى خندق كان قد أمر بحفره على مسافة معينة، حتى يكون مقبرة للجند الفارين، إذا ماتحقت له الغلبة عليهم. وبالفعل، نجحت خطته، حيث استسلم الفرسان المسلمون، الذين وجدوا أنفسهم أمام هذا العائق غير المنتظر، للموت بالآلاف. وهنا لجأ عبد الرحمن الثالث نفسه إلى الهرب تاركاً في معسكره نسخة من القرآن لاتقدر بثمن كان يحملها معه في جميع حملاته، هذا إلى جانب سترته الذهبية. وعلى الرغم من أن تلك الأشياء قد أعيدت إليه فيما بعد، إلا أن فقدانها كان يمثل بالنسبة له إهانة لامثيل لها.

كانت تلك المعركة التي عرفت باسم «معركة الخندق» بشنت منكش في الأول من أغسطس عام ٩٣٩م (١١ شوال عام ٣٢٧هـ). وفي هذا اليوم قام الخليفة المسلم، الذي

لم يتمكن من تبرير ذلك اللقب الذي أطلقه على نفسه وهو «الناصر» بتجميع بقايا قواته التى سحقت فى الميدان وقرر العودة إلى قرطبة. وقبل أن يصل إلى عاصمته، سبقته طلائع عهد إليها بأن تذيع على الأهالى بأنه مازال حيا ويتمتع بكامل صحته، وأن تنقل أوامره بضرورة تعليق المشانق على ضفاف نهر الوادى الكبير. وما إن وصل العاهل، حتى قام بصلب ثلاثمائة من ضباط الفرسان لخيانتهم وجبنهم فى المعركة، بينما نادى المنادون : «تلك هى عقوبة الذين خانوا الإسلام، وياعوا أوطانهم وشعوبهم، وغرسوا الخوف فى صفوف المقاتلين فى الحرب المقدسة»^(٨٠).

خصص المؤرخ دوزى، لما أسماه «معارك شنت منكش والخندق»، بضع صفحات، تعد، إلى الآن، ذات قيمة كبيرة. ودون أن يعتمد على النصوص العربية فقط^(٨١)، التى تحتوى على تلميحات موجزة عن الكارثة التى عاناها عبد الرحمن الثالث، فقد اعتمد على النص الهام الذى أورده سامبيرو^(٨٢). يروى سامبيرو وقائع النصر الذى حققه ملك أشتوريش وليون، ثم يتعرض للإجراءات التى اتخذها، بعد ذلك بشهرين، حتى يعمل على إعادة إعمار وادى «تورمس» فى إقليم شلمنقة، وذكر، إلى جانب شلمنقة، المدن التى كانت تحظى بوجود حامية ثابتة، مثل : ليديسما، لوس بانيوس، بتيا أوسنيدي، ومدينة أخرى تعرف باسم الخندق^(٨٣). وبناء على مثل هذا التلميح، سمح دوزى لنفسه لكى يؤكد بأن القوات المسلمة ظلت ملاحقة من قبل قوات راميرو الثانى إلى أن وصلت إلى مدينة الخندق هذه فى وادى نهر التورمس، أى، على مسافة بضعة كيلومترات على الأقل، وفى اتجاه لم يكن على الإطلاق يؤدى إلى قرطبة. ومن الواجب أن نرفض مثل هذا التفسير للأمور، هذا إلى جانب تفسير آخر، ظهر حديثا، والذي يحاول أن يجعل من الخندق المشار إليه هو نفسه مدينة ألابنديجو. والأمر الذى يجب الركون إليه هو أن سامبيرو قد خلط بين اسم مدينة «الخندق» الذى يعنى فى العربية هذا الاسم، وبين الخندق الدفاعى الذى تم حفره حول شنت منكش، وسقطت فيه قوات الفرسان الأموية، حسبما يذكر ذلك نصا المؤرخ ابن الخطيب، حين تابعتها أفراد الكتائب المسيحية الجسورة التابعة لملك ليون وأشتوريش.

وأيّا كان الأمر، فإن الضربة التى تلقاها الجانب المسلم كانت قاسية ومؤلمة وخاصة لما كان يحظى به العاهل الأموى من مكانة رفيعة. وقد وقع أبو يحيى محمد بن هاشم فى الأسر، وأمر راميرو الثانى، الذى لم يغفر له تقديمه يد العون والترحيب بالخليفة المسلم حين قدم لتحرير عاصمة الثغر الأعلى، بإيداعه السجن فى ليون، والذي ظل به طيلة عامين قبل أن ينال حريته مرة أخرى. وقد أقسم عبد الرحمن الثالث

ليأخذن بثأره، ولكنه، عاد وفكر فى الأمر ثانية، فرأى أنه لايجب، مثلما دأب على ذلك منذ اليوم الأول لعهد، أن يعرض شخصه لما قد تسفر عنه نتائج الحرب من سلبيات وأن يجعل نفسه على رأس الحملات الصيفية وغيرها، فعهد بقيادتها منذ ذلك الحين إلى أحد قواده وجترالاته. ومن جانبه، فقد كسب عاهل ليون بانتصاره ذائع الصيت على المسلمين سمعة فاقت حدود مملكته. ويذكر المؤرخ سانت جال، فى كتابه، المؤلف عام ٩٥٦م، أن الملكة تودا قد اشتركت شخصيا فى معركة شنت منكش على رأس قواتها من سكان جبال البشكنس. كما يذكر القس لويتبراندو فى مؤلفه، الذى كتبه فى فرانكفورت عام ٩٥٨م، النجاح الذى حققه راميرو الثانى (٨٤).

أحدث هذا النجاح إنطبعا حيا داخل الأوساط الملكية فى أوروبا الغربية، رغم أن عبد الرحمن الثالث قد محاه دون مجهود كبير.

وبعد شنت منكش، بدى راميرو الثانى، حقا، وعلى العكس مما كان منتظرا منه، أقل تطلعا للهجوم على المملكة الاسبانية - الأموية، إذا كان لزاما عليه أن يواجه الأحداث الداخية التى تهدد عرشه هو، وأفرزها النشاط البدائى لكونت قشتالة فردلند القومس. كان هذا السيد، الذى خلّده الشعر الاسباني القديم وحصد، عن جدارة، جانبا كبيرا من أوسمة الانتصار المسيحى فى عام ٩٣٩م، ابنا للكونت جونثالو نونيث وكان ينحدر من أصل عائلى يتصل بقاضى قشتالة المدعو نونيو راسورا. كان يقيم بصفة دائمة فى بوروجوس وحكم، باسم عاهل ليون وأشتوريش، أراضى قشتالة وولبة. ومنذ الوقت الذى أذاع فيه إنذار التهديد المسلم لمدينة وخشمة فى عام ٩٣٣م (٣٢١هـ)، ظل يشارك فى كل المعارك التى نشبت ضد قوات عبد الرحمن الثالث. وفى عام ٩٤٠م، بعد معركة شنت منكش بعام واحد، عمل على إعادة إعمار المدينة المعروفة باسم سيبولبيدة. رأى فى ذلك الوقت أنه لم يتأخر بعد فى الانتقام من أربعة من أقاربه، الذين قام أوردونيو الثانى باعدامهم قبل قليل فى ليون، بعد أن استقدمهم إلى ناجرة، ليستوضح منهم موقفهم الخاطى، وبعد ذلك أعلن تمرده على ملك ليون راميرو الثانى. لم يتردد هذا الأخير فى محاربته، حتى أمسك به وأودعه السجن فى ليون، وجعل على قشتالة أسور فيرنانديث، أحد رجالات ليون المشهورين، بدلا منه (٩٤٣م). مر وقت قبل أن يقرر راميرو الثانى، أمام تهديدات أصحاب قشتالة الذين ظلوا على وفائهم لما كانوا يسمونه بالبطل الوطنى، إطلاق سراح فردلند القومس، وجعله على رأسهم، شريطة أن

يعلن الكونت تخليه عن أملاكه الخاصة، وأن يقسم له يمين الولاء، وأن يزوّج ابنته أورّاكا لابنه الوريث، الذي سيكون وريثاً للعرش مستقبلاً، أوردونيو الثالث. عملت هذه الشروط على توسيع الهوة بين ليون وقشتالة، حتى وضعت قشتالة حداً لهذا الشقاق. ولهذا فقد كانت مدرسة التاريخ الأسبانية الحديثة محقة في أن جعلت من فردلند القومس البطل الأول لعملية استقلال قشتالة^(٨٥).

أدى غياب قوات قشتالة في الحملات إلى حرمان راميرو الثاني من كثير من وسائله الحربية، ولهذا أصبح دوره قاصراً، في وقت مبكر، على الدفاع فقط. انتهز عبد الرحمن الثالث هذه الظروف. وفي العام نفسه الذي شهد كارثة شنت منكش، كلف جنراله أحمد بن يعلى بالاغارة على حدود ليون. هذا بالإضافة إلى بعض العمليات الأخرى من هذا القبيل في وقت لاحق، دون أن تكون لها أضرار في الجانب الأندلسي، الذي حقق نجاحات مؤقتة في بعض الأحيان. وفي عام ٩٤٤م (٣٣٢هـ) قاد الجنرال أحمد بن محمد بن إلياس المعسكر العام للثغر الأوسط من طليطلة إلى مدينة سالم^(٨٦). وذلك بعد أن أدى غالب، أحد موالى الناصر، المهمة التي أوكلت إليه ببناء القلعة القديمة، والتي لم تستضف منذ وقت طويل أية حامية مسلمة، كما انتهى من إعادة إعمارها بنفس الطريقة التي كان يتبعها أهالي ليون في إعمار قلاعهم الواقعة على الخطوط الاستراتيجية لنهرى الدويرة والترمس. وبهذه القلعة الجديدة، التي علت في الهواء كحارس على واجهة قشتالة، بدأ المسلمون يتمتعون، من الآن فصاعداً، لخدمة عملياتهم ضد أسبانيا المسيحية، بقاعدة متطورة، وكانت في فترة المنصور ابن أبي عامر تستحق الحديث عنها بإسهاب كبير. وفي العام التالي لتأسيس مدينة سالم، قام جنرال أموى آخر، يدعى قند، أحد الموالى^(٨٧)، بمغادرة طليطلة للإغارة على إقليم شلمنقة. وفي عام ٩٤٨ أو ٩٤٩م (٣٣٧هـ)، تمكنت صائفة مسلمة، في حملة جريئة، من التوغل بعمق في أراضي جليقية، ربما وصلت إلى أورتيجير^(٨٨). وفي شتاء عام ٩٥٠م (٣٣٩هـ) شن الجنرال أحمد بن يعلى هجوماً مفاجئاً في نفس الاتجاه واستولى على ثلاث قلاع - لاتعرف أسماءها، ثم حمل معه آلاف الأسرى.

لا يتحدث المؤرخون الأسبان عن هذه الحملات الهجومية المتعددة، بل ويتكلمون عن تحطيم راميرو الثاني، في نفس الفترة، لجيش أموى بالقرب من طلييرة، في وادي نهر التاجو. كان هذا الانتصار، على فرض حدوثه، آخر نصر له، حيث وافته المنية

بعدها بقليل، فى يناير عام ٩٥٠م (٩٥١هـ)، كما أوضح ذلك دوزى، معتمداً فى نفس الوقت على المعلومات التاريخية العربية والوثائق اللاتينية المعاصرة^(٨٩).

قرطبة ومملكتا ليون وبنبلونة فى السنوات الأخيرة لحكم الناصر ٩٥١-٩٦١:

عندما اختفى راميرو الثانى من الساحة الاسبانية، كان عبد الرحمن الثالث، عدوه وغريمه، فى أوج سلطانه. فقد قبع على قمة عرش الأندلس مايقرب من أربعين عاما وأطلق على نفسه أسمى الألقاب طيلة عشرين عاما، وماتجراً أسلافه على الإطلاق أن يتطلعوا إليها. لم يتوقف عبد الرحمن الثالث عن بذل جهوده ليحول شمال المغرب إلى اقليم تابع للامبراطورية الأموية - وفى نفس الوقت، ليجعلها ثغرا دفاعيا فى مواجهة النزوات العدوانية للفاطميين ولأتباعهم فى المغرب، لكن موت عدوه الجسور، ملك أشتوريش وليون، فتح أمامه آفاقا جديدة للجهاد المثمر. باتت خلافة العاهل المسيحى أمرا صعبا، ودب الخلاف بين ورثته - الأمر الذى يمكن تفسيره على أنه من تدبير العناية الإلهية - وكلها أمور دفعت بعبد الرحمن الثالث إلى تحقيق المزيد من الانتصارات.، وذلك حسبما يذكر أحد المؤرخين العرب^(٩٠).

أنجب راميرو الثانى من زواجه الأول بتاراسيا، المعروفة كذلك باسم فلو رنتينا، ولده، أوردونيو الثالث. تزوج بعد ذلك بأورآكا، ابنة سانشو جارشيس الأول، والملكة تودا (أخت وريث العرش على بنبلونة، جارشياسا نشيث الأول، كما أنجب ابنة أخرى هى أورآكا، متزوجة بالكونت القشتالى فردلند القومس) وقد أنجب راميرو الثانى من زواجه الأخير بأورآكا ولدا، هو سانشو الأول، الذى أصبح أميرا لأشتوريش وليون، وحفيدا للوصية بؤدا وابن أخ للملك جارشيا الأول، ملك بنبلونة، وكونت قشتالة فردلند القومس. وكان هذا الأخير، كما رأينا، صهرا لأوردونيو الثالث، الابن الأكبر لراميرو الثانى. وهكذا فقد حصل التشابك فى هذه القرابة بالإضافة إلى التعقيدات التى من الممكن أن تنجم عنه.

كان أوردونيو الثالث الابن الأكبر لأبيه، ومن أجل هذا أصبح هو المرشح لخلافة والده، وبالفعل، ملك عرش ليون إثر وفاة والده؛ وربما أن ذلك قد حدث حتى يصبح بإمكانه مواجهة التحالف الذى عقد العزم على هزيمته وتنصيب أخيه سانشو الأول مكانه. ولم يكن سانشو الأول الوحيد الذى مد يده لهذا التحالف، بل شاركته فى ذلك الملكة تودا، بوازع من اهتمامها بحفيدها، بالإضافة إلى الكونت فردلند القومس، الذى

كان شغوفاً بابن أخيه سانشو كتعبير عن احتقاره لأوردونيو الثالث، الذي وجد نفسه مضطراً لتزويجه ابنته أورাকা بعد أن أملى شروط الذلة والهوان^(٩١).

ومع كل هذا، تمكن أوردونيو الثالث من تحقيق النصر على هذا التحالف وهزيمة المتآمرين أمام سور ليون. ثم اضطر بعد ذلك للذهاب إلى جليقية ليطفى نيران التمرد هناك، وفي هذه الأثناء، لم يشأ عبد الرحمن الثالث أن يضيع الوقت، حيث وجد الفرصة ملائمة للإغارة على الأراضي التابعة لمملكة ليون. وقد تلقى القادة العسكريون في الثغور أمراً بضرب كل المواقع الحيوية على الحدود الأسبانية المسيحية. وفي عام ٩٥١ م (٣٤٠هـ) والعام الذي تلاه، حصد المسلمون نجاحات كبيرة في الأراضي المجاورة لجليقية، طلبيرة والثغر الأعلى. وفي ٩٥٣ م (٣٤٢هـ) شن الجنرالان أحمد بن يعلى وغالب حملات مثمرة، على أراضي جليقية، خاصة، أرسلوا على أثرها شحنات كاملة من الصلبان والأجراس إلى قرطبة، حيث استقبلت من جانب الأهالي بفرحة غامرة. وفي شهر يوليو عام ٩٥٥ (ربيع الأول ٣٤٤هـ) تجمع الضباط المسلمون القائمون على الحدود لمهاجمة أحد حصون قشتالة، فكبدوا العدو خسائر في الأرواح لا تقل عن مائة ألف قتيل، على الرغم من محاولة أوردونيو الثالث الرد على ذلك، فخرج وقد عزم على سلب ونهب لشبونة - بينما حقق صهره فردلند القومس نجاحاً بالقرب من سان إستيبان دي جورمات -، إلا أنه قد وجد نفسه مضطراً في النهاية إلى الدخول في مفاوضات، وبعد هزيمته الساحقة في عام ٩٥٥ م، أرسل إلى قرطبة سفيراً في طلب الهدنة. لم يعترض الخليفة على توقيع معاهدة، طالما أنها ستكون ذات فائدة بالنسبة له، وبالفعل، أرسل إلى ليون في العام التالي، أحد الوجهاء من أعضاء المجلس الملكي يدعى محمد بن حسين، بصحبة اليهودي أبو يوسف هصدائ؛ كان يتمتع بثقافة واسعة، يجيد العبرية والعربية واللاتينية واليونانية واللهجات الرومانسية إجادة تامة؛ كما كان طبيباً مشهوراً، لعب دوراً هاماً في بلاط قرطبة، حيث اشتغل بإدارة المكاتب المالية، واضطلع بأمور الترجمة في الوقت الذي كان يفد إلى العاصمة سفارات مسيحية^(٩٢). كما استطاع نائباً النصر أن يحصل من أوردونيو الثالث على بعض التنازلات، فقد بات أمراً واقعاً أن تسلم مجموعة كبيرة من الحصون القوية على الحدود إلى المسلمين، أو على الأقل، يتم إخلاؤها. في هذه الظروف العصيبة أبدى عاهل ليون، رغم كل شيء، تفاؤله، وتم توقيع الاتفاقية من جانب الخليفة القرطبي بالعاصمة، فحظيت بموافقة وريثه للعرش، ابنه الحكم، الذي كان يبلغ من العمر أربعين عاماً، وأصبح له دور فاعل في إدارة المملكة. ومن جانبه، طلب الكونت فردلند القومس الهدنة ثم أجيب إليها.

وعلى ما يبدو فإن تصفية التهديدات المسيحية باتت مرهونة بإخضاع مملكة نبرة، أو إجبارها، بأي وسيلة أخرى، على تعديل موقفها العدائي، عندما مات في العام التالي (خريف ٩٥٦م) ^(٩٢) أوردونيو الثالث في سمورة. رفض ابنه سانشو الأول، الذي خلفه دون ما صعوبة، توقيع بنود المعاهدة التي اتفق عليها سلفه مع قرطبة. لم يتأخر رد الفعل على مثل هذه الأعمال : ففي صيف عام ٩٥٧م (٣٤٦هـ) خرج الجنرال أحمد بن يعلى لمهاجمة ملك ليون الذي نُصّب حديثاً على العرش، وألحق به هزيمة كبيرة. يضاف هذا الفشل الذريع الذي منى به سانشو الأول إلى الاحتقار الذي عبر عنه أهالي ليون تجاه ملكهم الجديد، الذي أُصيب بالسمنة المفرطة التي أدت إلى ظهوره في صورة رجل شبه مشوه ومنعته من ركوب الخيل، ولهذا أصبح يلقب بالبدين (السمين). على الرغم من أن عمه الكونت فردلند القومس قد قدم له يد العون منذ وقت قليل ضد أوردونيو الثالث، إلا أنه قدم الدعم لأشراف ليون حين أرادوا خلع هذا العاهل الذي أصبح محل سخرية الجميع. وهكذا، فقد طُرد سانشو الأول من ليون في عام ٩٥٨، فذهب لينضم إلى جدته تودا، في نفس الوقت الذي ملك العرش بعده أمير لم يكن أوفر حظاً من سابقه المخلوع في مجال السخرية والاستهزاء، فقد حبته الطبيعة جسماً محدباً، وأخلاقاً وضيعة : أنه أوردونيو الرابع، الملقب بالشرير، ابن ألفونسو الرابع الراهب، الذي تزوج من أورأكا، ابنة فردلند القومس ملك قشتالة، أرملة أوردونيو الثالث.

قامت تودا العجوز - التي مازالت تحتفظ بصفاتها وصية للعرش رغم أن ابنها سانشو الأول قد بلغ منذ وقت بعيد السن اللازمة لتوليهِ العرش بنفسه - باستقبال حفيدها بكل أنواع الترحيب، بعد أن خلع عن عرش ليون، وفكرت منذ البداية في أن تعالجه من تلك السمنة التي أصابته فحولته إلى إنسان لا تنفع من ورائه، ثم تعمل بعد ذلك على استرداد عرشه مرة أخرى. ولكن ملكة نبرة لم تكن تتسلح بالادوات التي تمكنها من تحقيق هدفها : معالجة حفيدها واسترجاع عرشه. ولماذا لا تذهب - فكرت الملكة - إلى خليفة قرطبة، والذي يعد، في الحقيقة، من أبناء بلدها، إذ تجرى في عروقه بعض دماء البشكنس من الملوك، فأرسلت إليه رسولا. كان هذا العرض من أسمى ما يمكن أن يتطلع إليه : طالما أنه سوف يعود على امبراطوريته بالنفع. فوقع الاختيار في هذه المرة أيضاً على اليهودي حصداي لينذهب إلى بنبلونة من أجل التفاوض، حيث كان يتمتع بمميزات كثيرة وعظيمة كطبيب ودبلوماسي. فبإمكانه معالجة الملك المخلوع من داء السمنة والحصول منه على تنازلات لصالح المسلمين، كما يقوم بعرض بعض المسائل الهامة عليه مثل : أن تفد الملكة تودا وابنتها جارثيا وحفيدها سانشو الأول

للتعبير عن إجلالهم للخليفة. وهكذا، استطاع حصداى أن يقوم بمهمته التى حققت نجاحا فى كل نقاطها : فقد وصف سانشو علاجا ونظاما خاصا يتبعه عند تناول الطعام مكنه من القضاء على الداء الذى عانى منه طويلا؛ وحصل منه على تعهد بأنه بمجرد أن يسترد عرشه مرة أخرى سوف يعيد إلى المسلمين عشرة حصون قوية، وأخيرا، تمكن بما لديه من مهارة وحذق، من أن يقنع الوصية على العرش تودا بأنها ستكون الراحبة بمجرد أن تقوم فقط بزيارة يصحبها فيها ابنها وحفيدها، إلى قرطبة، حيث أكد لها أن الضيوف الملكيين سوف يلقون معاملة طيبة تتناسب مع أصولهم الرفيعة.

ليس هناك من سبب على الإطلاق يجعلنا نأخذ مثل هذه الزيارة التى قامت بها تودا وابنها جارتيا الأول وسانشو الأول حفيدها، إلى قرطبة عاصمة الأندلس باعتبارها مجرد «اختراع شرقى»^(٩٤)، حيث توجد بين أيدينا شهادة رسمية من ابن خلدون^(٩٥)، والذي لم يكن له، بداهة، أن يلفق التاريخ وأن عليه أن يأخذ مثل هذه المعلومات من مصدرها المعتقد فى تلك الفترة، وهو تاريخ ابن حيان. تم اللقاء بين الخليفة وضيوفه فى مدينة الزهراء، حيث حضرها كبار مجلسه. وإذا لم تكن التفاصيل قد تواترت لدينا عن مثل هذا اللقاء، فلدينا الكثير منها بالنسبة للاستقبال الذى أقامه، بعد ذلك بأربع سنوات، أى فى ٩٦٢م (٣٥١هـ) الحكم الثانى، بعد أن أصبح خليفة للملك أوردونيو الرابع. وعلى كل ففى اللقائين أقيمت احتفالات ضخمة وزينات باهرة، كما أقيمت المراسم والاستقبالات بنفس الصورة التى كانت تقام للأمرء والدبلوماسيين، تبعا لما سنراه فيما بعد.

وعلى كل، فما كانت الزيارة غير ذات فائدة : حيث حصل سانشو الأول من ورائها هدفا ساميا، إذ توجهت أول صائفة مسلمة ضد ابن عمه أوردونيو الرابع فى ليون، بينما تودا وجارثيا الأول قد قاما بتدبير هجوم تمويهى على قشتالة بهدف الامساك بفرواند القومس على الحدود الشمالية لمملكته. قام الملك المخلوع بمرافقة جيش قرطبة الذى حاصر فى ربيع عام ٩٥٩م (٣٤٧هـ) سمورة واستولى عليها. وبعد ذلك بأسابيع، تمكن سانشو من استعادة الجزء الأكبر من أملاكه، وأصبح أوردونيو الرابع مضطرا للبحث عن مكان يلجأ إليه هربا، فتوجه إلى أشتوريش، تاركا مدينة ليون، التى عاد إليها سانشو ليعتلى العرش فى النصف الأول من عام ٩٦٠م. وهنا أظهر أهالى نبرة وفاءهم لعهودهم، فهاجموا فرداند القومس، ووقع فى أيديهم أسيرا فى نفس العام على مسافة بضعة أميال غرب ناخيرا^(٩٦). وبعد طرد أوردونيو الرابع

من أشتوريش، خرج يبحث عن مهرب في الأراضي التابعة لبرغش، وبعد ذلك، وبالتحديد في ١٦ أكتوبر عام ٩٦١م (٢ رمضان ٣٥٠هـ)، أدركت المنية عبد الرحمن الثالث فخلفه ابنه الحكم الثاني.

على مدى الصفحات السابقة لم نشغل أنفسنا بالحديث عن علاقات الدولة الأموية، تحت ولاية عبد الرحمن الثالث (الناصر)، بالممالك الأفرنجية في الثغر الإسباني القديم. ولم يذكر المؤرخون العرب حتى مجرد إشارة إليها، فيما عدا ابن خلدون الذي ينبهنا، في كلمات بسيطة عن ابن حيان^(٩٧)، إلى أن السفارة التي أرسلها جيماركس دي توسكانا إلى قرطبة (حوالي عام ٩٥٠ على وجه التقريب)، قد ذهبت إلى العاصمة الأندلسية يرافقتها أحد أعضاء مجلس «أمير برشلونة وطركونة» هو مغيرة، ابن سونيير، هذا الاسم العربي غير المنتظر يعطى، بداهة، اسما لأحد خلفاء ويفريدو المشعر، إما أنه اسم ابنه سونيير، الذي غالبا ما قيل عنه أنه ظل يمارس سلطته الملكية منذ ٩١٢م وحتى ٩٥٤م، وإما أنه اسم لأحد أبناء هذا الأخير، بوريل أو ميرون، وهذا هو الاحتمال الأكبر. ليس من الأهمية بمكان الآن أن نعرف اسم كونت برشلونة الذي أبدى رغبة مبكرة في ترسيخ العلاقات مع عبد الرحمن الثالث، أيا كان نوعها^(٩٨). وسنقصر كلامنا على جانب من القول جد بسيط، يتلخص في أن أكبر أمراء الفرنجة أهمية في الثغر الإسباني القديم قد بادر بطلب الدخول في معاهدة هدنة وحسن الجوار مع قرطبة. وعليه، فمن المحتمل أنه على مدار هذه الفترة كلها، أصبحت العلاقات بين أسبانيا الأموية والدويلات الفرنجية، على جانبي منطقة البرانس، تسير في اتجاه سلمى^(٩٩)؛ وأصبح علينا أن ننتظر حتى نهايات القرن العاشر لكي نرى برشلونة بعد أن أصبحت هدفا للحملات الهجومية من جانب الحاجب «أمير المنصور» ومن بعده قام بها ابنه عبد الملك المظفر. ومع هذا، علينا أن نبرز أنه، في ظروف لانعلم شيئا عنها حتى الآن، عادت طركونة، التي يذكرها ابن خلدون كمملكة تابعة لنفوذ كونت برشلونة، إلى أيدي المسلمين في أواخر حكم الناصر : ويفصح نقش موجود على سور أحد الأروقة بكتدرائية مدينة برشلونة، عن إحيائه لذكرى انشاء وزخرفة المسجد الكبير لإحدى المدن (والتي لا يمكن أن تكون مدينة أخرى غير طركونة القديمة) بأمر من الخليفة، وتحت إشراف الفتى جعفر، أحد ضباطه الصقالبة^(١٠٠).

- وفي المادة التاريخية التي كتبها المؤرخون العرب - الأسبان عن عهد عبد الرحمن الثالث الذي استمر حقبة طويلة من الزمن، والذين عبروا فيها عن ولائهم الشديد لمفهومهم التقليدي للتاريخ، نجد مجالا كبيرا للأسهاب فيما يتعلق بالانتصارات،

بينما تضيق المساحة المخصصة للفشل الذي منيت به القوات المسلمة؛ فالإشارات التي تنطوى على مديح أكبر تأتي مرتبطة دائماً بالنتائج التي حققها وأنجزها خليفة قرطبة الأول في صراعه مع المسيحيين الأسبان، وفي هذا الأمر نجد مغالاة واضحة، إذ أنه مقارنة بالتميز العسكري الساحق للأمويين في منتصف القرن العاشر، فهذه النتائج تبدو، للوهلة الأولى، قليلة للغاية، إذ أنها لم تترجم عملياً إلى ضم أراضى ذات قيمة بالنسبة للمملكة، هذا بالإضافة إلى عدم التعرض للحديث عن ضم أى إمارة مسيحية في شمال شبه الجزيرة، مع ما فى ذلك من منفعة للجانب المسلم. وقد كان هذا هو الهدف الذى من المفروض أن يسعى إليه حاكم قوى مثل أمير قرطبة، ومع هذا، فلم يبدو أن عبد الرحمن الثالث، ولا حتى فى أخريات حياته الزاهرة، قد ترك المجال مفتوحاً أمام طموحات التطلع إلى هذا الهدف. لقد أعرب عن فرحه لما كانت تدره عليه الصوائف التى قام بها قواده من فائدة أثناء فترات الصيف، وعليه فقد مكّن فى هذا الجانب من منطقة البرانس، للهيمنة الكبرى للنفوذ الخلافى الذى بات من الخطأ أن يتطلع أحد للحد منه، ويعد أن أنجز مهام الوحدة الداخلية وأصبح قواده فارغاً من أى هم داخلى، أخذ، عاماً بعد آخر، يتابع باهتمام التصرفات السياسية للممالك المسيحية المجاورة لأملكه، ونادراً ما كان يترك لجيرانه الذين كانوا يعيشون حياة مضطربة بأن ينزعوا من بين براثنه زمام المبادرة فى الهجوم، وفى النهاية - فى الوقت الذى بدى ضعفهم له جلياً نظراً لصراعاتهم الداخلية -، عرف كيف يفرض إرادته عليهم. ومن بين جميع الملوك الذين تقلبوا فوق عرش أستوريش وليون، وتتابعوا فى سرعة واحدا تلو الآخر أثناء ولايته التى دامت ما يقرب من نصف قرن، تمكن واحد فقط من إعلان تمرده فى وجه الخليفة كعدو ند : إنه الجسور راميرو الثانى. أما الملوك الذين خلفوا هذا الذى انتصر على المسلمين فى معركة «خندق شنت منكش» فقد اضطروا، طوعاً أو كرهاً، لتقديم مظاهر الاجلال والتكريم للخليفة الأموى : هكذا فعل كونت قشتالة الجسور فردلند القومس، والوصية العجوز تودا وابنها الملك جارتيا سانشيث، هذا إلى جانب كونت الفرنجة صاحب إمارة برشلونة.

ولم يكن الأمر يقف عند حد تقديم مظاهر الاجلال والاحترام، فى صورة رسمية، وإنما كان يتعدى، بدوره، إلى إبرام المعاهدات والاتفاقيات التى انطوت على فوائد عظيمة فى الجانبين الاستراتيجى والمالى : تسليم أو هدم الحصون القوية القائمة على الحدود بين المسلمين والمسيحيين، وخاصة، القيام بدفع جزية منتظمة فى مدة الهدنة إلى خزانة الخلافة. ولم يكن هذا التقليد المتبع فى الجزية المفروضة على الدويلات المسيحية، حقاً، قد بدأ فى عهد عبد الرحمن الثالث فى شبه الجزيرة الأيبيرية^(١٠١)، إلا أنه هو

الذى استأنف العمل به، بعد فترة انقطاع طويلة تعزى إلى ظروف القاهرة. وفى أواخر فترة حكمه، كان ملوك ليون وبرغش وبنبلونة - وربما انضم اليهم أيضا كونت برشلونة - يدفعون سنويا لقرطبة عوضا عن مدة الهدنة، لانعلم قدره، رغم أنه بإمكاننا أن نتوقع أن المبلغ كان كبيرا. وإذا ماتت هذه الدويلات لسبب أو لآخر، عن دفع هذه المبالغ فى المدة المحددة، كان الخليفة يأمر بانزال العقاب الكلاسيكى المعروف بها، وذلك بإرسال حملة تأديبية إليها من بين تلك التى أصبح يدينها الاضطلاع بهذه المهمة. كان دفع الجزية يستمر طوال فترة الهدنة المؤقتة، وتتوقف هذه الهدنة بسبب الامتناع عن الوفاء بالالتزام من جانب من التزموا به، حين يحجمون عن تسديد حصتهم التى يرونها صغارا لهم؛ استمر الوضع على ما هو عليه طوال عهد الحكم الثانى ومن بعده. وغالبا ما استمر هذا طالما أن القوات المسلمة تؤكد بقوتها هيبة الاسلام ووسطوته ونجاحه المطلق داخل إسبانيا؛ وخلال تلك الفترة تمكن الاسلام من إحباط الجهود المبذولة من جانب أبطال حركة الاسترداد المسيحية.

لم تتوقف ردود أفعال الهيمنة العسكرية التى لاتقبل المناقشة للامبراطورية الأموية، والثراء الذى لاحد له لببت المال - والتى رأينا بجانبها موارد لاتذكر للامارات المسيحية الاسبانية - هذا بالإضافة إلى ردود أفعال ازدهار الحضارة الأندلسية فى منتصف القرن العاشر عند الحدود الاسبانية، وعبرها إلى بلاد ماوراء البحر، ودول أوروبا الغربية جميعها، هذا بالإضافة إلى بلوغها أراضى الامبراطورية البيزنطية. وفيما بعد سوف نرى كيف توافدت السفارات الأوروبية على العاصمة الأندلسية. ولكن شهرة وصيت مملكة قرطبة لم تكن أقل شيوعا فى العالم الإسلامى الواقع على البحر الأبيض المتوسط، وخاصة فى بداية الوقت الذى قام فيه عبد الرحمن الثالث - كما سندرس الآن - بأعمال توسع أموى كبير داخل مراكش وبقية الشمال الأفريقى، وذلك بغرض تكوين جبهة مضادة للنفوذ الفاطمى وحلفائه من البربر، ولتأكيد سلطان الدولة الأموية التى أحيت فى إسبانيا السمعة القديمة لأسلافهم فى سوريا.

٣- النزاع بين الأمويين والفاطميين فى المغرب،

سياسة عبد الرحمن الثالث فى أفريقيا

البربر فى أوائل القرن العاشر - بداية الحركة الفاطمية :

لم نقم حتى الآن بعمل شئ سوى الإشارة بإيجاز إلى الأحداث الخطيرة التى، على امتداد عهد عبد الرحمن الثالث، شهدتها الشمال الأفريقى وأوجدت تغييرا عميقا

فى اقتصاد تلك المنطقة. وهاهو الوقت قد أصبح مناسبا للحديث عنها باهتمام كبيراً. ومع ذلك، فقبل أن نقوم بسرد ونقد مثل هذه الأحداث بالقدر الذى أثرت فيه على اسبانيا الاسلامية أو بالذى شاركت به اسبانيا فى صنعها، فإنه من المناسب أن نعود إلى الوراء قليلاً لنشرح كيف كان الوضع السياسى للبربر فى الوقت الذى كانت فيه الحركة الفاطمية قد وجدت فى هذا البلد تربة ملائمة لنموها وإنشاء إمبراطورية جديدة، والتي سرعان ما وقعت المواجهة بينها وبين مملكة قرطبة.

إن الصراع الذى نشب بين الجانب المسلم الأموى فى إسبانيا والخلافة الفاطمية، والذى ظهرت بوادره منذ أوائل عهد عبد الرحمن الثالث (الناصر) والصراعات الدموية التى سرعان ما نجمت بين أنصار الجانبين، سواء فى المغرب الأوسط أو الغربى، قد أضحت هدفاً لاهتمامات موسعة من جانب المحللين فى الغرب الإسلامى فى العصر الوسيط. والآن : إذا ما استثنينا، فى بعض الأحوال، ابن خلدون - آخر وأكثر هؤلاء المؤرخين تبصراً - فإن قراءة الحكايات التاريخية فى هذه الفترة المضطربة ستكون باعثاً على خيبة الأمل : فالروايات تبدو فى الحقيقة معقدة ورتيبة ومتعارضة فيما بينها دائماً، وخاصة، فيما يتعلق بالتواريخ. ولكى يكون حكمنا عليها صحيحاً فليس أمامنا سوى اللجوء إلى الصفحات المطولة التى، رغم قدمها، فهى جديرة بالقراءة، ويتضمنها المؤلف الذى تركه لنا فورنيل. كان لابد من الوصول إلى هذه السنوات الأخيرة حتى نتمكن، فى النهاية، من أن نجعل بين أيدينا، فيما يخص تلك الفترة المعقدة والمحيرة، مقالاً عقلانياً نستغل به المصادر العربية المترجمة إلى لغة أوروبية ونترجمها، وخاصة تلك التى تتمتع بحساسية عالية فى استخدامها من جانب المؤرخين من غير العرب. وأياً كانت التحفظات التى يدفع إليها باستمرار مايقوله المؤلف وعجز عن التوافر على النصوص الأصلية، فإننا نجد أنفسنا مضطرين إلى الاعتراف بأن المقال الجريء لجويتر حول «القرون المظلمة فى المغرب»^(١٠٣)، يسمح لنا بأن نتصرف فى ملاحظة شديدة، فى أعماق تاريخ غامض وسط مجموعة من التواريخ أكثر منه غموضاً بعد، وأن هذا التاريخ يظل غير قابل للتفسير، أو محملاً بكم هائل من التخمين والحدث، إذا، حذونا مثل المؤرخين المسلمين الذين يروونه، وأردنا أن نلزم أنفسنا بعرض موجز للأحداث السياسية، دون أن نأخذ فى الحسبان الدوافع - العنصرية والدينية والاجتماعية، التى أدت إلى وجودها باستمرار. ومن ثم، فإن رواية مثل هذه الأحداث هنا بكامل تفاصيلها يعد ضرباً من المحال. وسوف نقتصر هنا على تقديم رسم مجمل سريع، دون أن نعرض غير البيانات التاريخية الأساسية، ودون أن نقدم سوى الاشارات الخاصة بالتواريخ البارزة والهامة.

فى أواخر القرن التاسع كان الشمال الأفريقى مازال مقسما إلى ثلاث دويلات تمتد من شرقه إلى غربه : مملكة الأغالبة فى إفريقيا والمغرب الشرقى، والإمامة الرستمىة فى المغرب الأوسط، ومملكة الأدارسة فى مراكش. أما المملكتين الأوليين فقد محقتا بمجرد ظهور الموجة الفاطمىة. كانت مملكة الأغالبة، فى الفترة السابقة على نهايتها، فى فترة انحطاط تام. كان ملوكها يقطنون القيروان، عاصمتهم الرسمىة، أو رقادة، مقر إقامتهم الخاص، وكانو يعيشون فيها حياة متوسطة الحال، مضطربة، تتخللها ثورات قبلية فى بعض الأحيان. أو مؤامرات داخل القصور. وفى ناحية الغرب لم يكد سلطانها يتجاوز اقليم قسطنطينة؛ أما فيما يتعدى ذلك فقد كانت أوضاعها مزعزعة، عندما لم تكن تجمع بينها وبين جيرانها من الرستميين نزاعات تذكر، كانت عاصمتهم تدعى تاهرت، وقد سيطر الرستميون، فى ظروف لانعرف عنها شيئا، على المنطقة السهلية الممتدة جنوب الجزيرة الخضراء الحالية، فى اتجاه الهوندا والزاب. وقد كانت علاقات هؤلاء الأئمة الخارجين بجيرانهم البدو الذين تجمعوا تحت راية الاتحاد الكبير لبربر زناتة، تتميز، غالبا، بأنها علاقات ثقة وصداقة. غير أن الأسس التى استندت عليها تلك الدولة الفتية الثيوقراطية فى تاهرت ظلت هشة، ولم تتمكن من الصمود أمام الدفعة الأولى من الموجات الفاطمىة.

بدا الوضع فى مراكش أكثر تعقيدا، وهو ما يستحق أن نكرس له بحثا أكثر دقة وروية، حيث أنه، فى هذا الوقت، أعلنت إسبانيا إصرارها الفورى على معارضتها الشديدة للفاطميين، والتوسعات التى يتطلعون إليها. ظلت هناك إمارات عديدة كتب لها البقاء على قيد الحياة : فى نطاق واحات تافيليت والمدرايين فى سيشيلماسه، الخارجين؛ فى منطقة الأطلنطى، ومنطقة البرجواتا، والهرطوقيين على شاطئ البحر المتوسط، على أبواب شبه الجزيرة الأيبيرية نفسها، وفى البارونية الصغيرة ناقور، حيث كان يحكم الصالحيون. أما بقية الدولة فقد كانت واقعة تحت أيدي الأدارسة، الذين ينحدرون من أصول ترجع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم (ص). إلا أن مملكتهم قد تم تقسيمها منذ الفترة التى تم فيها توزيع الأراضى التى اشتملت عليها مملكتهم بين أبناء إدريس الثانى. ومنذ ذلك الحين، وحتى نهايات القرن التاسع، أصبح تاريخ الأدارسة حافلا بالأحداث. فقد وجد الابن الأكبر لإدريس الثانى، محمد، الذى أخطأ فى تخليه عن الجزء الأكبر من ميراث والده لصالح إخوته، نفسه مضطرا إلى اللجوء لبعضهم حتى يتمكن من معاقبة البعض الآخر، الذى حاول أن ينزل به الهزيمة، وأن يقدم لمناصريه، كهدية على مؤازرتهم له، أملاك المتمردين المهزومين. تولى ولدا محمد، «على ويحيى الأول» الحكم بعده، واحدا بعد الآخر، فى هدوء نفسى. أما يحيى الثانى،

ابن يحيى الأول، فقد خلع من عرشه على أيدي أتباعه من العاصمة، وذلك بسبب حياته الخاصة التي ما كانت ترعى حياء ولاذمة، ونصب مكانه ابن عمه وصهره في فاس، على ابن عمر، حفيد إدريس الثاني، بدلا منه. وقد تمكن الأمير الجديد، حسب ما تذكره كتب التاريخ، من أن يعيد إلى الوجود مرة أخرى الحياة إلى الوحده الإدريسية، إلا أن سلطانه قد قوبل بمقاومة من جانب عبد الرزاق الفهرى في وشقة^(١٠٤). وهو مغامر إسباني الأصل، وقد إلى أرض حفيد إدريس الثاني، ليدعو لمذهب الخارجين السفريين. وبعد انفلات حركات التمرد في جنوب شرق فاس، في المرتفعات الجبلية في بويبال، تمكن عبد الرزاق هذا، من السيطرة على ذلك الجزء من العاصمة الإدريسية، الذي سكنه، بدعوة من إدريس الثاني، الربضيون الأندلسيون المطرودون من قرطبة من قبل الحكم الأول. أما الجزء الآخر من فاس «شاطئ القرويين» فقد قاوم منتصراً، وتمكن سكانه، بمساعدة إدريس آخر، يحيى الثالث ابن القاسم، الملقب بالمقدام، من طرد المتمردين من المدينة كلها. وواصل يحيى الثالث الكفاح ضد الخارجين، إلا أنه فقد حياته في النهاية عام ٩٠٥ م (٢٩٢ هـ)، وهو يصارع ضد جيوش أحد الطامعين من أسرته. كان ذلك الطامع هو يحيى الرابع ابن إدريس ابن عمر - وقد تولى السلطة بنفسه حتى خسرها، بعد ذلك بعشر سنوات، حين انتزعت الجيوش الفاطمية عرشه. وقد رفض من قبل أن ييسر نفوذه على منطقته تريمسين من أملاك كبراء زناته من فرع ماجراوة، القريبة جدا من فاس نفسها، حيث تنازع الأمر هناك شخصان : ما صالا ابن حبوس وموسى ابن أبي العافية، وسوف نعود للحديث عنهما أكثر من مرة.

وعلى الجانب الآخر من البحر المتوسط، نجد الأمير عبد الله، الذي حكم في قرطبة، مشغولا بأشياء كثيرة عليه الاضطلاع بها على أراضى نفوذه، حيث واجه التمرد العام الذي قام به أتباعه، ولذلك لم يكن يولى اهتماما كبيرا بشئون إفريقية. لاندري إلى أي مدى ترك الأمير عبد الله روابط الصداقة مع تلك المنطقة تنهار وتضعف والتي، كما رأينا، عمل أسلافه على تأصيلها مع الرستميين والمدرايين والصالحين. كما نعتقد أيضا أن مملكة إسبانيا الإسلامية قد اتبعت، خلال عهد عبد الله، سياسة مفادها تبني المواقف المتحفظة، إذا لم تكن تتضمن العداء الصريح للأغلبية والأدارسة. ولكن ظهور الحركة الفاطمية، قبل موت أمير قرطبة ومجئ حفيده عبد الرحمن الثالث، قد أصبح يزعم منطقة البربر كلها (المغرب)، وليس هذا فحسب، بل تعدته إلى الأراضى الأسبانية حيث وجدت فيها صدى عميقا.

إننا لن نقدم للقارئ هنا تفاصيل، بإمكانه العثور عليها في بعض الأعمال الحديثة^(١٠٥) -، حول المذهب الإسماعيلي؛ وبطريقة أكثر توسعا، عن فرقة الشيعة، التي

ظهرت فى السنوات الأولى من عمر الاسلام، وذلك بسبب تنحية السلالة التى تنتمى بالنسب إلى النبى(ص) عن الخلافة (انهم أهل بيت ابنته فاطمة وصهره على)، وذلك لصالح الذين أطلق عليهم مغتصبوا الخلافة وهم : الخلفاء الثلاثة الأول، ومن بعدهم الأسرة الأموية فى المشرق ثم العباسيون. كما أننا لن نتوقف عند شرح مايتعلق بنظرية الأئمة «المرئيين» و«غير المرئيين» ومجئى المهدي المنتظر. سنقصر حديثنا على أنه من بين الذين تولوا الدعوة للمذهب الاسماعيلى، والذي جاب العالم الاسلامى فى النصف الثانى من القرن التاسع، يبرز واحد هو الضاهى أبو عبد الله الشيعى، والذي لمجرد تعرفه على سكان بعض المناطق الجبلية من كتامة، فى مكة، وبعد أن كسب ثقتهم، قدم إلى بلدهم يجمع منهم أفرادا تعلن انضمامها السرى لمذهبه الذى بذل كل جهده من أجل نشره، أتى عام ٨٩٣م (٢٨٠هـ)؛ واستقر فى قرية إكجان، فى منطقة لم يكد يعترف فيها بسلطان الأغالبة. وكرس نفسه للمهمة التبشيرية، وبعد معاناة كبيرة، توجت مجهوداته بنجاح كبير. والآن حسنا : عندما يحقق مبشر له نفس هذه الرتبة – حيث سنرى فيما بعد أمثلة فى الغرب الإسلامى – النجاح فى مهمته الروحية التى أوكلت إليه، فإن هدفه يكمن فى الرغبة والبحث عن كسب للوقت فى صالحه وصالح أتباعه : ولهذا، فإن الشيعى، بعد أن استقر طويلا بين أهالى كتامة، دخل فى صراع علنى ضد الأغالبة. وما أن علم هؤلاء بالخطر، حتى أرسلوا حملة لقمع التمرد الذى نشب لتوه فى القبيلة الصغيرة؛ ولكنهم كانوا يضيعون وقتهم، إذ أنه فى عام ٩٠٢م (٢٨٤٩هـ)، قد استولى الضاهى أبو عبد الله، فى منطقة القسطنطينة، على قلعة ميلا. وعلى الرغم من أن الأغالبة قد وجدوا أنفسهم مضطرين لاستردادها مرة أخرى، فلم يتأخر الشيعى فى اقتناصها من بين أيديهم وأن يصبح فى النهاية، بالإضافة إلى هذا، صاحب ستيف. وقد بذل عاهل أفريقيا فى ذلك الوقت، زيادة الله الثالث، مجهودات ذهبت هباءً لوقف الهجوم الذى قام به أهل كتامة، والذي بدأ يتوجه صوب الأراضى الجبلية فى أورس، واستولوا تباعا على تبه وبيليزمة وباجاى وتيسا، وهى الحصون البيزنطية القديمة، التى كُلفت بحراسة المدخل المؤدى إلى الجانب الغربى لأفريقيا، ولكنها كانت تخلو من حامية كافية. وبعد ذلك، وحين أصبح الضاهى صاحب قسطنطينة، وصل (فى مارس ٩٠٩م = جمادى الثانى ٢٩٦هـ) للاستيلاء على لاريبوس أكثر حصون المقاومة الأغلبية صلابة. ومنذ ذلك الوقت، أصبح الطريق إلى القيروان خاليا. وبعد أيام دخل عبد الله وحلفاؤه من كتامة إلى رقادة، تاركين للأغلبى الوقت اللازم لتمكينه من الهرب، ولم يعد أمام سكان القيروان سوى الخضوع للمنتصرين.

ورغم تلك النجاحات المدوية، لم ينس أبو عبد الله الشيعى أنه لايعمل لحسابه الخاص، وإنما يعمل على تمهيد الطريق أمام الإمام الاسماعيلى، والذي لم يكن بالنسبة

له سوى قائد مبهم رأى القدر أن يجعله مفضلاً، والذي أبدى، مؤخراً، رحمة واسعة بالفاطميين. وماكاد يحصد الانتصارات الأولى ضد الأغالبة، حتى أحاط الامام علماً بذلك، فأخذ طريقه متوجهاً إلى المغرب، تاركاً محل تواجده بأرض المشرق. كان يدعى عبيد الله^(١٠٦)، وتلقى، عقب وفاة والده محمد الحبيب، تركة تلك الامامة التي لم تكن تتعدى حتى ذلك الوقت كونها مجرد نظرية بحثة. كانت المغامرة التي قام بها عبيد الله عبر مصر وليبيا وأفريقيا محاطة بالسرية. ولكن من المؤكد أنه لم يجتمع بتابعه المعروف بالضاهي، وأنه سرعان ما ظهر منفياً في الجانب الآخر من المغرب، في سيشيلماسة، عاصمة الدولة الدرارية في واحات تافيلتي، التي كان يقوم على أمرها إلياس ابن ميمون، الذي ما إن رأى نشاطه يعتبر موجهاً إلى قلب نظام الحكم، حتى قبض عليه. وكان أول ما اعتنى به أبو عبد الله الشيعي حين أصبح في حظيرة سلطانه برقادة وقيروان، هو محاولة إخراج عبيد الله من سجنه.

ومن قيروان إلى تافيلتي سلك الضاهي طريقاً اضطره للمرور بتاهرت، عاصمة الرستميين، التي استولى عليها أبو عبيد الله دون مجهود، واضعاً حداً لنهاية الدولة الصغيرة للخارجين (الخوارج). حاول أهل سيشيلماسة أن يقيس قوته إلى قوة ذلك فهاجمه أمام أسوار عاصمته، إلا أنه انهزم واضطر إلى الفرار، وما أن أطلق سراح عبيد الله من سجنه حتى تم اعلانه، وهو ما يزال في معمة الحرب، خليفة ومهدياً، ثم رحل في صحبة أبي عبيد الله في الحال إلى رقادة، التي وصل إليها في أواخر ٩٠٩م (٢٩٧هـ) وتلقى يمين الولاء والطاعة من سكان القيروان. وفي سيشيلماسة ترك حامية من كتامة والتي، بعد مرور عدة أسابيع، اغتيلت من جانب السكان، ونصبوا أحد الدراريين على رأس إمارتهم.

وما إن تولى عبيد الله زمام الأمور في مملكته حتى أبان عن قوته كعاهل، فحاول، في غلظة وشدة، كبح جماح أتباعه من كتامة ومن غيرها. وبعد ذلك، حين بدأ عبيد الله المهدي يتشكك في نفوذ الضاهي على الجماهير، بالإضافة إلى الشكوك التي بدأ عبد الله «الضاهي» يذيعها، بعد أن ضاق ذرعاً بمغالات المهدي، حول هذا المهدي الذي لا يخطئ، قرر المهدي التخلص منه، فأعدمه في ٩١١م (٢٩٨هـ). وفي العام التالي أرسل عبيد الله جيشاً إلى المغرب الأوسط وذلك بهدف تحجيم بدو زناتة من أصحاب الإمارة الرستمية القديمة، الذين أعلنوا تمردهم، هذا إلى جانب محاولة فتح تاهرت. تلك المدينة التي استعادت استقلالها، باتت من جديد في أيدي الفاطميين، وعهد بأراضيها إلى الزعيم المكناسي ماصالا ابن حبوس، الذي، بانضمامه منذ الوهلة الأولى إلى النظام الجديد المنشق، أصبح يضيف، على مدى مشواره القصير، بأنه أفضل قائد لدى المهدي على أرض غرب المغرب.

وفى نفس الوقت، فى عام ٩١٢م (٣٠٠هـ) توفى الأمير عبد الله فى قرطبة، بعد أن عهد بالخلافة لحفيده عبد الرحمن الثالث، وقيادة مصير الخلافة الإسبانية الأموية.

سياسة عبد الرحمن الثالث فى إفريقية حتى سقوط سبته ٩١٢ - ٩٣١م :

لابد لنا من أن نؤمن بأن عبد الرحمن الثالث قد ولد يحالفه حظ كبير. ففي السنوات الأولى من عهده، رأى الخليفة الشاب، الذى ورث الأمير عبد الله، بأنه أصبح والهموم تحيط به من كل جانب، آلاف الهموم، آلام وهموم تتعلق بمناطق نفوذه، التى أهدقت بها الأخطار؛ وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال : ماذا كان من أمر تلك المناطق لو أن الفاطميين المنتصرين، بعد أن تحقق لهم فتح إفريقية كلها والمغرب حتى وصولوا إلى ماوراء تاهرت بهذه السرعة، قد فكروا فى استغلال هذا النصر وواصلوا تقدمهم نحو الغرب دون أن يلتقطوا أنفاسهم؟ لو أن مراکش قد سقطت فى أيديهم، لدفعهم كل شئ إلى إعلان الحرب على إسبانيا لاسقاط عرش ممثل تلك الدولة التى كانوا يبغضونها كبغضهم للدولة العباسية، التى انتزعت الخلافة الراشدة والسلطة المؤقتة فى الشرق الإسلامى. ولكن لحسن حظ أموى قرطبة، كان هذا المشرق هو الفريسة التى تبدت أمام أعين عبيد الله، فرأى أنه لابد من الانقضاض عليها والامساك بها على عجل. فما كان الاستيلاء على القيروان سوى حلقة أولى فى سلسلة فتوحات مدروسة يجب أن تمتد حتى الشرق، عبر الصحراء الليبية أولا ثم مصر بعد ذلك. وبالفعل، وفى عام ٩١٤م (أواخر ٣٠١هـ) قام سيد الجزء الشرقى الأفريقى بأول حملة صوب وادى النيل. كما قام ابنه ووريثه فى المستقبل، أبو القاسم محمد، بعدد من الحملات الجريئة التى مكنته من الزحف حتى الاسكندرية والفيوم؛ إلا أنه انهزم وانسحب على عجل ثم عاد إلى إفريقية تاركا وراءه أراضى برقة وقد عمتها حركات التمرد. وفى نفس الوقت بدأ الأتباع الجدد للفاطميين يعلنون عن نواياهم فى العصيان : ففي الزاب أعلنت حالة التمرد من جانب كتامة، ولكنها أخمدت؛ وفى طرابلس حاول الناس أن ينفضوا عن أنفسهم غبار العبودية لعبيد الله؛ وأما سيثليا فقد كانت مسرحا لتمرر شرعى خطير. أدت مثل هذه الصعوبات مجتمعة. بالإضافة إلى الفشل الذى منيت به أولى محاولاته على مصر، إلى الدفع بعبيد الله إلى التفكير فى الأمر، بعد أن اقتصر تفكيره حتى هذه اللحظة على فرض سلطانه على الأراضى التى افتتحها ضاهيه، أبو عبد الله الذى قدم له نظير عمله هذا سوء الجزاء. وعلى جانب آخر، وفى نفس هذه الأراضى، لم تكن الدعاية التى قام بها الخوارج قد هدأت بعد، بل كانت تكسب أنصارا فى أماكن عديدة.

وعلى ضوء هذا كله، وفي تودة، وعلى بصيرة، فكر سيد القيروان في أنه، قبل اللجوء إلى مغامرات حربية، يرى ويتطلع إلى ضرورة أن تكون له عاصمة جديد تصبح بمثابة الحصن الأعلى داخل سلطانه المهدد. فظل طوال سنوات حكمه الأولى يؤسس مدينة المهدية، أسسها فوق ربوة بخليج سرت، بحيث تصبح عملية الدفاع عنها من الأرض في غاية السهولة، كما جعل منها ترسانة فسيحة للأسطول الحربي الذي ورثه عن الأغالة وكرس كل همه في العمل على توقيته وتحصينه.

وفي إسبانيا كان عبد الرحمن الثالث يتلقى الأخبار عن ذلك الخطر الذي يشكله النفوذ البحري الفاطمي على مملكته. وتبعاً لما يذكره ابن خلدون (١٠٧)، ففي عام ٩١٤م (٣٠٢هـ) توجه إلى «الجزيرة الخضراء» الإسبانية ليستعرض أسطوله ويصدر تعليماته بتجهيزه وإضافة وحدات جديدة وإنشاء وحدات مراقبة دائمة على الساحل الأندلسي. وكان مشروعه يهدف إلى قطع أي علاقة بحرية بين أسبانيا وإفريقية الفاطمية، وأن يحول بين عدوه في شبه الجزيرة الأيبيرية، ابن حفصون، وبين تلقى الإمدادات والمؤن من الموانئ المغربية؛ وقد سارع ابن حفصون، كما رأينا في مناسبة سابقة، حين علم بتنصيب عبيد الله، فأرسل إليه رسالة طاعة وإذعان، وأمر، منذ ذلك الحين، بالدعوة له في أول جمعة تقام في كل مساجد الأندلس الواقعة تحت امرته وسلطانه.

وعليه، ففي هذه الفترة، وبدون أن يأخذ أحدهما زمام المبادرة بالأعمال القتالية، فقد أمضى كل من الأموي والفاطمي تلك المدة متبئياً سياسة التأهب للحرب. فما كان أيّ منهما يملك في يده الوسائل اللازمة لبدء الهجوم؛ ولكن أصبح همّ كل منهما أن يراقب الآخر باهتمام وريبة. ومن إسبانيا وإفريقية أدار كل منهما شبكة تجسس واسعة تحمل إليه الأخبار السياسية والتقدم والتراجع للوضع السلمي في البلد العدو. كان الشمال الأفريقي يعج بالمغامرين من أصل أندلسي الذين مازالوا يحتفظون بعلاقات مع وطنهم ويقومون بتوصيل معلومات إلى بلاط قرطبة من شأنها أن تكون ذات نفع عظيم. ومن جانبه، فإن الزعيم الفاطمي، لعلمه أن المذهب الذي يدعو إليه ويتولى رئاسته بالإمكان أن يجد لنفسه أتباعاً على الأراضي الإسبانية بمجرد أن يقوم بالدعوة له سرا، عمل على تحفيز الهمم للقيام بدعاية نشطة، تعمل على غزو جميع البيئات، بما في ذلك المحيط العائلي لعبد الرحمن الثالث نفسه. ولعل النجاح السريع الذي حققه مثيل المهدي ابن القط لم ينسى بعد، ذلك الرجل صاحب الكرامات ذو الأصل الأموي، والذي هجره ضاهيه السراج بعد أن عبّد له الطريق، وما أن خانه بعد ذلك أتباع الأمس، حتى أسلم نفسه للموت أمام سمورة عام ٩٠١م (٣٨٨هـ)، أي، أن

ذلك قد وقع قبل سنوات قليلة من الفترة التي وصلنا إليها^(١٠٩). وتبرهن لنا هذه الحلقة على أن الحقل الاسباني، وخاصة السهول الجبلية التي كان يعمرها في الغالب جموع من البربر، قد أصبح أرضا خصبة لدعوة من شأنها أن تعمل على قلب النظام. على العكس، ففي المدن، وخاصة في قرطبة، كانت مثل هذه الدعوة محكوما عليها بالفشل مقدما. وكذلك فما كان للمذاهب التحررية الى تولدت عن الفكر المعتزلي، وتعاليم ابن مسرة الفيلسوف أن تجد في أرض الأندلس في بداية عهدها أكثر من أتباع متعقلين وقليلين، وذلك بفضل النفوذ الهائل الذي كان يتمتع به رجال الدين في الأندلس والذين عرف عنهم الشدة وعدم التسامح، يدعمهم في ذلك الأموى نفسه. وكان هذا النظام، في الواقع، يبدى، منذ الوهلة الأولى، غيظه المصحوب بالعذاب الصارم لكل من تسول له نفسه بإظهار أدنى دلائل الحب تجاه الحركة الفاطمية. وحين سقطت القيروان في أيدي المنشقين أعلن النظام عن رغبته، كمن يبحث عن النجاة، في أن تصبح قرطبة القلعة الحصينة للمذهب السني والمالكي الذي أصبح سنة متبعة في الغرب الإسلامي.

وفي عام ٩١٧م (٣٠٤هـ) رأى المهدي عبيد الله أن الوقت قد حان لبدء الهجوم على غرب دويلاته، فعهد إلى الزعيم المكناسي ماصالا ابن حبوس، الذي حكم إقليم تاهرت لصالحه، بالخروج لمهاجمة سعيد ابن صالح في عقر داره ناقور. وانتهى الأمر بهذا العاهل، الذي عرف كيف يحافظ على مملكته الصغيرة عبر الاضطرابات والقتال التي اعترت عرش الأدارسة في المغرب، بأن أعلن بالفعل، رفضه المتفطرس لما اشتملت عليه رسالة التهديد المرسله من الأمير الفاطمي يطالبه فيها بالاستسلام. أما ما صالا فقد توجه، بعد أن خرج من تاهرت، للقضاء على المقاومة الجريئة التي أعلنها الملك الصالحى، الذي ترك نفسه يواجه الموت شاهرا سلاحه؛ دخل أراضى ناقور في السادس والعشرين من يونيو عام ٩١٧م (٣ محرم ٩٠٥هـ)، فحرب المدينة، وأسر عددا كبيرا من النساء والأطفال، وبعد أن أمضى عدة شهور بأرض الامارة، عاد إلى دياره، بعد أن ترك على ناقور حاكما من ضباط كتامة يدعى دهلول. وقد تمكن ثلاثة من أبناء الملك الصالحى، مع ذلك، من الهرب قبل الاستيلاء على المدينة وتوجهوا صوب إسبانيا، حيث كانت أسرته من بين الأسر التابعة لاسبانيا سنوات طويلة. وما إن نزلوا بملقة وبتشينا حتى استقبلوا بالترحاب من لدن عبد الرحمن الثالث الذي ترك لهم حرية الذهاب إلى قرطبة للعيش فيها أو البقاء في المنطقة المجاورة للساحل. وما أن قرروا البقاء بجوار الساحل، حتى تواترت اليهم الأخبار بأن وضع الحاكم دهلول لم يعد مستقرا في ناقور، فأسرعوا بالعودة إلى بلادهم، كان أول من وصل منهم هو صالح ابن سعيد ابن صالح الملقب باليتيم، وكان يعلم جيدا أنه سيلقى مقاومة من جانب دهلول،

الذى تم اعدامه، واستعاد ملك أبيه فسارح بإبلاغ عبد الرحمن الثالث بما وقع. تلقى عبد الرحمن الثالث الخبر بسعادة غامرة باعتباره يمثل انتصارا حقيقيا لشخصه، أرسل بالهدايا القيمة إلى الأخوة الثلاثة، من الأسرة الصالحية، وأذاع فى ربوع إسبانيا المسلمة بكاملها أخبار النصر الذى حققه هؤلاء الثلاثة. كما قام صالح، بدوره، بالدعوة للخليفة الأموى على أرض مملكته، وأعلن نفسه واحدا من أتباعه. وبهذه الطريقة، وبعد خمس سنوات على مجيئ عبد الرحمن الثالث، بدأ على مرأى ومسمع العالم أجمع التدخل بطريقة غير مباشرة فى الشؤون الداخلية لأفريقيا، بعد أن كرس اهتماما رسميا كبيرا للنظام السياسى الذى نشأ عنوة ليصبح ركيزة فى مواجهة النظام الشيعى.

وعلى عكس ما كان متوقعا، لم يأت فشل الفاطميين فى غرب المغرب بردود فعل فورية من جانبهم، ومضت ثلاث سنوات نون أن يعتري مراكش أى نوع من القلاقل من جانب قوات ذلك الشيعى. ولكنه فى عام ٩٢٢م (٣٠٨هـ) قد عاد ماصالا ابن حبوس ليتلقى الأوامر من سيده كما قلنا (١١٠)، كان يحكم فى فاس منذ عام ٩٠٥م (٢٩٢هـ). وبعد هزيمته أمام أسوار مدينته، ومحاصرته داخلها، كان على يحيى أن يستسلم للجنرال الفاطمى، الذى ترك له إمارة العاصمة فقط. وفى العام التالى عاد ماصالا، بعد أن انتزع ملك يحيى كاملا فى هذه المرة، وأجبره على أن يختار لنفسه مكانا يلجأ إليه، ليستقر إلى جانب بقية الأدارسة، فى الريف وإقليم البصرة؛ ثم ذهب بعد ذلك لمهاجمة سيشيلماسة، فاستولى عليها. ثم سار فى الطريق إلى المهدية، حتى يقدم لسيده كشف حساب النتائج التى أسفرت عنها حملته داخل المغرب.

وقبل أن يعود إلى محل إقامته فى تاهرت، بعد أن انتهى من حملته الأولى على فاس فى عام ٩٢٢م، كان ماصالا ابن حبوس قد عهد بإدارة الأراضى التى انتزعها من أيدي الأدارسة إلى ابن عمه موسى ابن أبى العافية، أحد أمراء مكناس، الذى مارس مهامه فى هذا الإقليم الشاسع، الذى انتزعه منذ وقت غير بعيد من مملكة فاس - الممتدة على جانبي تاتا، بعد تسول بمسافة بعيدة، من جانب، وأقارصيف من جانب آخر. ومنذ الآن، ولسنوات طويلة، سوف نراه تبعا للخطة الأولى للمغرب العربى، يعمل فى بداية الأمر لصالح الفاطميين، ثم ينقلب عليهم فى النهاية ليعمل لصالح الأموى الاسبانى.

ومنذ أن رسخ دعائم ملك تابعه الصالحى فى ناكور، تابع عبد الرحمن الثالث باهتمام بالغ الأحداث التى وقعت فى شمال إفريقيا، ثم بدأ يبحث عن أتباع له فى

الأراضي الأفريقية من بين الذين لا ينتمون إلى الأدارسة. ويبدو أن أنصاره في الأراضي الأفريقية قد حاولوا اقناع زعماء اتحاد مجراوة القوي، الذين كانوا يشكلون، إلى جانب اتحاد إفران، أحد الفروع المؤثرة من بين المجموعة ذات العنصر البربري في زناته. وكان هؤلاء المجراويون، الذين مارسوا البداوة وارتحلوا عبر أراضيهم في بقاع وسط المغرب كلها، من وادي شليف حتى ترميثين، تجمع بينهم روابط الولاء الممتدة بجنورها حتى القرن الثامن، وبين دولة الأمويين. أما في الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها، فقد كان زعيمهم هو محمد ابن جزار. ومما لا شك فيه، فإن المهدي عبيد الله قد تشكك في ولائه للقضية الفاطمية عندما قام في عام ٩٢٤م (٣١٢هـ) بتكليف قائده المخلص ماصالا ابن حبوس بمحاربته واضطراره إلى طلب العفو والصفح؛ ولكن أصحاب مجراوة بدت لهم الغلبة في المعركة التي وقعت بين الطرفين؛ وفقد ماصالا حياته، وخلفه على حكومة تاهرت أخوه باسال.

لم يكن العام التالي يحمل نفعا للجيش الفاطمية. فقد قام أمير إدريسى يتمتع بشجاعة خارقة، يدعى الهجّام، وأسمه الحقيقي الحسن ابن محمد ابن القاسم، حين تم الاتفاق على مشروع استرداد عاصمة جده الأكبر إدريس الثاني، بطرد حاكم الفاطميين ريحان، وظل ينتظر في ثبات قوات موسى ابن أبي العافية، الذي أتى لمهاجمته. وقعت المعركة الحامية بين فاس وتاڤا على وادي المطاحن، وهزم فيها موسى، وكان النصر في صالح الأدريسى، الذي لم يفكر في أن ينال قسطا من الراحة، بل عمل على توسيع فتوحاته في نطاق واسع يحيط بالعاصمة التي استردها مؤخرا. ومن جانبه، فقد عمل زعيم المجراوة، محمد ابن جزار، بعد أن أصبح زعيما لتاهرت بصفة مؤقتة، عقب إلحاق الخسائر بالقوات الفاطمية التي أرسلت لقهره. بهذا الفأل الحسن، وجد عبد الرحمن الثالث نفسه أمام فرصة مهيأة لخلع القناع عن وجهه وتأمين حصن منيع له على ساحل الشمال الأفريقي. وماترك الفرصة تمر من بين يديه. ففي عام ٩٢٧م (٣١٤هـ) أمر باحتلال مليلة، في الطرف الشرقي للساحل الريفى، ووطد النظام الدفاعى لهذا الحصن البحرى؛ كانت هذه هي المرة الأولى التي يبدأ فيها الأمير الأموى فعليا مشروعات التدخل التي كانت مخبأة في داخله تجاه مراكش (١١١).

ومنذ هذا الوقت بدأت الأحداث تتلاحق سريعا. فقد دام تأسيس الأدارسة لفاس زمنا قصيرا : حيث وقع الهجّام في الأسر ثم اقتيد إلى السجن، على أثر خيانة أحد أتباعه له. ثم سلّم إلى موسى ابن أبي العافية، وتم اعدامه أخيرا في ٩٢٧ - ٩٢٨م

(٣١٥هـ). وقد رأى إخوته وبقية أقاربه من الأدارسة أنفسهم مضطرين إلى البحث عن ملجأ بين قبائل المغرب الشمالي والتي مازالت على ولائها لأسرتهم، وخاصة بين قبائل جومارا. قسّموا أنفسهم إلى مجموعتين أساسيتين : الأولى، مجموعة ابنى محمد، تمركزت في الغرب حول مدينة البصرة، قامت باحتلال حصن طبيعى فى هذه المدينة وعملت على تقويته بكل ما أوتيت من عتاد، فوق قمة جبل يعرف باسم حجر النسر، فى شرق وشمال شرق المدينة الصغيرة المعروفة حاليا باسم القصر الكبير. أما المجموعة الثانية، مجموعة ابنى عمر، فقد تمركزت بين جومارا ابتداء من تيجيساس حتى أجوار سبته وطنجة. وقد كرّس موسى ابن أبى العافية جهوده لملاحقة الأدارسة، أيا كان المكان الذى يلجأون إليه، وأبادهم جميعا، فما تدخلت القبائل البربرية فى شمال المغرب لدى موسى حتى يترك هؤلاء الأمراء المنكوبين فى سلام، والذين كانوا، بعد كل شئ، من سلالة النبى (ص). ومن جانبه، وحين أصبحوا غير قادرين على شن أى هجوم، لم يجد عبد الرحمن الثالث لديه أى مانع من أن يدخل فى معاهدات معهم، على الرغم من تحامل أسرته الأموية على أسيرة على «العلويين». كما اهتم كثيرا بتأمين المساعدة المؤكدة من جانب محمد ابن جزار، زعيم الزناتة فى المغرب الأوسط، الأمر الذى من أجله، تبعا لما يذكره ابن خلدون^(١١٢)، أرسله فى عام ٩٢٨-٩٢٩م (٣١٦هـ)، كسفير للوالى محمد بن عبد الله بن أبى عيسى. وكرد على هذا المسعى من جانب العاهل الأموى، قام موسى بن أبى العافية بمهاجمة أحد أتباع قرطبة، الشيعى المؤيد، سيد ناقور، فاستولى على عاصمته ودمرها عن آخرها، واستمر عدة أشهر فى محاولة منه لإحلال السلام فى شمال المغرب وأورانيسابو، ولكن سرعان ما وقع شئ لم يكن فى الحسبان : احتلال سبته من قبل قوات أموية قدمت من إسبانيا.

كان ذلك الحصن البحرى الهام، الذى حظى بوجود عدد كبير من الأندلسيين بين سكانه، ترجع أصولهم إلى مدينة كالسنيا^(١١٣) -، فى تلك الأيام فى أيدي أسيرة صغيرة من أصل بربرى : بنو عاصم. عاش أميرها الحاكم، الرضا، تجمع بينه وبين جيرانه من الأدارسة علاقات يسودها التبصر والروية. وفى ٢٥ من مارس عام ٩٣١م (٢ ربيع الأول ٣١٩هـ) تواجد أسطول أموى، يقوده القائد فرج بن عفير أمام سبته، وقام بإنزال مجموعة من القوات احتلت المدينة دون ماصعوبة تذكر، وهى اللحظة التى بدأ فيها الواعظون يدعون فى خطبهم للأمير عبد الرحمن الثالث، أمير المؤمنين، والذى اتخذ لنفسه، قبل ذلك بعامين، إلى جانب لقب الخليفة لقبا آخر هو الناصر لدين الله.

كان احتلال سبتة يمثل بالنسبة للعاهل الأموي نجاحا هاما، حيث انه بهذا الاحتلال، أصبح يملك قاعدة صلبة للعمليات على الساحل المغربي، والتي تميز موقعها كثيرا من موقع مليلة، وذلك لوقوعها في مكان مواجه للميناء العسكري الإسباني المعروف باسم «الجزيرة الخضراء» وبعدها عنه عدة أميال قليلة، فمن خلال سبتة أصبح من الممكن له ليس فقط الامساك بزمام الأمور في يده بالنسبة للإدارة السياسية بالمنطقة كلها، وإنما أيضا التدخل عسكريا إذا ماتجراً موسى ابن أبي العافية على القيام بأية مغامرة داخل الإقليم. وإما أن يكون موسى قد أدرك صعوبة الموقف، وإما أنه قد أصبح لين العريكة بسبب الرسل التي توافدت عليه من جانب الخليفة الأموي في قرطبة، ما الخطب إذن؟ إن ما حدث في نفس العام الذي وقعت فيه سبتة في قبضة الاحتلال الذي فرضه الناصر أعلن انفصاله المفاجئ عن السلطة الفاطمية، بعد أن كان هو الممثل الرسمي لها في أرض المغرب العربي، ثم اعترف علنا بامارة سيد إسبانيا الإسلامية.

لقد أثمرت السياسة الفعالة، والمفاوضات النشطة والتدخلات المناسبة لعبد الرحمن الثالث نتائجها الطيبة. فبفضل الانضمام المتتالي للمجراوى محمد بن جزار والمكناس موسى بن أبي العافية، أصبح الجزء الأكبر من شمال مراكش ومساحات شاسعة من المغرب الأوسط تكون جزءاً من الكل الذي أصبح يعرف باسم «المحمية الأموية».

سياسة عبد الرحمن الثالث في أفريقيا منذ ٩٣١ وحتى ٩٦١ :

استمرت هذه «المحمية الأموية» بين قوة وضعف، حتى نهايات القرن العاشر، كما أنها مرت في الفترة الانتقالية بظروف عديدة. وعلى كل، فمنذ احتلال سبتة والاعلان عن تبعية موسى ابن أبي العافية، يتم رسم لخط السلوك الذي يتبعه عبد الرحمن الثالث أمام الأحداث التي تدور في المغرب العربي؛ التدخل بصفة مباشرة في أضيق الحدود من جانب قواته والعمل على إثارة أتباعه من زناته، بعد أغراقهم بالمساعدات الكثيرة، حتى يتمكنوا من مواصلة الكفاح ضد العدو الفاطمي، وذلك بهدف حصر نشاطه في أفريقية، التي تموج بالحركات، وأن يقي بهذا الأسلوب دويلاته في شبه الجزيرة الأيبيرية من خطر العدوان المباشر. ومنذ ذلك الحين فقد بدأ أيضا، بين بلاط قرطبة وسادة المغرب – المجراويين والافرانيين وكذلك الأدارسة الذين انضموا

إليهم - التبادل الدائم للسفارات ورسائل المودة. وحتى تكتمل أغراض الخليفة الأموي أكثر، سرعان ما نشبت في شرق المغرب أحداث، جاءت كالخاتم في الأصبع، إنها أحداث التمرد المعلن من جانب الخوارج بقيادة «أبو يزيد»، الذي اشتهر - «صاحب الحمار»، والذي استمر لسنوات عديدة يثير المضايقات للسلطة الفاطمية، وفي بعض الأوقات كان على وشك أن يهدم سلطانهم. لم يتمكن عبد الرحمن الناصر من اتباع سياسة أخرى، لأنه لكي تكون عملية الاستيلاء على سبتة بمثابة مقدمة لفتح حقيقي ولضم المغرب، كان من الضروري بالنسبة للعاهل الأسباني أن يصبح فارغ البال من تلك المناوشات داخل مملكته. لقد جاء احتلال حصن شمال المغرب سابقا بعدة أشهر على مجيء راميرو الثاني ملك أشتوريش وليون، أكثر أعداء أمير قرطبة من المسيحيين شجاعة وجراًة، إنه العدو الذي يجسد التهديد القادم من الحدود الشمالية الشرقية للدولة الإسلامية، من قبل رجل جسور محارب، وعليه فإن اندفاع العاهل الأموي للتدخل بأغلب قواته في الأراضي المغربية كان سيعد بمثابة التهور وعدم التبصر من جانبه.

إن الحكاية المسهبة للأحداث التي أججها وأوجدها العاهل الأموي في المغرب (بربريا)، ابتداءً من ٩٣١م، وردود أفعاله ضد المبادرات الفاطمية، تأتي باهتة ورتيبة مثلها في ذلك مثل الأحداث التي تشير إلى ما هو أساسي، إذا ما أردنا أن نعقد خيط لفافة حيكت بطريقة معينة. وفي نفس الوقت الذي أعلن فيه موسى ابن أبي العافية تبعيته لقرطبة، كان عليه أن يقبض على زعيمه الأندلسي من فرع ابنى محمد، الحسن بن عيسى، الملقب بأبي العيش، والذي وصل، بعد ملابسات عدة، ليستقر في جزيرة أرشجول المعروفة اليوم باسم راشحون، في مواجهة مصب التفنا. وحتى يمكن طرده من هناك، طلب موسى المساعدة من العاهل الأموي، الذي أمر رجال البحرية في بيتشينا وفي موانئ أندلسية أخرى بتجهيز خمس عشرة سفينة حربية، أرسلها إليه مع مجموعة من قوات الانزال. قام الأسطول الأسباني الذي رسي أمام أرشجول، بإنزال قواته في سهولة تامة، وبعد أن أصبح يحاصر جميع السكان، ظل ينتظر استسلامهم. الانتظار الذي ضاع هباءً، فأصبح لزاماً عليه أن يعود إلى الميرية، في خريف عام ٩٣٢م (رمضان ٣٢٠هـ)، دون أن يتمكن من الاستيلاء على الجزيرة أو أن يترك بها حامية (١١٤).

وأمام عجز الحاكم القديم للمغرب الأقصى، لم يستطع المهدي عبيد الله أن يقف مكتوف الأيدي، وهكذا، فقد قام في عام ٩٢٣م (٣٢٠هـ) باغراء الوالي الجديد على تاهرت، أحمد بن ياسل، ابن أخى ماصالا ابن حبوس، بمهاجمة موسى بن أبي العافية. وقع اللقاء بينهما في سهل ماسون، شرق تاتا، وكانت الهزيمة فيه من نصيب الزعيم المكناسي واضطر إلى الانسحاب نحو أراضيه في منطقة «التسول» تاركا للجنرال الفاطمي زمام الأمور في مدينة فاس ولكن حامد ابن ياسال، بدلا من أن يقوم باستغلال الانتصار الذي حققه، ارتكب خطأ الخروج سريعا إلى إفريقية، وحين وصل إليها أمطروه بوابل من اللوم لتركه موقعه ثم أدخلوه السجن. حدث ذلك قبل قليل من موت المهدي عبيد الله، والذي وقع في الرابع من مارس ٩٣٤م (١٤ ربيع الأول ٣٢٢هـ).

خلف المهدي ابنه أبا القاسم محمد، الملقب شرفيا بـ «القائم بأمر الله». وقد شجع نبأ وفاة عبيد الله، موسى ابن أبي العافية ليعلن معارضته الفعلية من جديد، وبمساعدة رجل يدعى أحمد الجدهامي، تمكن - في عام ٩٣٥م (٣٢٣هـ)، من استعادة فاس. لم يكن يستمر سوى عدة أشهر، إذ أرسل القائم بأمر الله إلى أطراف المغرب قوات يقودها ضابط صقلبي يدعى ميسور. فتوجه إلى عاصمة شمال المغرب وحاصرها، بينما فر موسى ليلجأ إلى قلعة لوكاي، في أحد الأركان الجبلية في منطقة تازا. كما أرسل العاهل الفاطمي الجديد فتى آخر يدعى ساندال ليستولى على حصن ناقور. وتم الاستيلاء على هذه المدينة - كما رأينا، من جانب موسى ابن أبي العافية باسم المهدي قبل ذلك بسنوات - ونهضت مرة أخرى من الدمار الذي عانتته ونادت لحكمها أحد أفراد الأسرة الصالحية، المدعو أبو أيوب اسماعيل ابن عبد الملك. وبعد أسبوع من القتال، كسب ساندال ناقور، في سبتمبر ٩٣٥م (شوال ٣٢٣هـ)؛ قتل الصالحي؛ ووضع مكانه حاكم من كتامة، الذي رحل عن المدينة لينضم إلى زميله ميسور، الذي كان يحاصر فاس في ذلك الوقت. وبما أن سكان ناقور كانوا لا يزالون أوفياء لسياستهم التي تنطوي على بغض ومقت عبوديتهم للسلطة الفاطمية، لم يكد يخرج ساندال، حتى تخلصوا من حاكمهم، وأرسلوا برأسه إلى عبد الرحمن الثالث، ونصبوا مكانه حاكما آخر من الأسرة الصالحية، يدعى موسى، ويلقب بابن رومي. واستمرت هذه الأسرة الصغيرة على أرض ناقور التابعة لقرطبة حتى أوائل القرن الحادي عشر.

وفى هذا الأثناء استمر الحصار الذى فرضه ميسور وساندال على فاس دون أن يصبح فى الإمكان التنبؤ بالنصر فى النهاية، وعليه فقد قبل قواد الفاطميين الدخول فى مفاوضات مع المحاصرين، الذين تعهدوا بأن يعترفوا بالقائم وسلطته على العرش، والدعوة له فى الخطب الدينية بمساجدهم. ويعد أن رفع الحصار، قام ميسور، بعد أن تأكد مسبقا من مشاركة الأدارسة من ابنى محمد، بالتوجه إلى موسى ابن أبى العافية؛ لاحقته الجيوش الفاطمية وكذلك الأدارسة، وهنا رأى نفسه مضطرا للبحث عن مهرب فى سهول الجزء الأعلى من مولاية. حصل الأدارسة على مكافأة مجزية، نظير مشاركتهم، حيث كان من نصيبهم أن أصبحت أملاك الجنرال المكناسى تحت نفوذهم. وفى الحال، عاد ميسور إلى أفريقية.

كان لهذا الانتصار العظيم الذى حققته حملة قائد القائم أن رسمت نهاية للمشوار السياسى لموسى ابن أبى العافية، الذى وافته المنية بعد ذلك بسنوات قليلة، دون أن يتمكن من رد الاعتبار لمكانته التى كان عليها. وما كان خضوعه لعبد الرحمن، فى الواقع، ذا فائدة كبيرة للعاهل الأموى، الذى رأى، إلى جانب الأعداء التقليديين، تمرد ائتلاف الأدارسة الأشاوس عليه. ولهذا فقد بات أمر إبعادهم عن القضية الشيعية وجذبهم إلى قضيته، هو البرنامج الإجبارى الذى انطوى عليه نشاط الخليفة الأموى على مدى السنوات التالية. ومن جانبه فقد شرع الخليفة الأموى، الذى لم يكن يركن إلى الراحة، فى حملة على مصر؛ ثم استطاع، أن يسيطر على تمرد طويل ومهيب نشب فى صقلية؛ وفى نفس الوقت، وحتى يكون جبهة مضادة لزنانة المغرب الأوسط، بدأ يركن إلى خدمات الائتلاف المكون من أهالى صنهاجة وعلى رأسهم زعيمهم زيرى ابن مناد التلكانى، الذى أسس، فى هذه الفترة، اقليم تيارى، فى جنوب الجزيرة الخضراء، مدينة تعرف باسم أشير. ولم يكن للامتيازات التى أعطاهها القائم لأهل صنهاجة من أثر سوى إثارة حنق الزنانة عليه، وهم الأعداء التقليديين لهذه القبيلة ويحكمهم الزعيم المجراوى محمد ابن جزار، الذى كان تابعا لقرطبة من زمن بعيد. كان الخليفة الأموى هو المستفيد الأوحده من كل ذلك. كما تمكن الجنرال المكناسى حامد ابن ياسال، الذى سجنه المهدي حين عودته من المغرب عام ٩٣٣م (٣٢١هـ)، من الهرب عام ٩٣٩م (٣٢٨هـ) متوجها إلى إسبانيا حتى يعرض خدماته على الناصر، الذى أعاده مرة أخرى إلى المغرب الأوسط بعد أن غمره بالأموال ومعسول الكلمات.

ومنذ هذه الفترة التي وصلنا إليها وقع تمرد لم تتوقف سلسلته في المغرب الشرقي بقيادة «صاحب الحمار» أبي اليزيد مخلد ابن قيداد، وهي الفترة التي بدأت تمثل قلقا للنظام الفاطمي. وليس هذا هو المقام الذي يمكن لنا أن نتحدث فيه عن مشوار هذا الرجل المتمرّد^(١١٦)، الذي ينتمي حسب نسب أجداده إلى جماعة زناتة من ابني إفران. وبفضل الدعاية الواسعة والاعتماد على ما ابتدعه الخوارج، الذين أصبح لهم مذهب أحدث دويا دائما في أوساط البربر، وعليه فقد عرف أبو يزيد كيف يجمع تحت رايته كل الغاضبين الذين لا يحصون عددا ويعانون من النظام الطاغى الذي جثم على بلادهم متمثلا في الفاطميين، وسرعان ما تمكن من تشكيل قوة عسكرية مكنته من أن يلحق الهزيمة، مرة بعد أخرى، بقوات القائم التي أرسلها لتحجم نشاط أبي يزيد. وفي أشهر قليلة أصبح سيّدا لباجة، وتونس ورقادة والقيروان وسوسة. وبعد ذلك، عام ٩٤٥ م (٣٣٣هـ) فرض الحصار على المهديّة نفسها. ومع هذا، فإن أعمال الهجوم المتكررة التي وجهها صوب ذلك الحصن الكبير للفاطميين لم تكن ذات فائدة، وتمكن القائم، بفضل وصول المؤن التي أرسلها إليه تابعه الصنهاجي زيري ابن مناد، من أن يقاوم بفاعلية الهجوم الذي شنته عليه قوات أبي يزيد. وباختصار، أصبح على أبي يزيد أن يرفع الحصار عن المهديّة؛ وهنا فشلت سياسة أبي اليزيد فشلا بدأ معه انهيار المجد السياسي لصاحب الحمار، والذي بدأ يتراجع رويدا رويدا رافضا الاحتفاظ بملكيتة للمدن الأفريقية التي استولى عليها. وفي عام ٩٤٦ م (٣٣٤هـ)، مات القائم. وجاء بعده أبو طاهر اسماعيل، ثالث الفاطميين، ليخلفه، كان مشهورا بلقبه الشرفي «المنصور»، استمر في سياسته النضالية ضد المتمرّد بكل قوة، حيث تمكن من القضاء عليه في صيف عام ٩٤٧ م (٣٣٦هـ).

يمكننا أن نتخيل الاهتمام الذي تابع به عبد الرحمن الثالث، من أراضي إسبانيا البعيدة، تطور هذا النزاع الطويل والخطير، وبأى سعادة صفق للانتصارات التي حققها المتمرّد الخارجي؛ ورغم أن أبا يزيد كان زعيما لمذهب يراه المتشدد السني إلحادا، لم تكن الفائدة التي حققها ذلك الزعيم لتطلعات عبد الرحمن الثالث لمكاسب مادية قليلة، كما أبدى أسلافه اهتماما بالدخول في معاهدات سياسية مع بقية الخوارج في تاهارت وسيشيلماسة، ومن جانبه؛ فقد قرر أبو يزيد الدعم الذي قدمه للتأييد المعنوي لصاحب إسبانيا الإسلامية للقضية التي كان يدافع عنها؛ إنها الرعاية التي سعى إليها دون أن تكلفه أدنى مجهود. وبالفعل، ففي عام ٩٤٥ م (٣٣٤هـ)، أرسل إلى عبد الرحمن الثالث سفارة من أعيان القيروان، على رأسها تميم التميمي، ابن المحدث الشهير «أبو العرب». وقد تلقى عاهل قرطبة أولئك النواب بكل أنواع الترحيب. وجيل

الرعاية والعناية وغمرهم بالهدايا التي يقدمونها للمتمرد، وفي إحدى الرسائل التي كتبها أبو يزيد إلى الخليفة أحاطه علما بأنه: «يعترف بسلطانه ويعلم خضوعه له، ويقبله بصفة الامام»^(١١٧)؛ وفي العام التالي، وبمناسبة فشله، سحب ماسبق أن أعلنه، وكلف ابنه أيوب أن يلتزم به نيابة عنه. ويذكر المؤرخ الذي أورد لنا هذه السفارة المزبوجة أن الناصر قد استقبل أيوب بأسمى ألوان الترحيب، في محفل أحيط بكل أشكال الصخب، ووضع قصر الرصافة تحت تصرفه حتى يكون محلا لإقامته. ولا يذكر المؤلف شيئا عن المعاهدات التي من الممكن أن تكون قد وقعت بين الطرفين، على الرغم من أننا نزع من أيوب قد عاد إلى أفريقية محملا بمبلغ آخر من المال، خصص لدعم الخزانة الحربية لوالده^(١١٨).

وبينما عمل أبو يزيد على إضعاف سلطة الفاطميين في المغرب الشرقي ومحاصرته بالخطر العابر، كان المغرب الغربي يعج بعملاء العاهل الأموي، الذي كان يملك، كما كان مفترضا في تلك الأثناء، بين يديه وسائل الكسب في تلك المنطقة. ولكن الروايات التي وصلت إلينا عن الأحداث المغربية لهذه الفترة كانت مليئة بالغموض. ولهذا فإننا سوف نتبع فقط، في كل ما هو أساس، الرواية التي تذكر في تاريخ ابن خلدون، دون أن نتعهد بضمان سلامتها دائما في كل ما تنقله عن تسلسل تواريخ الأحداث. ففي نوفمبر عام ٩٤٤ م (ربيع الأول عام ٣٢٣ هـ)، أرسل عبد الرحمن الثالث وزيره قاسم بن محمد بن توملوس إلى سبته وذلك للقيام بحملة على ممثلي الفرع الإدريسي من ابني محمد. وقد تلقى هؤلاء، بعد هزيمة موسى ابن أبي العافية عام ٩٣٥ م (٣٢٣ هـ) من قبل الفاطمي الرعاية القديمة التي كان يقدمها سيد مكناس. كما ظل أبناء هذا السيد (مدين والبورى) رغم كل شيء، على علاقة بيلاط قرطبة، وسوءاً فعل الاثنان، بمحاولتهما لتكوين جبهة مضادة للأدارسة، في الوقت الذي لم يكن بينهما فيه نزاع، وهنا أصبح عليهما أن يلجأ إلى التحكيم أمام عاهل الأندلس. وفيما يتعلق بسادة زناتة في المغرب الأوسط، محمد ابن جزار وابنه الجاير، اللذان لم يتركيا بدورهما، علاقتهما بقرطبة تمر دون تحقيق نفع جليل من ورائها-، فقد تلقيا تعليمات بتقديم المساعدات الفاعلة للجنرال الأموي. وحين علم غالية ابني محمد نبأ الاستعداد لحملة ابن توملوس، سارعوا، يملؤهم الخوف، إلى الاعتراف بسلطان العاهل الإسباني، وهو ما كان يريد بالضبط. خرج عدد كبير من أفراد عائلة الإدريسي لتقديم ولائهم وخضوعهم للناصر، الذي أحسن استقبالهم بما هم أهله وأغدق عليهم الهدايا. ولم يتخلف عن الخروج من أسرة ابني محمد إلا واحد، هو سيد قلعة «حجر النصر»، القاسم ابن محمد، الملقب بالجنون. وسرعان ماتوفي في عام ٩٤٨-٩٤٩ م (٣٢٧ هـ).

وهنا أعلن ابنه أحمد الفضيل^(١١٩)، على عجل، وعلى العكس من أبيه، تبعيته للخليفة الأموي.

ومنذ ذلك الحين تتابعت على قرطبة سلسلة من الأمراء المغاربة، الذين قدموا ليؤكدوا للناصر ولاهم الذي احتضنوا به قضيته، وطلب المساعدة منه إذا وقعوا في مأزق، حتى يتمكنوا من استعادة حقوقهم. فهؤلاء هم الأدارسة وزناتة ومكناسة، يفدون، بمواكب مناصريهم، إلى الأندلس دائماً، يسلكون طريق مدينة الزهراء، حيث كان يستقبلهم الخليفة بكل حفاوة. وفي عام ٩٤٨ م (٣٣٧هـ) شوهد أبناء ابن أبي العافية يصلون إلى العاصمة الأموية، يصحبهم حمزة ابن ابراهيم، سيد الجزائر، ومن حدود هذه المدينة الأخيرة حتى سيشيلماسا والمحيط الأطلنطي كانت السلطة الاسمية لسيد الأندلس معترفا بها على كل تلك الأنحاء. ولا يعني هذا أنه لم تكن هناك أو هنا، بعض المحاولات للافلات من هذه السلطة، من جانب بعض الساخطين. هكذا على سبيل المثال، قام بعض الأدارسة المغامرين بتدبير دسياسة ضد ذويهم، وهنا تدخل العاهل الأموي، لمرتين، حتى يسكتهم في عام ٩٤٩-٩٥٠ م (٣٣٨هـ)، والعام التالي له. كما انتهز الفرصة كي ينتزع لنفسه حق السيطرة على قاعدة حرية جديدة في شمال المغرب: دخلت قواته إلى طنجة، فضمت إلى أملاكه في بساطة ويسر عام ٩٥١ م (٣٣٩هـ).

وحتى تلك الأثناء لم تكن إسبانيا الإسلامية لتتدخل بطريقة مباشرة في الحياة السياسية للمغرب العربي؛ ولكن من واجبنا أن نبين أنه، باستثناء المعقلين الموجودين على الساحل، ويحكمهما ضباط إسبان تعينهم حكومة قرطبة، كانت بقية الأراضي بعيدة تماماً عن التدخل المباشر للدولة الأموية، وكذلك فما كان يبدو أن الناصر قد أبدى طموحات تتعلق بمتانة الرابطة التي تجمع بينه وبين أتباعه وراء البحر. وفي الواقع، كانت الأحداث كفيلاً بأن تظهر له، على عجل، كيف كانت تلك الرابطة واهية.

كان الأدارسة أول من أعرب عن هواه في عدم الخضوع، وخاصة الفرع المنتمى إلى «ابن محمد»، الذين قام البعض منهم، بعد أن فقدوا سلطانهم على طنجة، بطرح موضوع إعمار المدينة المعروفة باسم تطوان، والتي دمرها منذ زمن قليل؛ كان ذلك بمثابة تهديد خفي لسبته التي أصبحت تحت سلطان العاهل الأموي مؤخراً، ولكن الخليفة رفض إجازة المشروع. قام الجنرال أحمد ابن يعلى، المرسل خصيصاً إلى إفريقية، بإحضار عدد كبير من الرهائن إلى قرطبة، وعلى رأسهم إثنين من أمراء الأدارسة : ابن وحفيد أحمد الفضيل، وفي نفس الوقت، أدت بعض النزاعات الداخلية

بين أفراد زناته المغرب الأوسط إلى إيجاد زريعة للسيطرة المجراوية لصالح الفرع الآخر من زناته، وهم ابنو إفران، وأخيرا، ففي الثامن عشر من مارس عام ٩٥٣م (٢٩ من شوال ٣٤١هـ)، وافقت المنية العاهل الفاطمي المنصور - والذي منذ انتصاره على أبي يزيد، ظل يتأمل، بسلبية غير مفهومة، تقدم عمليات التوسع الأموي في المغرب العربي والأوسط - وحل محله أبو تميم معد، الذي، ما إن وصل إلى العرش، اتخذ لنفسه اسما شرفيا هو المعز لدين الله، الذي بدأ، على العكس، يستأنف الروح الهجومية للفاطميين الأوائل ضد سيد إسبانيا الإسلامية، وأن يذكره، إذا ما كان قد نسي، بأنه لا يوجد شيء إلا وله جانبه المر.

وبعد قليل من مجيء المعز، قام زعيم المجراوة، محمد ابن جزار، بعد أن تملكه الغضب والخوف أن يحل شخص آخر محله ليكون هدفا لرعاية العاهل الأموي وفضله، وهو سيد إفران يعلى ابن محمد، باعلان تنصله من الاعتراف بسلطان الناصر، والزج بنفسه في أحضان السلطة الفاطمية. كان ذلك وقتا حساسا بالنسبة لسياسة العاهل الأموي في قرطبة، حيث اشتمل على عدد كبير من المتناقضات، فقد كان يرى بنظرة متفائلة كيف أن غريمة المعز يبسط في كل مرة نفوذا كبيرا تجاه غرب دويلاته. حدث شيء عمل على تسمم الأوضاع في تلك الأثناء. ففي عام ٩٥٥م (٣٤٤هـ) أرسل عبد الرحمن الثالث سفينة إلى المشرق، سفينة من النوع الضخم، تحمل كمًا من البضائع، وعلى امتداد ساحل أفريقيا، تصادفت سفينة العاهل القرطبي مع مركب كان متوجها إلى المهدية، يحمل على متنه رسولا أرسله الحاكم المسلم في صقلية إلى الخليفة الفاطمي. وهنا هاجم المركب الأندلسي المركب الآخر واستولى على حمولته وعلى الأوراق والمهمات المرسله إلى المعز. وأمام هذه الاهانة، أصبح رد الفعل فوريا ودون تفكير من جانب المعز؛ فأصدر أمرا إلى ممثله في صقلية الحسن ابن علي، بأن يذهب بأسطوله إلى ساحل الأندلس ويحاول القيام بعملية انزال هناك، وبالفعل، فقد دخلت كتيبة صقلية إلى ميناء ألمرية وأحرقت كل المراكب المتواجدة بها، بما فيها السفينة المعتدية، التي عادت من الاسكندرية لتوها؛ هذا بالاضافة إلى أن تشكيلا من قوات الانزال، الذي هبط إلى الأرض، قد ترك لنفسه العنان للقتل والتخريب، جامعا معه الغنائم وكثيرا من الأسرى. ومنذ بداية فترة حكم الناصر كانت هذه هي المرة الأولى التي يقوم فيها جنود الفاطميين بانتهاك حرية الأراضي الإسبانية.

وهنا بات من الضروري أن يقوم الجانب الآخر بالرد، وفي الحال أصدر خليفة قرطبة أمرا إلى جميع حكام الاقاليم يتضمن صب اللعنات فوق منابرهم على أمراء

الشريعة، وفي نفس الوقت المتزامن مع هذه الظاهرة المثيرة، والمقصود من ورائها اصابة أتباعهم بالذهول، أصدر الخليفة أمرا إلى جنراله غالب بالرحيل على رأس كتيبة، فيتجول من أجل السرقة والنهب عبر ساحل أفريقيا. أصيبت عمليات الانزال الأولى للقوات الأندلسية بالفشل؛ وفي العام التالي، عاد غالب يكرر المحاولة مرة أخرى، فخرج في أسطول مكون من سبعين سفينة، فأحرق مدينة مارسة الخرن، التي تعرف اليوم باسم لاكايّة، وسحق أجوار سوسة، وبعد ذلك، بينما هو في طريق عودته، سحق أجوار طبرقة. وفي نفس الوقت، قام عبد الرحمن الناصر بإجراء استعدادات هامة : وضع الترسانات الاسبانية في حالة نشاط كبير، كما جهز عددا من السفن ذات الحجم الكبير، وتحسبا لأي هجوم مفاجئ من جانب العدو على سبته، أصدر التعليمات بأن يتم تحصين الجوانب الدفاعية في المدينة وأن يتم رفع أسوارها لأكبر قدر ممكن.

وكذلك فما كان المعز، من جانبه، مستعدا لأن يضع سلاحه. ففي عام ٩٥٨- ٩٥٩ (٣٤٧هـ) قرر إرسال حملة - عهد بقيادتها إلى جنراله الزعيم جوهر، عتيق من أصل يوناني، وذلك من أجل استرداد المغرب حتى أقصى حدوده. وبهذه الطريقة، انطلقت تجاه الغرب فرق قوية، أعدّها أهالي صنهاجة وكتامة والزعيم المجراوى القديم محمد ابن جزار، التابع الجديد للفاطميين. كان الهدف الأول لجوهر هو تاهرت، ملك الافرانى يعلى ابن محمد، والخاضعة للرعاية الاسبانية : قتل يعلى ابن محمد، وبعد ذلك مباشرة قام الجيش الغازى بتخريب المدينة التى كان قد أسسها الافرانى، منذ سنوات، فى جنوب شرق ماسكارة الحالية، وهى مدينة إيفكان، وبعد أن انعطفوا صوب فاس التى ردت عدوانهم، توجه جوهر إلى سيشيلماسا، حيث أسر العاهل المدرارى، محمد ابن الفتح (الأمير الذى حكم منذ ٩٤٣م (٣٣١هـ)، والذى أعلن رفضه لمذهب الخوارج، الذى كان ومايزال الدين الرسمى لمملكته، لكى يعتقد المذهب المالكى، والذى تبني لنفسه هو الآخر لقب الخليفة والاسم الشرفى الشاكر لله). ومن تافيليتى، يبدو أن الجنرال الفاطمى قد تمكن من التقدم صوب الجنوب وبلغ شواطئ الاطلنطى، وذلك حسب مايمكن استنتاجه من رواية بعض المؤرخين. وبعد ذلك، صعد صوب فاس، واستولى عليها فى هذه المرة، فى الرابع والعشرين من نوفمبر عام ٩٥٩م (٢٠ رمضان ٣٤٨هـ). وبعد ذلك، جاب كل أنحاء الشمال المغربى، فاستولى على كل المدن، واحدة تلو الأخرى، فيما عدا، الحصنين الأمويين الموجودين على الساحل : سبتة وطنجة. وهنا أعلن العديد من سادة الأدارسة ومن بينهم الحسن ابن غنوم، الذى ذهب فى العام الماضى إلى قرطبة يستجدى مساعدة الناصر له، خضوعهم لقائد قوات المعز وبعد

عشرة أشهر، دخل جوهر إلى إفريقية منتصرا، ثم عهد إلى اثنين من الضباط السلافيين مهمة القيام بالمحافظة على السلطان الفاطمي واحترامه.

أدت نتائج الحملة السريعة والمتمردة التي قام بها جوهر إلى إيجاد جو من المرارة على مدى الشهور الأخيرة من حياة الخليفة عبد الرحمن الناصر. إن هذا الأمير لم يفقد الخليفة ما كان يتمتع به من حماسة، إلا أنه لم يعيش الوقت الكافي الذي يمكنه من إعادة الوضع إلى ما كان عليه. وافته المنية بعد ذلك بقليل، وهنا، في عام ٩٦١م (٣٥٠هـ) - نفس العام الذي توفي فيه أيضا تابعه القديم، الذي أصبح نصيرا للفاطميين فيما بعد، محمد ابن جزار -، لم يعد له في غرب المغرب كله أكثر من حصنين بحريين في مضيق جبل طارق : طنجة وسبتة. كان قليلا، وفي نفس الوقت، كثيرا. فامتلاك مثل هذين الحصنين على أبواب إسبانيا، سمح للخليفة، الذي ورث عبد الرحمن الثالث، الحكم الثاني، بأن يواصل، بنفس الحماس والإصرار اللذين تمتع بهما والده ودون أن يدخر في سبيل ذلك أيّا من موارد الخزانة، سياسة إفريقية ربما ماتزال تتسم بالواقعية، حيث كان، باعتماده على لعبة وسط بين العنصرية والوفاء بالذمة، كان لا بد في نفس الوقت من إيجاد نوع من التوازن مع النفوذ الذي يتمتع به الخليفة الفاطمي في إفريقية وخلفاؤه من بربر المغرب، وكذلك العمل على اجتذاب أكبر عدد ممكن من المؤيدين إلى الحظيرة الأموية.

٤- الخليفة وحياة الخلافة

عبد الرحمن الثالث، خليفة وأمير المؤمنين :

في أوائل عام ٩٢٩م (أواخر ٣١٦هـ) اتخذ عبد الرحمن الثالث أكبر قرار له، قراراً عظيماً المعنى، على مدى مشواره السياسي : قرر أن يتخذ لنفسه لقبين ساميين، أولهما لقب «الخليفة» وثانيهما لقب «أمير المؤمنين». وأن يضيف منذ ذلك الحين إلى اسمه اللقب الشرفي «الناصر لدين الله» (١٢٠).

في عدد من الصفحات السابقة تعرضنا لذكر الدوافع التي أدت بالأمير الاسباني - الأموي إلى أن يتخذ مثل هذه المبادرة، وماكاد يمر الثلث الأول من عهده، وبهذا القرار أراد الأمير أن يبرز أمام أعين أتباعه التوطيد التام لسلطته كعاهل، بحيث لا يصبح في إمكان أي متمرّد أن ينازعه داخل حدود مملكته، دون أن يعرض نفسه لحزمه الذي لا بد أنه ملاقيه. إن الرحلة التي قام بها عبد الرحمن الثالث إلى جنوب

الأندلس وزيارته لببشتر، المستردة، كانا يمثلان نوعا من جولات المفتصر. انتهت عملية احلال السلام فى المناطق الواقعة بين قرطبة والبحر المتوسط، وأخمدت البؤر الأخيرة لأعمال التمرد. لم يعد هناك مجال بعد لتعهدات صاغرة، مثل تلك التى كان يتورط فيها بعض أسلافه، وعلى الأخص جده عبد الله، بصفة دائمة، عندما كانوا يدخلون فى معاهدات، وكلهم مرارة، مع المتمردين من أصحاب النفوذ والقوة. لم يعد للخليفة بعد إلا أن يرسى دعائم سلطانه ومكانته فى الثغور الثلاثة التى كانت تغير على أملاكه من الجانب المسيحى، وذلك حتى يتفرغ تفرغا كاملا لمهمة الإدارة والتنظيم، وأن يخصص وقتا أكبر للسياسة الخارجية، وأن يعد العدة الهجومية ضد الخائنين فى الشمال الشرقى والشمال الغربى من شبه الجزيرة الأيبيرية، والكفاح فى المغرب ضد النمو المتزايد الفاطميين.

كان قرار مثل هذا، يشتمل، كذلك، على مغزى آخر. كان عبد الرحمن الثالث يفكر فى أن مملكته قد وصلت إلى حد كاف من القوة لى يعيد من جديد تأسيس الدولة الأموية القديمة التى محيت من الشرق. فما كان الورثة الشرعيين للخلافة الراشدة يتمثلون فى العباسيين، أو فى الملوك المنشقين فى إفريقية، ولكن فى المروانيين - المتمثلين فى شخصه هو - والذين عرفوا كيف ينقلون سلطانهم من دمشق إلى قرطبة ويحافظون عليه شامخا رغم كل العقبات المتراكمة التى واجهتهم. ومن خلال الرسالة الدورية التى أعلن فيها عبد الرحمن الثالث قراره هذا لحكام الأقاليم الإسبانية الأندلسية يبدو لنا، فى وضوح تام، أن تلك كانت الفكرة الأساسية للأمير الجديد (لأمير المؤمنين الجديد). «لقد رأينا من المناسب أن نأمر - قال لهم - فيما هو آت من الزمان، بأن تكون الدعوة المعلنة باسمنا مقرونة باللقبين : أمير المؤمنين، والناصر لدين الله، وهو الأمر الذى سيكون متبعيا فى كل الكتابات الصادرة عنا أو إلينا. وأى شخص، غيرنا، يدعو لنفسه بلقب الخليفة، فقد أخطأ، وادّعى لنفسه حقا ليس له وارتدى زيا ليس له، وإننا لنفهم، إلى جانب ذلك، أنه إذا مر بنا زمن طويل دون أن نستخدم لقبنا من حقنا فإن ذلك يعنى فقداننا لحق مكتسب، ورفضنا منا خالصا ورخيصة. وعليه، فإن الأمر قد صدر إلى خطيب العاصمة التى تحت إمرتك بأن يستخدمه منذ الآن فى خطبه الدينية، وأن تستخدمه أنت أيضا عندما تتوجه بالكتابة إلينا أو مخاطبتنا».

وعلى فرض اعترافنا بأهمية القرار الذى اتخذه عبد الرحمن الثالث، فليس لهذا يصبح علينا أن نبالغ فى مبالغته من مدى على أرض الواقع. فما كان له من قيمة، على

مرأى بقية العالم الاسلامى، وماحق أن تكون له، أكثر من الصورة الرمزية؛ وبما أن العاهل الاسبانى لم يكن الأول الذى قطع بهذه الطريقة الرباط، المتراخى للغاية، الذى كان يربط العالم الاسلامى أجمع بالزعيم النظرى للجماعة الهائلة من المؤمنين. إن وحدة الأمة - بالمعنى الذى يقصد به عند تعريفها فى اللغة العربية-، كان قد تلاشى منذ زمن بعيد، كما تلاشى أكثر منذ أن أعلن الشيعى، عبيد الله، أنه سوف يطلق على نفسه لقبى الخليفة وأمير المؤمنين، وذلك حتى يسخر من عدوه الرئيسى، خليفة بغداد. ربما تكون هذه الحادثة أكثر من انهيار الخلافة فى المشرق، هى التى دفعت بالناصر إلى أن يفقد، بدوره، احترامه النظرى للخلافة الوهمية^(١٢٢). وفى الواقع، فقد رأينا، حتى الآن، ودون أن نجرح حساسية بطانتهم الدينية، فقد لجأ الأمراء الأمويون فى الأندلس إلى استخدام ألقاب رصينة، إذ أنهم إذا ماتسموا من ذلك الحين «بأبناء الخلفاء»، وذلك بهدف العمل على تبرير أحقيتهم بالخلافة بطريقة ما، لأصبح عليهم أن يقتصروا على استخدام ألقاب «الملك»، و«الأمير»، إلى جانب ذلك، حتى يضيفوا على أنفسهم وأسمائهم نوعا من المدح والإجلال^(١٢٣). وعلى الرغم من أن النقوش الرسمية السابقة على القرن العاشر غير وفيرة، إلا أن الكتابات العربية الاسبانية القديمة تثبت مثل هذا الاحساس بالتدنى فى استخدام ألقاب الأمراء؛ وهكذا، فعلى الحجارة التى تحتفظ بذكرى تأسيس المسجد الجامع فى أشبيلية (٨٢٩م = ٢١٤هـ) وقصبة ماردة (٨٣٥م = ٢٢٠هـ) لم يكن عبد الرحمن الثالث يتلقب بغير لقب الأمير^(١٢٤). وعلى النقيض من ذلك، فمنذ بداية ٩٢٩م وحتى أواخر خلافة قرطبة، نلاحظ أن استخدام النعوت الملكية قد أصبح يجرى بطريقة غير معتدلة، تبرز رفعة شأن سيد اسبانيا الاسلامية لبعض الوقت. وفى النقوش التأسيسية، وطبقا لبروتوكول كان يراعى بكل دقة، أصبح يطلق على الخليفة، لقب الإمام وأمير المؤمنين؛ وغالبا ماكان يسبق اسمه الشخصى بإشارة لها دلالة واضحة هى : عبد الله، وذلك بهدف أن يستحضر فى الأذهان تواضعه أمام الخالق، وربما أيضا من أجل التخفيف بعض الشيء من الطابع الفاضح للألقاب الملكية.

وقد كان عبد الرحمن الثالث أيضا أول خليفة أموى اسبانى يتخذ لنفسه، كتكملة للألقاب السامية، لقبا شرفيا، على نسق ماكان تسمى به ملوك بغداد والقيروان. هذا اللقب يكمن فى صفة ترتبط بطريقة ما بالذات الالهية، رغم أنه كان يظهر اللقب مستخدما من جانب العامة غير مضاف إلى هذه الصفة فى بعض الأحيان، وذلك

باعتباره مفهوما لا يحتاج إلى ذكر؛ وهكذا، فقد كان يقال : الناصر لدين الله، أو ببساطة الناصر. وبهذا فقد سن الخليفة الأندلسي سنة، رعاها كل ملوك أسرته. وفي القرن التالي، أصبح الورثة الذين توافدوا على امبراطوريته يدعون لأنفسهم أيضا، بدورهم، لقبا، أو اثنين، من نوعية تلك الألقاب الشرفية^(١٢٥)، والتي كانت تسترعى الانتباه كثيرا، كما كانت تثير في بعض الأحيان حمية الهجاء عند الشعراء والمؤرخين. وعلى كل، فقد أصبح اتخاذ اللقب الشرفي منذ ذلك الحين في الأندلس، وحتى نهاية النصرين، كعلامة خارجية على الهيبة والسلطان. وكذلك، ففي بلاطهم المتواضع، قام الملوك والمسيحيون باطلاق صفات دالة على الاطراء على أنفسهم في بعض الأحيان، ولعلمهم يقلدون في ذلك جيرانهم المسلمين، وهي صفات لها طابع رسمي تؤكد الوثائق المعاصرة^(١٢٦). وفي غير ذلك، كان موضوع حق حمل اللقب الشرفي داخل شبه الجزيرة الأيبيرية حتى القرن الرابع عشر على الأقل، خاصية تعد حكرا على شخص الملك، وباستثناء الحالة الخاصة جدا لمديرى القصر والأمراء، فإنه من النادر جدا أن يقوم عاهل بمنح أى عظيم أو جنرال فى بلاطه أيًا من هذه الألقاب الرنانة - مثل سيف الدولة أو صلاح الدين، على سبيل المثال-، والتي كان الشرق الإسلامى يستخدمها بوفرة غامرة على مدى العصور الوسطى^(١٢٧).

كانت النتيجة الأكثر أهمية للبادرة التي قام بها عبد الرحمن الثالث فى عهده، أن سمحت له بأن يحيط طابع السمو الملكى بهالة من القوة؛ والتي رفعتة إلى درجة الهيمنة الروحية، ناهيك عن الدنيوية فى نفس الوقت، ومنحته شيئا لم يكن يملكه أسلافه، فعمل بذلك على توسيع وتعزيز المفهوم الذى كان سائدا لدى هؤلاء عن حقوق الامتياز. أصبح الخليفة يتمتع بسلطة مطلقة، دون معارضة من أى نوع، لم يكن يتمتع بها أمير بسيط؛ وأصبح هو الراعى الأعلى للعدالة، والحكم المعصوم من الزلل، فحيت يصدر قرارات لاينفع معها رد ولا استئناف. وسنرى أنه إذا ما قدر لهيئة «العدالة المعتدلة» أن تستمر هكذا تحت حكمه، فإن ذلك سيكون فى البداية فقط، ولكن بدون أن يضع عوائق أمام سلطانه المحدود. وهنا أصبح الحاجز الذى يفصل الأمير عن أتباعه سورا لايمكن تجاوزه، فلم يعد الخليفة يستطيع الآن، مثلما كان الحال بالنسبة لأغلبية أسلافه الأندلسيين، يسير جنبا إلى جنب مع شعبه، ولا أن يتلقى شكواه مباشرة، ولم يعد بإمكانه أيضا أن يقنع بحياة شيمتها القناعة وعدم الأبهة. ومنذ الآن، أصبح التفاخر والتباهى من أهم السمات الواضحة للملكية. كان اللقب الذى أسسه بعض

أسلافه، وخاصة عبد الرحمن الثاني، قد أصبح أمرا طاغيا، وجعل العاهل مرهونا بأحد القصور التي يملكها. تحول الملك بعد ذلك إلى شخصية معقدة للغاية، بعيدة، وعصية على الفهم، ولا يمكن لقاؤه إلا في بعض المناسبات المتباعدة، حين كان يتفضل بالظهور وسط موكب مهيب كي يتلقى هتافات الجماهير الشعبية. ولم يكن يسمح بالحضور إلى مجلسه إلا لطبقة متميزة. ومنذ الآن فصاعدا، أصبحت الهيبة التي تصدر عن شخص الخليفة المهيب والفخر الذي بدأ يحكم كل مظاهر حياته الرسمية، تحيط العاهل بنوع من الهالة والقدسية. وهنا أدرك عامة أتباع عبد الرحمن الناصر أنه بدأ يظهر رويدا رويدا في الصورة التي تليق بالسيد الذي تحيطه العظمة ولا يمكن الوصول إليه، حيث كان يقوم وهو في قصره، الذي لا يسمح بدخوله إلا للصفوة المفضلة من الأثرياء، يحكم على هواه ودون ما استتاف مقادير الأندلس.

دائرة أسرة الخليفة

أصبح عبد الرحمن الناصر يتمتع بكل مظاهر العظمة والأبهة التي أحاطت بشخصه بعد أن قضى خمسة وعشرين عاما ضحى فيها بنفسه في سبيل الامارة، أي في أوائل النصف الثاني من عهده. وسوف نرى أنه قرر في نفس الوقت القيام ببناء مدينة الزهراء، حتى يصبح بإمكانه أن يتمتع، إلى جانب قصره بقرطبة، والأبعاديات التي يملكها حول العاصمة، بمحل إقامة أكثر راحة، يحاط بإطار من الأبهة يسر الزائرين. وفي الوقت نفسه توافرت داخل بلاط الملك مجموعة كبيرة من الناس تعمل في خدمته الخاصة وخدمة بيته، فتكونت منها طبقة اجتماعية بقرطبة غدت متميزة، طبقة من الارستقراطية الناشئة في القصور، أخذت تتمتع بالثراء والنفوذ، حتى أصبحت، بعد مرور عقدين من الزمان، تلعب دورا سياسيا مشئوما، حتى جاء المنصور ابن أبي عامر فردها إلى صوابها. ولكن قبل أن نتناول كيفية نشأة تلك البطانة الداخلية التي أحاطت بالأمير، يجب أن نلقى نظرة على دائرة أسرته.

لقد وجد الأمير عبد الله، في خريف حياته، أبناءه الذين كثر عددهم قد أصبحوا يعيشون بعيدا عنه. إذ أجبرهم على الحياة خارج القصر، في بيوت بسيطة داخل العاصمة. ومازلنا نذكر أيضا أن هؤلاء الأمراء لم يضعوا أية عراقيل أمام اعترافهم بالأمير الشاب وسارعوا إلى أداء يمين الولاء بين يديه. وقد أعرب عبد الرحمن الثالث عن امتنانه لهم وقربهم إليه. وتلقى الأعمام، كما كان لقبهم الرسمي بالنسبة له، أملاكا

جديدة وعطايا منتظمة كانت تدفع إليهم من خزانة الملك الخاصة. وقام أحدهم، المدعو عبان، الذى قام ببعض المهام العسكرية فى حياة والده، بقيادة حملة، لحساب ابن أخيه، فى ربيع عام ٩١٥ م (٣٠٢هـ)، على اقليم مالقه (١٢٨)، ولقى حتفه فى نهاية العام نفسه. وبعد هذا بقليل، كان لزاما على عبد الرحمن الناصر أن يظهر الشدة لأصغر أعمامه، العاصى، والذى حاك ضده بعض الدسائس، على أمل أن يخلفه، وهى الرغبة التى كانت تراود أمويا آخر، يدعى محمد ابن عبد الجبار. وصدر الأمر باعتقالهما وإدانتهم، فتبادلا الاتهامات فيما بينهما، ثم أعدما فى السابع من نوفمبر عام ٩٢١ م (٣ رجب عام ٣٠٩هـ). أما الأبناء الثلاثة الآخرون للأمير عبد الله، فقد بدأوا يتوارون عن الساحة، وأنهوا أيامهم فى الظلام.

يسجل المؤرخ أريب بن سعد فى عناية تامة، فى المكان المخصص للتواريخ، تواريخ الميلاد الخاصة بأبناء عبد الرحمن الثالث، فأكبرهم، أبو الوليد هشام، مات صغير السن عام ٩١٦ م (٣٠٣هـ). وقبل ذلك بعام، فى ٢٠ يناير عام ٩١٥ م (الأول من رجب عام ٣٠٢هـ)، أنجبت محظيته مرجانة ولى عرشه، أبا العاصى الحكم. لم يكن يتمتع بعدد كبير من الأولاد الذكور مثلما كان الحال بالنسبة لأسلافه، إلا أن أسرته من أبنائه الذكور بلغت عند وفاته ما يقرب من عشرة أبناء، دون أن نحصى أولئك الذين وافتهم المنية أثناء حياته. وغير الحكم الثانى، الذى عاش له ولد واحد، هشام الثانى، ولم يكن له خلف، نجد أن أربعة من أبناء عبد الرحمن الثالث وهم : عبيد الله، وعبد الجبار، وعبد الملك، وسليمان - يعدون الأسلاف المباشرين لآخر ملوك بنى أمية الذين سيحكمون، بصورة عابرة، فى الثلث الأول من القرن الحادى عشر، وذلك أثناء العاصفة السياسية الكبيرة التى عصفت بالأندلس كله.

تم تعيين الابن الأكبر لعبد الرحمن الثالث، الحكم، فى وقت مبكر كوريث للعرش، وطوال فترة انتظاره الوصول إلى الحكم، التى طالت كثيرا، كرس حياته للدراسة، رغم أن والده قد أشركه فى إدارة الأعمال العامة. وسوف نرى، أنه حين وصل إلى العرش، كان قد قارب الخمسين من عمره، ويحكى أن والده الناصر كان يعتذر أمامه عن طول عمره (١٢٩)، الذى أدى بالابن لأن ينتظر طويلا حتى يمارس سلطته الملكية. إن المؤرخين الاسبان - المسلمين يغمرون وريث عرش الخليفة الأول للأندلس بكم من الاطراءات يروونه جديرا به. والأمر الذى لايمكننا تحديده. نظرا للحذر الدنى من جانب المؤرخين، هو مدى صحة تورط الحكم فى مأساة اختفاء أحد إخوته والذى، مثله، كان يتمتع بخصال روحية جمّة وكبيرة. لقد اتهم ذلك الأمير، المدعو عبد الله، الملقب بالزاهد لورعه

الكبير (١٢٠)، ولعل ذلك بأسلوب التلفيق، بأنه المحرض لمؤامرة كانت تهدف للاطاحة بالناصر ووريثه مرة واحدة ثم وضع عبد الله نفسه على العرش. ليس هناك من نص يذكر لنا أن عبد الله ومؤيديه قد حاكوا الدسيسة حرفيا كما أملاها عليهم رسل الكاظميين، كما يذكر بعض المؤرخين المحدثين. ومن المؤكد أن الدسيسة قد اكتشفت بالفعل. تم القبض على عبد الله، وأما المتآمرون، ومن بينهم المترجم أحمد ابن عبد الله، فقد أعدموا في الحال. وأما الأمير، الذي قضى شهورا عدة في السجن، فلم يسمح له بالخروج منه في الثاني من يونيو عام ٩٥٠م (١٢١ ذو الحجة عام ٢٣٨هـ)، إلا لكي يعدم أمام عيني الخليفة. فما كانت حياة الابن تعنى في الحقيقة شيئا كبيرا في تلك الفترة، فقد تولى الناصر، الذي لقي والده نفس المصير، مع ذلك، عن كل مظاهر الرحمة : فكل جريمة ضد أمن الدولة، أيا كانت على سبيل الزعم وأيا كان مدبرها، لا كفارة لها إلا الدم. وقليلون جدا من الأمويين في إسبانيا الذين لم يلطخوا ذكراهم بجرائم مماثلة، والتي لم تكن تذهل أحدا في تلك الفترة من التاريخ.

ولا يكاد المؤرخون المسلمون يتحدثون عن أمراء الدم، ويشيرون في القليل النادر للأميرات، كما أن اشاراتهم تكاد تكون معدومة بالنسبة لمحظيات الملك، باستثناء المحظيات اللاتي ولدن من سيكون فيما بعد وريثا للعرش (١٣١)، وهو أمر لا يجعلنا نعرف الكثير عن «السيدة الكبرى» مرجانة، والدة الحكم الثاني، الذي خلف والده. ومع هذا، وتصديقا لما يذكره نفس المؤرخين، فإن إحدى المفضلات لدى الناصر قد حققت شهرة واسعة بعد أن حصلت منه على وعد بأن يطلق اسمها على المدينة الجديدة التي يقوم ببنائها : مدينة الزهراء. وسوف نرى فيما بعد كيف سيكون تفكيرنا في مثل هذا التأكيد.

إن كل شيء يدعو للاعتقاد بأن جميع أبناء الخليفة سواء أكانوا يسكنون القصر، أو إحدى الاستراحات الأخرى التابعة للعاهل، كان يعهد بهم إلى أحد المربين والمؤدبين، ليعلمهم القرآن والآداب العامة، حتى يبلغ الواحد منهم سن الرشد. وعند ذلك ينقلون إلى بيوت أخرى في قرطبة أو إلى أبعاديات حولها، حيث يعيشون (في الظل الذي فرض عليهم ولا خيار لهم فيه. فلم يكن بإمكانهم، كما كان يحدث في أيام الامارة، أن يذهبوا إلى عواصم الاقاليم الداخلية، ليضطلعوا فيها بمهام بعض المناصب الادارية أو العسكرية. إن القوائم التي يعدها المؤرخ أريب، والتي تعد أكثر مثيلاتها صحة، لا تذكر على الاطلاق أية تعيينات لأمراء من أسرة الخليفة في مناصب من هذا النوع. وما إن استقرت حياتهم بقرطبة، وأصبحوا يعيشون في سعة نظير ما يحصلون عليه من

مخصصات وما يعود عليهم من أملاكهم الخاصة، أصبحوا يلعبون دوراً، فى السلا
الوظيفى، إلى جانب «القرشيين» الآخرين، فى الاستقبالات المهيبة التى تجرى داخل
القصر، والمشاركة فى الاحتفالات التى تتم لتكريم والدهم فى كل عام. كانوا يعيشون
فى الغالب، حياة تتقلب بين اللين والشدة، بشرط أن يبتعدوا عن مصادر التمرد.

ساكنوا القصر الخلفى: أسرة الخليفة، الصقالبة :

كان الإطار الذى نسج حول الخليفة يوصف دائماً، سواء فى حياته الخاصة أو
الرسمية، بأنه محط لحركة دائبة من جانب الصقالبة والموالى، الذين شكوا ما يمكن أن
نطلق عليه بيته المدنى أو أفراد أسرته المحيطة به. وحتى يتمكنوا من الحركة فى حرية
تامة بما فيها الأماكن الخفية من القصر، التى كانت تحوى حريم الملك، أصبح من
الضرورى أن يكون هؤلاء الأفراد من الخصيان. فدائماً ما كان يوجد عدد كبير من
هؤلاء الخصيان حول الأمراء المسلمين فى المشرق والمغرب، سواء فى العصر الوسيط
أم فى العصور الحديثة. وفى القرن العاشر، كانت البيوت الملكية فى قرطبة تستخدم
هؤلاء الخصيان بوفرة. وكان هؤلاء الصقالبة، الذين أصبحوا يتوافرون على خدمة
الأمير وآل بيته، سواء كانوا من الخصيان أم من الفحول، كانوا يسمون بالغلمان، أما
الذين تمتعوا بمكانة عالية منهم داخل القصر الملكى فقد أطلق عليهم الفتيان. وبالنسبة
لهذين اللقبين : غلمان وفتيان – ومعناهما فى العربية واحد : فتى، يمتنع المترجمون عن
استخدام كلمة «وصيف» كمرادف لهما، على الرغم من أنهم لا يعدون كونهم خدماً ترك
الدهر بصماته على أبدانهم : المشيب والظهور المحدبة. وفى هذه الترجمة بالذات،
نفضل استخدام كلمة «أهلى» أو «رسمى» والتى، وإن كانت غير صحيحة مائة فى
المائة، فإنها لا تحتوى، كالترجمة الأخرى، لياً للخيال وتزييفاً للحقيقة^(١٣٢).

كان الصقالبة، خصيان أم لا، فى زمن الخلافة، من أصل أوروبى، وهو السبب
الذى من أجله أطلق عليهم اسم الصقالبة^(١٣٣)، وهو الاسم المناظر «للسلافى» أو
«السلافيين». ولكن على العكس من كل ما يمكن أن تشير هذه التسمية الجماعية من
اعتقاد، فلا يصدر هؤلاء الناس جميعاً، بوصفهم الدنى، من أصل أوروبى شرقى
فحسب. انها تسمية تكمن فى لفظة ذات معنى أولى ظل يتطور بسرعة، موازياً لكلمة
«عبد» فى اللغات الرومانية، حيث أن لفظى «سلافى» و«صقلبى»، يصدران عن أصل
اشتقاقى واحد ولهما نفس المعنى. إن جمع هذه الكلمة «الصقالبة»، الذى عادة ما يطلقه

الجغرافيون العرب في العصور الوسطى على سكان الأرض المجاورة لجازاروس Jázaros، بين قسطنطينية وبلاد البلغار، لم يتأخر إطلاقه في إسبانيا على الأسرى الذين أحضرتهم الجيوش الجرمانية من حملاتها ضد السلافيين، وأعاد السماسرة بيعهم فيما بعد في شبه الجزيرة الأيبيرية أو في ثغور أخرى من العالم الإسلامي أو حتى من الامبراطورية البيزنطية. وتبعاً لما يثبته الرحالة المشرقي ابن حوقل^(١٢٤)، الذي زار الغرب الإسلامي في منتصف القرن العاشر، فقد كان يطلق في إسبانيا بنفس الفترة اسم الصقالبة، على كل العبيد الاجانب من أصل أوروبي، وشكلوا جزءاً من جند الخليفة في قرطبة أو كانوا يضطلعون بمهام الخدمة في قصوره وعند حريمه، وكذلك فإن هذا الكاتب يبين أنه، تبعاً لما شاهده في رحلته إلى الغرب، فإن الصقالبة في عاصمة الأندلس كانوا يصدرون، ليس فقط من ساحل البحر الأسود، ولكن أيضاً من كالابريا Calabria ولبارديا Lombardia وسبتمانية وجليقية. ويبدو، حقاً، أن معظمهم كان يأتي عقب أعمال الهجوم التي كان يشنها القراصنة الأندلسيون على السواحل الأوروبية في وسط وغرب البحر الأبيض المتوسط.

كانت عملية خصي هؤلاء الفتيان الذين يقومون بأعمال الخدمة لحريم القصر شيئاً معتاداً في الغالب في اسبانيا نفسها. وحول كيفية اجراء تلك العملية يوجد بين أيدينا سلسلة من الأخبار الغربية للجغرافي المشرقي المقديسي^(١٢٥). كان الشباب الذين يقع عليهم الاختيار لاجراء مثل هذه العملية لهم ينزلون في ميناء بجانة ويحملون بعد ذلك إلى مدينة داخلية، هي بكل تأكيد مدينة اللسانة، حيث كانت العملية تجري بواسطة متخصصين من اليهود. كانت عملية خطيرة للغاية، وغالباً ماكانت تؤدي إلى وفاة المريض، السبب الذي من أجله ارتفع سعر الخصيان بصورة رهيبة، فوصل في بيزنطة، على سبيل المثال، أربعة أمثال سعر العبد العادي «الطبيعي». ومن ناحية أخرى، حسب الإشارة التي يذكرها القسيس لومباردو لويتبراندو^(١٢٦)، فإن تجارة الخصيان قد انتشرت كذلك في أوروبا المسيحية وكان تجار بردون Verduín هم الذين يقومون بعد إجراء عملية الخصي، ببيعهم إلى شبه الجزيرة الأيبيرية أو يعهدون بهم إلى بعض الوسطاء الذين يقومون ببيعهم من جديد داخل قرطبة.

كان هؤلاء الأسرى في ريعان الشباب حين وصولهم إلى إسبانيا. انخرط الجزء الأكبر منهم في صفوف الخدمة الملكية، على الرغم من أنه لاشئ يحول دون تصديق أن بعض البيوت الأرستقراطية كانت تضم بين جنبااتها بعضاً منهم عقب شرائهم. تعلم

الصقالبة اللغة العربية والرومانشية فى أسرع وقت، ومن المحتمل أنهم تحولوا إلى الإسلام. ومتلما كان الأمر بالنسبة للعبيد السود الذين تم جلبهم من أفريقيا، فقد ظلت تطلق عليهم أسماء تتسم بلطف شديد، عامة، وفى بعض الأحيان، على العبيد من الجنسين، مثل يمن أى «السعادة» وبشر «فرح»، ورشا «أمل»؛ أو أسماء حجارة كريمة، مثل عنبر وياقوت، أو حتى أسماء شعراء مشهورين من عهد الجاهلية، على سبيل المثال، طرفة، وزهير. وسواء أكانوا خصياناً أم لا، فكان الملك يعتقهم فى بعض الأحيان، فى حياتهم أو عند مماتهم، وكان يوصى بهذا فى بعض المراسيم. وبهذا، فقد تحولوا إلى موالى، وحتى يصبحوا متميزين عن المعتقين الآخرين، فقد أطلق عليهم لقب شاع بوفرة بين سطور كتب التاريخ ويبدو أنه لم يترجم جيداً فى الغالب : انه لقب خلفاء (مفرده خليفة). ومن جانب آخر، يمكن أن يكون هؤلاء الموالى الصقالبة وقد تم تنسيبهم أثناء عملية الخصى نسباً وهمياً يربطهم بسيدهم القديم. وهذا هو ما يشرح أن اثنين من الصقالبة المهمين، وكانا محط كلام كثير أثناء عهدي الحكم الثانى وهشام الثانى - الأول الجنرال غالب الذى لم يكن، بداهة، من بين الخصيان، حيث أنجب بنتاً، تدعى أسماء، تزوجت من محمد ابن أبى عامر، والثانى هو الحاجب جعفر، الذى كان حقا من الخصيان - قد أطلق عليهما سواء فى كتب التاريخ أو على النقوش، «ابن عبد الرحمن»، أى ابن عبد الرحمن الثالث، أول خليفة للأندلس، الذى يعتبر أول من منحهم وصفهم كرجال أحرار. كان طرفه المتحدث باسم العاهل نفسه، طرفة الصقلبي، قد أطلق عليه «ابن عبد الرحمن».

وصل عدد هؤلاء الصقالبة أثناء القرن العاشر إلى رقم يعتد به فى عاصمة الخلافة، وتبعاً لما تذكره إحدى الروايات التاريخية، فقد بلغ إحصاؤهم فى قرطبة إلى الأرقام التالية : ٣٧٥٠ - ٦٠٨٧ - ١٣٧٥٠. وقد أصبح بعضهم يعتق شيئاً فشيئاً من عبوديته، وفى هذه الفترة أصبحوا يحتلون مناصب هامة فى المجتمع. بلغ بعضهم حد الثراء، فأصبح يمتلك عقارات شاسعة، ويمتلك، بدوره، صقالبة من بنى جنسه يعملون لخدمته. هذا إلى جانب أنهم، نظراً لاحتكاكهم بالمدينة الأندلسية، قد بدى عليهم شئ من الرقة فى الحس والثقافة، فكان من بينهم أدباء متميزون: الشعراء والمولعون بالكتب. كتب أحدهم، حبيب الصقلبي، عملاً، خلال عهد هشام الثانى، خصصه للثناء على فضائل الطبقة وتقنييد الآراء التى بذلت مافى وسعها لتتفى تلك الفضائل عنها (١٣٧).

مامن شك فى أن الناصر لم يكن أول أمراء الأندلس الذين أحاطوا أنفسهم بالصقالبة، فقد رأيناهم ينتشرون فى بلاط غالبية أسلافه خلال فترة الإمارة : وكما

نعلم فإن عبد الرحمن الثانى قد اشترى عددا كبيرا، ووالده الحكم الأول لم يرفض خدمتهم له. ولكن فى بداية القرن العاشر بدأت الفترة التى بدأ الصقالبة يلعبون فيها أدوارا تزداد أهميتها رويدا رويدا، إلى جانب الخليفة، ومنذ اللحظة التى بدأ الملك يعهد إليهم، ملحقا الضرر بأمرأء أسرته وممثلى كبار العائلات الأرستقراطية فى قرطبة، بمناصب هامة فى الجيش والإدارة، والتى كانت حتى تلك اللحظة قاصرة على النبلاء العرب. وسوف نرى أنهم، عند سقوط الخلافة، كانوا يشكلون درجة إجتماعية مؤثرة للغاية مختلفة عن بقية السكان، وذلك حتى يتمكنوا من اقتسام ملكية تركة الأراضى التابعة للخلافة مع «الأحزاب» الأخرى، أو الطوائف العنصرية. وخلال عهدى الحكم الثانى وهشام الثانى، وكلما دعت الضرورة لذلك، ستكون لدينا الفرصة لابرار تدخلهم المشئوم فيهما. أما الآن، فسوف نقصر جهدنا على رسم النشاط الذى قاموا به داخل قصور الخلافة.

إن الرقم الذى أشرنا إليه من قبل، والذى يمثل عدد الصقالبة فى فترة ما، وهو ٣٧٥٠، تبعا لما ذكره أحد المؤرخين^(١٣٨)، يشير إلى عدد الذين يعملون فى الخدمة الخاصة، سواء كانوا يعملون كخصيان أم لا، والذين أصبحوا فى النهاية، خلال حكم الناصر، يعملون فى خدمة العاهل نفسه، فى مقر إقامته بمدينة الزهراء فقط. وعلى جانب آخر، وحسب ما يروى نفس المصدر التاريخى، كان حريم الملك يصل إلى ٦٣٠٠ امرأة، بما فيهن الصقلييات. ومهما كان من دهشة لهذين الرقمين فى الوهلة الأولى، إلا أنهما لا ينطويان على شئ من المبالغة، وذلك إذا ما فكرنا فى العدد الهائل للأشخاص الذين تضمهم حتى اليوم قصور المغرب. كما أننا نعلم، أيضا، أنه فى العالم الإسلامى، على مر العصور جميعها، كان الأمراء يأخذون مأخذ الجد عملية رعاية النساء اللاتى كن يمثلن جزءاً من حريم أسلافهم داخل قصور الخاصة بهم. ولتأمين الإمدادات الغذائية والخدمة وحتى النظام داخل البيوت المفعمة بالسكان، أصبح من الضرورى وجود حشد من المديرين والخدم والخادمت، والطاهيات والخصيان. هناك أعداد أخرى لاتقل دلالة عن هذه؛ ويغرض تجهيز الطعام لسكان مدينة الخلافة كان من الضرورى، تبعا لما يذكره بيان^(١٣٩)، الحصول على ١٣٠٠٠ رطل من اللحم، بصرف النظر عن الدجاج، أو طائر الحجل أو الأسماك. ففى كل يوم كان الطريق إلى مدينة الزهراء يزدحم بقافلة طويلة من الدواب تحمل المؤن وتبعا لما كان يصدره الكهرمانات من أوامر، أخذ الحرس والفتيان ينتقلون من مكان لآخر، مثلما يوجد اليوم على مدخل دار المخزن بالمغرب.

كان أكثر الصقالبة أهمية، أولئك الذين تمتعوا بامتياز مكنهم من القيام بتأمين الخدمة الشخصية للخليفة، والذي تم تنظيمه بواسطة بروتوكولات غاية في التعقيد. كان ذلك البروتوكول، في مجمله، مماثلاً لذلك الذي كان سائداً في بغداد في ذلك الوقت والذي أخذته العباسيون عن التراث الفارسي الساساني، والذي ظل حياً في العصور الأولى للإسلام^(١٤٠). وعلى رأس جهاز الخدمة في قصر الخلافة جاءت شخصيتان على درجة كبيرة من الأهمية : الفتيان الكبيران. وعلى الرغم من أنه لا يوجد نص يذكر لذكر بالتفصيل الطبيعة الحقيقية وامتيازات مناصبهما، فبإمكاننا أن نفكر في أنهما كانا مثل قادة البيوت المدنية والعسكرية للخليفة، والمسؤولين أمامه عن رقابة دقة النظام. المتعلق بهذا الجمع المعقد والمتزاحم داخل القصر، أو ابتداء من المكان الذي تنتهي فيه الأجنحة المخصصة للمكاتب الإدارية. كان الفتيان الكبيران يقتسمان هكذا قيادة الدائرة أو الحراسة الشخصية للخليفة، التي ورثت الحراسة القديمة المعروفة باسم Jurs «خُرس» التي كان يقوم بها أسلافهم.

ومن بين الصقالبة اختار العاهل مجموعة أخرى من ذوي المكانة الرفيعة في بيته، والذين كانوا يحملون ألقاباً نجد لها نظيراً في بلاطات أوروبا المسيحية في نهايات العصور الوسطى والعصور الحديثة. ألقاب مثل : صاحب المطبخ، وصاحب البنيان، وصاحب الخيل، وصاحب البريد، الذي كان يدير حركة البريد الملكي. وصاحب البيازيزة، الذي كان مكلفاً بتربية الصقور الأصلية، والتي كانت مخصصة لعمليات الصيد التي يقوم بها الملك. وصاحب الصاغة، الذي يدير مجموعة الورش (دار الصناعة)، الموزعة بين المباني الملحقة بالقصر، حيث يقوم فريق من العمال المتخصصين بصقل الأحجار الكريمة، ونقش المجوهرات التي كان يحتاجها الخليفة لتقديمها كهدايا بصفة مستمرة لزوجاته، والمفضلين لديه وزواره المتميزين. كان هناك ضابطان أو أكثر يضطلعون بمهمة حسن سير الأمور داخل مستودعات الأسلحة الملكية (خزانة السلاح)، حيث كانت تصنع وتخزن أسلحة بيضاء، ودروع، وسترات واقية. وأخيراً، فقد كان هناك صقلبي آخر من أصحاب الامتياز، يعرف بصاحب الطراز. كان يدير مصنعا أقيم في مكان تابع للقصر، تنسج فيه الأقمشة الرائعة من الحرير والذهب، تحمل اسم الملك وألقابه منقوشة عليها، بينما يقوم عدد من الخياطين المهرة بأعداد الكثير من بدل الشرف، من تلك الأقمشة الخاصة، والتي كان العاهل يوزعها، في مناسبات الأعياد الدينية أو الأحداث السعيدة في بيته، كهدية على أقربائه، وقواده وأصحاب الإمتياز داخل بلاطه.

قصر قرطبة، بيوت الضواحي ومدينة الزهراء :

حين تعرضنا لبعض الأمراء الأندلسيين، كانت لدينا الفرصة في أكثر من مرة للحديث عن قصر قرطبة والاشارة إلى أعمال التوسيع والتنظيم التي أجريت عليه في أواخر القرن الثامن. إن تاريخ هذا القصر^(١٤١)، يتوافر بصورة كبيرة، بفضل الاشارات الغزيرة، رغم عدم دقتها، التي يمكن العثور عليها منتشرة في كتب التاريخ الخاصة بالأسرة الأموية - الاسبانية. ومع هذا، فليس بإمكاننا أن نبرهن على صحة مثل هذه الاشارات - كما ستكون لدينا الفرصة لعمل نفس الشئ مع المسجد الجامع المجاور-، حيث إن القصر المسيحي، الذي أصبح اليوم سجنًا مؤقتًا، يحتل جزءاً صغيراً فقط من مساحة القصر القديم، الذي كان يضم أيضاً في محيطه الأراضي التي يرتفع عليها اليوم القصر الأسقي والمدرسة الكليريكية للقديس بلاخيو، وحديقة الشهداء، التي أطلق عليها هذا الاسم المحلي لأنها كانت المكان الذي تم فيه اعدام الشهداء المستعربين في القرن العاشر، ولو أن هذا لم يقم عليه دليل تاريخي لإثباته.

في الركن الجنوبي الشرقي من العاصمة، في الجانب المطل مباشرة على النهر، والمسجد الجامع، كان القصر الأموي يشكل مجموعة معمارية هامة، تحيطها الأسوار من كل جانب، وفي الوقت الذي بلغ فيه القصر أكبر سعة له كان محيطه قد بلغ ١١٠٠٠ ذراع. كان يشتمل على ثلاثة أجزاء متباينة، تتوالى وراء بعضها في اتجاه العمق : كان الجزء الأول يتكون من الأجنحة التي تشغلها مكاتب أمانات سر الخلافة؛ أما الثاني فكان يشتمل على الحجرات الملكية، وعلى مسافة منها كانت توجد حدائق فسيحة تعرف ببستان الملك؛ كان القصر يطل بواجهته الجنوبية الشرقية على الطريق المرصوف، الذي كان يمتد على جانبي المعبر وحتى الشاطئ الأيمن لنهر الوادي الكبير، كانت أبوابه الخمسة لاتفتح كلها مرة واحدة في نفس الوقت. وكان الباب الرئيسي منها، المطل، في أغلب الظن، على الطريق المرصوف، على امتداد سدة النهر، يعرف باسم باب السدة، وهو اسم لعله يرجع إلى سدة النهر، على الرغم من أن هذه اللفظة تعني أيضاً في اللغة العربية القائمة على أرض الأندلس «بلاط الملك»، وعلى كل فقد أصبح الاسم في النهاية يمتد إلى كل جنبات المبنى الذي كان ذلك الباب يؤدي إليه^(١٤٢)، والذي قد تم تخصيصه في القرن العاشر، على ما يبدو، للمكاتب الادارية. وباب آخر، هو باب العدل، كان يطل على الشارع الكبير الذي كان يهبط من بداية وسط المدينة وحتى المعبر : كان ذلك الباب قد افتتح منذ عهد الأمير عبد الله، وكان موجوداً على امتداد الممر المغطى الذي أعطى الأمير الأوامر بإنشائه حتى يتمكن من

المرور عبره إلى المسجد مباشرة، ودون حاجة إلى عبور الشارع^(١٤٣). وفى عام ٩١٨م (٣٠٦هـ)، أقام عبد الرحمن الثالث إلى جوار ذلك الباب، نافورة، لها ثلاثة أحواض وفوارة. وأخيرا نرى باب الحديد، وباب الوادى؛ وفى الجهة الشمالية، كان هناك باب صغير من الاستحكامات يسمى باب كورياً Quriya. بالإضافة إلى باب صغير خاص، يسمى باب الصناعة، يؤدى إلى الورش والمصانع المقامة فى الأماكن الملحقة بالقصر.

إننا لانعلم شيئا كثيرا عن الامكانيات الداخلية للمباني الخاصة التى شكلت معظم القصر. وبقي لدينا بعض المعلومات عن أسماء مجموعة من صالات الاستقبال وبعض النباتات بالحديقة، مثل «مجلس كامل» الذى تلقى فيه عبد الرحمن الثالث التكريم المقام له من جانب البلاط بمناسبة وصوله إلى الحكم، أو قصر «الحائر» الذى أشرنا إليه فى مناسبة سابقة، وأماكن أخرى عديدة. كان الناصر وفياً للتراث الذى تركه سابقوه، فأضاف بناية خاصة إلى تلك التى وجدت بقصر الأمراء. وحتى يحصل على الأرض اللازمة لذلك، فمن الواضح أنه قام بهدم بعض المباني التى كانت مشيدة هناك. أصبحت البناية التى أضافها الأمير عبد الرحمن تعرف باسم دار الروضة، ولانعرف عنها شيئا سوى أنه كان يعمل بها متخصصون فى البناء تم استقدامهم من الشرق الاسلامى وقسطنطينية، وكان يتم احضار الماء اللازم لذلك، عبر قنوات ومواسير، من سلسلة الجبال الثلجية المجاورة.

وكذلك فقد تحدثنا، فى مناسبات عديدة، عن دور الإقامة «منية»، المشيدة فى أجوار قرطبة، حيث كان الأمراء يفضلون البقاء بها خلال فترة الربيع. كان بعض هذه المزارع معدا، فى فصل الإقامة بها، لاستقبال كبار الضيوف من الزوار : على سبيل المثال، الرصافة، التى كانت عزيزة كل العزة على قلب عبد الرحمن الداخل^(١٤٤). ومنية الناعورة كانت هى الأخرى مقر الإقامة المفضل لدى عبد الرحمن الثالث طوال الفترة الأولى من عهده. ويرجع تاريخ إقامتها إلى عهد الأمير عبد الله؛ كانت تقع على شواطئ نهر الوادى الكبير، بعد بطحاء «المصاراة» Musara، على مساحة شاسعة من الأرض كان قد اشتراها جد الناصر قبل وصوله للحكم، وكان ترتفع وسط حدائق واسعة تروى بماكينة لضخ المياه من النهر. كانت الإقامة القديمة لنجى الخصى لعبد الرحمن الثالث، التى عرفت باسم منية ناصر، من بين الأماكن التى أحياها الأمير عبد الله. وبما أنها كانت مقامة على مساحة من أراضى الشاطئ الشرقى للوادى الكبير، والمجاورة لمداخن الرُبُض، كانت تشكل جزءا من ملحقات القصر^(١٤٥). وبعد قليل من الزمن أصبحت موضوعة تحت تصرف الأمير الوريث للعرش.

وماتأخر الوقت بعبد الرحمن الثالث، فى قصر العاصمة، الذى حرص أسلافه جميعا، والناصر نفسه، على إدخال بعض التغييرات عليه وتجميله، حتى بدأ يشعر بالضيق. كانت المُنَيَّات المقامة بين الحدائق الخضراء، التى انتقل إليها مسروراً عندما كان يقيم فى قرطبة لبعض الوقت، قد بدت غير كافية فى نظر الخليفة، بل وأصبح يراها غير ملائمة وجديرة به بعد أن أصبح خليفة وأميراً للمؤمنين. ولهذا كله، وفى منتصف عهده، أخذ الناصر يشعر بضرورة أن تكون له إقامة جديدة ورحبة، وهو الأمر الذى دفعه إلى اتخاذ قرار ببناء مدينة الزهراء^(١٤٦).

تم اختيار موقع هذه البناية الخلافية - والتى يفهم من اسمها أنها مدينة حقيقية، بواسطة الخليفة نفسه على مسافة خمسة كيلومترات شمال شرق العاصمة، فى موقع غير قابل لامتداد التطور والإزدحام العمرانى، إلا أنه يحظى باطلاله رائعة على الوادى الفسيح للنهر الكبير، ووراء النهر، تطل على منعطفات رحبة قرطبة. كان مكانا ملحقا بنهاية جبل صغير، وعمر، ملاصق لسلسلة جبال قرطبة يعرف باسم «جبل العروس» بالنسبة للجغرافيين العرب، وعليه، فإن المدينة الجديدة، بعد الاستخدام الذكى للانحدارات الأرضية، أصبحت تتكون من سلسلة من البنايات المدرجة، التى لايعوق بعضها البعض، وكانت تحظى جميعاً بشرفات واسعة تطل على المنظر الطبيعى المنسجم لمرج قرطبة.

إن مؤرخى عهد عبد الرحمن الناصر يتبسطون، على رغبة ومتعة منه، فى ذكر الأحداث التى واكبت بناء مدينة الزهراء، التى بدأت أعمال تشييدها فى ١٩ نوفمبر عام ٩٣٦م (الأول من محرم ٣٢٥هـ). وحسب ما يذكر بعض المؤرخين، فإن إحدى محظيات الملك، قد تركت له مالا وفيرا، عند موتها، فأراد أن يستعمله فداءً لبعض الأسرى الأندلسيين فى أرض الفرنجة، أى، الثغر الاسبانى. وما وجد من بعثهم لهذا الغرض أى أسير يمكن اقتداءه، وعليه، فقد نصحت الزهراء، إحدى المفضلات لدى الناصر فى ذلك الوقت، بأن ينفق هذا المال فى بناء مدينة جديدة تحمل اسمها. ولم يكن الخليفة ليتبع منها هذه النصيحة وحسب، بل، وحتى يحقق لها الأمل الذى تطلعت إليه محبوبة قلبه، فقد أمر بقطع حجارة سفح الجبل المجاور كى يزرعه بأشجار التين واللوز، وأكثر من ذلك، حيث أمر بتعليق تمثال للمحظية فوق الباب الرئيسى لأسوار المقر الجديد.

يبدو أننا قد انتقلنا إلى بلد الأساطير الخالصة، ولكن ليس من السهل أن نبرهن على أن مثل هذه التأكيدات كانت خيالا، أو كانت من صنع المؤرخين المتأخرين من بدايتها إلى نهايتها. إذ لو أن الناصر قد فكر فى أن يكون له مثل ماكان للملوك

المسلمين فى عهده، ولهذا بدأ فى بناء مدينة الزهراء، لكان من الأولى أن يطلق عليها اسم الناصرية، على غرار مدينة الفاطمى اسماعيل المنصور، فى افريقية، حيث سميت المنصورية^(١٤٧). والآن، لقد أصبحت المدينة الاسبانية تعرف باسم مدينة الزهراء، و«الزهراء» يمكن أن يكون اسما لشيء غير أن يكون اسما لامرأة. وإلى جانب هذا، فإن لدينا البرهان الذى لاغنى عنه على أن تمثالا أنثويا كان يوجد حقيقة فوق باب المدينة (على غرار ماكان يوجد فوق باب المعبر من تمثال العذراء) وأنه، فى عام ١١٩٠م (٥٨٦هـ)، أو بمعنى آخر، بعد قرنين ونصف من الزمان على تأسيس مدينة الزهراء أمر خليفة الموحدين يعقوب المنصور، حين مر بقرطبة، وذهب لزيارة أطلال الديار الأموية القديمة - كما يذكر المؤرخ الذى يروى الزيارة^(١٤٩)، بأن التمثال الذى نصب فوق باب المدينة لابد له من أن يزال، وهو مايعنى أن التمثال كان مايزال موجودا هناك حتى ذلك الوقت. وكثيرا ماكان أهالى قرطبة يعتبرون، فى القرن الثانى عشر، أن مثل هذا التمثال هو بمثابة الفأل الحسن وتكهنوا بأنه إذا ما أزيل، فسوف تحل الشرور الكبرى بالمدينة. فى مثل هذه الظروف يصبح من الصعب نفى وجود الزهراء المفضلة ووجود تمثالها، وبالتالى، عمق أصالة التراث الذى كان سائدا ومعروفا فى الغرب الإسلامى حول أصل الأسماء التى أطلقت على مقار إقامة الخلفاء.

تم تأسيس المدينة على مدى سنوات طويلة (من ١٣ إلى ٤٠ عاما، حسب ما يذكره المؤرخون). وقد خصص الناصر لهذا العمل جزءا كبيرا من ميزانيته : ثلث المدخلات من الضرائب، أو بمعنى آخر، مبلغا سنويا يصل إلى ٨٠٠.٠٠٠ دينار. وفى كل يوم كانت توضع أعداد هائلة من الحجارة المسومة التى بلغت ٦٠٠٠ حجرا، دون حساب الحجارة المصنوعة (الآجر). كان بها مايقرب من ٤٠٠٠ عمود، وبلغ عدد البنائين والحمالين والحمارين إلى مايقرب من ١٠.٠٠٠، كانت أجرة الواحد منهم تتراوح بين درهم ونصف وثلاثة دراهم. قام الأمير الوريث للعرش، الحكم الثانى بإدارة أعمال البناء، وكذلك، فقد وصل اسم المهندس المعمارى الأول، مسلمة بن عبد الله إلى ذاكرة التاريخ. وعند رسم خريطة المدينة أخذ فى الاعتبار موقعها، ويشير لنا المؤرخ الإدريسى - الذى لم يشاهد أكثر من أطلال المدينة المذكورة - كيف تم استخدام المنحدرات : حيث أقيمت المدينة على ثلاثة أجزاء مدرجة، خصص الجزء الأول منها، الأعلى، لقصر الخليفة وملحقاته؛ أما الجزء الأوسط فكانت تكسوه الحدائق، وكان الجزء الأسفل مشتملا على الحجرات الخاصة والمسجد الكبير.

لأنعلم شيئا عن تاريخ انتقال عبد الرحمن الثالث وبيته كاملا وبلاطه إلى مدينة الزهراء، على الرغم من أنه، لم ينتظر بالانتقال إليها حتى تنتهى الأعمال الدائرة، ففي

عام ٩٤٥ م (٢٣٣هـ)، أو بمعنى آخر، بعد تسع سنوات على تأسيسها، أصبح لدينا الدليل على أن هناك مراسم استقبال كبيرة أقيمت في مقر الإقامة الجديد. وكذلك فقد تم نقل الخدمات العامة رويدا رويدا، بالإضافة إلى دار السكة. كما أمضى خليفة عبد الرحمن الثالث، ابنه الحكم الثاني مدة من عهده بها وأضاف إليها تسع بنايات. ومع هذا، فيبدو أن الدمار قد لحق بمدينة الزهراء في وقت مبكر، بعد وصول الحكم الثاني إلى العرش، وخاصة منذ الوقت الذي وجدت فيه مدينة الزهراء كمدينة منافسة، والتي أسسها المنصور بن أبي عامر. وفي بدايات القرن الحادى عشر خربت المدينة عدة مرات من جانب المرتزقة البربر المتمردين. وفي عام ١٠١٠ م (٤٠١هـ) سقطت بصفة نهائية. وبعد ذلك بقرن ونصف، فى عهد الادريسي، لم يتبق منها سوى الأسوار، كانت القصور قد تهدمت، وأصبح لايسكنها إلا نفر قليل من الناس. يبدو أن اشارات المؤرخين، وخاصة المؤلف المقرى، فيما يتعلق بمدينة الزهراء فى فترة ازدهارها، قد تأكدت من خلال أعمال الحفر المنظمة التى بدأها المهندس المعماري الاسباني (بيلا ثكيت بوسكو - والذي ترجع إليه عملية اعادة تكوين بعض صالات الاستقبال فى الجزء العلوى-)، وقد تتابعت أعمال الحفر هذه على أيدي المهندسين الآخرين، ومازالت إلى الآن، وإن كانت تسير بخطى وثيدة، وينجم عنها أحيانا بعض الاكتشافات العظيمة. كان الوصول إلى المدينة يتم بواسطة طريق يمتد إليها مباشرة من قرطبة وينتهى عند الباب الأول، باب الأقبية، وقد سمي بهذا الاسم نظرا لبعض الأروقة المقبية التى كانت تحيط به. وهناك على الجانب الآخر من بطحاء فسيحة، استخدمت كثيرا كميدان للسلاح أو فناء للتشريفات، كان يفتح الباب الرئيسى للمقر، والمسمى، مثلما فى قرطبة، باب السدة، والذي كان يؤدي إلى رواق طويل يسمى السطح الممرد. كان ذلك الرواق يؤدي إلى صالونات الاستقبال الكبيرة. وكانت أسماؤها معروفة كالأسماء الأخرى. استخدمت فى تشييدها مواد غريبة وقيمة للغاية : كانت كل لوحة من المرمر تساوى ثلاثة دنانير، وكل عمود يساوى ثمانية؛ كانت الأعمدة تجلب فى معظمها من قرطاجة، ولكن تم احضار بعض الأعمدة من المرمر الوردى والأخضر أيضا من كنيسة صفاقس فى أفريقية. كما استخدم أيضا العقيق اليماني المعرق الذى جلب من إقليم رية بالأندلس والمرمر الأبيض المستقطع من محاجر سلسلة جبال فيلا برس، فى مقاطعة ألميرية. وسوف نرى، بعد ذلك، كيف أن القسيس المستعرب ربيع ابن زيد تمكن من احضار فنجان كبير وحوض منحوت، به نقوش تمثل أشكالا إنسانية، إلى الخليفة؛ وقد أعد كل ذلك فى سوريا أو قسطنطينة ونقل إلى الأندلس بعد تخطى آلاف الصعاب. كما نعلم، من ناحية أخرى، أنه، كترف لم يسمع به فى تلك الفترة، أمر عبد الرحمن الثالث

بعمل قفص فى محل اقامته بقصره الجديد يمتلىء بالعصافير النادرة وحديقة للحيوانات بها مجموعة من الحيوانات المفترسة تم احضارها من إفريقية بعد جهود مضنية (١٥٠).

كما اهتم عبد الرحمن الناصر بتحويل الجزء الأسفل من مدينة الزهراء إلى حى تجارى يليق بقصره، حيث أمر بإنشاء عدد من الأسواق ومنح كل تاجر من التجار الذين يزاولون نشاطهم بها مبلغا من المال وصل إلى ٤٠٠ درهم، وذلك بهدف تنشيط عملية إعمار المدينة. كان التنظيم لهذه المدينة مماثلا لما تم فى قرطبة، وعليه، فقد أصبح لها قاضيا، ورئيس شرطتها ومحافظها، باستثناء أفراد حراسة الخليفة الذين ظلوا مجتمعين داخل المعسكرات بالمدينة. ويكل هذه الاجراءات تحولت مدينة الزهراء ليس فقط إلى مدينة للمتعة، بل أيضا إلى مدينة تجارية وإدارية، رغم أنها لم تلحق بالتطور الاقتصادى لقرطبة القريبة منها أى نوع من الضرر.

كان عبد الرحمن الناصر، الذى كان اسمه غير قابل للانفصال عن مدينة الزهراء، من كبار المشيدين، على غرار غالبية الأمراء من أفراد أسرته، وللأسف الشديد، فإن كتب التاريخ تحدثنا فى مرات نادرة عن الانشاءات، سواء أكانت من نوع دينى أو ذات نفع عام، والتي كانت قد شيدت بناء على أوامره. لقد أمر بتشيد مئذنة المسجد الجامع بقرطبة، كما أمر بإنشاء مظلة فى فناء هذا المسجد، تقى، فى أيام الحر الشديد، المصلين الذين لا يجدون مكانا داخل تلك الأمكنة المعدة للصلاة (١٥١). وحسب ما هو موجود على أحد النقوش التى ترجع إلى عام ٩٥٨ م (٣٤٦هـ) يتبين لنا أن عبد الرحمن الناصر قد أمر بإقامة واجهة لنفس المسجد، ومثلما فعل فى قرطبة، فى العام التالى لمجيئه، أمر ببناء أبواب داخلية فى مواجهة الأبواب الموجودة بالأسوار. وبعد عامين أمر بفتح باب جديد، هو باب الأمير، فى سور العاصمة. فى عام ٩١٨ م (٣٠٦هـ) أمر أيضا بإنشاء المحراب فى مصلى المصارة Musara فى الهواء الطلق. أما فيما يتعلق بإنشاءاته فى مدن الأقاليم، فلا ندرى عنها شيئا أكثر مما ورد على بعض النقوش البسيطة؛ مثل إقامة نافورة فى إستجة عام ٩٣٠ م (٣١٨هـ) وبعض الترسانات فى طرطوش عام ٩٤٤ م (٣٣٣هـ)، وتأسيس الجامع الكبير فى طركونة، وإنشاء برج القلعة فى طريفة عام ٩٦٠ م (٣٤٩هـ) (١٥٢).

الحياة داخل البلاط الملكى فى عهد عبد الرحمن الناصر:

فيما يتعلق ببيروتوكولات الاستقبالات فى قصر الخليفة بقرطبة أو بمدينة الزهراء، فأنا بعيد عن كل البعد عن اقتناء أية وثيقة مماثلة لتلك الوثيقة القيمة : كتاب

الاحتفالات، المؤلف فى القرن العاشر بقلم الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع بوروفيروجينى؛ ولكن، فإن قراءة النصوص، فى كل الأحوال، والتى ليست بالقليلة؛ وتحتوى على وصف لتلك الاحتفالات المهيبة، قد سمحت لنا بالتأكد من أنها كانت احتفالات فاخرة، وأخذ الاهتمام بتنظيمها يتزايد فى إطار الآداب، كلما تقدم عبد الرحمن الثالث فى العمر. كانت تلك الاحتفالات تقام فى العام الواحد عدة مرات، فى أيام الاجازات الرسمية للمسلمين، أو بمناسبة بعض الأحداث الكبرى، كختان الأمراء، وعودة الحملات المنتصرة أو استقبال الخلفاء والملوك والسفراء الأجانب.

وخارج هذه الاحتفالات الصاخبة - التى كان الخليفة يتبنى خلالها موقفا حازما، وذلك تمشيا مع مكانته كراع للجميع -، أقيمت فى القصر احتفالات واستقبالات أخرى، اقتصرت على بعض المقربين من الخاصة - الوزراء، القادة، الأدباء-، فكان يسمح أثناءها بشئ من المودة وعدم التكلف. كما كان الموسيقيون من الجنسين، والراقصات، والشعراء المأجورون ومنشدو الشعر، يبدون مألديهم من مواهب أمام دائرة ضيقة من الخاصة، لم تكن للآداب العامة فيها نصيب كبير. وفى مرات أخرى، كان الخليفة، حين يرى نفسه فى حاجة للتسلية، يأمر بإحضار أحد المهرجين، أو يسعد بصحبة بعض العامة القاطنين بالقصر : من المفضلات المؤقتة، أو عمال الصقالبة. كما كان يسعد دائما بإغداق الهدايا على بطانته، ولم يكن يأبى تلقى الهدايا فى بعض المناسبات، من كبار رجال بلاطه. حظى أكبر موظفيه بلقب ذى الوزارتين، وهو ماسنشرحه فى حينه. حيث قدم له أحمد ابن شهيد، قبل أن ينال منصب «ذى الوزارتين» عام ٩٣٩م (٣٢٧هـ)، سلسلة من الهدايا القيمة، والتى إذا ما أحصيناها لكانت دليلا على درجة الثراء التى وصل إليها البعض فى تلك الفترة، ولا يتعلق الثراء بالعاقل الأموى فقط، وإنما بالبعض من ممثلى كبار الأسر داخل الأرسطوقراطية العربية، وكيف لها من ثراء، وحتى تستمر لهم أحقيتهم فى التمتع بثرواتهم الضخمة، كانوا يصدقون على الخليفة بكثير من الهدايا، وبهذا يحصلون منه. فى مقابل ذلك، على صلة أوثق وأقرب.

يبدو لنا ذات فائدة أن نضع أمام أعين القارئ قائمة للهدايا التى قدمها ابن شهيد للناصر، بالصورة التى حفظها لنا مؤرخو تلك الفترة (١٥٣)، وبهذا يمكننا - بالإضافة إلى القارئ - أن نكون فكرة عن الثراء الذى لم يسمع بمثله للعاصمة الأموية وعن الترف المطلق الزمام الذى كانت تعيش فيه بعض الطبقات العليا من المجتمع. إن ماتلقاه الخليفة من ابن شهيد هو : ٥٠٠.٠٠٠ رطل من الذهب المسكوك؛ ٤٠٠ رطل

من الذهب الخام؛ ٢٠٠ كيس من سبائك الفضة، والتي بلغت قيمتها ٤٥٠.٠٠٠ دينار؛ وكمية كبيرة من الخشب طيب الرائحة، والمستعمل في المباخر، والمسك والكافور؛ وثلاثين قطعة من الحرير المزركش، خمس عباءات ثقيلة من النوع الفاخر القيم، وعشر سترات من الجلد والفرو، سبعة منها من جلد الثعلب الأبيض لمنطقة خوراسان؛ وسبعة ملابس من حرير العراق، وثمانية وأربعون بذلة للنهار ومائة لليل؛ ومائة من قطع الفرو أو الخز السيبيري، وثمانية وأربعون جلاً للخيل من الحرير والذهب و٤٠٠٠ رطل من الحرير المنسوج، و١٠٠٠ رطل من الحرير الخام، أرسلت إلى المصنع الملكي المعروف باسم طراز Tiraz، وثلاثون بساطاً من الصوف، ومائة سجادة للصلاة؛ وخمسة وعشرون بساطاً من الحرير؛ ومائة درع واق لأيام العروض العسكرية وغيرها؛ وألف من تروس الحرب، ومائة ألف سهم؛ ومائة فرس، من بينهم خمسة عشر فرساً من أصول عربية وخمسة منها مدججة بكراس من الديباج؛ وخمس بغلات غالية الثمن؛ وستون عبداً؛ وأربعون منهم من الذكور وعشرون من الإناث، وكميات كبيرة من الأحجار المنحوتة والأخشاب اللازمة للإنشاءات الملكية.

إن هذا التقليد الذي ينطوي على قيام الأتباع الأوفياء من المقربين إلى الخليفة بتقديم الهدايا له، كان قائماً على الدوام في ظل الحكم الإسلامي وليس بإمكاننا أن نتجنب وضع هذا التقليد في إطار علاقته بنظام إنتعش واستمر خلاله بصفة متوافرة، وهو بيع الوظائف. وكذلك، فما كان لسفير قادم من بلد آخر يجد فرصة للقاء الخليفة إلا إذا كان محملاً بالهدايا القيمة على الرغم من أنه لن يعود، بدوره، خالي الوفاض على الإطلاق، إلى بلده.

٥- علاقات إسبانيا الأموية بالبلاد الأوروبية الواقعة فيما وراء الجبال :

قرطبة وبيزنطة في منتصف القرن العاشر :

لم يكد يمر عام، في الحقبة الأخيرة لعهد عبد الرحمن الناصر، دون أن يأتي إلى قرطبة عدد من السفراء، المسلمين والمسيحيين، يطلبون مقابلة الخليفة. كان أغلب الوافدين من أرض المغرب المجاور، وعادة مايكونون زعماء قبائل من تلك التي لاتحظى بمكانة رفيعة، وسادة من أصل عريق أو جمع من العلماء من مواطنيه ممن يحظون بمكانة وعلم معروفين. وعند مرورهم بالعاصمة الأندلسية، كان هؤلاء النواب المسلمون يوقظون الفضول الحالم لدى السكان وماكانوا يسировن أو يمرون قط دون علم الناس

للاحتفاء بمرورهم؛ ولكن هؤلاء العلماء لم يحتلوا مكانا واسعا مثلما احتل النواب المسيحيون فى كتب التاريخ، والذين كانوا يفدون إلى قرطبة من الجانب الآخر لجبال البرانس : من بروفنسا، وإيطاليا وألمانيا أو حتي عبر البحر أو البر، من بيزنطة البعيدة. كان هؤلاء النواب هم الذين يحدثون شعورا حقا لدى المواطنين الأندلسيين فى قرطبة، إذ أنهم قد فسروا قدومهم إلى عاصمتهم على أنه دليل أو مظهر من مظاهر السلطان والمكانة اللذين يتمتع بهما الخليفة الأموى، على الرغم من أنهم ماكانوا يهتمون فى الغالب – مثلما كان يحدث من جانب المؤرخين العرب – بمعرفة الأسباب التى أدت إلى وفادتهم. ويتصديق مذكرته كتب التاريخ الاسبانية – العربية، فإن السفارات المسيحية، فى عهد عبد الرحمن الثالث، كانت تأتي دائما فى شكل من يطلب المعروف، وماكانوا يكفون بنقل أية بلاغات دبلوماسية، سواء بطريقة مهذبة، أو تهديدية، تتعلق بأى أمر محدد، إلى الخليفة الأندلسى. والآن، لن يكون صعبا علينا أن نأتى، بعد ذلك بقليل، بالدليل على أن مثل هذا الأمر كان هدفا لبعض السفارات التى وفدت إلى الأندلس، ولكن، فى كل الأحوال، وأيا كانت الظروف التى أحاطت بمهمتهم، فقد كانت مثل تلك الوفادات تستقبل بالترحيب داخل قرطبة، وكانت مقابلاتهم مع العاهل المسلم محاطة بمظاهر الصخب والأبهة. مثلما حدث عند استقبال الملكة العجوز تودا، حين قدمت، يرافقتها ابنها جارثيا وحفيدها سانشو، لتحية الخليفة الأندلسى فى عاصمته.

وبعد مرور عشر سنوات على هذه الزيارة التذكارية استؤنفت العلاقات الرسمية بين امبراطور قسطنطينة وخليفة قرطبة، والتى قطعت على مدى مايزيد على قرن كامل. وهنا نتذكر، ذلك الذى قام به تيوفيلو، عام ٨٤٠م (٢٢٥هـ) حيث أرسل فجأة إلى الأمير عبد الرحمن الثانى، والذى كلف، بدوره، اثنين من رجال بلاطه بحمل رده إلى قسطنطينة^(١٥٤). يبدو أن مثل هذا التبادل للرسائل، المصحوبة بالهدايا المعتادة، لم يسفر عن أية نتائج. فالمساعى التى قام بها تيوفيلوكى تحظى باهتمام الأمير المروانى بمصير كريت Creta – التى سقطت قبل ثلاثة عشر عاما فى قبضة عصابة من المغامرين التى، عقب إحدى الحملات على مصر، قدمت من إسبانيا الاسلامية، كانت غير ملائمة تماما. فقد كان تجاوزا منه أن يطلب من أمير مسلم فى تلك الفترة، مهما يكن أمر عداوته المعلنة للعباسيين، أن يتدخل بالسلاح لمساعدة قوة مسيحية. ومن هنا، فإن الطلب البيزنطى قد قوبل بالرفض بأسلوب مهذب؛ وكذلك فما طمع خلفاء تيوفيلو فى إمكانية الحصول على مناصرة خليفة قرطبة لاستردادهم جزيرتهم المفقودة. وفي منتصف القرن العاشر، لم تكن بيزنطة قد استعادت بعد جزيرة كريت، رغم الجهود

المبذولة من جانب الأباطرة لطرده المحتلين المسلمين. استمرت الدولة التي أسسها أبو حفص عمر البلوطى فحكم الجزيرة، كما أن أحفاد المهاجرين الأندلسيين لم يفقدوا ذكراهم بوطنهم الأصلي، وأقاموا معه - تبعا للعديد من الدلائل^(١٥٥)، علاقات اقتصادية وثقافية متبادلة. وقبل وفاة عبد الرحمن الثالث ببضعة أشهر، وبالتحديد فى السابع من مارس عام ٩٦١م، فى عهد الحكم القصير لرومانو الثانى، قام الجنرال والامبراطور القادم نيثفوفوكاس باحتلال قلعة الخندق، التى تعرف اليوم باسم كانديا، وخلع الأمير عبد العزيز بن شعيب عن العرش، الذى كان الممثل الأخير للأسرة الاسبانية الكريتيية^(١٥٦). وقبل ذلك ببضعة أعوام، فى عام ٩٤٩م، قام قسطنطين السابع بورفيروخييتى بمحاولة، جمع لها من الأسباب الكثير، إنزال حاسم فى كريت؛ لكن حملته قد فشلت. وفى هذا التاريخ وبالتحديد تظهر أدلة على وجود علاقات دبلوماسية من جديد بين إسبانيا الاسلامية والامبراطورية البيزنطية.

لعل مثل هذا التوافق فى التواريخ لايأتى، مع هذا، عرضا. ففى منتصف القرن العاشر لم يكن لدى بتيوفيلو حتى مجرد حجة واهية ليحرك فى قرطبة القضية المتعلقة بكريت القديمة، والتى كانت تصفيتها أمرا خاصا ببيزنطة. كما أن الملكة المسلمة فى إسبانيا كانت، من ناحية أخرى، بعيدة جدا عن شرق البحر الأبيض المتوسط حتى تبدى الامبراطورية الاغريقية بها اهتماما ما. ومما لاشك فيه فإن قسطنطينة كانت تعلم جيدا ماهية التركة السياسية للإمارة الأندلسية القديمة، وكذلك النفوذ الذى اكتسبه الخليفة الناصر، وثرواته المتنامية بوفرة كبيرة، هذا إلى جانب علمها بالوصاية المحكمة إلى حد ما من جانب العاهل الأموى على الممالك المسيحية الصغيرة فى شمال الجزيرة الأيبيرية - وكيف تظاهر علنا بعداوته للعباسيين والفاطميين، أى الأعداء المعلنين للسلطة البيزنطية. ولكن هذا الموقف للعاهل الأموى، رغم أنه من الممكن أن يؤدى إلى إيجاد تقارب مؤقت بين قسطنطينية وقرطبة، لم يكن ليبرر بمفرده المبادرة بالمساعى التى قام بها بورفيروخييتى من جانبه. إن تلك المبادرة، رغم صمت المحللين العرب الاسبان، ظلت تنسب إلى العاهل المسلم.

هناك، فى الواقع، بعض الأدلة التى تسمح لنا بكشف الأسباب الحقيقية التى أدت إلى حث عبد الرحمن الثالث ليستأنف مع بيزنطة علاقات قد توقفت لوقت طويل، ولكن يصبح بإمكانه أن يحصل من ورائها على مصالح جمة. ويأتى فى المقام الأول المكانة السامية التى كانت تتمتع بها مدينة قرطبة بوصفها عاصمة للخلافة. وكانت قسطنطينة ماتزال، خلال القرن العاشر، مالكة العالم المتحضر، والأكثر نشاطا والوارث

الرقيب للتراث العلمى والفلسفى لليونان والشرق الهلينى. أدى ازدهارها إلى اطفاء جذوة المدن الاسلامية الأكثر ثراء وازدهارا^(١٥٧). ويشهد العديد من الأعمال الكبيرة بالعبقريّة الفنية لمهندسيها المعماريين، ومهندسى الديكور، والتحاتين، والرسامين، وعليه ففى مجالى المعرفة بالعلوم الفنية والدينيوية، نجد دولة ناشئة ثقافيا مثل الأندلس يصبح بإمكانها أن تحصل فقط على فوائد جمّة من جرّاء اتصالها بالعالم البيزنطى، وخاصة إذا ما جرى مثل هذا الاتصال على المجال الرسمى.

إن تقاربا إسبانيا بيزنطيا كان يعنى، بالإضافة إلى ذلك، فائدة أخرى تكمن فى مساعدة العاهل الأموى فى نيل أغراضه السياسية، وخاصة رغبة مملكته فى الانفصال عن بقية العالم الإسلامى. وبالرغم من جهود عبد الرحمن الثالث لجعل الأندلس عالما منفصلا بذاته، فما استطاع أن يمنع التراث الشرقى من أن يظل حيا ومحتفظا بشفافيته، فى مظاهر عديدة فى اقتصاده : فقد ظلت قرطبة تمثل رافدا من روافد بغداد؛ فيما يتعلق بالجمال والزينة اللذان يبدو ان بوضوح فى حياة قرطبة الصاخبة، والملابس والأثاثات التى تستخدمها الطبقة العليا من المجتمع مازالت تحمل إلى الآن بصمة زرياب، كما أن الآثار التى أنتشرت فى جنباتها كانت من نتاج أعمال أولئك الذين كانوا يقومون بتجميل المدن الكبرى فى العراق أو فى القيروان القريية. أو قد فهم الناصر أنه، لكى يفصل عاصمته عن التأثير القادم من الشرق، تصبح المعونة البيزنطية أمرا حتمياً ؟

إنه أمر يغرى بتصديقه؛ خاصة وأن علم الآثار يقدم لنا سلسلة من البراهين الكافية فى ذاتها للتدليل على هذه النظرية. إن مدينة الزهراء، التى تعد أكثر البنايات المدنية التى أقامها الناصر أهمية، تعطينا، لأول مرة فى تاريخ الفن الإسلامى الاسبانى، تأثيرا بيزنطيا لامجال للنقاش حوله. فديكور صالات الاستقبال الخاصة بمقر إقامة الخليفة - التى تشتمل على مجموعة من العناصر الزخرفية التى درسها المتخصصون، وذلك بفضل أعمال الحفر التى جرت فى السنوات الأخيرة - يبين لنا أنه، ابتداء من عام ٩٥٠م، قد أقدمت المملكة الأندلسية على قطع صلاتها بالتراث الفنى للعصر السابق، الأمر الذى جعلها تطلب من العمال اليونانيين بأن يطلعوا كبار الحرفيين من قرطبة على التقنيات التى يتخصصون بها. ففى زخرفة الأجزاء الأكبر أبهة فى مدينة قرطبة يبدو، فى الواقع، الحصى المعالج، والتطعيم الخشبى. وبهذه الطريقة، ستكون الفسيفساء المتعددة الألوان، والمستخدم فى زينة الكنائس البيزنطية أبرز ماتضمنه الجامع الكبير بقرطبة، والذى تم توسيعه وتجديده على يد الخليفة الحكم الثانى.

وهناك شواهد أخرى، وللأسف فهي قليلة، تبرز، على جانب آخر، ما أثبتته حديثاً علماء الآثار. وعلى ذكر تأسيس مدينة الزهراء، فإن أحد المؤرخين يلمح لمهمة الربيع بن زيد - رجل مستعرب سنعود للحديث عنه بعد قليل - قام بها إلى قسطنطينة وسوريا، والتي عاد منها بعد أن أحضر معه إلى مقر الخلافة فنجاناً كبيراً من المرمر المنحوت ومرصعاً بالذهب، وناقورة من العقيق اليمنى الأخضر بها نقوش لصور بشرية. ويضيف المؤلف نفسه أن الورش الملكية للصاغة. من أن أجل أكمال هذه المجموعة، تلقت في قرطبة تكليفاً بصهر ١٢ تمثالاً من الذهب، مع لآلى مرصعة، تمثل كل واحدة منها حيواناً، سواء أكان هذا الحيوان طائراً، أم من ذوات الأربع أم من الزواحف^(١٥٩). إن المهمة التي أوكلت إلى ربيع ابن زيد، بعد رفعها إلى هيئة الأساقفة، إلى الشرق المسيحى قد حدثت فى عام ٩٥٥م^(١٦٠)، على وجه التقريب. والآن : هناك سلسلة من الشهادات غير العربية هذه المرة، تجعلنا نؤكد أنه بعد ذلك بست سنوات، فى ٩٤٩م، كانت هناك سفارات للناصر فى العاصمة البيزنطية. كما أن هناك إشارة فى كتاب إحتفالات قسطنطين السابع بورفيريوخنىتى تسمح لنا، بالإضافة إلى هذا، أن نحدد بدقة بأن الرابع والعشرين من أكتوبر عام ٩٤٩ هو التاريخ الذى استقبل فيه النواب الأندلسيون من قبل قسطنطين داخل القصر المقدس. وفى نفس هذا العام رجع خصى يدعى سليمان إلى قسطنطينة، بعد أن قام بمهمة فى اسبانيا وساخونيا -Sajo- nia حيث مر، فى طريق عودته، بفينيسيا، حيث التقى بلويتبراندو^(١٦١). وهكذا تجددت عادة تبادل السفراء، التى أرسى قواعدها عبد الرحمن الثانى.

إن المؤرخين العرب، حينما يعمدون إلى رواية استئناف العلاقات الدبلوماسية بين قرطبة والامبراطورية اليونانية، يتحدثون عن سفارتين أو ثلاث مختلفة، فحسب ما يذكره ابن خلدون، فى عام ٩٤٧-٩٤٨م (٣٣٨هـ) وصل عدد من الدبلوماسيين البيزنطيين إلى قرطبة محملين بالهدايا للخليفة، واستقبلوا أحسن استقبال، وتمكنوا من مقابلة الخليفة، وثم توديعهم بعدها بعد أن حملوا بالهدايا للملكهم، يرافقهم أحد المستعربين، هشام بن هذيل أو «كليب»^(١٦٢). وربما عاد المبعوث الاسبانى، بعد عامين، مع وفد بيزنطى آخر.

وتبعاً لما يشير إليه الكاتب المشرقى ابن أبى أصيبعة، صاحب مجموعة التراجم للأطباء المسلمين^(١٦٣)، فإن عبد الرحمن الثالث قد استقبل فى عام ٩٤٨ - ٩٤٩م (٣٣٧هـ) سفارة أحضرت له، بالإضافة إلى رسالة امبراطورة قسطنطينة له، عديداً من الهدايا، من بينها مخطوطين عظيمين : أحدهما باللغة اليونانية حول علم النبات لديو

سكريدس ونسخة من عمل باولو أوروسيو، المؤرخ الأسباني اللاتيني للقرن الخامس. وبما أنه لم يكن هناك أحد يعرف اليونانية في شبه الجزيرة الأيبيرية في تلك الآونة، فمن المرجح أن عبد الرحمن الناصر قد طلب من الامبراطور أن يرسل له من يعرف هذه اللغة جيدا، يكلفه بأن يعد في قرطبة فريقا من المترجمين. قام الامبراطور رومانوس، تبعا للاسم الذي تذكره الروايات العربية، أي، رومانو الأول لبيكابيني بتلبية رغبة الناصر، فأرسل إلى إسبانيا راهبا يدعى نيكولاس، فوصل إلى قرطبة عام ٩٥١م (٣٤٠هـ) وبدأ يعمل بمساعدة العالم والدبلوماسي اليهودي حصادي ابن شبروت.

يبدو أن هاتين الروايتين اللتين انتهينا من سردهما توأ كانتا بمثابة النتيجة لتأثير لاحق مع السفارة التي وجهها قسطنطين السابع بورفيروخينتي إلى الناصر في صيف عام ٩٤٩م (٣٣٨هـ)، والتي تحدث عنها ابن حيان في كتابه، وخاصة المدة الطويلة التي أقامتها بقرطبة^(١٦٤): نزل هؤلاء السفراء في ميناء بجانة في أغسطس (صفر). أرسل الخليفة على الفور مبعوثا من رجال قصره للقائهم، هو يحيى بن محمد بن ليث. وحين أصبحوا على مسافة قصيرة من قرطبة، أقيمت تشريفات عسكرية لتحيتهم، وخرج الفتيان ياسر وتمام في زيهما الأنيق للقائهم. وحين قدموا المدينة، أسكنوا منية ناصر، مقر الإقامة المفضل لدى الحكم، رغم التعليمات المشددة بآلا تتاح الفرصة لهم بالاتصال بالخارج مطلقا. وبعد قليل، وقد الخليفة على عجل إلى قرطبة ليكون في استقبالهم بالقصر، الذي أخذ زينته خصيصا لهذا الحفل. وفي اليوم التالي أقيم الحفل به، في ٨ سبتمبر عام ٩٤٩م (١١ ربيع الأول ٣٣٨هـ) - وجهت الدعوة إلى جميع خاصة الخليفة لحضور حفل الاستقبال الذي أقيم في بهو الجناح المسمى بمجلس الزاهر، كانت الأرض قد غطيت بالفرش، والحوائط بمعلقات من الحرير؛ والأبواب والنوافذ بستائر من استبرق. والخليفة جالس في سريره يحيط به أبنائه وجميع كبار رجال بلاطه. والسفراء حين أدخلوا، فزعوا، تبعا لما يرويه المؤرخ، من كل هذه الضجة، والتي ماكان لها أن تجد مثل هذا الصدى المفزع لدى موظفين من البلاط البيزنطي؛ قدموا رسالة عاهلهم إلى الناصر. «كانت الرسالة - يقول ابن حيان - مكتوبة باللغة اليونانية على رق مصبوغ باللون الأزرق، بحروف من ذهب، وبداخل «اللفافة» التي كانت الرسالة على هيئتها وجدت هناك وثيقة أخرى ملونة قد ملئت بكتابات يونانية، توضح وتعدد الهدايا المرسلة إلى الخليفة. حملت الرسالة خاتما معلقا من الذهب، يزن مقدار أربعة مثاقيل، رسم على أحد وجهيه صورة المسيح، وعلى الثاني، صورة الملك قسطنطين وابنه. كانت الرسالة التي وردت من الامبراطور موضوعة في علبة من الفضة المنقوشة، ولها غطاء من الذهب، يحمل صورة الامبراطور

قسطنطين ذات الاطار المتعدد الألوان. كما كانت العلبة، بدورها، موضوعة داخل صندوق صغير على شكل أسطوانة يكسوه الاستبرق. كان عنوان الرسالة هو : فى سطر منها «قسطنطين ورومانو، من المؤمنين بالمسيح، ملكان مهيبان، ملكا الروم» (١٦٥)، وفى السطر الثانى : «إلى صاحب الأفضال الجلية، إلى الرجل صاحب المكانة السامية، إلى النبيل الأصل، الخليفة عبد الرحمن الثالث، حاكم العرب فى الأندلس (أطال الله فى عمره!)».

السفارات الأوروبية. القرصنة الأندلسية ومغامرة المسلمين فى فراكسينيه:

ظل تبادل السفارات هذا مستمرا بين قرطبة وبيزنطة، تخللته بعض فترات انقطاع طالت أم قصرت، خلال عهد الحكم الثانى وحتى بدايات القرن الحادى عشر. ولكنها لم تكن الوحيدة. فيذكر لنا ابن خلدون - نقلا أو تلخيصا لما يورده ابن حيان - أنه دون أن نعدد وفادات السفير اليونانى، فقد وصلت إلى قرطبة وفود «من قبل ملك الصقالبة» أوتون ومن «ملك الألمان» ألمان؛ ومن هوجو «ملك الفرنجة الذين يتواجدون فى الغرب الأقصى» وجيدو «ملك الفرنجة القاطنين فى الشرق الأوروبى» (١٦٧). ويضيف المؤرخ المسلم أن هذه السفارة الأخيرة تأتى إلى جانب وفاده كونت الفرنجة ببرشلونة (١٦٨). وبعد ذلك، قام صاحب روما بإرسال سفير إلى قرطبة كلفه بتوقيع معاهدة صداقة مع الخليفة.

عند هذه الإشارات المقتضبة التى ذكرها ابن خلدون تتوقف معرفتنا بالعلاقات التى أقامها عبد الرحمن الناصر، فى نهاية أيامه، مع رؤساء الدول الأوروبية، لو لم يكن هذا المصدر اللاتينى موجودا، بما فيه من تفاصيل أوسع، الذى أتى لسد العوز الذى ظهر بالرواية التاريخية العربية الأسبانية. هذا المصدر يعد بمثابة السيرة الذاتية للطوباي خوان دى جورتنزى (١٦٩)، كتبها مؤرخ يدعى خوان، رئيس دير القديس أرنولفو (١٧٠). تشتمل هذه الوثيقة، التى حفظ بعضها، على معلومات فضولية للغاية حول العلاقات الدبلوماسية التى أشرنا إليها عام ٩٥٠م ابن الامبراطور أوتون الأول إمبراطور ألمانيا (٩٣٨-٩٦٣م) وعبد الرحمن الثالث، هذا إلى جانب الرواية المفصلة عن الاستقبال الذى أقامه خليفة قرطبة لسفير الفرنجة. إن حياة خوان دى جورتنزى تعكس لنا المدى المحدد للمبادرة الى اتخاذها العاهل السكسونى : ليس الأمر بالنسبة لهذا العاهل مجرد استمالة أو حتى دليل مجاملة من جانب العاهل المسلم، ولكن، على العكس، فقد وجه إليه تحذيرات محددة بشأن الأعمال المشينة التى اقترفها قراصنة

الأندلس على امتداد سواحل البحر الأبيض المتوسط وماوراءها، في طرق جنوب فرنسا، وشمال إيطاليا، بل وصلت كذلك إلى سويسرا.

من الملائم هنا أن نفتح ملف النشاط الخاص بالقرصنة الاسبانية في القرن العاشر عبر سواحل البحر الأبيض المتوسط، وأن نرسم، بشكل خاص، المغامرة التي قام بها القراصنة المسلمون في قراكسينيه، والذين أسسوا «دولة إسلامية غربية وسط الأراضى المسيحية»^(١٧١)، وكان عليها أن تستمر في وجودها لعقود طويلة من الزمن قبل أن تأتي نهايتها. ومن ثم فإنه من الإصرار الذي لاطائل يرجى من ورائه أن يبحث في كتب التاريخ الإسلامية عن أدنى تلميح لهذه القرصنة والتي، إذا لم تكن نقدت بشكل منظم - كما يبدو، من جانب الدولة، - كما حدث في العصور الحديثة في الغرب الإسلامي-، فلا يجب أن نتترك، من أجل هذا، دون عقاب، في حالة ما إذا كانت لا تتلقى التشجيع من قبل الحكومة الأموية. إنه لمن العدل أن نضيف أن الامارات البحرية المسيحية في العصور الوسطى قد سلكت نفس المسلك مع رعاياها الذين كرسوا حياتهم لأعمال القرصنة؛ وهكذا فإن القراصنة القطلونيين من أبناء برشلونة وأمبورياس والروسيين كانوا يتمتعون بهيبة لا تقل عن هيبة القراصنة الأندلسيين؛ تبعا لما يراه البحارة المسلمون، الذين من الممكن أن يكونوا من أبناء دينهم. يمكننا التفكير في أن القرصنة المسلمة لم تكن لها أية علاقة بما يمكن أن نسميه بالجهاد ضد الكفار، كما أن القرصنة المسيحية لم تكن منظمة تحت رعاية الكنيسة أو الصليب، كون الجانبان في العصور الوسطى خطرا إضافيا على حياة البحارة المسلمين، كان ذلك بمثابة «نكبة بحرية». وعلى جانب آخر، لدينا من الأسباب ما يجعلنا نفكر في أن غالبية القراصنة الأندلسيين، ومن بينهم أكثرهم جرأة، لم يكونوا من العرب أو البربر، الذين يعد الميل من جانبهم إلى الحياة البحرية نادرا وقليلًا، بل كانوا من الموحدين، أو من الأتباع المستعربين عند خليفة قرطبة، والذين ماكانوا يتحدثون سوى اللهجة الرومانثية. كما تثبتنا في هذا الأمر فيما يتعلق باتحاد بحارة بجانة في أواخر القرن التاسع. ليست مهمتنا هنا، على الإطلاق، أن نلتمس العذر للقرصنة المسلمة؛ ولكن يبدو لنا أنه من غير العدل أن نعيب عليهم نشاطهم، وتنسى في نفس الوقت أن لهم منافسين على الجانب الآخر، القرصنة المسيحية، في العصور الوسطى، صحيح أن هؤلاء لم تكن لهم نفس شجاعة وهيبة أقرانهم من قراصنة الأندلس؛ وإن تكفيينا مطالعة مجموعات السير الذاتية للأدب الاسباني العربي لكي نتأكد من أنهم أيضا، وبأكثر مما نعتقد، قد زرعوا الحزن والفرع والدمار بين الأسر المسلمة.

كانت عمليات السرقة فى البحر والمفاوضات الدائرة من أجل الفدية الناجمة عنها تدخل فى دائرة أخرى غير دائرة الملوك المسيحيين أو المسلمين؛ فما كانوا يبدون إهتماما بالأمر إلا فى حالة نزول القراصنة على سواحل الأراضى الواقعة تحت نفوذهم - أى، عندما يقع انتهاك لحرمة الأراضى، وخاصة عندما يملك كل منهما القوة التى تمكنه من رد الفعل المناسب. وغالبا ماكان الأفراد العاديون الذين يقطنون المناطق الساحلية ينظمون فيما بينهم، حينما لا يريدون رؤية أنفسهم ضحية إهمالهم، نظاما لمراقبة السواحل، ويبنّون أبراجا للحراسة، فأقاموا بهذه جبهة بحرية حقيقية، ونقلوا التكتلات المدنية إلى مكان بعيد عن الساحل، فلم يتركوا عليه سوى المنشآت المؤقتة، البسيطة التى لاغنى عنها. ولكن كل هذه الاجراءات الاحتياطية الشائعة فى العصور الوسطى، بين المسلمين أو المسيحيين، لم تكن كافية لوقف شهوة السلب لأولئك الذين كانوا يعيشون من وراء أعمال القرصنة.

كان الخطر مايزال فى أوجه عندما قام القراصنة، بعد أن أعربوا عن سخطهم وعدم رضاهم بما حصلوه من غنائم على أثر الغارات التى يشنونها على مدى ساعات قليلة، بالتوغل فى الأراضى. ومن أجل أن يفوزوا ببغيتهم هذه، كانوا يلجأون إما إلى ركوب البحر بما لديهم من سفن، على غرار ماقام به النورمان، وإما ينزلون عنوة فى مكان يختارونه سلفا، مما يجعلهم يضمنون فى الحال السيطرة على حصن طبيعى قريب من الساحل، فيأخذونه قاعدة تنطلق منها حملاتهم المتعمقة أو غيرها عبر الأقاليم المجاورة. ويبدو أن الطريقة النورمانية لم تكن تتبع إلا فى حالات طارئة. أما الطريقة الثانية - الأشد رهبة فى صدور الغير، والأضمن فى امكانياتها ونتائجها، كانت الأكثر استخداما من قبل المغامرين الذين وفدوا، فى العقد الأخير من القرن التاسع، للاستيلاء على قراكيينه، على ساحل بروقانس.

تعكس لنا بعض الفقرات التى يوردها مؤلف «حوليات القديس برتى» أن بعض القراصنة «المسلمين» - تبعا للفظه التى يذكرها - ركبوا نهر الرودانو مرات عديدة خلال الثلث الثانى من القرن التاسع. وفى عام ٨٤٢م، إلى أجوار أرس، وتمكنوا من وضع أقدامهم على شاطئ النهر وأطلقوا العنان لأنفسهم لممارسة أعمال السلب والنهب، وبعد فراغهم منها ركبوا سفنهم بون أن يتكبدوا أية خسائر. وفى عام ٨٥٠ أرادت مجموعة أخرى من القراصنة أن تجدد الضربة مرة أخرى، فى أجوار نفس

المدينة، ولكنهم هلكوا جميعا على أثر هبوب رياح مضادة ذهبت بما لديهم من سفن. وفي عام ٨٦٩م تمكن بعض القراصنة من المسلمين من تثبيت أقدامهم في كامارجا، وبلغ بهم الأمر إلى القبض على مطران أرس، المدعورولاندو، الذى خرج على رأس مجموعة من الرجال، ليهاجم بها القوة التى نزلت لتوها بالمكان. لقي المطران حتفه فى إحدى سفن القراصنة، فى الوقت الذى كانت تجرى فيه عمليات إنقاذه؛ قام القراصنة، حتى لا يخسروا الفدية من بين أيديهم، فألبسوا جثة المطران لباس القساوسة ثم أنزلوه إلى الأرض، جالساً على كرسيه، ليسلموه إلى سكان أرس الذين أتوا لافتدائه، فجعلوهم يعتقدون أنه مازال حيا.

إن الاشارات الأصلية والأساسية التى وصلت إلينا عن مستعمرة الأندلسيين المعروفة باسم فراكسينيه قد وردت فى العمل الذى ألفه راهب كريمونة، لويتبراندو، الذى أشرنا إليه عدة مرات. فمنذ أن قصّ رايموندو فى عام ١٩٣٦، بإسهاب تاريخ الدولة التى احترفت القرصنة، كرست مجموعة من العلماء الفرنسيين جهودها لإكمال الرواية، مستغلة التقاليد المحلية والتحليلات الطبوغرافية والأخرى الخاصة بأسماء البلاد. وحول هذا الأدب المثمر أنجزت بعض الدراسات النقدية الموجزة فى السنوات الأولى من القرن العشرين. نحيل القارئ إلى هذه الدراسات (١٧٢)، حتى نقتصر فى حديثنا هنا على استعراض سريع للأحداث الرئيسية التى لها سند قوى من التاريخ.

فى الفترة ما بين ٨٩١-٨٩٤ نزلت مجموعة من القراصنة الأندلسيين، فى ظروف غير معلومة، على ساحل بروقانس، فى خليج القديس (سان تروبيه) فاحتلت موقعا، زادته الطبيعة متانة، من الجبل المجاور، يعرف باسم فراكسينيه، الذى هو، بما لا يدع مجالا للشك، جارد مزينيه الحالى. ويعد أن وصلتهم تعزيزات من شبه الجزيرة الأيبيرية، عاثوا، فى مقاطعة فريجوس قتلا وتخريبا، ثم نهبوا عاصمتها. توغلوا بعد ذلك عبر أراضي مارسيليا، فدمروا المعبد الشهير المعروف باسم سان فيكتور ثم ركبوا نهر الرودانو، ناشرين أعمالهم التخريبية فى فالينتينيوس وفينوس. وفى السنوات الأولى من القرن العاشر امتد مجال نشاطهم إلى سلسلة جبال الألب، فأحرقوا معبد نوقالايز، بالقرب من سوتيه، واحتلوا موانئ السهل الجبلى على مرأى من المسافرين والحجاج الذين رغبوا عبورها متوجهين إلى روما. كانت مناطق إميرون وجرايسيفا ودان أكثر المناطق تعرضا لأعمالهم التخريبية. أحدثت كل هذه النجاحات فيهم نوعا من الغطرسة

والغرور، فما هابوا التوغل فى مناطق الفالس الايطالية، فدمروا معبد أولكس، وتوغلوا حتى أكوى وأستى.

كان هذا هو الوضع القائم حتى عام ٩٣٣ : حيث قامت قوات بسيطة، تميزت بتحركاتها القوية والسريعة، فأدت إلى نشر نوع من الخوف فى هذه المقاطعات، بينما تمركزت القوة الغاشمة لتلك المجموعات من القراصنة المسلمين فى الجزر الجبلية فى فاكسينيه، فى منطقة ملاصقة للبحر. وأمام هذه القوة، كانت ردود فعل البلاد المعنية بالمشكلة خجولة فى أول الأمر. فقد خرجت حملة عام ٩٣١م ضد الفرنين، تؤازرها فى ذلك كتيبة يونانية، إلا أنها لم تسفر عن أية نتائج عملية؛ وفى عام ٩٤٢م تم تجهيز حملة مشتركة بقيادة هوجو، ملك إيطاليا، ورومانو ليكابينى، امبراطورة قسطنطينية، حققت بعض النجاح، ولكنها لم تتمكن من طرد المسلمين من فراكسينية بصفة نهائية. فكان من الضرورى الانتظار حتى عام ٩٧٢م، العام السابق لموت أوتان الكبير، حتى يتمكن هذا من تحرير بروقانس وأقاليم الألب من الخطر الإسلامى وأن يطرد إلى الأبد أولئك القراصنة من حصونهم فى خليج سان تروبيه (١٧٣).

وقبل ذلك، هناك فى منتصف القرن العاشر، رأى العاهل السكسونى أنه من المناسب أن يتدخل بنفسه لدى عبد الرحمن الثالث ليحيطه علما بأنه يجب على مملكة قرطبة أن تتحمل مسئوليتها عن أعمال القرصنة التى يقوم بها المسلمون القاطنون لبروقانس. وكرد على هذا الطلب، أرسل عبد الرحمن الثالث، فى عام ٩٥٠م، إلى أوتان الأول راهبا من المستعربين، وافته منيته بالطريق، بعد أن حمل رسالة كانت تنطوى على كثير من الغطرسة، وكان لها الأثر السيئ فى نفس الامبراطور. فقام، بعد مدة من الزمن، بتكليف أخيه برونو، مطران كولونيا، بخط رسالة إلى الخليفة الاسبانى، وكلف الراهب خوان التابع لدير جورزى بلورينا بالخروج إلى قرطبة ليسلم الرسالة إلى من أرسلت إليه، وصل خوان إلى إسبانيا، يرافقه راهب آخر، ثم انتظر فى قرطبة حتى يتكرم الناصر باستقباله، إذ نزل ضيفا هو وصحبه بإحدى المزارع القريبة من العاصمة، وغير البعيدة من كنيسة سان مارتين، حيث سمح لهما بالمشاركة فى المراسم الدينية التى تجرى بها، أيام الأحد والاجازات فقط. وطبقا للعادة المعمول بها، فقبل أن تسلم الرسالة إلى الخليفة رسميا، نقل محتواها إليه (١٧٤). وجاء تقدير الناصر بأن الرسالة تحتوى على إهانة لكرامته وكرامة الإسلام، وأحاط خوان دى جورزى، عن

طريق أسقف من المستعربين، علما بأنه لن يستقبله إلا في حالة أن تقتصر المقابلة على تقديم الهدايا التي أرسلها إليه أوتان الأول، دون الرسالة. رفض خوان دي جورزى، وحينئذ قرر عبد الرحمن الثالث أن يرسل نائبا إلى امبراطور ألمانيا، فعهد بهذه المهمة إلى ريتموندو، الذي رقى، كمقابل لهذه المهمة، إلى مرتبة الأسقف.

لم يكن ريتموندو هذا سوى ربيع بن زيد، الذي أشرنا إليه في معرض حديثنا عن تأسيس مدينة الزهراء، والذي كما هو الحال بالنسبة لأغلبية المستعربين في هذه الفترة، كان يستخدم اسما عربيا إلى جانب اسمه الأصلي. كان مسيحيا من قرطبة، يجيد العربية واللاتينية وغيورا غيرة عملية على دينه، وعمل في مكاتب المستشارية الخاصة بالخليفة، قبل أن يعين أسقفا في البيرة بأرض الأندلس، وسوف نرى الدور الذي لعبه في تحرير التقويم العربى - اللاتينى - المعروف بتقويم قرطبة - للعام ٩٦١ من عهد الحكم الثانى (١٧٥).

بدأ ريتموندو رحلته في ربيع عام ٩٥٥م، وبعد عشرة أسابيع، وصل إلى دير جورتزى، حيث استقبله رئيسه أحسن ستقبال، كما استقبل بعد ذلك من قبل أسقف متيز. وبعد عدة شهور وصل إلى فرانكفورت، بلاط الامبراطور، حيث سنحت له فرصة التعرف على الأسقف لومبارود لويتبراندو، الذى شجعه على كتابة مؤلفه التاريخى، فكان الإهداء من نصيبه (١٧٦). استقبل أوتويد الأول رسول الناصر أحسن استقبال ورجاه أن يعود إلى قرطبة بصحبة دودون دي فيردون. وصل الاثنان إلى قرطبة في الأيام الأولى من شهر يونيو عام ٩٥٦م. وما إن وصلت التعليمات الجديدة من الامبراطور إلى خوان دي جورتزى حتى تخلى عن موقفه المتشدد وقرر الخليفة استقباله أخيرا. وفي اليوم المحدد للمقابلة - يقول أسقف سان أرنولفو - تحركت أكبر الفرق الملكية أبهة، من مقر إقامة خوان حتى قرطبة، ثم من قرطبة إلى مدينة الزهراء، كانت القوات المسلمة تغطى الطريق، كما كان هناك الفرسان الذين تظاهروا بالاشتباك فى مناوشات فائتاروا سحابات من التراب. ومن عتبة الباب، كان القصر مفروشا بالبسط حتى صالة العرش. وفيها استقبل الخليفة، «كسلطة إلهية لا يمكن الوصول إليها» ضيفة، وكفضل منه كبير، مد إليه يده ليقبلها. إن النص الذى تحتويه السيرة الذاتية لخوان دي جورتزى مبتور، ونحن، بدورنا، نجهل ما إذا كان السفير قد عاد إلى ألمانيا مسرورا بالنتيجة التى حققتها مهمته.

أعمال عبد الرحمن الناصر :

حان الوقت لنغلق ملف حكاية عبد الرحمن الناصر ببضع كلمات هي بمثابة الخاتمة.

توفي العاهل العجوز في قرطبة، في الخامس عشر من أكتوبر عام ٩٦١م (٢ من رمضان عام ٣٥٠هـ) في أوج شهرته وسلطانه، وكأسلافه، دفن في ضريح العائلة، بالقصر. وخلال سنواته الأخيرة، استطاع أن يقيس على أوسع نطاق الأعمال التي أنجزها منذ ذلك اليوم، البعيد، الذي وصل فيه إلى العرش. لقد استطاع أن يجعل من قرطبة، التي تنازعها كثيرون ويلا هواة عندما كانت في أيدي أسلافه، وهددتها بصفة مستمرة حروب أهلية، ومنازعات ومناфسات بين العرقيات العربية وصدامات بين مجموعات من أجناس مختلفة أسفرت عن مواجهات دائمة بين بعضها البعض؛ دولة شاع فيها السلم والازدهار، وأصبحت تنعم بثراء لا حدود له، ودون أن يلتقط أنفاسه، شن حربا مقدسة ناجحة على أعداء الدين، وضمن بقوة جيشه أمن حدوده، وتجنب بكل مهارة التهديد الفاطمي. كانت قرطبة عاصمة إسلامية، تنافس القيروان والمدن الكبيرة في المشرق، والتي تجاوزت بكثير العواصم الأوروبية الغربية الأخرى، وحظيت في عالم البحر المتوسط بسمعة طيبة ومكانة يقارنان فقط بما كانت تتمتع به قسطنطينية.

من البديهي أن هذه النتيجة قد أتت في جانب كبير منها راجعة إلى طول عهد عبد الرحمن الناصر غير المعهود. فقد سمحت تلك الفترة الطويلة لحكم عاهل اسبانيا المسلمة بأن يواصل، خلال عقود عدة لم تنقطع، سياسة موحدة، والتي، إذا ما كان قد أقامها على أساس من رغبة متحررة منه ومبدأ السلطة المطلقة، كانت، مع هذا، بعيدة عن الأخطاء التي كان بالامكان أن يقع فيها أمير لا يتمتع بنفس الكفاءة ولا يعرف واجباته جيدا. ومن ثم، فقد كان الخليفة بن السبعين عاما، خليفة السنوات الأخيرة، لا يشبه كثيرا، في مظاهر عديدة، الأمير الشاب الذي حكم السنوات الأولى، الممتلىء حيوية، وحماسا للقتال، يلقي بنفسه في مقدمة الجيوش ويبدى استعدادا للتضحية بنفسه، يمكن تقسيم مدة حكمه التي امتدت لنصف قرن إلى ثلاث مراحل زمنية تكاد تكون متساوية فيما بينها : الفترة الأولى، وفيها فرض عاهل قرطبة سلطته على أتباعه ورفع نفسه إلى أعلى درجات الخلافة، أما الفترة الثانية فقد خصصها الخليفة لتنظيم المملكة، وإظهار نفسه، فيما وراء الحدود، كعدو مهاب، والذي يصبح من التعقل التعامل

معه بكل إحترام، وفي الفترة الثالثة، والأخيرة، تحول إلى حاكم مستبد بمعنى الكلمة، مزهوا وفطنا. وفي هذه الفترة الأخيرة لم يكن عبد الرحمن الناصر حقيقا بأن يقارن بأحد سوى بعاهل بيزنطة المستبد.

«في دولة يصبح كل شئ تابعا للامبراطور، ويصبح القصر مركزا للحياة العامة، فعادة ماتقوم البطانة المقربة من الأمير، بون إمكانية تفادي مثل هذا الأمر، بممارسة نفوذ قوى عليه، وأن هذا البلاط المرسوم على نمط شرقي، يمتلئ بالخصيان والنساء، يصبح مسرحا لكل أنواع الدسائس والوقائع والردائل. في دولة تقرر فيها إرادة رجل واحد كل شئ، يصبح من الخطر جدا أن يكون هذا الرجل ضعيفا أو يجمع بين الضعف والقوة. أو أن يخضع لتأثير المقربين إليه. ولكن على العكس، إذا كان الأمير رجلا يتمتع بإرادة قوية، ويعرف كيف يؤمن وحدة الإدارة في الحكومة، واستمرار السياسة وثبات الاستيعاب والتنفيذ، وأن يحسن استخدام الموارد المتاحة أمامه، من حكوميه وعسكرية ودبلوماسية وإدارية؛ وهنا تصبح الامبراطورية رهينة القرار الذي يصدره هذا العاهل في كل أمر من أمورها باعتباره قرارا لايقبل المناقشة. لقد عرف «بيزنطو» لأكثر من مرة، وخاصة في القرن العاشر، أباطرة من النوع الأخير، ولكي يبتسم الحظ للامبراطورية البيزنطية، كان كافيا - لوقت طويل - أن يكون على رأسها أمير هو في حقيقة الأمر زعيم» (١٧٧).

لأنجد أفضل من هذه الكلمات نقولها، عند إشارتنا إلى نفس الفترة، التي شهدت الامبراطورية المسلمة في قرطبة وتولى زمامها عبد الرحمن الثالث، أول الخلفاء الأمويين في الأندلس تاريخا واستحقاقا.

هوامش الفصل الخامس :

(١) حول فترة حكم عبد الرحمن الثالث الناصر يمكن الإطلاع على المصادر العربية: تاريخ : أريب بن سعيد، المدرج من قبل دوزي في نص البيان لابن عذارى الجزء الثاني، ص ١٣٣ - ١٣٥، ١٦١، ٢٤٨، الترجمة ص ٢١٢-٢٥٩؛ هذا بالإضافة إلى «تاريخ الناصر»، مجهولة المؤلف؛ ابن الخطيب، الأعمال، ص ٣٢-٤٧؛ ابن خلدون، العبر، ٤، ص ١٣٧-١٤٤؛ المقرئ، وابن حيان في المقتبس. ويمكن الإطلاع على :

- Dozy, Hist. Mus. Esp. 2, II, pp. 93- 175.

(٢) يمكن قراءة هذا الاسم ماريًا Mariya أو مارتا Marta، أم عبد الرحمن الثالث، ولعلاقة لهذا الاسم باسم مَزْنَة Muzna، المتوفاه عام ٩٦٨ - ٩٦٩ (٣٥٨)، التي كانت السكرتيرة الكاتبة لنفس العاهل، والتي نرى إشارات إليها عند الضبى، في البغية، رقم ١٥٩٠، ٤٩٠).

(٣) على الرغم من الرأي غير المنصف عنه والذي تتبناه الراهبة الإنجليزية هيروسويت، والذي تتهم فيه عبد الرحمن الثالث بأنه كان يتصرف بطريقة سيئة مع المسيحيين من أتباعه وهي سياسة مخالفة للحكام السابقين عليه.

(٤) يمكن الإطلاع على : الخشني، قصة قرطبة، النص، ص ١٨٨، والترجمة الإسبانية، ص ٣٢٤.

(٥) يمكن مراجعة :

- Lévi - Provençal, Esp. Mus. X. Siécle, p. 51 y n. 2.

وذلك لمعرفة مايتعلق بالمهرج الأعمى للناصر «عمران بن أبي عمر».

(٦) تعد كاراكويل Caracuel اليوم قرية متواضعة تابعة المُنُور Almodóvar del campo، الواقعة على مسافة عشرين كيلومتر شمال شرق هذه القرية، التابعة لمحافظة ثيوداد ريال.

(٧) حول هذا الموضوع يمكن مراجعة :

- Lévi - Provençal, La Península Ibérique, p. 20 y nota 4.

(٨) لا يبدو أن هذا المعبر قد تم تدميره وتحول إلى أطلال في القرن العاشر، على الرغم من الإشارة المحددة عن هذا الأمر عند ابن عذارى، البيان، الجزء الثاني، ص ٣٠٩، الترجمة، ص ٤٨٠.

(٩) حول هذه المحلة : أوبيدا دي البيرة، والتي كانت تدعى أوبيدا دي فاروا، للتمييز بينها وبين أوبيدا الواقعة في إقليم جيان Jaén، وكانت واقعة بين بازا Baza وادي أش Guadix، انظر: الادريسي، ص ٢٠٢.

(١٠) العمل المذكور، ص ٢٥٧.

(١١) انظر، على وجه الخصوص :

- L. Torres Balbás, Hallazgos en la Alcazaba de Málaga, en Al-Andalus, II, 1934, pp. 344 - 57.

(١٢) العمل المذكور، ص ٢١٧.

(١٣) حول اخضاع ابن الشالّية، يمكن مراجعة : ابن حيان، المقتبس، ص ١١. وبعد ذلك، انخرط هذا المتمرّد في الجنود وظل يعمل ضابطاً حتى وفاته، فيما عدا فترة وجيزة من الزمن أرسله فيها عبد الرحمن الثالث في مهمة إعادة النظام إلى الاقطاعية التابعة له.

(١٤) لعلّاقه لها بالمحلة المعروفة باسم يليش بينا ودألا Vélez-Benaudalla، الواقعة على مسافة ٢٠٠ كيلومتر جنوباً، بالقرب من موترييل Motril. انظر ترجمة البيان، الجزء الثاني، ص ٢٦٨، مرجع ٢.

(١٥) أوخين Ojén تقع على مسافة تسعة كيلومترات من ميناء مَرَبَلَّة Marbella، على ارتفاع ٢٢٠ متراً. انظر :

- Coín y Ronda, trad. del Bayan, II, p. 273, n. I.

(١٦) العمل المذكور، ص ٢٣٤.

(١٧) حول هذا الموضوع، يمكن مراجعة :

- Lévi - Provençal, la Península Ibérique, p. 148.

(١٨) طبقاً للرازي، الذي يذكره ثانية ابن عذاري، البيان، الجزء الثاني، ص ١٢٤، الترجمة، ص ٢١٤ - ٥، وطبقاً لروايات أخرى : انظر :

- Lévi - Provençal, la Península Ibérique, p. 26.

(١٩) كانت هذه الكنيسة، حين إقامتها، متحوتة في الصخر، حول هذا الموضوع يمكن مراجعة :

- C. de Mergelina, Arch. Esp. de Arte y Arqueología, Madrid, 1925, II, p. 25.

(٢٠) ترد هذه التفاصيل الأخيرة من «تاريخ الناصر» ومن سيرة ابن حفصون التي يذكرها كتاب الاحاطة لابن الخطيب. بالنسبة لتاريخ وفاة زعيم التمرد. والذي حتى الآن لم يتم تحديده (٢٠٥ هـ، كما يذكر أريب بن سعد، ٢٠٦، كما يذكر ابن عبد ربه، وابن خلدون، وابن الخطيب، تم تحديده بفضل ماورد في «الأعمال» (حيث أن وفاة جعفر بن حفصون وقعت في ٣٠ أكتوبر ٩٢٠ - ١٣ جمادى الثاني، ٣٠٨)، فلم يستمر بعد وفاة والده إلا ثلاث سنوات وثلاثة أشهر.

(٢١) ابن خامس، أيوب، تم اعدامه بأمر من «عمر بن حفصون»، كما ذكر ابن حزم في : نقط العروس، ص ١٩. وبالنسبة لما يتعلق بتاريخ أبناء ابن حفصون يمكن مراجعة : ابن الخطيب، الأعمال، صفحات ٣٧ - ٣٨.

(٢٢) حتى الآن لم يتم التحديد الدقيق والتعريف للمحلة المعروفة باسم Belda التابعة لاقليم مالقة، وكذلك المحلة المعروفة بمثل هذا الاسم التابعة لكابرا Belda de Cabra.

(٢٣) حول تاريخ أرختيا Argentea، يمكن الإطلاع على :

- Simonet, Hist. de los Mozárabes, p. 596- 8.

(٢٤) العمل المذكور، ص ٢١٩.

- (٢٥) العمل المذكور، ص ٢٢٨، ١١٢.
- (٢٦) العمل المذكور، ص ٢١٧.
- (٢٧) كانت كايوسا دي سيجورا، على مسافة كيلومتر من أوريولا، على طريق أليش (أليكانت Alicante) منذ حكم عبد الله محتلة من قبل متمرّد عربي هو محمد بن عبد الرحمن، والمعروف باسم الشيخ الإسلامي، والذي لم يخضع حتى عام ٩٢٨ (٣١٦) بعد أن توفي ابنه عبد الرحمن في معركة ضد الجيوش الموالية.
- (٢٨) تاريخ الناصر، الصفحة الأخيرة.
- (٢٩) العمل المذكور، ص ٢٤٤، يمكن الإطلاع أيضا على :
- Codera, los Benimeruán en Mérida y Badajoz, en Est. Crit. hist, ár. esp. (IX), pp. 57 - 60, 73 - 4.
- (٣٠) العمل المذكور، ص ٢١٧.
- (٣١) انظر :
- Lévi - Provençal, Esp. Mus. Xa Siécle, p. 162.
- (٣٢) ابن عذاري، البيان، الجزء الثاني، النص، ص ١٨٤، الترجمة ص ٢٩٢.
- (٣٣) كان هذا المكان - طبقا لابن عذاري، البيان، الجزء الثاني، النص، ص ٢١٨، الترجمة، ص ٢٣٦ - كانت المحطة الأخيرة على الطريق بين قرطبة وطليطلة. يمكن الإطلاع على :
- A. González Palencia, los Mozárabes de Toledo en los siglos XII y XIII, Madrid, 1926, vol. I, núm. 258, p. 201.
- (٣٤) في العربية «الفاهمين»؛ أما في كتب التاريخ المسيحية في العصور الوسطى فكانت «ألفا من Alfamen». أما اليوم فهي «آلامين» Alamín، في سلسلة جبلية تحمل نفس الاسم، قلعة تحولت إلى أطلال، على مسافة عشرة كيلومترات شمال شرق إسكالونا Escaloña. يمكن الإطلاع على :
- Lévi - Provençal, la Península Ibérique, p. 172.
- (٣٥) حول هذه المحلة (Chozas) : يمكن مراجعة :
«بيير»
- A. González Palencia, los Mozárabes de Toledo, vd. prel, pp. 94-95, nº- 150.
- (٣٦) العمل المذكور، ص ٢٨٨.
- (٣٧) ابن عذاري، البيان، النص، صفحة ٢٤٨، الترجمة، ص ٢٨٢ - ٢٨٤.
- (٣٨) العمل المذكور، ص ٢٤٩.
- (٣٩) العمل المذكور، ص ٢٤٦.
- (٤٠) ابن حيان، المقتبس، طبعة أنطونيا، ص ١٨ - ١٩.

(٤١) انظر :

- Dozy, Rech3, I, pp. 220-1;
- Codera, Est. hist. ár. esp. (VII), pp. 329 - 30.

(٤٢) العمل المذكور، ص ٢٩٠ - ٢٩١.

(٤٣) بالإضافة إلى المراجع العربية المذكورة، يمكن مراجعة :

- Sampiro, Esp. Sagr., XIV, pp. 462 - 70.

(٤٤) انظر، على وجه الخصوص :

- Barrau - Dihigo, Royaume asturien, pp. 237-8 y n. I y 2.

(٤٥) لانعلم شيئاً عن هذه الحملة التي قام بها أوردونيو الثاني إلا من الرواية التي ترد في «تاريخ الناصر» عام ٢٠١ هـ.

(٤٦) العبر، الجزء الرابع، ص ١٤١، يمكن الإطلاع على :

- Dozy, Rech3, I, p. 146 y n. I.
- R. Menéndez Pidal, España del cid, p. 76 (buena ed. p. 34).

(٤٧) عن هذه القلعة، يمكن مراجعة العمل المذكور، ص ٢٥٢، رقم ٢٣.

(٤٨) من بين المتطوعين للحرب المقدسة الذين لقوا حتفهم في القتال ومعركة شنت إشتين، يمكن أن نشير إلى مجاهد صالح، عبد الرحمن بن صالح بن سعيد بن إدريس، وغيرهما من الفقهاء مثل محمد بن عبيد الجزيري، ومحمد بن أحمد الشدهوني.

(٤٩) يرد مثل هذه التفاصيل في كتب التاريخ اللاتينية مثل :

- Huici, Crónicas lat. de la Reconquista, II, pp. 93, 95, 97.

(٥٠) هذا العلم الجغرافي يظهر في الحوليات اللاتينية بالشكل: Mitenia انظر:

- Silense, c. 55; Gron. leonesa, II, 64.

(٥١) على الأقل، إذا ما صدقنا إلى «تاريخ الناصر» (عام ٢٠٧ هـ)، الوحيدة التي تشير إلى هذه الحملة التي قام بها اسحق بن محمد القرشي.

(٥٢) انظر :

- Fagnan, trad. del Bayan, II, p. 291, n. I.

(٥٣) مما لا شك فيه أنها قلعة هنارس أو قلعة عبد السلام Alcalá de Henares، الواقعة على مسافة ٢٦ كيلومتر جنوب شرق وادي الحجارة.

(٥٤) العمل المذكور، ص ٢٧٦.

٥٥) بالإضافة إلى كوسما وسان إستيبان دي جورمان، حزب المسلمون أيضا القلعة التي تظهر هذه الأيام على الخريطة باسم الكوييادل ماركيز.

٥٦) يمكن الإطلاع على :

- Ignacio Calvo, En los ruinas de Clunia, en la R. A. B. M. de 1916.

- B. Taracena, El palacio romano de clunia, en Arch. Esp. de Arquología, nº- 62, 1946, pp. 29-49.

٥٧) العمل المذكور، ص ٢٧٨.

٥٨) يمكن، بهذا الخصوص، مراجعة :

- Dozy, Hist. Mus. Esp., II, p. 143, n. I.

٥٩) ورد هذا الخبر عند (sapiro, el Silense y la Gónica Leonesa).

٦٠) ليس لنا أن نخلط بين مويث Muiz مع مويس Mués، المحلة الواقعة على جنوب شرق يمين طريق إستيا صوب لوجرونيو، تظهر على الخريطة شمال الطريق الذي يربط بين استيا وبنبلونة، على مسافة ٢٥ كيلومتر جنوب هذه المدينة الأخيرة.

٦١) يمكننا أن نسأل إذا ماكان فاجنان Fangan (في المرجع رقم ٢ في ترجمته للبيان، الجزء الثاني، ص ٢٩٧) كان يتحدث حديثا جادا في إشارته، كمحلة للقلعة القائمة في بنبلونة، إلى أنه توجد في إسبانيا محلتان تسميان باكية Baquira = بيجية (Baquira = Biguera) الأولى، في إقليم ليبنتي Levante والثانية في مالقة Málaga.

٦٢) في جنوب لوجرونيو الحالية، بعد ألبيلدا بقليل Albelda. في نفس هذه القلعة قام محمد بن لوبى بنحس عمه إسماعيل، قبل ذلك بنصف قرن، (أنظر، فاجنان، في ترجمته للبيان، ص ١٧٨).

٦٣) حول هذه القلعة يمكن مراجعة، العمل المذكور، ص ١٧٨ - ٢٠.

٦٤) العمل المذكور، ص ٢٤٥ - ٦.

٦٥) أعيد ذكره عند ابن خلدون، العبر، الجزء الأول، ص ١٤١ - ١٤٢، ويمكن مراجعة :

- Dozy, Rech3, I, p. XXVII - I, p. 143.

٦٦) العمل المذكور، ص ٢٧٨.

٦٧) لايرد اسم هذه الملكة في شجرة العائلة التي يذكرها منينديث بيدال، باعتبارها أما لجارثيا سانشيث الأول. ومع هذا، فرغم المصادر العربية، فإن تواجدها فيها يأتي مدعما بوثائق مسيحية عديدة، فيما بينها كاتالوج الملوك المدفونين في ليري Leire. إلى جانب ذلك، يمكن الإطلاع على :

- Cirot, Index onomastique et géographique de la "Chronique léonaise", en Bull. Hisp., XXXVI, 1934, p. 423.

حيث تظهر هنا زوجة لسانشو أباركا ؟

(٦٨) انظر :

Dozy, Rech3, I, p. 150 - 2.

(٦٩) العمل المذكور، ص ٢٧٧.

(٧٠) حول اتخاذ الألقاب الامبراطورية في عائلة (دولة) أشتوريش وليون، بداية من النصف الأول للقرن العاشر يمكن الاطلاع على :

Menéndez Pidal, Esp. del Cid, p. 74.

(٧١) على الرغم من أنها كانت المدينة الأهم في هذه الفترة من القرن العاشر (إسبانيا المسيحية)، لم يتغير وضعها أبداً عن كونها عاصمة متواضعة. حول هذه المدينة في هذه الفترة وإدارتها المحلية يمكن مراجعته

Sánchez, Albornoz, Estampas de la vida de león durante el siglo X, pp.7-16.

(٧٢) ربما أن هذا الاحتلال لمديد كان عابراً، حيث أنه في السنوات التالية لهذا الحدث. كانت المحلة تحت حكم ضابط عينه عبد الرحمن الثالث يسمى أحمد بن عبد الله بن يحيى الليثي، الذي يتحدر مباشرة من نسب الفقيه الشهير يحيى بن يحيى. يمكن الاطلاع على (ابن الأبار، التكملة، الجزء الأول، رقم ١١).

(٧٣) يمكن الاطلاع على :

Sampiro, C. 22; Silense, c. 60 ; Crón. Leonesa, II, p. 67.

(وكذلك، ابن الفرضي، التأريخ، ص ٢١ - ٢٤١).

(٧٤) انظر :

Dozy, Rech3, I, pp. 152 - 6.

(٧٥) العمل المذكور، ص ٢٧٨.

(٧٦) العمل المذكور، ص ٢٩٢.

(٧٧) عن كل ماسبق يمكن الاطلاع على :

Dozy, Essai sur L' histoire des Todjibides, en Rech. 3, I, pp. 221 - 3.

(٧٨) يمكن مراجعة : - Hist. Mus. Esp. 2, II, pp. 155-6.

(وكذلك، ابن حزم، نقط العروس، ص ١١).

(٧٩) حول استخدام الطرق الرومانية من قبل الجيوش الاسبانية، والمسيحية، والإسلامية، حتى القرن العاشر انظر :

Sánchez Albornoz, Estampas de la vida en león, p. 107, n. 88.

(٨٠) كل هذه البيانات غير المطبوعة السابقة أخذت من: الأعمال، لابن الخطيب، طبعة ليقي بروفنسال، ص ٤٢.

(٨١) عن هذه النصوص، التي ترجم الجزء الأكبر منها في كتاب بوزي، صفحات ١٥٦ - ١٧٠، توجد قائمة في كتابه :

- Dozy, Hist. Mus. Esp. 2, II, p. 156, no. 3.

(٨٢) انظر، على وجه الخصوص :

- Sampiro, C. 22 - 23.

- Silense, c. 61-62 y por la Ceón. Leonesa, II, 68 - 9.

(٨٣) انظر : R. Menéndez Pidal, Orígenes del español, pp. 465 -6.

(٨٤) انظر : Dozy, Rech, I, pp. 161-2.

(٨٥) انظر : Dozy, Hist. Mus. Esp., II, pp. 157 - 160 - 2.

(٨٦) انظر : Lévi - Provençal, Enc. Isl., III, p. 500.

(٨٧) هذا التابع للناصر سيصبح فيما بعد قائدا لمنطقة الثغر الأعلى باسم المنصور بن أبي عامر، انظر (ابن عذاري، البيان، الجزء الأول، النص الأصلي، ص ١٦٩ - ١٧٣؛ الترجمة صفحات ٢٧٢ - ٢٨٢).

(٨٨) ابن عذاري، البيان، الجزء الثاني، ص ١٣١.

(٨٩) انظر : Dozy, Rech, I, pp. 170 - 3.

(٩٠) ابن عذاري، البيان، الجزء الثاني، النص الأصلي، ص ٢٢٣، الترجمة ص ٣٦٠.

(٩١) حول هذه الزيجات وما نجم عنها من أسر، يمكن الإطلاع على :

- Cirot, Index Onomastique et géographique de la "Chronique léonaise", p. 412 (Florentina), 423 (Tarasia), y 244 (Varraca).

(٩٢) انظر :- Graetz, les Juifs d' Espagne, trad. Stenne, pp. 75 y ss. Munk, Mélanges de philosophie juive et arabe, p. 480.

(٩٣) حول هذه التواريخ أنظر :

- Dozy, Hist. Mus. Esp. II, p. 166 y n. I.

- F. Fita, en B. R. A. H., XXXIV, 1899, pp. 458 - 61.

(٩٤) انظر :

- T. Ximénez de Embun, Ensayo histórico acerca de los arígenes de Aragón y Navarra, zaragoza, 1878, p. 188.

(٩٥) انظر :

- Maqqari, Analectes, I, p. 235.

- Dozy, Hist. Mus. Esp., II, p. 171, n. 2.

- (٩٦) - R. Menéndez Pidal, *orígenes del español*, p. 502.
- (٩٧) العبر، الجزء الرابع، ص ١٤٣.
- (٩٨) انظر على وجه الخصوص :
- Soldevilla, *Hist. de Catalunya*, I, p. 58 - 60.
- (٩٩) انظر نفس المرجع السابق، ص ٦١.
- (١٠٠) انظر : - Levi - Provençal, *Inscriptions arabes d' Espagne*, n. 87, pp. 85 - 6.
- (١٠١) العمل المذكور، ص ٧٦ - ٧٧.
- (١٠٢) حول السياسة الخاصة بعبد الرحمن الثالث في أفريقيا، انظر المراجع العربية التي ورد ذكرها في صفحة ٣٦٠، انظر البكري، وابن الأبار، وابن خلدون (العبر). وكذلك :
- R. Brunschvig, *un aspect de la literature histórico-geographique de Islam*, en *Mélanges Gandefroy - Demombynes*, Cairo, 1937, pp. 147 - 8.
- H. Terrasse, *la politique des califes de cordove au Maroc*, en *Bull. de L' Enseignement public du Maroc*, núm 179, Tabat, 1944, pp. 1 - 11.
- (١٠٣) انظر :
- William Marçais, *Revue Critique d' histoire et de litterature*, Paris, 1929, pp. 255 y ss.
- (١٠٤) كتذكاري لوطنه، أطلق هذا المغامر اسم «وشاق» الاسم العربي لوشقة، على اللسان الذي احتفى به، والذي مازال يعرف بنفس الاسم (جبل وشقة)، في قبيلة بني آلام.
- (١٠٥) انظر، على وجه الخصوص :
- W. Ivanow, *Isma'iliya*, en el *Supl. de la Enc Isl.*, Leyden - Paris, 1938, pp. 103 - 9.
- (١٠٦) انظر :
- J. Walker, *Enc. Isl*, III, pp. 125 - 6.
- M. Vonderheyden, *La Berbérie Orientale ous la dynastie des Benou' L-Arlab*, pp. 283 - 315.
- (١٠٧) العبر، الجزء الرابع، ص ١٣٩.
- (١٠٨) العمل المذكور، ص ٢٤٠.
- (١٠٩) العمل المذكور، ص ٢٤١ - ٢.

- (١١٠) العمل المذكور، ص ٣٠٥.
- (١١١) انظر المرجع الوحيد الذى يذكر هذا الحدث :
- Bakri, Description de L'Afr. Sept., texto, p. 89 ; trad. p. 178.
- (١١٢) انظر :
- Hist. des. Berb, texto, II, p. 36 ; trad. III, p. 231.
- Jushani, Qudat Qurtuba, texto, pp. 203 - 6. trad. esp. pp. 252 - 6.
- (١١٣) انظر :
- Bakri, op. cit. p. 104 ; trad. pp. 204 - 5 y n. I.
- (١١٤) انظر :
- Bakri, op. cit. texto, p. 78, trad. pp. 156 - 9.
- (١١٥) انظر، على وجه الخصوص :
- M. Bencheneb, en la Enc. Isl., I, pp. 489 - 90.
- G. Marçais, Recherches d' archiologie musulmane : Achir, en Rev. Africaine, 1922, pp. 21 - 40.
- (١١٦) حول أبو يزيد يمكن الإطلاع على :
- R. Basset, en la Enc. Isl., I, pp. 115 - 6.
- (١١٧) انظر، البيان، الجزء الثانى، ص ٢٢٨ - ٩؛ الترجمة ص ٢٥٢ - ٣.
- (١١٨) البيان، الجزء الثانى، النص، ص ٢٣٠، الترجمة، صفحة ٣٥٥ - ٦. وابن خلدون، تاريخ البربر، النص، الجزء الثانى، ص ١٩، الترجمة ص ٢٠٧ (الجزء الثالث).
- (١١٩) حول هذا الإدريسى الذى مارس نفوذه فى أحد أقاليم سبته، يمكن الإطلاع على :
- Bakri, Description..., texto, p. 130 ; trad. pp. 251 - 2.
- (١٢٠) حول إتخاذ الالقب الخلافية والبروتوكول الرسمى الذى كان يقيمه عبد الرحمن الثالث، يمكن الإطلاع على :
- Lévi- Provençal, Inscriptions ..., pp. XVII - XIX.
- (١٢١) ظل النص محفوظا بواسطة ابن عذارى، البيان، الجزء الثانى، النص الأسمى، ص ٢١٢؛ الترجمة صفحات ٣٢٨ - ٩. كما حفظ جزئيا بواسطة ابن الخطيب، الأعمال، ص ٢٤.
- (١٢٢) لقد أشرنا فى ص ٣٢١ من هذا الكتاب، إلى أن العاهل الصغير المدرارى لسيقتشيلماسا، محمد بن الفتح، لم يكن لديه أى مانع من أن يتحلى، بعد ذلك بقليل (٩٥٢ - ٩٥٤ هـ)، بلقب الخليفة بالإضافة إلى اللقب الشرفى : الشاكر لله.
- (١٢٣) العمل المذكور، ص ٨٧.

- (١٢٤) انظر : - Lévi - Provençal, *Inscriptions...*, ns. 28, 39 - 40.
- (١٢٥) حول الألقاب التي اتخذها لنفسه عبد الرحمن الثالث، أنظر : (ابن حزم، *نقط العروس*، ص ٢ - ٤).
- (١٢٦) العمل المذكور، ص ٢٨٨ - والمرجع المذكور في رقم ٧٠.
- (١٢٧) أنظر (ابن حزم، *نقط العروس*، ص ٢٣).
- (١٢٨) العمل المذكور، ص ١٠١.
- (١٢٩) ابن الأبار، *الحلة*، ص ١٠١.
- (١٣٠) المقرئ، العمل المذكور، ص ٢٩٦. وابن حزم، *جمهرة الأنساب*، ص ٢٠.
- (١٣١) في هذا الحال يتم ذكرها في الدرجة الأولى، كما حدث مع أم الولد طروب بالنسبة لعبد الرحمن الثالث، ومع سيدة الكبرى صبيح عند هاشم الثاني. وحول ما حدث في الشرق العباسي، يمكن الإطلاع على :
- M. Gaudet - Demombynes, *le monde musulman*, pp. 366 - 7.
- (١٣٢) العمل المذكور، ص ١٧٠، المرجع رقم ٨٤.
- (١٣٣) حول الصقالبة في إسبانيا، يمكن مراجعة :
- Lévi-Provençal, en la *Enc...*, IV, pp. 78-80, el mismo, *Esp. Mus. Xa-*, pp. 29- 30.
- (١٣٤) أنظر، المسالك، ص ٧٧، ٨٥. وكذلك :
- Alemany, *la geografía de la Península Ibérica en los escritores árabes*, p. 24 y n. 2.
- (١٣٥) انظر :
- Alemany, ob. cit. pp. 42 - 3.
- (١٣٦) - Antapodosis, VI, 6, ed. J. Becer, pp. 155 - 6.
- (١٣٧) - Maqqari, *Analected*, II, p. 57.
- (١٣٨) ابن عذاري، البيان، الجزء الثاني، النص الأصلي، ص ٢٤٧. الترجمة ص ٢٨٢.
- (١٣٩) المرجع السابق، نفس الصفحة.
- (١٤٠) يمكن الإطلاع، بهذا الصدد، على :
- Lévi - Provençal, *Esp. Mus. X^e-*, siéle, pp. 53 - 6.
- (١٤١) انظر العمل المذكور، ليقى بروفنسال (ص ٢٢١ - ٤).
- (١٤٢) العمل المذكور، ص ١٦٧.

- (١٤٣) العمل المذكور، ص ٢١٣.
- (١٤٤) العمل المذكور، ص ٨٩.
- (١٤٥) توجد هذه التفاصيل في المقتبس لابن حيان، الذي يتحدث عن فترة حكم الأمير عبد الله (طبعة أنطونيا، ص ٢٨).
- (١٤٦) حول مدينة الزهراء يمكن الاطلاع على :
- G. Marçais, Manuel d'art musulman, I, pp. 243 - 7.
 - Lévi - Provençal, en la Enc. Isl. III, pp. 95 - 6.
- (١٤٧) حول المنصورية، يمكن مراجعة :
- G. Marçais, Manuel..., I, pp. 118 - 20 : el mismo, en la Enc. Isl. III, p. 273.
- (١٤٨) من حيث أتى الاشتقاق الزهراوي، الذي حمله، من بين آخرين، الطبيب الشهير والجراح القرطبي في القرن العاشر، أبو القاسم.
- (١٤٩) مجهول المؤلف المديدي والكوينهاجني، طبعة : (Huici, texto, pp. 60 - 1 ; trad. Esp. p. 64).
- (١٥٠) حول بيوت السبع الحقيقة (الملكية) في الشرق الإسلامي أنظر :
- Gaudefroy - Demombyses, le monde musulman, p. 383 y nota I.
- (١٥١) يوجد هذا التفصيل فقط عند ابن خلدون، العبر، الجزء الرابع، ص ١٤٤.
- (١٥٢) يمكن الإطلاع على :
- Lévi - Provençal, Inscriptions ..., ns. 29 - 86, 87 y 34.
 - H. Terrasse, la mosquée des Andalouses á Fés, Paris, 1940, p. 8.
- (١٥٣) انظر :
- Lévi - Provençal, Es. Mus...., X^e-, pp. 102 - 3.
- (١٥٤) العمل المذكور : ص ١٦١ - ٢.
- (١٥٥) يمكن الإطلاع على (ابن الفرضي، تاريخ، رقم ١٤١٣. وكذلك :
- E. De Zambaur, Manuel de généalogie et de chronologie pour L' histoire de L'islam, Hamover, 1927, n. 98, p. 70.
- (١٥٦) انظر : Diehl, le monde oriental de 395 a 1081, en Hist. du Moyen Age, de Glotz, T. III, p. 462.

(١٥٧) حول هذه المدينة في القرن العاشر أنظر :

- Diehl, p. cit. pp. 519 - 22 ; el mismo, Bizance : grandeur et decadence, París, 1920, pp. 104 - 20.

(١٥٨) انظر، على وجه الخصوص :

- H. Terrasse, L'art hispano - mauresque, pp. 97 - 103.

(١٥٩) بهذا الصدد، يمكن الإطلاع على :

- Maqqari, Analectes, I, pp. 372 - 3.
- H. Terrasse, op. cit. p. 102.

(١٦٠) العمل المذكور، ص ٣٥٧.

(١٦١) انظر :

- El Libro de Cermonias, II, 15 (ed. de Bonn, 1829, p. 571 ; cf. II, pp. 651 - 2; Iuit-prando, Antapodosis, VI, 2.

(١٦٢) إذا ما صدقنا دوزي في كتابه التاريخ الإسلامي، ص ١٨١، الجزء الثاني، فإن هذا هو اللقب الذي أطلق على أسقف قرطبة، ولكن سيموني في كتابه تاريخ المستعربين ص ١٢٦، لا يقاسمه هذا الرأي.

(١٦٣) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، طبعة مولير، كونسبرج، ١٨٨٤، الجزء الثاني، ص ٤٧.

(١٦٤) ابن عذاري، البيان، الجزء الثاني، النص، ص ٢٣١، الترجمة ص ٢٥٧، والمقري، الجزء الأول، ص ٢٣٥ - ٧.

(١٦٥) مما يدهشنا التشابه بين هذا البروتوكول، كما يظهر في ابن حيان، مع ذلك الذي يحفظ باللغة الاغريقية في كتاب : الاحتفالات الرسمية «Libro de Ceremonias» :

- Constantino Porfirogeneta, II, 48 (ed. de Bonn, I, p. 686).

(١٦٦) العبر، الجزء الرابع، ص ١٤٣.

(١٦٧) يتعلق الأمر بهوجو أرلس Hugo de Arles، ماركيز بروفانس، الذي طالب بأن يكون ملكا على إيطاليا في بافيا عام ٩٢٦.

(١٦٨) العمل المذكور، ص ٣٠٠.

(١٦٩) حول مشوار خوان، راهب جورزي، يمكن الإطلاع على :

- A. Fliche, L' Europe occidentale de 888 a 1125, en la Hist. du Moyen Age de Glotz, t. II, Paris, 1930, pp. 129 - 30.

- (١٧٠) نشر هذا النص مرات عديدة، وخاصة في :
- Monumenta Germaniae historica, script., IV, pp. 335 y ss.
- (١٧١) أنظر :
- J. Calmette, L'effondrement d'un empire et la naissance d'une Europe, p. 117.
- (١٧٢) أنظر، على وجه الخصوص :
- R. Pourpardin, le royaume de provence sous les carolingiens, Paris, 1901, (Bibl. de L' Ecole part. des hautes études, Fasc. 131, pp. 243 - 73.
- (١٧٣) تم تدمير هذه القاعدة على يد رويان، الذي كان أخا الكونت الحاكم لبروفاانس، وذلك بمساعدة أردونيو، كونت تورين.
- (١٧٤) انظر :
- Poupardin, Royaume de Bourgone, p. 95 n. 5.
- (١٧٥) حول ريثموندو نشر دوزي دراسة بعنوان :
- Die Cordovaner 'Arib Ibn sa'd der Secretar und Rabi' ibn Zaid der Bischof, en la Z. D. M. G. XX, 1866, p. 595 - 609.
- (١٧٦) حول لويتهبراندو وماكتبه من أعماله، يمكن الاطلاع على :
- A. Fliche, op. cit. p. 642 y nota I.
- (١٧٧) انظر :
- Diehi, le monde oriental de 395 a 1081, en Hist. du Moyen Age, de Glotz, III, pp. 494 - 5.

الفصل السادس

عصر الخلافة

(٩٦١ - ١٠٠٨م)

عناوين الفصل السادس :

- ١- خلافة الحكم الثانى - المستنصر بالله (٩٦١ - ٩٧٦م) - الخليفة الثانى فى الأندلس - قرطبة وأسبانيا المسيحية أثناء ولاية الحكم الثانى - سياسة الحكم الثانى فى شمال أفريقيا - حداثة سن الخليفة هشام الثانى وإستيلاء رئيس بلاط القصر - ابن أبى عامر على السلطة (٩٧٦ - ٩٨١).
- ٢- حداثة سن الخليفة هشام الثانى وصعود ابن أبى عامر - كبير رجال البلاط إلى السلطة (٩٧٦ - ٩٨١م) - ابن أبى عامر وبداية الطريق - ولاية الخليفة هشام الثانى.
- ٣- المنصور رئيس الدولة الأندلسية وبطل الجهاد ضد المسيحيين (٩٨١ - ١٠٠٢م) - «ملك» محمد بن أبى عامر - النشاط العسكرى للمنصور فى أسبانيا المسيحية حتى عام ٩٩٥م - شنت ياقب وقلعة النصور وتيريرا Cervera. موت المنصور.
- ٤- سياسة المنصور بن أبى عامر فى شمال أفريقيا - الحماية القرطبية لمنطقة البربر الغربية حتى انشقاق الزيرى بن عطية - نواب الملوك فى فاس.
- ٥- عبد الملك ابن وخليفة المنصور بن أبى عامر (١٠٠٢ - ١٠٠٨م) - أسبانيا الإسلامية فى بداية القرن الحادى عشر - حملات عبد الملك المظفر ضد أسبانيا المسيحية.

١- خلافة الحكم الثاني المستنصر بالله (٩٦١-٩٧٦م)^(١)

الخلافة الثانية فى الأندلس :

يلاحظ فى التاريخ السياسى لأسبانيا الإسلامية - خلال القرن العاشر الميلادى - طغيان شخصية الخليفة عبد الرحمن الثالث وحجبها بعض الشئ لشخصية ابنه وخليفته من بعده الحكم الثانى. وقد ارتبط اسم هذا الأمير بمفخرة الفن الأسباني العربى ألا وهو الجامع الكبير فى قرطبة. فقد أمر بتوسعته وتجميله بالنقوش البديعة، وقد اكتسب شهرة لازمت سيرته بفضل حرصه على تزيين المسجد وشدة عنايته بالأدب والفنون^(٢). وربما بلغت قرطبة فى عهده - وهى مركز النشاط الروحى - ازدهارا لم تبلغه على عهد الناصر.

لكن ما سبق قوله لا يعنى أن الحكم، كرجل دولة، كان أصغر قامة أو أقل جدارة من سلفه الشهير. إذ كانت فترة ولايته هى الأكثر هدوءا وازدهارا طوال عهد الأسرة الأسبانية الأموية. وعند مقارنة الفترة التى حكم فيها بالفترة التى حكم فيها سلفه لوجدناها قصيرة إذ لم يكد يقضى خمسة عشر عاما. كان أمامه متسع من الوقت، قبل توليه السلطة، ليستكمل تعلّمة أمور الحكم، إذ عينه والده وهو صغير السن كوريث للخلافة، كما لم يتولّ السلطة إلا فى سن الخمسين تقريبا. وأثناء هذه الفترة اكتسب خبرة طويلة ومباشرة بشئون الحكم، كما كان له رأى يؤخذ به فى بعض أمور الدولة وهو فى مرحلة النضج^(٢). وعندما تولى الخلافة لقب بالمستنصر بالله وحرص كثيرا على عدم خرق القواعد التى أرساها والده واستمر على نفس السياسة سواء فيما يتعلق بالحدود الجغرافية للأندلس أو بالنسبة لشئون المنطقة الغربية من المغرب. لكن الحكم لم يكن - على ما يبدو - على نفس الدرجة من الحزم أو التسلط التى كان عليها عبد الرحمن الثالث. ففى دولة تنتهز فيها أى بادرة من بوادر الضعف يكون من الخطر على الخلافة أن ينزلق الحكم الثانى إلى اتخاذ مواقف فيها شئ من الليبرالية. حدث ذلك مرتين على الأقل - عام ٩٦٦م (٣٥٥هـ)، والعام التالى له - إذ لوحظ أن بعض ولاة الأقاليم الداخلية يتباطئون بعض الشئ فى أداء مهامهم، فما كان من الخليفة إلا أن بعث إليهم برسائل قوية اللهجة لوضع حد لهذه التجاوزات التى طال أمدها. ونحن نعرف أن الناصر لم يكن ليتهاون فى مثل هذه الأمور لحظة واحدة.

تتسم الصورة التى تركها لنا المؤرخون المسلمون، والخاصة بالأمرء المروانيين، بالواقعية الشديدة. فقد وصفوا الحكم الثانى وصوروه بشكل لا يتسم بالجاذبية فهو

أشقر يميل إلى الحمرة، واسع العينين السوداوين وأنفه على هيئة منقار معقوف وصوته قوى، قصير الساقين لكنه قوى البنية كما كان طويل العضدين وفى فكيه نتوء. كان على ما يبدو، معتل الصحة فقد حالت إصابته بشلل نصفى خلال عام ٩٧٤م (٣٦٤هـ) دون قيامه بأى نشاط طوال شهرين ثم أجهز عليه المرض بعد ذلك بعامين. وعندما رأى أن منيته قد قربت أمر بكثير من الأعمال الخيرية قبل انتقاله إلى الدار الآخرة مثل عتق الرقاب وإيقاف بعض أمواله على تعليم الأطفال المحتاجين ثم خفض أنواع الضرائب غير الشرعية إلى السدس تقريبا.. إلا أن بوادر التقوى والورع ظهرت فى تصرفاته قبل توليه منصب الخلافة، وهو فى هذا المقام يبتعد عن سلوكيات والده الناصر. فكثيرا ما نراه فى رفقة اليسوعيين وعلماء اللاهوت والأدباء والعلماء من مختلف ميادين العلم. كما أنه بذل جهدا كبيرا ليكون للدين الأولوية الأولى فى عهده. إذ تقول بعض الأخبار أنه كان على وشك تحريم شرب النبيذ تحريما مطلقا فى كافة الولايات التابعة لملكه واللجوء إلى اقتلاع كافة مزارع الكروم. كان مشروعا جنونيا إلا أن العاهل لم يتخل عنه إلا عندما نصحه الكثيرون بعدم تنفيذه. وتعرضت قرطبة على عهده لسياط جفاف شديد عام ٩٦٤م (٣٥٣هـ) مما حدا به إلى توزيع المشروبات على المحتاجين.

اتسم الجو العام فى الأندلس - بما اصطلح عليه هذا المسمى - بالهدوء والاستقرار طوال الخمسة عشر عاما التى تولاها الحكم الثانى مثلما كان عليه الحال خلال النصف الثانى من ولاية والده الناصر. ولم يكن هناك استثناء إلا ما حدث خلال عام ٩٦٦م (٣٥٥هـ) والذى تمثل فى إنزال مجوس - كانوا من أصل دانماركى هذه المرة - أرسل بهم ريكاردو الأول Ricardo I دوق نورمانديا وحفيد رولون Rollon وذلك بهدف تحرير ممتلكاته من الوطأة الثقيلة للحكم الثانى. كانت الأندلس مستعدة لمقاومة هؤلاء القراصنة إذ كانت هناك قوات كثيرة العدد ومجهزة العدة تقوم بدوريات مستمرة لمراقبة شواطئ الأطلنطى والبحر الأبيض المتوسط. كما كانت مدينة المرية Almería أول ثغر حربى مهيا لمواجهة النورمانديين والأسطول الفاطمى. وفى عام ٩٦٤م (٣٥٣هـ) قام الحكم الثانى بزيارة هذا الثغر الذى أمر ببنائه كما زار الموقع الحصين المسمى رباط القابضة Qabita والذى كان يتناوب المراقبة فيه العديد من المتطوعين المسلمين من مختلف الفئات الاجتماعية

جاء الدانماركيون على متن ثمانية وعشرين سفينة ونزلوا على شواطئ منطقة قصر أبى دنيس وهى المنطقة التى تسمى حاليا دوسال Alcacer Do Sal الواقعه جنوب

البرتغال، ثم غزوا بعد ذلك سهول لشبونة وحدث هناك صدام دموى مع القوات الإسلامية استطاعت إحدى الفصائل الأشبيلية اللحاق بسفن المجوس عند مصب نهر شلب Silves فحطمت الكثير منها وحررت الأسرى الذين كانوا على متن السفن. وبعد هذه العملية عاد أسطول المحيط للرسو في مياه نهر الوادي الكبير. وبعد ذلك بسنوات قليلة عاودت بعض السفن الدانماركية الظهور من جديد على الشواطئ الأسبانية. وعندئذ أصدر الحكم الثاني أوامره لقائده البحري المكلف بقيادة الأسطول في منطقة البحر الأبيض المتوسط عبد الرحمن بن رمحيس بأن ينضم إلى الأسطول الثاني في أشبيلية والمرايط في مياه نهر الوادي الكبير. ويبدو أن المجوس لم يتمكنوا من إنزال قواتهم هذه المرة^(٥).

وصلت إلى أيدينا نسخة حديثة من تاريخ ابن حيان ورغم أن بها كثيرا من العيوب إلا أنها تضمن جزءا كبيرا مما كتبه والذي يلقي به الضوء على فترة ولاية الحكم الثاني (٩٧١ - ٩٧٤ م) (٣٦٠ - ٣٦٤ هـ). يتضمن هذا الجزء الباقي معلومات جديدة عن سياسة الحكم الثاني تجاه المسيحيين والشمال الأفريقي. أضيف إلى ذلك أن رواية «المقتبس» تؤكد لنا الطبيعة المسالمة لهذا العاهل^(٦) ولا يكاد هذا الجزء يتناول الحياة السياسية في الأندلس لكنه يخصص جزءا كبيرا لسرد أخبار الحفلات الكثيرة التي كانت تعقد إما في قصر الخلافة في قرطبة أو في مدينة الزهراء. ومنه يمكن الخروج بنتيجة مؤداها أن الحكم الثاني لم يحدث أي تغيير في البروتوكول الدقيق المتبع والذي تسير عليه حياة الخليفة. كما لم يطرأ أي تغيير على الدور الذي يقوم به الضباط الصقالبة. وفي الفترة التي سبقت صعود نجم محمد بن أبي عامر، على عهد الخليفة الثاني، كانت هناك اثنتان من الشخصيات المسيطرة على زمام الأمور في البلاد: أولها غالب العتيق الذي كان مكلفا في مدينة سالم بالدفاع عن حدود الخلافة مع أشتوريش وليون والبشكنس. أما الثانية فكان الوزير المصحفي الذي يتولى مسئولية الحكم أثناء مرض العاهل. ومن المعروف أن ترقى القائد/ غالب بن عبد الرحمن إلى أعلى المناصب في صفوف الجيش كانت قد بدأت أولى مراحلها في عهد الناصر وشهد عصر الحكم الثاني المزيد من صعود نجم هذا القائد الذي أعتقه الخليفة الأول. كما أن اسمه سوف يتردد كثيرا عندما نتحدث عن حملات في الأراضي المسيحية وغرب المغرب. وقد ظل أحد كبار رجالات الدولة مع مجيئ هشام الثاني.

وبالنسبة لأبي الحسن جعفر بن عثمان المصحفي فيرجع صعود نجمه بسرعة ملحوظة إلى علاقات شخصية وصدقة وطيدة تربطه بالحكم الثاني. إذ كان والده

عثمان بن نصر معلم الأمير، وقد أولاه هذا الأمير برعايته حتى قبل توليه عرش الخلافة إذ جعله أمينه الخاص قبل أن يقوم بممارسة ضغوطه حتى تعطى ولاية جزيرة ميورقة عام ٩٤٧م (٣٣٦هـ). كان المصحفي من أسرة رقيقة الحال من أصل بربري. هذه الأسرة استقر بها المقام في مدينة فالنسية. وقد عين المصحفي أميناً عاماً للدولة عندما تولى الحكم الثاني الولاية بدرجة وزير، ثم نقل إلى إدارة الشرطة كما حظى بثقة الحكم الثاني طوال مدة حكمه إذ كان يثنى عليه لاستقامته وحرصه على عدم إثقال كاهل ميزانية الخلافة بنفقات عديمة الجدوى^(٧).

لم يكن للحكم الثاني أبناء عندما صعد إلى كرسي الحكم وهو في السادسة والأربعين من العمر. وهذا موقف شائك بالنسبة لمستقبل هذه الأسرة التي تعاقب فيها الحكام بطريقة مباشرة. ولذلك كانت سعادته غامرة عندما رزق بولد من إحد محظياته. كان ذلك عام ٩٦٢م (٣٥١هـ) لكن الأمير الصغير وافته المنية بعد سنوات قلائل. ومن حسن الطالع أن تكون هذه المحظية نفسها الملقبة بـ «أم الولد» هي التي تنجب له طفلاً بعد ذلك بثلاثة أعوام، وسمى هذا الطفل «أبو الوليد هشام» الذي أحيط برعاية شديدة كما أن أمه كانت أكثر نساء القصر تأثيراً ودلالاً. فهي أمة شابة من البشكنس تدعى صبح. إلا أن العاهل كان يفضل أن يطلق عليها اسماًذكراً هو «جعفر». وربما كان ذلك سيراً على تقليد كان سائداً في بغداد. أو لأنها كانت ترتدى ملابس الغلمان. وصبح - جعفر هذه - هي التي أطلق عليها المؤرخ دوزي اسم «فجر» في روايته لتاريخ هذه الفترة. وسوف نرى فيما بعد الدور الذي إضطلعت هي به مع مجيئ ابنها هشام الثاني إلى كرسي الحكم وقد تمثل هذا في وصول صنيعتها ابن أبي عامر إلى أعلى الدرجات الشرفية. وعندما رأى الحكم الثاني ما به من علة أصابته بالهزال والضعف، ورغبة منه في الاطمئنان على تولي ابنه من بعده قرر عام ٩٧٦م (٣٦٥هـ) أن يقوم ابنه بحلف يمين الولاء ليكون وريث العرش. تم هذا في حفل عظيم أقيم يوم الخامس من فبراير (غرة جمادى الثانية) في قصر الخلافة في قرطبة. وبعد ذلك بثمانية أشهر - أول أكتوبر الموافق الثالث من صفر - وافته المنية وهو في الحادية والستين من العمر.

قرطبة وأسبانيا المسيحية أثناء ولاية الحكم الثاني :

ربما تذكرنا كيف كان وضع أسبانيا المسيحية على عهد عبد الرحمن الناصر. كان الملك سانشو الأول Sancho I ابن أوردونيو الثالث Ordonio III - ملك ليون وأشتوريش قد أطيح بعرشه عام ٩٥٨هـ لكنه استطاع بفضل معونة الجيش الاسلامي

والتي وعد بها عندما كان في قرطبة مرافقا لجده Toda، الملكة الوصية على نبرة Navarra، أن يسترد عرشه عام ٩٦٠م وأجبر منافسه أوردونيو الرابع على اللجوء إلى أشتوريش أولا ثم الانتقال إلى برغش Burgos ثانيا. كما قام الباشكنس بمهاجمة فردلند القومس Fernan Gonzalez كونت قشتاله وأسروه في نفس هذا العام (٩٦٠م) وقد وعدته قرطبة بمدد يد العون العسكري شريطة أن يتنازل لها عن عشرة من القلاع والحصون الواقعة على الحدود. لكن الاتفاق المذكور لم يتم تنفيذه حتى موت عبد الرحمن الثالث.

طالب الخليفة، كأول خطوة عملية بعد توليه شئون الحكم، بتسليم القلاع والحصون العشرة وإلا فسوف يكون في حل من تنفيذ حلف الصداقة الموقع بين ليون وقرطبة. وظن الحكم الثاني أن باستطاعته الحصول من ملك بنبلونه Pamplona على وعد بتسليم أسيره الكونت القشتالي/ فردلند القومس لكن كلا من سانشو الأول وغرسيه ظنا قدرتهما على عدم الانصياع لنوايا قرطبة إذ كانا يعرفان أن الحاكم الجديد يميل إلى السلم والدّرس أكثر من ميله للحرب، ووصل الأمر بحاكم نبرة إلى إطلاق سراح فردلند القومس الذي عاد مسرعا إلى برغش Burgos وتمكن من شخص زوج ابنته وهو أوردونيو الرابع فأطاح به وأرسله، ترافقه مجموعة من الفرسان، إلى أراضى المسلمين. ثم أعمل يد القسوة في الأراضى التى سيطر عليها ودفع بالعصابات المسلحة من أهلها للقيام بغارات على أراضى الجوار. فأتخذت قرطبة إجراءات للقضاء على هذه الغارات وتمثل ذلك في حملة سيرتها. ففي عام ٩٦٢م (٣٥١هـ) نودى في أرجاء الخلافة بالجهاد المقدس.

عندما طرد أوردونيو الرابع من قشتاله إلى أسبانيا الإسلامية توجه إلى مدينه سالم وطلب من القائد غالب الموافقة على الانتقال إلى قرطبة بغية طلب العون من الخليفة الذى أمر قائد حرس الحدود - عند إبلاغه بالموقف - بأن يرافق الأمير الليونى دون أن يعده بشئ. وفي الثامن من أبريل عام ٩٦٢م (٣٥١هـ) وصل الاثنان كلاهما إلى قرطبة. كانا أوردونيو الرابع على استعداد كامل للرضوخ لأى مطلب، فإذا ما أخذنا برواية ابن حيان^(٩) والتي تحدثت عن زيارة ذلك الأمير للحكم الثانى، فأول شئ فعله الملك المخلوع عندما وطئت قدماء أرض قرطبة يرافقه حرس شرف خرج لاستقباله سأل عن المكان الذى دفن فيه الناصر. وعندما مر أمام القصر من طريق يقع على الجانب الآخر من الضريح الملكى توقف وخلق قلنسوته ثم تلا بعض الصلوات بصوت خفيض. ثم ذهبوا به للإقامة فى منية الناعوره يرافقه عشرون من علىة القوم الذين أتوا

معه. كما عومل أحسن معاملة. وبعد ذلك بيومين ذهبوا به إلى حضرة الخليفة في مدينة الزهراء. وهناك لم تدخر الخلافة أى جهد لإبهار هذا الأمير الذى اتسم بالجلالة الشديدة والذى لم يشهد فى حياته فخامة بهو الاستقبال فى البلاط الإسلامى. والمعلومات المتوفرة لدينا عن لقائه بالخليفة الحكم الثانى تدور كلها، بالطبع - مع شىء من المبالغة غير الجيدة التورية - حول ما أظهره أوردونيو الرابع من تواضع شديد أمام عظمة خليفة الأندلس الذى وعده بكل ما يريد ليبلغ مراده. وقد تحدث إليه الخليفة باللغة العربية وقام بالترجمة المستعرب وليد بن خيرون **Walid ben Jayzuran** قاضى المستعربين فى قرطبة. ومن الوعود التى تلقاها قيام جيش بمساعدة الأمير استعادة العرش الذى سلبه منه سانشو الأول. كما أن علاقاته بقرطبة سوف تكون علاقة سليمة. ووعد الأمير بألا يتحالف مع كونت قشتالة ضد الإسلام. ولتأكيد ذلك عليه أن يقدم ابنه غرسيه كرهينة وعليه أن يقوم بطلب المشورة فى الأمور الهامة وذلك من خلال مجلس له نوع من الوصاية، مؤلف من ثلاثة من كبار المستعربين وهم قاضى الذمه فى قرطبة/ وليد وأسقف العاصمة/ أصبع بن عبد الله بن نبيل، ومطران أشبيلية/ عبيد الله بن قاسم.

أصاب الخوف سانشو الأول عندما علم بهذا الاتفاق فسارع بإرسال سفارة إلى الخليفة مؤلفة من كونت جليقية وسمورة **Galicia y Zamora** وبعض النبلاء. كانت مهمة السفارة هى الاعتراف للحكم الثانى بسيادته والتعهد أمامه بالتنفيذ الدقيق لكل بنود المعاهدة التى وقعت مع الناصر. ومنذ هذه اللحظة لم يعد أحد فى قرطبة يولى أى اهتمام بأوردونيو الرابع الذى مات بطريقة غامضة - دون أن يخرج على ما يبدو من قرطبة - كان ذلك قبل نهاية عام ٩٦٢م. وأدى اختفاؤه المبكر من الساحة إلى تبديد مخاوف ملك أشتوريش وليون، فعند اختفاء منافسه يمكن له أن يعاود الكرة مرة أخرى فى عدم الوفاء بما قطع على نفسه من عهود ووعود أمام العاهل المسلم. والخطوة التالية هى المسارعة فى عقد حلف مع كونت قشتالة وملك نبرة وكل من الكونت بوريل **Borrel** والكونت ميرون **Mirón** قائدى برشلونه.

ولواجهة هذا التحالف لم يكن أمام الحكم الثانى مخرج آخر إلا الحرب. وعندما حسم أمره قام بمهاجمتهم والسيطرة عليهم الواحد تلو الآخر وقد ترأس بنفسه الحملة التى سيرها وكانت قشتالة أول أهدافها (صيف ٩٦٣م - ٣٥٢هـ) ولاتتوافر لدينا الكثير من المعلومات حول أولى الحملات التى قام بها الخليفة الثانى ولا حتى عن الحملات التى تلتها^(١٠). استولت الجيوش الإسلامية على بلدة شنت إشتين دى غورماج **San**

Esteban de Gormaz الواقعة على نهر دويرة Duero وأجبر الكونت فردلند القومس على توقيع معاهدة سلام سرعان ما خرق بنودها بعد ذلك وبالتالي ظهرت الحاجة إلى منازلته من جديد فاستولى المسلمون هذه المرة على بلدة أتينثا Atienza الاستراتيجية كما هوجم غرثيه سانشيث الأول وألحق به الهزيمة. يحيى بن محمد التوشيبى حاكم سرقسطة zaragoza. وبعد ذلك بقليل قام كل من القائد غالب والقائد سعيد - أحد عتقاء العاهل - بمعاودة الهجوم واستوليا على قلعة قلهرّة Calahorra التى كانت قد تحصنت جيدا وتم تزويدها بحامية قوية^(١١). وبلدة غرماج Gormaz هى من المواقع الهامة على نهر الدويرة Duero^(١٢)، بالقرب من شنت إشتبن San Esteban. وقد جهز هذا الموقع تجهيزا قويا لمواجهة السلوكيات العدوانية التى يقوم بها الكونت فردلند القومس^(١٣).

كان لتفوق الجيش الاسلامى فى الأسلحة والعتاد نتيجة مؤداها هى الأمان الكامل لحدود دولة الإسلام بفرض الهدنة على أسبانيا المسيحية وذلك بعد أن تولى الحكم الثانى عرش الخلافة بوقت قصير. وفى نهاية عام ٩٦٥م، وربما كان العام التالى له، (٩٦٦م) توفى سانشو الأول ملك ليون بعد أن قام الكونت الجليقى / غونثالو بدس السم له. فخلفه ابنه راميرو الثالث Ramiro III الذى لم يتجاوز الثالثة من العمر. فكانت عمته السيدة / إلبيرا Elvira هى الوصية على الملك. كانت هذه المرأة قد ارتدت الحجاب وعاشت حياة العزلة فى دير القديس سلبا دور San Salvador فى ليون. وأدى هذا الأمر إلى أن يعلن سادة مملكة ليون استقلالهم لأنهم رفضوا الدخول تحت إمرة طفل ووصاية امرأة. وأخذ كل واحد منهم يتصرف بمعزل عن الآخر ويجرى مفاوضات مباشرة مع قرطبة. وابتداء من عام ٩٦٦م كثرت السفارات الوافدة إلى العاصمة الأموية التى أرسلت بها بعض الشخصيات المسيحية معلنة نفسها من رعايا الخليفة وطالبة منه الدخول كحكم فى المنازعات الداخلية التى أدت إلى تشرذمهم. كما كانت كل من جيلقية وأشتوريش تعيشان مرحلة حرجة إذ كانتا تتعرضان لهجمات النورمانديين من البحر. وفى عام ٩٧٠م أى بعد وفاة الكونت فردلند القومس، بعد أن أصابه الهزال وتقدم به العمر خلفه ابنه غارثى فرنانديث Garci Fernandez. وفى العام نفسه يموت ملك نبرة Narvarra غرثيا سانشيث ويؤول عرش بنبلونه إلى سانشو غارثيا الثانى الذى لقب بـ «النعل».

لم يكد الحكم الثانى يتقلد منصب الخلافة حتى سارع الأمراء الجدد للتعبير والإعراب عن ولائهم. وعلى الجانب الآخر من الحدود نرى مشاهد الانحطاط السياسى المؤقت لمملكتى ليون ونبرة، «فى الوقت الذى تصل فيه الخلافة الأموية إلى أوج

ازدهارها وممارسة سطوتها السلمية على كافة الأراضي الأسبانية وتحقق بذلك انتشار الأمان في ربوعها»^(١٤). وفي الجزء الخاص بالحكم الثاني والذي أورده ابن حيان في كتابه «المقتبس» [يبدأ اعتباراً من عام ٩٧٠ م - ٣٦٠ هـ] نرى تأكيداً لما ذكر قبل ذلك، مع إضافة الكثير من التفاصيل ومنها كثرة السفارات الوافدة إلى قرطبة من أسبانيا المسيحية^(١٥) واستمر ذلك الأمر حتى عام ٩٧٤ م (٣٦٣ هـ). أو أن هذه السفارات كانت تلك التي أرسل بها الكونت بوريل كونت برشلونه. ثم سفارة الملك سانشو غرثيا الأول ملك نبرة، أما السفارة الثالثة فأرسلت بها السيدة إلبيرة الوصية على عرش الملك الأسنتوري الليوني. ثم سفارة فرنان لاينث Fernan Iainz كونت شلمنقة Salamanca وسفارة غارثي فرنانديث صاحب قشتالة. وسفارة فرناندو أنسوريث-Fernando Ansu rez كونت منتشون Monzon وسفارة جليقية. وتشهد قرطبة عام ٩٧٣ م وصول وفود جديدة أرسلها كل من سانشو صاحب نبرة وإلبيرة الليونية وفرناندو أن سوريث وروى بيلاثكيث Ruy Velazquez من جليقية وبنى غوميث Gomez وكل واحد منهما كونت كاريون Carrion. وفي العام التالي أيضاً قام الكثير من هؤلاء السادة بتجديد تأكيد مواقفهم. وقد تزامن مع تلك الوفود وهذه السفارات مجيء سفارتين قادمتين من بعيد إلى بلاد الحكم الثاني: أولاهما سفارة قدمت في شهر مارس (٩٧٢ م) جمادى الأولى ٣٦١ هـ تحمل رسالة بعث بها البيزنطي يوحنا زيمسكي Juan Tzimiscas. أما السفارة الثانية فقد وصلت في شهر يوليو لعام ٩٧٤ (ذي القعدة ٣٦٣ هـ) وتحمل رسالة من الإمبراطور أتون الثاني Oton II الممثل الجديد للبيت السكسوني Sajonia الذي تولى العرش بعد وفاة والده أتون الأول منذ أقل من عام.

تعكّر صفو حالة السلم في هذه الفترة بطريقة مفاجئة. وبالتحديد خلال عام ٩٧٤ م (نهاية ٣٦٣ هـ) وكان السبب هو موقف الكونت الجديد لقشتاله غارثي فرنانديث الذي كان قد أرسل سفارة إلى قرطبة. فلم تكد هذه السفارة تنتهي من مهمتها في العاصمة وتخرج منها حتى وصلت أنباء تقول بأن هذا الحاكم القشتالي شن هجوماً مفاجئاً على المعقل الإسلامية منذ ثلاثة أسابيع. هذا المعقل يسمى ديثا Deza وهو مكان يقع حالياً في محافظة سوريّة Soria على بعد خمسين كيلو متراً شمال شرق مدينة سالم. كان هذا الموقع الحصين وكذا موقع أتيكا Ateca الواقع بالقرب من قلعة أيوب من الناحية الغربية بمثابة مقاطعة يحكمها عمير بن تملاط - ذو الأصل البربري - تركتها له الخلافة الأموية في قرطبة مقابل ضمان سلامة حدود الخلافة في تلك النواحي. كما أن الحكم الثاني قد أكد سير الأوضاع على ما هي عليه في هذه المقاطعة بعد وفاة عمير بن تملاط فالت كآثر لأبنائه الخمسة من بعده. وقد اضطر اثنان من

هؤلاء الأبناء وهما زروال ومدع إلى الانسحاب أمام الهجوم القشتالي فأصيب الأول إصابة قاتلة. عندما وصلت هذه الأنباء إلى قرطبة أمر الخليفة بالقبض فورا على سفارة غارثي فرنانديث وهي في طريق العودة إلى قشتاله والرجوع بها إلى قرطبة وإيداعها السجن^(١٦).

هذا التغير المفاجئ في موقف كونت قشتاله لم يكن غير عقلاني بالمرة إذ كان يحاول الإفادة من غيبة غالب، قائد قوات حرس الحدود، التي طال أمدتها، فقد أرسله الخليفة على رأس حملة إلى شمال المغرب للقضاء على تمرد الأمراء الأدارسة. غير أنه سرعان ما طلب منه العودة إلى موقعه السابق في مدينة سالم وأن يعمل على أن تعي الممالك المسيحية جيذا قوية ومقدرة الجيوش الإسلامية. إلا أن غارثي فرنانديث كان قد أقنع جيرانه في ليون ونبرة بالوقوف إلى جانبه، وفي شهر إبريل (٩٧٥م) (شعبان ٣٦٤هـ) اجتمعت قوات قادمة من قشتالة وجليقية والبشكنس قوامها ستون ألف رجل طبقا لتقديرات ابن حيان وقامت بحصار حصن غورماج Gormag. سار غالب فورا وهو يحمل مهمة كسر طوق الحصار المفروض على هذه المنطقة وقد رافقه في حملته هذه كل من يحيى التجيبي والي سرقسطة ورشيق البرغواتي al Bargawati فاستولى الجيش الإسلامي على بلدة براهونا Barahona الواقعة شمال مدينة سالم ثم على بيرلانغا Berlanga الواقعة جنوب نهر الدويرة بقليل. وفي الوقت ذاته أبدت القوات الإسلامية المحاصرة في غورماج Gormaz مقاومة عنيدة أمام القوات المحاصرة. ودارت المعركة الفاصلة بين قوات الجانبين أمام جدران القلعة في ٢٨ / ٦ / ٩٧٥م (١٥ شوال ٣٦٤هـ) وكانت المحصلة خسارة فادحة في صفوف المسيحيين، وأراد غالب الإفادة من هذا الانتصار إلى أقصى حد ممكن فقام بمهاجمة الأراضي التابعة لغارثي فرنانديث وألحق به هزيمة جديدة في بيرلانغا Berlanga الواقعة على نهر الدويرة كما قام والي سرقسطة بمطاردة القوات البشكنسية وهي عائدة إلى أراضيها ملحقا بها هزيمة بالقرب من تطيلة Tudela في مكان يسمى إستركويل Esterciel^(١٧) وبهذا أعاد للسيطرة الإسلامية وضعها السابق الذي استمر حتى مجيء هشام الثاني الذي تولى العرش في العام التالي.

سياسة الحكم الثاني في شمال أفريقيا^(١٨):

يذكر أن عبد الرحمن الناصر - في أواخر عهده - فقد فجأة نتائج جهوده المستمرة التي كان يبذلها في المغرب لاستمالة مجموعة قبائل الزناتة وجعلها تدور في

فلك قرطبة وضممان ولاء هؤلاء السادة الأدارسة له وهم الذين أفادوا جيدا من أصولهم العريقة فاستطاعوا الاحتفاظ لأنفسهم بإقطاعات هامة. وقد أدى الاستعراض البسيط لقوة الفاطميين والذي خطط له ونفذه إستراتيجى له سمعته وهو المولى جوهر إلى الإعلاء من سمعة ومكانة سيد أفريقيا والتقليل فى الوقت نفسه من شأن أمير الأندلس بدءا بالفيافي الجزائرية وحتى شواطئ المحيط الأطلنطى. وعندما تولى الحكم الثانى عرش الخلافة لم يرث عن أبيه فى أفريقيا إلا منطقتى سبته ومليلة بالإضافة إلى بعض الأراضى الأخرى، وقد التزم التزاما مطلقا بالنهج الذى اتبعه والده فيما يتعلق بالشئون الأفريقية ونفذ الخطط بحذافيرها طيلة العشرة أعوام التالية إذ نراه مستمرا فى بعث رسله إلى الشاطئ الآخر. وتخصيص الهبات الثابتة للبعض ومحاولة إيجاد مناخ يساعد على التوسع القرطبى. وفيما يتعلق بالصراع القائم منذ عقود طويلة مضت بين الرؤوس الكبيرة على الشاطئ الأفريقى أو ما يطلق عليه المؤرخون العرب - الأسباب «العدوه» فقد استمر طوال عهد الخليفة الثانى متمثلا فيما عرف عنهم بالمناوشات والاستفزازات بين كبار القادة المغربيين. كذلك كان الأمر بالنسبة لتوزيع الذهب، وقد تقتضى الأمور الدخول فى صراع مسلح وانتهاج سياسة تتسم بشئ من المخاطرة وتؤدى إلى نتائج غير مؤكدة وذات طبيعه مؤقتة. كان وراء هذا الموقف الآخذ فى التوتر واقعة هامة للغاية ألا وهى انتقال الخليفة المعز لدين الله الفاطمى إلى القاهرة.

كانت اهتمامات العاهل الفاطمى مركزة كلها فى الشرق الإسلامى، عندما تولى الحكم الثانى السلطة فى الأندلس. فاتجه القائد جوهر الصقلى، الذى لبس تاج الفخار لسيطرته على المغرب، إلى مصر لغزوها والعمل على ضم سوريا للسلطة الفاطمية. فدخل الفسطاط منتصرا فى شهر يوليو ٩٦٩م (شعبان ٣٥٨هـ) وشرع على الفور فى بناء مدينة تكون مقرا لسيده عندما يأتى للإقامة بصفة مستديمة فى مصر. وأطلق على العاصمة الجديدة اسما موحيا هو القاهرة.

وبعد ذلك بثلاثة أعوام ينتقل المعز لدين الله إليها ومعه كافة أفراد بلاطه. ولم يكتف بهذا فقط بل حمل معه رفات من سبقوه على العرش الفاطمى، ومنذ ذلك الحين أضحت منطقة البربر الشرقية واحدة من الولايات التابعة للأمبراطورية الشيعية ثم أصبحت بعد ذلك إمارة تدور فى الفلك الشيعى.

أما الشخص الذى عهد إليه الخليفة الفاطمى بإدارة شئون تلك الولاية فى الفترة التى نتحدث عنها، فقد كان واحدا من الشخصيات السياسية الهامة فى المغرب ألا وهو

الصنهاجى الثرى المدعو زيرى بن مناد التلقطى الذى كان يقيم فى مدينة أشير Ashir وهى مدينة كما سبق أن رأينا، أسسها هو فيما بين عامى ٩٣٦م، ٩٤٦م (٣٢٤ - ٣٣٤هـ). وقد أسلم الرجل نفسه روحا وجسدا للقضية الفاطمية ودائما ما قاوم أى إتفاق مع الأمويين فى أسبانيا، أما الشخصية الأخرى التى ضمت تحت لوائها الزناتية، الأعداء التقليديون للصنهاجة، فهو محمد بن خاير حفيد محمد بن خزار المقرائى. فرغم انضوائه المتأخر تحت لواء الفاطميين لم يصمّ أذنيه عن النوايا التى كانت تصل إليه من العاهل الأندلسى، إذ كانت هناك صلات مصالح قائمة بين المروانيين وسادة الزناته.

وقد تمكن بفضل الدعم الهام الذى كان يتلقاه من قرطبة من تكوين جيش قوى كان بمثابة العصا التى يغير بها على الأملاك التابعة للأمراء الدائرين فى الفلك الفاطمى. وعندما شعر الخليفة الفاطمى بالقلق من هذه الغارات سمح بأن يقوم الصنهاجى الزيرى بتأديبهم وقدم له إمكانية الاحتفاظ بالأراضى التى يستولى عليها منهم لتصبح ملكا خاصا به. وعلى ذلك كلف زيرى ابنه أبو الفتوح بلوكين بالقيام بغزو الأقليم الذى يسيطر عليه الزناته. والتقى الجيشان المتحاربين يوم الخامس عشر من فبراير عام ٩٧١م (١٥ ربيع الثانى ٣٦٠هـ) وحقق الصنهاجة نصراً مؤزراً. وعندما رأى محمد بن خاير خسارته للمعركة وأنه لا حول له ولا قوة وأن حريمه على وشك السقوط فى أيدي أعدائه قتل نفسه بسيفه. كما بقيت على أرض المعركة جثث عشرة من الأمراء الصنهاجة بالإضافة إلى جثث جنود الجيش المهزوم. ولسنا نعرف مكان المعركة فلم يقم أى من المؤرخين بهذه الخطوة.

شعر الحكم الثانى بخيبة أمل ومرارة شديدتين عندما خسر أتباعه فى المغرب هذه المعركة أما الزيرى بن مناد فقد دعم قدرته العسكرية التى ساعدت على انتصار ابنه وأخذ يطارد الزناته وخاصة الذين كانوا يقيمون فى منطقة الزاب التى تقع جنوب غرب المحافظة التى تسمى حالياً محافظة القسطنطينية إذ كان ذلك الأقليم معقلا لأحد القادة الفاطميين الذى لم يكن من أصل عربى خالص بل ترجع بعض أصوله إلى الأندلس. هذا القائد هو جعفر بن على بن حمدون الذى اشتهر بلقب ابن الأندلس. أما والده على وجده حمدون فقد هاجرا من الأندلس بحثا عن موطن جديد فى المغرب، وارتبط حظهما بالداعية أبى عبد الله والرحالة الأول فى الأسرة الفاطمية. وفى عام ٩٢٧م (٣١٥هـ) تلقى على بن حمدون الأوامر من سيده بأن يقوم ببناء مدينة أطلق عليها «المحمدية» وهى الآن «مسيلة» الواقعة جنوب غرب القسطنطينية، وقد تعرض على

بن حمدون لحادثة فى هذه المدينة بعد ثمانية عشر عاما أدت إلى وفاته. ثم خلفه ابنه جعفر كحاكم على مسيلة. فى عام ٩٧١م (٣٦٠هـ). شعر بالغيرة من استمرار صعود نجم الصنهاجى الزيرى بن مناد الأمر الذى جعله يرفض الهيمنة الفاطمية، واتفق فى الهدف مع الزناتة المقيمين فى المنطقة الساحلية وأعلن دون مواربة انضمامه إلى الأمويين فى الأندلس. فأراد الزيرى سحق هذا الخصم الجديد المناوئ للقضية التى دافع عنها لكن تأت الرياح بما لا تشتهى السفن ففى المعركة التى دارت بينه وبين جعفر وحلفائه من الزناتة سقط حصان الزيرى واستسلم على أيدي أعدائه (يوليو ٩٧١م - رمضان ٣٦٠هـ) وأعمل هؤلاء سيوفهم فى الصنهاجة فذبحوا الكثير منهم. ثم قام أحد إخوة جعفر وهو المدعو يحيى بالسفر إلى قرطبة وقد حمل إلى الحكم الثانى نياشين النصر وخاصة رأس الزيرى المملوطة بالدماء. واستقبل هذا الوفد استقبالا حاراً فى قرطبة ثم انضم إليه بعد قليل جعفر الأندلسى بنفسه. ومما لاشك فيه أنه أحسن التقدير فى قراره بعدم البقاء فى المغرب لدواعى أمنية إذا انتقل إلى شبه الجزيرة الأيبيرية بحثاً عن ملجأ مؤقت.

لم تكد تمر فترة طويلة حتى جاء رد فعل المعز لدين الله الفاطمى للرد على الإهانة المزدوجة والتى تمثلت فى مقتل الزيرى وخيانة جعفر الأندلسى فأمر بلوغين بن الزيرى بأن يجهز حملة ضد المغرب. القمع والمناهضة كانا من سمات موقف الزيرى ضد الزناتة وقد طبق ذلك فى كل المدن التى احتلها - تاهرت ومسيلة وتبنة وبجاية وبوجبة ويسكرا - والتى سقطت الواحدة تلو الأخرى: إذ أعمل القتل فى البداية فقضى على الآلاف منهم، «وَألا يقوم أى من البربر بتربية الخيل أو ركوبها. وقد قال بلكين هذه المقولة التى أضاف إليها «وقبل أن يقدم أحدهم على ذلك لابد أن أعطيه الأمان». أدت هذه المناهضة وهذا التعطش للدماء إلى أقول نجم قرطبة فى تلك النواحي. لكن كان على بلكين أن يعود من داخل المغرب الذى قدم إليه تلبية لنداء الخليفة المعز لدين الله الذى أبلغه بتعيينه واليا على إفريقية، أو بتعبير أدق نائباً للخليفة فى هذا الأقليم، وذلك قبل رحيله إلى مصر. فقام بلكين، الذى أطلق على نفسه اسم يوسف، بالعمل بنصيحة سيده وسار من جديد لاحتلال السلام فى المغرب لكن لم يكد يصل فى مصادرته للزناتة إلى ترمذان حتى وصلت رسالته أخرى من المعز يدعوه فيها للعودة إلى الشرق. فلم تعد المغرب تهم الفاطميين وتركوا يد الأمويين لتعمل بحرية فيها.

وأمام هذا الوضع الجديد تراخى الحكم - على ما يبدو - فى خطواته إذ لم تعد هناك مخاوف من تدخل شيعى فى شئون أسبانيا الإسلامية غير أن القضية الرئيسية

تمثلت في هيبة قرطبة. كما أن الخليفة لم ير مايشين في استمرار قرطبة في دورها كحكم في الشئون السياسية في المغرب. واستقبل في بداية عهده سفارة من أبي منصور عيسى - أمير البرجواته - وهي سابقة لم تحدث سلفا في تاريخ الخلافة الأموية. كان على رأس هذا الوفد رئيس الدير المدعو صالح زموور وكان يرافقه مترجم لينقل إلى العربية مايتحدث به. جاءت الزيارة في خريف عام ٩٦٢م (شوال ٣٥٢هـ) ومثلت خطوة هامة، إذ كان أمير أولئك القوم يريد إقامة أواصر صداقة مع الخلافة الأموية الأسبانية. وربما كانت إجابته الحكم فيها نوع من التهرب لا يعرض نفسه لتأنيب الفقهاء المتشددین في المملكة، وقد أفاد كثيرا من إقامة هذا الوفد في قرطبة بأن حصل على معلومات حقيقية عن معتقدات هؤلاء الملاحدة. وكان وقع ما قصه ورواه هؤلاء الناس وقع الصاعقة على البلاط الأموي والعاصمة قرطبة، وهذا ما أورده الجغرافى البكرى في مؤلفاته. ويمكن إيجاز القول في معتقداتهم بأنها تقليد ساذج جدا للإسلام وأن كتابهم المقدس ليس إلا مقابلة تتسم بالسذاجة إن لم تقل إنها مقابلة فجّة للقرآن (١٩).

عندما خرج المعز لدين الله متوجها إلى مصر كان العلم الأموي الأبيض لا يزال يرفرف على أبراج مدينة سبته التي انتهى العمل في بنائها عام ٩٦٢م (٣٥١هـ). وكافأ الحكم أهلها على ولائهم بإعفائهم من بعض الضرائب (٢٠). أما عن أهالى طنجة فلم يتسم سلوكهم بالوفاء المطلق للخليفة الأندلسي إذ قاموا - بعد توليه الخلافة بفترة قصيرة - بطرد الحامية الأسبانية التي احتلت المدينة منذ عام ٩٥١م (٣٣٩هـ). ويتحدث الجغرافى المشرقى ابن حوقل عن رحلته خلال هذه الفترة التي نحن بصدد معالجتها - والتي زار فيها مدينة سبته، إلى أنها كانت المدينة الأفريقية الوحيدة التابعة لسلطة الأمويين بالإضافة إلى ميناء صغير مجاور يطلق عليه مرسى موسى (٢١). هذا المعقل البيزنطى القديم سرعان ماسيقوم بأداء الدور الذى ألقته قرطبة على عاتقه فقد احتمت خلف أسوارها الجيوش التي أرسلها الحكم الثانى عام ٩٧٢م (٣٦١هـ) إلى المغرب لمواجهة أوضاع سوف نعرض لها الآن.

كان الحسن بن كنون واحدا من أبرز أمراء الأدارسة في شمال المغرب وسيد «أرثيلة» Arcila التابعة للبصرة «ولعش الصقر» «حجر النصر». أشرنا سلفا إلى أنه بعد إعلانه الانضمام للأمويين اضطر بعد الغارة التي قام بها جوهر الصقلی إلى الاعتراف من جديد بسيادة الفاطميين. لكنه بذل ما في وسعه، بعد ذلك، للتحرر من أى وصاية سياسية وحاول مد نفوذه في السهول المغربية المسماة بالغرب وكذا في المناطق

الجبلية الممتدة شمال وادي اللكّوس Lukkus ومارس سيادته على طنجة وتطوان، وبدا من تصرفاته عزمه على أن يعيد للأدارسة أمجادهم. عندئذ شعرت قرطبة بالقلق تجاه تصرفاته، فتلقى القائد محمد بن القاسم بن طلمس، قائد مجموعات المرتزقة، أوامر بالاتجاه إلى سبته ترافقه القوات النظامية وفي الوقت نفسه يقوم القائد البحري ابن الرميحس بالابحار بمجموعة من السفن والسير قبالة الشواطئ الأفريقية في المنطقة المواجهة لجبل طارق. وقد عبّر ابن الرميحس من أسبانيا إلى سبته في الثاني من أغسطس ٩٧٢م (٨ شوال ٣٦١هـ). وبعد ذلك بأسبوعين وصلت الأنباء إلى الحكم الثاني تفيد باستيلاء هذا القائد على طنجة بينما قام الجيش الذي يقود ابن طلمس بتفريق قوات الأدارسة في الطريق الموصل بين سبته وتطوان واستمر في تقدمه متوجها نحو شواطئ الأطلنطي. واستمرت الطواير الأموية تطارد الحسن بن غنوم وتضيق الخناق عليه واستولت على غنائم كثيرة. كما استطاع ابن طلمس دخول أرثيلا Arcila. وأرسل إلى العاهل الأموي الجزء العلوي من منبر مسجد هذه المدينة والذي كان منقوشا عليه اسم الخليفة الفاطمي. لكن لم يستسلم الحسن بن غنوم ففي الثاني والعشرين من الشهر التالي (ديسمبر) [٢٣ ربيع الأول ٣٦٢هـ] قام بمهاجمة القوات الأسبانية في منطقة مهران [وهي منطقة لم تعرف معالمها في فحص Fahs طنجة] واستطاع قتل ألف وخمسمائة وكان من بين القتلى ابن طلمس قائد الحملة. وفرّ من بقي على قيد الحياة إلى سبته ومن هناك بعثوا في طلب النجدة من قرطبة.

وحتى ينتقم الحكم الثاني لهذه الخسارة الفادحة قرر قيام أفضل قادته وهو المولى غالب القائد العام للثغر الأوسط بعبور مضيق جبل طارق. حضر غالب أولا من قرطبة قادما من مدينة سالم وسمع من العاهل قوله «انذهب يا غالب ولا تعد حيا إلا ومعك النصر والا فليس أمامك حجة إلا الموت على أرض المعركة؛ أنفق الذهب بسخاء بين من يؤيدون الأمويين. واقض على كل الأدارسة وأرسل بمن بقي منهم إلى الأندلس». ولم يكد غالب يصل إلى الشاطئ الآخر حتى سارع إلى حصار الحسن بن غنوم الذي أسرع للاحتماء بقلعة حجر النصر. وطال أمد حصار هذا الحصن الطبيعي وازدادت الأمور صعوبة إذ كان الأدرسيّ يتميز بشجاعة الجندي والقسوة في أن واحد. فكان يقوم بالعديد من محاولات الخروج من الأسوار وكان مصير الجنود الذين يأسرهم من الجيش المحاصر هو اللقاء بهم من أعلى أبراج أسوار القلعة. وبعد مرور فترة قصيرة تلقى غالب أموالا استطاع بها شراء ولاء بعض السادة في الأقليم وهم

الذين كانوا يدورون بشكل ما فى فلك ابن غنوم. وفى شهر أكتوبر ٩٧٣م (محرم ٣٦٣هـ) أرسل الخليفة بتعزيزات عبارة عن جيش جمع أفرادَه من الثغر الأعلى وعلى رأسه يحيى بن محمد التوجيبي. ولم يكن بوسع الحسن بن غنوم إلا الاستسلام بعد أن ضاق الخناق عليه. واحتلت بعض القوات الأموية البصرة وأدى هذا الأديسى صلاة الجمعة برفقة غالب فى مسجد حجر النصر يوم ٢٧ مارس ٩٧٤م (٢٩ جمادى الثانية ٣٦٢هـ) وأثناء الصلاة دعى للحكم الثانى على المنبر. وبعد ذلك عاد غالب إلى أسبانيا وقد أخذ معه القائد المهزوم وبرفقته أسرته وخاصة منهم من فرع بنى محمد كان وصول الأدراسة المخلوعين إلى قرطبة مثار بهجة كبيرة حيث قام هولاء بالتعبير عن ولائهم الشديد للخليفة فى قصره بمدينة الزهراء. ثم مكثوا فى العاصمة وعوملوا كعلية القوم. أما غالب فقد استقبل استقبال القادة الفاتحين إذ منحه الخليفة أعلى الدرجات العسكرية «ذو السيفين» (٢٢). وهى درجة تشبه «عصا المارشالية»، وسمح له بالعودة إلى مقر قيادته فى مدينة سالم. بينما أسندت قيادة قوات الاحتلال الأموى فى المغرب إلى يحيى التوجيبي.

ولما أخذت تعتل صحة الحكم بعد ذلك ببضعة شهور تولى جعفر بن عثمان المصحفى - عمليا - إدارة الشؤون العامة. فى هذه الأثناء جاءت له أخبار من الثغر الأعلى بدت له مبررا كافيا لاستدعاء يحيى التوجيبي إلى مقره السابق فى سرقسطة وسحب القوات الأرغونية المتمركزة معه هناك لأن نفقات إبقاء القوات الأموية فى الجانب الآخر من العدو كانت تثقل كاهل بيت المال ويبدأ من المناسب أن يحل محل هذه القوات قوات أخرى جمعها من أبناء المغرب. وقد أعطيت للجنود المشاركين فيها بعض الحقوق، على شاكلة الجند المرابطين على السواحل الجنوبية لأسبانيا. واختارت قرطبة لقيادة هذا الجيش الجديد جعفر بن على بن حمدون - القائد الأفريقى ذا الأصل الأندلسى والذى انتقل إلى شبه جزيرة أيبيريا منذ عدة أعوام - إلى جانب أخيه يحيى. غادر الاثنان قرطبة فى نهاية عام ٩٧٥م (٣٦٥هـ) وهما محمّلين بالهدايا والأموال وتوجها إلى الأخطبوط المغربى. وحملوا أيضا تفويضا يخول لهما إقطاعات شخصية هامة فى تلك النواحي. واستقبل الزناته جعفر ويحيى استقبالا طيبا وزوداهما بحوالى ستة آلاف فارس. واعترف كل من المجراوه Magracea بنو عفران Ifran - يمثل كل طرف منهم رئيسه فهناك الزيرى بن عطيه وأخيه مقاتل ومن الطرف الآخر هناك جادو بن يعلى - بابنى على بن حمدون كممثلين رسميين للنظام الأندلسى. وبعد ذلك ببضعة

شهور وصل إلى شمال أفريقيا نبأ وفاة الحكم الثاني.

قام الوزير المصحفي، قبل وفاة الحكم الثاني بوقت قصير، باتخاذ ما يجب بشأن الأمراء الأدارسة الذين أتى بهم غالب إلى أسبانيا فقد بدأ الحسن بن غنوم، إلى إظهار ولائه الشديد عند وصوله إلى حاضرة الخلافة، في اتخاذ موقف يتسم بالتحفظ والدهاء، إذ عَنَّ للحكم الثاني ذات مرة أن يأمره بأن يأتي له بقطعه من العنبر كبيرة الحجم كانت في حوزته وذلك حتى يستعملها الخليفة. لم يكن أمام ابن غنوم إلا الرضوخ رغم شعوره العميق بالإهانة. وهنا بدا من المستحب إبعاد هذا الضيف سريع الغضب وكذا باقى أفراد عشيرته وفوق هذا كانت تكلفة إقامتهم باهظة في نظر الوزير المختص بشئون المالية. وانتهى الأمر بأن دعاهم المصحفي - وهذا معناه أمرهم - بأن يهاجروا جميعا إلى المشرق. وانتهى المطاف بالأدريسي وأهله في المرية. ومن هناك ركبوا البحر إلى أفريقية ثم سافروا ... بطريق البر إلى مصر، فاستقبلهم الخليفة الفاطمي العزيز استقبالا طيبا. وعد العزيز ابن غنوم بمساعدته على استعادة عرش أجداده. وكما سنرى لاحقا، نجده يظهر في المغرب بعد عشر سنوات. إلا أن هذا الظهور استمر لبضعة شهور.

٢-حادثة سنّ الخليفة هشام الثاني وصعود ابن أبي عامر كبير رجال البلاط إلى السلطة (٩٧٦ - ٩٨١م) (٢٣).

- ابن أبي عامر وبداية الطريق (٢٤):

عاشت أسبانيا الإسلامية مرحلة جديدة بعد وفاة الحكم الثاني. فسلطة الخليفة أصبحت على وشك تلقى ضربة غير مسبوقة. فلما كان العاهل الجديد حدثا وأضعف من أن يوجه دفعة الحكم بنفسه أو المطالبة بها عندما يصل إلى سن الرشد، تولى إدارة البلاد دكتاتور حقيقي، أو كبير رجال البلاط، العبقري الذي لا يتورع عن فعل أى شئ. وهو رجل انتقل به الحال من مجرد موظف صغير اتسم بطموح لا حدود له وإرادة حديدية وحنكة سياسية ملحوظة وقدرة عسكرية لاجدال في جدارتها. كما كانت له قدرات خاصة على إجهاض الدسائس والمؤامرات. فوصل إلى أعلى قمم الشرف والفخار بسرعة كبيرة. واستطاع في أعوام قليلة الإطاحة بمنافسيه والقيام بانقلاب

يهيئ له الإدارة الكاملة لدفة الحكم فى الأندلس ويعد ذلك يتسم مسار حياته بالعلو والفخار فذا ع صيته كبطل للإسلام والمسلمين فى شبه الجزيرة الأيبيرية. وربما زاد فى هذا عن عبد الرحمن الناصر، كما سجل معاركه وانتصاراته على المسيحيين فى أفضل سجلات النصر والفخار التى حققتها الأمبراطورية الأسبانية - الأموية - وسيطر بيد من حديد على الوضع الداخلى وخاصة على الدهماء وقضى على المزايا العرقية وأذل الأرستقراطية العربية والصقلية وأعاد تنظيم الجيش حيث أدخل فى صفوفه العديد من الجنود الذين دانوا له بالولاء المطلق. وظل طوال عشرين عاما كأنه العاهل الوحيد فى الأندلس بينما الخليفة حامل اللقب ليس إلا دمية احتلت آخر الصفوف على المسرح السياسى.

هذا الرجل القوي «رجل البلاط» هو أبو أمير محمد بن أبى عامر المغبرى وهو الذى سرعان ما يلقبونه بالمنصور (إنه ذلك المنصور الذى يظهر اسمه فى أخبار المؤرخين المسيحيين). إلا أن ما بقى لدينا من روايات تتعلق بهذه الفترة الثرية والمليئة بالمجد والفخار التى تعتبر تتويجا للقرن العاشر الميلادى فى أسبانيا ليس إلا أخبارا موجزة. كما لا تتوفر إلا معلومات ضئيلة ومشكوك فى صحتها عن أخبار حروبه التى خاضها فى شمال شبه جزيره أيبيريا. نعرف أيضا أن ابن حيان خصص جزءا كاملا للحديث عن ابن أبى عامر وأبنائه لكن لم يصل إلى أيدينا من هذا الجزء إلا القليل مما نقله عنه ابن بسام. وبعد ذلك بوقت طويل فعل نفس الشئ كل من ابن الخطيب وابن عذارى. أما بالنسبة لمن قاموا بدراسة إسبانيا المسيحية فيبدو أنهم اتفقوا على الإيجاز الشديد عند الحديث عن أكثر المحاربين قوة ومهابة لكل من ليون وقشتالة ونبرة ومقاطعة برشلونه وإيجازا للقول فما يتوفر لدينا من وثائق عن أسبانيا الإسلامية زمن المنصور لا يمكن مقارنته ولو من بعيد بالفترة التى تتعلق بالثلثين الأولين من القرن العاشر الميلادى. حقا لقد زاد عدد هذه المصادر بعض الشئ على أيام المؤرخ دوزى إلا أن هناك فقدان توازن واضح فيها إذ نجد التفاصيل الكثيرة عن الظروف التى أدت إلى صعود نجم ابن أبى عامر وسيطرته على السلطة لكن الندرة وعدم الدقة هما حصادنا عندما يتعلق الأمر بالنشاط المكثف الذى قام به ذلك الرجل منذ صعود نجمه وحتى وفاته.

بدأت بوادر صعود نجم ابن أبى عامر فى عهد الحكم الثانى. إذ نراه يصعد درجات سلم المجد بسرعة غير معهودة آنذاك. بلغ ابن أبى عامر سن الرشد عند تولى الحكم الثانى عرش الخلافة (ولد عام ٩٤٠م - ٣٢٨هـ). وهو من أسرة عربية عريقة

النسب من أصل يمنى هو من فرع قبيلة معافير Ma afir وكان حقه المطالبه بالمساواة بنبلاء الأندلس فالفرع الذى ينحدر منه بشكل مباشر كان قد شارك مشاركته فعلية فى غزو شبه الجزيرة الأيبيرية. ويقدم كتاب السير صورة هذا المهاجر «عبد المالك» على أنه أحد القلائل من العرب الذين رافقوا طارق ابن زياد وقد برز فى عملية الاستيلاء على كارتية Carteya عام ٧١١م (٩٢هـ) وذلك قبل اللقاء الحاسم على ضفاف نهر برباط. وأمام ذلك الإقدام تلقى إقطاعية من الأراضى الواقعة فى طرُش على ضفاف نهر وادى يارة الكائن شمال شرق الجزيرة. وظل أبناء وأحفاد عبد المالك يعيشون على هذه البقعة من الأرض وتلقبوا بعد ذلك ببني عامر كناية عن أبى عامر والتى كان المنصور ينسب إليها أيضا. هؤلاء الأغنياء الذين سكنوا جنوب الأندلس كانوا يميلون منذ أجيالهم الأولى إلى الدرس أكثر من حمل السلاح. فبرز بعضهم فى مناصب القضاة والفقهاء حتى أن بعضهم وصل إلى منصب والى أحد الأقاليم أثناء حكم محمد الأول. أما والد المنصور فهو عبد الله بن أبى عامر الرجل الذى حاز بعض الشهرة فى نقل الأحاديث النبوية وأدى فريضة الحج ووافته المنية فى رحلة العودة عند طرابلس البربر فى نهاية حكم عبد الرحمن الناصر. كان الرجل متزوجا من امرأة ذات نسب كريم كان اسمها بريجة ابنه يحيى التميمى الملقب بابن برطل. كانت هذه المرأة أما للمنصور ولشقيقه الثانى يحيى.

ترك محمد منزل الأسرة الكائن فى الجزيرة وهو صغير السن وتوجه إلى قرطبة بهدف الدراسة. وأشرف عليه أعمامه وأخواله. لم يتأخر كثيرا فى إحراز تقدم ملحوظ فى ميدانى الفقه والأدب إذ درس على يد الفقيه أبى بكر بن معاوية القرشى الذى جاء إلى أسبانيا بكتاب «السنن» للنسائى^(٢٥) كما درس على يد البغدادى أبى على القالى أحد العلماء الذين حظوا برعاية الحكم الثانى الذى إستقدمه من المشرق^(٢٦). وهناك من الأساتذة أيضا أبو بكر ابن القوطية الذى أخذ بيد الطالب الشاب فى إتقان اللغة العربية ومعرفة دروب بلاغتها. تلقى ابن أبى عامر إذن تربية راقية تهيئوه ليكون قاضيا وأديبا. وبعد بضع سنوات أنهى دراسته الأدبية التى مهدت له الطريق إلى الدخول فى عالم الفقهاء وعالم الأدباء إذا ما أراد الارتقاء فى مصاف هاتين المهنيتين.

يورد مؤرخو سيرة المنصور بعض الطرائف^(٢٧) التى تتعلق به عندما كان فى عاصمة الخلافة. والتى كان مردها رغبته فى التفوق على أقرانه وهزيمة العقبات التى قد تصادفه فى الطريق الذى رسمه لنفسه وحدد الغاية من ورائه وسعى إليها بكل ما أوتى من قوة العزيمة والألمعية: ذلك الهدف هو بلوغ المركز الأول فى الدولة الأندلسية.

ربما كان هدفا جنونيا إذا كانت العقلية التي وراءه متواضعة لكن الأمر يختلف إذا ما وجدنا أمامنا فتى شابا متوازنا وصلب العزيمة ودقيقا فى حساباته. وتعكس كل تلك الصفات وجود شخصية عظيمة وليس هوس أحد المرضى. وبمرور السنوات نجد أن كل خطوات ابن أبى عامر تتركز حول هدفه الرئيسى وأن لا شئ يمكن أن يحول دونه، ولهذا كان يعرف جيدا قيمة إمكانياته والتميز بوضوح بين من هم مؤيدوه ومن هم معارضوه والقدرة على أن يحسب بدقة ماسيعود عليه من الدسائس التى كانت العملة السائدة بين عليّة القوم. وفى مرحلة العمر التى يلعب فيها الأقران ويلمعون نجد دكتاتور أسبانيا القادم يجهز خطته ومراحلها المختلفة بدقة، ويرسمها لأمد بعيد وربما أقرها ميكافيللى إذا ما عرضت عليه. كانت الخطوة الأولى مفتعلة: إذ كان عليه أن يدخل نفسه فى دائرة الإدارة المركزية حتى ولو كانت الوظيفة صغيرة. وعندما يتم له هذا سوف يعرف كيفية صعود درجات السلم الواحدة تلو الأخرى دون أى توقف وقد أزاح من أمامه كل منافسيه ومعارضيه ومن يعرقلون مسيرته.

كان الحظ حليفه فسرعان ما استجاب لأماله ومحا عنه مررة البداية المتواضعة. إذ كان على ابن أبى عامر أن يرتجل فى البداية وأن يكون مكانه موقعا شديدا التواضع بالقرب من القصر. فهو يتولى تحرير الصحائف والطلبات وعليه أن يرضى بالراتب البسيط الذى يحصل عليه كاتب عمومى. ثم دخل رويدا رويدا - ربما ليشغل منصب مساعد إدارة التوثيق - فى دائرة موظفى قاضى قضاة العاصمة محمد بن سالم. فهل خمن هذا القاضى - كما قيل - الصفات التى عليها هذا المساعد الشاب والتي جعلته يشعر بالغيرة منه؟ ماحدث هو أن عينه القاضى ليكون أحد المساعدين فى دائرة الوزير المصحفى - الرجل الأول فى الإدارة المدنية - ومنذ هذه اللحظة سارت شهره والحظ إلى جوار ابن أبى عامر.

ذكرنا قبل ذلك أن الحكم الثانى ظل فترة طويلة بدون إنجاب، وسعد كثيرا بطفله الأول الذى سماه عبد الرحمن الذى ولد عام ٩٦٢م (٢٥١هـ) لكن هذا الطفل الأول مات صبيًا. وبعد ذلك بثلاثة أعوام رزق بطفل آخر خلفه فى الحكم هو هشام. فما كان من والدته الطفلة إلا أن تطلب منه الإسراف فى هباته لابنته. ولإدارة شئون هذه الثروة وكذا ثروة ولدها - إذ وهب الحكم الثانى الكثير لأم الولد - كان من الضرورى البحث عن شخص ذكى ومؤدب ومستقيم ليقوم بهذه المهمة، النظارة، ويعرض شئونها على الأميرة الأم. فكان الوضع الطبيعى تعيين أحد الصقالبة لمثل هذه المهام. لكن المصحفى، وقد أخذته المفاجأة بما طلبت منه صبح، عرض عليها عددا من المرشحين ومن بينهم ابن

أبى عامر، فقبلت تعيينه. تلقى ابن أبى عامر تعيينه ناظرا لأموال الأمير عبد الرحمن براتب شهرى قدره خمسة عشر دينارا يوم الثانى والعشرين من فبراير عام ٩٦٧م (التاسع من ربيع الأول ٣٥٦هـ) ولما بلغ السابعة والعشرين من العمر، كان منصبا مؤقتا لابتدئ وبعد ذلك بسبعة أشهر أضيف إلى أعبائه منصب مدير دار ضرب النقود^(٢٨) وهو منصب ممتاز ذو عائد مادي مرتفع. وفى نهاية العام التالى تولى إلى جانب ذلك مسئولية الخزانة والوصى على الموارث. وبعد ذلك بقليل عين قاضيا لدائرة أشبيلية ولبلة Niebla. وفى الحادى عشر من شهر يوليو ٩٧٠م (٤ رمضان ٣٥٩هـ) تولى الإشراف بشكل رسمى على أموال الأمير الشاب هشام ولى العهد، بعد وفاة الأمير عبد الرحمن.

لا يمكن أن نرجع هذا الصعود السريع وتولى العديد من المناصب الهامة والمتنوعة فى وقت واحد إلى القدرات التى يتوفر عليها ابن أبى عامر، ففى رأينا أن صبح «أم الولد» كانت تحميه بقوة وفعالية، وتشير كل الدلائل إلى الشك فى أنه كان عشيقها حتى ولو كان ذلك بعد وفاة الحكم الثانى. اننا نعتمد فى هذا الرأى على بعض التنويهات والتحفظات التى أبداها بعض المؤرخين العرب، إذ وصل الأمر بالبعض منهم إلى الإشارة بأن المجتمع القرطبى شعر بالقلق إزاء إسراف السلطانة الأم فى عطاياها للناظر الشاب، الذى لم يكد يدخل القصر حتى استفاد من كل الفرص المتاحة ليظهر قدراته ومواهبه. ولما كانت هذه الصفات ترافقها الصدف المحضة فقد فتح باب الحريم التابع للخليفة فلم يكن أمام ابن أبى عامر إلا المغامرة بكل شئ رغبة فى إرضاء نزوات نساء القصر بتوزيع الهدايا عليهن والإسراف فى تخصيص الأموال لهن من أجل المصروفات الشخصية. ويصف ابن حيان هذا الأمر بوضوح فبعد الإشارة إلى أن ابن أبى عامر خطرت له فكرة صنع قصر صغير من فضة وتقديمه هدية لصبح الأمر الذى أثار إعجاب أهل قرطبة، يضيف - ابن حيان - على لسان الخليفة الحكم الثانى، بما أفضى به إلى بعض مقربيه ذات يوم متسائلا «عن الصفات التى يتحلى بها هذا الفتى حتى يستحوذ على إهتمام نساءى ويطلب لبهن؟ لا تعجبهن إلا هداياه رغم ما يحيط بهن من كل ما لذ وطاب. ولا يسعدهن إلا ما يأتى هو به، فهل لنا أن نظن أنه ساحر يتقن فنه أو أنه خادم متمرس؟ إننى أشعر بالقلق على الأموال العامة التى يشرف عليها»^(٢٩).

كان حكم الخليفة صائبا إذ كان على ابن أبى عامر أن يعتذر بشدة بعد ما تم الإبلاغ عنه من عدم دقة الحسابات ومن الممكن أن يكون الموقف قد كلفه كثيرا لولا أن

أحد أصدقائه، وهو الوزير ابن حضير، قام بسدّ العجز الموجود فى الحسابات فى الوقت المناسب وعندما خرج ابن أبى عامر مرفوع الرأس من هذا المأزق الذى كان يمكن أن يكلفه حريته أو منصبه فى البلاط استرد ثقة العاهل الأموى فيه، وفى عام ٩٧٢م (٣٦١هـ) ترقى إلى قيادة الشرطة المتوسطة - وتحول بذلك إلى واحد من كبار رجالات الدولة. فأصبح الطالب البائس شخصية لها مهابتها ومحاطة بالعديد من الأتباع، وأصبحت أملاكه واسعة فأمر بأن يبنى له فى حى الرصافة بيتاً منيفاً وضع فيه مائدة مفتوحة لكل من أراد. ولم يدخر وسعاً فى توسيع دائرة صداقاته وصداقات من يحيطون به كما استمرت علاقته الممتازة برئيس وزراء الخلافة المصحفى.

وسرعان ما أوكلت إليه مهمة خاصة ستجعل منه أحد رجالات الصف الأول وخاصة إتاحة الفرصة للتعامل مع كبار قادة الجيش من ذوى التأثير فى شئون الخلافة وخاصة المولى غالب القائد العام للثغر الأوسط. وقد رأينا أنه عندما تم إرسال غالب لمعاينة الأمراء الأدارسة ثم التفكير فى تعيين شخص إلى جواره يتولى الإشراف العام أو مراقبا ماليا ليشراف على الأرصدة المخصصة لشراء ذمم المتمردين. كانت القيادة العامة للأموية تتمتع بحرية التصرف فى مثل هذه الأرصدة ولا تخضع إلا للإشراف الشكلى من قبل الوزير المصحفى. فتم تعيين ابن أبى عامر للقيام بهذه المهمة الحساسة. فرحل إلى شمال أفريقيا وهو يحمل اللقب الرسمى: قاضى القضاة المشرف على أملاك الخلافة الواقعة فى المغرب الغربى. وقد أدى هذه المهمة بحساسية ودقة. وعنى بتفادى أية حساسيات قد تحدث بينه وبين القادة، ولم يتوان هؤلاء فى الثناء عليه. واستطاع بذلك أن يوطد علاقته بهم وهى علاقات هامة بالنسبة له. كما هيأت له هذه الرحلة التعرف عن كثب على الموقف السياسى للبلاد، وعقد صداقات مع كبار القادة فى الشمال الأفريقى من هؤلاء الذين يدورون فى الفلك الأموى. وعندما عاد إلى قرطبة - كان ذلك قبل وفاة الحكم الثانى ببضعة أشهر - تم تعيينه مفتشاً عاماً على قوات الهجامة المتمركزة فى العاصمة ولم يكد يبلغ الأربعين من العمر بعد.

- ولاية الخليفة هشام الثانى :

فاضت روح الحكم الثانى إلى بارئها ليلة أول أكتوبر عام ٩٧٦م (الثالث من صفر عام ٣٦٦هـ) وهو بين أذرع اثنين من المقرّبين من الصقالية: فايق النظامى وجؤذر، إذ كان الأول منهما يدير صناعة الطراز أما الثانى فهو خبير بالصناعات اليدوية الدقيقة وخبير أيضاً بتربية الصقور. كما كانا يتقاسمان فيما بينهما قيادة

الحرس من الصقالبة المرابطين على أبواب القصر. وبدلاً من إبلاغ الوزير المصحفي أولاً بوفاة الخليفة اتفق كلاهما على أن يتولى السلطة شقيق شاب للحكم الثانى اسمه المغيرة. وتصورا أن العاهل الذى سيساعده فى تولي شئون الحكم لن يبعدهما عن مناصبهما وسوف يلتزم بتولية هشام الثانى كوريث للعرش. كان اقتراحا وفكرة لها وجاقتها وقد يجتمع عليها الكثير من الرعية التى لم تكن ترضى بأن يكون مصير البلاد فى يد طفل. إلا أنه كان من الضرورى الحصول على موافقة صاحب المصلحة ألا وهو الوزير المصحفي الرجل الذى أخذ يمارس فعليا سلطات الوصى على العرش أثناء مرض الخليفة فبعثا أيضا فى طلب الوزير من منزله لإبلاغه بالقرار الذى اتخذاه واستعدادهما فى الوقت ذاته للتخلي عن الفكرة إذا ما رفض الوزير الموافقة على الخطة فما كان من المصحفي إلا تمثيل كوميديا كاملة الأركان فتصنع الموافقة على الخطة وعرض عليهما القيام بتولى حراسة مخارج القصر بنفسيهما وبمجرد وصولهما إلى البوابات سارع المصحفي بإبلاغ كبار رجالات الدولة من العرب وكذلك قادة كتائب البربر وهم بنو برزال^(٣٠) واتخذ هذا المجلس الذى حضره ابن أبى عامر قرارا باستبعاد مرشح الصقالبة ذلك أن ارتقاء عرش الخلافة يمكن أن يعرض المزايا التى عليها المجتمعون للخطر. وبدلاً من ذلك، القيام بتولية الوريث الشرعى للحكم الثانى بشكل فوري، وهو الفتى الصغير الذى طلب منهم الحلف بيمين الولاء له منذ شهور مضت، وحتى يتم القضاء بشكل حاسم على مشروع الصقالبة اقترح المصحفي وجوب التخلص سريعاً من المغيرة باغتياله وأن يكون ابن أبى عامر هو الذى يتولى هذه المهمة الإجرامية.

كان المغيرة واحداً من آخر أبناء الخليفة الناصر وكان عمره آنذاك سبعة وعشرون عاماً. كان يعيش فى منزل العاصمة ولا يدرى شيئاً عن المصير الذى ينتظره فقام ابن أبى عامر باصطحاب بعض الجنود الذين أحاطوا بمنزل المغيرة، فدخل عليه وأبلغه بوفاة أخيه الحكم الثانى وتولية ابنه هشام الثانى عرش الخلافة. ثم سأل عن نواياه فما كان من الأمير المسكين الذى كانت ترتعد فرائصه إلا الإعلان عن ولائه الكامل لتعيين الخليفة الجديد. فدخل الشك ابن أبى عامر. وعندئذ أرسل إلى المصحفي يطلب العفو عن الأمير البرئ لكن الإجابة كانت بالنفى مما أدى باين أبى عامر إلى مغادرة الحجرة التى كان فيها المغيرة وترك للجنود الذين كانوا معه مهمة خنق الأمير أمام أعين زوجاته. وبهذا غرقت خطة الصقالبة فى الدماء، وصل الخبر سريعاً إلى كل من فايق وجؤذر فأصيبا بالهلع وسارعا بإبلاغ جعفر المصحفي بانضمامهما إلى ما قرره هو وتأيد الخليفة الجديد.

تم تقليد هشام الثانى منصب الخليفة صباح اليوم التالى، فى قصر قرطبة ولقب شرفيا بـ «المؤيد بالله». وحضر التنصيب رجال البلاط جميعهم وعلى رأسهم المصحفى الذى كان يحيط به كلا الصقليين. وقام ابن أبى عامر بكتابة نص تولية هشام الثانى وتلاه بعد ذلك بصوت مرتفع على الحضور ثم أعقب ذلكبيعة كبار رجالات الدولة فى حضور قاضى القضاة ابن سالم. وقد أورد ابن الخطيب أسماء الحضور نقلا عن ابن حيان وهم الفقهاء والعلماء الذين شاركوا فى مبايعة الخليفة الثالث، واستمرت تلك البيعة لعدة جلسات ولم تعكر مسارها أية أحداث كما لم يجرؤ أحد على الإفصاح عن إدانته لاغتيال المغيرة رغم أن الأمر لم يكن سرا على أحد، ولم ينبس أحد ببنت شفه بشأن تولي طفل لم يبلغ الثانية عشرة بعد عرش الخلافة ومن المستحيل عليه إدارة شئون الدولة لسنوات طويلة.

كان التحالف بين ابن أبى عامر والمصحفى كاملا فى البداية. إذ أدرك كل واحد منهما حاجته للآخر للكشف عن الدسائس والقضاء عليها، وهى دسائس سيتمخض عنها الموقف الجديد وخاصة من قبل كبار القادة الصقالبة فى القصر. بدأ الوصيان السياسيان على هشام الثانى، تساندهما والدة الخليفة صبح التى لقبت بالسيدة الكبيرة، بالعمل أن تشيع صورة حسنة للخليفة بين الناس فى العاصمة. ففي اليوم الثانى من أكتوبر ٩٧٦م (العاشر من صفر ٣٦٦هـ) ظهر الخليفة أمام أهالى قرطبة يحيط به ركب مهيب، وقد لبس الحرير وامتنى صهوة جواد مسرج بعنايه وفخامة وفى اليوم نفسه أذيع على الملأ نبأ إلغاء ضريبة الزيت التى كان يعترض الناس عليها بشدة. كما تمت ترقية المصحفى وتقليده أعلى المراتب فأصبح «الحاجب» كما منح ابن أبى عامر منصب وزير وأصبح مساعدا لرئيس الوزراء لتصريف شئون الخلافة.

اتفق كل من المصحفى وابن أبى عامر على استحداث نوع جديد من السياسة تجاه الصقالبة والتى تمثلت أبرز ملامحها فى تقييد حركة قاداتهم الذين أخذوا يظهرون نوعا من الفتور فى التعامل مع الوزراء رغم مؤازرتهم للمشروع السابق الإشارة اليه. كانت هناك العديد من العيون التى أطلعت المصحفى وابن أبى عامر على المشاعر الحقيقية لهم والاتصالات التى يجرونها مع زملائهم من حرس الخلافة وكذا الاتصالات التى تتم بين من هم فى داخل القصر ومن هم فى المعسكرات المجاورة واستنادا إلى المعلومات المتوفرة صدرت الأوامر ببناء حائط مكان الباب الحديدى وإغلاقه نهائيا إذ كان أحد الأماكن التى تتم الاتصالات من خلالها. كما قام ابن أبى عامر ببث رسله بين الجنود الصقالبة واستطاع أن يجعل الكثير منهم تحت إمرته بفضل ما بذل لهم من

وعود، واستطاع النفاذ إلى صفوف الهجامة من البربر. وشيئا فشيئا أخذ يجمع حوله حرسا خاصا حقيقيا يقوم هو بإعاشته ودفع رواتبه. وكان مؤدى كل هذه الإجراءات هو القضاء بشكل حاسم على قائد حرس القصر الصقليين، إذ قدم جوذر استقالته. فحاول دري أحد أتباعه التعبير عن احتجاجه، إلا أن الاتهام الموجه إليه بالتبديد وثبوت ذلك أدى إلى الحكم عليه بالموت. أما بالنسبة لفايق النظامي فقد نفى إلى إحدى جزر البليار ولم يمض عليه وقت طويل حتى وافته المنية. ولم يبق في القصر من السلافيين إلا من هم قليلو التأثير. وفرح أهالي قرطبة فرحا شديدا للفاجعة التي حلت بالصقالبة الذين ظلوا لوقت طويل يشغلون أهم مراكز العاصمة ويظهر عليهم البذخ المثير ويتعالون على الآخرين لحدثة ما هم فيه من نعمة وشعورا منهم بأنهم ناجون من كل هجوم عليهم.

ورغم هذا النجاح لم يشعر ابن أبي عامر بالراحة الكاملة فألى جانب المناصب الكثيرة التي يشغلها بصفته الوزير الثاني في الدولة أراد أن يضيف إليها بعض المناصب العسكرية. ومن الناحية الشكلية لم يكن هناك ما يستدعى شغله أي قيادة عسكرية رغم أنه قد احتك في المغرب بالكثير من القادة وخطا بضع خطوات في هذا الميدان. كان الوزير يدرك حسن طالعته ومع ذلك لن يصل إلى غايته الكبرى إلا من خلال نصر مؤزر على المسيحيين. فكان أن عقد العزم على إنتهاز أي فرصة تسنح له للجهاد ضد الكفار.

لم يمر موت الحكم الثاني واعتلاء ابنه الطفل الصغير عرش الخلافة مر الكرام على أسبانيا المسيحية ففي العام السابق أوقف كل من القائد غالب وحاكم سرقسطة يحيى التوجيبي المناوشات العدوانية لممالك ليون وقشتالة والبشكنس. أما بالنسبة لمدينة يزید والثغر الأعلى نلاحظ أن الحدود الخاصة بالدولة الإسلامية لا توجد بها نقطة ضعف واحدة. ومع هذا كانت تقع حوادث مماثلة لتلك التي تقع على الحدود الشمالية الغربية وخاصة في المنطقة الواقعة بين نهر التاجه ونهر الدويرة، فبعد موت الحكم الثاني بوقت قصير قام بعض السادة من الجليقيين بالاعتداء على الأملاك الإسلامية والقيام بغارات جريئة تجاه منطقة جبال الشارات Sierra Morena. أثار هذا النشاط العسكري القلق في قرطبة وخاصة لدى الأميرة صبيح التي تخشى على عرش ابنها. فهدأ ابن أبي عامر من روعها ووعدا بأن يستعيد هيبة الخلافة على الثغور شريطة إمداده بالوسائل الضرورية لهذا الغرض. ورغم أن المصحفي كان من أنصار المسالمة والتروى فإنه رضخ في النهاية إلى طلب عقد مجلس الحرب^(٣٢). واتخذت قرارات منها

إعداد حملة يتولى قيادتها ذلك الذى تحميه صبح أو من هو عشيقها ولما كانت خزانة الدولة قد فتحت أمامه أبوابها استطاع أن يعد حملته إعداد جيداً وأن يختار أفضل الجنود وأفضل العتاد وأن يجزيهم مسبقاً بالرواتب والمنح. وفى نهاية فبراير عام ٩٧٧م (بداية شهر رجب ٣٦٦هـ) اتجهت الحملة إلى الشمال الغربى فعبرت أولاً نهر وادى يانه ثم نهر التاجه ثانياً وقامت بحصار حصن «الحمام» الواقع اليوم داخل محافظة شلمنقة وبالتحديد جنوب بلدة بخار Béjer على الحدود الفاصلة بين ليون وإكستريما دورا Extremadura فى السفح الغربى لجبال جريدوس Gredos^(٣٣). تولى ابن أبى عامر تدمير هذا الموقع المتقدم الذى كان قد تم إعماره أثناء خلافة الناصر، وقام بهذا العمل الملك راميرو Ramiro ملك أشتوريش وليون بعد انتصاره فى موقعه سيمانقة Simancas وحاز غنائم كثيرة بما فى ذلك الأسرى وعاد محملاً بها إلى قرطبة بعد ثلاثة وخمسين يوماً.

لم تكن هذه الحملة ذات نتائج قوية لذلك القائد المرتجل رغم أنها بدت له كافية. إذ هيأت له ما يريد فزادت شعبيته فى قرطبة لكن أهم النتائج تمثلت فى الاحتكاك المباشر مع الجيش واستطاع بفضل لباقتة وحنكته أن يجنى تعاطف القادة معه. لم يكن هناك شئ يقف أمامه إلا المصحفى. إذن كانت لديه أولويات منها إزاحة المصحفى من طريقه، ولم يتردد الوزير الطموح فى القضاء على الشخص الذى كان له أكبر الأثر فى صعود نجمه بسرعة.

– ابن أبى عامر الطريق إلى الدكتاتورية - بناء المدينة الزاهرة :

كان من السهل السيطرة على المصحفى فكما رأينا قبل ذلك هو رجل تعود جذور نسبه إلى أصل مجهول كما أن جزءاً كبيراً مما هو عليه يرجع الفضل فيه إلى أنه كان محط ثقة الحكم الثانى، ويموته فقد المصحفى أهم سند له، وأصبح محط عداوات رجال القصر الذين لم يغفروا لهذا البربرى بعض المواقف، وكذا إفادته من موت سيده وارتقائه إلى درجة حاجب التى كانت أعلى درجة فى السلم الوظيفى فى عهد الخلافة. كما كانوا يتهمونه بأنه جعل بعض أقربائه يشغلون بعض المناصب الهامة وذات النفع المادى الممتاز فقد تحول كل من محمد وعثمان وعبد الرحمن - أبناؤه - وكذا ابن أخته هشام وأخوؤه سعيد ومحمد إلى كبار الموظفين مع مجيئ هشام الثانى إلى كرسي الخلافة. وإذا ما اعترف الجميع بسبقه فى الأدب واللغة إلا أنه كان خلواً من الصفات التى تؤهله ليكون سياسياً من الطراز الأول. كان غالب أحد الذين لا يخفون

احتقارهم للمحصى. وكان هذا القائد يتمتع بحرية الحركة وله سلطة مطلقة على قوات الثغور كما كان هذا المولى ينظر بعين الغضب ليرى كيف أن سلطة الخلفاء قد انتقلت بالفعل إلى يد هذا الوصولى المتواضع الشأن. ولهذا كان يشعر بسعادة بإثارة القلاقل ضده لدرجة أنه قلل عمدا الرقابة على الثغور وهو فى مقره بمدينة يزيد. كما أوقف المسيحيين عند حدودهم المتاخمة لحدود الدولة الإسلامية فى الأندلس. وأدرك المصحفى الخطر وأراد أن يفوز برضى قائد القوات قبل أن يقوم هذا الأخير - كما هو من المتوقع - بالتمرد على النظام بشكل علنى. ونظرا لما يتمتع به ابن أبى عامر من مهارة وحسن تدبير أراد الإفادة من هذا الوضع باقترابه من غالب لتكون إزاحته للمصحفى أكثر سهولة ويسرا، لكنه أخفى خطته للحظة الأخيرة. ولهذا استثار اتجاهها فى داخل القصر يؤيد المولى الأموى نظرا للخدمات الجليلة التى قدمها لأسرة الخلافة، وسرعان ما حصل على النتائج المرجوة إذ فاز غالب بلقب «نو الوزارتين» من خلال مرسوم صدر عن الخليفة، وتم إبلاغ القائد بتزويده بالكثير من قوات العاصمة «جيش الحضرة» والتى ستخضع لإشراف ابن أبى عامر.

فى ظل هذه الظروف شارك ابن أبى عامر فى الصوائف لعام ٩٧٧م (٣٦٦هـ) والتى كان هدفها قلعة تسمى موله Mola، وهى قلعة لم نستطع تحديد مكانها حتى الآن. واجتمع ابن أبى عامر مع غالب فى مجريط Madrid وحرص على ألا يقوم بأية مبادأة عسكرية مكتفيا بما قام به القائد العجوز. كنت الحملة ناجحة إذ تم الاستيلاء على القلعة وأسر عدد كبير والاستيلاء على الكثير من الغنائم. وأخذ كل من ابن أبى عامر وغالب يثنى على الآخر جهوده فى هذه الحملة. فوصلت إلى قرطبة رساله بعث بها قائد مدينة يزيد أسهمت فى فوز ابن أبى عامر بالمجد والفخار كما تم منحه لقب «صاحب المدينة» وبدأ فى ممارسة عمله فى غيبة من كان يشغل ذلك المنصب قبله وهو محمد أحد أبناء المصحفى.

الحزم كان واحدا من أسلحة ابن أبى عامر فى هذه الوظيفة الجديد الأمر الى أدى إلى زيادة شعبيته بين أهالى قرطبة الذين كانوا يشكون من ضعف الأمن فيها فقد تعددت حوادث الاعتداءات والسرقات الليلية، أعاد الحاكم الجديد الأمن إلى ربوع المدينة بنفس الصرامة المعهودة فيه. وإذا ما اتفقنا فى الرأى مع الرواية التى أوجزناها لأحد المؤرخين^(٢٤) فإن ابن أبى عامر لم يتردد فى قتل ابنه ضربا بالسياط إذ كانت تربطه علاقة ما ببعض الخارجين على النظام. ولاتبدو لنا هذه المعلومات صحيحة أو على الأقل لم يشأ المؤرخ الإفصاح عن طبيعة هذه الشخصية.

أدى طرد محمد المصحفى من منصبه لصالح ابن أبى عامر إلى يقظة المصحفى نفسه الذى أخذ يرى فى مساعده القديم عدوا يخشى جانبه خاصة وأنه يحظى بمساندة نساء القصر. كما أن جذوره الأسرية عربية، ولم يبق لدى المصحفى من مؤيد يمكن أن يشد عضده فى وضعه هذا إلا القائد غالب. وحتى يستطيع ذلك أرسل خطابا يثنى عليه ويطلب منه زواج أحد أبنائه من ابنته أسماء، أملا أن تكون هذه الخطوة وسيلة لدعم موقفه والقضاء على جذور الدسائس التى شعر بأنها أخذت تحاك ضده. لكن لم يكن يدرى أن منافسه قد وجّه إليه ضربه قوية: فعندما أوشك عقد الزواج على السير فى الخطوات النهائية، أقنع ابن أبى عامر غالب بسحب كلمته وتزويج ابنته له هو وبعد بشهور (بداية عام ٩٧٨م - ٣٦٧هـ) تم زفاف العروس فى حفل بهيج فى العاصمة قرطبة وتولت نساء القصر وضع اللمسات الخاصة بالزفاف كما أن صبح لم تعارضه. واختير موعد الزفاف ليتوافق مع أعياد العام الجديد. وأصبحت أسماء منذ تلك اللحظة المرأة الأكثر تدليلا تحيط بها هالات الفخار بين كل نساء ابن أبى عامر (٣٥).

خلال هذه الفترة قام ابن أبى عامر ومعه غالب بحملة ناجحة (٣٦) كانت السبب فى منح ابن أبى عامر لقب «ذو الوزارتين» وهو لقب لم يكن يحمله إلا قائد حرس الحدود حتى الآن، كما أن صبح اقترحت حصول ابن أبى عامر على نفس الراتب الذى كان يحصل عليه الحاجب المصحفى الذى أصبح قاب قوسين أو أدنى من السقوط الذى تم يوم ٢٩ مارس ٩٧٨م (١٣ شعبان ٣٦٧هـ) إذ قبض عليه هو وأبناؤه وابن أخته كما تمت مصادرة أموال الأبناء وابنى الأخت والحكم عليهم بسداد غرامات كبيرة لعدم توضيح كشوف الحسابات فى المناصب التى يتولون إدارتها، وانتقلت كل المزايا التى كان يحصل عليها الحاجب وكذا لقبه إلى ابن أبى عامر.

أكد جعفر المصحفى مرة أخرى أنه ضعيف الشخصية إذ استطاع من كان يحظى بحمايته سابقا أن يقضى عليه ويلطخ شرفه ويحرمه من الحرية، وبدلا من اتخاذ موقف يحافظ فيه على ما بقى من كبريائه فضل إذلال نفسه طالبا ممن خلفه فى المنصب أن يتولى مهمة «مؤدب» ابنيه عبد الله وعبد الملك، وطال به الوقت ومرت السنون - خمس سنوات - فى انتظار أن تكون وفاته طبيعياً. لكن لم يكن هناك مخرج إلا خنقه فى السجن أو دس السم له عام ٩٨٣م (٣٧٢هـ).

وبعد السقوط المدوى لجعفر المصحفى بعام أى عام ٩٧٩م (٣٦٨هـ) وقعت مؤامرة كانت على وشك الإطاحة بالخليفة الصغير الحكم الثانى وتولية حفيد صغير من أحفاد عبد الرحمن الناصر، يدعى عبد الرحمن بن عبيد الله، وكان من بين المشاركين

فى المؤامرة بعض الذى يتبعون ويؤيدون الوزير السابق - المصحفى - ومنهم كذلك القائد الصقلي جؤذر وزياد بن أفلح صاحب المدينة الجديد وعبد الملك صاحب الرد، وهو ابن قاضى الناصر الشهير/ ابن سعيد البلوطى، والذى اتهم هو وإخوته بالانضمام إلى جماعة المعتزلة. كما نجد من المشاركين فى هذه المؤامرة الشاعر يوسف ابن هارون الرمادى. لكن فشلت محاولة اغتيال هشام الثانى داخل القصر. وحتى ينجو زياد بن أفلح ويقدم اعتذاره قام بوضع جميع المتآمرين فى السجن، وحكم بالموت على المرشح للخلافة وعلى شريكه الرئيس جؤذر. بالنسبة لعبد المالك بن فندر فقد صلب عند باب السدة يوم الثامن عشر من يناير عام ٩٧٩م (منتصف جمادى الثانية ٣٦٨هـ) (٢٨). لم يكن مرد هذا الحكم الصارم الذى صدر عن ابن أبى عامر، أسباب تتعلق بمصالح الدولة؛ فقد أراد أن يقدم كبش فداء من المعتزلة ليحظى برضى فقهاء قرطبة الذين ساروا فى الدائرة الضيقة للمالكية التقليدية. وكانوا يعارضون أى تطوير للنظام القضائى. كما أن عامة قرطبة كانوا يتصورن - عن حق أم لا - أن إيمان سيد أسبانيا الإسلامية الجديد مشكوك فى صحته. كان من الضرورى أن يثبت عكس هذا فتظاهر بالتقوى والورع - ليس لدرجة كبيرة - فقام بنسخ القرآن الكريم بخط يده وخصص النسخة التى كتبها ليحملها معه فى غزواته. وأمر فى الوقت نفسه بحملة تطهير واسعة النطاق لمكتبة الحكم الثانى المعاصرة وأمر، بالاحراق أو الألقاء فى الآبار، بكل الكتب التى كانت تتناول موضوعات غير مشروعة أو مقبولة فى نظر العامة. وسوف نعود لمعالجة هذه النقطة. وعموما نلاحظ أن المؤامرة التى كانت تبحث عن مشروعيتها أخدمت فى الوقت المناسب كما أن العاصمة سيطر عليها جو عام من التزمت. كل ذلك يشير إلى وجود حزب معارض يجب تحييد نشاطه بسرعة. ومن هنا نعتقد أن ابن أبى عامر لم يتردد لحظة فى الضرب بيد من حديد إذا ما تطلبت بعض المواقف ذلك. إلا أن كل الدلائل والبراهين التى تتوفر أمام رئيس الوزراء تشير إلى أن الأهالى يتحدثون ويتهامسون فيما بينهم عن فضائح القصر ومنها السلوك غير السوى للأميرة صبح والقول بأنها كانت حاملا من ابن أبى عامر، والعادات غير الطبيعية التى عليها قاضى القضاة محمد بن السالم الذى ظل فى منصبه رغم عدم استطاعته الوفاء بالمهام الموكلة إليه (٢٩).

بدأ الحاجب الاهتمام بالخليفة الصغير الذى لن يصل إلى سن الرشد إلا بعد بضع سنوات. إنه هذا الطفل الأشقر ذو العينين الزرقاوين اللتين لم تخلوا من الألمعية. فقد أثنى معلمه الزبيدى على قدراته واستعداده للدرس (٤٠). وربما أمكن تطوير وتنمية هذه القدرات بمرور الأعوام لكن فى مناخ أفضل من مناخ القصر القرطبى. لكن هذا

الملك الصغير الذى ينظر إليه على أنه القدوة كان يعيش فى جو بعيد عن متاعب الحياة وملئ بكل ألوان الترف والملذات الحسية والجسدية والكثير من الحريم، الأمر الذى أدى إلى عدم قدرته الجنسية فيما بعد. وهى نقطة أشار إليها المؤرخون جميعاً. لم يفعل ابن أبى عامر شيئاً لإيقاف هذا الاتجاه الذى كان عليه العاهل ولم يأل جهداً فى تشجيعه. لكن والدته الطفل أدركت هذا الخطر وهيات فقد فات الأوان. ومنذ هذه اللحظة فترت علاقتها بمن كان عشيقها قبل ذلك وتحول الحب شيئاً فشيئاً إلى كراهية شديدة. إلا أن رئيس الوزراء كان حريصاً على إخفاء لعبته وأبدى الاحترام الظاهري للسلطة المطلقة للخليفة. كانت الإدارة العليا لشئون الأندلس تتم داخل القصر لكن سرعان ما أعلن الوزير ذو السطوة المطلقة اتخاذ إجراء فيه جرأة غير معهودة، لم يستطع أحد معارضته فيه ألا وهو نقل مقر الإدارة خارج القصر والذهاب بها إلى مكان جديد خارج قرطبة حيث يقوم الحاجب بممارسة سلطته بشكل مطلق ويتحرر من تقديم فروض الولاء والطاعة للخليفة الأسمى للبلاد كل يوم.

كان ابن أبى عامر قد ترك منزله فى الرصافة منذ عدة شهور ليذهب للإقامة فى «منية» أكبر أمر بينائها بالقرب من مدينة الزهراء وأطلق عليها «العامرية»^(٤١). ثم كانت هناك حاجة إلى بناء مقر إدارى أطلق عليه «المدينة الزاهرة» على غرار اسم مدينة الزهراء التى أنشأها عبد الرحمن الناصر^(٤٢).

بدأ العمل فى هذه المدينة عام ٩٧٩م (٣٦٨هـ) وانتهى بعد ذلك بعامين. واختار لهذه المدينة مكاناً يعرف القرطبيون عنه نبوءة تقول بأنه سوف يكون المقر الجديد للأسرة المالكة فى الأندلس: المكان عبارة عن منطقة وعرة بعض الشيء واقعة على أحد منحنيات نهر الوادى الكبير جنوب قرطبة ويطلق عليه منزل ابن بدر. كان الحكم الثانى قد عرف المكان قبل وفاته بسنوات قليلة وذلك من خلال الحسابات المتعلقة بالعرافة والتنبؤ بالمستقبل وهى هواية كان عليها الكثير من أمراء هذه الأسرة الأموية. وهذا هو ما يرويه لنا ابن حيان حين يقول بأن لا شئ يوقف مشيئة القدر^(٤٣).

واليوم من الصعوبة بمكان تحديد مكان هذه المدينة «الزاهرة». حيث لم تستمر إلا القليل من الزمن فلم تعش أكثر من ثلاثين عاماً وبعد ذلك تعرضت للسلب والنهب والدمار ولم يبق من أثرها شئ ويصرّ الدراسون على أن «العامرية» تقع غرب قرطبة وليس شرقها رغم أن بعض المعطيات التاريخية تؤكد هذا الموقع الأخير. وعلى كل حال لسنا ندرى شيئاً عن بنائها إلا من خلال الروايات غير المحددة التى وردت إلينا على لسان بعض المؤرخين العرب. إذ تم تمهيد الأرض وبناء مقر قوى كآلة الحصن. وأمر ابن أبى عامر أن ينشأ داخله قصراً منيفاً ومنازل فسيحة الأرجاء لأبنائه وكبار رجالات الدولة التابعين له. وكانت هناك مقار للمكاتب الإدارية ومعسكرات للفرسان الذين

يقومون بحراسة الحاجب بالإضافة إلى مخازن كبيرة لتشوين الغلال والأسلحة. ويقصر علينا المولى الفتح بن خاقان قائلاً «وسرعان ما خرجت هذه المدينة عن حدودها العمرانية المرسومة لها فتم بناء أسواق وتدفقت عليها رؤوس الأموال والناس للاقامة فيها أو حولها ليكونوا بالقرب من مراكز السلطة وتمثل هذا القبارى فى المباني فى أنها شغلت المسافة الفاصلة بين «المدينة الزاهرة» والعاصمة قرطبة»^(٤٤).

كان انتقال ابن أبى عامر إلى المدينة الزاهرة عام ٩٨١م (٣٧٠هـ) بمثابة عهد جديد فى حياته وكذلك بداية «الوحشة» بين هشام الثانى ورئيس وزرائه، ومنذ هذه اللحظة تولى الحاجب الإدارة المطلقة لشئون الدولة وإعداد الميزانية على هواه ومركزية موارد الدولة وتنظيم النفقات والصوائف دون أن يلتزم بالانصياع للموافقة الشككية للعاهل الشاب. وهكذا نجد أنه يسلب اللقب من العاهل ويستولى عليه ولكن لم تبق إلا خطوة واحدة لم يقدم أبداً على اتخاذها، رغم شدة ثقته بنفسه، إلا بعد وفاة الخليفة. هنا ندرك علو مهارته وحنكته السياسية وربما كان هذا سر نجاحه واستمراره.

٣- المنصور رئيس الدولة الأندلسية وبطل الجهاد ضد أسبانيا المسيحية (٩٨١ - ١٠٠٢م).

— «ملك» محمد ابن أبى عامر :

عشرون عاماً هي الفترة الحقيقة لملك محمد بن أبى عامر، وقد قام أثناءها ذلك الدكتاتور بحرب، لاهوادة فيها ضد الأراضى المسيحية فى شبه الجزيرة الأيبيرية. كان فيها الأكثر إقداماً وجسارة وحالفه الحظ فى هذا الجهاد. وكما سبقنا الإشارة لا يمكن أن نستعيد بدقة شديدة تلك الأحداث، إلا أنه اعتماداً على ما لدينا من القليل يمكن القيام بعمل رسم كروكى بدلاً من رسم صورة كاملة ودقيقة: وهنا لابد أن نذكر بالعرفان مرة أخرى جهود دوزى حيث استطاع إعادة بناء الصورة اعتماداً على المعلومات الضيئة المتناثرة فى الأخبار الإسلامية وخاصة الصورة المتعلقة بالعلاقات القائمة بين أسبانيا المسيحية والأندلس فى نهاية القرن العاشر الميلادى. وقد حظيت رؤية دوزى بالثناء من قبل المؤرخين والدارسين ولم يطرأ عليها تغيير جوهري بعد.

واعتباراً من عام ٩٨١م لوحظ أن النشاط السياسى الداخلى لكبير الياوران فى القصر أخذ يقل شيئاً فشيئاً بينما يتزايد نشاطه شمال شبه الجزيرة وفى المحمية

الأندلسية الكائنة في منطقة البربر الغربية. أما بالنسبة للوضع الداخلى فقد عرفت الأندلس أمانا ربما كان أكبر درجة مما عرفتة في منتصف القرن أخذت شئون المملكة تزدهر من خلال إدارة قوية وحاسمة لكنها عادلة أيضا وأخذت خزائنها تمتلئ بالأموال. وازداد النشاط الاقتصادي وكثرت الثروات في المدن والقرى وانخفض سعر الرقيق من المسيحيين لدرجة لم يسبق لها مثيل فقد جلبهم القائد المنتصر إلى قرطبة بالآلاف في كل حملة يقوم بها^(٤٥).

لم يكد ابن أبى عامر يستقر به المقام في المدينة الزاهرة حتى اتخذ التدابير اللازمة للقضاء نهائيا على أى تأثير للخليفة الصغير، فقد بدأ بالإعلان على الناس أجمعين عن أن نشاط هشام الثانى يقتصر على أعمال البر، وتوكيل ابن أبى عامر إدارة شئون الدولة. كما عني باتخاذ الإجراءات للمزيد من عزلة الخليفة. فلم يتخذ أى قرار سياسى سواء فى قصر قرطبة أو فى مدينة الزهراء. وبذلك ابتعد الزائرون عن كلتا المدينتين. وبناء على أوامر السيد القائم بدور الحاكم تم بناء سور يحيط بالقصر بالإضافة إلى وجود خندقين حول السور أحدهما داخلى والآخر خارجى. كما تلقت الشرطة تعليمات محددة لعدم السماح لأحد بالدخول إلى الخليفة أو الحريم إلا بناء على تصريح. ومما لا شك فيه أن مهمة أهالى قرطبة قد قلت، فهم يعرفون أن الوسيلة الوحيدة لهذا هى الصرامة وتأكد لهم أن مدينتهم لم تحظ قبل ذلك بهذه الدرجة من الأمن وأنها تدار بشرف ونزاهة.

ومع هذا كان هناك أحد أتباع البيت الأموى الذى رأى أن ابن أبى عامر قد تجاوز الحد: إنه القائد غالب والى مدينة زيد الذى قارب الثمانين من العمر. ورغم أنه زوج ابنته للسيد الجديد للأندلس فإنه ظل يعبر عن تأثره الشديد بالإهانة التى تعرضت لها الأسرة الأموية والتى كان يشعر نحوها بأنه يدين لها بكل ما يملك. تزداد الأمور عسرا عندما تدب المتاعب بين غالب وابن أبى عامر خاصة إذا ما ظهرت للنور. لكن «كبير الياوران» اتخذ حيلته، فمن أجل الوقوف فى مواجهة قائد قوات الثغور طلب - على عجل - مقدم جعفر بن على بن حمدون وعودته من شمال أفريقيا، ذلك المكان الذى كان يحظى فيه بسطوته العسكرية. وقد رافقته فى رحلة العودة إلى قرطبة قوات كثيرة من البربر. استقبلت هذه القوات بالترحاب، وتم تسليمها الجياد الأصيلة وأصبح قادتها من أشد الناس ولاء للعامرى الذى وضع خطة كاملة لاعادة تنظيم الجيش الأموى والتى تجعل من البربر والفرق المكونة من المرتزقة المسيحيين بمثابة النواة الرئيسية للقوات بينما تتحول الكتائب العربية إلى قوات مطعمة بوحدات مختلطة دون أى اعتبار للأصول القبلية. وهذا هو خرق واضح للوائح الجندية.

تلاحقت الأحداث في العام نفسه الذي استقر خلاله المقام بابن أبي عامر في المدينة الزاهرة، ولم تمض عدة شهور حتى استطاع الدكتاتور أن يقضى على القائد العجوز أحد أتباع الأمويين، وتشير أغلب الروايات العربية المتوفرة لدينا إلى الموقف الذي اتخذته غالب وإلى واقعة - يشك في صحتها - تتسم بالجمع بين المأساوية والكوميديّة وهي: أنه عندما التقى كلا المتنافسين وجها لوجه في أحد أبراج أحد الحصون الواقعة على الحدود أخذوا يؤنبان بعضهما ويعد أن وجه غالب للحاجب نقدا لاذعا بسبب اغتصاب هذا الأخير السلطة من الأمويين، استل سيفه ووجهه إليه ليجرحه فتملك الرعب ابن أبي عامر ولم يكن أمامه مفر إلا بالقاء نفسه في هوة نجا منها بمعجزة إذ اصطدم جسمه بحجر بارز قبل الوصول إلى قرار الهوة، ويروي لنا ابن الطيب هذه الطرفة ولكن بطريقة قابلة للتصديق^(٤٦): توجه ابن أبي عامر إلى قلعة «أنتييسة» **Atienza** الواقعة شمال غرب مدينة سالم بأربعين كيلو مترا تلبية لدعوة من غالب وذلك لحضور حفل أسري، وأثناء الحفل وجه إليه غالب نقدا لاذعا وضربه بحسامه ضربة قوية على يده، فما كان من الحاجب إلا الفرار بعد أن سقط من على حصانه. ومنذ هذه اللحظة بدأت بينهما حرب لا هوادة فيها فاحتل الدكتاتور مدينة سالم واستولى على ثروة منافسة وقام بتوزيعها بين أفراد قواته. أما غالب فقد طلب العون من كونت قشتالة ومن ملك بنبلونه؛ ويبدو أن اللقاء الأول بين غالب وصهره كان لصالح الأول لكن ابن أبي عامر الذي اعتاد على المقامرة بكل شيء أعاد الكرة من جديد حتى تكون فاصلة ويقضى بها على صهره نهائياً.

ورحل بعد ذلك يرافقه كل من جعفر بن علي بن حمدون القائد الأفريقي وكذا القائد الأرغوني أبو الأحواس معن بن عبد العزيز التوجيبي^(٤٧)، وحسن بن أحمد بن عبد الودود القائد الذي أظهر مهارة كبيرة. وقد اتجه ابن أبي عامر ومن يرافقه إلى أنتييسة **Atienza** ثم أقام معسكره أمام القلعة المجاورة المسماة بقلعة سان بيثن (شنت بجنت) **San Vicent**. كان ذلك يوم ٨/٧/٩٨١ م ٢٠ محرم ٣٧١ هـ^(٤٨). اتخذ جيشه وضع القتال: ففي قلب الجيش كانت الميليشيا المسيحية (الغللمان) وأفضل عناصر القوات القرطبية «جيش الحضرة» أما الميمنة فقد تولى قيادتها جعفر بن الأندلس ومعه جنوده من البربر، وكانت الميسرة تضم قوات الثغر الأعلى ويقودها معن التوجيبي وابن عبد الودود. أما غالب فكانت معه قواته التي ظلت على ولائها له تدعمها بعض القوات القشتالية التي جاء بها الكونت غارسية فرنانديث **Garci Fernandez** بنفسه وكذا بعض قوات البشكنس تحت قيادة راميرو ابن سانشو غارثيس الثاني. وقعت المعركة في اليوم التالي أي العاشر من يوليو (الرابع من المحرم)، وكعهدنا بغالب دائما نجد أنه استخدم

كل ما لديه من قوة وأظهر جرأة واضحة معهودة وإقداما لا يصدق. كان قد ارتدى بزّة من الشبك الواقى ووضع على رأسه خوذة مذهبّة يحيط بها شريط أحمر وأخذ يصول ويجول فى ميدان المعركة ليحمس جنوده غير أنّه سرعان ما تنبه إلى أنّه لا يمكن القضاء على عدوّه «الأحذب الملعون»^(٤٩) الذى ولد ومعه طالع السعد، إنكبا جواد غالب عندما قام بهجوم غاضب وأدى ذلك إلى أن انشق صدره بواسطة مسند سرجه، وعندئذ قطع أعداؤه يده وبها أحد الخواتم ثم رأسه وذهبوا بكل ذلك إلى ابن أبى عامر الذى حاول التعبير عن شكره بكل ما أوتى من وسيلة^(٥٠). تفرق شمل المسيحيين وهربوا من ميدان المعركة فرادى وجماعات بعد أن قتل منهم الكثير وكان أمير بنبلوته من بين القتلى لكن غارثى فرنانديث كان أوفر حظا فقد نجا من الموت. رغم أن القائد القرطبى سلب كل ممتلكاته قبل العودة إلى العاصمة.

أدت النهاية المأساوية لغالب الشجاع إلى إزاحة آخر وأهم العقبات فى طريق ديكتاتور قرطبة وأخذ يحقق طموحاته التى لا تقف عند حد. فبعد ذلك بعدة شهور رأى أن اللقب الأعلى وهو «الحاجب» ليس كافيا وأن عليه أن يحيط نفسه بهالة من البرتوكول كأنه العاهل الحقيقى، ففكر فى لقب شرفى أطلقه على نفسه اعتبارا من تلك اللحظة ألا وهو «المنصور بالله» وهذا ما جعله مشهورا بين الناس^(٥١) حيث كان اسمه هذا يذكر بعد اسم الخليفة هشام الثانى المؤيد عند الدعاء للخليفة على المنابر فى جميع مساجد الأندلس. وأمر أن تخضع اللقاءات والمقابلات لقواعد ومراسم صارمة، إن من يحظى بشرف استقباله عليه أن يقبل يده ويناديه بـ «مولاى» ولم يرفض المنصور درجته «كحاجب» فى هذه اللحظة بل كان بعد ذلك حيث أعطيت الدرجة لابنه عبد الملك عام ٩٩١ م (٣٨١هـ)^(٥٢). وفى عام ٩٩٦ م (٣٨٦هـ) ضم إلى ألقابه اثنين آخرين هما «السيد» و«مالك كريم».

اتخذ المنصور العديد من القرارات السياسية الهامة رغم انشغاله الدائم بالجهاد ضد المسيحيين الأسباب ومشاركته شخصيا عمليات الجهاد. لكننا لا نعرف شيئا عن هذه القرارات السياسية ما عدا الخاصة بإصلاح العسكرى الذى جرى عام ٩٩١ م (٣٨١هـ) وهو موضوع سنتناوله بالتفصيل فيما بعد. ولم يهمل الديكتاتور العناية بصورته بين الناس وخاصة فى دوائر الفقهاء القرطبيين حيث أظهر التقوى، وقام بتوسعة الجامع الكبير مرة أخرى عام ٩٨٨ م (٣٧٧هـ) وفى العام التالى قام بإصلاح الجسر الذى يمر فوق نهر الوادى الكبير.

وفى عام ٩٩٦ م (٣٨٦هـ) جرت محاولة غير جريئة من قبل الخليفة الرسمى لاستعادة سلطانه وكان ذلك تلبية لطلب والدته صبح التى تحولت من عاشقة سابقة إلى

عدوة تجاهر بعدائها إذن لم تلق تلك المرأة السلاح بعد فقد بلغ ابنها سن الرشد منذ فترة وأوشك أن يصل إلى الثلاثين. وعلى هذا فإن الوصاية التي مارسها المنصور قبل ذلك أصبحت الآن غير شرعية الاستمرار. أشاع رسل صبح الذين كان يقودهم أخوها الفتى رائق أنباء تقول بوشوك حدوث انقلاب من أجل استعادة السلطة الفعلية لوريث الخلفاء الشرعيين للأندلس فأبلغت الشرطة السرية المنصور بالشائعات التي تدور، كما أبلغ أن صبح حاولت أن تخرج من القصر مبالغ مالية كبيرة حتى تدفع لمن يقومون بالدعاية لها وتفوز بتأييد بعض من يشغلون المناصب الهامة. فما كان منه إلا أن أصدر قراراً بعدم أحقيتها فيما تفعل، وذلك من خلال مجلس حكم عقد فوراً وتم إعادة الذهب إلى خزانة الدولة^(٥٣). وفي محاولة لتهديئة النفوس رأى المنصور أن من المناسب أن يظهر هشام الثاني في محمل مهيب أمام أهالي قرطبة الذين لم ير الكثير منهم هذا العاهل الشيخ وطاف بالشوارع الرئيسية في المدينة وهو يحمل الصولجان في يده ويغطي رأسه شال كبير حتى كأنه عمامة. كما صدر قرار يتضمن كافة الخطوات الرسمية وقعه العاهل العاجز عن فعل شيء، ويؤكد القرار على أن المنصور - كما كان في الماضي - هو الشخص الوحيد المخول بإدارة الشؤون العامة للبلاد.

ومنذ هذا التاريخ وحتى وفاته عام ١٠٠٢م (٣٩٢هـ) لم تبدر من القصر أية بادرة أخرى لتذكر المنصور بأن هذا المكان يسكنه خليفة. كما أن كل من سولت له نفسه من رجالات الدولة في تعكير مسار رئيس الدولة القرطبية أو يؤثر سلباً على هيئته لا يكون مصيره إلا الذهاب من الساحة دون شفقة ودون كلمة شكر لما يمكن أن يكون قد قدمه من خدمات. ومن هذه الحالات نجد وضع السيد المغربي جعفر بن علي بن حمدون، إذ لم يكد يمضي عام على ما أظهره من بسالة في معركة شنت بجنت - San Vi-cente حتى دفع حياته ثمناً للشعبية الجارفة التي حظى بها في أرض الأندلس، إذ دعى يوم ٢١ يناير ٩٨٣م (٣ شعبان ٣٧٢هـ) إلى حفل في قصر المنصور خرج منه وهو يترنح ثم يتعرض بعد ذلك لضربات كالهال له بعض أعوان المنصور الذين وضعهم في طريقه. ووصل الدهاء بابن أبي عامر إلى درجة أنه نعى على الملائمة وفاة واحد من أجل أتباعه. وفي عام ٩٨٩م (٣٧٩هـ) كان هناك شخص من أصل مرواني شارك في الكثير من الحملات إلى جوار المنصور، لكنه كان بعد ذلك المحرك الأول في دسياسة تم تدبيرها ضد من وضع يده على الحكم. تم كشف هذه المؤامرة بسهولة: تعاون فيها كل من قائد الحدود العليا - عبد الرحمن بن مطرف من الأسرة الهاشمية^(٥٤) - وأحد أحفاد الأمير الحكم الأول وهو المدعو عبد الله بن عبد العزيز والشهير بلقبه «الرومانشي» الحجر الصلد Piedra seca^(٥٥) والذي كان حاكماً لطليطلة، ووعد أحد الإبناء الشبان

للمنصور وهو/ عبد الله الذى لم يكد يبلغ الثانية والعشرين بمساعدته للاطاحة بوالده وتولييه مكانه، وسوف نرى فى الصفحات التالية كيف أن عبد الله ابن أبى عامر لجأ إلى أراضى كونت قتشاله غارشى فرنانديث وانتهى الأمر به إلى تسليمه إلى والده الذى أمر بإعدامه دون أن يظهر عليه أى تأثر. أما بالنسبة لوالى سرقسطة فقد أقصى عن منصبه وعين ابنه يحيى مكانه والذى كان يدعى سامشا Samacha قبل قتله.. وأخيرا نجد أن عبد الله «الحجر الصلد» الذى لجأ إلى أراضى الملك برمودو الثانى ملك ليون تم اقياده فى النهاية إلى قرطبة حيث قضى ما بقى من عمره فى السجن، وسوف نرى أيضا أن المنصور لم يشعر بأى حرج فى التخلص من ابن عمه عسكلاجه الذى كان يمثل فى شمال أفريقيا وعلى ابن رميحيس القائد البحرى للأسطول التابع للخلافة. هذه الجرائم التى يوردها كتاب سيرة دكتاتور أسبانيا الإسلامية بالتفصيل أو بشكل موجز لا تمثل شيئا فى نظرهم ولم تحل دون قيامهم بتخصيص فقرات طويلة للثناء على العامرى.

– النشاط العسكرى للمنصور فى أسبانيا المسيحية حتى عام ٩٩٥م :

كم كنّا نودّ أن يزيد كُتّاب سيرة المنصور من التفاصيل المتعلقة بدوره فى الجهاد. كما نلاحظ أن الأرقام المتداولة بشأن عدد حملاته ضد المسيحية الأسبانية لا تقل عن خمسين حملة مظفرة سواء فى الصيف أو فى الشتاء وطوال فترة تزيد على عشرين عاما وهى الفترة التى مارس فيها الحكم. ومع ذلك لا تتوافر لدينا الكثير من المعلومات حول أغلب هذه الحملات، نعرف أيضا أن تلك الحملة التى تمت عام ٩٨١م (٣٧١هـ) أدت إلى الاستيلاء على سرقسطة وشنت منكش Simancas كانت الرابعة وأن الحملة الشهيرة على شنت ياقب Santiago دى كومبو ستيلا كانت عام ٩٩٧م (٣٨٧هـ) وكانت تحمل رقم الحملة الثامنة والأربعين. ومازالت الحملات بين هذه وتلك فهى غير معروفة التفاصيل، وبالتالي فالصورة التى سنقوم برسم تفاصيلها على الصفحات التالية ستكون - رغما عنا - مؤقتة وغير كاملة حيث ستظل على هذا الحال حتى يأتى اليوم، نرجو أن يكون قريبا، الذى تكشف لنا فيه بعض التراجم عن العامريين تفاصيل النشاط العسكرى للمنصور، وبذلك تسهم فى إلقاء الضوء على فترة هامة من تاريخ أسبانيا المسيحية ذلك أن المصادر اللاتينية تشير إلى تلك الأحداث باقتضاب شديد وغير معهود.

كان أولى الانتصارات الهامة للمنصور فى مناطق الثغور هى موقعة شنت بشنت San Vicente التى تخلص فيها من منافسه غالب وقتل أثناءها أمير البشكنس

راميرو ابن سانشو أباركا، وشنت قوات كونت قشتالة - غارثى فرنانديث. ويحدد لنا ابن الخطيب تاريخ هذه الحملة: تمت هذه الحملة كما سبق أن ذكرنا يوم ١٠/٧/٩٨١ (٤ محرم ٣٧١هـ) وربما أخطأ الدكتاتور القرطبي في موقفه لو لم يحاول الإفادة الفورية من هذا الانتصار. وعلى ذلك هاجم أراضى القشتالي وتبعها بالهجوم على أراضى ملك ليون الشاب: راميرو الثالث. كما أرسل بقوات لدعم القائد الإسلامى فى منطقة الثغور الوسطى. وفى اللحظة التى عاد فيها العامرى إلى قرطبة لبعض الوقت قام القائد عبد الله «الحجر الصلد» الذى يتقدم طليعة جيشه، يرافقه فرسان طليطة وبعض الجند وكذا مجموعة أخرى من المقاتلين بالتوجه سريعا إلى سمورة Zamora وحاصرها خلال شهر يوليو من العام نفسه، وهى المدينة التى لجأ إليها راميرو الثالث. قاوم حصن سمورة مقاومة شديدة رغم أن المدينة نفسها قد استسلمت ومعها القرى المجاورة. وتم إحراق الكثير من القرى - ألف قرية طبقا لبعض التقديرات المبالغ فيها من قبل أحد المؤلفين من المسلمين الأسبان^(٥٦) - والكنائس والأديرة. وبعد ذلك سلك عبد الله طريقه إلى قرطبة وقد أخذ معه ما لا يقل عن أربعة آلاف أسير.

وبعد ذلك بأسابيع وصلت الأخبار إلى ابن أبى عامر تشير إلى الحلف الهجومي ضد مسلمى الأندلس والذى تم بين كل من راميرو الثالث وكونت قشتالة/ غرثى فرنانديث والملك سانشو أباركا ملك بنبلونة. فأسرع إلى ذلك اللقاء وسار عن طريق طليطة حتى وصل إلى منتصف وادى نهر الدويرة إذ كان يعرف أن القوات المسيحية متمركزة هناك. وكانت نتيجة اللقاء - الذى وقع خلال شهر أغسطس من عام ٩٨١م رويدا Rueda، وهى المحافظة المعروفة حاليا ببلد الوليد، جنوب شرق شنت منكش Simancas بحوالى ٢٥ كم - كارثة على المتحالفين. وبعد ذلك توجه الدكتاتور مباشرة إلى شنت منكش واستولى عليها ودمرها وأسر منها عدة آلاف. وعندما عاد إلى حاضرة الخلافة ظن أن نصره هذا يؤهله لأن يحظى بلقب «المنصور». وبعد وقت قليل عاود هجماته من جديد، فحاصر مدينة ليون عاصمة الملك راميرو الثالث ورغم ذلك فشلت هذه المحاولة، وهذه الرؤية تعتمد على بعض التفاصيل التى أوردها راهب دير سيلوس Silos^(٥٧).

أدت الهزائم المتلاحقة التى منى بها الملك راميرو الثالث فى كل من سمورة ورويدا وشنت منكش إلى ابتعاد أغلب الرؤس الكبيرة عنه. كما وقع تمرد فى جليقية قام خلاله النبلاء باختيار أحد أبناء عمومة الأمير الضعيف، وهو برمودو الثانى ابن أوردينو الثالث^(٥٨). فحاول راميرو الثالث مواجهة منافسه بناء على ما طلبته منه

والدته. والتقى الجيشان بعد ذلك فى إحدى القرى الواقعة على حدود جليقية يطلق عليها بورتيا دى أريناس **Portella de Arenas** لكن لم يستطع أى من ابناء العمومة تحقيق نصر حاسم على الآخر. وفى شهر مارس أو إبريل عام ٩٨٤م استطاع الجليقى أن ينتزع من راميرو الثالث عاصمته ليون فما كان من راميرو إلا اللجوء إلى أستورغا «استرقة» **Astorga** بعد أن قام بجس نبض المنصور فى الأمر وتوفى بعد ذلك ببضعة أسابيع أى فى ٧/٦ فى مكان ليس بعيد عن أسترقة يسمى ديستريانا **Destriana**. ومنذ ذلك الحين حكم برموندو الثانى بدون منافس ثم تفاوض مع المنصور وانتهى الأمر بين ليون وقرطبة بتوقيع معاهدة انتقلت ليون بمقتضاها إلى حكم ملك ليون. وكان ذلك مقابل الوعد بدفع جزية كبيرة سنويا. كما حصل الملك الليونى على مساعدة الجيش الإسلامى للقضاء على مقاومة بعض السادة الذين كانوا يرفضون الاعتراف بسلطانه. قام هذا الجيش باختيار الأراضى التى يعسكر فيها فى الأراضى المسيحية التابعة لبرموندو الثانى ومارس رقابة حقيقة واستمر الحال على ما هو عليه حتى عام ٩٨٧م.

وخلال هذه الفترة تم تسيير الحملة الكبرى الموجهة ضد برشلونه فكانت الحملة الثالثة والعشرين طبقا لروايات بعض المؤرخين المسلمين. ولسنا ندري شيئا عن الأسباب التى حدثت بالدكتاتور لمهاجمة المدينة التى انتزعت من المسلمين منذ فترة طويلة والتى كان يحكمها الملك بوريل **Borreil** منذ عام ٩٥٤م تحت الوصاية الفرنجية وهى وصاية أصبحت اسمية بمرور الزمن. كما كان على علاقة جيدة بالخليفة فى قرطبة منذ مجيئه إلى السلطة. وقد أعد المنصور حملته إعداداً جيداً وأكثر من أعداد الجند والقوات. وبدلاً من التوجه مباشرة إلى هدفه قام بعملية اتفاق فى الجنوب الشرقى لشبه الجزيرة الأيبيرية مستعرضاً عضلاته الحربية التى كان يظن أنها ستجعل الجميع يكتفون له المزيد من المهابة. خرجت الحملة من العاصمة يوم الخامس من شهر مايو عام ٩٨٥م. الثانى عشر من ذى الحجة عام ٣٧٤هـ) ومرت بالمدن التالية الواحدة وراء الأخرى: البيرة وياثا **Baza** ومرسية. وقد مكث فى هذه المدينة الأخيرة ثلاثة وعشرين يوماً فى ضيافة أحد الأثرياء ويدعى ابن خطّاب الذى تحمل إعاشه كافة القوات المرافقة^(٥٩). ثم واصل المنصور طريقه موازياً للشاطئ الشرقى المطل على البحر المتوسط. وعندما علم الكونت بوريل بأنباء الحملة عمل على إيقافها فى الأراضى التابعة للمسلمين إلا أن جهوده ضاعت سدى فقد منى بخسارة فادحة ففى اليوم الأول من شهر يوليو من العام التالى وصلت القوات القرطبية إلى أسوار برشلونه التى كانت قد عسكرت أمامها مجموعة من القوات الإسلامية. وبعد ذلك بثلاثة أيام استسلمت المدينة وأشعلت فيها الحرائق بينما مات سكانها وتم أسر من بقى على قيد الحياة.

وكان من بين الأسرى أودالارت Udalarde نائب الكونت وأرنولفو Arnolfo رئيس الشامامسة. لكن احتلال المنصور لبرشلونة لم يدم طويلا فبعد ستة أشهر- أو عامين طبقا لراوية أخرى - انسحبت الحامية التي تحركت في اتجاه نهر إبرة وقامت بسلب ونهب وإحراق أديرة كثيرة نذكر منها دير شنت كوجات S.Cugat ودير بطرس دي ليوبيس S.Pedro des puelles (٦٠).

لم يدم رضا ملك ليون برمو الثاني عن وجود جيش إسلامي أرسله إليه المنصور، حيث كان ينظر إليه على أنه جيش احتلال. كما أن نداءاته التي وجهها للمنصور لم تلق أي صدى فما كان منه إلا أن قام بطرد هذا الجيش والنكوص بالعهد الذي ربطه بسيد الأندلس. كانت هذه الخطوة بمثابة إعلان الحرب وجاء رد المنصور فوراً إذ أرسل حملة استولت على مدينة قلمرية Coimbra خلال شهر يونيو عام ٩٨٧م وهذا طبقا لما ورد في «أخبار قلمرية» Chronicon Conimbricense (٦١)، وأشار المصدر إلى أن المدينة دمرت تماما لدرجة أصبحت معها بلا سكان خلال السبع سنوات التالية. ثم جهز المنصور حملة أخرى عام ٩٨٨م (٣٧٨هـ) استهدفت ليون عاصمة الملك برمودو الثاني، وقد نزح عنها هذا العاهل ليقوم في سمورة Zamora وتركها تحت حماية كونت جيليقية/ غونثالو غونثاليث. أخذت المدينة تقاوم لأربعة أيام متوالية ثم استسلمت بعد ذلك وتم تدميرها (٦٢) ولم تقاوم مدينة سمورة Zamora بنفس الدرجة الأمر الذي دفع برمودو الثاني إلى الفرار قبل استسلامها. وفي المنطقة الواقعة بين المدينتين قام المسلمون بإعمال يد التدمير في كل شيء ومن ذلك إحراق دير شنت بطرس دي إسلونثا S. Pedro de Eslonza ودير ساهاجون Sahagun.

كان العام التالي زمن تدبير المؤامرة ضد المنصور من قبل ابنه عبد الله الذي اعتاد الإقامة في سرقسطة، وقد عاونه فيها والي المدينة عبد الرحمن بن مطرف وكذلك عبد الله «الحجر الصلد» والي طليطلة. وعندما ترامت إلى أسماع الدكتاتور أنباء المؤامرة اتخذ خطوات تدل على مكره ودهائه دون أن تتسارع الأحداث فجهز حملة ضد غارثي فرنانديث كونت قشتالة وتوجه بالقوات القرطبية إلى وادي الحجاره -Guadalajara ra وهناك انضمت إليه قوات الثغر الأعلى. وأدت الاتهامات التي وجهها رسله إلى إقصاء عبد الرحمن بن مطرف وإيداعه السجن بعد ذلك، يوم ٢٠ يونيو ٩٨٩م (١٢ ربيع الأول ٣٧٩هـ) كما حث ابنه ليكون إلى جواره في حصار شنت إشتين دي غرماج S.Esteban de Gormaz وبمجرد أن وصل عبد الله إلى هناك يرافقه ستة من الفتيان الموالين له انشق على الجيش الإسلامي وذهب ليكون في حماية الكونت

القتشالى الذى رفض تسليمه. وعندئذ قام المنصور بغزو أملاكه مستوليا على أوسمه Osma خلال شهر أغسطس وعلى ألكويا دى لا تورى Alcoba de la Torre القريبة من كلونيا Clunia خلال شهر أكتوبر ثم قام بتوجيه ضغوط شديدة على أراضى ألبه Alava ولم يكن أمام غارثى فرنانديث إلا عقد معاهدات خلال العام التالى تم بمقتضاها تسليم عبد الله إلى أحد القادة المقربين من المنصور فقام على الفور بفصل رأسه عن جسده فى منطقة قريبة من نهر الدويرة طبقا لتعليمات المنصور. حدث ذلك فى الثامن من شهر سبتمبر عام ٩٩٠م (١٤ جمادى الثانية ٣٨٠هـ) كانت هذه الغزوة هى الخامسة والأربعين وأصرّ الدكتاتور أن يرسل برأس ابنه إلى الخليفة هشام الثانى ترافقها رسالة تتحدث عن النصر المؤزر. ويبدو أن اغتيال الابن أثار استياء أهل قرطبة؛ وإذا ما كان لنا أن نأخذ برواية أحد المؤرخين فإن المنصور حاول تبرير ما فعل بالتشكيك فى بنوة عبد الله^(٦٣). ولد هذا الابن عام ٩٦٩م (٣٥٨هـ) وكان أكبر من شقيقه عبد الملك بحوالى ستة أعوام. هذا الابن الأخير سوف يلعب فى المستقبل بالمظفر. كان للمنصور ابنا ثالثا اسمه عبد الرحمن ومن المفترض أن يكون الوريث الثانى. ولد هذا الابن بعد بضعة أعوام من الفترة التى نحن بصدد معالجتها وكانت أمه أميرة مسيحية نعرف اليوم، عن يقين، بأنها كانت ابنه ملك بنبلونة سانشو غارثيس الثانى الملقب بـ أباركا Abarca. وضعت هذه الأميرة - التى اتخذت لنفسها اسم «عبد» واعتنقت الإسلام وأطلق عليها مؤرخو العصر البشكنسيه - طفلها عبد الرحمن فى تاريخ غير محدد، من المحتمل أن يكون عام ٩٨٤م (٣٧٤هـ) وأسمته سانشويلو San-chuelo على اسم والدها سانشو^(٦٤). ومن المفترض أن تكون هذه الزيجة قد أدت إلى هدنة سياسية استمرت بعض الوقت بين قرطبة وبنبلونة، فهل تم خرق هذه الهدنة لأسباب نجهلها؟ ما حدث عام ٩٩٢م (٣٨٢هـ) هو أن ملك البشكنس أعلن عن قيامه بزيارة رسمية لصهره فى قرطبة. وطبقا لرواية ابن الخطيب^(٦٥) فإن المنصور الذى كان قد ألحق هزيمة كبيرة بسانشو أباركا رحب بمشروع الزيارة الى العاصمة الأندلسية وأعد له استقبالا عظيما. ووصل البشكنس إلى قرطبة يوم الرابع من سبتمبر (الثالث من رجب) واتجه إلى المدينة الزاهرة ترافقه قوات كثيرة خصصت لاستقباله. فخرج عبد الرحمن (شنجول)، الذى حصل على لقب وزير خلال العام السابق رغم حداثة سنه، لاستقبال جده لأمه فى موكب مهيب يضم عليه القوم وكبار القادة فنزل ملك بنبلونة عن صهوة جواده أمام حفيده وقبل قدمه تعبيرا عن التواضع. كما أن الركب الذى رافقه حتى حضرة المنصور كان ملكيا. كان الدكتاتور يجلس على عرشه ويحيط به وزراؤه، واصطف الحرس الأسود والحرس الصقلى فى طابورين ابتداء من باب

القصر وحتى بهو الاستقبال وعندما رأى المنصور قام بتقبيل الأرض أكثر من مرة ثم قبل يدي صهره وقدميه. وبعد ذلك قدم للضيف مقعداً مذهباً وبعد أن انفض من كان بالمجلس لم يسمع الملك المسيحي إلا عبارات التائب التي وجهها له رجل الدولة المسلم على موقفه الأخير. وبعد ذلك غادر القصر تحيط به نفس الأبهة بينما ستقوم مجموعة من البغال بنقل الهدايا الفاخرة إليه في مقر ضيافته.

وفي العام التالي ٩٩٣م (٣٨٣هـ) نجد أن ابن خلدون - فيما ذكره عن تاريخ المسيحيين في أسبانيا مورداً موجزاً لما ذكره ابن حيان - يسجل زيجة أخرى للمنصور من أميرة مسيحية وهي ابنة ملك ليون برمودو الثاني والذي أرسل ابنته إلى المنصور عام ٣٨٣هـ، فأصبحت جارية ثم أعتقها ودخل بها (٦٦). وقد حدد المؤرخ دوزي اسم هذه الأميرة الليونية التي يبدو أنها لم تنجب أولاداً من المنصور فكان اسمها تيريز أو تارازيا Teresa o Tarasia وهي التي تتحدث عنها سيرة بيلايودي أو بيدو Pelayo de oviedo. وبعد وفاة زوجها أعادها عبد المالك الذي خلف والده على كرسى الحكم إلى بلدتها الأصلية. وارتدت الحجاب عند وصولها ولزمت أحد الأديرة في عاصمة أشتوريش. ثم وافقها المنية في ٢٥ أبريل عام ١٠٣٩م (٦٧). كما أورد أحد المؤلفين العرب من العصور المتأخرة - استناداً إلى مصادر قديمة - مشيراً إلى عبارات الكبرياء الشديد التي أطلقتها ابنة برمودو الثاني في وجه بعض نبلاء ليون من الذين كانوا يرافقونها إلى قرطبة ويرجونها أن تتدخل لدى المنصور لصالح مواطنيها إذ قالت معبرة عن استيائها الشديد «أن الأمة يجب أن تحافظ على شرفها بحراب رجالها وليس بجمال نسائها» (٦٨).

في قشتالة، وقعت أحداث كثيرة عام ٩٩٤م (٣٨٤هـ) إذ تمرّد سانشو غارثيه ابن الكونت غارثي فرنانديث على والده بإيعاز من المنصور وانضم إلى صفوفه رجال البلاط الذين كانوا إلى جوار الأخير. وكما هي العادة انتهز الدكتاتور القرطبي هذه الفرصة للاستيلاء على قلعة شنت إشتين بو غورماج مرة أخرى وعلى حصن كلونيا Clunia بعدها. إلا أن غارثي فرنانديث لم يستسلم وحاول مراراً القيام بغارات على الحدود الإسلامية بالقرب من مدينة سالم حيث كان المنصور قد عين هناك قائداً صقلبياً هو الوزير كاند Qand (٦٩). وكان من إحدى نتائج هذه الغارات وقوع الأمير القشتالي في موقف درامي، إذ جرح يوم ١٩/٥/٩٥م (١٥ ربيع الثاني ٣٨٥هـ) على ضفاف نهر الدويرة في المنطقة الواقعة بين لانفا Langa وألكوثر Alcozar - محافظة سورية Soria حالياً -؛ وتم أسره واقتياده إلى مدينة سالم حيث مات هناك بعد عدة

أيام رغم العناية الكبيرة به. وبعد ذلك فصلت رأسه عن جسده ووضعت في صندوق ثم أرسلت إلى قرطبة؛ أما باقى جسده فقد ظل في مدينة سالم بعض الوقت ثم أعيد إلى ابنه سانشو غارثيا الذى قام بدفنه في كاردينيا Cardena (٧٠).

سار المنصور في العام نفسه على رأس حملة متوجها إلى بنى غوميث Beni Go-meز. وكان المسلمون والمسيحيون يطلقون هذا الاسم على سلالة رجل يدعى غوميث دياث G.Diaz كونت سالدانيا Saldana والذى كان قبل ذلك بستين عاما صهرا وفارسا وحامل الراية لكونت قشتاله/ فرنان غونثاليث. ويمرور الزمن ابتسم الحظ لابنائهم وأحفاده وأصبحوا سادة يتمتعون باستقلالية شبه كاملة ليس فقط في سالدانيا بل في ليبينا Liébana وكاريون Carrion (هى اليوم بلدة كاريون دي لوس كوندس Car- rion de los condes) التى كانت تسمى قبل ذلك شنتمرية Santa Maria . قام المنصور بتدمير كاريون ولم نعد نعرف شيئا عن بنى غوميث حتى منتصف القرن الحادى عشر (٧١). حيث سنرى أحدهم وهو يتعرض لمصير مأساوى بعد خمسة عشر عاما وهو عبد الرحمن شنجول.

توفى ملك بنبلونة سانشو غارثيس الثانى أباركه عام ٩٩٥م وخلفه على العرش غارثيا سانشيث الثانى الملقب بـ "Temblon" وقد استمر فى الحكم أكثر من خمس سنوات ثم توفى قبل أن يقضى المنصور نحيبه ببضعة شهور.

كانت آخر الأحداث فى العام نفسه قيام سيد الأندلس بمهاجمة برمودو الثانى مرة أخرى دون أن يضع أى اعتبار لعلاقة النسب الأخيرة. وكان ملك ليون قد فقد البقية الباقية من السلطة التى تركها له المنصور الذى قام بتأديبه لاستمراره فى إيواء عبد الله «الحجر الصلد» رغم أن هذا قد يغضب المنصور. قامت القوات الإسلامية بتدمير مدينة أستورقة Astorga التى اختارها برمودو الثانى كعاصمة بدلا من ليون. وأحاطت به القوات الإسلامية فى الوقت الذى تخلى عنه الكثير من رجاله الذين أعلنوا تبعية مقاطعاتهم لقرطبة بشكل مباشر، فلم يبق أمام الملك الأستورى الليونى إلا تسول السلام والقيام بتسليم عبد الله «الحجر الصلد» لقوات المنصور والقبول بدفع جزية سنوية.

– شنت ياقب، قلعت النصور وثيربيرا Cervera - موت المنصور :

وبعد ذلك بعامين قام المنصور بأشهر حملة له على دول أسبانيا المسيحية، وبالتحديد فى صيف عام (٩٩٧م - ٣٨٧هـ) حيث وصلت جيوش المسلمين مظفرة إلى

أقصى الشمال الغربى لشبه الجزيرة أى إلى قلب جليقية، كانت الحملة تسمى حملة شنت ياقب، وتوافرت لدينا - لحسن الحظ - معلومات دقيقة ومفصلة من مصادر عربية^(٧٢).

لم يكتف المنصور هذه المرة - كما اعتاد إنزال العقاب ببرمودو الثانى لعدم وفائه ببعض شروط الهدنة مع قرطبة - بالغارات الناجحة على أراضي مملكة ليون ونهب المزارع والقرى وإحراق المحاصيل وأسّر العديد واقتيادهم أسرى إلى قرطبة، بل كان هدفه هذه المرة توجيه ضربة قاصمة، وإهانة يكون لها صدى واسعاً فى العالم المسيحى إذ وصل به الأمر إلى تدنيس أحد أكثر الأماكن قدسية لدى المسيحيين^(٧٣). كانت شنت ياقب قد تحولت اعتباراً من القرن التاسع الميلادى إلى مركز للحجيج الذين يأتون من كل فج عميق وظل هذا الوضع طوال العصور الوسطى. وقصة شنت ياقب الرسول كانت معروفة فى التراث ووجدت صدى لها حتى بين بعض المؤلفين المسلمين. فعندما جاء هذا الرسول للتبشير فى أسبانيا نزل فى أحد الموانى فى جليقية وهى إيريا Iria والتي تسمى حالياً بـ بادرون Padron. وكان أحد الأساقفة ويدعى تيودوميرو Teodomiro من البلدة المذكورة، قد اكتشف قبر الرسول فيما يشبه المعجزة وقام بنقل رفاتة إلى المكان الذى أقيمت فيه بعد ذلك مدينة شنت ياقب دى مومبوستيلا (أى حقل النجوم) وتحولت الكنيسة المتواضعة التى قام بإنشائها ألفونسو الثانى ملك أشتوريش وليون إلى كنيسة ضخمة على يد من خلفوه ومنهم ألفونسو الثالث الكبير. وقع ذلك عام ٩١٠م. وأراد المنصور هدمها وتسويتها بالأرض.

خرج العامرى من قرطبة على رأس قوات الفرسان يوم الثالث من يوليو عام ٩٩٧م (٢٣ جمادى الثانية لعام ٣٨٧هـ) واجتاز كلا من قورية Coria وبيسيو Viseo. وفى هذه البلدة الأخيرة انضم إليه بعض النبلاء المسيحيين فى هذه المنطقة التى أعلنت تبعيتها له. واستمر فى سيره حتى بلدة أوبرتو Oporto حيث انضم إليه الرجال الذين تم نقلهم من ميناء قصر أبى دانيس Alcazar do sol بكل ما يحملون من مؤن وعتاد. وعبر نهر منهو Miño عند بلدة بيادارس واجتاز وطاف حول بعض مصبات الأنهار فى جليقية وكان منها أنهار عميقة وأخرى ضحلة، وأثناء سيره كان يقوم بتدمير كل ما يصادفه من قلاع وحصون مثل حصن شنت بايو S. Payo وكذا الأديرة مثل دير كوسمى Cosme وشنت ايمان، وواصل تقدمه حتى وصل إلى شبه جزيرة موراثو Mor-razo الكائنة أمام مدينة بيغو Vigo حالياً وقضى على بعض أهالى جليقية الذين حاولوا التحصن هناك ثم عبر نهر أويا Ulla ونهب مدينة إيريا Iria وهى مدينة مقدسة

لم تطأها أقدام المسلمين قبل ذلك. وفي العاشر من أغسطس (الثاني من شعبان) شاهد المنصور مدينة شنت ياقب من بعيد، وكان سكانها قد نزحوا عنها فاستسلمت وأحرقت. وتم تدمير الكنيسة الضخمة ما عدا قبر الرسول بناء على أوامر صريحة من الدكتاتور المسلم. كما لم يفعلوا شيئاً لأى من الرهبان الذين تولوا العناية بالقبر. كانت الأيام السبعة كافية لتدمير المدينة فى الوقت الذى قامت فيه بعض مجموعات المقاتلين بالتوجه نحو الشمال حتى وصلت إلى المحيط بالقرب من لاكرونيا La coruña.

أمر المنصور جيشه بالانسحاب والتوجه إلى لا ميغو Lamego حيث قام بتوديع النبلاء المسيحيين الذين رافقوه ووزع عليهم هدايا هى عبارة عن ملابس فاخرة، وأخذ طريق العودة إلى قرطبة بعد ذلك ببضعة أسابيع وقد حمل معه أعدادا كبيرة من الأسرى وكذا أجراس كنيسة شنت ياقب والأبواب الخشبية للمدينة، حيث استخدمت بعد ذلك كدعائم لسقف بعض الأروقة الجديدة التى ضمها إلى مسجد قرطبة (٧٤).

ويشير ابن خلدون إلى أن المنصور - بعد عامين من هذا التاريخ (٧٥) - أقام فى منطقة سمورة قرية يسكنها مسلمون وكذا قوات كافية جعل على رأسها «أبا الأحواس ومعن بن عبد العزيز التوجيبي».

وفى عام ٩٩٩ (٣٨٩هـ) - طبقا لرواية نسبت إلى ابن حيان (٧٦) - تم تسيير حملة قرطبية ضد بنبلونة. لكن لا تتوافر لدينا أية معلومات عن هذه الحملة التى تعتبر الحادية والخمسين. وربما كان تاريخ هذه الحملة قبل وفاة الملك البشكنسى غارثيا سانثيت الثانى بعدة أشهر، أى أنها جرت عام ١٠٠٠م. وقد فتحت الطريق أمام ابنه وخلفه سانشو غرثيس الملقب بالأكبر Mayor والذي كان مفخرة هذه الأسرة فى بنبلونة. كما توفى أيضا الملك برمودو الثانى ملك ليون عام ٩٩٩ وهو الملك الذى وجد نفسه مضطراً لطلب السلام من المنصور بعدموقعة شنت ياقب وأرسل له ابنه - المولود سفاحا المسمى بيلايو - ورغم الهزائم التى تعرض لها هذا الملك فإن الكتاب الذى ينسب إلى راهب دير سيلوس Silos يكثر من الثناء عليه. لكن الموقف لم يكن على نفس الوتيرة بالنسبة لبيلايودى أوبيدو Pelayo de Oviedo الذى وصف بأنه طاغية واتهم بتعدد الزوجات. فبعد أن تزوج عام ٩٨٣م بامرأة تدعى بيلاسكيثا Velasquita هجرها ليعيش بشكل مستمر مع إحدى بنات غارثي فرنانديثو تدعى إلبيرة Elvira حيث ولدت له ابنا عام ٩٩٤م أسماه ألفونسو وهو الخامس فى هذه السلسلة. وأعلنت تولية هذا الأخير عرش والده بعد وفاته وهو لم يبلغ الخامسة من العمر وظل فى جليقية تحت وصاية الكونت مينندو غونثاليث Menendo Gonzalez الذى قام بتربيته وشاركته امرأته السيدة/ مايور فى هذه المهمة.

وخلال صيف عام ١٠٠٠م (٣٩٠هـ) عقد سانشو غارثيا كونت قشتاله عدة تحالفات مناهضة للمسلمين بعد أن فترت علاقاته تدريجيا بقرطبة، فما كان من المنصور إلا الهجوم الفوري وأطلق على هذه الحملة ثيربيرا Cervera (جذوة شيربيره) ولولا العقلانية والحذر اللذان هما من صفات الدكتاتور الأندلسي لكانت القوات القرطبية قد تعرضت لهزيمة كبيرة. وتتوافر لدينا بعض التفاصيل عن هذه الحملة وذلك من خلال ما رواه ابن الخطيب عن ابن حيان وهي مخطوطة لم تنشر حتى الآن (٧٧).

وطبقا لما رواه هذا المؤرخ فإن كونت قشتاله لم يفقد الأمل في أن يكيل ضربة قوية للمنصور فقام بإعداد جيش قوى مكون من مواطنيه ومن كل من هو قادر على حمل السلاح في النواحي المجاورة ابتداء من بنبلونة وحتى أستورقة Astorga. فاستجاب له نبلاء ليون والبشكنس وأقسموا معه على مقاومة الزحف الإسلامي بكل ما أوتوا من قوة. تجمعت قوات سانشو غارثيا في المنطقة الوسطى لوادي نهر الدويرة بعيدا بعض الشيء عن بلدة كلونيا Clunia وبالتحديد في المنطقة الجبلية المسماة صخرة ثيربيرا Peña cervera والتي يبلغ أقصى ارتفاع لها ١٤١٥ مترا. توجه المنصور إلى مدينة سالم (٧٨) وتقدم بسرعة كبيرة نحو القلعة الطبيعية التي تجمع فيها أعداؤه الذين كانوا يعتمدون في مؤنهم على السهول الخصبة في المنطقة. وفي يوم الاثنين أي الموافق الثلاثين من شهر يوليو لعام ١٠٠٠م / ٢٥ شعبان ٣٩٠هـ) التقت القوات الإسلامية بأعدائها واتخذت مواقع قتالية، وبادر سانشو غارثيه بالهجوم على جناحي الجيش القرطبي، وأضعفت الهجمات المتكررة التي قام بها الفرسان المسيحيون الجناح الأيمن للجيش القرطبي. كان المنصور يتخذ موقعا لمراقبة سير المعركة وشعر بالقلق عندما رأى كيف أن هذه الهجمات قد أحدثت تأثيرها في صفوف هذا الجناح الذي لقي فيه بعض أفراد حلفهم، فأكثر من التضرع إلى الله وأخذ ينتظر - وهو شديد القلق - قيام جنود جيشه بهجوم مضاد ومباغت ولكن دون جدوى. ولم يطل به الوقت حتى استرد حماسه وأرسل بابنيه عبد المالك وعبد الرحمن للمشاركة في وطيس المعركة الدائرة في هذا الجناح فأظهرا بسالة وإقداما فائقين ثم قام قائد من البربر وهو الدماري بهجوم مباغت وشجاع على أحد نبلاء بني غوميث فأرداه قتيلا وعاد برأسه كما وقع سانشو غارثيه في خطأ قاتل عندما وقع في خدعة مناسبة. إذ رأى المنصور وهو يأمر بنقل خيمة القيادة من أسفل إلى ربوة عالية فظن أن الغرض هو قيادة قوات أخرى جاءت للعون والنجدة وعندئذ أخذ الجيش المسيحي في الانسحاب بشكل غير منظم وهرب الجنود القادمين من ليون وقشتالة والبشكنس بعد أن كانوا يحملون في أيديهم الحبال التي كانوا سيستخدمونها في ربط الأعداد الكبيرة من الأسرى المسلمين. وطاردهم

الجيش الأسلامى الذى استولى على الكثير من العتاد والمؤن وقطعان الماشية. كان الموقف حرجا رغم النصر فقد فقد الجيش القرطبى ما يقرب من سبعمائة من رجاله. ورغبة من المنصور فى الإفادة من هذا النصر أرسل بمجموعات للإغارة على مناطق مختلفة فى قشتاله. وظل طوال الشهر التالى (رمضان - أغسطس) يجوب أراضى ذلك الإقليم محدثا فيها الخراب والدمار ودخل مدينة برغش Burgos^(٧٩)، يوم عيد الفطر بعد أن قام بتطويقها عن طريق سرقسطة. وذهب من هناك إلى بنبلونة ثم عاد إلى قرطبة بعد غيبة استمرت مائة وتسعة أيام. وقام بإصدار أحكام صارمة على بعض أفراد قواته مدينا إياهم على موقفهم غير الشجاع يوم معركة ثيربيرا Cervera.

وفى بداية صيف عام ١٠٠٢م وقعت آخر الحملات التى قام بها المنصور ضد أسبانيا المسيحية. وكانت موجهة ضد أراضى إقليم ريوخا Rioja التابع لقشتاله. ولا تتوافر لدينا أية معلومات عن هذه الحملة اللهم إلا أن الجيش الإسلامى تقدم نحو كاناليس Canales الواقعة جنوب غربى ناجرة Najera بحوالى خمسين كيلو مترا. وعندما عرج على برغش Burgos قام بنهب دير شنت ميان S. Millán^(٨٠) وبعد انتهاء هذه الحملة والعودة إلى قرطبة كان الموت هو الذى وضع النهاية لحياة الدكتاتور القرطبى الحافلة.

كان المنصور يشعر بوطأة تقدم العمر به إذ تجاوز الستين عاما وقد أثرت عليه آلام لم يفصح لنا المؤلفون عن طبيعتها، لكنها جعلته يشعر بقرب النهاية الأمر الذى حدا به إلى الإكثار من أعمال البر. وطبقا لبعض الروايات - غير الجديرة بالتصديق فإنه طلب كنوع من التكريم له أن تقوم بناته بشراء القماش الذى سيوارى جسده أى الكفن من أموالهن الشخصية. ومن المعروف أنه كان يحرص على جمع الأتربة العالقة بشيابه فى كل حملة من الحملات التى يقوم بها حتى يغطى بها قبره. تدهورت أحواله الصحية عندما وصل فى طريق العودة إلى مدينة سالم لدرجة أنه حمل على محفة طوال رحلة صعبة استمرت أسبوعين. وعندما وصل إلى هذه النقطة من الحدود مكث بضعة أيام ثم وافته المنية فى الحادى عشر من أغسطس عام ١٠٠٢م (٢٧ رمضان ٣٩٢هـ) ودفن بناء على وصيته فى صحن قصر مدينة سالم وقد وضع على القبر شاهد نقش عليه بيتان من الشعر يذكران مفاخره كمحارب من أجل الإسلام والدفاع عن حدوده^(٨١).

قام بعض المؤرخين فى أسبانيا المسيحية بالإشارة إلى الظروف التى أحاطت بموت المنصور عندما عاد من هذه الحملة المظفرة. والتى تتمثل فى العلاقة بين موته

وبين هزيمة تعرض لها فى قلعة النسور Calatañazar وهى قرية متواضعة تقع فى محافظة سوريّة Soria فى الطريق الموصل بين هذه المدينة الأخيرة ونهر الدويرة متجهين نحو شنت إشتين دى غرماج، ومن بين هؤلاء المؤرخين الذين أوردوا هذه الرواية نجد لوكاس دى توى Lucas de Tuy ورود ريغودى توليدو R. de Toledo (القرن الثالث عشر) وكانا أول مؤرخين يشيران إلى وجود هذا النصر المسيحى على المنصور. وفى الوقت نفسه نجد مؤلفين آخرين أقدم من هذين السابقين مثل راهب سيلوس Silos أو بيلايو دى أوييد Pelayo de Oviedo لم يذكر شيئا عن هذه المعركة. وطبقا لرواية لوكاس دى توى فإن الدكتاتور القرطبى وجد نفسه مضطرا لمواجهة تحالف جيرانه فى الشمال ضده وهم برمودو الثانى ملك ليون وغارثى فرنانديث كونت قشتاله وغرثيه سانثيث الثانى ملك نبرة، وقع الصدام بالقرب من قلعة النسور حيث تم القضاء على آلاف المسلمين ولم ينجح المنصور إلا عندما فرّ تحت جناح الظلام، وفى اليوم التالى تم الاستيلاء على المعسكر القرطبى^(٨٢). وحزن المنصور حزنا شديدا لهذه الهزيمة لدرجة أنه توفى عندما وصل إلى مدينه سالم.

لم يقبل دوزى بصحة هذه الرواية^(٨٣) فهى مشكوك فى طبيعتها كما أنها مليئة بالتناقضات إذ أن غارثى فرنانديث وافته المنية عام ٩٩٢م وبرمودو الثانى عام ٩٩٩م وغارثيا سانثيث عام ١٠٠٠م ويرى دوزى - عن حق - أن هذه الرواية ليست إلا بقية من أسطورة تحاول تفسير الموت المفاجئ للمنصور وتصوره على أنه عقاب من السماء جزاء له على ما فعل بالمسيحية بتدميره شنت ياقب، إلا أن الحجج الواقعية التى يسوقها العلامة الهولندى والصمت الواضح للمؤرخين العرب وكذا الروايات اللاتينية القديمة لم تسهم فى إقناع كل من سآبدر Saavedra^(٨٤) وكوديرا Codera^(٨٥) اقتناعا كاملا حيث حاول هذان المؤرخان البحث عن خيط يحدد حقيقة موقعة قلعة النسور، وخلال الفترة الأخيرة نجد أن العلامة ميننديث بيدال M. Pidal يتخذ موقفا أكثر عقلانية إزاء هذه القضية إذ وصف الموقعة المفترضة بأنها «تناقض ما بعد» تناقض» وحاول أن يبحث جذور هذا الخبر فى الموقف العدوانى للكونت سانشو غرثية الذى ربما حقق بعض النجاح إلا أن الملاحم القشتالية ضخمت منه فيما بعد.

إننا نتفق بشكل كبير مع النتائج التى توصل إليها هذا المؤرخ للعصور الوسطى الأسبانية، وربما ذهبنا إلى أبعد من هذا قائلين بأن قصة معركة قلعة النسور ربما كان أصلها ذكرى الهزيمة التى كان المنصور على وشك التعرض لها خلال شهر يوليو عا. ١٠٠٠م وذلك قبل وفاته بما يقرب من عامين، وبالتحديد فى منطقة Cervera ثيربير.

عندما قام بمواجهة التحالف المسيحي ضده والذي قاده كونت قشتالة سانشو غارثية والتي تعرضنا لها في السطور السابقة معتمدين على رواية ابن الخطيب. هذه المعركة التي كانت نتائجها النهائية في غير صالح المسيحيين الأسبان، كانت تمثل، ولأول مرة منذ أعوام طويلة مضت، الرغبة في المقاومة والتضامن بين كل من قشتالة وليون ونبرة لمواجهة الهجوم الأسباني الإسلامي. ومن الطبيعي أن تمجد الروايات والقصص هذه المقاومة وفي الوقت نفسه تغير مضمونها وحقائقها. ويضاف إلى ما سبق عنصر آخر وهو القرب الجغرافي بين المكانين فقلعة النسور تبعد عن صخرة ثيربيرا - Peña Cer- vera بحوالى ٦٠ كم وهى مسافة قريبة. وربما تكون فى الطريق الذى سلكه القائد المسلم متوجها إلى مدينة سالم.

٤- سياسة المنصور ابن أبى عامر فى شمال أفريقيا

— الحماية القرطبية لمنطقة البربر الغربية حتى انشقاق الزيرى بن عطية :

تتوفر بين أيدينا معلومات أكثر بشأن سياسة المنصور فى شمال أفريقيا. ويرجع هذا إلى أن المؤلف المجهول الذى جمع الأخبار الخاصة بـ «حوليات أمة البربر» عام ١٣١٢م (٧١٢هـ) عن له أن ينقل لنا الفصل الذى خصصه ابن حيان للحديث عن العلاقات بين قرطبة والشمال الأفريقي خلال فترة الخلافة الأسبانية الأموية. وتلقى التفاصيل التى وجدناها فى هذا الجزء المتعلق بالوضع الداخلى لمنطقة البربر الغربية فى نهاية القرن العاشر الميلادى وكذا المتعلق بموقف الدكتاتور الأندلسى من الرؤساء المحليين. هذه التفاصيل تلقى ضوءا كافيا على فترة إعتبرت غامضة ومجهولة لزمان طويل وتفسر السر وراء قدوم العديد من المرتزقة من شمال أفريقيا إلى إسبانيا والذين سرعان ما تطور بهم الأمر ليتحولوا إلى جنود حقيقيين كان لهم الأثر الواضح فى تحديد مصير الأمبراطورية القرطبية.

ومما يذكر أنه قبل وفاة الحكم الثانى بقليل تم إعادة كل من جعفر بن على بن حمدون وأخيه يحيى إلى المغرب الغربى حتى يقوموا بتمثيل الحكومة الأموية فى هذه البقعة وأحسن أهالى المنطقة إستقبالهم وهم الزناتة وبنو عفران والمكانسة^(٨٨) وعندما تولى ابن أبى عامر زمام الأمور لم يحاول تغيير الأوضاع بسرعة فلم يحتفظ فى المغرب - تلك المنطقة التابعة للسيادة الأندلسية - بأية قوات إلا تلك التى ترابط فى سبته والمكونة من أفضل القادة الموالين له. وبالنسبة لكبار القوم فى الزناتة عاملهم معاملة

حاول فيها إستقطابهم فرحب بهم وأظهر مودته لهم عندما كانوا يحلون بقرطبة وكان يأمر بتسجيلهم ضمن صفوف الجيش النظامي. ما كان يهدف إليه الدكتاتور هو اجتذاب أكبر عدد من المرتزقة من منطقة البربر الغربية ليكونوا بمثابة وقود من الرجال يستخدمه في أوار الحملات التي يقوم بها ضد المسيحيين الإسبان. كما استطاع الإفادة من الخلاف الذي حدث بين جعفر بن حمدون وأخيه يحيى فقد قام هذا الأخير بالذهاب إلى البصرة للاقامة فيها في الوقت الذي بدأ أخوه جعفر حملة فاشلة ضد البرغواطة بمنطقة المغرب الأطلسي وبالتالي فقد هيبتة بعض الشيء. وبناء على هذا نصيحة ابن أبي عامر بالعودة إلى أسبانيا وافق جعفر بعد تردد وسلم أخاه حكومة المغرب في نهاية عام ٩٧٨ م (٣٦٧هـ) (٨٩).

وبعد ذلك بعامين - ربيع عام ٩٨٠ م (شعبان ٣٦٩هـ) - قام المغراوي جزرون بن فلفول معه أحد القادة أصحاب الإقطاعيات التابعة لأسبانيا الأموية بالهجوم على واحات سيشلماس التي كان يحكمها المدراري محمد المعتز اعتبارا من ٩٦٣ م (٣٥٢هـ). ونجحت الحملة حيث تم الاستيلاء على المدينة وقتل المدراري وفصل رأسه عن جسده وإرسالها إلى قرطبة. ولأول مرة يدعى للخليفة القرطبي على المنابر في هذه المدينة. ومكافأة لجزرون على ما قام به ظل محتفظا بسيادته على الأقليم الذي غزاه حتى وفاته كما أرسلت قرطبة موافقتها على ولايته على المناطق المدرارية القديمة. وجاء بعده ابنه نودين (٩٠).

قرر بلوغين بن زيري - العاهل الزيري لأفريقيا، القيام باستعراض للقوة في أقاصي المغرب آملا أن يعيد السلطة الفاطمية إلى هذه المنطقة - فخرج على رأس ستة آلاف فارس انتقاهم وتوجه إلى الغرب مجبرا قادة الزناتة الذين وجدهم في طريقه إلى التراجع والبحث عن ملجأ في الحامية الأموية سبتة، حيث كان ينتظرهم هناك يحيى بن حمدون سيد البصرة. وصل بلوغين بسرعة شديدة إلى أسوار هذه المدينة حيث لم يعترض طريقه أحد. كان ابن أبي عامر على علم كامل بكل ما يحدث ولذلك هب على الفور بإرسال فرقة إلى الجزيرة ثم عبرت البحر متوجهة إلى سبتة تحت قيادة جعفر بن حمدون الذي أخذ على عاتقه إدارة دفة القتال. كما حملته العامري مبلغا كبيرا من المال يبلغ مائة «وسق» من الذهب. وأمام هذا المدد الضخم لم يجرؤ وانضم إلى العامري في الجزيرة مع بداية عام ٩٨٠ م (جمادى الثانية عام ٣٦٩هـ) قرر الدكتاتور تعيين خالد بن محمد بن برطل، ابن اخته على سبتة ونادى بالقائد البحري لمجموعة المرية **Almería** - عبد الرحمن بن رميحس، ذلك العجوز الشهير الذي كان يقف دائما في خدمة الأسرة المالكة، حتى يحضر إليه وعندئذ دس له السم في الطعام.

اتسمت الفترة التي قضاها بن برطل في سبته بالهدوء فعلى مدار ست سنوات لم يحدث في المغرب أى شئ ذو بال يستدعى اهتمام وعناية الدكتاتور الأندلسي. وفي عام ٩٨٥ م (٣٧٥هـ) ظهر في الأفق ما يمكن أن يكون تهديدا: فقد عاد الإدريسي الحسن بن غنوم إلى أملاكه القيصة. ومما يذكر أن هذا الإدريسي قد عاد من أسبانيا بصحبة الكثيرين من أقربائه؛ كان هذا قبل موت الخليفة الحكم الثاني بقليل، وانتقل الإدريسي إلى أفريقيا تم توجه من هذا الشاطئ إلى مصر طلبا للحماية الفاطمية^(٩١). وقد وافق العاهل المصري - الخليفة العزيز - في النهاية على تلبية مطالب الإدريسي فسمح له بالانتقال إلى جوار بلوغين الزيري الأفريقي التابع للفاطميين، وأرسل إلى هذا الأخير ليمد يد العون في القيام بحملة على منطقة المغرب الغربي. ولا تتوافر لدينا أية معلومات بشأن ما قام به ابن غنوم من أعمال وخطوات خلال هذه الفترة. وكل ما توصلنا إليه هو أنه بوفاة بلوغين نجد ابنه المنصور يخلفه في الحكم ولا يعير أى اهتمام بالإدريسي. إلا أن هذا الأخير نجح في أن يضم حوله عددا من المؤيدين الأمر الذي حدا بابن أبى عامر إلى القيام بقطع الطريق عليه. فأمر بتجهيز جيش قوى أرسله إلى سبته وجعل على رأس هذا الجيش ابن عمه عمر بن عبد الله المسمى بعسقلجة. كما كان من بين القادة عبد الله ابن الدكتاتور وعبد الرحمن التوجيبي والى سرقسطة، ولم يكن باستطاعة الحسن بن غنوم مقاومة قوات أندلسية بهذه الضخامة فما كان منه إلا الاستسلام فلم يقتله عسقلجة وأرسله إلى قرطبة^(٩٢). إلا أن المنصور لم يكن مستعدا للغفران ورغم أن ابن العم قد أقسم ووعد ألا يحدث أذى لابن غنوم نجد المنصور يرسل بأحد قادته إلى منطقة مخصصة للراحة من عناء الأسفار تقع بين الجزيرة وقرطبة ليقضى على ابن غنوم ويقطع رأسه. ويموت هذا الرجل فقد الأدارسة أى أمل لهم في وجود قيادة جيدة فما كان منهم إلا أن انخرطوا في صفوف النظام القرطبي حصل الكثير منهم على تصريح بدخول أسبانيا والانضمام للمجموعات المغربية في الجيش النظامي. أما ابن عسقلجة فقد غضب غضبا شديدا لأن ابن أبى عامر لم يأبه بالأمان الذي أعطاه لابن غنوم وتلفظ بعبارات مبالغ فيها كلفته ثمنا غاليا. إذ تم استدعاؤه إلى قرطبة لتوضيح الموقف ودفع ثمن تهوره وحل محله الوزير محمد بن أحمد بن عبد الوود السلامي على رأس قيادة الجيش في أفريقيا.

وسرعان ما أظهر هذا القائد مهارته وحزمه في منطقة المغرب. فنقل القيادة من سبته إلى فاس وأجبر الرؤساء المحليين على احترامه متبعا في هذا أسلوبا ماهرا لدرجة أن المنصور شعر بغيرة منه، فتم الاتصال به للحضور إلى قرطبة ليوضح الخطوات التي قام بها. واستطاع بسهولة أن يقارع منافسيه حجة بحجة ثم عاد إلى

موقعه بعد أن أعطاه المنصور المزيد من الصلاحيات وخاصة مهمة تأييد القبائل المغراوة على حساب بعض قادة الزناتة وخاصة ضد جدو بن يعلى الذى اشتهر بميوله التمردية. وكان من أبرز رجال المغراوة فى هذه الآونة كل من مقاتل بن عطية وأخيه الزيرى، تولى الزيرى قيادة هذا الاتحاد الكونفدرالى^(٩٣) بعد وفاة أخيه عام ٩٨٨م (٣٧٨هـ). وفى العام التالى دعاه المنصور ليقوم برحلة رسمية إلى قرطبة. وعومل هذا القائد البربرى كأته أمير. فقد حلّ بالقصر الذى كان يعيش فيه جعفر بن حمدون الأندلسى قيل أن يلقى حتفه المشئوم. وهو قصر يقع فى حى Kutah rasho^(٩٤) وأغرق بالهدايا ومنح لقب وزير. ومن المعروف أنه جاء إلى الأندلس بالكثير من الرجال لينخرطوا فى صفوف جيش الدكتاتور. لكن السيد المغراوى الذى اتسم بالجلالة لم يتأثر بما رآه، لأول مرة فى حياته فى قرطبة ولكل ما هناك من حضارة وتقدم. واضطر أن يغير من عاداته العسكرية ويسير على تقاليد نبلاء الأندلس ومما يحكى عنه أنه بمجرد عودته من الأندلس إلى الأراضى الأفريقية قام بخلق شعر رأسه ووضع العمامة ثم قال «أه يا رأسى، أعرف الآن أنك رأسى». كما وجه سباً علنياً للمنصور متهما إياه بالبخل وأبدى احتقاره للقب الوزير وأنها درجة لا تساوى أمام لقب الأمير الوريث بين أهله. لم يبد المنصور امتعاضا كبيرا مما قيل له عما جاء على لسان القائد البربرى. وكل ما فعله هو العمل على استقطاب جدو بن يعلى. ودعاه إلى قرطبة لكن هذا الأخير طلب من الرسول أن ينقل إليه هذه الإجابة الغريبة «منذ متى يذهب الناس بالحمار إلى منزل الحداد؟» ثم انضم إلى فريق المنشقين. وبناء على ذلك تلقى ابن عبد الودود أمرا بمحاربته وطلب لذلك عون الزيرى بن عطية. ووقعت المواجهة يوم ٦/٤/٩٩١م (١٨ محرم ٣٨١هـ) على ضفاف نهر مولويه Muluya واستطاع جدو بن يعلى إلحاق الهزيمة بالجيش القرطبى وبالدعم الذى أتى بقيادة المغراوى كما تلقى ابن عبد الودود طعنة قاتلة.

تمت معالجة هذه الهزيمة بعض الشئ وذلك بانضمام غير متوقع لأمير صنهاجى من أفريقيا. إنه عم الملك الزيرى المنصور بن بلوغين الذى يدعى أبو البحر زيرى والذى كان قد خرج عن طوع حكومة القيروان وأعلن انضمامه إلى قرطبة. وبمساعدة القائد الزيرى جلو بن أبى بكر حاكم تاهارت انتزع من ابن أخيه جزءا كبيرا من منطقة وهران التى أعلن تبعيتها للسيادة الأموية. وشجعه المنصور على البقاء والصمود وأرسل إليه بالمدد والعون. وبعد ذلك قام أبو بكر بإرسال ابن أخيه أبا بكر بن حبوس بن زيرى إلى قرطبة بوصفه سفيرا له ويرافقه عدد كبير من المحاربين الصنهاجى الذين انضموا إلى صفوف الجيش الأندلسى. ولم يعد السفير خاوى الوفاض فقد جاء إلى

عمه بخمس وعشرين ألف قطعة عملة ذهبية وهدايا ثمينة وجواهر تبلغ قيمتها عشرة آلاف دينار بالإضافة إلى خمسمائة ثوب من الحرير. كما أن المنصور خول أبا بكر صلاحيات مثل تلك التي كانت للزيري بن عطية فقد تولى كلاهما مهمة القضاء على الأنشطة المعادية التي يقوم بها بنو يفر وقاتلهم جدو الأمر الذي أدى إلى أن يمتن هذا الأمير بهزيمة خطيرة في نهاية ٩٩١م (٣٨١هـ) حيث قتل ثلاثة آلاف رجل من رجاله ولم يجد بدا من اللجوء إلى الصحراء الكبرى، ثم وافته المنية بعد قليل، وتولى مكانه ابن أخيه حبوس بن زيري الذي سرعان ما اغتاله أخوه أبو Yadas بن بوناس الذي كان يطمع ليشغل مكانه. ولما لم يستطع نيل مراده انتقل إلى أسبانيا ومعه مؤيدوه حيث سارع المنصور بضمهم إلى صفوف جيشه.

لم يدم طويلا الوفاق بين الصنهاجي أبو بكر والمغراوي زيري بن عطية إذ تصارعا فلحقت الهزيمة بأبي بكر فلجأ بعدها إلى سبته في نهاية عام ٩٩٢م (شوال ٣٨٢هـ) ومن هناك انتقل إلى منطقة الريف ثم تصالح مع أقربائه في إفريقية وعاد إلى بلده. أما الزيري فقد أصبح المغرب الغربي مفتوحا أمامه وظن المنصور أن هذا القائد يمكن أن يكون الممثل الوحيد لقرطبة في تلك النواحي ومن أجل هذا يجب تمويل كافة المعارك التي يخوضها فكان رد الزيري إظهار أفضل ما عنده من مواهب. ففي شهر نوفمبر عام ٩٩٤م (شوال ٣٣٤هـ) أرسل إلى قرطبة بسفير يحمل معه بعض الهدايا التي ذكرها لنا بعض المؤرخين: مائة جواد أصيل - منها عشرون مسرجة - وجمالا وأسلحة ودورعا مكسوة بجلد الظباء، ثم أضاف إلى تلك الهدايا بعض الحيوانات الأخرى لتكون جزءا من حديقة الحيوان التابعة لقصر الخلافة منها ببغاء وقطأ برياً وفهدا ضخما وزرافة لم تتحمل مشاق الرحلة فنفتت وتم تحنيطها وشهدها أهالي قرطبة وقد اعتلت الدهشة وجوههم.

ازدادت قبضة الزيري وسيطرته على شمال المغرب ووهران ورأى أن وضع منطقة فاس غير مناسب جغرافيا بين الأقاليم التي تعترف بسلطانه عليها فقام في عام ٩٩٤م (٣٨٤هـ) بتأسيس مدينة وجدة التي لا تبعد كثيرا عن الحدود المغربية الجزائرية لتكون مقرا لاقامته ومخزنا للاحتياطى من العتاد. كان القائد المغراوي يتسم بطبيعة إستقلالية بحيث يتعذر عليه أن يقبل - إلى ما لا نهاية - إحتفاظ سيد أسبانيا بحقه في التدخل في أنشطته السياسية. وطوال ٩٩٧م (٣٨٦هـ) أخذت تصدر عنه بوادر عدم الأذعان، وحتى يتقى المنصور الضربة القادمة سارع بإرسال قوات إلى المغرب يقودها أحد المقربين إليه وهو الأمين عيسى بن سعيد اليعسوبي طمعا منه أن يؤدي إرسال

هذه القوات إلى إرعاء الزيرى بن عطية والعودة إلى رشده، لكن لم تأخذ الأمور الطريق المرسوم لها ذلك أن المقرؤى قطع كل صلة له بقرطبة دون الإعلان صراحة عن رفض السيادة الأموية وقسمه على الولاء أمام هشام الثانى. وأبلغ المنصور بأنه يستعيد حرية الحركة وكنوع من العقاب قام الكنتاور فى أكتوبر ٩٩٧م (شوال ٣٨٧هـ) بسحب لقب الوزير منه وقرر أن يوجه ضده كل القوات والأسلحة الأندلسية.

— نواب الملوك فى قاس :

حتى يستطيع المنصور أن يقود هجومه المزمع على الزيرى بن عطية أمر واحدا من أفضل قائده وهو الصقلبي وبيع قائد الثغور الوسطى والذي يتمركز فى مدينة سالم أن يتوجه إلى المغرب وهو يحمل لقب قائد بلاد ما وراء البحار. وعندما وصل إلى ميثاء طنجة أخذ يعمل على تجميع كل قواته القادمة من شبه الجزيرة فى هذه المنطقة ثم تلقى أموالا طائلة والكثير من الهدايا المخصصة لكبار القوم فى هذه المناطق والذين قد يتضمون إليه. وبعد ذلك بقليل بعث إليه المنصور فرقة من جنود البربر يقودها رجال من نوى الخبرة سواء كانوا من أصل أندلسى أو أفريقى تولى وبيع قيادة حملته ضد البريرى الذى كان استقر به المقام فى منطقة جبلية شمال المغرب تسمى «جبل حبيب» (٩٥).

استمرت الأوضاع على ما هى عليه طوال شهور ثلاثة دون أن يكون هناك لقاء حاسم واقتصر نشاط كلا الطرفين على هجمات صغيرة ومع ذلك استولى وبيع على أرثيلا Arcila الواقعة على شاطئ الأطلنطى وعلى الناقرة Nakur الواقعة على شاطئ المتوسط وفى شهر يوليو عام ٩٩٨م (رجب ٣٨٨هـ) استطاع مفاجأة القوات التابعة لزيرى بن عطية عند شعب يطلق عليه مدق الحية وألحق بها هزيمة كبيرة.

أراد المنصور الإقادة من هذا النصر، فبعد عدة أسابيع توجه إلى الجزيرة وأرسل المزيد من القوات ووضع ابنه عبد المالك قائدا لها وقد أظهر الابن قدرات عسكرية جيدة. فوصل الفتى العامرى إلى طنجة وانضم إلى وبيع ثم قام كلاهما بالهجوم على الزيرى الذى ظل فى جبل حبيب.

وقعت المعركة فى الثالث عشر من شهر أكتوبر ٩٩٩م (١٩ شوال ٣٨٨هـ) وكانت نتائجها الأولية غير حاسمة لكن عبد المالك رأى أن أحد أجنحة جيشه تعرض لضربات موجعة فحمل حملته يرافقه عدد من الفرسان وأعاد الأمور إلى نصايها. وبعد ذلك عرف

جيش الزيرى أن قائده أصيب إصابة بالغة من طعنة وجهها له أحد السود كنوع من الانتقام الشخصى. كان الخبر احباطا للجنود الزناتية الذين أخذوا فى التراجع بشكل غير منتظم. ووجد الزيرى نفسه مضطرا للهرب وترك للقرطبيين معسكره وثرواته وبحث عن ملجأ بالقرب من مكناس وحاول بعد ذلك أن يعيد جمع صفوف قواته لتحقيق نصرا ولكن هيهات وفاجأه وديع مرة أخرى وهو فى معسكره وأسر عددا كبيرا من قواته التى وافقت على الأنخراط فى صفوف جيش الأندلس. وعندما رأى الزيرى أنه فقد كل شئ اتجه. وهو كسير الجناح، إلى فاس ليحمل معه نساءه وأولاده ثم توغل فى الصحراء. أما عبد المالك فقد عاد إلى العاصمة الأداريسية القديمة ودخلها دخول الفاتحين. وكان لهذا النصر صدى عظيما فى قرطبة. وقد عبر المنصور عن هذا الابتهاج باعتاقه ألف وخمسمائة عبد صقلبي وأمر بتوزيع الصدقات على كافة المحتاجين فى الأمبراطورية. كما عين عبد المالك واليا على المغرب بينما عاد وديع إلى موقعه فى الثغر الأوسط فى أسبانيا.

أقام عبد المالك فى فاس كائنه نائب ملك وقام بتعيين رؤساء أقاليم، فعلى سبيل المثال قام بتعيين محمد بن حسن بن عبد الوبود على تادلا، وعين الكتامى حميد بن يصال على سيشلماسا. وفرض الخراج على الأهالى وأمر بأن يبنى فى هذه المدينة بعض المنشآت الهامة كان بعضها أفضل مما هو قائم فى المسجد الجامع بقرطبة وأطلق على المدينة اسم «القرويين»^(٩٦)، ومع ذلك لم يتأخر والده كثيرا فى دعوته إلى العودة إلى قرطبة التى وصل إليها فى الثامن عشر من أبريل ٩٩٩م (٢٢ ربيع الثانى ٣٩٨هـ). ثم ذهب وديع إلى المغرب ليحل محله ولم يشأ القائد الإسلامى أن يظل ساكنا بلا أى نشاط فقام بمهاجمة البرغواطه وألحق بهم هزائم نكراء، وفى نهاية العام نفسه عاد إلى موقعه فى مدينة سالم ليحل محله أحد أبناء إخوة المنصور ويدعى عبد الله بن يحيى بن أبى عامر. ونلاحظ أنه بعد هذا القائد تعاقب على حكم المغرب بعض القادة الأندلسيين نذكر منهم إسماعيل بن البورى ومعن بن عبد العزيز التوجيبى وظل الأمر على هذا الحال حتى موت الدكتاتور.

أما فيما يتعلق بالزيرى بن عطية الذى لم يبرأ من جراحه ولجأ إلى الصحراء، فلم يفقد الأمل فى تغيير الأحوال وظل على حالة السكون هذه أمدا دون أى محاولة لاتخاذ خطوة ضد شمال المغرب وهى المنطقة التى يسيطر عليها الجيش القرطبي. ولم يفعل شيئا الا التوجه نحو الشرق حيث كانت الفرقة سائدة بين أفراد الأسرة الحاكمة فى أفريقية ويمكن أن يفيد إذا ما تدخل فى الموقف فقد مات الملك الزيرى المنصور بن

بلوغين وعندما تولى ابنه بادس وجد أن هناك آخرين يقفون له بالمرصاد وهم بعض أقربائه وخاصة الأعمام ماكسان والزاوى، فقام الزيرى بن عطية يسانده هذان الرجلان بحصار تاهرت واستولى عليها وغزا بعد ذلك باقى المدن الصنهاجية وهى ترمذان وتينيس ومسله، ثم حاول تجاوز الأحقاد والضغائن القديمة فأعلن سيادة هشام الثانى والمنصور على المنطقة وأرسل إلى العامرى خطابا يرجو فيه الصفح ويطلب العودة إلى ما كان عليه سابقا، فوافق المنصور ودعا كافة الابناء الزيديين الذين انشقوا على قيروان إلى الانضمام للجيش الأسبانى^(٩٧)، وسوف نرى فى الصفحات التالية كيف أن هؤلاء لعبوا دورا هاما قبل أن يؤسسوا فى غرناطة أسرة قوية ومحترمة اعتبارا من القرن الحادى عشر، أما بالنسبة للمغراوى فقد قام بحصار أشير، غير أن حالته الصحية أجبرته على رفع الحصار ووافته المنية قبل الوصول إلى وهران فخلفه ابنه المعز وترأس الوحدة الكونفدرالية للمغروايين معلنا تبعيته لقرطبة، ثم واصل، بنجاح، حملاته ضد الصنهاجة حتى وفاة المنصور بن أبى عامر وبعد ذلك طلب المعز من عبد المالك، الدكتاتور الأندلسى الجديد، أن يخوله حكم منطقة البربر الغربية وعرض عليه أن يقدم ابنه معنصر كرهينة ودليل على حسن نيته فوافق عبد المالك ثم بعث فى أغسطس ١٠٠٦م (ذى القعدة ٣٩٦هـ)^(٩٨) برسالة، وصل إلينا نصها، حملها الوزير على بن حظلم Hadhram إلى أهالى فاس يدعوهم فيها إلى الاعتراف بالمعز الزيرى عطية كنائب للملك على كافة أنحاء المغرب باستثناء الأراضى التابعة لسيشلماسا، وهى إقطاعية خاصة بوانودين بن جزرون بن قلفول، كانت الفترة التى حكم فيها المعز مليئة بالاضطرابات وعندما وافته المنية ١٠٢٠م (٤١٧هـ) كانت الثورة العامة التى وقعت فى الأندلس قد قضت بشكل نهائى على الروابط التى امتدت ما يقرب من قرن من الزمان بين مجموعة الزناتة فى شمال أفريقيا والخلافة الأموية فى قرطبة بما فى ذلك الفترة التى أغتصب فيها العامريون عرش الخلافة.

٥- عبد الملك المظفر ابن وخليفة المنصور بن أبى عامر (١٠٠٢م - ١٠٠٨م) ^(٩٩)

— أسبانيا الاسلامية فى بداية القرن الحادى عشر :

لم تتوفر لدينا، حتى وقت قريب، معلومات كافية عن الفترة التى حكم فيها العامرى الثانى سيف الدولة أبو مروان عبد الملك المظفر والذى تولى شئون الحكم بعد وفاه والده وحافظ عليه لمدة ستة أعوام تقريبا حتى وفاته المبكرة. واليوم نجد الحال

بتغير وأصبحنا على علم بكل التفاصيل الخاصة بفترة حكمه القصيرة وذلك يقضها مصدرين عرييين تم الكشف عنهما حديثاً، وقد خصصنا لهذه الفترة مساحات كبير لتابعة نشاط هذا الحاكم وخاصة العسكرية منه الموجه ضد إسبانيا المسيحية. ويقرأ هذه المراجع نجد أن الأندلس قد عاشت في جو من الغليان في ظل هذا الدكتاتور الجديد. وهو جو يسبق الاضطرابات السياسية ويبدء الصراعات الداخلية. ولقد ركز هذان المصدران على الهدوء الذي يعم أرجاء البلاد أثناء الأعوام السبعة لحكم المظفروهي الفترة السابقة على المرحلة المحزنة التي تعرضت فيها الأقاليم المختلفة وخاصة العاصمة لحالة من الفوضى والشلل الذي لا ضابط له. وإذا ما نظرنا للأمور عن قرب من خلال الروايات التاريخية التي ظهرت لنا فإننا إذا لم تكن تضع أيدينا على البدايات الأولية للثورة القادمة فإننا نشهد بوادر ودلائل قاطعة تشير إلى قدومها مثل تغير النفوس في الريف والحضر، وتنامي حالة الغضب بين صفوف الأرستقراطية العربية والأرستقراطية الصقلية الجديدة وذلك كرد فعل على الأهمية الاجتماعية التي بدأت تحظى بها في قرطبة طبقة المسكر ذات الأصول البربرية والتي قدمت إلى شبه الجزيرة من المغرب أو أفريقية وهي عازمة على عدم العودة، وهناك الدساتيس التي يتم تدبيرها في الخفاء. ورغم أن عيد الملك لم يكن مثل والده، فإنه - لحسن الحظ - يتمتع ببعض صفاته فقد أظهر احترامه للقيم والتقاليد الأموية وأبلى بلاءً حسناً في ميدان القتال والغيرة على دينه. وأدى كل ذلك إلى تمتعه بشعبية جيدة بين مواطنيه. وكان ذلك كافياً بضمان عدم تأرجح البناء الهش الأساس الذي أقيم على عجل بواسطة المتنصور. ويتمتع أسبانيا بمزايا العيش في سلام والحياة الوردية قبل أن تستيقظ على غير ذلك.

لقد أظهر عيد الملك قدراته وجدارته قبل تولى شئون الحكم سواء كان ذلك على مستوى أسبانيا المسيحية أم في منطقة المغرب - كقائد وكنايب ملك - وكان الابن المفضل للمتنصور الذي لم يتردد لحظة واحدة في التخلص من أول أيتائه من أجله - ولد عيد الملك عام ٩٧٥ م - ٣٦٤ هـ) أما أمه التي عاشت طويلاً فكان اسمها «الدقلى» وكانت إلى جوار المتنصور عندما وافته المنية في مدينة سالم. وقد أسدى المتنصور العديد من النصائح لابنه قبل وفاته، وقد وردت لنا هذه النصائح (١٠٠) وهي تعتبر وصية سياسية حقيقية أملاها وهو يكامل قواه العقلية ويعيش لحظة من لحظات التجلي. وتبين هذه الوصايا أن ما قطه العامري الأول كان يتضمن بعض التفاصيل المهمة. فهو يحث ابنه على السير في نفس الطريق الذي اختطه أبوه ومهده فقد ترك له ملكاً زاهراً كما أن مخازن الغلال والسلاح مليئة عن آخرها وتم القضاء على الأرستقراطية ولا يمكن لها العودة للتمتع بالمزايا العسكرية التي كانت لها قبل ذلك. ورغم هذا لا بد من الحفاظ على

موارد الدولة وعدم التبذير فى إتفاقها ويجب مراقبة القائمين على جباية الضرائب. كما ينصح المنصور ابنه بأن يعمل ما وسعه على الإبقاء على الخليفة هشام الثانى الذى يعتبر الغطاء الخارجى وألا يخشى شيئاً فى هذا المقام لكنه يجب أن يراقب ويحذر النّلة المحيطة بالأمير التى قد تحاول الافادة من قربها منه. وقد اتسمت فترة حكم عبد الملك بالقوة والتماسك إذا ما حافظ على الوصايا ونفذها وهى تلك التى أقسم على الوفاء بها أمام العاهل حامل لقب الحكم لكن بشرط أن يظل مبعداً عن الإدارة العامة للدولة كما تسير الأمور الآن. وأخيراً يجب على عبد الملك أن يعامل أخاه عبد الرحمن برفق - فهو شقيق أصغر من عبد الملك سناً وشأناً - وعليه أيضاً أن يترفق بأتباع العامريين الذين كانوا أمناء مع هذا البيت وأن يوليهم المناصب الحساسة سواء فى قرطبة أم على الثغور المجاورة لأسبانيا المسيحية.

تلقى عبد الملك هذه الوصية وترك أخاه الأصغر ليقوم بباقى المهام المتعلقة بوفاة والده. وبعد أن يتم وضع الجيش فى المؤخرة، وعاد مسرعاً إلى قرطبة ليحصل على تصديق هشام الثانى على أن يخلف والده المنصور. وقد أحدثت وفاة الدكتاتور رد فعل واسع المدى بين سكان العاصمة وارتدت النساء فى المدينة الزاهرة، الحرائر منهن والأماء، ملابس الحداد. فتركن الملابس الزاهية وارتدين الملابس الصوفية الخشنة. أما فى قصر الخلافة فقد ظن القادة الصقالية والمروانية أن آمالهم على وشك أن تتحقق لكنهم سرعان ما رأوا هذه الآمال وهى تتحطم. إذ سارع هشام الثانى، الذى كان يفضل العيش فى سلام على أى شئ آخر، باستقبال عبد الملك وسلمه مرسوماً يخوله نفس الصلاحيات التى كانت لوالده. وطلب منه أن يعمل على الحيلولة بون إراقة الدماء. وقد أعلن المرسوم على الملأ وقرئ من منبر المسجد الجامع. أما الفتية الذين تهوروا واتخذوا مواقف معادية للوصى الجديد فقد أبعادوا إلى سبته. ويمكن أن تقول بإيجاز إن عملية نقل السلطة تمت بون عقبات تذكر وحظيت بصعود نجم العاهل الأسمى وعندما وصل موالى العامريين إلى العاصمة ترافقهم قوات باقى الجيش لم يجدوا ما يستدعى التدخل.

يبدو أن عبد الملك قد أظهر شكره لهشام الثانى على تسهيل مهمة نقل السلطات إليه بعد وفاة والده فأحسن معاملته ورعايته بأفضل مما كان عليه المنصور فكان يدعوّه إلى بعض الحفلات التى كانت تقام فى مقر الزاهرة رغم أنه كان يجعله يعبر شوارع قرطبة متخفياً بالسير فى الشوارع الخالية من المارة. فأفضل شئ هو أن يعيش الغطاء الخارجى فى لهو وأن يكون بعيداً عما يصبو إليه ما أمكن، كما عمل عبد الملك على

كسب وُدّ نساء القصر، وإذا ماكان لنا أن نأخذ برواية ابن حيان فإن هذا العالم الصغير الذى يعيش بعيدا عن قرطبة سواء فى قصر الخلافة أم فى المدينة الزاهرة يقضى العام كله وهو يمارس هوايات صبيانیه، فألى جوار الخليفة الذى كرّس وقته للعبادة نجد هناك مجموعة من الأتباع الذين يحملون أسماء غير شائعة مثل عبد النور وعبد المنعم وحزب الله وياسين. كما أن الأميرات تهفو أنفسهن إلى كل ما هو غريب مثل قيام بعض تجار التحف بجلب لوح خشبى قبل إنه جزء من سفينة نوح وباع اللوح لهن بسهولة؛ أو حافر حمار عزيز^(١٠١). ومن أجل الحصول على كل هذه التحف لم ييخل عليهن السيد الجديد ببعض من موارد الدولة.

سوف تعيش قرطبة فى هذه الفترة حالة بذخ لا حدود له فالصباغون وتجار الأقمشة الفاخرة لم يشهدوا قبل ذلك جمهورا ضخما من المشترين مثل مالديهم الآن. وكان عبد الملك أحد الرّواد فى هذا المجال. فقد ظل الناس فى قرطبة يتذكرون رحيله فى بعض الحملات وقد ظهر أمام جمهور فغرفاه وعلا الوجوه الإعجاب وهو يمتطى صهوة جواد أصيل ويرتدى شبكة واقعة صنعت من الفضة المذهبة وغطى رأسه بخوذة ثمانية الشكل ومرصعة بالأحجار الثمينة وفى وسطها ياقوته تتلأأ أما حرسه المحيط به فلم يكن أقل مما عليه سيده ورغم مظاهر البذخ تلك نجد أن خليفة المنصور يعرف كيف يظهر تواضعه فى الوقت المناسب بزيارة المتصوفة الذين يعيشون حياة الزهد^(١٠٢) ويسكنون المقابر. أو الاهتمام شخصا بحالة السجون والتأكد بأن لا أحد من المساجين قد ترك فى غياهب السجن طوال عمره. ثم نجده يحذو حذو والده فى الميدان الثقافى رغم أنه أقل منه قامة بشكل واضح، إذ ظل على ما كان عليه والده فى دفع أرزاق الشعراء والأدباء وكذلك علماء الفلك ومحترفو لعبة الشطرنج المحيطين به. إلا أن عبد الملك ظل رغم كل هذا، بتربيته وميوله، جنديا. فلا نكاد نجده سعيدا إلا وهو فى رفقه ضباط كتائبه وهم فى أغلبهم من المسيحيين أو البربر الذين شاركهم الشراب فى العديد من المناسبات وكان الخمر يسيطر عليه - طبقا لأحد مورخى سيرته - فينخرط فى اللهو ويخرج عن وعيه^(١٠٣) كان الناس يعرفون ذلك لكنهم يتغاضون عنه ذلك أن الدكتاتور الشاب قد راعى عندما تولى مقاليد الحكم القيام بتخفيض سدس الضرائب التى يجب على رعايا المملكة سدادها.

كان إلى جوار عبد الملك شخصان يحتلان فى البداية أعلى المراكز فى الدولة. ولم يكن لأخيه الأصغر عبد الرحمن إلا دور غير واضح. هاتان الشخصيتان هما الفتى الصقلبى «طرفة» والوزير العربى، عيسى بن اليعسوى المشهور بـ «ابن القطاع»

كلاهما كان صنيعة المنصور، لكن صلات القرابة التي تربطهم بالأسرة العامرية لم تحل دون قيامهم بتدبير بعض الدسائس ضد من يمثلهم محاولين الإطاحة به. ---

كان «طرفة» أحد القادة السبعة «الفتى الكبير» من الصقالبة الذين أعلى العامري من شأنهم بين ذويهم من السلافيين وهم الذين كان يطلق عليهم «خليفة». فبعد أن قام المنصور، في بداية عهده، بتحييد نشاط الفتية التابعين للحكم الثانى وجد نفسه مضطرا إلى اللجوء لخدمات بعضهم لحراسة مقره الجديد فى الزاهرة، ثم أخذوا يترقون فى مناصبهم شيئا فشيئا، وعندما جاء عبد الملك زاد من أعدادهم (١٠٤) وخصص لهم رواتب مجزية، كما كانت هناك بعض الشخصيات الأخرى من الصقالبة الذين أوكلت لهم مهام سياسية من الطراز الأول ومنهم وديع قائد منطقة الثغور الوسطى، وهو الذى تحدثنا عن نشاطه العسكرى فى المغرب؛ كما نجد أيضا زهير أو خيران أومشاهد. وهذا الأخير هو الذى أنشأ فيما بعد الإمارة البحرية فى دانية Denia جزر البليار. وأخذت هذه الأرستقراطية السلافية التى إستعادت وضعها، تلعب دورا نشطا تمثل فى محاولة القضاء على النفوذ الذى أخذت تستعيده - رويدا رويدا - بعض الأسر ذات الأصول العربية والتى كان معظم أفرادها يعملون فى وظائف إدارية رفيعة. إلا أن طرفة رئيس الصقالبة العامريين تجاوز حدوده إذ بعد حصوله على درجة «حاجب» التى منحها له عبد الملك أخذ يتصل ببعض المتأمرين الذين كان من بينهم عبد المالك بن إدريس الجزيرى (١٠٥) ورتب خطة تآمرية لسنا ندرى الكثير عن تفاصيلها وفى اللحظة المناسبة تم الإبلاغ عنه. فأبعد إلى ميورقة، ونفذ فيه حكم الإعدام بعدها بوقت قصير. أما الرجل الثانى فهو عيسى بن سعيد الذى لم يستطع هو الآخر مقاومة إغراء التآمر على ابن المنصور الذى يدين له بكل شئ. كان عربيا من أصل متواضع، إذ كان والده معلما وقد شغل فى عهد المنصور بعض المراكز الهامة وجمع ثروة ضخمة. ووكّله عبد المالك بالإشراف على إدارة الدولة ومنحه درجة وزير كما زوج عبد الملك إحدى بناته لابن عيسى. لكن سرعان ما اكتشف ابن القطاع أن السيد الجديد لأسبانيا الإسلامية ليس مثل أبيه، فأخذ يميل إلى توجهات بعض الأرستقراطيين فى قرطبة وهم بنو خضير وبنو فطيس واتخذ موقفا فيه استقلاليه كاملة وأخذ يلاحق الصقالبة ويعمل على أن ينضم إلى صفوف الجيش بعض القيادات العربية. ولما كان عبد الملك يثق فى وكلاته لم يعر أذنا صاغية للشكاوى التى تقدم ضد الوزير، لكن والدته «الدلفى» فطنت لما يحدث وسرعان ما توافرت لديها الأدلة التى تقول بأن عيسى يحاول القيام بعملية انقلابية. وعندما أدرك الوزير الخطر المحدق به أزاح القناع من على وجهه واتضح معالم المؤامرة: القضاء على عبد الملك وعلى هشام الثانى فى وقت واحد وأن يحتل

عرش الخلافة أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر والذي يدعى هشام بن عبد الجبار؛ إلا أنه كان في حاجة لمزيد من الوقت حتى ينفذ خطته. فتم اغتياله على يد رجال من العامريين في قصر عبد المالك نفسه وفي حضوره وذلك في اليوم الرابع من ديسمبر ١٠٠٦م (١٠ ربيع الأول ٣٩٧هـ) وبعد ذلك بثلاثة أيام تم القبض على المتآمر المرواني وحبسه في غياهب السجن في قرطبة حيث مات إما جوعاً أو خنقاً^(١٠٦). وبعد قليل من عودة عبد الملك المظفر من حملة على كلونيا طلب من هشام الثاني أن يمنحه لقب المظفر فأعطى له. وهو اللقب الذي يستخدمه المؤرخون العرب عندما يتحدثون عنه. وكان عبد الملك سعيداً حتى هذه الآونة بلقب سيف الدولة الذي حصل عليه أثناء حياة والده المنصور. صدر مرسوم الخليفة بمنحه اللقب الجديد في أكتوبر ١٠٠٦م (محرم ٣٩٨هـ) ومنح ابنه الشاب أبي عامر محمد درجة «الوزارة المزبوجة»^(١٠٧). لكن المظفر لم يتمتع بهذا اللقب إلا وقتاً قصيراً، فسرعان ما ظهرت عليه أعراض مرض من الأمراض الصدرية أودت بحياته في العام التالي عندما خرج في حملة شتوية ضد سانشو غرثية. ووافته المنية في مكان غير بعيد عن قرطبة وبالتحديد بجوار دير Gua-dalmellato (Armelat)^(١٠٨) يوم ٢٠ أكتوبر عام ١٠٠٨ (١٦ صفر ٣٩٩هـ) ولم يتجاوز عمره بعد ثلاثة وثلاثين عاماً. ويرى بعض المؤرخين - ربما عن حق - أن عبد الرحمن شنجول الابن الثاني للمنصور كان وراء الموت المبكر لأخيه الأصغر^(١٠٩). وعلى أي الأحوال فعندما ذهب المظفر من الساحة^(١١٠) بدأ في أسبانيا عصر الهم والكرب المسمى بـ «الفتنة» وأخذت الخلافة تحتضر.

– حملات عبد الملك المظفر ضد أسبانيا المسيحية :

إذا كان عبد الملك قد أظهر اهتمامه بالاستمرار على خط والده والحفاظ على ما تركه فذلك مردّه إلى النشاط الذي قام به طوال مدة حكمه القصيرة ضد المسيحية الأسبانية. إذ استطاع - ولعدة أعوام - أن يحتفظ لقرطبة بهيمنتها العسكرية على الممالك المسيحية التي أضعفتها الصراعات الداخلية وأصبحت غير قادرة على التلاحم فيما بينها لمواجهة عدوانية أعدائها التقليديين.

كانت وفاة المنصور خبراً له وقعته الشديد سواء في أسبانيا المسيحية أو المسلمة، فلن تعاني ليون وقشتالة ونبيرة وياقي الثغور من وقع الضربات التي كان يكيلها لهم المناوئ الجري الذي يمثل المسلمين. وبعد أن ذهبوا بالعامري «ودفنوه في الجحيم» - طبقاً لعبارة^(١١٩) وردت في أحد كتب التاريخ باللغة اللاتينية نجد أن

التحالف الذي أنشأه الكونت سانشو غرثيه يعود للظهور من جديد والقيام بهجوم على الحدود الأندلسية. لكن الأحداث لم تسر كما تتصور وربما كان لشهرة عبد الملك العسكرية دخل في تخوف بعض الممالك في الشمال من القيام بهجوم عندما علمت أنه تولى السلطة بعد أبيه. والاستثناء الوحيد نجده في مسلك كونت برشلونه الذي كان قد وقع هدنة مع المنصور منذ وقت قصير. فظن نفسه قادرا على إلغائها والقيام بهجوم على الأراضي الإسلامية المجاورة. أما سانشو غرثيه فقد قبل التفاوض كوسيلة لوقف الاعتداءات وتفاوض مع وديع قائد مدينة سالم. أما الكونت منتدو غونثاليث الوصي على الملك الشاب ألفونسو الخامس ملك ليون فقد تشكك عبد الملك في نيته وأرسل جيشه متجها إلى قلمرية Coimbra لتهديد أراضي جليقية والحيلولة دون وقوع هجوم مسيحي على الثغور الجنوبية للأندلس. وانتظر عبد الملك تحسن الأحوال الجوية حتى يذهب لتأديب كونت برشلونه لخرقه معاهدة السلام.

جاءت الحملة التي سيرها العامري الثاني ضد قطلونية Catalunya في صيف عام ١٠٠٢م (٣٩٣هـ) بعد أن أحسن الأعداد لها واستدعى من يريد التطوع للمشاركة في الجهاد وفي السابغ عشر من شهر يونيو (الثالث عشر من شعبان) خرج من قرطبة مارا بطيطة وحل بمدينة سالم حيث انضمت إليه القوات الأخرى من المسيحيين والتي بعث بها إليه سانشو غرثيه وفاء الأحد شروط المعاهدة التي تم توقيعها مؤخرا مع قشتالة^(١١٢). كما رافقه أيضا القائد وديع متوجها إلى سرقسطة وإليدا Lérida بغية الهجوم على الثغور الأسبانية من الناحية الغربية واجتياز جبال قطلونية وصولا إلى السهول المحيطة ببرشلونة.

كانت بعض الحصون هي الأهداف الأولى لعبد الملك وهي: حصن موما قصر Mumaqasr وحصن مادانيش Madanich وقد تم تحديد مكان هذين الحصنين مؤخرا بطريقة تدعوا للعجاب^(١١٣) إذ هما في مكانين يقعان جنوب سلسلة جبال Montsech يفصل بينهما نهر نوغيرا باياريسا Noguera pauresa وتسمى القرية الأولى مون ماستري أما الثانية فهي ميا Meyá. استولى وديع - نون عناء - على الحصن الثاني أما العامري فقد استولى على الحصن الأول وذبح الحامية المسيحية الموجودة. وواصل زحفهما نحو الشرق حتى وصلا إلى قشتيولي Castelloli القريبة من إيغوالادا Igualada ومن مئريسه Manresa قبل أن يتم إصدار الأوامر للجيش بالتقدم نحو لاردة. ثم غادر هذه المدينة يوم الخامس من سبتمبر (٥ ذي القعدة) عائدا إلى قرطبة وكان قد أرسل قبل عودته رسالة موجهة إلى هشام الثاني يبلغه فيها بنتائج

الحملة الأولى التي أشارت إليها المصادر المسيحية ولو بشكل موجز^(١١٤). وطبقا لابن حيان فإن بوريل الثالث كونت برشلونه عرض على عبد الملك بعض مقترحات السلام من خلال سفارة بعث بها إلى قرطبة. استقبل أعضاء السفارة وأجرى عرضا عسكريا لاستعراض القوة، وهذا النوع من الوقائع حدث لآخر مرة في قرطبة وقد شهد بعض التجار من المصريين والعراقيين الذين قدموا إلى أسبانيا بغرض التجاره مظاهر الأبهة في الخلافة وحملوها كذكريات ارتسمت إلى الأبد.

تم الاتصال بعبد الملك عام ١٠٠٤م (٣٩٤هـ) ليقوم بدور الحكم في مشادة وقعت بين كونت قشتاله غرثية سانشيث، ومنذيث غونثاليث الوصى على الملك الشاب ألفونسو الخامس ملك ليون الذي لم يبلغ العاشرة بعد. ولما كانت أمه «البيرة» أختا لسانشو غرثيه فإن الكونت القشتالي أراد أن يزيح الكونت الجليقي ويمارس هو باسم أخته وصايته على مملكة ليون. وللخروج من هذه الأزمة أرسل إليهما العامرى بقاضى أهل الذمة في قرطبة والذي يدعى أصبع بن عبد الله بن نبيل. وقد حكم لصالح منذيث غونثاليث^(١١٥) فظل الكونت الجليقي وصيا على وريث عرش ليون الشاب حتى اغتياله عام ١٠٠٨م (٣٩٨هـ)

ويشير ابن حيان باقتضاب إلى إحدى الصوائف التي وقعت في العام نفسه ١٠٠٤م (٣٩٤هـ) قام بها عبد الملك ضد سانشو غرثية حيث طافت القوات الإسلامية بأراضى ذلك الأخير دون أن تجد أية مقاومة. وربما كان سبب هذه الحملة غضب سانشو غرثية من الحكم الذي قضى به القاضى فنقض عهده مع الأندلس. لكنه لم يتأخر كثيرا في طلب تجديد العهد، ولهذا ذهب بنفسه إلى قرطبة ووعد بأن يشارك في الحملات المقبلة التي قد يسيّرهما عبد الملك ضد مملكة ليون أو ضد أملاك مناوئيه من بنى غومث دى كاريون. وبالفعل نجد أنه في عام ١٠٠٥م (٣٩٥هـ) سير الدكتاتور العامرى إحدى الصوائف على الحدود الجليقية وانضم، في طيطة، إلى وديع وسانشو غرثية ثم اتخذ طريقه نحو الشمال الغربى. وأرسل بقائده السلافى لتدمير إقليم سمورة ذلك أن المدينة كانت لا تزال على حالة التهدم منذ عام ٩٨١م (٣٧١هـ) التي ألحقها بها جيش المنصور. وأخذ يتوغل نحو الشمال والوديان الليونية حتى وصل عبد الملك وسانشو غرثية إلى قلعة اشتهرت بأنها محصنة تحصينا شديدا وهى قلعة لونا Luna^(١١٦) الواقعه على النهر الذى يحمل نفس الاسم وهو أحدروافد نهر أوربيغو Orbigo. ولا يبدو أن هذا التوغل الجرى في أراضى مملكة ليون كان الهدف منه تحقيق مكاسب مادية بالنسبة للقائد المسلم. فمنذ زمن طويل لم يتوغل جيش إسلامى بهذا الشكل فى سلسلة جبال كنتبريا Cantabria.

وفى صيف عام ١٠٠٦ م (٣٩٦هـ) سیر عبد الملك حملة أخرى كان هدفها بنبلونة طبقا للمؤرخ ابن عذارى؛ لكن المسار الذى اتخذته هذه الحملة يجعلنا نظن بأن مملكة بسكونية لم تكن هى المقصودة بالهجوم إذ أن العامرى توجه أولا إلى سرقسطة وبعد ذلك إلى وشقة Huesca وبيشتر Barbastro ليتوغل بعد ذلك فى أراضى العدو، وهدم حصن ابينيوanas Abinyunash وهدد بلدة أخرى اسمها شنت يوانش San Juan ورغم أنه من الصعب حتى اليوم تحديد هذين المكانين جغرافيا فإن هناك قرية تسمى بهذا الاسم إلى الشرق من بويانيا Ballania ومن المحتمل أن يكون الهجوم الذى وقع عام ١٠٠٦ كان موجها إلى المنطقة المستقلة ريباغورثا Ribagorza الواقعة شمال شرق بلدة بيبشتر. وفى هذه المرة تعرضت بلدة روضة Roda الواقعة فى وادى نهر إيسابينا Isabina للاحتلال الإسلامى ولو بشكل مؤقت (١١٧).

حظيت الحملة الصيفية لعام ١٠٠٧ م (٣٩٧هـ) باهتمام مورخو سيرة عبد الملك إذ يرونها على أنها أكبر الحملات التى تمت فى عهده فقد نال بعدها لقب «المظفر» إلا أننا نجهل تفاصيلها وكل ما نعرفه هو أن الجيوش القرطبية ربما قامت بمواجهة تحالف مسيحي يقوده - كالعادة - سانشو غرثية الذى استعاد قدرته على الحركة من جديد بعد ثلاثة أعوام من الهدنة. وأن هذا الكونت القشتالى تعرض لهزيمة نكراء على أرضه كما أن بلدة كلونية الواقعة على الجانب الآخر من نهر الدويرة قد تم الاستيلاء عليها ونهبها من جديد. وبالرغم من هذه النتائج وجد عبد الملك نفسه مضطرا لحمل السلاح ضد قشتالة بعد عودته إلى قرطبة بوقت قليل، أى خلال خريف العام نفسه (صفر ربيع الأول ٣٩٨هـ) إلا أنه يبدو أن حملته اقتصر على حصار قلعة فى شنت مارتين والاستيلاء عليها. وربما كان ذلك المكان هو المعروف الآن بـ شنت مارتين دى روبالس S.M.D. Rubiales الواقع يمين نهر الدويرة أى بين روا Roa وبينيا فييل Peñañiel إلا أن هذا الانتصار لم يثر الطمأنينة على كافة الحدود الوسطى، إذ ظل سانشو غرثية على سياسته العدوانية فما كان من المظفر إلا مهاجمته مرة أخرى فى بداية صيف عام ١٠٠٨ م (شوال عام ٣٩٩هـ) وكانت نتيجة المعركة فى رأينا هزيمة المظفر ذلك أن المؤرخين المسلمين أوعزوا ماحدث إلى مرضه وعدم التزام بعض الجند بالأوامر. وعاد إلى قرطبة فى سبتمبر من العام نفسه (المحرم) بعد أن قضى فترة طويلة دون القيام بأية أنشطة عسكرية تذكر وبقي مرابطا فى مدينة سالم، وقرر بعد ذلك بشهرين القيام بحملة عسكرية أخرى لمحاربة قشتاله. وقد رأينا أن المنية وافته وهم فى بداية الطريق إذ كان يعانى من مرض فى صدره. وكانت الظروف التى أحاطت

بوفاته غامضة للغاية. وعلى ذلك فإن التهديد الذى ظل يمثله الإسلام بالنسبة للمسيحية الأسبانية سوف يظل المتأمر ضده قائما لمدة طويلة.

يقص ابن حيان أنه فى عام (١٠٠٦م - ١٠٩٦هـ) عندما كان عبد الملك متواجدا فى مدينة سالم التقى به سفير بيزنطى سلمه رسالة من الأمبراطور باسيليوس الثانى (١١٨) وأنه جاء إلى أسبانيا ببعض رجال البحرية الأندلسيين الذين تم أسرهم على سواحل جزيرتى سردينيا وكورسيكا. ومن المحتمل أن هذا الرسول جاء فى مهمة تبادل الأسرى أو أنه كان يريد من الدكتاتور القرطبى، إصدار الأوامر بمنع مواطنيه من سكان المناطق الساحلية من ممارسة أعمال القرصنة فى البحر المتوسط. وعلى أى الأحوال يبدو لنا أن هذه هى المرة الأخيرة التى يمثل فيها سفير بيزنطى أمام رئيس دولة إسلامى فى شبة الجزيرة الأيبيرية.

هوامش الفصل السادس :

(١) المصانير العربية: بالإضافة إلى «النسخة» المتداولة قليلا من المقتبس لابن حيّان والخاصة بوضع ستوات من ولاية الحكم الثنائي والمحقوقة في الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد (أما النسخة الأصلية التي كانت موجودة في القسطنطينية - الجزائر - فيبدو أنها فقدت ويمكن الرجوع لابن عذاري في كتابه البيان الجزء الثاني من ٢٤٨-٢٦٩ من النص الأصلي - وابن الخطيب «أعمال» من ٤٧-٤٨ - وابن خلدون «العصر» من ١١٤-١٤٧ - وابن الأثير «الحلة» من ١٠١-١٠٥ - والتويري «تاريخ أسبانيا» من ٢١٦-٢١٧ من النص الأصلي والمقرى «الحواشي» الجزء الأول من ٢٤٧-٢٥٧

وانتظر القهرست أيضا.

المصانير غير العربية :

- Dozy Hist. Mus. Esp. II. págs 176- 99; los trabajos de CODERA agrupados en Est. crit. hist. ár. esp. (IX) pags 151. 263 (vease infra, ns 15. 16 y 17 de este capítulo): Lévi Provençal Esp. Mus. X. saiecle passim.

(٢) تجتينا - عمدا - الحديث بالتفصيل عن الأمير الأدبي وهاري جمع الكتب. وسوف نتناول هذا الجانب من حياته وكذا إسهامه في تطوير قرطبة قنّا في مكان آخر.

(٣) Cf supra من ٢٢٦-٢٢٧.

(٤) ليقي بروقتسال «أسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر الميلادي» من ١٦٨ ورقم ١. انتظر أيضا الشقندي في «الرسالة».

(٥) انتظر دوزي «التويرمانيون في أسبانيا» الجزء الرابع - غزو ٩٦٦-٩٧١ في - Rech. II pags 286-290.

(٦) قام المؤرخ كوديرا Codera بنشر قائمة الفصول للخاصة بهذا الجزء من المقتبس في «مكتبة ورثة سيلبي» حمودة في القسطنطينية apud B.R.A.H., XIII 1888 pags 53- 61.

(٧) للحصول على رؤية شاملة وعمامة لحياة المصحف انتظر ليقي بروقتسال - أسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر من ١-٩.

(٨) ربما أمكن لنا أن نربط عادة وضع أسماء مذكورة لبعض الجوارى في القصر بوجود بعض الغلاميات بين الحريم الملكي. انتظر في هذا المقام دوزي Suppl. Dict. arabes II pag 225 وبالتسبة «الجعفر» كاسم حربي أطلق على صبيح. وهي تسمية تفسر لنا كيف أن عقاء أم الولد هذه كانوا يحملون لقب الجعفرى - انتظر أيضا دوزي تاريخ أسبانيا الإسلامية الجزء الثاني من ١٩٩ عدد ٢ - وهناك شيء من الحقيقة فيما أورده مؤرخ إسلامي (المقرى - الحواشي الجزء الثاني من ٥٩) يشن «حب الولد» عند الحكم الثاني قبل توليه الحكم. وعلى أي الأحوال قلنا لم يهتم بهذا الأمر إلا بعد توليه الحكم ليخلفه على الكرسي فهل يمكن الاعتقاد - طبقا للمؤرخ - بأن الممارسة الدائمة لتلك العادة التي كانت شائعة في أسبانيا على مر العصور.

هي التي أدت إلى تأخر وجود ولد للحكم الثاني؟ ومع هذا انظر ابن حزم في طوق الحمامة ص ٦ حيد
تحدث عما كان يشعر به الخليفة من ولع وشغف بمحظيته صبح.

(٩) أورده المقرئ في نفح الطيب الجزء الأول ص ٢٥٢ - ٢٥٦ وترجمة بوزي.

(١٠) يذكر بن الفريسي بشكل عابر غزوة أطلق عليها «غزوة الدور» كان على رأسها الحكم الثاني ووقعت عام
٩٦٦ م (٢٥٣هـ) والتي مرّ أثناءها بمدينة Sidona - شنونه ومن الصعب فهم المقرئ من تلك الحملة فهل
كان الهدف هو السيطرة على بعض جيوب الأنشقاق داخل المملكة أم كان الهجوم على النقاط المتقدمة
نحو الجنوب والتابعة لجبيلية الليونية؟

(١١) ابن خلدون - العبر الجزء الرابع ص ١٤٥ وأورده المقرئ في نفح الطيب Analectes الجزء الأول - ص
٢٤٨. وبعد ذلك مباشرة قام والي Huesca المسلم بحملة على حصن جبرة Yebra (يقرأ في النص
العربي: حصن جبّة) وهي بلدة تقع في داخل التقسيم الإداري لـ Jaca في الجنوب الشرقي لهذه المدينة.
وأسفرت الغارة عن الحصول على غنائم وفيرة سواء من داخل الحصن أم من الحقول المجاورة.

(١٢) تم استعادته غورماج من أيدي المسيحيين في ٧ يوليو عام ٩٤٠م وذلك طبقا للحوليات (Huici, Crom.
lat de la Reconquista I, pag 42) Complutenses من أثريا قد درس أثارها من قبل بعض المتخصصين.

- Isidro GIL, Gormaz, en Arte Español, I, Madrid, 1913, paginas 408y sigs. ; Narciso SENTENACH, Gormaz : estudio histórico-arqueológico, en B : R. A. H., LXXX, 1922, págs. 53-68, y últimamente, Juan Antonio GAYA NUÑO, Gormaz, castillo califal, en Grónica arqueológica de la España musulmana, apud Al-Andalus, VIII, 1943, págs. 431-50 (Con buenas fotografías), — Un fragmento de la inscripción conmemorativa de la restauración del castillo de Gormaz, por orden de al-Hakam II, ha sido publicada ibid., págs. 450-2, por M. OCAÑA JIMÉNEZ, Lápida árabe de la ermita de San Miguel de Gormaz (Soria).

(١٣) عن الفترة بين مقدم الحكم الثاني إلى كروسي الحكم وبين عام ٩٦٥ م (٢٤٤هـ) انظر ابن خلدون - العبر -
الجزء الرابع ص ١٤٤ [أوردها أيضا المقرئ في الحوليات الجزء الأول ص ٢٤٨] حيث يشير - دونما
تفصيل - إلى هجوم إسلامي على قورية Coria في إقليم برشلونه.

(١٤) بيدال . م. «أسطورة أمراء Lara - (ص ٤٥٤ - ٥) مع إضافات لاحقة.

(١٥) قام بدراسة هذه السفارات التي وردت في المقتبس لابن حيان العلامة.

- CODERA, Embajada de príncipes cristianos en Córdoba en los últimos años de Alhaquem II, en B. R. A. H., XIII, 1888 (artículo reproducido en Est. crít. hist. ár. esp. (IX), págs. 171-205). — Sobre la embajada catalana de junio de 971 (sha'ban 360), véase J. MILLÁS VALLICOSA, Els textos d'historiadors musulmans referents a la Catalunya carolingia, pág. 35 ; el mismo, Assaig d'història

- de les idees físiques i matemàtiques a Calalunya, Barcelona, 1931, pág. 102.
- (١٦) انظر - "Embajadores de Castilla encarcelados en Cordoba," Codera en les ul- times ans de Alhakem II en B.R.A.H. XTV 1889 pags y sigs.
- (١٧) - Codera "Campana de Goraz en el ano 364 H en B.R.A.H. XIV 1889 (Repraduci- do ibid pag 223- 63.
- (١٨) فيما يتعلق بسياسة الحكم الثاني في شمال أفريقيا. نجد أنه بالإضافة إلى المراجع العربية المشار إليها في رقم ١ من هوامش هذا الفصل يمكن الرجوع إلى: ابن عذارى في كتاب البيان الجزء الأول (انظر فهرست الترجمة - وابن خلدون في تاريخ البربر الجزعين الثاني والثالث من الترجمة (انظر الفهارس) - ابن أبي ذرع في روى القرطاس» Passim ويبدو أن تلك المصادر جميعها قد اعتمدت على ابن حيان والذي أورده ليقي بروفنسال.
- Fragments historiques sur les Berbères au Moyen Age, págs. 5-15 Muchos detalles sobre los acontecimientos que mencionaremos, para el período comprendido entre 360 y 364, la Berbers, págs. 334 y sigs. (passim).
- كما أن الكثير من الفقرات الواردة لازالت هناك في الصورة المحفوظة لدى الأكاديمية الملكية للتاريخ في مدريد (انظر أيضا (Passim) GOURNEL, Les Ber bers, pag 334- y sigs
- (١٩) فيما يتعلق بالبرغوات - Cf supra ص ١٦٠ والأشعار الخاصة بالسفير أبو صالح زمور فقد أوردها في الموسوعة الإسلامية الجزء الأول ص ٧٢٤ - ٧٢٥ Basset.
- (٢٠) ابن عذارى - البيان - الجزء الأول - النص ص ٢٣٦ (الترجمة ص ٩٣٣١
- (٢١) «حوقل» «المسالك» الطبعة الجديدة لـ J.H. Kramers, Leyde, 1938 pa 79 cf ALEMANY. La geografia de la peninsula Iberica en los escritores àrabes pag 20.
- (٢٢) Cf supra ص ٣٦٠ عدد ١٢٧.
- (٢٣) المصادر العربية بالنسبة لصغر سن هشام الثاني والدور الذي لعبه ابن أبي عامر حتى عام ٩٨١م فإن المصدر الرئيسي من ابن حيان لابن عذارى - البيان - الجزء الثاني النص - ص ٢٦٩ - ٢٩١ (الترجمة ٤١٨-٤٥٢) إنظر أيضا ابن الخطيب أعمال - ص ٤٩ - ٦٦ - ابن خلدون - العبر - ص ١٤٧ - المقرئ: الحوليات الجزء الأول ص ٢٥٧ وما بعدها.
- انظر أيضا دوزي: تاريخ أسبانيا الإسلامية الجزء الثاني ص ٢٠٠-٢٢١.
- (٢٤) فيما يتعلق بكافة أنشطة ابن أبي عامر نلاحظ أن المصدر الرئيسي هو ابن عذارى في البيان - الجزء الثاني - ص ٢٢٦٧ - ٢٦٩ من النص الأصلي. - أضيف إلى ما سبق النص الذي ورد حول تاريخ العامرين عند ابن حيان والذي ورد إلينا في «النخيرة» لابن بسام الجزء الرابع) وكذا الاشارات الهامة التي وردت في «الأعمال» لابن الخطيب ص ٦٧ - ٩٦.
- انظر أيضا ابن الأبار في الحلة ص ١٤٨ - ١٥٣ - ابن الأثير: الحوليات ص ٢٨٣ - ٢٨٤ - عبد الواحد المراكشي «المعجب ص ١٧ - ٢٨ من النص - وابن خلدون في العبر الجزء الرابع ص ١٤٧ - ١٤٨.

التواريخ: تاريخ أسبانيا من ٢١٨ - ٢٢٠ من النص - المرقى: فتح الطيب الجزء الأول من ٢٥٧ - ٢٧٢ وما يليها - كما أن هنا بعض الطرائف عن ابن أبي عامر وردت في مؤلفين غرناطة خلال القرن الثاني عشر وهما «كتاب المراكبة العليا لابن الحسن النقي» والمختارات مجهولة المؤلف بعنوان «كتاب الزهرة المنيرة في الأخبار المنيرة» (رجع إليها المرقى).

المراجع الأجنبية :

- BIBLIOGRAFIA : DOZY, Hist. Mus. Esp., II, págs. 186-275. Una biografía por LÉVI- PROVENÇAL de Ibn Abi 'Amr figura en la Enc. Isl., III, págs. 269-72, s. v. al-Mansur. Véase también R. MENÉNDEZ PIDAL, España del Cid, I, Págs. 79-80.

Cf. la semblanza de A. J. WENSINCK, en la Enc. Isl., III, pág. 906, s. v. (٢٥)

Cf. la semblanza de M. BENCHENEB, en la Enc. Isl., II, pág. 936, s. v. (٢٦)

(٢٧) أورد دوزي هذه الطرائف في تاريخ أسبانيا الإسلامية من ١٨٦ - ١٨٧ طبقا الرواية «المعجب» العيد الوهاب الراكشي - أيضا في «الأعمال» لابن الخطيب من ٨٩ - ٩٠.

(٢٨) طبقا لما أشار دوزي - نفس المصدر - الجزء الثاني من ١٩١ رقم ١ - فإن اسم عامر ظهر في العملات الخالصة بعهد الحكم الثاني والتي تم صكها اعتبارا من عام ٢٥٦ هـ - إلا أن هذا الاسم سوف يظل أيضا في نفس المكان على العملات التي تم صكها بعد ذلك حتى عام وفاة المنصور - فعلى سبيل المثال تجده في درهم يعود إلى عام ٢٩٢ هـ (عام ١٠٠١ - ١٠٠٢ م) محفوظ في متحف الآثار بمدريد - Cf. J. De la RA- DAY DELGADO, Catalogo de minedas arabigas espanolas- Madrid 892 pag 56.

(٢٩) ابن عثاري - البيان - الجزء الثاني من ٢١٨ من النص - انظر أيضا المرقى في الحواريات من ٦١ و Cf M. Pidal : Historia y epopeya pags 19, 18.

(٣٠) هي عبارة عن فتح من قبائل بربر إفريقيا من بني معمور Dammur والتي قامت بتزويد ميليشيات الحكم الثاني بالعداد كبيرة وقد رافق هؤلاء الجنود جعفر بن علي بن حمرون عندما عبر إلى أسبانيا. أما بنو برزال فقد أسسوا خلال النصف الأول من القرن التاسع - كما سنرى في حينه - أسره في قرمونة - Car - انظر ابن خلدون : تاريخ البربر الجزء الثالث من ٢٩١ - ٢٩٢ mona.

(٣١) الأعمال من ٥٦ - ٦٥ - نجد في نفس المؤلف من ٥٦ - ٥٦ حيث يقوم ابن الخطيب بإيراد فقرة مطولة عن الوضع الاجتماعي في قرطبة عند وفاة الحكم الثاني؛ ويقوم في هذه الفقرة بتصنيف سكان العاصمة إلى ستة صفوف وقد قلم H. Péres يشرح هذه الفقرات مرتكيا بعض الأخطاء الخطيرة في مؤلفه من ١٧ - ملاحظة ٢ Poesie Andalous.

(٣٢) طبقا لابن الخطيب «الأعمال» - من ٦٨ - فإن عليا تقوم في النص قد تصحوا المصحف أن يقوم بتدمير الجسر الذي يربط بين شاطئ نهر الذي أنه يقية الحقل على أمن الأراضي القرطبية. فأي جسر كان ذلك لا تجد ما يساعدا على تحديده.

(٢٣) لازالت النقطة المرتفعة في هذه السلسلة الحياتية تحمل اسم «محطة العري المتصور».

(٢٤) ابن عتاري - البيان الجزء الثاني ص ٢٨٤ من النص.

(٢٥) نفس المصدر ص ٢٨٥]

- (No hay biografía de Asma' en la Takmila de IBN AL'ABBARI, por lo menos en el suplemento publicado en 1915 en la Miscelánea de estudios y textos árabes); MAQQARI, Analectes, II, pág. 62. Las principales noticias sobre Asma' nos las da IBN 'ABD AL-MALIK AL-MARRAKUSHI, al-Dhayl wa-Takmila, V (ms. de Rabat), pág. 246. Por ellas sabemos que, antes de ser esposa de Ibn Abi 'Amir, la hija de Galb estuvo casada con el visir 'Abd al-Rahman ben Musa ben Hudayr, que la repudió viviendo todavía al-Hakam II. El biógrafo añade que, durante toda su vida, Almanzor no se separó nunca de Asma', que era mujer culta y particularmente inteligente.

(٢٦) لا تعرف عنها إلا القليل - ابن عتاري: البيان الجزء الثاني ص ٢٨٥ من النص يقتصر هذا المؤلف على الإشارة إلى أن ابن أبي عامر أخذ طريقه إلى طليطلة يوم ١٨ / ٩ / ١٧٧ (نول صفر ٣٦٧ هـ) اجتمع بغالب وإتجه كلاهما إلى شلمنقة حيث قاما باحتلال أرياضها بعد الاستيلاء على حصن المال و Zn.b. (لم يتم تحديد مكانها) وكانت هذه الحملة قصيرة حيث عاد ابن أبي عامر إلى قرطبة بعد أربعة g. وثلاثين يوما.

(٢٧) سوف نعالج لاحقا ذلك الموضوع.

(٢٨) أورد ابن القزويني هذه الإشارة التاريخية المحدث في كتابه «تاريخ» عدد ٨٢١ - أيضا أسين بلاثيوس في «ابن مسرر ومدرسته» ص ٩٥ - وفيما يتعلق بهذه الشخصية فقد أورد ابن حزم في طوق الحمامة ص ٤١ - ٤٢.

(٢٩) طبقا لما فهمناه من بيت من الشعر الهجائي ورد في ابن حيان من خلال ابن عتاري في كتاب البيان الجزء الثاني - ص ٢٠٠ من النص - والمقرى نقح الطيب Analectes الجزء الأول ص ٢٩٦ - ابن حزم : طوق الحمامة ص ٢٥ وقد أورد طرفة مفادها أنه قد قدمت للمتصور إحدى المغنيات التي كان يريد الحصول عليها وطلب منها أن تبرز مواهبها فبدأت إتشاد بعض الأبيات الغزلية التي تتحدث عن صبح. فاستاب القصب الدكتور وأمر بضرب عنقها في الحال.

(٤٠) المقرى - الحواشي الجزء الثاني ص ٥١ - نوزي: تاريخ أسبانيا الإسلامية الجزء الثاني ص ٢٢٦.

(٤١) ليثي بروقتسال: أسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٤٢) أخبار حول المنيعة الزاهرة أوردتها ليثي بروقتسال في الموسوعة الإسلامية الجزء الثالث ص ٩٥ والتالية.

(٤٣) ليثي بروقتسال: شبه الجزيرة الأيبيرية ص ١٠٠، ١٠١.

(٤٤) نفس المصدر ١٠١ - ١٠٢.

(٤٥) ما يقوله ابن عذارى فى البيان الجزء الثالث ص ١٢ من النص يتحدث عن المنصور (مات من يهنا معشر العبيد)

(٤٦) الأعمال ص ٧١.

(٤٧) ربما كانت الشخصية - التى هى من مواليد سرقسطة - من التوجيبين. وقد أثار بعض المتابع أثناء خلافة الحكم الثانى إذ إنتقل إلى معسكر البشكنس والقشتاليين وساعدهما على معرفة بعض النقاط الضعيفة التى أمكن المرور منها ودخول الأراضى الإسلامية. وفى النهاية هزم وأسر بواسطة - حاكم لاردة رشيق البراغواته وذهبوا به إلى أحد سجون قرطبة عام ٩٧٥م وخرج منه فى العالم التالى ومنذ ذلك الحين أصبح من أشد أنصار ابن أبى عامر (ابن عذارى البيان، الجزء الثانى ص ٢٦٥ - ٢٦٦ من النص.

(٤٨) لم يرد التاريخ إلا فى «الأعمال» لابن الخطيب وهذه الرواية (ص ٧١ - ٧٤) تشير بإسهاب إلى اللقاء المسمى شنت بشنت وبالنسبة للتاريخ الخاص بذلك انظر Codera فى B.R.A.H. XXX11 1898 pa 101.

(٤٩) «الأعمال» ص ٧٥: الأحبب الملعون - ثم نعت ابن أبى عامر بالأحبد فى إحدى القصائد الهجائية للدريسي إبراهيم بن إدريس - والتى قام دوزى بترجمة جزء منها «تاريخ أسبانيا الإسلامية» الجزء الثانى ص ٢٤٢، كما أورد ذلك ليفى بروفنسال au Fragments Historiques sur les Berberes au moyen age pag 21 ويبدو أن هذه الإشارة التى وردت فى أكثر من مصدر تؤكد على أن المنصور 21 كان أحبد رغم أن دوزى (نفس المصدر رقم ١) لا يرى فى ذلك إلا نوعا من اللعنة. أما الأخبار العربية فلم تورد لنا أى وصف للهيئة الجسدية التى كان عليها الحاجب رغم أن البعض كان يشير إليه بعبارة موجزة «هو رجل وسيم» ويستترعى انتباهنا أيضا أن ابن حزم تحدث فى موضعين من «طوق الحمامة» ص ٦٩، ١٢٥ عن الوجه الوسيم للمنصور وما كانت تشيعه نظراته من شغف لدى القرطبيات.

(٥٠) وتشير سيرة «أسماء» التى أوردها ابن عبد المالك المراكشى إلى أن ابن أبى عامر أمر بأن يأتوا إلى قرطبة برأس غالب وبلغت به القسوة أن قدمها إلى ابنة القائد العجوز لكن لم تبد عليها علامات التأثر وأظهرت نفسها كزوجة طيبة وكواحدة من أنصار النظام القائم وحمدت الله على هذه النهاية التى أصبح عليها والدها الذى تحول إلى متمرّد. وأيا كان هذا الخبر، حقيقيا أو ملفقا، إذ هو ملمح أسبانى أصيل ربما كان قد حدث وكان مصدر إلهام للشاعر المسرحى لوبى دى بيجا.

(٥١) وحتى لا نتحدث عن شعبية إسم المنصور فى أسبانيا المسيحية نشير إلى F. Lot y Ganshof : Hist. du Moyen Age, de Glotz I pag. 768 y n 19 كما أن هذا الاسم أصابه بعض التحريف وأصبح فى فرنسا الاسم الذى يطلق على أى قائد عربى.

(٥٢) وطبقا لابن أبى زرع فى «روض القرطاس» فإن المنصور قرر عام ٩٩٢م (٣٨٢هـ) الأيو وضع ختم هشام الثانى المؤيد على المكاتبات الرسمية وألا تحمل اعتبارا من ذلك التاريخ إلا ختمه. ويضيف نفس المؤلف أن المنصور تلقب منذ هذه اللحظة بـ المؤيد، وهو خبر لم تؤكد أى من المصادر الأخرى.

(٥٣) أشار دوزى فى «تاريخ مسلمى أسبانيا الجزء الثانى - ٢٥٤ - ٢٥٥» إلى التفاصيل الكاملة لهذا الموضوع نقلا عن المقرئ نفح الطيب الجزء الثانى ص ٦٤ وهذا الأمير يقوم بتلخيص فقرة مطولة نقلا عن

«الذخيرة» لابن بسّام: إلا أن التفاصيل الخاصة بالتعاون المظنون بين صبيح مع السيد المغربي/ زيدى بن عطية للقضاء على الدكتاتور كان محض اختلاق المؤرخ الهولندي، ذلك أن المصادر العربية المتوفرة لدينا حتى الآن لا تشير إلى تلك الأحداث من قريب أو بعيد. إلا أن من الممكن أن يكون الزعيم المغراوي تقلد وضع البطل في صف هشام الثاني عند مطالبته بحقوقه لدى المنصور وكان ذلك في ظروف لا نعلم عنها شيئاً. والسبب هو أنه أثناء المعركة التي دارت بينه وبين القائد وبيع شمال المغرب عام ٩٩٨م (٢٨٨هـ) كانت صيحة الحرب عنده : هشام يامنصور! بينما كان شعار العامريين «يامنصور»!

[Léve provençal, Fragments historiques sur les Berberes au mayen- pag 389].

وقد توفيت صبيح بعد ثلاثة أعوام وبالتحديد الحادى عشر من ديسمبر ٩٩٩م (٢٩ ذو الحجة عام ٣٨٩هـ) وذلك من خلال إشارة عابرة لكاتب السير ابن الفرضى «تاريخ» عدد ٥٣٣ ص ١٥٢ وردت في نهاية خبر أورده عن شخصية توفيت في قرطبة في نفس اليوم الذى كانت فيه «السيدة الكبرى».

(٥٤) انظر في المقام الأول: دوزى 6- 224 Rech3 I.

(٥٥) خصص ابن الأبار «الحلة» ص ١١١ - ١١٤ لعبد الله هذا بضع فقرات عن حياته لكنها لم ترد في طبعة دوزى التى كان قد أدخلها في.

(٥٦) ابن الأبار من خلال دوزى في Rech3 I pags 175 y xxx.

(٥٧) Crónica de Silos, c. 71 (en HUICI, Crón. lat. de la Reconquista, II, pág. 103, of. Dozy, Hist. Mus. Esp.2, II, pág. 235).— Sobre lo precedente, cf., Dozy, Rech.3, I, pág. 173-81 ("Toma de Zamora por Almanzor, batalla de Rueda, toma de Simancas, primer sitio de León").

(٥٨) .Cg Dozy, Rech3 pag 99 m.1.

(٥٩) أخبار أوردها ابن الأبار «الحلة» ص ٢٥١ - ٢٥٢ (دوزى تاريخ أسبانيا الإسلامية - الجزء الثانى ص ٢٣٨ - ٢٣٩).

(٦٠) بالنسبة للاستيلاء على برشلونة قام Millás بجمع المصادر العربية التى تحدثت عنها :

- Vindicados (Textos, pág. 164), ef. P. DE BOFARULL. Los-Condes de Barcelona 1836, pág. 277 ; F. FITA, Destrucción de Bárcelona por Almanzor, 6 de julio 983. en B. R. A. H., 1885, VII, págs. 189 sigs. (cita un documento del archivo de la catedral de Barcelona en que se declara que "mortui vel capti sunt omnes habitantibus de eadem civitate vel de jusdem comitatur [sic]"); CARRE-RAS Y CANDI, Relaciones de los vizcondes de Barcelona con los árabes, en Homenaje a don Francisco Codera, Zaragoza, 1904, páginas 207-9: SOLDEVILA, Hist. de Catalunya, I, págs. 62-3.

(٦١) ورد في España sagrada T. xx111 I y IV طبقا لابن عذارى - البيان: الجزء الثانى ص ٢٣٨. فقد تم الاستيلاء على قلمرية Colmbra ٩٨٥م (ص ٣٧٥) وقد فعل هذا المنصور. إلا أن هذا التاريخ هو

الخاص بقول حملة غزا فيها المدينة لدرجة أنها لم تكف تنقش عن نفسها تراب التيران الأسلامية. ويعد ذلك بعامين قام المتصور بحصارها والاستيلاء عليها بعد معركة فاصلة وقعت يوم ٢٧ يونيو ٩٨٧ (٢٧ صفر ٢٧٧هـ) وهذا التاريخ الذي يتوافق مع *Chronicon conimbricense* قد أورد ابن القرضي في «التاريخ» عدد ١٤٦٧ وذلك أثناء روايته سيرة أحد العلماء القرطبيين الذي استشهد أثناء الحملة الثالثة على المدينة».

(٦٢) فيما يتعلق بالاستيلاء على ليون تتوافق لدينا مطومات واقية من خلال *Lucas de Tuy* (انتظر دوزي) في *Rech3 I p 181*. وهناك رواية أخرى غير جديرة بالتصديق عن ابن الأثير: «الحواليات» ص ٢٩٢-٢٩٤. وأثناء تلك الحملة التي وقعت عام ٩٨٩م وصل الجيش الأسلامي إلى أسطرقة هذا إنا ما أختنا بالأشارة الموجزة الواردة في «تاريخ» عن ابن القرضي عدد ١٢٤٩.

(٦٣) المصدر الرئيسي لنا في سرد وقائع النهاية للتسلوية لعبد الله بن أبي عامر هو ابن عذاري البيان - الجزء الثاني من النص ص ٢٠٣-٢٠٦.

(٦٤) تشير هنا إلى أن المصادر الجيدة التي لم ترد لدى دوزي يشق زواج المتصور بإبنة سانشو آيباركا وهي: ابن عذاري البيان - الجزء الثالث ص ٢٨، ٤٢ - إن الخطيب أعمال ص ٧٦.

(٦٥) «أعمال» ص ٨٤-٨٥ والتفاصيل التالية - استقيناها من هذا المرجع.

(٦٦) Cf Dozy *Rech3 I pag 101*.

(٦٧) المصدر السابق - الجزء الأول ص ١٨٤-١٨٧ - وفيما يتعلق بزواج المتصور من *Teresa de León* انتظر :

- E. COTABELO, *El casamiento de Almanzor con una hija de Bermudo II, en España moderna, 1903 R.M. Pidal hist. y epopeya pags 18-12.*

(٦٨) النحاس اليميلطي «مشاريع الأسواق» (cf. *supra pag 123 n.22*) الفصل الحادي والثلاثون - هذه العبارة توجد أيضا في يدائع السلك لابن الأرق القرطبي - *Fo 118 ve del ms.* لجموعة المؤلفين.

(٦٩) فيما يتعلق بـ Qand هذا انتظر *Supra pag 296 y nota 87*.

(٧٠) الخير الأخير ورد في *Chronicon Burgense (en Huici, cronicas latinas de la reconquila*

والمصدر الرئيسي حول موت غرثي قرطانيث هو ابن حيان - من خلال ابن يسلم في *pag 33 I* النخيرة الجزء الرابع *ms* فاس - القرويين *Fo 145 vo* أما التاريخ بالتحديد فقد ورد في «الأعمال» لابن الخطيب ص ٧٩. وهناك مؤرخون آخرون من العرب الذين سجلوا وفاة الكونت القشتالي وذلك ضمن إشارة وردت في قصيدة الشاعر سعيد البغدادي يمدح فيها المتصور ويتنبأ بوقوع خصمه القشتالي انتظر:

- R. BLACHÉRE. *Un pionnier de la culture arabe orientale en Espagne au X'siècle : Saïd de Bagdad, en Hespéris, X, 1930, pags. 28-9.*

(٧١) Cf. R. MENÉNDEZ PIDAL, *España del Cid, 1.a ed., I, pág. 189, — Más arriba, pág. 383, hemos visto que los Beni Gómez habían en viado una diputación al califa al-Hakam II.*

(٧٢) ابن عذارى - البيان: الجزء الثاني النص ص ٣١٦ - ٣٣١

(٧٣) طبقا لـ «مفاخر البربر» [طبعة ليفي بروفنسال] فإن ابني المنصور عبد الملك وعبد الرحمن ربما شاركا أثناء هذه السنة - ٩٨٧ في حملة على جليقية وهي حملة يبدو أنها غير الحملة التي سبّرت ضد شفت ياقب.

(٧٤) ابن خلدون، من خلال دوزي Rech3. I pag 101.

(٧٥) نفس المصدر ص ١٠٠.

(٧٦) ليفي بروفنسال "Fragmento Historiques sur les Berberes au mayen âge pag 34" إنتا نجهل الدرجة التي تربط بين الإشارة الوجيزة لهذه الحملة ضد بنبلونة وبين إحدى الطرائف التي أوردها ابن عذارى في البيان الجزء الثاني ص ٣٢٠-٣٢١ من النص والتي تفيد بأن المنصور أرسل إلى الملك غرثية سانشو الثاني أحد السفراء الذي قصّ عليه عندما عاد إلى قرطبة كيف أنه وجد امرأة عجوزا مسلمة أسيرة منذ زمن طويل في إحدى الكنائس وأنها توسلت إليه أن يحكي قصتها للمنصور الذي شعر بسخط شديد عندما عرف بهذه الواقعة وتوجه على الفور إلى الحدود مع مملكة البشكنس ومطالب غرثية إطلاق سراح الأسيرات المسلمات اللاتي قد تكن هناك.

(٧٧) «أعمال» ص ٧٩-١٨٣ وهناك بعض التفاصيل التي أوردها ابن الخطيب، كما وردت أيضا في كتاب «المرتبة العليا» لأبي الحسن النبهسي (مخطوط رقم ١٤٢٤ في مكتبة Cherifiana الرباط ٧٤-46-F٢) - وفيما يتعلق بالقاضي الحسن بن عبد اله الجدعمي الذي شارك إلى جانب المنصور في ٧٤ 47 معركة Cervera واستشهد أثناءها. وهناك إشارة موجزة عن هذه الحملة وردت في :

Annales Complutenses (apud HUICI, Crónicas latinas de la Reconquista, I, pág. 43) : "In era MXXXVIII (= 1000 J. C.) fuit arraneada de Cervera super conde sancium Garsia, et Garsia Gomeza.

(٧٨) كان الخروج من قرطبة يوم الثاني والعشرين من يونيو (١٥ رجب) - ابن الفرض : تاريخ عدد ٧٠٠ in fine.

(٧٩) هكذا يمكن لنا أن نفسر نص المؤرخ الذي أطلق لفظ قشتالة (Castilla) على المدينة التي استولى عليها المنصور بالقوة في أول شوال عام ٣٩٠هـ.

(٨٠) كان ابن الخطيب، عند الحديث عن سيرة المنصور في «الإحاطة»، (طبعة ملخصه في القاهرة الجزء الثاني ص ٧٢ - علما بأن النص أدخلت عليه تعديلات كبيرة) هو الذي أورد تلك الأشارات ورغم ذلك لم يتحدث إلا عن دير. وقد أشار دوزي إلى أن هذا الدير هو دير San Millen وذلك اعتمادا على نص يتعلق بسانشو الأكبر ملك نبرة يعود تاريخه إلى ١٠٢٧م.

(٨١) ابن الخطيب «الأعمال» ص ٩٣ : حيث يروي أنه في الفترة التي كان فيه الوزير الأول في المملكة الناصرية في غرناطة كلف أحد المفاوضين الذين أرسل بهم إلى قشتالة بأن يسأل عند مروره بمدينة سالم قيما إذا كان قبر المنصور باقيا أم لا. وقد ساعدوا ابن غرناطة في رؤية هذه المقبرة إلا أن شاهد القبر لم يكن يحمل أي كتابة سواء تاريخية أم شعرية.

(٨٢) طبقا لـ Lucas de Tuy فإن اليوم الذي هزم فيه المنصور في قلعة النسور كان هناك أحد صيادي السمك يصيح بصوت فيه نبرة ألم وهو يسير على ضفاف نهر الوادي الكبير (أحيانا بالعربية وأخرى بالإسبانية قائلا :

في قلعة النسور

فقد المنصور

الطنبور

وهذا يعني أن المنصور فقد هناك طبول الحرب أي ضاعت منه السعادة فاقترب منه بربر قرطبة لكنه كان يتوارى عنهم ثم يعاود الظهور من جديد وهو يكرر نفس الأبيات.

(٨٣) - En su memoria "Sobre la batalla de Calatañazor", apénd., Rech.3, I, págs. 193-202. Los argumentos de DOZY, SAAVEDRA Y CODERA aparecen detalladamente expuestos en A. BALLESTEROS, Hist. de España, II, págs. 61-2. Véase también A. GONZALEZ PALENCIA, Hist. de la España musulmana, págs. 49-51.

(٨٤) - E. SAAVEDRA, La batalla de Calatañazor, en Mélanges Hartwig Derenbourg, París, 1909, páginas 335-41.

(٨٥) - F. CODERA, La batalla de Calatañazor, en B. R. A. H., LVI, 1910, págs. 197-200 (reseña del Estudio de SAAVEDRA).

(٨٦) Historia y epopeya, págs. 21-2.

(٨٧) المصادر العربية . ابن حيان من خلال المؤلف المجهول لـ «مفاخر البربر» - ومن خلال عبد المالك الوراق عندما تحدث عن زيد بن عطية - كما أن ابن خلدون نقل أيضا عن ابن حيان «تاريخ البربر» - وأورد ابن أبي ذرع في كتابه «روض القرطاس» فقرات عن ابن حيان. المصادر الأخرى :

- Poca cosa en DOZY, Hist. Mus. Esp.2, II, págs. 229-32, 239-42, 253-6 y 261-2. Algunos puntos de vista interesantes en E. F. GAUTIER, Les siècles obscurs du Maghreb, págs. 363-73 y 376-7. Véase también H. TEERRASSE, La mosquée des Andalous à Fés, págs. 36-9.

(٨٨) - cf supra pag. 296.

(٨٩) ابن خلدون - تاريخ البربر - الترجمة الجزء الثاني ٥٥٦ - ٥٥٧.

(٩٠) ابن خلدون - تاريخ البربر - الترجمة الجزء الثالث ٢٥٥ - ٢٥٦ وهو يذكر تاريخا سابقا بعض الشيء عن تلك الأحداث ٩٧٦ - ٩٧٧ م (٣٦٦هـ).

(٩١) - cf supra pag. 397.

(٩٢) إذا كان لنا الأخذ برواية ابن أبي زرع «روضى القرطاس» فإن عسقلجة قد أستولى أثناء حملته، على نصف مدينة فاس «شاطئ الأندلسيين» بينما بقى الشاطئ الآخر «شاطئ القرويين» تحت سيطره القائد الفاطمى محمد بن عامر المكتاس حتى العام التالى، حيث قام قائد من المغراوه باحتلال هذا الجزء لصالح الأمويين. وقد أفاد من هذه المعلومات H. Terrasse op. cit. pag 38-9 وذلك فى تفسير وشرح قصة منبر مسجد الأندلسيين فى فاس.

(٩٣) طبقا للمؤرخ «الوراق» فإن الزيرى بن عطيه كان يكنى «الفرطس».

(٩٤) بالنسبة لهذا الحى القرطبي انظر «ليقى بروفنسال - تاريخ أسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر ص ٢٠٦ ملاحظة : R. Castejon, Córdoba Califal pag 42.

(٩٥) طبقا لابن خلدون فى «تاريخ البربر» الجزء الثالث ص ٢٤٤ - فقد وصل وديع إلى أقصى الجنوب حتى «وادي رده» وهو رافد صغير يقع على الشاطئ الأيمن لنهر وادي صبو فى السهل الغربى. وقد أورد ابن أبى زرع نفس التفاصيل فى روض القرطاس. ومما يذكر أن رواية هذا الأخير لا تتوافق دائما مع مايورده ابن حيان.

(٩٦) انظر فى المقام الأول «Al-Chazna, 1, Zahrat al-as» الذى ينسب لعبد المالك بناء قبلة ومنبر فى المسجد الكبير فى القرويين، ويحمل كل من القبلة والمنبر نقشا يشير إلى عام ٩٩٧ م (٢٨٨هـ) - وطبقا لروض القرطاس فإن عبد المالك دخل فاس فى الرابع من نوفمبر ٩٩٧ م (نهاية شوال ٢٨٧هـ) وظل فيها حتى يناير ٩٩٩ م (صفر ٢٨٩هـ).

(٩٧) ومع هذا لم يعترض المنصور على أن يعود أحد ابناء الزيرى بن مناء إلى قرطبة وهو أبو البحر الذى خان القضية الأموية - كما رأينا - منذ أعوام مضت بعد أن قام بالزود عنها لبعض الوقت.

(٩٨) انظر ابن خلدون «تاريخ البربر» - الجزء الثالث ص ٢٤٨ - ٢٥٠. كما أن نص الرسالة ورد أيضا عند الوراق وكان تاريخ تحريرها ٢٩٧هـ وليس ٣٩٦هـ.

(٩٩) المصادر العربية هى : ابن حيان من خلال الجزء الرابع من التخييرة لابن بسام (عدة مخطوطات فى المغرب وكذلك ضمن مجموعة المؤلف) - ابن عذارى فى البيان المغرب الجزء الثالث النص ص ٣-٣٧ - ابن الخطيب «أعمال» ص ٩٧-١٠٤ - أما المصادر الفرعية فهى ابن خلدون: «العبر» الجزء الرابع ص ١٤٨ ومايلها - النواوى : تاريخ إسبانيا النص ص ٢٢٠. المراجع :

- Unas cnantas líneas nada más en Dozy, Hist. Mus. Esp.2, II, pág. 276. Véase también LÉVI. PROVENÇAL, en la Enc. Isl., III, pág. 851, s. v. al-Muzaffar. Sobre las campañas de 'Abd al-Malik en la España cristiana, según los datos del tomo III del Bayan de 'IBN IDHARI : P. Melchor M. ANTUÑA, El canciller de Córdoba Almadáfar y sus expediciones contra los cristianos, en Religión y Cultura, revista de los PP. Agustinos del Escorial, XIV, 1931, pág. 321-30, y XVII, 1932, PAGINAS 5-16. Véasetambién F. HERNANDEZ JIMÉNEZ, Estudios de geografía histórica española, IV : Mumaqsar y Madanis = Monmagastre y Meyá, en Al-Andalus, VI, 1941, págs. 339-55.

- (١٠٠) أورد ابن حيان نص هذه الوصية (من خلال ابن يسّام) ونقلها ابن الخطيب في الأعمال ص ٩٢ - ٩٥.
- (١٠١) بالنسبة لهذه الشخصية الأسطورية التي ورد ذكرها في القرآن انظر :
- B. Heller, en la Enc. Isl. IV págs. 1120-1.
- (١٠٢) ابن الخطيب «الأعمال» ص ٩٨ - ١٠٠ : نجده يتحدث بإسهاب عن الزيارة التي قام بها عبد المالك إلى أحد العارفين بالله في قرطبة وهو أبو أيوب سليمان بن عبد الغفار الفرنجي (المتوفى عام ١٠١٠م - ٤٠٠هـ).
- (١٠٣) ابن عذارى : البيان - الجزء الثالث ص ٣ من النص (من خلال دوزي).
- (١٠٤) ابن الخطيب : «الأعمال» ص ١٢١ وقد أورد قائمة بالأسماء طبقا للتيجاني.
- (١٠٥) فيما يتعلق بهذه الشخصية انظر في المقام الأول : ابن بشكوال Sila n' 757 بغية الدبي ملاحظة ١٠٥٨ - وتاريخ وفاتها أوردته أول هذين المؤرخين (أغسطس Dabbi Bugya سبتمبر عام ١٠٠٤) (ذو القعدة عام ٣٩٤هـ).
- (١٠٦) بالإضافة إلى الرواية المطولة التي أوردها ابن عذارى في الجزء الثالث من البيان والخاصة بالدسياسة التي دبرها عيسى بن سعيد وهشام بن عبد الجبار، تتوفر لدينا تفاصيل كاملة عن الظروف التي أحاطت بالحكم على أولهما بالموت. ويرجع الفضل في هذه التفاصيل لابن حيان والتي وردت إلينا من خلال الجزء الأول من كتاب الذخيرة لابن يسّام (طبعة الجامعة المصرية ص ١٠٢ - ١٠٧).
- (١٠٧) أورد ابن عذارى في كتابه البيان الجزء الثالث ص ١٦، ١٧ نص هذا المرسوم.
- (١٠٨) هذا الدير الخاص بأهل الذمة (دير أرميلاط) كان يقع على بعد خمسة عشر كيلومترا شمال أرميلاط وكان أول مكان يتخذ للراحة بعد الخروج من قرطبة طريق طليطلة. طبقا ليثي بروفنسال.
- Esp. Mus. X' siècle, pág.36; CASSTEJÓN, Córdoba califal, pág.24; HERNÁNDEZ JIMÉNEZ, Est. de geogr. hist. esp., IV, en Al-Andalus, VI, pág. 342, n. 1.
- (١٠٩) ربما أمر عبد الرحمن بأن يتم قتل المظفر بالسّم من خلال إحدى نساء القصر، أو ربما قدّم لأخيه نصف تقاحة قطعها بسكين غمس نصله في أحد المواد السامة - انظر في هذا المقام ابن الأثير في الحوليات، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ (من خلال دوزي).
- (١١٠) لا يبدو أن عبد الملك قد خلف وراءه نرية من الصبيان. فقد تحدث إن حزم في «طوق الحمامة» ص ٦ عن شغفه بفتاة اسمها «وجيد» ابنة أحد عمال الحدائق واتخذها زوجة له. وبعد موت المظفر تزوجت هذه المرأة من قائد البوليس في المدينة الزاهرة وهو عبد الله بن مسلمة، وبعد إغتيال ذلك الرجل تزوجت بأحد القادة البربر الذي ربما كان من المجموعة المرافقة لسليمان المستعين.
- (١١١) - Chronicon Burgense (en HUICI, Crónicas latinas de la Reconquista, I, pág. 33) : "Era MXL : mortuus est Almanzor, et sepultus est in inferno". Esta frase fué ya citada por Dozy, Hist. Mus. Esp.2, II, pág. 265.
- (١١٢) البيان لابن عذارى وقد أورد ابن حيان. ويضيف أيضا أن ألفونسو الخامس أرسل بتعزيزات. وهذا مايدخل في تناقض مع ما سبق أن قلناه سلفا. فطبقا لما أوردته ابن يسّام في الذخيرة كان هناك تهديد جليقي ضد الأراضي الإسلامية. ومع هذا يبدو أن كان هناك خلال تلك الفترة إتفاق بين ليون وقرطبة

وذلك بسبب عودة تيرزا Teresa أو تاراسيا Tarasia ابنة فرمونو الثاني وشقيقة ألفونسو الخامس إلى بلادها، والتي كانت قد تزوجت عام ٩٢٢ (٢٨٢هـ) من المنصور.

- (cf. supra, pág. 421). Céase Dozy, Rech.3, I, pág. 187, y M. M. ANTUÑA, El canciller de Córdoba Almodáfar (primer artículo), pág. 323.

- Por F. HERNÁNDEZ JIMÉNEZ, en artículo citado supra, nota 99. A proposito (١١٢) de esta expedición, IBN AL-JATIB, A'mal, pág. 101, habla de una localidad de la Marca hispánica, a la que llegó 'Abd al-Malik, llamada Mangas. Debe de tratarse de una transcripción defectuosa de Monmagastre. Podría pensarse en Manresa, si la presencia del gayn no presentase fonéticamente grave dificultad.

- Véase, sobre todo, BALARI, Orígenes históricos de Cataluña, págs. 277-8; (١١٤) BALLESTEROS, Hist. de España, II, pág. 353. Según CODERA Límites probables de la conquista árabe en la Cordillera pirenaica (en Est. crit. hist. ár. esp., VIII, pág. 264).

«أثناء هذه الحملة ربما وقعت معركة في Albesa مات فيها Berenguer أسقف Elne لكن طبقا لابن الفرضي «التاريخ» رقم ٢١هـ كان تاريخ هذه المعركة يعود لعدة أشهر مثل الحملة التي قام بها عبد الملك على هذا الثغر وبالتحديد يوم ٢٧ فبراير عام ١٠٠٣م (٢٠ ربيع الثاني عام ٣٩٢هـ). ومما لاشك فيه أن الأمر لا يعدو مجرد حرب بين قوات محلية. وعلى أي الأحوال يبدو من المجازفة الواضحة القول بأن Albesa هي «البطحاء» التي ذكرها البيان عند الحديث عن حملة عبد الملك. Albesa هي محلة صغيرة تابعة إداريا لـ Balaguer محافظة ليريدا.

(١١٥) فيما يتعلق بهذا التحكم الذي يشير إليه البيان لعام ٣٩٤هـ فإن النص الأدق والأكثر تفصيلا هو الذي أورده ابن خلدون في كتابه العبر الجزء الخامس ص ١٨١ وذلك في سياق عرضه لموجز تاريخي عن الملوك المسيحيين في أسبانيا (نوى Rech الجزء الأول ص ١٠٢ - النص العربي - المصدر السابق - ص تاريخ نصارى Simonet والذي أورد القلقشندي في صبح الأعشى ص ٢٦٦ انظر أيضا XV-XVI أسبانيا ص ٦٢٦).

(١١٦) ظل اسم «Luna» حتى الآن إذ نجد ذلك في رسم القرية الحالية Los Barries de Luna محافظة ليون - كما نجد إشارة إلى حملة Luna ضمنى قصيدة لابن برآج القسطللي يمدح فيها عبد الملك (أورده أبو الوليد الحميري، في «البدیع فی وصف الربیع. طبعة H. Perés الرياط ١٩٤٠ ص ١٢٣) في هذا الحصن [الذي لا يجب أن نخلط بينه وبين قرية أخرى تحمل نفس الاسم تقع في محافظة سرقسطة] قام ملك قشتالة / ألفونسو الرابع عام ١٠٧٣ يسجن أخيه غرثية : cf. R. M. Pidal, Esp. del Cid, I, pág 226.

(١١٧) انظر : Hernandez op. cit. pags 352-3.

(١١٨) وبهذه المناسبة فرض سعيد البغدادي شاعر البلاط قصيدة مدح لعبد الملك R. Blachère, Sa 'id de Bagdad, en Hesperis, t. x, 1930, pags. 31-32..

الفصل السابع

تدهور الخلافة في قرطبة وسقوطها^(١)

عناوين الفصل السابع :

- ١- العامري عبد الرحمن شنجول - الانقلاب الذي قام به محمد الثاني المهدي - عبد الرحمن شنجول الوريث المفترض لهشام الثاني - تولى محمد الثاني المهدي ونهاية عبد الرحمن شنجول.
- ٢- ردّ فعل البربر - سليمان المستعين - الخلافة الأولى لمحمد المهدي - سليمان المستعين، الخلافة الثانية لمحمد المهدي - الخلافة الثانية لهشام الثاني (١٠١٠-١٠١٣م) حصار قرطبة - وفاء الخليفة هشام الثاني والولاية الثانية لسليمان المستعين.
- ٣- بني حمود وآخر الأمويين القرطبيين (١٠١٦-١٠٣١م) - حكم علي بن حمود - الأموي المرتضى والحموديان القاسم ويحيى - الأمويان المستظهر والمستكفي - هشام الثالث المعتمد؛ إلغاء الخلافة الأموية.

١- العامري عبد الرحمن شنجول - الانقلاب الذي قام به محمد

الثاني المهدي

- عبد الرحمن شنجول الوريث المقترض لهشام الثاني :

أثناء الخلافة الاسمية لهشام الثاني استطاع ثالث العامريين عبد الرحمن شنجول الاستيلاء على السلطة في قرطبة بعد وفاة أخيه عبد الملك «المظفر». لكن مدة الحكم استمرت لشهور قليلة حدثت بعدها أزمة سياسية خطيرة للغاية واستمرت لأكثر من عشرين عاما مسفرة عن سقوط الخلافة الأموية في المغرب نهائيا. لم تعيش أسبانيا حياة كلها اضطرابات ومأساوية مثلما عاشتها في تلك الفترة. فعندما صدرت صيحة التمرد في قرطبة امتد صداها إلى كافة الأقاليم والنواحي الواقعة على حدود المملكة ويسبب التناحر تتابع العديد من الحكام غير الأقوياء على كرسي الحكم وانتهت أغلب الفترات بحمام من الدم وكلما مضى الوقت يمكننا أن نعد فترات حكم بعضهم بالشهور وليس بالأعوام. وربما ظل بعض هؤلاء الحكام في الظل لفترة ثم عاد للظهور من جديد. كان الأمر ببساطة هو الفوضى بعينها والتي أدت إلى غرق العمل الدؤوب الذي أقامه الأمراء العظام من الأمويين وإلى إنهاء الوحدة السياسية التي تحققت بفضل جهدهم وعنائهم. هاجمت «الفتنة» - وهي العبارة التي عادة ما تستخدم في النصوص العربية إشارة إلى الثورة الأندلسية في القرن الحادي عشر - البلاد في أكثر قوتها حيوية وأنهكتها بحيث لم تسترد عافيتها بالكامل من جديد أبدا.

هذا هو ما فهمه مؤرخو ذلك العصر وكانوا على حق فيما قالوه ومن بينهم ابن حيان الذي عايش في شبابه تلك الأحداث. وعندما قام بوصف الفوضى القائمة أخذ يكيل الاتهامات لدرجة أن روايته تتسم أحيانا بالسخرية المرة والهجوم على مواطنيه بلا رحمة وهو هجوم لم ينج أحد منه حتى هؤلاء الكبار الذين كرسوا كل همهم ليكونوا إلى جانب الأقوى. كما لم تسلم البرجوازية بسليبتها، وكذلك العامة في الشوارع والأسواق فقد كان العامة تواقون للمذابح وعمليات السلب والنهب. لقد رسم المؤلف الفتنة القرطبية بمداد أسود في أغلب الأحيان الأمر الذي يشير بوضوح إلى أنه تتوافر فيه صفات المؤلف. وعموما فإن تفاصيل هذه الفترة التاريخية المحزنة تتسم بالفظاعة والتعقيد. ثم بعد ذلك سرعان ما تخيو جنوة الاهتمام. لكن رغم ذلك من الواجب أن نروي على هذه الصفحات الأحداث الهامة التي من السهل العثور على معطياتها في تاريخ الدول الإسلامية خلال العصور الوسطى وعصرنا الحديث.

عندما تولى أبو المطرف عبد الرحمن بن أبي عامر شئون الحكم - في اليوم الثاني لوقاة أخيه في ظروف غامضة - كان لا يزال رجالاً شاباً فلم يتجاوز الخامسة والعشرين من العمر. كانوا يتنادونه في الأسرة بشنجل الصغير فهو كما سبق القول حفيد^(٢) - من جهة الأم - لملك بنبلوثة ساتشو غرثيه الثاني أباركا. لم يكن يدرك بخلد المتصور أبداً أى ثقة في قدرة ابنته الصغير لأنه كان متواضع الذكاء ومغروراً ويتسم حياته بعدم الانتظام. لم يكن يثق في طموحاته واهتمامه بالحياة السياسية. وسرعان ما اكتشف أنه لا يمكن إيذاء شعور العامة في قرطبة دون أن يناله أذى.

يبدو أن هشام الثاني وشنجل قد خالقا للتفاهم فيما بينهما إذ أن كلتا الوالنتين من نيرة. وكانت هذه القرابة البعيدة هي الأساس الذي كان يلتقيان عليه ويدعو كل منهما الآخر إلى بعض الاحتفالات التي كثيراً ما شارك فيها الحريم الخاص بكل واحد منهما. وعندما كان القرطبيون يرون مجموعة تسير عن بعد وقد تخفت في دثار أبيض وتحيط بها حراسة يدركون أن خليفتهم الذي تخفى عن الأنظار بارتدائه البرنس ذاهب للهو في منزل الوصى العامري. فكانت التقمة تولد في النفوس وتظهر أحيانا إلى الوجود وقد امتلأت حيوية أندلسية. كما أنهم - أهالي قرطبة - كانت تصل إلى أسماعهم كل يوم أنباء محرقة أو أخبار عن الفسق الذي كان عليه السيد الجديد لأسبانيا: كان يحب شرب الخمر للدرجة السكر ومرافقة الراقصات ليلاً ونهاراً والمغنين والمهرجين ومن يمارسون اللواط. وقد حصل منذ اليوم الأول لتوايه السلطة على لقب «تصير الدولة» ثم أضيف إليه لقب آخر هو لقب «المأمول» بعد ذلك سرت في قرطبة شائعة أحدثت لوباً كبيراً بعد شهر ونصف من حصوله على اللقب الثاني، ويقول الشائعة بأن عبد الرحمن قد صدر بشأنه مرسوم مستوفيا كافة الشروط الشرعية يفيد موافقة هشام الثاني على تعيين عبد الرحمن وريثاً لملكة الأندلس.

لم يخطر أبداً ببال المظفر أو ببال المنصور أن يتقدما إلى قصر الخلافة يطلب خارج عن العرف. إذ كانا يدركان أن خطوة مثل هذه تعتبر مغامرة غير محسوبة. وذلك تقديرهما لأهالي الأندلس ولهؤلاء الذين كانوا يكونان لهما الاحترام. كما كان يشعران بالولاء والثقة - ولو على سبيل التخيل - في حقوق الوراثة في الأسرة الأموية - إلا أن التقدير والولاء لم يكونا كافيين لايقاف الطموح المجنون الذي كان عليه شنجل. تلك استمرار الأوضاع لاثنتين من كبار رجال الدولة وهما أحمد بن عبد الله بن تكوان كبير قضاة العاصمة، والأمين الرسمي أحمد بن برد، وطلب عبد الرحمن منهما ومن بعض رجال حاشيته أن يمهّدوا له الطريق. ورغم أن هشام الثاني لم يكن له ولد إلا أنه

يبدو أن كان له رد فعل معين على المقترحات التي قدمت له. وصدرت الفتوى عن الفقهاء الذين اشتراهم عبد الرحمن واختارهم كأتباع له في هذه المهمة. هذه الفتوى قضت على التحفظات التي قد تعوق الخليفة عن اتخاذ قرار خطير بشأن مستقبل الأسرة الملكية. وتولى أحمد بن برد تحرير محضر التولية - الذي نقل لنا نصه بعض المؤلفين^(٣) - وبعد ذلك تلى علنا في بهو الشرف بقصر قرطبة ووقع عليه كل من حضر من كبار رجال الدولة.

صدر هذا المرسوم عن الخليفة في شهر نوفمبر ١٠٠٨م (ربيع الأول ٣٩٩هـ) وهو وثيقة مثيرة للفضول. إذ يعلن هشام الثاني من خلال سطور الوثيقة رغبته الشديدة في إرضاء رعيته بإبلاغها باسم من سيخلفه. وأنه اتخذ هذا القرار بعد تمعن واهتدى إليه من خلال إلهام إلهي. كما أن فترة الاستشارة التي منح نفسه إياها بعيدا عن أية تأثيرات لم يخرج منها باختيار أي من أفراد الأسرة المروانية. وأنه إذا ما استبعد أقرباءه من تولى عرش الخلافة، فإن ذلك سوف يغضبهم، إلا أنه يفضل السير على ما يمليه عليه إيمانه الذي لا يتزعزع وأن لا أحد يستحق هذا المكان بعد وفاته إلا عبد الرحمن بن أبي عامر الذي هو من سلالة القحطانيين العربية. ومن حقه أن يتولى الصولجان وهذا ما تؤيده بعض الأحاديث النبوية^(٤). ويمكن أن نستنتج - من خلال هذه الحجج وذلك التصنع الذي بولغ فيه باسم مصلحة القضية - أن اختيار شنجول كان بعنايه إلهية وما على الرعية إلا أن تطرب لهذا القرار وتباركه.

لكن أصحاب المصلحة الأولى وهم القرطبيون لم يباركوا القرار إذ بدأت في المدينة حالة هياج عظيم، فالمرروانيون وخاصة المنحدرون بطريق مباشر من عبد الرحمن الثالث، وهم أكثر، لم يتوانوا عن إحداث القلق وتغذيته وترقب الفرصة السانحة للقيام بانقلاب. كان من الممكن لشنجول، بعد الحصول على ما يرغب فيه، التصرف بحكمة والعمل على تهدئة ثائرة سكان العاصمة الأندلسية. لكنه اتخذ بعد ذلك عدة إجراءات زادت من حدة الناقمين عليه من العامة. ففي اليوم الثالث عشر من يناير ١٠٠٩م (الثالث عشر من جمادى الأولى ٣٩٩هـ) أبلغ كبار رجال الدولة وكبار الموظفين أن عليهم عند حضورهم إلى مقام الخليفة في اليوم التالي (الجمعة) أن يغطوا رؤوسهم بالشال البربري وليس العمامة زاهية الألوان كما كانوا يفعلون حتى ذلك الحين. لم يكن هذا التعديل الذي ربما نوه له به الزواي بن زناته وباقي القادة من الشمال الأفريقي من الصنهاجة أو الزناتة فقد كانوا يشكلون جزءا هاما من الجيش إلا الخطوة الأولى كما عبر عن ذلك أحد المؤرخين المسلمين بلهجة مليئة بالمرارة^(٥). كان هذا اليوم هو بمثابة عشية اليوم الذي يقوم فيه البربر بخطوات يسومون فيها الأندلس سوء العذاب.

لم تتأخر الفرصة السانحة في الظهور أمام الحزب المعارض إذ بدأ ملوك أسبانيا الذين كانوا على علم بكل ما يجري في قرطبة بتوجيه ضرباتهم المعهودة الى الحدود مع الخلافة حتى يعرفوا ماهية رد فعل الوصى الجديد^(٦). لم يخف سانشو غرثية كونت قشتاله ورجلها الشجاع استخفافه بشنجلو إذ كان متأكدا من شخصيته من قبل. فذات مرة وأثناء فصل الشتاء أدى هطول الأمطار الغزيرة إلى تدمير الكثير من الطرق فما كان من عبد الرحمن إلا اتخاذ قرار بالسير قدما في حملته الأولى ضد المسيحيين الأسبان رغم هذه الموانع. ففي اليوم التالي لقرار إرتداء الشال البربري اتجه على رأس جيشه في الطريق نحو طليطلة بون إعتبار لتحذيرات الضباط الصقالبة وأن لديهم دلائل قوية تشير إلى أن القرطبيين يعدون العدة سرا للقيام بخطوات خطيرة^(٧).

— تولى محمد الثانى المهدي ونهاية عبد الرحمن شنجلو :

وجد المروانيون المستبعدون من العرس عنصر مساعدة نشط للغاية تمثل في «دلفى» والدة عبد الملك المطفر. كانت لدى «أم الولد» رغبة عارمة في الانتقام لموت ابنها إذ كانت تشك في أنهم دسوا له السم بناء على إيعاز من شنجلو فقامت بالاتصال بالأمويين المنحدرين من الناصر، وقام بهذه المهمة عبد عامرى كان يكن لها كل التأييد وهو الخصى بشرى. ووعدهم دلفى بالمساعدة المادية إذ كانت واسعة الثراء. فاقترحوا عليها أن يكون أحد أحفاد عبد الرحمن الثالث هو المنظم والمدير لهذا الانقلاب ويدعى محمد بن هشام بن عبد الجبار^(٨). كان والده قد شارك - كما سبق القول في دسياسة ضد العامرى الثانى إلا أن المؤامرة كلفته حياته. كان محمد سوقي الأخلاق به القليل من الحياء وكان مشهورا لدى السافلة في المدينة رغم عراقة أصله. لكن في لحظة ما بدا أنه أنسب أفراد الأسرة للقيام بانقلاب على الحكم معتمدا على السافلة في المجتمع القرطبي فأجزل لهم الأموال التى تلقاها من دلفى فزاد عدد الذين انضموا إليه. وتم الاتفاق على اللقاء يوميا في أحد الأماكن المنعزلة خارج قرطبة للإعداد العملية. وتم اتخاذ قرار البدء بالتمرد عند وصول شنجلو إلى الحدود مع الأعداء.

ترك الوصى العامرى ثلاثة من النواب ممن يثق فيهم في المدينة الزاهرة وذلك لتولى الأمور أثناء غيابه وهم: الوزير أحمد بن سعيد بن حزم. وأمين الدولة أحمد بن برد والمشراف على مقر إقامة عبد الله بن مسلمة. لكن محمد بن هشام بن عبد الجبار لم يهاجم الزاهرة أولا بل كانت أولى خطواته التوجه إلى قصر الخلافة حيث الخليفة

الاسمى يقضى الشتاء هناك. ففي الخامس عشر من شهر فبراير عام ١٠٠٩م (١٦ جمادى الثانية ٣٩٩هـ) جاء البرير برسالة مفادها أن شنجول كان يستعد للدخول فى الأراضى المسيحية. فلم يتوان المتآمرون لحظة واحدة وأحاطوا بقصر الخلافة وهم أناس تبدو عليهم سمات البلاهة، وفى الوقت نفسه أخذ بعض الموالين لهم يتنادون العامة فى الأسواق والأحياء المختلفة بحمل السلاح. وتم فتح سجون الدولة حيث انضم المساجين إلى الحركة. كان التمرد قد بدأ. وعندما علم هشام الثانى بالخطر المحقق به أمر بإغلاق القصر وصعد إلى إحدى الشرفات وأطل منها على الجماهير أملا - بلا جدوى - تهدئتها وقد ظهر بين اثنين من الخدم يحملان نسخا من المصحف. لكن العاهل الاسمى سرت فى جسده رعدة جعلته ينزل إلى مصلاه الخاص. كما أصدر أوامره للحرس بالآلا يستخدموا السلاح ولا يقتفوا المتمردين بالسهام أو أى نوع من أنواع القذائف. أما قائد التمرد فقد أعطى تعليماته باحتلال القصر بأقصى سرعة ممكنة وذلك بالصعود على سلالم كانتا قد وضعوها على الأسوار وأخذت الجموع تدخل من السطح العلوى إلى القصر دون أن تقدر الدفاعات البسيطة عن من هم فى الداخل إيقاف هذا السيل. قام المتمردون بالتوجه إلى مخازن السلاح حيث وجدوا الكثير من الخناجر والسيوف وهنا بدأت عملية نهب الأثاث الموجود فى صالات وأبهاء القصر. ولما رأى الخليفة أن لا مخرج أمامه أرسل إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار يطلب منه الجلاء عن القصر مقابل قيامه بانتزاع السلطة من العامريين وأن يعيد أقرباؤه المروانيين إلى مناصبهم وأن يقوم بتعيين قائد الحركة وريثا للعرش. لكن محمد رفض العرض وأرسل إلى هشام الثانى بشروطه التى لم يجد الخليفة مناصبا من قبولها. بقيت أبواب القصر مفتوحة وجلس قائد الحركة فى أحد أبهاء القصر حتى اليوم التالى وهو يصدر التعليمات إلى كبار أتباعه.

وصل نيا الانقلاب إلى المدينة الزاهرة فما كان من المشرف على القصر / عبد الله بن مسلمة إلا العمل على اتخاذ الإجراءات للدفاع عن مقر العامريين عندما وصلت إلى الزاهرة بعض جماعات من المتمردين فتم تفريق بعضها إذ خرج بعض أفراد الحامية لقائها وعندما حل الظلام توقفت العمليات حتى اليوم التالى.

اتسمت الإجراءات التى اتخذها محمد بن هشام بن عبد الجبار منذ وصوله إلى قصر الخلافة بالعقلانية الشديدة. إذ أمر الجماهير بالخروج من القصر ووضع حراسة عند مداخله وأن تتم حماية البوابات المؤدية إلى سكن الحريم، كما أرسل أحد الخصيان إلى هشام الثانى الذى ظل ملازما مصلاه ليبلغه بأنه تولى مقاليد الحكم

ويدعوه للتنازل عن السلطة. لم يُنْبَس الخليفة بشئٍ وأمر بأن يذهبوا إلى المغتصب بملابس رسمية يرتديها عندما يتولى عرش الخلافة. وفي نفس الليلة تم استدعاء الأعيان والفقهاء وفي العاصمة على عجل لحلف يمين الولاء للعاهل الجديد. وذهب اثنان من الكتبة إلى هشام لكتابة الاستقالة التي نطق بها شفها وصاغوها في محضر تنازل. وبعد ذلك بدأت مراسم لتصيب محمد طبقا للقواعد التقليدية وأعلن الخليفة الجديد أنه سيلقب بالمهدى بالله.

وأراد محمد أن يعبر عن إمتنانه للعامة في قرطبة وهي التي ساعدته على تولي السلطة بسهولة فأمر بتسجيلهم في صفوف الجيش النظامي. فوجد عددا كبيرا من أبناء هذه الطبقة، والتي لم تكن تمارس إلا مهنا متواضعة، أنفسهم وقد ارتفع شأنهم بأن أصبحوا من الكتائب التي تجرى لها الأرزاق. إلا أنهم لم يكونوا على مستوى الجندية من التدريب ومهارات القتال. وهذا ما سيتضح قريبا. وعين المهدى ابن عمه/ عبد الجبار بن المغيرة ليكون على رأس هؤلاء الدهماء من أحياء قرطبة للقيام بمهاجمة المدينة الزاهرة. وانضم إلى هذه القوات التي تم ارتجالها كل هؤلاء الذين لم يقبلوا إلا بشق الأنفس عملية اغتصاب شنجول حقوق الأسرة الملكية. فهم يعرفون أن الجيش النظامي متواجد الآن بعيدا عن قرطبة وبالتالي لن يخسروا الكثير. أما الحامية المتواجدة في الزاهرة والتي كانت تشعر بالقلق الشديد قبل ذلك فلم تظهر أى روح للمقاومة وعرضت تقديم القصر العامرى مقابل إبقائهم على قيد الحياة. وأجلوا عن المقر بعد أن جاءهم الأمان كتابيا من المهدى. وبعد ذلك بدأت عملية نهب واسعة النطاق لكل محتويات المقر وقد سمح المهدى بذلك فقد كان يشعر بحاجته إلى الإفادة من الجزء الذى يخصه من هذه الغنائم فى بند توزيع الهدايا احتفالا بمقدمه وعندما أمر فى المساء بإيقاف عمليات السلب والنهب للمدينة العامرية، كانت الثروات التى جمعها العامريون من عملات ذهبية وفضية وأحجار ثمينة وجواهر وبسط وقماش الاستيرق قد ذهبت إلى قرطبة. ولم يسلم حريم القصور وحريم ابناؤه من تلك الأحداث. وما حدث هو أن أخلى سبيل الحرائر منهن وأمرن بمغادرة القصر أما الإماء فقد ذهبوا بهن إلى العاهل الجديد لكن «الدلفى» والدة المظفر حظيت بمعاملة خاصة، كما سبق أن أخذت حيطتها وأرسلت قبل ذلك إلى قرطبة بجزء كبير من أموالها الخاصة.

وعندما لم يتبق فى الزاهرة أى شئ يمكن حمله أمر محمد المهدى بهدم المدينة بالكامل فى أسرع وقت ممكن وقد وعد القائمون على عملية الهدم بالحصول على الأعمدة والتيجان الرخامية والدعائم الخشبية المشغولة والأبواب المُنَعمَة بالمعادن الأمر

الذى جعلهم يتسابقون فى العمل على هدم المقر العامرى الذى لم يتبق منه إلا الأنقاض، وكأنا نجد أن حديث المنصور بشأن قصر عمر هذا المقر وقد تحقق^(٩).

لكن إذا ما كانت الزاهرة قد أصبحت أنقاضا فإن عبد الرحمن كان لا يزال حيا تحيط به أفضل عناصر الجيش النظامى. ألم تكن عودته القريبة متنتظرة - بعدما وصلته الأنباء عما حدث فى قرطبة - حتى يسترد العاصمة ويعاقب المغتصب وأتباعه؟ كانت هناك حاجة لقيام المدينة بمقاومته مقاومة شديدة وقيام كافة السكان بما فيهم الذين وقفوا بشئ من الفتور إلى جانب النظام الجديد وأن يقف الجميع صفا واحدا فى مواجهته. وحاول المهدي الدعاية لنظامه بأن أعلن إلغاء بعض الضرائب التى فرضها العامرى منذ فترة قصيرة وأن يتم لعن ذلك الدعوى على المنابر.

كان شنجول فى طليطلة عندما وصلته أنباء الثورة القرطبية ومجئ محمد الثانى المهدي، فلم تكن مفاجأة كبيرة فى نظر المقربين إليه لكنه اعتقد أن الأرض تدور من حوله فاتجه صوب «قلعه رياح» بغية الاقتراب من العاصمة وعندما وصل إلى هناك ظل بضعة أيام مضيقا بذلك وقته الثمين فى تلقى قسم الولاء من جميع أفراد جيشه. ويقول ابن حيان إن جنوده رأوا أن فى هذا السلوك دليل تخبطه أكثر من تخبط ناقة عمياء^(١٠) ثم بدأت تحدث حالات انشقاق فابلغ القائد الزناتى محمد بن يعلى ذويه بأنهم لن يتمكنوا من قتال القرطبيين وإلا أنزلوا بأهلهم الذين لازالوا هناك غضب الدهماء كما أعلن القاضى ابن ذكوان، الذى رافق الحملة أن شنجول إذا هاجم قرطبة وعرض حياة الآلاف من الأبرياء للخطر وفضائع الحرب فهو بذلك يكون قد خرج عن شرع الله. وسرت الأوقايل بأن العامرى منذ توليه السلطة لم يكن إلا مسلما سيئا حتى يلتزم فعلا بيمين الولاء التى أقسم الجميع بها أمامه. ألم يره أحد فى يوم من الأيام عندما رأى المؤذن ينادى فى الناس بالصلاة فرد ساخرا بأن من الأفضل أن يدعوهم إلى الحانة^(١١) ؟

ومحصلة ماسبق أن شنجول وجد نفسه فى موقف حرج يوم أن اتخذ قراره بالسير نحو قرطبة ففى يوم ٢٨ فبراير ١٠٠٩م (نهاية جمادى الثانية ٣٩٩هـ) وصل إلى منزل هانىء، هو مكان على بعد مسيرة يومين من العاصمة، وأثناء هذه الليلة اتفق جميع البربر الذين كانوا فى صفوف الجيش على الخروج عن طاعته والتوجه إلى قرطبة التى استقبلتهم بالترحاب. شعر العامرى بأن الناس قد انفضوا عنه عندما شهد مسلك من كان يثق فيهم وبقي له السند الوحيد وهو وديع قائد مدينه سالم. فلماذا لم يحاول الانضمام إليه؟ كانت هذه هى النصيحة التى أسداها إليه كونت نصرانى من أسرة

غومث دى كاريون والذى كان يرافقه - لسنا ندرى سر ذلك - ولم يشأ أن يتخلى عنه. لكن شنجول أصر على مواصلة رحلته إلى قرطبة. فهل كان ينتظر معجزة؟ كانت نهاية مغامرته محزنة، إذ سار برفقة عدد صغير من الحرس الصقلي متجها إلى بلدة أخرى هي «أرميلاط» وهي المحطة الأخيرة قبل وصوله إلى العاصمة، إذ كانت هناك «منية» تابعة للدولة وهي التي لفظ فيها أخوه أنفاسه منذ أربعة شهور فاتخذها مأوى لحريمه الذي يبلغ ستين امرأة فقد ظن من الضروري مرافقتهن له في الحملة، ثم ذهب ليطلب من رهبان الدير التابع للمستعربين والذي يقع في المنطقة المجاورة استضافته. وفي يوم الثالث من مارس (٣ رجب) جاءت نحوه قوات أرسل بها محمد المهدي للامساك به. وبالفعل استطاع القائد الذي يتولى هذه القوة تحقيق الهدف وقبض أيضا على الكونت المرافق له. وعندما تم اقتياد الأسرى إلى قرطبة قام العامري الذي استطاع إقناع القوات بفك وثاقه لبضع لحظات باخراج خنجره من غمده ليضع نهاية لحياته وبناء على ذلك تم قتله في الحال. وكان للكونت المرافق نفس المآل دون أن ينطق بكلمه. ثم ذهبوا بجثتي شنجول ومرافقه التعس الحظ إلى قرطبة وتم رفع الجثتين على حوامل خشبية حيث تعرضتا لأقسى أنواع السباب والإهانة من قبل الدهماء.

هكذا انتهت حياة هذا الخلف غير الجدير بالانتساب للمنصور.

٢- رد فعل البربر - سليمان المستعين

- الخلافة الأولى لمحمد المهدي :

سعد العامة في قرطبة لاستطاعتهم اختيار أحد الأمويين ووضعه على عرش الخلافة، لكن لم يدم طعم السعادة فبعد أن ملأ غرور المنصب المهدي تحول إلى عاهل غير مرغوب فيه. وأول خطأ ارتكبه هو أنه أحاط نفسه بأناس لاكفاءة لهم وضرب عرض الحائط بالمصلحة العامة. فابناء الشعب الذين جندهم ليكونوا حرس القصر أخذوا يعاملون أهل قرطبة بغلظة وخاصة البرجوازيين والأرستقراطيين الذين كانوا يترددون على القصر لحل مشاكلهم، كما لم يحسن الحرس معاملة الضباط الأفريقيين الذين انضموا إلى النظام الجديد طواعية ووصل بهم الأمر إلى أن يطلبوا منهم تسليم أسلحتهم قبل دخول القصر. كما أن العامة من أهل قرطبة كانوا يعربون عن بغضهم للجنود البربر دون موارد. فذات يوم جاء الزاوي بن زيدى وهو يمتطي جواده وحاول أن يأخذ لنفسه طريقا وسط الناس فعمول معاملة سيئة من قبل الحرس الأهلى؛ وبعد

ذلك بقليل تعرض حتى الرصافة الذي كان يقيم فيه الصنهاجة لعمليات سطو. لم تكن الأمور في حاجة لمزيد من التدهور حتى يتم الوقوف بشدة في وجه محمد المهدي الذي لم يقدم إلا حججا واهية للبربر الغاضبين وهم أقرباء عاهل إفريقية، في الوقت الذي كان على الخليفة الجديد - بشي من الحنكة - أن يربطهم به ويجعل مصير كلا الطرفين مشتركا. كما لم يكن المهدي على كثير من الذكاء في موقفه من الضباط الصقالبة أتباع العامريين والذين عاهدوه على الولاء والطاعة، ففي اللحظة التي تلقى فيها النبأ السار بانضمام وديع إليه وقراره بأنه سيستمر في منصبه - في نهاية مارس ١٠٠٩م (رجب ٣٩٩هـ) - اتخذ قرارا ليس من الحكمة في شيء ويتمثل في إبعاد الفتيان من قرطبة وهم الذين كانوا في خدمة المنصور وابنائهم مما جعلهم يتجهون إلى المنطقة الشرقية للأندلس والقيام بحملة دعاية سياسية لصالحهم أتت ثمارها بعد وقت قليل.

تم تولى المهدي بعد ذلك موضوع الخليفة الأسير هشام الثاني فأطلق سراحه داخل دائرته الخاصة وأمره بترك القصر وليس من حقه أية نساء إلا واحدة من المحظيات ترافقها خادمتان ثم وضع الجميع تحت الحراسة في أحد المنازل في المدينة. ثم أمر بأن يذهبوا إلى القصر بجثة مسيحي أو يهودي كان يشبه الخليفة المخلوع وأمر بأن يحضر بعض عليّة القوم ومنهم القاضي ابن ذكوان ليشهدوا على أن الخليفة هشام الثاني قد وافته المنية. وأمر بدفن هذه الجثة في مدافن القصر يوم ٢٦ إبريل (٢٧ شعبان) (١٢). لكن المروانيين لم ينخدعوا بهذه الأكذوبة الصببانية وحتى يقضى المهدي على الشائعات الدائرة قام بإيداع بعضهم السجن ومنهم عميد الأسرة نفسها ويدعى سليمان الذي هو أحد أبناء عبد الرحمن الثالث؛ كان رجلا طاعنا في السن وكان المهدي قد عينه على أنه الوريث الشرعي للعرش بعد توليه.

لما فاضت الكأس قام أحد أبناء سليمان ويدعى هشام بتزعم مجموعة معارضة هدفها الإطاحة بالمهدي وهي مجموعة أخذ يزيد عددها يوما بعد يوم. ولما كان العاهل يدرك أن الجنود النظاميين الذين انتقاهم من بين صفوف العامة من أهل قرطبة لا يمثلون بالنسبة له إلا قوة شديدة التواضع قام باتخاذ قرار سرح فيه سبعة آلاف منهم، فما كان من هؤلاء إلا الانضمام إلى صفوف المتذمرين الذين انحازوا إلى جوار مناوئهم. فقام هذا الأخير بجعل «فحص السرايق» كمركز للقيادة العامة لجيشه وهو سهل يقع على مقربة من قرطبة ناحية الشمال (١٣). وكان الخلفاء يتخذونه قبل ذلك كمقر لاستعراض القوات قبل تسيير الحملات العسكرية. وهناك انضمت إليه الميليشيات التي تم تسريحها وكذا البربر الغاضبون من الخليفة الجديد. علم المهدي بالخطر المحدق به

فحاول إجراء حوار مع هشام - الذى لقبه أنصاره بالراشد - وأطلق سراح سليمان والده. لكن مطالب هشام كانت كثيرة لدرجة أن الرسولين اللذين بعث بهما المهدي - وهما الوزير أبو عمر ابن حزم والقاضى ابن ذكوان - عادا إلى القصر دون التوصل إلى أى اتفاق. إلا أن حظ الراشد كان سيئاً فقد تم أسره وهو يحاول الهجوم على القصر وتم اقتياده إلى المهدي الذى أمر بقتله أمام عينيه وأعلن خروج البربر على القانون. فانسحب هؤلاء إلى Guadamellato لكن نويهم فى قرطبة تعرضوا لمعاملة عنيفة لدرجة ذبح معها بعضهم. وقعت هذه الأحداث فى بداية يونيو ١٠٠٩م (شوال ٣٩٩هـ)

ومنذ هذه اللحظة لم يرغب البربر فى شئ آخر إلا القيام بغزو المدينة وتنصيب أحد الأمويين المواليين لهم، ولهذا طلبوا كافة أنواع المدد من كل صوب بما فى ذلك مساعدة الكونت سانشو غرثية القشتالى وأعلنوا استعدادهم مكافأته بشكل مجزى على هذا العون كما عملوا على إكساب حركتهم صبغة الشرعية، فكان من السهل العثور على واحد من سلالة عبد الرحمن الناصر ممن انضموا إلى صفوفهم واستقر رأيهم على سليمان بن الحكم بن سليمان حفيد الناصر وابن أخو هشام الراشد. كان سليمان هذا يبلغ من العمر خمسين عاماً، فجعلوا منه طبقاً لتعبير أحد المؤرخين «إمام مجموعة البربر» واتجهوا به نحو شمال الأندلس حتى وصلوا إلى قلعة رباح. وهناك جاءهم رسول من المهدي يحمل رسالة تعد بالعفو عنهم لكنهم رفضوا العرض وأعلنوا استهزائهم به. ثم انتقلوا إلى «وادي الحجار» وسيطروا على المقاومة فيها بسهولة ومن هناك وصلوا إلى أسوار مدينة سالم. إلا أن وديع قام بطردهم رافضاً التعامل معهم. وأصدر تعليماته إلى منطقة الحدود الوسطى برفض التعامل معهم أو تركهم ليعيشوا فى هذه النواحي.

كان سانشو غرثية^(١٤) يتابع باهتمام بالغ المراحل المتتالية للأزمة القائمة فى صفوف جيرانه المسلمين. فلم يذهب إليه البربر الذين يؤيدون سليمان بن الحكم طلباً للعون بل لجأ إليه أيضاً وديع وكذلك المهدي، فقد استقبل كونت قشتالة سفارة من سليمان وأخرى من قائد حرس الحدود الوسطى وثالثة من خليفة قرطبة، ثم قرر الوقوف إلى جانب البربر على أساس أن النجاح إذا ما حالف محاولتهم فإن عليهم أن يسلموه بعض الحصون الإسلامية الواقعة على حدود نهر الدويرة لتكون ملكاً خالصاً له. وأخذ يمدهم بأعداد من قطعان الماشية وحمولة ألف عربة دقيق. وبعد ذلك ضم إليهم جيشاً وأبلغ وديع بذلك. إلا أن هذا الأخير رفض الانضمام إلى القوات البربرية

والقشتالية وفضل التحرك ضدها ومعه قوات الحدود التي يتولى قيادتها. فبعد أن وصلتته إمدادات من قرطبة ذهب لمهاجمة سانشو والبربر الذين توقفوا بالقرب من مجريط (Madrid) ناحية الشرق وبالتحديد بالقرب من قلعة هـنارس Alcá de He- nars [قلعة عبد السلام] وانتهى اللقاء بهزيمة وديع الذي انسحب صوب قرطبة.

لم يكن هناك أى عائق أمام سانشو غرثية والبربر إذا ما أرادوا الزحف نحو العاصمة الأندلسية ففي الثالث من نوفمبر ١٠٠٩ هـ (١١ ربيع الأول ٤٠٠ هـ) وصلت هذه القوات إلى Guadamellato وحاول المهدي خلال الأسابيع التالية دعم دفاعات قرطبة فأمر بحفر خندق عند مخارج الأرباض في الشمال وفي «فحص السراشق» وزاد عدد قواته النظامية بأن ألحق بها قوات أخرى لم تكن قد تلقت أى تدريب عسكري وخرج للقاء المتمردين يوم الخامس من نوفمبر عند بلدة Gandiclr^(١٥) الواقعة شمال شرق القليعة Alcolea التي تقع بالقرب من ملتقى نهر Guadamellato مع نهر الوادي الكبير. كانت نتيجة المعركة كارثة على القرطبيين حيث مات منهم مالا يقل عن عشرة آلاف أو غرقوا عند محاولتهم عبور النهر هرباً من جنود الجيش المعادي.

أصبح محمد المهدي لا حول له ولا قوة، وأصبح سليمان بن الحكم سيد الموقف وإمام البربر، أو بعبارة أدق إمام رئيس هؤلاء وهو الزواي بن الزيري. ثم حاول الاتفاق مع مناوئيه وكان ملاذه الأخير هو الحضور إلى هشام الثاني وطلب منه الخروج من المكان الذي يتعبد فيه والظهور في إحدى شرفات القصر منوها بهذا - أمام البربر - أنه ليس إلا رجلاً يحمل تعليمات أمير المؤمنين. إلا أن الرجل الذي كلف بهذه المهمة وهو القاضي ابن ذكوان لم يسعه إلا الاستهزاء بما يحدث «كيف يصدر ذلك منك؟» - قال لهم - ألم يمت هشام وكنت أنت أول من أدى صلاة الجنازة عليه؟ أى الألقاب يمكن أن يعطيها للخلافة. ولم يكن أمام المهدي إلا الاختفاء عن الأنظار فهرب إلى أحد المنازل في قرطبة وظل ساكناً بعض الوقت.

وفي الثامن من نوفمبر (١٦ ربيع الأول) دخل الزواي بن زير قصر الخلافة حيث انضم إليه سليمان في الحال وفي اليوم التالي نُوديّ بسليمان خليفة في المسجد الجامع وتم منحه لقب «المستعين بالله» كانت أول خطوة اتخذها هي إنزال جسد العامري شنجول من الحامل المعلقة به وأمر بدفنها وأداء حقوق الدفن الشرعية. كما أحسن وفادة الكونت غارثيا واستقبله في أحد صالونات القصر. وقد وافق الكونت على تأخير تسليم الحصون التي وعده بها. ولما عاد الكونت إلى قشتالة ترك في قرطبة مائه رجل مسلح أقاموا في منية بالناحية. وكانت لديه كافة الأدوات التي تساعد على كسب

المباراه ولم يخف احتقاره للموقف الذليل وعدم الحمية وما ترتب على ذلك من أثر فى مسلك القرطبيين.

– سليمان المستعين - الخلافة الثانية لمحمد المهدي :

لم تقبل الأقاليم والولايات المختلفة بتولية سليمان المستعين عرش الخلافة فى قرطبة ماعدا محافظات الجنوب. كما أن سكان العاصمة كانوا يشعرون بنقمة على البربر الذين أصبحوا الآن الحكام المستترين وبذلك كثرت الحوادث التى ساعدت على تعقيد الموقف فكل يوم تقع اعتداءات على الأفريقيين بشكل فردى رغم أن زواى بن زيرى قد غادر هو وقواته المدنية ليعيشوا فى مدينة الزهراء محاولين بذلك تفادى كل ما من شأنه الاحتكاك بالعامية فى أسواق المدينة وأرياضها. أما محمد المهدي فقد استطاع تضليل رجال الشرطة الذين كانوا يبحثون عنه ووصل إلى طليطلة مع نهاية العام وقد استقبلته هذه المدينة بالترحاب واعتبرته الوريث الشرعى الوحيد للخلافة الأموية.

استمرت منطقة الثغور الوسطى التى يسيطر عليها وديع بعد عودته إلى مدينة سالم على ولائها للمهدي. وإذا ما استمرت الأمور على هذا المنوال يمكن أن يتعرض عرش سليمان المستعين للتهديد وبالتالي قرر هذا الأخير القيام بحملة ضد سابقه وضد من يؤيدونه. ففى نهاية شهر يناير ١٠١٠م (١١ جمادى الثانية ٤٠٠هـ) اتخذ طريقه صوب وادى نهر التاجه، لكن التهديدات التى وجهت إلى أهالى طليطلة لم تؤت ثمارها ولم تسفر الحملة ضد مدينة سالم عن نتائج تذكر. ولما كانت الظروف المناخية غير مواتية، فقد كان المطر يهطل بغزارة وتتساقط الثلوج، عاد سليمان المستعين أدراجه إلى قرطبة فى الرابع عشر من شهر أبريل (٢٧ شعبان).

سار وديع صوب طرطوشة **Tatrosa** الواقعة على حدود قطلونية وأجرى مباحثات مع اثنين من أهم قادة ثغر الفرنجة فى المنطقة الأسبانية وهما رامون بوريل الثالث **Ramon Borrell** كونت برشلونه وإير منغول دى أورجيل **Ermangol de Urgel** واستطاع بعد لآى الحصول على مساعدة عسكرية بشروط صعبة إذ كان عليه أن يسدد تعويضات يومية لكل واحد منهما قدرها مائه قطعة ذهبية بالإضافة إلى دينارين عن كل جندي. وعليه أن يوفر للقوات النبذ والمأكّل، كما أن أية غنائم يستولون عليها

من البربر ستكون ملكا خالصا لهم. وفي إطار هذه الشروط دخل فرسان كلا الحاكمين ضمن صفوف قوات وديع. وصلت هذه القوات إلى طليطلة مرورا بمدينة سالم ومدينة سرقسطة حيث كان المهدي في انتظارها. وتوجه الجميع إلى قرطبة. وقد بلغ تعداد القوات أربعين ألف رجل ربعهم من الجنود الفرنجة.

لم يكن لدى سليمان المستعين من قوات إلا مجموعات البربر ذلك أن القرطبيين رفضوا الانضمام إليهم فما كان منه إلا العمل على مواجهة تهديدات محمد المهدي وفي يوم الثاني والعشرين من مايو عام ١٠١٠م (٥ شوال ٤٠٠هـ) تقدم صوب طليطلة والتقى بمناوئيه بعد ذلك بعدة أيام في منطقة تسمى «عقبة البقر» وهي عبارة عن قلعة للمراقبة تقع على بعد عشرين كيلو مترا شمال قرطبة. وفي الجنوب الغربي لبلدة أوبيخو Ovejo^(١٦) كانت للبربر الغلبة في البداية على الجنود الفرنجة حيث أحدثوا في صفوفهم خسارة فادحة^(١٧) ورغم النصائح التي أسدوها إلى سليمان المستعين الذي كان في مؤخرة الجيش، ظن أنه قد قطع خط الرجعة على انسحاب قواته فأسرع بالهرب وتسبب ذلك في تفكك الجيش. وتوفر الوقت لدى زاوي بن الزيري ومن معه ليذهبوا إلى مدينة الزهراء ليأخذوا أسرهم معهم ويسافروا نحو الجنوب بينما أخذ إمامهم طريقه مسرعا نحو بلده شاطبة Jativa، وفي اليوم التالي دخل محمد الثاني المهدي ومعه وديع قرطبة دخول الظافرين، وعندئذ بدأت فترة ولايته الثانية.

كانت الفترة الثانية أقصر من الأولى. ولما كان بيت المال خاويا على عروشه فقد طلب من القرطبيين المال اللازم لسداد الأموال التي وعد بها اللذين ساعداه من حكام قطلونية. كما حثه هؤلاء أيضا على المزيد من العمل فخرج مطاردا البربر الذين اتجهوا إلى الجزيرة وأعدوا العدة للرحيل إلى شمال أفريقيا إذا ما ازدادت الأمور سوءا. والتقى بهم في ٢١ يونيو ١٠١٠م (٦ ذي القعدة ٤٠٠هـ) عند أول نهر وادي يارو Gua-diaro^(١٨) الذي يبعد عن رُنْدَة Ronda بعض الشيء. وهذه المرة كان البربر هم الذين أوقعوا بمحمد المهدي ومن معه هزيمة نكراء حيث قتلوا ما لا يقل عن ثلاثة آلاف من الجنود الفرنجة وقتلوا أمين الماليه اليهودي ويدعى /رامون يوريل Ramon Borrell وجمعوا غنائم طائلة ذلك أن المسيحيين كانوا يحملون في أحزمتهم كميات كبيرة من الذهب والفضة. عاد المهزومون إلى قرطبة وعندما طلب المهدي من الجنود القطلانيين الخروج لمهاجمة البربر من جديد رفضوا وغادروا المدينة بعد أيام عائدين إلى وطنهم.

ولم يكن أمام العاهل الا التحصن للدفاع واتخاذ التدابير اللازمة لتحمل الحصار الذي سيقوم به البربر بعد استيلائهم على مقاطعة البيرة Elvira. فقام بحفر خندق على طول السور المحيط بالمدينة وتم حماية هذا الخندق بحوائط سائدة.

أدرك وديع - الرجل الذي كان وفيًا لمحمد المهدي وفاء كاملاً - أن هذا الأخير أخذ يقع في نفس الأخطاء التي ارتكبها خلال فترة خلافته الأولى وأن لا شيء يمكن انتظاره من رجل يتسم بالاباحية وعدم الذكاء ولا يتورع عن فعل أي شيء. وقد أثر عليه بعض السلافيين العامريين الذين كانوا يعيشون على السواحل الشرقية، مما جعله يقبل بقدوم بعضهم إلى قرطبة ومن بينهم الفتى خيران والفتى عنبر اللذان ذهبا إلى شاطبة Jativa. وقبل أن يصل البربر إلى قرطبة، قام وديع ورتب مع نويه هؤلاء مؤامرة كان هدفها إزاحة محمد المهدي الذي لا حول له ولا قوة، عن العرش وإعادة الخليفة هشام الثاني إلى عرش الخلافة. وتم تنفيذ برنامج الخطة بدقة ففي ٢٣ يوليو (٨ ذي الحجة) تم اغتيال محمد بن هشام بن عبد الجبار على يد ضباط من الصقالبة داخل القصر وفي حضور المؤيد.

– الخلافة الثانية لهشام الثاني (١٠١٠-١٠١٣م) حصار قرطبة :

أوضح هذا التحول السريع الذي حدث بتحريض من وديع أن الصقالبة لم يفقدوا حتى هذه اللحظة الأمل في أن تمسك أيديهم بشئون إدارة الدولة، وأنهم لازالوا يعتبرون الخلفاء الطبيعيين لأولياء نعمتهم من العامريين. فهل كان وديع يريد أن يتولى منصب القائم بشئون القصر إلى جوار الخليفة الضعيف هشام الثاني كما فعلها المنصور منذ وقت طويل؟ هذا التصور يدخل في دائرة الاحتمال، وعلى أي حال فقد جاء حزب الصقالبة ليواجه حزب البربر، وفي الوقت نفسه نجد أن الحزب العربي، أو بمقولة أدق الأندلسي - أبناء الأسر العريقة من علية القوم والفقهاء ... ظل في دائرة الظل سواء كان السبب هو الأنانية أو الخوف أو اللامبالاه بما سيحدث في المستقبل. لم تؤد عودة هشام الثاني إلى الخلافة إلى الوحدة المقدسة التي كان يرتولها وديع فقد رفض البربر المنصور ومعهم إمامهم سليمان الاعتراف بالوضع الجديد إذ كان الأمويون في العاصمة يتشككون في نوايا مولى المنصور فأرسلوا إلى سليمان رسالة يعلنون فيها انضمامهم إليه دون تحفظ. أما هشام الثاني فقد ظل العوبة في يد وديع الذي عين حاجبا كما كان على حاله أثناء حكم العامريين الثلاثة. وسرعان ما وصلت الأخبار بأن البربر يقتربون من العاصمة. هاجموا أولا مدينة الزهراء يوم ٤ نوفمبر

١٠١٠م (٢٣ ربيع الأول ٤٠١ هـ) وقضوا على حاميتها ومكثوا فيها حتى الربيع وقد ضيقوا الخناق على المدينة فقد كان هدفهم استسلامها جوعاً. أدت هذه المحطة إلى قيام مجموعات من البربر باستغلال وقت الفراغ لإخضاع مناطق جيان Jaen وإلبيرة Elvira ومالقة والجزيرة لسيطرتهم وإعلان اعترافها بأن سليمان المستعين هو العاهل.

كانت الأمور تزداد سوءاً كل يوم في قرطبة عندما جاءت إليها سفارة من سانشو غرثية تطالب بالحصون التي وعدت بها قشتالة، وقام البربر بتحريض الرسل ضد هشام الثاني، ذلك أن الأقاليم الواقعة على الحدود ظلت على ولائها لسلطة وزيرها الأول وديع. ولم يكن أمام الخليفة وحاجبه إلا الإذعان لتلك الإهانة وحرراً عريضة رسمية أعطيا بمقتضاها لسانشو غرثية حق ملكية بعض الحصون الواقعة على طول نهر الدويرة وبالتحديد شنت إشتين وكلونيا وخشمة osma وغرماج، على أن الكونت القشتالي وعد بالقيام بأية عمليات عدوانية على منطقة الثغور الوسطى. هذه القلاع والحصون السابقة كانت تعيش في القرن الماضي ترفرف عليها الراية البيضاء لبنى أمية^(١٩).

ورغم الحصار الذي أخذ يضيق حول قرطبة ظل أهلها يعاندون فكرة السلام، ولو مؤقتاً، مع البربر وهؤلاء من جانبهم لم يبد عليهم الاستعداد للدخول في أي تفاوض، وكان السكان يتنادون بمحاربة قوات الحصار لكن أذانهم تصاب بالصمم عندما يطلب منهم الإسهام في التسليح، ولما كان البربر قد استولوا على باقي احتياطي المؤن الموجودة في الحقول المحيطة لم يجد الحصادون مناصاً إلا الهرب إلى المدينة لينضموا إلى طابور الأفواه الجائعة. كانت خزائن بيت المال خاوية ولم يكن أمام وديع إلا بيع جزء من مقتنيات المكتبة العامرة التي جمعها الحكم الثاني في قصره^(٢٠) كان هدف وديع الحصول على المال.

مضت الشهور دون أن يكون هناك حل ما فانقضى الشتاء وبعده الربيع وشهد نهر الوادي الكبير فيضانا كبيرا قضى على ألفى منزل في العاصمة وراح ضحيته عدة آلاف من الناس وأثرت الأمطار الغزيرة والمتواصلة على أسوار المدينة، ولم تعد هناك مؤن، وما بقي منها وصل سعره إلى أعلى درجة وحل وباء بالعاصمة خلال الصيف وضرب سكان العاصمة. ونظرا لتلك الظروف واستنادا إلى أن ليس هناك مخرج آخر اتخذ وديع قراره بالفرار، هكذا ببساطة، آملا أن تتحقق طموحاته السياسية بعد ذلك. لكن خطته فشلت ذلك أن أحد القرطبيين من نوى الحمية ويدعى (ابن وداعة)^(٢١) يرافقة بعض القتلة المأجورين ذهب إلى وديع في منزله وأخرجه منه بعنف وأخذ يكيل له

السباب والشتائم وفي النهاية قطع رأسه يوم ١٦ أكتوبر ١٠١١م (١٥ ربيع الثاني ٤٠٢هـ).

تمكنت قرطبة من مواصلة المقاومة لمدة عام ونصف بفضل الإجراءات التي اتخذها ابن وداعة قاتل وديع والذي أصبح صاحب شرطة المدينة وساعده في تلك المهام وزير يدعى ابن المناوى. كان كلاهما ينادى بالمقاومة حتى النهاية على أمل أن يهب المواطنون المقيمون في مناطق الثغور لنجدة قرطبة والخليفة، وأرسلوا إلى زواى بن الزيرى عدة مقترحات حتى يتخلى عن حرب سليمان فكان ردّ رئيس الصنهاجة مهذبا لكنه أصر على مطالبه. وفي بداية صيف عام ١٠١٢م (نحو الحجة ٤٠٢ هـ) نصح أعيان الدولة هشام الثانى أن يسلم المدينة فى إطار شروط معينة تعتبر الحد الأدنى من المقبول به. لكن لم يأت الرد على الرسالة التى وجهها الخليفة إلى سليمان المستعين. وازدادت عدوانية البربر بمرور الأيام وجاء بعض قادتهم نحو أسوار قرطبة يتحدثون أبطال المعسكر الآخر أن يخرجوا لقتالهم رجلا لرجل، وذات يوم مات حباسه بن مكسن ابن أخو زواى بن الزيرى عندما دخل معركة غير متكافئة ضد مجموعة من القرطبيين، فانتقم له ذووه انتقاما كبيرا خلال الأيام التالية؛ وكان المواطنون يقومون بطلعات متعددة ليروا فيما إذا كن الموقف قد انفرج أم لا، لكنهم يعودون خاسرين، وأخيرا جاء الفرج ففى يوم ٩ مايو عام ١٠١٣ (٢٦ شوال ٤٠٣ هـ) ذهب القاضي ابن ذكوان يرافقه بعض الفقهاء بالتوجه رسميا إلى معسكر البربر وطلبوا الأمان لأهالى قرطبة فأعطوه من جديد. وعندها قام أتباعه بالتجول فى المدينة وهم يسومون أهلها سوء العذاب وشفاء غليلهم من هؤلاء الذين قاوموهم مقاومة شديدة وسالت الكثير من الدماء فى هذه المدينة الجميلة ولم تسلم أى طبقة اجتماعية من سوء المعاملة من قبل المنتصرين الذين لم يتورعوا عن فعل أى شئ. وقد رسم لنا العظيم ابن حزم فى كتابه «طوق الحمامة» صورة عن تلك الأيام المأساوية حيث اغتيل الكثير من العلماء مثل كاتب التراجم ابن الفرضى ونهبت كافة القصور الأرسقراطية وأحرق كثير منها.

– وفاة الخليفة هشام الثانى والولاية الثانية لسليمان المستعين :

بعد أن استقر المقام بالمستعين فى القصر أمر بأن يمثل أمامه هشام الثانى المؤيد. ثم أنبّه كثيرا وبعد أن تلعثم الخليفة ببعض عبارات الاعتذار مؤكدا أن سبب إعتلائه عرش الخلافة من جديد كان الضغط عليه وأنه تنازل للمرة الثانية عن الخلافة لصالح سليمان. فماذا فعل به سليمان عندئذ؟ نجد أن المؤرخين المسلمين يشيرون إلى

هذه النقطة باقتضاب شديد، كما نلاحظ عدم توافق الروايات فمن قائل بأن هشام أُدين بالموت ومن قائل إنه استطاع الهرب والفرار صوب المشرق العربي حيث انتهت حياته ولا يعرف عن نهايته شيء. وعلى أى الأحوال فإن حفيد الناصر لم يظهر مرة أخرى على الساحة السياسية، كما تتوفر أسباب معقولة للميل بأنه قتل وأن الخبر لم يذع، فقد ظل اسمه يتردد على المنابر فى الكثير من مساجد الأندلس. كما أننا نعرف يقينا أن الشخص الذى أرادوا تقديمه فى أشبيلية على أنه هشام المؤيد لم يكن إلا شبيها أريد له الظهور لأسباب سياسية وأن الأموى الحقيقى كان قد مات منذ بضعة أعوام. ويرى ابن الخطيب أن محمدا (٢٢)، أحد أبناء المستعين، هو الذى أقدم على خنق هشام الثانى فى الثامن عشر من مايو عام ١٠١٣م (١٥ ذو القعدة ٤٠٣هـ) وأشاع نبأ تسهيل هربه وأنه عاش ردحا من الزمن فى المريّة عيشة ضنكا حيث كان يعمل فى مهنة السقا حتى وافاه الأجل (٢٣). ومن المحتمل أن تكون الأحداث قد سارت على هذا النحو. والحقيقة أن رحلة العاهل الثالث قد انتهت بنفس الطريقة التى بدأت بها يوم أن تولى منذ زمن عرش الخلافة: أى نهاية قاتمة وشديدة التواضع. وفى نفس اللحظة التى بدأت فيها وصاية العامريين أيضا نجد أن خلف عبد الرحمن الثالث والحكم الثانى كان يتأرجح فى مواقفه طبقا لمجريات الأحداث دون أن يحاول التعبير عن شخصيته. وعندما تم إقصاؤه للمرة الثانية وربما إلغاؤه كان عمره يناهز الخمسين عاما وإذا ما بحثنا فى التاريخ الإسلامى فلن نجد إلا القليل من هذه الشخصيات الضعيفة وغير واضحة المعالم.

امتدت ولاية سليمان المستعين إلى ما يقرب من ثلاثة أعوام قبل أن تنتهى نهاية مأساوية. ولسنا ندرى شيئا عن الأنشطة التى مارسها خلال هذه الأعوام؛ نعرف أن كانت له بعض القدرات. وإذا ما أخذنا برؤية كتاب ترجمته كان ذا ثقافة أدبية واسعة وكانت له موهبة قرض الشعر، لكن إذا نظرنا إليه كرجل دولة فلم يكن إلا أداة فى يد البربر الذين دفعوا به إلى الحُلم.

وعندما تولى الحكم للمرة الثانية احتفظ البربر بأعلى المناصب فى المملكة، ولما أدركوا بعد قليل أن الوحدة السياسية للأندلس قد انتهت منذ زمن طويل وأن الثغر الأوسط ومنطقة شرق الأندلس يرفضان الانصياع للخليفة، أوعزوا إلى سليمان بأن يصدر قرارا يضمن لهم مستقبلهم القريب وهو منحهم إقطاعيات فى المحافظات الوسطى والجنوبية التى تعترف بسلطته فأخذ الصنهاجة نصيب الأسد؛ إذ سيطروا على محافظة البيرة بالكامل. أما المغراوة فقد أخذوا لأنفسهم الأحياء الشمالية فى العاصمة، أما بنو يقرو وبنو برزال فقد استولوا على جيان Jaen والأراضى التابعة لها.

أما بنو **Dammar y los Azdacha** فقد استولوا على مدينة صيدونيا **Sidonia** ومورو **Moron**. كما نودّ الإشارة إلى أن سليمان المستعين إتخذ قرارا بأن يظل العربي/ المنذر بن يحيى فى موقعه فى سرقسطة والثغر الأعلى. وهو رجل من الفرع التجيبى من بنى هاشم وهو ذلك الرجل الذى أيده فى قضيته وشارك فى الاستيلاء على قرطبة(٢٤).

ومنذ أن مات عبد الملك المظفر فإن المنطقة الداخلية فى المغرب التى كان يحكمها المغراوى المعز بن زيرى بن عطية كانت قد خرجت نهائيا من الحماية القرطبية، ولم يتبق إلا بضع حاميات على الشاطئ تتواجد فيها وحدات أندلسية، وهى سبتة وطنجة وأرثيلا، كانت لاتزال تعترف فى البداية بالأمير المسلم الذى كان يمارس سلطاته فى جنوب أسبانيا وعندما قام سليمان المستعين بتوزيع الإقطاعات بين ضباطه من الصنهاجة والزناات فإنه وكل إدارة هذه الحاميات الأفريقية لاثنتين من القادة اللذين انضمما منذ فترة إلى صفوف البربر وهما على حمود وشقيقه الأكبر القاسم.

كانا الاثنتين من الأدارسة الأصلاء ذلك أن جدهم حمود كان حفيد إدريس الثانى نفسه. وكانا مثل الكثيرين من أقاربهم من ذوى النسب العلوى قد جاءا للبحث عن الثراء فى أسبانيا دون أن يفقدا الصلة التى تربطهم بالأقليم الجبلى الواقع شمال المغرب والذى يحيط بمنطقة جبل طارق. كان على بن حمود هو أكثر الأخوين جرأة فلم يشعر نحو سليمان المستعين إلا بالقليل من الاحترام. ولهذا السبب فإن الحاشية البربرية التابعة للخليفة أصيبت بالمفاجأة عندما عرفت بأن العاهل قد عهد إلى على حكم سبتة وحكم الجزيرة وطنجة وأرثيلا إلى القاسم. كان على يبدو فى صورة الرجل الذى استمع لوصية هشام الثانى وأنه عين من قبل الخليفة ليكون خلفا له بعد موته. وعلى أى الأحوال فإن الإدريسى لم يخف نواياه تجاه الأمير الذى عينه، بمجرد وصوله إلى مقر المنطقة التى يحكمها فأمر بقتل قاضى سبتة محمد بن عيسى بن زاية(٢٥) وكذلك أمر بقتل/ ابن يربوع أحد أبرز فقهاء المدينة وكان الاتهام الموجه إليهما هو أنها تحدثا عنه بسوء أمام المستعين. وقد جرى تنفيذ الحكم فى نهاية عام ١٠١٣م وبداية ١٠١٤م (٤٠٤هـ). إلا إقطاعاتهم أجرى على مفاوضات مع الصقالبة العامريين المتواجدين على السواحل الشرقية وخاصة مع الفتى خيران الذى أقام فى المرية وفى صيف عام ١٠١٦م (نهاية عام ٤٠٦هـ) عبر الأدريسى مضيق جبل طارق وطلب من عامر بن فتوح حاكم مالقة أن يسلمه المدينة ففعل ثم توجه من هناك الى المنكب

Almuñecar حيث انضم إليه خيران واتخذا طريقهما إلى قرطبة أما أخوه القاسم فقد ظل في الجزيرة مرابطا وعلى استعداد للتدخل إذا ما لزم الأمر.

لم يبد المستعين أية مقاومة تذكر أمام على بن حمدون، إذ فقد الأول عون أغلب كتائب البربر التي أخذت تعنى بشئونها الخاصة، فألحق على الهزيمة به وأسره بالقرب من العاصمة التي دخلها فاتحا في أول يوليو ١٠١٦م (٢٢ محرم ٤٠٧هـ) وأول ما فعله على هو المطالبة بأن يسلمون هشام الثانى حيا أو ميتا. ولما كان هناك شك فى اغتياله أراد التأكد من ذلك لاعلان مشروعية اغتصابه للخلافة. وبعد نبش قبر هشام الثانى والتعرف عليه وإعادة مواراة رفاتة التراب للمرة الثانية فى المدافن الملكية التابعة لبنى أمية قام على بطعن المستعين طعنة قاتلة بعد أن ثبتت عليه تهمة قتل الخليفة. كما تعرض كل من أخيه عبد الرحمن ووالده الحكم لنفس المصير رغم براءتهما من أى تهمة وفى اليوم التالى قام على بن حمدون بتنصيب نفسه خليفة. واتخذ لنفسه اللقب الشرفى الذى كان لعبد الرحمن الناصر «الناصر لدين الله» (٢٦).

كانت هذه هى المرة الأولى التى يصعد فيها على كرسى الخلافة فى قرطبة عاهل من غير المروانيين، منذ قدوم الأسرة الأموية إلى أسبانيا. إلا أن أهالى المدينة أصابهم الضجر من عدم أهلية الحكام الذين تناوبوا السلطة منذ بضعة أعوام وبالتالي لا نرى أى رد فعل لهذه الخطوات، اللهم إلا شعور البعض بالسعادة لما حدث. كما وقعت أحداث جسام خارج العاصمة أثناء الفترة القصيرة التى تولى فيها سليمان المستعين وأوضححت هذه الأحداث بجلاء شديد التمزق الشديد الذى أصبحت عليه دولة الأندلس. وأن الوحدة الأسبانية الإسلامية قد تفككت وكيف أخذت تعم الفوضى التى أخذت تقوِّض هذا البلد السيئ الحظ. تضاعل الأمل فى إعادة الأوضاع الى ما كانت عليه إذا استقر المقام بالصنهاجة فى شرق الأندلس أما الزناته فكانت لهم الناحية الغربية وأخذ الصقالية يكسبون الأراضى الواقعة بين ألمرية وبلنسية Valencia. وفيما يتعلق بمناطق الثعور نلاحظ أن الحكام المحليين لم يعترفوا بسلطة الحكومة المركزية لدرجة ظهور خليفة مناوئ فى المنطقة الشرقية. وقد شجع هذا أحد الصقالبة العامريين ويدعى مجاهد الذى أصبح سيد دانية Denia وسيد جزر البليار - كما سنرى فى الفقرات التالية - كما أنه وضع أحد قدميه فى جزيرة سردينيا. نودى بهذا الخليفة - عبد الله المؤيدى - أمير المؤمنين فى شهر ديسمبر عام ١٠١٤م (جمادى الثانية ٤٠٥هـ) لكن فترة ولايته كانت قصيرة ثم سقط بعد ذلك فى غياهب الظلمة التى أخرجته منها القدر لبعض الوقت.

٣- بنى حمود وآخر الأمويين القرطبيين (١٠١٦م - ١٠٣١م)

- حكم على بن حمود :

سرت فى أسبانيا فى ذلك الزمان نبوءة تقول «هناك متمرّد يبدأ اسمه بحرف العين سوف يظهر فى سبتة ثم يحكم الأندلس» وقد أثرت هذه النبوءة كثيرا على هشام الثانى، وتمثلت فى الانقلاب الذى قام به على ابن حمود. إلا أن العاهل الجديد وهو رجل يزيد عمره على خمسين عاما، عند توليه الحكم، لم تكن تتوافر لديه من الصفات التى تسهم فى خلق قواعد صلبة لإرساء الحكم الذى اغتصبه دون عناء كبير. كان على مثل باقى الأدارسة قد أخذ طباع البربر لدرجة أنه لم يكن يتحدث العربية إلا بصعوبة كما أنه كان يتحدث باللهجة الزناتية^(٢٧) ومع هذا كان واعيا لمتطلبات عراقة الأصل وتأهله لشغل منصب الخلافة. ولهذا كرّس الشهور الأولى من حكمه (ثمانية أشهر) ليحظى بتقدير رعيته ولم يكن هناك شئ يسعد القرطبيين إلا تضيق الخناق على كتائب البربر التى كانت ترابط فى العاصمة رغم أنها لم تعد فى موقف يسمح لها بأن تفعل ما تريد. فالجرائم العامة كان يرتكبها البربر وهو موقنون بأن لاعقاب سيقع عليهم. أخذ الحمودى يطبق تلك العقوبات بصرامه بالغة لدرجة أنه أمر بقتل جندي لسرقته كمية من العنب. وحرص العاهل الجديد على التطبيق الحرفى للحدود الشرعية لدرجة أثارت حيرة المواطنين أنفسهم. لكن لم يطل الأمر بهذه النوايا الحسنة فقد اتخذ أهالى قرطبة موقفا متحفظا بشأن على بن حمود، فأخذوا ينتقدونه ويفسرون تصرفات أمرائه بطريقة ملتوية وأخذت الهمهمات تتحدث ضد هذا الأجنبى الذى اغتصب السلطة. ثم أخذ الأهالى يجاهرون بميلهم لقضية الأموى المرتضى وهو الرجل الذى حاول الصقالية تزكيته فى المحافظات الساحلية فى الشرق.

وما حدث بعد ذلك هو تحول على بن حمود - فجأة عن السياسة المعتدلة التى فضل السير عليها منذ البداية ويمرور الأيام أخذ الزناته يستردون حصانتهم والمزايا السابقة التى كانوا عليها، وفى الوقت ذاته كان القرطبيون يعيشون فى ظل نظام إرهاب. كما أعلن أن البرجوازية مسئولة عن أية تصرفات يقوم بها العامة، وعمت الإجراءات المعتادة مثل إلقاء القبض بشكل متكرر على الأفراد ومصادرة الأسلحة والغرامات الباهظة ومصادرة الأموال. وقد خيم كل ذلك بثقله على أهالى المدينة، ولم يكن هناك مناص إلا مجئ المرتضى لإقصاء الطاغية عن كرسى الخلافة لكن صاحب الحق الأموى هذا تأخر وصوله. وعندئذ أعلن على بن حمود أنه عقد العزم على التوجه

إلى جيان Jaen لمهاجمته غير أنه كان بحاجة لبعض الوقت. وعندئذ قام ثلاثة من الخدم الصقالبة في القصر بالهجوم على سيدهم. كان ذلك ليلة الثاني والعشرين من مارس عام ١٠١٨م (أول ذي القعدة عام ٤٠٨هـ) وقد هوجم وهو في الحمامات الملكية وتركوه فاقد الوعي بعد أن ألقوا على رأسه جردلا نحاسيا ثقيلا ثم أجهزوا عليه بالخناجر وفروا هاربين دون جلبة. مرّ وقت قصير حتى اكتشف حريم على بن حمود وهو غارق في بركة من الدماء فأسرع الزناتة بإبلاغ أخيه الأكبر الذي كان قد ترقى وأصبح والي أشبيلية. فوصل القاسم بن حمود إلى قرطبة بعد ستة أيام من مقتل أخيه ونصب نفسه خليفه وتلقب بالمأمون.

– الأموي المرتضى والحمويان قاسم ويحيى :

كان القرطبيون ينتظرون النجدة من قبل من يطالب بكرسّ الخلافة، المرتضى، لكن حياته قد انتهت نهاية مأساوية قبل أن تبدأ وذلك خلال الأسابيع الأولى التي تلت اغتيال على بن حمود، وتولى أخوه القاسم عرش الخلافة. كان المرتضى أحد أبناء وأحفاد عبد الرحمن الناصر، ويدعى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك، وقد ذهب للعيش في بلنسية، واكتشف وجوده الفتى الصقلبي خيران سيد المرية. كان الصقلبي رجلا مثيرا للمتاعب ولا يعوقه أى رادع أخلاقي وكان كل همه تحقيق مآربه الشخصية فقد أيد في البداية على بن حمود ضد سليمان المستعين وظل على علاقة طيبة به طوال بضعة أشهر؛ وبعد ذلك صعد نجمه على أساس أنه هو الذى انتقم لمقتل هشام الثانى، إذ كان على رأس المجموعة التي كانت تهدف لطرد الأدريسى المغتصب من قرطبة. ولهذا تحالف مع العربى التوجيبى/ منذر بن يحيى السرقسطى. كان هذا الأخير على استعداد لخيانة على واتفق خيران ويحيى على تكوين جيش فى المنطقة الشرقية والثغر الأعلى، كما وعد كونت برشلونه الذى كان حليفا ليحيى بأنه سيزودهما ببعض القوات. تمركزت هذه القوات شاطبة Jativa حيث حضر الأموي بناء على تشجيع خيران له وأخذوا يستعدون للرحيل إلى قرطبة مروراً بجيان. وهى المنطقة التي فكر على بن حمود الذهاب إليها لايقافهم. وبعد ذلك بشهر وبالتحديد يوم ٢٩ - ابريل عام ١٠١٨م (١٠ ذي الحجة ٤٠٨هـ) قام المتآمرون بالمناداة بخليفتهم الذى تلقب بالمرتضى. لكن لما كان هذا الأموي يتمتع بالحزم والإقدام فقد بدرت عنه منذ الأيام الأولى تصرفات توحى بقوة الشخصية وأنه لن يسمح بلعب دور غير معروف الملامح أرابوه له - خاير ومن يدورون فى فلكه. فلم يجد هؤلاء طريقا للتخلص منه إلا خيانتة خيانة نكراء.

اتخذوا قرارهم بتأجيل مهاجمة المدينة وبدلاً من ذلك هاجموا الصنهاجة المقيمين في البيرة. ثم قام الجيش المكون من أربعة آلاف رجل هم جماع تحالفات كثيرة بالتوجه لحصار غرناطة التي حولها زاوي بن الزيري ومن معه إلى عاصمة لهم. لم يستطع القائد الصنهاجي العجوز أن يواجه المرتضى إلا بألف فارس أحسن إعدادهم وهم أناس تتوفر فيهم روح الجندية. وبناء على دعوة رقيقة من الأموي يطلب منه فيها الانضمام اليهم كان رده ذكر آيات قرآنية^(٢٨). ثم تبع ذلك التهديد والوعيد فكان مصير هذه الدعوات نفس السابقة عليها إذ كان رفض الزاوي واضحاً إذ استخدم في الرد عبارات عنيفة تمثلت في ذكر آيات من القرآن^(٢٩). وعلى الجانب الآخر - صفوف الجيش المهاجم - نجد أن خيران أبلغ عن استعداداته للأشواق والتخلي عن المرتضى. فعندما أصدر هذا الأخير أوامره بالهجوم على غرناطة قام الصنهاجة بالإغارة على المهاجمين بكل قوة مما جعلهم يفرون ثم أخذوا في مطاردتهم محدثين في صفوفهم خسائر فادحة. لم يعبأ كل من المنذر بن يحيى وخيران بالخليفة وتوجهها إلى ألبانيا مسرعين. أما الضباط الذين هم من أرغن Aragon ومن بينهم سليمان بن هود وحلفائهم من القطلانيين فقد عاد كل فريق إلى بلاده في الشمال وهو يحمل على كتفيه ثقل الهزيمة. كان الفرار هو طريق المرتضى فقد لجأ إلى وادي أش Guadix حيث ذهب بعض رسل خيران للبحث عنه واغتياله^(٣٠).

زادت المرارة في حلق القرطبيين للحظ المشئوم الذي تعرض له المرتضى وأخذوا يتساءلون فيما إذا كان الحمودي الجديد سوف يمارس طغيانه عليهم ويسير في نفس الطريق الذي بدأه أخوه علي. أما زاوي بن الزيري الذي اعترف رسمياً بخلافة القاسم بن حمود فقد أبلغه بأنباء انتصاره وأرسل إليه بجزء من الغنائم التي استولى عليها من معسكر المرتضى وكذا خيمة الاستعراض^(٣١). انتاب الرعب أهالي قرطبة عندما شاهدوا هذه الهدايا غير أنه سرعان ما اكتشفوا أن مخاوفهم لا أساس لها من الواقع. وقد شهدت قرطبة اعتباراً من تلك اللحظة، ولدة ثلاث سنوات، تهدئة واضحة للمشاعر، فالقاسم كانت تتوافر لديه بعض المهارات السياسية كما أن تقدم العمر به جعله يميل إلى الاعتدال وانتهى الأمر بأن أصبحت له شعبية في قرطبة دون أن يسعى وراءها. إذا أعلن عفواً عاماً عندما تولى الحكم وألغى أحكاماً حديثة الصدور والتي كانت تحتم على البرجوازيين أن يقوم كل واحد بسداد عتاد جندي وإعاشته^(٣٢)؛ وحتى يتخلص من الميليشيات البربرية قام بالبحث عن جنود في الشمال الأفريقي وهم السودانيون واتخذهم حرسه الخاص. ونسب البعض إليه توجهه الشيعي لكن لم يفصح عن ماهية هذا التوجه أبداً. واجتذب الصقالبة إلى بلاطه واستقبل خيران وأكد له

وضعه فى المرىة؁ أما بالنسبة للفتى - العامرى الآخر وهو زهير فقد منحه جيان وبياسة Baeza وقلعه رباح.

إلا أن هذا النظام لم يدم طويلا بسبب لبراليتة وسلميته. فقد كان للقاسم اثنان من ابناء أخيه على يظنان أن العم قد اغتصب منهما إرث والدهما على بن حمود: كان أولهما يدعى يحيى؁ وكان يعيش فى المغرب. أما الثانى فهو إدريس الذى أصبح سيد مالقة. تلقى يحيى رسائل من البربر فى قرطبة أعربوا له فيها عن نقيمتهم لما فعله القاسم بهم وأعربوا عن مسانديتهم له. وبناءً على ذلك تقدم يحيى نحو قرطبة فتخلّى عمه القاسم عن هذه اللعبة فورا؛ ففى الخامس من أغسطس ١٠٢١م (٢٢ ربيع الثانى ٤١٢هـ) ترك العاصمة ولجأ إلى أشبيلية. ولم تمض ثمانية أيام حتى وضع البربر يحيى على كرسى الخلافة فى القصر ونصبوه خليفه وتلقب بـ المعتلى بالله. أما أهالى أشبيلية فقد أعلنوا القاسم أمير المؤمنين.

كان على يحيى بن على بن حمود أن يبقى فى قرطبة لمدة عام ونصف كيفما اتفق إلا أن الأمر انتهى به إلى موقف يستحيل معه الاستمرار إذ كان شديد الكبرياء لدرجة أثارت ضيق البربر منه؁ وعندما شعر بالتهديد لم يجد إلا الفرار وسيلة؁ واستقر به المقام فى مالقة فعاد عمه القاسم إلى قرطبة ليتولى السلطة يوم ٩ فبراير ١٠٢٣م (١٢ ذى القعدة ٤١٣هـ) إلا أن حكمه لم يدم إلا شهورا قلائل فقد خرج القرطبيون عن سكونهم وقرروا الرد على الضربة بأخرى مماثلة وموجهة للبربر الذين لم يستطع العاهل العجوز إيقافهم عند حدّهم. ففى بداية شهر أغسطس ساد المدينة عصيان عام؁ وحاول القاسم القضاء عليه فأمر بإغلاق أبواب المدينة لمنع وصول كافة أنواع المؤن والسيطرة على السكان جوعا لكنهم استطاعوا فتح الأبواب بالقوة؁ وأظهروا بذلك استعدادهم لاسترداد حريتهم مهما كلفهم من ثمن وفى التاسع من سبتمبر (٢١ جمادى الثانية) ترك القاسم قرطبة وهو عازم على عدم العودة ظنا منه أن أهالى أشبيلية سيرحبون به لكن لم يحدث ذلك فذهب إلى شريش Jerez وهنا جاء يحيى ابن أخيه على عجل لحاصرته وإجباره على الاستسلام ثم ذهب به إلى مالقة وأودعه هو وابناؤه أحد السجون ثم أمر باغتياله بعد بضع سنوات.

الأمريّان المستظهر والمستكفى :

لا مناص أمامنا إلا مواصلة سرد الخطوط الرئيسة لهذه القصة المحزنة وغير الواضحة؁ فبعد أن رحل القاسم بن حمود عن قرطبة كان أهلها مستعدين لأن يتولى

أمرهم أحد الأمراء من بنى أمية، وقد كان هناك الكثير منهم، فتم الاتفاق على اختيار أحد الأمراء فى المسجد الجامع (٢ ديسمبر ١٠٢٣م - ١٦ رمضان ٤١٤هـ) كان هناك ثلاثة من سلالة عبد الرحمن الناصر وقد رشحوا لهذا المنصب، أولهم هو سليمان أحد أبناء عبد الرحمن الرابع المرتضى.. أما الثانى فهو محمد بن العراقى وثالثهم هو عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار شقيق محمد الثانى المهدي والمشهور بسوء سمعته. ولما كان الجميع يعرف أن الاختيار سيقع على أول المرشحين فقد تم تحرير وثيقة التنصيب مسبقا لكن الثالث دخل المسجد يرافقه عدد من المسلحين وفرض نفسه على الحاضرين فتم تنصيبه واتخذ لنفسه لقب المستظهر بالله.

كان الخليفة الجديد شابا لا يكاد يبلغ سن الرشد وكان يتميز بثقافة واسعة إلا أنه غير أهل لممارسة أية سلطات على شعب غير مستقر الأوضاع ومستعد للأخذ بعصا التمرد ويبدو أن كانت له موهبة شعرية - إذ ترك لنا بعض القصائد الممتازة - وبعض صفات رجل الدولة. أحاط نفسه ببعض المستشارين من ذوى الخبرة مثل أبى عامر بن شهيد وعبد الوهاب بن حزم والكاتب الكبير على بن حزم. إلا أن هذا الخليفة الجديد كان فى حاجة لمزيد من الوقت حتى يسترد التقاليد التى كان عليها الخلفاء العظام من أسرته: فلم يمكث فى الحكم إلا سبعة وأربعين يوما، إذ كان بيت المال خاويا، وحصيلة الضرائب التى كانت تصله قليلة لدرجة لا تكفى سداد رواتب الموظفين الذين عينهم فلجأ إلى وسائل غير شرعية للحصول على الأموال اللازمة مما أفقده أية شعبية بين العامة وصغار البرجوازيين ولما كان فى حاجة الى الجند فقد رحب بأن يكون من بينهم فرقة البربر جاعت لتقديم خدماتها. فكان هذا قرارا لا يتسم بالحكمة إذ أثار أهالى قرطبة عليه وأحاط السكان بالأفريقيين وعاملوهم أسوأ معاملة ثم دخلوا القصر. وحاول المستظهر الابتعاد عن غضب العامة بالهرب فى مخزن الخشب التابع للحمامات الملكية فاكتشف المتمردون وجود أموى آخر فى القصر، كان يخشى بدوره على حياته. هذا الأموى كان يدعى محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله أحد أحفاد الناصر. فنصبه القرطبيون خليفة دون أن يطلبوا منه الظهور. حدث ذلك يوم ١٧ يناير ١١٠٢٤م (٣ ذى القعدة عام ٤١٤هـ) وكان أول إجراء اتخذه الخليفة الجديد الذى يلقب بالمستكفى بالله هو الاتيان بسابقه والأمر بقتله.

كان محمد الثالث المستكفى يبلغ من العمر خمسين عاما عندما تولى الخلافة. كما أن كتاب سيرته وجدوا فيه شبها كبيرا بالخليفة العباسى الذى كا يحمل نفس اللقب^(٣٤). فهو ضعيف وكسول وإباحى بعض الشئ ويحيط نفسه بأناس فيهم غلظة

فكان مثار سخرية الرعية التي لقبته «بالخواف» و«السمين» بسبب جبنه وسمنته، استطاع هذا الخليفة أن يظل في الحكم لأكثر من عام وهو يعايش التخبط. إذ أمر بشنق ابن عمه ابن العراقي وهو الذي كان قد عينه في البداية كوريث له وبناء على أوامره فقد وضع كل من ابن حزم ويزري عبد الرحمن المستظهر في السجن. ثم كان الحظ حليف بعض عليه القوم في هروبهم من قرطبة وتوجههم إلى مالقة مثل أبي عامر بن شهيد وقد أصبحوا تحت إمرة الحمودي يحيى هذا الأخير لم يكن في عجلة من أمره لمعاودة الظهور. وبعد شيء من الوقت عرف أن ابن علي بن حمود كان يستعد للسيطرة على العرش من جديد. إلا أنه لما كانت الاضطرابات تزداد سوءا لم يجد المستكفي، بضعفه وعدم قدرته، مخرجا إلا الفرار قبل أن يتم إقصاؤه. وخرج متخفيا مرتديا زي امرأة من المغنيات وخرج من قرطبة في ٢٦ مايو ١٠٢٥م قاصدا الثغر، وبعد ذلك بأسابيع أُغتيل في إقليش Ucles الكائنة في محافظة قوينقة Cuenca حاليا. وكان اغتياله على يد أحد علية القوم الذين رافقوه في رحلة الهرب.

من السهولة بمكان أن نعرف أن قرطبة لم تعد المدينة التي يتسابق عليها الأمراء سواء كانوا أمويين أم غيرهم للجلوس على عرش الخلافة الشاغر. وكل من أتى إلى القصر من سلالة «المهاجر» يعرف مسبقا أنه يعرض حياته للخطر مقابل لقب لا قيمة له ومقابل فوائد مادية ضئيلة، كما أن الأراضي التي سيحكمها لا تتعدى حدود محافظة متوسطة المساحة. ولم تعد كل من أشبيلية وغرناطة وجيان أو غيرها من المدن الواقعة في الشرق تبدو أي اهتمام بالعاصمة القديمة للأندلس التي كانت منذ ذلك الحين تسيطر سيطرة كاملة على تاريخ أسبانيا الإسلامية. لكنها الأيام الخوالي. وهذا هو السبب الذي من أجله لم يبد يحيى بن علي بن حمود أي عجلة للعودة من أجل شغل العرش الخالي. إذ كان جنوب شبه الجزيرة الأيبيرية من مالقة وحتى شريش Jerez كان يدر عليه أرباحا أكثر مما يمكن أن يحصل عليه من هذه العاصمة التي خربت وانهارت قواها. انتظر ستة أشهر ولم يفعل ذلك إلا لوقت قصير جدا. فوصل إلى قرطبة في التاسع من نوفمبر ٢٥ - ١١ - ١٠٢٥م (١٦ رمضان ٤١٦هـ) ثم غادرها متوجها إلى مالقة في أوائل مارس من العام التالي (٨ محرم ٤١٧هـ) وهو يشعر بسعادة لأن الوزير أبو جعفر أحمد بن موسى حل محله ووضع تحت إمرته عدة مئات من الجنود البربر.

وبعد مرور عدة شهور اتصل الفتيان الصقلييان: خيران من المرية ومجاهد من دانية Denia بأهالي قرطبة الذين سئموا من الحموديين واتفقا معهم على تكوين جيش

المجئى إلى قرطبة لطرده نائب يحيى بن على بن حمود، لكن لم يحدث اتفاق بين الطرفين حول مسألة أن تكون قرطبة حكومة قادرة ومستقرة، فعاد خيران إلى المرية يوم ١٩ يونيو ١٠٢٦م (٢٠ ربيع الثانى ٤١٧ هـ) كما عاد مجاهد أدراجه هو الآخر بعد وقت قصير، وتركوا بذلك قرطبة لأهلها وهى غارقة فى الفوضى.

هشام الثالث المعتمد: إلغاء الخلافة الأموية :

يبدو أن كبار البرجوازيين من أهالى قرطبة، الذين ظلوا على موقفهم المحافظ وربما السلبى، قد شعروا بأن عليهم واجبا لا بد لهم من القيام به وتحمل مسئولياتهم. فعلى الرغم من المجازر التى وقعت خلال السنوات الأخيرة وهجرة الكثير من الأسر التى أرهقتها الاضطرابات التى ساطت المدينة، كانت لا تزال هناك بعض الأسر العريقة التى عملت تحت رعاية خلفاء الزمن الجميل وكان رجالها قادرين على رفع أصواتهم حتى يسمعوهم من يريدون له أن يسمع عندما كانت قرطبة تمر بفترة حرجة، وأن العناصر الانقلابية فى المدينة شعرت بأن الأحداث التى أشعلتها قد تجاوزت قدراتها، ورغم المتاعب الكثيرة التى تكبدتها هذه الأسر منذ سنوات من جراء انضمامها للأسرة الأموية فإن هذه الأقلية من الرجال الحريصين والعقلاء الذين يمكن أن نبرز من بينهم أبو الحزم جوهر بن محمد بن جوهر، إذ أراد هذا القيام بمحاولة أخيرة ليضع على كرسى الخلافة أحد أمراء بنى أمية واتفق على أنه لا يكفى أن يحظى المرشح بتأييد القرطبيين فقط بل يجب الحصول على موافقة باقى الأقاليم والثغور وأن يعترف به القادة المستقلون من الصقالبة والأندلسيين المنتشرين فى كل مكان. الأمر ببساطة هو محاولة تقديمه على أنه بطل وطنى يكافح وجود البربر على أساس أنهم مصدر جميع البلايا التى تعاني منها أسبانيا الإسلامية منذ سقوط العامريين.

لم يكن من السهل العثور على أموى للقيام بهذا الدور المرتقب وبحيث يحظى برضى الجميع لكن بعد مشقة اتفق على أن يكون الشقيق الأكبر لعبد الرحمن الرابع المرتضى هو البطل الحزين للمغامرة الغرناطية وهو هشام بن محمد بن عبد الملك، الذى ولد فى ٩٧٥م (٣٦٤هـ) وكان يعيش فى قلعة ألبونت Alpuente الواقعة شمال غرب بلنسية فى ضيافة سيد عربى هو عبد الله بن قاسم الفهرى، لم يجد هشام أى استعجال لتولى منصب الخلافة فى قرطبة فقد تم تنصيبه خليفة خلال شهر يونيو ١٠٢٧م (ربيع الثانى ٤١٨هـ) واتخذ لنفسه لقب المعتمد بالله، إلا أنه ظل يعيش فى القلعة التى كان بها سابقا آملا أن تزول الصعاب التى نجمت عن اختياره خليفة. ويعد

عامين قرر الرحيل للإقامة في قصر الأجداد، فوصل إلى العاصمة في ديسمبر ١٠٢٩م (ذى الحجة ٤٢٠هـ) وكانت رحلته متواضعة لدرجة أنها لم تترك إلا انطبعا سيئا لدى حاشيته الجديدة.

لم يكن هشام الثالث المعتمد يختلف في شئ عن سابقيه إلا بدرجة واحدة، فالذين اتصلوا به وظنوا أنه سوف يوليهم المناصب الأساسية في الدولة سرعان ما أدركوا حقيقة حاكمهم، فقد اختار لرئاسة الوزارة رجلا لا نسب له ويتسم بالتأمر وشدة الطموح وكان يعمل في الحياكة قديما هذا الرجل يدعى حكم بن سعيد، وخوله الحاكم صلاحيات كاملة ولم يفكر الخليفة إلا أن يتمتع ما وسعه بالفرصة السانحة التي يمثلها تواجده في قرطبة. لم يدخر الحكم بن سعيد أى جهد من جانبه حتى يزداد رضا سيده عنه إذ كان يقوم بنفسه بالإشراف على مائدة طعام الخليفة، وتنويع أصناف المأكولات وإحاطته بالاهتمام البالغ وجلب أجمل المغنيات والموسيقيين من نوى الخبرة في التسلية أما باقى الوظائف الحكومية فقد وضع فيها شبابا لا يتسم بأية خبرات، وطبقا لعبارة رشيدة قالها ابن حيان^(٢٥). «لم يفكروا إلا فى الكأس المستدير لشرب الخمر وارتياح حدائق الرياحين وطبخ نبات الترفاس والتسلّى بأعراض الناس». ورغم أن شعبية الحكم بن سعيد أخذت تتضاءل فإنه لم يعدم الوسائل للإبقاء على نفسه فى الحكم لمدة طويلة إذ استطاع، من خلال قرارات حكيمة، أن يجعل فى بيت المال شيئا من المدخرات، كما أسكت احتجاجات بعض الفقهاء على المصدر غير الشرعى لهذه الأموال، بتوجيه التهديدات لهم. وخففت حدة احتجاجات الطبقة البرجوازية ورغم ذلك فقد أتت ثمارها إذ وقعت عدة محاولات لحرمان الحكم من المساعدات التى استطاع الحصول عليها وكان ذلك من العامة وكتائب القصر إلا أنه لم يكن أمامه طريق آخر إلا تفريقهم وتطبيق العقوبات الضرورية. وللخروج من هذا الموقف نهائيا نجد أن أبا الحزم بن جوهر وياقنى ممثلى كبار العائلات القرطبية حزموا أمرهم على اللجوء إلى الحل الذى لا مناص منه رغم مقاومتهم للموافقة عليه هو: العصيان المدنى. فقد تلقى شاب مروانى هو أمية بن عبد الرحمن بن هشام بن سليمان، والذى كان ظهوره مناسبا فى هذه الآونة، وعدا بأنه إذا ما استطاع إقصاء المعتد عن كرسي الخلافة وخلّص المدينة من الوزير المشئوم فسوف يتولى الخلافة هو. إلا أن الوعد كان كاذبا ذلك لأن البرجوازية القرطبية كانت قد حسمت أمرها بالتخلص نهائيا من الخلافة الأموية - فهى مجرد واجهة صورية لا تتسق مع الواقع دنيا ودينا - وأن يحل محلها مجلس الأعيان بتولى إدارة المدينة ومساحة الأراضى الصغيرة التابعة لها.

كان أمية يتمتع بالجرأة أكثر من الفطنة فلم يخمن الدور الثانوى الذى طلب منه أن يلعبه وقام بتكوين جند من بين صفوف الكتائب غير الراضية عن الأوضاع والمحرومة من مرتباتها وتمركز معهم فى الشارع الذى يمر فيه الوزير ذاهبا إلى القصر. وعندما ظهر الحكم بن سعيد أصابوه بضربة قاتلة وألقوا بجثته فى الوحل وأكوام القاذورت بينما أخذوا يطوفون برأسه محمولة على رمح. حدث ذلك فى الثلاثين من نوفمبر عام ١٠٣١١م (١٢ ذو القعدة ٤٢٢هـ). أثار هذا الاغتيال العامة من أهالى قرطبة المتعطشين للنهب فاندفعوا وراء أمية وأتباعه إلى القصر ودخلوه كالسيل الجارف لكن كانت لابی الحزم بن جوهر سلطة قوية فأوقف نهب القصر فى الحال ثم خطب فى الجماهير خطبة أوضح لهم فيها أنهم يبحثون عن تعاستهم بأيديهم إذا ما تركوا قيادة أمورهم ببساطة لأموى. أنصت الناس لندائه وانتهى العصيان دون إراقة دماء. وبعد أن فقد أمية طموحاته وآماله دعاه إلى الخروج من المدينة قبل فوات الأوان حفاظا على حياته. أما الخليفة المعتمد فقد اختبأ فى أحد المباني الملحقة بالمسجد الجامع مستفيدا من الممر الملقى الذى كان يربط بين المسجد والقصر والكائن فوق شارع الجسر Puente. وبعد مشاورات مطولة استمرت يوما كاملا أبلغ أبو الحزم بن جوهر وباقى الأعيان العاهل المخلوع بقرارهم الذى يطلب منه مغادرة قرطبة دون إبطاء. كان احتجاج الخليفة شكليا لكنه قد اغتبط فى أعماقه لتمكنه من الخروج دون متاعب. وربما تم سجنه لبعض الوقت فى إحدى القلاع وإنتهى به الأمر إلى لاردة Leri-da فى الثغر الأعلى إلى جوار سليمان بن هود، حيث وافته المنية هناك بعد خمس سنوات من إقصائه. وبذلك انتهت سلسلة الخلفاء الذين حكموا الأندلس منذ أن حلت الأسرة الأموية بالمغرب.

* * *

سقطت الخلافة الأموية فى أسبانيا الإسلامية فيما لايزيد عن ربع قرن وكأنها قلعة من ورق أقامها الأمويون بعد جهد جهيد على هذه الأرض وأسسوها خير تأسيس. ومع ذلك فقد كانت الهزات العنيفة تزلزل كيائها. ويمكننا تخمين الأسباب التى أدت إلى هذا التهاوى السريع رغم أن المؤرخين العرب لا يكادون يشيرون إلى شئ منها وهى: ضعف هشام الثانى، والوصى العامرى الثالث واستمر الأمر كذلك حتى ذهب آخر ممثل للأسرة المروانية. كما كان التدخل المتزايد وغير المحسوب فى الشئون العامة للإماره من قبل البربر والصقالبة، وكذا الفوضى الواضحة التى كان عليها العامة فى قرطبة يضاف إليها كسل الطبقة البرجوازية ذلك أن الأمر ببساطة يعنى

التفكك التدريجي لنسيج المجتمع الأندلسي غير المتجانس مع ماصحب ذلك من إطلال
العصبيات برؤوسها وكذا الحزبية السياسية.

ورغم هذه الأسباب التي عرضنا لها فإن سرعة تهاوى الحكم الأموي لازالت
تثير التساؤل وربما أمكن لنا أن نفهم بشكل أفضل سبب الكارثة إذا ما كان التدهور
بطيئاً الإيقاع بالقول بأنه كانت هناك بعض التصدعات التي يتم ترميمها أو بعض
التشققات الكبيرة التي لم تؤخذ في الاعتبار عند بدايتها. كان من المنتظر أن تطول
فترة التدهور بعد وصول الخلافة الأموية إلى أوج ازدهارها وقوتها وأن يكون سبب
التدهور هو مجموعة من النكسات العسكرية أو قيام العدو المسيحي بالاستيلاء على
بعض المناطق التابعة لأسبانيا الإسلامية. لكن لم يحدث شيء من هذا. فعندما تم
إقصاء آخر خليفة أموي كانت قد مرت خمس وثلاثون سنة دون أن يقوم المسلمون في
الأندلس بتوجيه ضربات للمسيحية الأسبانية بعد الضربة المرة والمهينة التي تمثلت في
الاستيلاء على شنت ياقب **Santiago de compostela** ونهبها التي ظلت ماثلة في
الأذهان حتى ذلك الحين. استطاع كل من عبد الرحمن الثاني، وخاصة في السنوات
الأخيرة لحكمه، والحكم الثاني، والمنصور بعد ذلك فرض سيادتهم على إجمالى شبه
الجزيرة حيث كانت الممالك في الشمال تعيش تحت تهديداتهم، كما أنهم كانوا الحكم
في الخلاقات التي تحدث بين هذه الممالك. واستطاعوا أيضا إجهاض أى فتنة في
المهد. لم يتعرض النظام الاستبدادي، الذي تخللته بعض الفتن الداخلية، لهجمات ذات
بال منذ أن قام أول الخلفاء الأسبان برفع علمه على أسوار طليطلة وبيشتر **Bobastro**.
وكانت الظواهر تشير إلى أن الدولة الإسلامية ستعيش مدة طويلة فقد تم تنظيمها
جيذا وكانت إدارتها على أحسن وجه. كانت لها مواردها الكثيرة من خلال اقتصاد
مزدهر وجبايا يتم تحصيلها بمقتضى العمليات العسكرية. لم تكن الدولة كأنها فطر
ينمو في الليل ويذبل في صباح اليوم التالي طبقا لعبارة جميلة ساقها **E.F.Goutier**
لتشبيه الأوضاع السياسية للبربر في العصور الوسطى. ومع ذلك كان السقوط مدويا
يذكرنا في كثير من جوانبه بسقوط الأمبراطورية الرومانية مع الاختلاف بين الحالتين.
وكان دوى السقوط أكثر وقعا من سقوط الممالك الأسبانية المغربية خلال القرنين الثاني
عشر والثالث عشر، فقبل أن يذهب المرابطون عن الساحة شعروا بأن سلطانهم يفرق
رويدا رويدا تحت وطأة أقدام المد الدينى الواسع المدى. أما الموحدون فقد تمت
إزاحتهم بواسطة الضربات المتتالية التي كالتها لهم الممالك المسيحية وذلك قبل الترنج
ثم التهاوى في ثورة السباق العقيم بين الأدياء.

لم يكن أى من الأسباب المذكورة وراء سقوط الخلافة الأموية فلم تكن هناك أسرة جديدة أتت لتحل محلها وتسير على طريقها فى نفس الأرض وتتخذ نفس السياسه، بل حلت محلها سحابة مكونة من دويلات تتناطح فيما بينها معلنة أنها صاحبة الحق فى هذا الجزء أو ذاك من ميراث الخلافة. سوف تكون هذه الدويلات مستقلة منذ اللحظة الأولى لكن لن يكون هناك تضامن فيما بينها رغم أن الأقوى منها ضم إليه الأضعف وجعلها أحيانا تدور فى فلكها.

ومما لاشك فيه أن التقاليد والتراث الأموى ظل حيا فى أغلب هذه الدويلات التى عاشت خلال القرن الحادى عشر وكانت هى الأساس الذى سار عليه الحكام ابناء «الفتنة» فى تنظيم بلاطهم وحكوماتهم لكن هذه التقاليد لم تحظ بالقوة اللازمة حتى يعود أمير أموى إلى السلطة ويتولى العمل على إعادة وحدة الأندلس. وسوف يكون هناك أجناب «المرابطون» يقومون باحياء هذه الوحدة قبل انتهاء القرن الحادى عشر ببضع سنوات وبذلك تحولت أسبانيا فى عملية تبادل سريع للأدوار إلى تابع للمغرب تلك المنطقة التى استطاعت أسبانيا الإسلامية السيطرة عليها وربطها بها منذ مائة عام.

وخلال هذه الفترة الانتقالية لم تظهر الخلافة الأموية فى المغرب، على أنها دولة تعيش فترة اضمحلال ولا مناص من تهاويها فى نظر أهل الشرق وباقي العالم الإسلامى. لكن الأمر الذى انتهى بالفعل كان تفوق الأندلس وسيطرتها على المجموعة الأيبيرية الممتدة من البرانس وحتى الغرب الواقع على المحيط الأطلنطى أو الممتد حتى السواحل الشرقية المطلة على البحر المتوسط. وأصبحت قوة الإسلام وسمعته فى عداد الذكريات التاريخية فى نظر كل الممالك الصغيرة مثل ليون وبنبلونة وبرغش Burgos.

كان اسم الناصر والمنصور اللذان يعنيان باللغة العربية «صيحات النصر» هما المسيطران على كافة أنحاء أسبانيا خلال القرن العاشر. لكن اعتبارا من الآن وحتى تدخل أمير الصحراء يوسف بن تاشفين نرى أن القرن الحادى عشر هو عصر فرناندو الأول والفونسو الرابع والسيد القمبيطور El cid الذى ألفت بشأته القصيدة الملحمية. وعلا نجم قشتاله هذا الأقليم الذى صنع أسبانيا وأخذ يرتفع شيئا فشيئا. أما نجم الأندلس المسلمة فقد أخذ يخبو كما أن تكاثر حالات كسوفه أعلنت عن غروبه الكامل وسقوطه فى بحر العدم.

هوامش الفصل السابع :

(١) المصادر العربية: فيما يتعلق بإجمالى الفترة من ١٠٠٨ - ١٠٣١م فإن المصدر الرئيسى هو ابن عذارى فى البيان الجزء الثالث ص ٢٨ - ١٥٢ إذ يروى بالتفصيل - نقلا عن المقتبس فى أغلب أجزائه - والكثير من الفقرات التى أوردها ابن حيان عن تلك الفترة نجدها مضمّنة أيضا فى الذخيرة لابن بسّام - الجزء الأول (طبعة جامعة فواد الأول - القاهرة) ص ٢٤ - ٣٢ (ولاية سليمان المستعين) ٣٤ - ٤٠ (ولاية عبد الرحمن المستظهر) ٧٨ - ٨٣ (ولاية على بن حمود ٢٧١ - ٢٧٣) (يحيى بن على بن حمدون) ٢٧٩ - ٢٨٣ (ولاية محمد المستكفى) ٣٩٧ - ٤٠٤ (المرتضى والزواى بن زيرى) الجزء الثانى ص ١٢ - ٧ (ولاية القاسم بن حمود). وهناك فقرات مطوّلة اعتمدت على ابن حيان زوردها ابن الخطيب الأعمال ص ١٠٤ - ١١٤، ١٢٦، ١٦٣. انظر أيضا ابن الأبار «الحلة» ص ١٥٩ - ١٦٤ (سيرة سليمان المستعين) ١٦٤ - ١٦٦ (سيرة عبد الرحمن المستظهر) - ابن خلدون فى العبر الجزء الرابع ص ١٤٨ - ١٥٢ - عبد الواحد المراكشى فى المعجب ص ٢٨ - ٤٠ من النص - وص ٢٣ - ٤٩ من الترجمة - النويرى تاريخ أسبانيا ص ٢٢١ - ٢٣٧ من النص - ابن الأثير الحوليات ص ٣٨٥ - ٣٨٩، ٤٠٨ - ٤١٢، ٤٢٠ - ٤٢٧ - المقرئ نفح الطيب الجزء الأول ص ٢٧٧ - ٢٨٢ - ٢١٥ - ٢٢٠ انظر أيضا طوق الحمامة لابن حزم حيث توجد بعض التفاصيل الخاصة بالأوضاع فى قرطبة خلال الأعوام الأخيرة لخلافة الأمويين المراجع :

- Utilización exhaustiva de las fuentes árabes conocidas en su época por Dozy Hist. Mus. Esp, 2. II, págs. 281- 323- 46, que no sacrifica ningún detalle. Véase asimismo A. PRIETO Vives, Los rtyes de laijas, págs. 13- s. M. Asin PALACIOS Abenházam de córdoba, I, Págs. 64- 85, ha trazado un cuadro de esta época, e cuya historia estuvo Ibn Hazm estrechamente mezclado Veease supra pag. 421 vn. 64.

(٢) انظر Supra, pa 421 وملاحظة رقم ٦٤.

(٣) هناك على سبيل المثال: ابن بسّام فى الذخيرة الجزء الأول - ص ٨٤ - ٨٦، وابن عذارى فى البيان الجزء الثالث ص ٤٤ - ٤٦ والنويرى فى تاريخ أسبانيا ص ٢١ - ٢٢٤ وابن خلدون فى العبر الجزء الرابع ص ١٤٨ - ١٤٩ والمقرئ نفح الطيب فى الجزء الأول ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

(٤) ابن الأبار - الحلة ص ١٥٠ فقد ورد فى حديث - فيما معناه - أنه لن تقوم الساعة حتى يظهر رجل فى قحطان يقود الناس بعصاه.

(٥) ابن عذارى - البيان الجزء الثالث رقم ٦٠، ٦١.

(٦) Según los Annales complutenscs (abud HUIGi, Crónicas latinas de la Reconquista (١ I, pagina 43. cf. Risco Historia de la ciudad y corte de león y de sus reyes, Madrid 1792, I, p, 246) Sancho Garcia penetró el año 1009 en territorio musulmán hasta Molina (actual provincia de Guadalajara) "et destruxit terram Azencam".

(٧) فيما يتعلق بخروج شنجول على رأس حملته انظر ما أورده إبن عذارى (البيان ج الثالث غير أنه غير موجود بالطبعة نظر لوجود أجزاء ناقصة من المخطوطة المستخدمة) وقد أورده ليفى بروفنسال.

(٨) انظر Supra ص ٤٤٢ - ٤٤٣ ورقم ١٠٦.

(٩) ورد في المقام الأول إبن عذارى في البيان الجزء الثالث ص ٦٥ - والمقرى في نفح الطيب Analectes الجزء الأول ص ٢٨٧ - ٢٨٨.

(١٠) ابن عذارى - البيان الثالث ص ٦٦.

(١١) نفس المصدر ص ٦٨.

(١٢) ابن حزم - كتاب الفصائل طبعة القاهرة ١٣٢١هـ - الجزء الأول ص ٥٩ حيث يؤكد أنه حضر عملية الدفن في السلسلة الجبلية المحيطة بقرطبة - أنظر Asin palacios إبن حزم القرطبي - الجزء الأول ص ٦٩ رقم ٧٩.

(١٣) حول «فحص السراشق» حيث كان يوجد متنزّة للأمراء الأمويين انظر ليفى بروفنسال «إسبانيا الإسلامية» القرن العاشر ص ١٤١-٢٢٥ ملاحظة رقم ٣ - وسوف نعود للحديث عن هذا المكان الذي تتجمع فيه القوات عندما نقوم بدراسة تنظيم جيش الخلافة.

(١٤) نلاحظ في أغلب الفقرات الواردة في الجزء الثالث من البيان لابن عذارى المتعلقة بالأنشطة التي قام بها سانشو غرثية خلال تلك الفترة أن هذا الكونت القشتالي يشار إليه دوماً باسم ابن أم دونه وهذا الاسم هو اشتقاق محرف من اسم أم جدة سانشو Mumma Domna وهذا حسب ما أكدته لنا العلامة في رسالة بعث بها عام ١٩٢٩. وها هو نص ما كتبه لنا المؤرخ Ramon Menendez Pidal الأسباني: كان المؤرخون العرب على علم جيد بشجرة العائلة للكونت وبالتالي فالنسبة ابن مومة صحيحة ذلك أنها تشير إلى أم الجدة. فوالدة فرنان غونثاليث الكونت الأكبر ان اسمها Mumma Domna وهناك تنويعات من Munia Domna تطلق على أناس كثيرين لكن لا يرجع إليها «...».

انظر أيضاً:

- V, G. CIROT, Inde onomastique et géographique de la "Chronique léonaise", en Bull. Hisp., XXXVI, 1934, s.v.

(١٥) أورد ابن حيان اسم هذه البلدة (من خلال إبن بسام في النخيرة الجزء الزول ص ٣٠، ٣١ لكنه لا يظهر في البيان لابن عذارى رغم أنه يورد لنا الواقعة بكل تفاصيلها. ورد أيضاً في إبن الأبار «التكملة» [طبعة مشتركة] رقم ٢٧٢٠ حيث يتحدث بشكل ثانوي عن هذه المعركة.

(١٦) فيما يتعلق بهذا القلعة انظر:

- LÉvi- PROVENGAL, Esp. Mus. X. siècle, pág. 149 (reproducción de las ruinas del hisn omeya, ibid lám. V) ISRISI, Descr de l'Esp., tecto, páf, 213, trad., páf. 263 lo señala bajo el nombre de Dar al- baqar.

(١٧) انظر ابن عذارى فى البيان الجزء الثالث ص ٩٥ حيث أن الكونت Ermengol de urgell كان قد توفى فى معركة عقبة البقر. وهو خير يبدو مؤكداً من خلال بيت من الشعر فى قصيدة لمحمّد سليمان المستعين قرصها ابن دراج القسطلّى (ابن بسام - الذخيرة الجزء الأول ص ٥٢، ١٠٢) وفى هذه القصيدة يتحدث الشاعر أيضاً عن معركة كمانتيس ومعركة وادى ياره. وفيما يتعلق بمشاركة بعض أصحاب الألقاب - الكونت - من الفرنجة فى هذا الموضوع انظر Soldevila, Hist de catalunya pág 71.

(١٨) بوزى - تاريخ أسبانيا الإسلامية - الجزء الثانى ص ٢٩٨. أخطأ عند القول بأن هذه المعركة وقعت فى أراضى أشبيلية وبالتحديد بالقرب من نقطة إلتقاء نهر الوادى الكبير ووادى ياره. ففى طبعة Gaspar لتاريخ أسبانيا للنويرى لم ترد الفقرات التى تشير إلى بوزى (نفس المصدر ١٠٢). Remiro.

(١٩) وردت أسماء تلك الحصون فى :

- los Annales Compostellani (apud Huici Crónicas latinas de la Reconquista, I. Pag, 61): "Era MXLLX (1011 J.C.) dederunt comiti sanctio san stephanum et chuniam et osman. et Gornaz cf dedem et Berlangs., las eromeas arabes añaden que, como conseeucneia de wsta wntrega de plazas ruertes a sancho Garcia otro soberano, el "hijo de sancho hizo una petieión analoga, que fue satisfeha. Como esa filiación no puede aplicarse ni al rey de león ni al de Pamplo-na debe de tratarse de un conde gallego de la frontera de la Marca inferior.

(٢٠) وهذا ما يؤكد خبر أورده ابن خلدون فى «العبر» الجزء الرابع ص ١٤٦ ونقلها عنه المقرئ «نفح الطيب» فى الجزء الأول ص ٢٥٠. أما فيما يتعلق بباقي مكتبة الحكم الثانى فقد نهب، طبقاً لرواية نفس المؤرخ، بعد ذلك بقليل عندما استولى البربر على قرطبة.

(٢١) ابن الأبار الحله ص ١٥٧-١٥٨: خصص هذا المؤرخ فقرات موجزة عن سيرة هذه الشخصية المسماة: أبو الحسن على بن وداعة عبد الودود السلامى.

(٢٢) قام سليمان المستعين بتعيين ابنه هذا كوريث للعرش وكان هذا التعيين فى بداية شهر فبراير عام ١٠١٠م (١٥ جمادى الثانية عام ٤٠٠هـ. وقد أورد ابن الخطيب «الأعمال» ص ١٤٦-٤٨ النص الكامل لمخبر التنصيب الذى تم تحريره بهذه المناسبة.

(٢٣) ابن الخطيب «الأعمال» ص ١٤٠-١٤١.

(٢٤) يرجع الفضل فى هذه الأخبار عن ابن حمود إلى الأخبار التى وردها ابن عذارى فى البيان الجزء الثالث ص ١١٣ - انظر أيضاً ابن الخطيب فى الأعمال ص ١٣٩.

(٢٥) بالنسبة لهذا القاضى الذى عين لمدينة سبتة من قبل عبد الملك انظر ابن بشكوال Sila n. 1190.

(٢٦) طبقاً لابن الأثير الحوليات - ص ٤٢٣، ٤٢٥ - فإن على بن حمود تلقب أيضاً بالمتوكل على الله.

(٢٧) ابن الخطيب - الأعمال - ص ١٤٢: حيث يشير المؤرخ إلى أنه عند قيام على بن حمود بقتل سليمان المستعين بيديه صاح، لا يقتل السلطان إلا السلطان» وقد نطق بالسين على لهجة الزناتة أى كأنها «ثاء» وطبقاً لهذه الواقعة يمكن القول بأننا أمام أول استخدام للكلمة العربية «السلطان» فى الغرب بمعنى «العامل» وليس بمعنى «القوة أو السلطة».

(٢٨) القرآن الكريم سورة الحشر.

(٢٩) القرآن الكريم سورة الطور.

(٣٠) بالنسبة لهذه المغامرة التي قام بها المرتضى انظر - بالإضافة إلى المؤرخين العرب الذين رجع إليهم دوزي في 3- 223 Rech3 lpag.

- (relato reproducido en Hist Mus. Esp' II, pág, 310. s) la nueva relación que figura en las "Memorias" del rey ziri Abd Allah de Granada (LEVI- PROVENCAL. Deur nouveaux frgments des "Mémoires. du roi ziride Abd Allah de Granade en Al- Andalus, VI, 1941, paginas 19- 21). En ninguna parte consta la fecha exacta de la derrota de al Murtada ante los muros de Granada.

(٣١) سوف نرى في حينه كيف أنه بعد ذلك بعدة سنوات من انتصاره على المرتضى، قرر القائد العجوز الزاوي بن زيري مغادرة الأندلس والعودة إلى إفريقية عام ١٠٢٥م (٤١٦هـ) وترك هناك ابن أخيه حبوس بن مكسن ليتولى أمور الصنهاجة ويؤسس المملكة الزيرية في غرناطة التي ظلت حتى نهاية القرن الحادي عشر.

(٣٢) هكذا يمكن لنا أن نفسّر المصطلح «تقوية» الذين ورد عند ابن حيان وابن عذارى وهذا ما يختلف مع دوزي في 429 b Suppl. Dict. ar. II حيث يرى ترجمته «تفتيش الدولة».

(٣٣) لا يورد هذه النقطة إلا ابن الأثير في حوлиاته ص ٤٢٥.

(٣٤) حول هذا الخليفة العباسي الذي حكم من عام ٩٤٤ حتى ٩٤٩ (٣٢٢هـ - ٣٢٨هـ) أنظر مقال.

(٣٥) ابن عذارى - البيان» الجزء الثالث ص ١٤٩ (نقلا عن ابن بسّام في الذخيرة الجزء الثالث F. 142 vo مخطوطة Gotha.

- Les siècles obscurs deu Maghreb, pág 12.

(٣٦)

الفهرس

* الأمويون وحضارة قرطبة.....	5
* تمهيد.....	37
* الجزء الأول : فتح أسبانيا والإمارة الأموية.....	41
الفصل الأول : فتح أسبانيا ودخولها الإسلام (٧١٠ - ٧٥٦م).....	43
الفصل الثاني: تأسيس إمارة قرطبة الأموية	
وأمرؤها الأول (٧٥٦ - ٨٢٢م).....	101
الفصل الثالث : أسبانيا الإسلامية	
تحت حكم عبد الرحمن الثاني (٨٢٢ - ٨٥٢م).....	169
الفصل الرابع : الإمارة الأسبانية الأموية (٨٥٢ - ٩١٢م).....	231
* الجزء الثاني : الخلافة الأموية في قرطبة.....	319
الفصل الخامس: عبد الرحمن الثالث «الناصر»	
أمير وخليفة الأندلس (٩١٢ - ٩٦١م).....	321
الفصل السادس : عصر الخلافة (٩٦١ - ١٠٠٨م).....	429
الفصل السابع : تدهور الخلافة في قرطبة وسقوطها.....	507

المشروع القومي للترجمة

- | | | |
|--|------------------------------|--|
| ١- اللغة العليا (طبعة ثانية) | جون كوين | ت : أحمد درويش |
| ٢- الوثنية والإسلام | ك. مادهو باننيكار | ت : أحمد فؤاد بليغ |
| ٣- التراث المسروق | جورج جيمس | ت : شوقي جلال |
| ٤- كيف تتم كتابة السيناريو | انجا كاريتمكوفا | ت : أحمد الحضري |
| ٥- ثريا في غيبوبة | إسماعيل فصيح | ت : محمد علاء الدين منصور |
| ٦- اتجاهات البحث اللساني | ميلكا إفيتش | ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد |
| ٧- العلوم الإنسانية والفلسفة | لوسيان غولدمان | ت : يوسف الأنطكي |
| ٨- مشعل الحرائق | ماكس فريش | ت : مصطفى ماهر |
| ٩- التغيرات البيئية | أندرو س. جودي | ت : محمود محمد عاشور |
| ١٠- خطاب الحكاية | جيرار جينيت | ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي |
| ١١- مختارات | فيسوفا شيمبوريسكا | ت : هناء عبد الفتاح |
| ١٢- طريق الحرير | ديفيد براونستون وايرين فرانك | ت : أحمد محمود |
| ١٣- ديانة الساميين | روبرتسن سميث | ت : عبد الوهاب علوب |
| ١٤- التحليل النفسي والأدب | جان بيلمان نويل | ت : حسن المودن |
| ١٥- الحركات الفنية | إدوارد لويس سميث | ت : أشرف رفيق عفيفي |
| ١٦- أثنية السوداء | مارتن برنال | ت : ياشرافد أحمد عثمان |
| ١٧- مختارات | فيليب لاركين | ت : محمد مصطفى بدوي |
| ١٨- الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية | مختارات | ت : طلعت شاهين |
| ١٩- الأعمال الشعرية الكاملة | جورج سفيريس | ت : نعيم عطية |
| ٢٠- قصة العلم | ج. ج. كراوثر | ت : يمني طريف الخولي / بدوي عبد الفتاح |
| ٢١- خوخة وألف خوخة | صمد بهرنجي | ت : ماجدة العناني |
| ٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين | جون أنتيس | ت : سيد أحمد علي الناصري |
| ٢٣- تجلى الجميل | هانز جيورج جادامر | ت : سعيد توفيق |
| ٢٤- ظلال المستقبل | باتريك بارندر | ت : بكر عباس |
| ٢٥- مثنوى | مولانا جلال الدين الرومي | ت : إبراهيم الدسوقي شتا |
| ٢٦- دين مصر العام | محمد حسين هيكل | ت : أحمد محمد حسين هيكل |
| ٢٧- التنوع البشري الخلاق | مقالات | ت : نخبة |
| ٢٨- رسالة في التسامح | جون لوك | ت : منى أبو سنه |
| ٢٩- الموت والوجود | جيمس ب. كارس | ت : بدر الديب |
| ٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢) | ك. مادهو باننيكار | ت : أحمد فؤاد بليغ |
| ٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامي | جان سوفاجيه - كلود كاين | ت : عبد الستار الطوجي / عبد الوهاب علوب |
| ٣٢- الانقراض | ديفيد روس | ت : مصطفى إبراهيم فهمي |
| ٣٣- التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية | أ. ج. هويكنز | ت : أحمد فؤاد بليغ |
| ٣٤- الرواية العربية | روجر آلن | ت : حصّة إبراهيم المنيف |
| ٣٥- الأسطورة والحداثة | بول . ب . ديكسون | ت : خليل كلفت |

- ٣٦- نظريات السرد الحديثة
- ٣٧- واحة سيوة وموسيقاها
- ٣٨- نقد الحداثة
- ٣٩- الإغريق والحسد
- ٤٠- قصائد حب
- ٤١- ما بعد المركزية الأوربية
- ٤٢- عالم ماك
- ٤٣- اللهب المزدوج
- ٤٤- بعد عدة أصياف
- ٤٥- التراث المغنود
- ٤٦- عشرون قصيدة حب
- ٤٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)
- ٤٨- حضارة مصر الفرعونية
- ٤٩- الإسلام فى اليلقان
- ٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير
- ٥١- مسار الرواية الإسبانية أمريكية
- ٥٢- العلاج النفسى التدعى
- ٥٣- الدراما والتعليم
- ٥٤- المفهوم الإغريقى للمسرح
- ٥٥- ما وراء العلم
- ٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (١)
- ٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (٢)
- ٥٨- مسرحيتان
- ٥٩- المحبرة
- ٦٠- التصميم والشكل
- ٦١- موسوعة علم الإنسان
- ٦٢- لذة النص
- ٦٣- تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)
- ٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة)
- ٦٥- فى مدح الكسل ومقالات أخرى
- ٦٦- خمس مسرحيات أندلسية
- ٦٧- مختارات
- ٦٨- نتاشا العجوز وقصص أخرى
- ٦٩- العالم الإسلامى فى أولال القرن العشرين
- ٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية
- ٧١- السيدة لا تصلح إلا للرمى
- والاس مارتن
- بريجيت شيفر
- ألن تورين
- بيتر والكوت
- آن سكستون
- بيتر جران
- بنجامين بارير
- أوكتافيو پاث
- ألدوس هكسلى
- روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين
- بابلو نيرودا
- رينيه ويليك
- فرانسوا بوما
- ه . ت . نوريس
- جمال الدين بن الشيخ
- داريو بيانوبيا وخ . م بينياليستى
- بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج .
- روجسيفيتز وروجر بيل
- أ . ف . ألنجاتون
- ج . مايكل والتون
- جون بولكنجهوم
- فديريكو غرسية لوركا
- فديريكو غرسية لوركا
- فديريكو غرسية لوركا
- كارلوس مونيث
- جوهانز ايتن
- شارلوت سيمور - سميث
- رولان بارت
- رينيه ويليك
- ألان وود
- برتراند راسل
- أنطونيو جالا
- فرناندو بيسوا
- فالنتين راسيوتين
- عبد الرشيد إبراهيم
- أوخينيو تشانج روبريكت
- داريو فو
- ت : حياة جاسم محمد
- ت : جمال عبد الرحيم
- ت : أنور مغيث
- ت . منيرة كروان
- ت . محمد عيد إبراهيم
- ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
- ت . أحمد محمود
- ت . المهدي أخريف
- ت : مارلين تادرس
- ت : أحمد محمود
- ت . محمود السيد على
- ت . مجاهد عبد المنعم مجاهد
- ت . ماهر جويجاتى
- ت . عبد الوهاب علوب
- ت . محمد يرادة وعثمانى الميود ويوسف الأتلكى
- ت . محمد أبو العطا
- ت . لطفى فطيم وعادل دمرداش
- ت . مرسى سعد الدين
- ت . محسن مصيلحى
- ت . على يوسف على
- ت : محمود على مكى
- ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
- ت : محمد أبو العطا
- ت : السيد السيد سهيم
- ت : صبرى محمد عبد الغنى
- مراجعة وإشراف . محمد الجوهري
- ت . محمد خير البقاعى .
- ت . مجاهد عبد المنعم مجاهد
- ت . رمسيس عوض .
- ت . رمسيس عوض .
- ت : عبد اللطيف عبد الحليم
- ت : المهدي أخريف
- ت : أشرف الصباغ
- ت . أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
- ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
- ت : حسين محمود

- ٧٢- السياسى العجوز ت . س . إليوت
٧٣- نقد استجابة القارئ جين . ب . تومكينز
٧٤- صلاح الدين والماليك فى مصر ل . ا . سيمينوفا
٧٥- فن التراجم والسير الذاتية أندريه موروا
٧٦- چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى مجموعة من الكتاب
٧٧- تاريخ النقد الألبى الحديث ج ٢ رينيه ويليك
٧٨- العولة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية رونالد روبرتسون
٧٩- شعرية التأليف بوريس أوسبنسكى
٨٠- بوشكين عند «نافورة الدموع» ألكسندر بوشكين
٨١- الجماعات المتخيلة بندكت أندرسن
٨٢- مسرح ميجيل ميجيل دى أونامونو
٨٣- مختارات غوتفريد بن
٨٤- موسوعة الأدب والنقد مجموعة من الكتاب
٨٥- منصور الحلاج (مسرحية) صلاح زكى أقطاى
٨٦- طول الليل جمال مير صادقى
٨٧- نون والقلم جلال آل أحمد
٨٨- الابتلاء بالتقرب جلال آل أحمد
٨٩- الطريق الثالث أنتونى جيننز
٩٠- وسم السيف ميگل دى تريباس
٩١- المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق باربر الاسوستكا
٩٢- أساليب ومضامين المسرح
الإسباني وأمريكى المعاصر كاراوس ميگل
٩٣- محدثات العولة مايك فينرستون وسكوت لاش
٩٤- الحب الأول والصحية صمويل بيكيت
٩٥- مختارات من المسرح الإشباني أنطونيو بويرو بايخو
٩٦- ثلاث زنبقات ووردة قصص مختارة
٩٧- هوية فرنسا مج ١ فرنان برودل
٩٨- الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى نماذج ومقالات
٩٩- تاريخ السينما العالمية ديفيد روبنسون
١٠٠- مساطة العولة بول هيرست وجراهام تومبسون
١٠١- النص الروائى (تقنيات ومناهج) بيرنار فاليت
١٠٢- السياسة والتسامح عبد الكريم الخطيبى
١٠٣- قبر ابن عربى يليه آباء عبد الوهاب المؤدب
١٠٤- أوبرا ماهوجنى برتولت بريشت
١٠٥- مدخل إلى النص الجامع چيرارچينيت
١٠٦- الأدب الأندلسى د. ماريا خيسوس روبيرامتى
١٠٧- صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر نخبة
- ت : فؤاد مجلى
ت : حسن ناظم وعلى حاكم
ت : حسن بيومى
ت : أحمد درويش
ت : عبد المقصود عبد الكريم
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : أحمد محمود ونورا أمين
ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
ت : مكارم الغمرى
ت : محمد طارق الشرقاوى
ت : محمود السيد على
ت : خالد المعالى
ت : عبد الحميد شبيحة
ت : عبد الرزاق بركات
ت : أحمد فتحى يوسف شتا
ت : ماجدة العنانى
ت : إبراهيم الدسوقي شتا
ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
ت : محمد إبراهيم مبروك
ت : محمد هتاء عبد الفتاح
ت : نادية جمال الدين
ت : عبد الوهاب علوب
ت : فوزية العشماوى
ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
ت : إدوار الخراط
ت : بشير السباعى
ت : أشرف الصباغ
ت : إبراهيم قنديل
ت : إبراهيم فتحى
ت : رشيد بنحو
ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
ت : محمد بنيس
ت : عبد الغفار مكاوى
ت : عبد العزيز شبيل
ت : د. أشرف على دعور
ت : محمد عبد الله الجعيدى

- ١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي
١٠٩- حروب المياه
١١٠- النساء في العالم التامى
١١١- المرأة والجريمة
١١٢- الاحتجاج الهادئ
١١٣- راية التمرد
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع
١١٥- غرفة تخص المرء وحده
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام
١١٨- النهضة النسائية فى مصر
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية
١٢٢- نظام العبودية القديم وبموجب الإنسان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها النولية
١٢٤- الفجر الكاذب
١٢٥- التحليل الموسيقى
١٢٦- فعل القراءة
١٢٧- إرهاب
١٢٨- الأدب المقارن
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة
١٣٠- الشرق يصعد ثانية
١٣١- مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)
١٣٢- ثقافة العولة
١٣٣- الخوف من المرايا
١٣٤- تشريح حضارة
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت
١٣٦- فلاحو الباشا
١٣٧- مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف
١٣٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأندونيس
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة
- مجموعة من النقاد
جون بولوك وعادل درويش
حسنه بيجوم
فرانسييس هيندسون
أرلين علوى ماكليود
سادى پلانت
ول شوينكا
فرجينيا وولف
سينثيا نلسون
ليلى أحمد
بث بارون
أميرة الأزهرى سنيل
ليلى أبو لغد
فاطمة موسى
جوزيف فوجت
نيل الكسندر وفنادولينا
جون جراى
سيدريك ثورپ ديفى
قولفانج إيسر
صفاء فتحى
سوزان باسنيت
ماريا دولورس أسيس جاروته
أندريه جوندرفرانك
مجموعة من المؤلفين
مايك فينرستون
طارق على
بارى ج. كيمب
ت. س. إليوت
كينيث كونو
جوزيف مارى مواريه
إيقلينا تارونى
عاطف فضول
هربرت ميسن
مجموعة من المؤلفين
أ. م. فورستر
ديريك لايدار
كارلو جولونى
- ت : محمود على مكي
ت : هاشم أحمد محمد
ت : منى قطان
ت : ريهام حسين إبراهيم
ت : إكرام يوسف
ت : أحمد حسان
ت : نسيم مجلى
ت : سميرة رمضان
ت : نهاد أحمد سالم
ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
ت . ليس النقاش
ت . بإشراف/ رؤوف عباس
ت : نخبة من المترجمين
ت . محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
ت . منيرة كروان
ت . أنور محمد إبراهيم
ت . أحمد فؤاد بلبع
ت : سمحة الخولى
ت : عبد الوهاب علوب
ت . بشير السباعى
ت : أميرة حسن نويرة
ت . محمد أبو العطا وآخرون
ت . شوقي جلال
ت . لويس بقطر
ت . عبد الوهاب علوب
ت : طلعت الشايب
ت : أحمد محمود
ت : ماهر شفيق فريد
ت : سحر توفيق
ت : كاميليا صبحى
ت : وجيه سمعان عبد المسيح
ت : أسامة إسبر
ت . أمل الجبورى
ت . نعيم عطية
ت : حسن بيومى
ت : عدلى السمرى
ت : سلامة محمد سليمان

- ١٤٥- موت أرتيميو كروث
١٤٦- الورقة الحمراء
١٤٧- خطبة الإدانة الطويلة
١٤٨- القصة القصيرة (النظرية والتقنية)
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأنونيس
١٥٠- التجربة الإغريقية
١٥١- هوية فرنسا مج ٢ ، ج ١
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى
١٥٣- غرام الفراعنة
١٥٤- مدرسة فرانكفورت
١٥٥- الشعر الأمريكي المعاصر
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى
١٥٧- خسرو وشيرين
١٥٨- هوية فرنسا مج ٢ ، ج ٢
١٥٩- الإيدولوجية
١٦٠- آلة الطبيعة
١٦١- من المسرح الإسباني
١٦٢- تاريخ الكنيسة
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)
١٦٥- حكايات التعلب
١٦٦- العلاقات بين المتنبيين والعلمانيين في إسرائيل
١٦٧- في عالم طاغور
١٦٨- دراسات في الأدب والثقافة
١٦٩- إبداعات أدبية
١٧٠- الطريق
١٧١- وضع حد
١٧٢- حجر الشمس
١٧٣- معنى الجمال
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء
١٧٥- التليفزيون في الحياة اليومية
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية
١٧٧- أنطون تشيخوف
١٧٨- مختارات من الشعر اليوناني الحديث
١٧٩- حكايات أيسوب
١٨٠- قصة جاويد
١٨١- النقد الأدبي الأمريكي
١٨٢- العنف والنبوة
١٨٣- جان كوكتو على شاشة السينما
- كارلوس فويتس
ميجيل دي ليبس
تاتكريد نورست
إنريكي أندرسون إمبرت
عاطف فضول
روبرت ج. ليتمان
فرنان برودل
نخبة من الكتاب
فيولين فاتويك
فيل سليتر
نخبة من الشعراء
جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو
النظامى الكونجى
فرنان برودل
ديفيد هوكس
بول إيرليش
اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا
يوحنا الأسوي
جوردين مارشال
جان لاكوتير
أ. ن أفانا سيفا
يشعياهو ليفمان
رابندراناث طاغور
مجموعة من المؤلفين
مجموعة من المبدعين
ميجيل دليبيس
فرانك بيجو
مختارات
واتر ت. ستيس
ابليس كاشمور
لورينزو فيلشس
توم تيتنبرج
هنرى ترويا
نخبة من الشعراء
أيسوب
إسماعيل فصيح
فنسنت ب. ليتش
وب. بيتس
رينيه چيلسون
- ت : أحمد حسان
ت : على عبدالرؤوف اليمبى
ت : عبدالغفار مكاوى
ت : على إبراهيم على منوفى
ت : أسامة إسبر
ت : منيرة كروان
ت : بشير السباعى
ت : محمد محمد الخطابى
ت : فاطمة عبدالله محمود
ت : خليل كلفت
ت : أحمد مرسى
ت : مى التلمسانى
ت : عبدالعزيز بقوش
ت : بشير السباعى
ت : إبراهيم فتحى
ت : حسين بيومى
ت : زيدان عبدالحليم زيدان
ت : صلاح عبدالعزيز محجوب
ت : مجموعة من المترجمين
ت : نبيل سعد
ت : سهير المصادفة
ت : محمد محمود أبو غدير
ت : شكرى محمد عياد
ت : شكرى محمد عياد
ت : شكرى محمد عياد
ت : بسام ياسين رشيد
ت : هدى حسين
ت : محمد محمد الخطابى
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : أحمد محمود
ت : وجيه سمعان عبد المسيح
ت : جلال البنا
ت : حصه إبراهيم المنيف
ت : محمد حمدى إبراهيم
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : سليم عبد الأمير حمدان
ت : محمد يحيى
ت : ياسين طه حافظ
ت : فتحى العشرى

١٨٤- القاهرة... حالة لا تنام	هانز إيندورفر	ت: دسوقي سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت: عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنورد	ت: إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة	بُزْدَجْ علوى	ت: علاء منصور
١٨٨- موت الادب	الفين كرتان	ت: بدر الديب
١٨٩- العمى والبصيرة	بول دى مان	ت: سعيد الغانمى
١٩٠- محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت: محسن سيد فرجاني
١٩١- الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت: مصطفى حجازى السيد
١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بيك ج١	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علاوى
١٩٣- عامل المنجم	بيتز أيزاهامز	ت: محمد عبد الواحد محمد
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى	مجموعة من النقاد	ت: ماهر شفيق فريد
١٩٥- شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت: محمد علاء الدين منصور
١٩٦- المهلة الأخيرة	فالتين راسبوتين	ت: أشرف الصباغ
١٩٧- الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت: جلال السعيد الحفناوى
١٩٨- الاتصال الجماهيرى	ادوين إمزى وآخرون	ت: إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لاندوى	ت: جمال احمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠- ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت: فخرى لبيب
٢٠١- الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت: أحمد الانتصارى
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث ج٤	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣- الشعر والشاعرية	أطاف حسين حالى	ت: جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم	زالمان ستازار	ت: أحمد محمود هويدي
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافالى- سفورزا	ت: أحمد مستجير
٢٠٦- الهيولية تصنع علما جديدا	جيمس جلايك	ت: على يوسف على
٢٠٧- ليل إفريقى	رامون خوتاسنديز	ت: محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨- شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوربان	ت: محمد أحمد صالح
٢٠٩- السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٠- مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١- فردينان دوسوسير	جوناثان كلار	ت: محمود حمدي عبد الغنى
٢١٢- قصص الأمير مرزيان	مرزيان بن رستم بن شروين	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣- مصر منذ قنوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	ت: سيد أحمد على الناصرى
٢١٤- قواعد جديدة للمذهب فى علم الاجتماع	أنتونى جیدنز	ت: محمد محمود محى الدين
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بيك ج٢	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علاوى
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٧- عولة السياسة العالمية	جون بايلس و ستيت سميث	ت: وجيه سمعان عبد المسيح
٢١٨- رايولا	خوليو كورتازان	ت: على إبراهيم على منوفى
٢١٩- بقايا اليوم	كارو ايشجورو	ت: طلعت الشايب
٢٢٠- الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت: على يوسف على
٢٢١- شعرية كفاقى	جريجورى جوزدانيس	ت: رفعت سلام

ت: نسيم مجلى	رونالد جرائى	٢٢٠ - كافكا
ت: السيد محمد نفاذى	بول فيرابنر	٢٢١ - فى مجتمع حر
ت: منى عبدالظاهر إبراهيم السيد	برانكا ماجاس	٢٢٢ - يوغسلافيا
ت: السيد عبدالظاهر السيد	جابريل جارتيا ماركث	٢٢٣ - غريق
ت: طاهر محمد على البربرى	ديفيد هربت لورانس	٢٢٤ - غش المساء وقصائد أخرى
ت: السيد عبدالظاهر عبدالله	موسى مارديا ديف بوركى	٢٢٥ - إسباني فى القرن السابع عشر
ت: ماري تيريز عبدالسيح وخاله حسن	جانيت رواف	٢٢٦ - لجمالية وعلم اجتماع الفن
ت: أمير إبراهيم العمرى	نورمان كيماي	٢٢٧ - مازق البطل الوحيد
ت: مصطفى إبراهيم فهمى	فرانسواز جاكوب	٢٢٨ - عن الذباب والفئران والبشر
ت: جمال أحمد عبدالرحمن	خايمي سالوم بيدال	٢٢٩ - الدرافيل
ت: مصطفى إبراهيم فهمى	توم ستينر	٢٣٠ - ما بعد المعلومات
ت: طلعت الشايب	ارثر هومان	٢٣١ - فكرة الاضمحلال
ت: فؤاد محمد عكود	ج. سبنسر تريمنجهام	٢٣٢ - الإسلام فى السودان
ت: إبراهيم الدسوقي شتا	جلال الدين مولوى روى	٢٣٣ - ديوان شمس التبريزى
ت: أحمد الطيب	ميشيل تود	٢٣٤ - الولاية
ت: عنايات حسين طلعت	روين فيرين	٢٣٥ - مصر أرض الوادى
ت: ياسر محمد جاد الله وعربى مديولى أحمد	الانكتاد	٢٣٦ - العولة والتحرير
ت: نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق	جيلارافر - رايوخ	٢٣٧ - العربى فى الأدب الإسرائيلى
ت: صلاح عبدالعزيز محمود	كامى حافظ	٢٣٨ - الإسلام والغرب وإمكانية الحوار
ت: ابتسام عبدالله سعيد	ج. م كويتز	٢٣٩ - فى انتظار البرابرة
ت: صبرى محمد حسن عبدالنبي	وليام إمبسون	٢٤٠ - سبعة أنماط من الغموض
ت: على عبدالرؤوف البمبى	ليفى بروفنال	٢٤١ - تاريخ إسبانيا الإسلامية ج١

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٦٠٧٠ / ٢٠٠٠

HISTORIA DE ESPAÑA

Levi-Provencal

كثيراً ما أُثير الجدل ، وسيظل يُثار ، عما إذا كان الوجود الإسلامي في إسبانيا قد أفاد تطورها القومي أو ألحق به الضرر ، وعن الحالة التي كان من الممكن أن يكون عليها هذا التطور لولا تدخل الإسلام ، لكن إذا كان التاريخ الفعلي « لما كان » لابد وأن يتأثر ببعض الزمان والمكان اللذين يلفان راصده ، فما بالناس - إذن - بكم الشطحات التي ستصاحب التاريخ الخيالي « لما كان يمكن أن يكون » !! أهلاً ومرحباً بألعاب العبقرية التي يمكن أن تكون موحية أو حتى خصيبة ، لكن على ألا يطلب منا الاشتراك فيها اليوم أو الجلوس على مقاعد قاعات تدرس فيها احتمالات تاريخ العالم منذ كليوباترا .

علينا أن نكتفي بما كان فعلاً . ربما تكون الصدفة (لو كان التاريخ يؤمن بالمصادفات) هي التي جعلت الإسلام يدخل إسبانيا ، أو - على الأصح - أن يدخل كثير من الإسبان في الإسلام الذي ربطت الأندلس بساقيه السحيق (الشرق القديم) صلات طويلة وخصبة .

يتميز الفتح العربي لإسبانيا - من بين كل الفتوحات التي قام بها العرب في نهاية القرن السابع الميلادي وأوائل الثامن بعيداً عن البحر الأحمر والخليج الفارسي - بالسرعة والجرأة والسهولة ، فقد أتيح للمسلمين بموجبه الاستيلاء على أغنى أرض حطموا بها في نهاية مشوارهم تجاه غرب البحر الأبيض المتوسط . كما أن اقتحامهم غير المتوقع لشبه جزيرة أيبيريا - من أعمدة هـ حتى حائط جبال البرانس - قد أثار دهشة وفزع العالم المسيحي الغربي وتحير مؤرخو العصور الوسطى في تحديد الظروف التي هيأت له .